

محمد جادور

مؤسسة المخزن

في تاريخ المغرب



سلسلة أبحاث

مؤسسة
الملك محمد السادس - الدار البيضاء
Fondation
du Roi Abdul-Aziz - Casablanca



محمد جادور

مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب



تندرج الكتب المنشورة ضمن سلسلة أبحاث في إطار برنامج أطلقتها مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء سنة 2008؛ برنامج يقضي بنشر رسائل وأطروحات جامعية لباحثين شباب تتميز بقيمتها العلمية ودقتها الأكاديمية وتتناول بالدرس موضوعات خاصة بالبلاد المغاربية ومحيطها التاريخي والثقافي، وذلك بغض النظر عن جنسيات المؤلفين ولغتهم.

صدر في نفس السلسلة

- الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني / حميد تيتاو، ديسمبر 2009
- فن النقوشات الكتابية في الغرب الإسلامي / الحاج موسى عوني، ديسمبر 2009
- مقارنة سياسية للاستثمارات الأجنبية في المغرب / جواد النوحى، ديسمبر 2009

صورة الغلاف: جزء من لوحة الرسام الفرنسي أوجين دولاكروا
تمثل السلطان مولاي عبد الرحمان (1822-1859) أثناء خروجه من القصر الملكي بمكناس.
اللوحة محفوظة في متحف أوجستنس، تولوز

الإيداع القانوني MO 2491 2011

ردمك 4 - 3604 - 0 - 9954 - 978

© مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود

للدراستات الإسلامية والعلوم الإنسانية

(سلسلة أبحاث) الدار البيضاء، 2011

زنقة المرجان، عين الدياب، أنفا - الدار البيضاء

الهاتف: 05 22 39 10 27/30 (212) - الفاكس: 05 22 39 10 31 (212)

secretariat@fondation.org.ma - <http://www.fondation.org.ma>

الطبعة: منشورات عكاظ - 2011 -

إهداء

إلى والديّ

أتوجه بخالص الشكر وعظيم الامتنان والتقدير إلى كل من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاز ونشر هذه الدراسة التي تعد في الأصل أطروحة نوقشت يوم 06 يوليو 2004 برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط أمام لجنة مكونة من الأساتذة الأفاضل: محمد المنصور، رئيساً؛ وعبد المجيد القدوري، مشرفاً ومقرراً؛ وعبد الحى المودن، وإدريس بنسعيد، وعلي المحمدي، أعضاء. وقد نال بها المؤلف شهادة الدكتوراه في التاريخ بميزة مشرف جداً مع توصية بالنشر.

لائحة الرموز والمختصرات

بالعربية

| | |
|---|--------|
| الخزانة العامة (المكتبة الوطنية للمملكة المغربية) | خ.ع. |
| الخزانة الحسنية | خ.ح. |
| مجموع رسائل سعدية | م.ر.س. |
| نفس المصدر أو نفس المرجع | ن.م. |
| مصدر أو مرجع سبق ذكره | م.س.ذ. |

بالأعجمية

| | |
|-------------|--|
| A.G.S | Archivo General de Simancas |
| Arch. Mar. | Archives marocaines |
| R.G.M | Revue de Géographie du Maroc |
| R.H.M.C | Revue de l'histoire moderne et contemporaine |
| R.O.M.M | Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée |
| M.E.A.H | Miscelánea de Estudios Árabes y Hebraicos |
| B.E.S.M | Bulletin économique et social du Maroc |
| Annales ESC | Economies, Sociétés, Civilisations |
| S.E | Sección Estado |
| Leg. | Legajo |
| S.I.H.M. | Sources inédites de l'histoire du Maroc |
| Fra. | France |
| Ang. | Angleterre |
| Esp. | Espagne |
| Ibid. | Au même endroit |
| op. cit. | Œuvre précédemment citée |

فهرس المحتويات

| | |
|----------|-------|
| 15 | مقدمة |
| 35 | مدخل |

القسم الأول المخزن، المؤسسة وأشكال الحضور

| | |
|-----------|---|
| 49 | الفصل الأول: أحمد المنصور والمولى إسماعيل: القوة والرمز |
| 52 | تمثل شخصيتي السلطانين |
| 53 | الإسطوغرافية المحلية |
| 53 | - النبوءات والكرامات |
| 58 | - الخصال الحميدة |
| 61 | الكتابات الأجنبية |
| 64 | مسار السلطانين |
| 64 | النشأة |
| 66 | التجارب المكتسبة |
| 73 | الفصل الثاني: أشكال الحضور المادي للمخزن |
| 76 | الآلة العسكرية |
| 77 | لماذا الجيش المحترف؟ |
| 81 | نموذجان منفردان أم إعادة إنتاج؟ |
| 89 | القصبات وتموين الحاميات |
| 94 | الفرق العسكرية الأخرى |
| 98 | أعداد الجيش |
| 99 | التحالقات القبلية |
| 102 | الإدارة المخزنية |
| 104 | من الخطاب إلى الممارسة |

| | |
|-----|-------------------------------|
| 104 | - من هم خدام المخزن؟ |
| 109 | - معايير الاختيار |
| 117 | - بين البعدين الديني والسياسي |
| 124 | - تراتبية الإدارة المخزنية |
| 124 | - في العاصمة |
| 128 | - جهويا |
| 130 | - محليا |
| 132 | - بنية المراسلات |
| 136 | - الحماية والأمن |
| 136 | - الحماية من المنظور المخزني |
| 139 | - الحصص |
| 141 | - حملات التحصيل |
| 150 | - بين الزجر والرأفة |
| 154 | - جياة محظوظون |
| 157 | - تأمين السبل |

| | |
|-----|--|
| 163 | الفصل الثالث: أشكال الحضور الرمزي للمخزن |
| 166 | - الاحتفالية والبروتوكول |
| 167 | - الأعياد الدينية |
| 172 | - سلطة الكرم |
| 178 | - الأحداث السياسية والدبلوماسية |
| 183 | - استعمال الحجاب |
| 185 | - تلقي المظالم |
| 187 | - المواكب المخزنية |
| 188 | - المظلة السلطانية |
| 189 | - الأعلام والشارات |
| 190 | - حاشية المواكب |
| 192 | - الأبعاد الرمزية للحركات |
| 198 | - البناء والترميم |
| 199 | - القصور السلطانية |
| 205 | - رمزية القصبات |
| 208 | - القناطر والسدود |
| 209 | - المساجد والأضرحة |

القسم الثاني الممارسات المخزنية: الآليات والأبعاد

| | |
|-----|---|
| 215 | الفصل الأول: المخزن والقوى الدينية |
| 218 | المخزن والعلماء: مواقف ومهام |
| 219 | تراتبية العلماء |
| 221 | مواقف العلماء من الخدمة المخزنية |
| 234 | نازلتا غزو السودان وتمليك الحراطين |
| 241 | جدلية الخطاب الديني والسياسي |
| 246 | صلات السلطانين بعلماء المشرق |
| 249 | المخزن والزوايا: إغراءات وضغوط |
| 250 | بين التحالف والمواجهة |
| 254 | التردد على أبواب السلاطين |
| 258 | النفور من هبات المخزن وطعامه |
| 259 | الدعوة إلى الطاعة وتقديم النصيحة |
| 262 | الوساطة والحرم |
| 266 | الكرم وإعادة التوزيع |
| 269 | أدوار مجتمعية أخرى |
| 272 | ضغوط مخزنية |
| 277 | المخزن والأشراف: امتيازات وحذر |
| 278 | تراتبية الشرفاء |
| 280 | نظرة الشرفاء للمخزن |
| 281 | تحكيم وامتيازات |
| 283 | حذر وتحقيق من الأنساب |
| 289 | صلات السلطانين بشرفاء المشرق |
| 291 | المخزن والجهاد |
| 292 | السياسة الجهادية لأحمد المنصور |
| 296 | السياسة الجهادية للمولى إسماعيل |
| 305 | الفصل الثاني: المشروعية السياسية |
| 309 | أول محاولة لتقنين ولاية العهد |
| 312 | التصدي لأبناء الإخوة |
| 312 | ثورة الناصر |
| 325 | ثورة أحمد بن محرز |
| 326 | أية مقارنة بين الثورتين |

| | |
|-----|---|
| 329 | في مواجهة الأبناء |
| 329 | تمرد محمد الشيخ المامون |
| 335 | تمرد محمد العالم |
| 338 | مقارنة بين التمردين |
| 341 | الفصل الثالث: التدبير الاقتصادي والدبلوماسي |
| 343 | المخزن والاقتصاد |
| 345 | أهمية التجارة مع أوروبا |
| 351 | المصادر التمويلية |
| 358 | المخزن والنخب التجارية |
| 360 | أهل الذمة |
| 365 | النخبة التجارية المحلية |
| 371 | الأسلوب الدبلوماسي |

القسم الثالث منظومة المخزن: المضامين والمعوقات

| | |
|-----|--|
| 383 | الفصل الأول: مفهوم المخزن |
| 385 | المخزن؛ السياق التاريخي للمفهوم |
| 385 | ظروف التبلور |
| 387 | دلالات مفهوم المخزن |
| 391 | هل مثل المخزن دولة؟ |
| 396 | صور المخزن في التمثلات الجمعية |
| 396 | المخزن مجسد في السلطان |
| 398 | الخوف وعدم الثقة |
| 400 | الأمن |
| 401 | الهيبة والجاه |
| 403 | الفصل الثاني: المخزن، أسس الحكم ومكامن الهشاشة |
| 406 | ضوابط ممارسة السلطة |
| 406 | الحذر والسرية |
| 410 | الهيبة والتفرد |
| 412 | المصاهرة |
| 418 | في الضفة الأخرى |

| | |
|-----|---|
| 419 | السلطنة العثمانية |
| 430 | الملكيات المطلقة بأوروبا الغربية |
| 437 | مجلد الثالث: مكامن الهشاشة |
| 439 | أثر الكوارث الطبيعية |
| 445 | معضلة انتقال السلطة |
| 456 | وقع التدبير العسكري |
| 462 | العوز التقني |
| 471 | خاتمة |
| 475 | المصادر والمراجع العربية |
| 495 | المصادر والمراجع الأعجمية |
| 513 | فهرس الأعلام |
| 523 | فهرس الأماكن |

مقدمة

توحي صيغة الموضوع لأول وهلة بغياب جدوى الدراسة المقارنة لتاريخ مؤسسة المخزن في عهدي أحمد المنصور السعدي والمولى إسماعيل العلوي، على اعتبار عدم وجود فوارق كبيرة بين مخزن كل سلطان منهما على حدة، بقدر ما تطفئ عليهما أوجه شبه تستبعد كل مبرر للقيام بمقارنة تاريخية. وهو إichاء أضفى نوعاً من الغموض على فكرة المقارنة، وجعل التساؤل عن الفائدة منها أمراً مشروعاً. غير أنه لما خضنا غمار الموضوع، تمكنا من الوقوف على أهميتها في استخلاص الخصائص المميزة لكل مخزن منهما، وتحديد القواسم المشتركة بينهما، ورصد التباينات التي تميز كل واحد منهما من الآخر.

ومن ثم بدا لنا الأمر وكأنه تارة غير قابل للحجز، وأخرى محكوم بنوع من المخاطرة والمجازفة بالنظر إلى أبعاد الموضوع وامتداداته، بل وتعدّد كنهه؛ مخاطرة لأنه ظهر من الصعب التحكم في بيبليوغرافيا أكثر تنوعاً بالمقارنة مع فترات وحقب أخرى، مما ولد بالتأكيد انطباعات أولية حول كيفية التعامل معها، ومجازفة لما وضعنا في الاعتبار هاجس الحرص على إظهار مكامن الاختلاف بين المخزن في عهد السلطانين، وهاجس عدم التمكن من الكشف عن الفائدة التي يمكن لزوايا الموضوع أن تخفيها.

بيد أن تلك الهواجس، لم تشننا عن محاولة استثمار التقارب بين المسار التاريخي لعصري حكم أحمد المنصور السعدي والمولى إسماعيل العلوي، اللذين اتسما من جهة باستقرار نسبي وما رافقه من تغيرات، وتميزاً من جهة أخرى بأزمات خانقة أعقبت وفاتهما، فكان من الضروري البحث في طبيعة العوامل المفسرة لذلك الاستقرار، والمسؤولية عن تلك الأزمات. ومن هذه الزاوية سبرنا أغوار الموضوع على اعتبار أن «كل بحث تاريخي يجازف وهو يتخذ من الاستمرارية تفسيراً كافياً له»¹.

¹ A. Laroui, *Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912)*, Casablanca, Centre culturel arabe, 1993, p. 17.

هكذا انطلقنا في الموضوع، من منظور يتوخى إبراز المنافع التي تستطيع المقارنة الكشف عنها، بعيدا عن الاكتساب العادي للمعارف، ومن زاوية تسعى إلى الإسهام في إغناء النقاش الدائر حتى الآن حول المخزن²، إيماننا بأن أية سياسات معينة تركز على تصورات الماضي، ومن ثم فمحاولة بناء نظرة أكثر وضوحا لماضي مؤسسة المخزن، يمكن أن تسهم في فهم سياساته، ومن ثم في تشخيص آليات استمراريته وتغيره في آن واحد إلى حدود وقوعه تحت السيطرة الاستعمارية³.

إن العصرين اللذين تمت تغطيتهما زمنيا، يمتد أولهما من الربع الأخير من القرن السادس عشر إلى بداية العقد الأول من القرن الموالي، ويهم ثانيهما الربع الأخير من القرن السابع عشر إلى غاية العقد الثالث من القرن الثامن عشر. وهي حقبة تزامنت في مجملها مع عصر النهضة الأوروبية، وخضوع العالم العربي للنفوذ العثماني، وما رافقهما من إصرار السلطانين على تدعيم هياكل سلطتهما للتكيف مع هذه المستجدات ونتائجها الاقتصادية والعسكرية. فأحمد المنصور تولى الحكم بعد الانتصار الكاسح الذي حققه المغاربة في معركة وادي المخازن، وما واكب ذلك من إجماع حول سلطته. وترجع المولى إسماعيل على عرش البلاد بعد الموت المفاجئ لأخيه المولى الرشيد، مما اضطره إلى المراهنة على تقوية الشوكة لتثبيت ركائز نفوذه.

إذن هناك عدة تقاطعات تقيم الدليل على وجوب القيام بدراسة مقارنة، من بينها: السمات الشخصية للسلطانين وظروف توليها، ونوعية الوسائل التي راهنا عليها في تسيير شؤون البلاد، وطبيعة النتائج التي أسفرت عنها. غير أن هذا لا يعني في شيء أننا سلمنا بتلك التقاطعات، واعتبرنا أن المخزن المنصوري لم يكن مختلفا عن نظيره الإسماعيلي، ضدا على ما يمكن أن يفرضه تباين المرحلتين الزمنيتين، إذ في الوقت الذي يبدو فيه كل من أحمد المنصور والمولى إسماعيل في صورة حاكمين قوين سعيًا إلى إخضاع البلاد وتمهيدها وفق نهج مماثل،

² أضحي موضوع المخزن خلال السنوات الأخيرة بشكل مادة دسمة، ليس فقط للكتابات الأكاديمية ولكن حتى للخطاب الصحفي بالمغرب، راجع على سبيل المثال: أسبوعية الصحافة التي تناولت في العدد 57 لسنة 2002 « لغز المخزن »، ومجلة *Tel Quel* التي خصصت محور عددها السادس والعشرين للسنة نفسها لموضوع: « Makhzen » « mode d'emploi »، وعددها ثلاثة وثمانين ومئة سنة 2005 لقضية: « Makhzen, la révolution secrète »

³ حول دور التاريخ في ربط جسور الماضي بالحاضر، راجع:

P. Nora, *Les Lieux de mémoire*, Paris, Gallimard, Bibliothèque illustrée des histoires, 3 tomes.
M. Halbwachs, *La mémoire collective*, édition critique établie par Gérard Namer, Paris, Albin Michel, 1997, pp. 130-1.

تتألف أساليب حكميهما وتصوراتهما السياسية ليستا متطابقتين.

لقد أنجزت بعض الأعمال حول السلطانين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، انطلاقاً من الكم المتوفر من المصادر. غير أنه وجب إعادة ترتيبها للخروج بخلاصات تركيبية، نظراً لكون بعضها حمل في طياته عدداً من الظلال، على اعتبار أن دارسيها ركزوا على مواضيع مختلفة مست المخزن من زوايا متباينة، واستهدفت بلوغ غايات معينة، ولأن البعض الآخر جند عدته المعرفية للكشف عن المبالغات التي طالت؛ فالكتابات الاستعمارية اشتغلت من منظور حاول فهم الميكانيزمات المحركة لجهاز المخزن، في علاقاتها بضمان مفاتيح السيطرة على الثروات الطبيعية والبشرية للبلاد، من خلال تفكيك مكونات الذاكرة المغربية، والسعي لفهم ماهيتها. لذا انصب الاهتمام على الزاوية والقبيلة والعلماء، والسلطة السلطانية...، وذلك في سياقات مختلفة تراوحت أبعادها بين ما هو سوسيولوجي وإثنوغرافي وإثنولوجي. وجاءت الكتابات الوطنية لتكرس حيزاً هاماً من جهودها، لدحض كل الادعاءات المحكومة بخلفيات التحامل، وبمنطق الانتقاء، عبر التمسك بموقف يحصن الذات، ويعيد الاعتبار لهويتها التاريخية.

لقد حاولنا أن نظهر تلك الظلال بدلاً من أن نتركها مقنعة، طامحين أن تكون المقارنة خير سبيل لذلك، فأثرنا الانطلاق بالأساس مما جاد به الإخباريون من معلومات، وما قدمته الوثائق المخزنية والأجنبية من إفادات. وهو ما فرض علينا في ظل شساعة الموضوع عدداً من الاختيارات والتحديدات، التي تتوخى الاعتدال، وتستبعد ما أمكن التعسف في إصدار الأحكام.

ونتيجة لصفة الخصوصية التي ميزت دوماً مفهوم المخزن، وبسبب التجديد الحاصل في الإسطوغرافية الوطنية، وسعيها إلى الإسهام الضمني المحتمل في إثراء الجدل المحتدم حوله، اخترنا أن ينكب هذا العمل على بنيات المخزن إبان عهدي السلطانين، بفعل وجود مؤشرات تترجم سقف التقارب الحاصل بينهما. وأفضى هذا الاختيار إلى لزوم عدم الاكتفاء بمعالجة الموضوع من زاوية مادية محضة، بقدر ما أوجب وضعه في سياقه الرمزي الذي عادة ما يتم النظر إلى مكوناته، بصفتها حقلاً خارجاً عن اهتمامات البحث التاريخي. لذا حاولنا ولوج مجال السيميائية السياسية من خلال تحليل رموز الحكم ووظائفها، وتحديد الصور التي حملتها في أذهان الخاصة والعامة، وتشخيص دور العوامل الدينية باعتبارها ثوابت معتمدة في تبرير الفعل السياسي. لكن مع حرصنا، جهد المستطاع، على التمسك بالرؤية

التاريخية، لتفادي أي شكل من أشكال المزالق التي دأبت بعض الاتجاهات السوسيولوجية والسياسية على الوقوع فيها، والمتمثلة في إسقاط مفاهيم جاهزة على المخزن المغربي، وتعميمها على هياكله، دونما إحساس بحاجة إلى التثبت من مدى ملاءمتها، والتمحيص في الظروف التاريخية التي أفرزتها. فعلى سبيل المثال، يعد اختزال مؤسسة المخزن، وجعلها مماثلة لمضمون الدولة بمعناه الحديث، أمراً في غاية التسرع نظراً لما ينطوي عليه من مبالغة لا تراعي خصوصياتها، وتقفز على جملة من الحقائق المتجذرة في ثناياها⁴.

ومن هذا المنطلق، ارتأينا تناول تلك المؤسسة في بعدها التاريخي وامتدادها الزمني، بهدف فهم تأثيرات ما هو بنيوي وما هو ظرفي فيها⁵، أي البحث في طياتها عبر محاولة «إفراغ الذهن من المفاهيم الجامعة الأولية» على حد تعبير أحد الدارسين، الذي تساءل عن جدوى ومشروعية فهم «المخزن في ضوء مفهوم الدولة المعاصرة»⁶، «ما دام الحصول على فهم مقبول لظاهرة معقدة، لا يرتبط فقط بمعرفة ماهيتها، ولكن بمعرفة كيف نشأت»⁷.

ليس مرادنا هنا بالأساس تناول المخزن في سياق معزول عن محيطه الجغرافي والتاريخي الذي نما وترعرع فيه، بقدر ما نطمح إلى فهمه في إطار مقارنته، كلما دعت الضرورة لذلك، مع الأنظمة السياسية الأوروبية والعثمانية المعاصرة له، بدل اللجوء إلى إسقاط القيم المستمدة من تجاربها التاريخية عليه. لكن هل أمكن للمنهج المقارن أن يسعفنا في تدليل العقبات التي اعترضت سبيلنا في بلوغ ذلك الطموح؟

⁴ «إن التاريخ يمنحنا الإطار الذي يمكن من خلاله تفسير كل تحول يطول الشروط التي تخضع لها القواعد الاجتماعية» انظر:

R. Bubner, «Norme et Histoire, in Vingt ans de pensée allemande», in *Revue critique*, n° 413, octobre 1981, p. 931.

راجع أيضاً: برتران بادي، الدولتان، السلطة والمجتمع في الغرب وفي بلاد الإسلام، تعريب لطيف فرج، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1992، ص. 126.

⁵ حسب F. de Coulanges «إن التاريخ، وإن كان لا يقدم حلولاً للمسائل المطروحة، فإنه على الأقل يعلمنا فحوصها»

G. Bourdieu & H. Martin, *Les Ecoles historiques*, Paris, Seuil, 1983, p. 153.

«La nature des institutions impliquées dans le processus de changement ne pouvait être convenablement comprise avant qu'elles ne soient passées par le creuset de l'histoire». Voir aussi : E. E. Evans Pritchard, *Les anthropologues face à l'histoire et à la religion*, trad. de l'anglais par A. & C. Rivière, Paris, PUF, 1974, pp. 61-2.

⁶ عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، المفاهيم والأصول، ج. 2، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1992، ص. 249.

⁷ E. Pritchard, *Les anthropologues face à ...*, op. cit., p. 54.

إن التاريخ المقارن لم يشهد تطورا كبيرا إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، لما وفر له البحث المنوGRAفي آنذاك قاعدة للقيام بعملية التركيب، ولما بدأت السوسيولوجيا تحدد مجال عملها في دراسة النماذج والقوانين؛ أي « البنية المقارنة للنظرية التحليلية ». وأسندت للمؤرخين بالمقابل مهمة دراسة الوقائع الخاصة وتهئي مادتها لعلماء الاجتماع بهدف تأويلها، حتى إن دوركايم Durkheim أقر بعدم وجود منهجين؛ ف « كل ما هو صحيح في التاريخ فهو كذلك في السوسيولوجيا »⁸. ونتج عن ذلك حذر المؤرخين الشديد من أن يؤدي استخدامهم للمنهج المقارن إلى انصهارهم في السوسيولوجيا، ومن ثم اختفاء مجال بحثهم⁹. ولم يعرف المنهج المقارن انطلاقة الحقيقية إلا مع مارك بلوك Marc Bloch الذي أبان عن فائدته في استكشاف الأحداث التاريخية وفي تأويلها أيضا، وعن أهميته في ملاحظة التباينات والتباعدات التي تظهر بشكل جلي¹⁰، وأكد كابريل مونو Gabriel Monod على أفضليته خلال مرحلة التركيب في تمييز الأسباب والظروف العامة من الأحداث الخاصة¹¹. غير أن بعض الكتاب رفضوا اعتبار التحليل المقارن منهجا قائما بذاته، منطلقين من أن كل استدلال مبني على المقارنة، وهو ما تم التعليق عليه من قبل كي ساوسون Guy Sawson بالقول: « إن مفهوم الدراسات المقارنة يعني بصفة مغلوطة أن هناك بحثا غير مقارن، وهذا خطأ نظرا لكون كل سلوك أو تصرف، وبالنتيجة كل بحث، يفضي إلى مقارنات »¹². كما أثير من جانب آخر نقاش بين المؤرخين والأنثروبولوجيين حول حدود صلاحية العبارة المشهورة « لا يمكن أن نقارن إلا ما هو قابل للمقارنة »¹³.

⁸ N. Samuel, *La méthode comparative dans l'histoire des sciences sociales*, thèse de 3^e cycle, inédite, Paris V, Sorbonne, 1980, pp. 191, 197-198.

⁹ *Ibid*, 198.

¹⁰ M. Bloch, « Pour une histoire comparée des sociétés européennes », in *Revue de synthèse*, t. 46, décembre, 1928, p. 30.

اعتبر Paul Veyne أن السوسيولوجيا تقتصر إلى موضوع خاص بها وأنها يغلب عليها الطابع الوصفي... راجع: P. Veyne, *Comment on écrit l'histoire*, Paris, Seuil, 1971, pp. 354-71.

¹¹ N. Samuel, *La méthode comparative...*, op. cit., p. 202.

¹² « Thinking without comparison is unthinkable », *Ibid*, p. 423.

¹³ « ...la formule quasi proverbiale « on ne peut comparer que ce qui est comparable » n'implique-t-elle pas un premier choix dans l'esprit de l'observateur qui déclare « comparable » une chose, une situation, une personne tombant sur son regard ? » Marcel Detienne, *Comparer l'incomparable*, Paris, Seuil, 2009, p. 9.

مهما يكن من أمر، فإن المنهج المقارن أضحي اليوم أكثر تداولاً في حقول البحث التاريخي بالنظر إلى مستلزمات التلاقح بين العلوم، وما أسفرت عنه من حتمية الانفتاح على التخصصات المجاورة بهدف توسيع نظرة المؤرخ، وإثراء عدته المنهجية بأدوات قادرة على تمكين موقعه، وتحديد أساليب عمله. واعتبره بول فين P. Veyne شكلاً منفرداً في الكتابة التاريخية، بل منهجاً كشفياً¹⁴.

وإذا كانت المقارنة مبدئياً تستوجب ضرورة وجود أحداث من ذات طبيعة واحدة، ووفرة سياق ملائم لإفراز نقط التقاء تحظى بالقبول، ولبلورة أبعاد قابلة لتشكيل أرضية للانطلاق، فإن رهاناتها، والخطوات المعتمدة في معالجتها تخفي عدة عقبات، أولها: يتعلق باختيار الطريقة الملائمة للمقاربة التاريخية. فقد استبعدنا منذ البداية فكرة تقسيم الدراسة إلى قسمين، أحدهما مخصص لتناول مخزن أحمد المنصور، والآخر لمخزن المولى إسماعيل، على أساس الاحتفاظ بالخلاصات والاستنتاجات للإدلاء بها في النهاية، أو تضمينها في التقييم الإجمالي. بالمقابل تبيننا طريقة عمل قوامها التعامل مع المخزن طيلة فصول هذه الدراسة باعتباره مؤسسة واحدة، سعينا إلى الكشف عن أوجه شبهها وخصوصياتها على عهد كل من السلطانين، دون أن نشعر القارئ، قدر الإمكان، بوجود شرخ ما بينهما على مستوى الأسلوب المتبع في المقارنة.

ثاني عقبة ارتبطت بالمحاذير الواجب التسلح بها لتفادي السقوط في معضلة التعميم، فحتى لو سلمنا بأن من أهداف المقارنة البرهنة على أن الوقائع التاريخية المتماثلة تفرزها الأسباب نفسها، وأن الأحداث التاريخية المختلفة تتولد عن عوامل متباعدة، فإن الوصول إلى نتائج هامة في هذا الباب ليس بالأمر الهين؛ نظراً لأن المظاهر، وإن بدت متشابهة أو مختلفة، لم تولد في رحم أوحدهم أو تولدت عن سياقات مطابقة. مما فرض التحلي بالحيطه في تشخيص معالمها، وفي رصد المحددات الكامنة وراءها، ما دام أن « أي حدث يمتلك خاصيات تميزه وأخرى عامة، وحين نؤوله يجب أن نأخذ الطابعين بعين الاعتبار »¹⁵. بل إن بعض المظاهر

¹⁴ P. Veyne, Comment..., *op. cit.*, p. 169. « Il n'y a rien que l'esprit humain fasse si souvent que des comparaisons... Pour le sens commun, comparer est un verbe bien éveillé. Il accompagne le regard du chaland, il anime l'œil du critique. Discerner, n'est-ce pas immédiatement établir des analogies, entrevoir des raisons, ébaucher des raisonnements ». Marcel Detienne, Comparer l'incomparable... *op. cit.*, p. 9.

¹⁵ E. Pritchard, *Les anthropologues face à ...*, *op. cit.*, p. 53.

تحمل أحيانا في طياتها أوجها للشبه والاختلاف في آن واحد، الشيء الذي يجعل من الصعب تصنيفها، أو الجزم بطبيعتها. ومن هذا المنطلق وجب التأكيد على أن التشابه الظاهر يخفي أحيانا في طياته تباينا ما، وللكشف عنه كان لابد من تمحيص السياقات، وفهم آلياتها حتى تتمكن من معرفة مضامينه، والظروف المتحركة في نسجه.

وفي الوجه الآخر لتلك الحيلة، قمنا بالبحث عن عناصر للمقارنة في بنيات سياسية عثمانية وأوروبية معاصرة، لعلها تساعدنا على فهم الظروف التي تبلورت فيها التنظيمات السياسية والإدارية والعسكرية للسلطة المخزنية، لكن هل تسمح ماهية هذه السلطة دائما بمقاربتها ببنيات أخرى؟ بالإضافة إلى ذلك، فحين يكون هناك إمكان لمقارنة مظهر داخل بنية معينة، فإنه يثير الانتباه إلى أن هناك فوارق بين مظاهر أخرى ربما مهمة، لأن الثوابت التي توظف لتحديد هذه المظاهر تختلف من سلطان لآخر، إن لم نقل من حقبة زمنية لأخرى. فهل كان المخزن المنصوري والمخزن الإسماعيلي ينطلقان من التصورات والمقاييس نفسها لبعض الأحداث التي اعتبرناها متشابهة، وهو ما يفتح الباب أمام فرضيات وتأويلات عدة، مادامت الأفعال المتشابهة يمكن أن تكون لها دلالات متباينة، والعكس صحيح؟

ولتبيد حدة هذه التخوفات راهنا على الإكثار من طرح التساؤلات سعيا إلى الإبقاء على المسافة التي تضمن الاعتدال، وتجنب الأحكام المسبقة ما أمكن، اعتقادا منا بأن التعميم، إذا اتسعت دائرته دون مراعاة لخصوصية الحدث، يصبح غير ذي معنى.

بيد أن هاتين العقبين لا تقللان في شيء من فائدة المنظور المقارن في إعادة تأويل المادة المصدرية، من خلال قراءتها في مسار تطورها الزمني، وما يواكب ذلك من إسهام في فهم البنيات الممثلة للمخزن، والمفاهيم المرتبطة بها. مع حرصنا على الانطلاق من فكرة مؤداها أن حجر الزاوية في كل مقارنة يكمن في وضع الحدود الفاصلة، وأن الاختلافات بين مرحلتين حكم السلطانين، يمكنها أن تتمحي أمام ما يمكن أن يمثل الخطوط الأساسية للمخزن المغربي خلال العصر الحديث، والمنفردة ببعض صفات التابع والانتظام التي من شأنها إنارة السبيل للخروج باستنتاجات أولية¹⁶، قد تجيب عن سؤال أساس هو: أنحن بصدد تناول مؤسسة مخزن خلال مرحلتين زمنية متباينتين، أم أننا نقوم بمعالجة مؤسستين مخزنتين مختلفتين؟

¹⁶ « On recourt à l'analogie pour expliquer le sens ou les causes d'un événement... Lorsque l'événement en question reparait en un autre temps et un autre lieu où la documentation afférente permet d'en comprendre les causes... », P. Veyne, *Comment...*, op. cit., p. 170.

وبما أن الموضوع شاسع، فإن ثالث عقبة اعترضتنا تجسدت في إيجاد المادة التاريخية الكافية لإبراز القواسم المشتركة، والوقوف على مظاهر الاختلاف، إذ إن نصيب السلطانين منها لم يكن متكافئا، إن على مستوى المصادر، أو على صعيد الكتابات الأجنبية التي أنجزت حولهما، فمرحلة حكم المولى إسماعيل في هذا الباب كانت نسبيا أكثر غنى من عهد سلفه أحمد المنصور، سواء على صعيد المصادر المحلية، أو على مستوى المؤلفات التي كتبت باللغات الأوروبية¹⁷، وهو ما جعل من العسير أحيانا إيجاد أجوبة شافية لبعض التساؤلات.

تتوزع المادة المصدرية ذات الصلة بموضوع الدراسة بين صنفين، أحدهما يتمثل في المؤلفات التاريخية التقليدية وكتب التراجم، وثانيهما يتجسد في الوثائق الرسمية الصادرة عن السلطانين ومن يدور في فلكهما، أو الواردة عليهما. ففي ما يتعلق بالصنف الأول، نستحضر كتاب مناهل الصفا لعبد العزيز الفشتالي، الذي خصصه لولي نعمته أحمد المنصور، وتكمن أهمية الكتاب في معايشة صاحبه للأحداث، بل ومشاركته في صياغة البعض منها. وهو ما جعله ينفرد بقصب السبق في التعرف على تفاصيلها، بالنظر إلى المهمة الموكولة إليه بصفته كاتباً للسلطان، والتي فرضت عليه في أحيان شتى التفصيل في جوانب معينة، وإغفال أخرى انطلاقاً مما أملت عليه واجبات السياسة وشروط خدمة الرئاسة. غير أن المؤاخذات المسجلة في حق مؤلفه، مهما اتسعت دائرتها فهي لا تقلل من قيمته الكبيرة في تناول المخزن المنصوري. كما أفرد محمد الإفرائي لهذا المخزن حيزاً هاماً من كتابه *نزهة الخادي*، الذي اتسم بحسن توثيقه وبجراته في التعليق على الأحداث التي نقلها عن سبقوه. وعلى الرغم من تخصيص المجهول السعدي بضع صفحات لعهد أحمد المنصور، فإن أحكامه اعتبرت متجاوزة لسقف الاعتدال، وموسومة بطابع التحامل، نظراً لما وجهه من انتقادات لهذا السلطان¹⁸. لكن التعامل معه أساسي لمقابلة ما دونه بالمصدرين السابقين. وأسهم الأسير أنطونيو دي شالدانيا A. De Saldanha بنصيب وافر في كشف النقاب عن خبايا المخزن السعدي، مستفيداً في ذلك من علاقاته بالعلوج، وبخدام البلاط.

¹⁷ الملاحظ أنه بالإضافة إلى كم الوثائق والمعلومات التي جمعها عبد الرحمن بن زيدان عن السلطان المولى إسماعيل، خصصت له الكتابات الأجنبية، بغض النظر عن طبيعة مضامينها والخلفيات الموجهة لبعضها، حيزاً أكبر مقارنة بسلفه أحمد المنصور، ويمكن أن نستحضر في هذا الصدد أعمال:

D. Maxange, D. Busnot, J. Braitwhaite, J. Windus, G. Mouette, J. de Léon, T. Pellow, Pidou de St. Olon, J. B Estelle...

¹⁸ ليفي برونفسال، مؤرخو الشرفاء، ترجمة عبد القادر الخلاوي، الرباط، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977، ص ص. 95-100.

أما عهد المولى إسماعيل فقد كتب عنه الإفرائي من خلال مؤلف روضة التعريف، الذي يبدو أن اعتبارات معينة تحكمته في ترتيب تقييده، وجعلت محتوياته لا ترقى إلى ما يوحى به عنوانه، ثم الزياني وعبد الكريم بن موسى الريفي اللذان توفقا في تقديم معلومات قيمة عن الجهاز المخزني الإسماعيلي. وأخيرا عبد الرحمن بن زيدان الذي وظف في كتابيه المنزع اللطيف وإتحاف أعلام الناس المصادر السابقة، إضافة إلى حشد هائل من الوثائق الهامة، الأمر الذي جعل منه مصدرا حيويا لا محيد عنه في تناول حكم المولى إسماعيل، شأنه في ذلك شأن الدر المنتخب لابن الحاج.

وفيما يرتبط بالتراجم، تحظى أعمال محمد القادري بمكانة متميزة، نظرا لكم المعلومات الذي توفره عن مواقف العلماء وأهل الصلاح من المخزن، وما يواكب ذلك من إفادات تاريخية عن سياسته، ضمها كتاباه نشر الثاني والقطا الدرر في ثنايها. كما احتضنت بعض كتب الرحلات مادة فريدة لمعالجة المخزن، إذ أورد التسافتي تفاصيل عن طبيعة العلاقات التي جمعت المولى إسماعيل بالزوايا والقبائل المعارضة، وعن الأساليب التي كان يستخدمها حكام الجهات في تدبير شؤونها. وقدم الإنجليزي جون وندوس J. Windus في رحلته إلى مكناس، استطرادات هامة عكست مشاهداته وتعليقاته حول البلاط السلطاني، والجهاز الذي يدور في محيطه. ومن الزاوية نفسها يمكن النظر إلى ما جاء به الأسير جرمان مويط G. Mouette في مسوداته. في حين يمثل مؤلف الاستقصا للناصري ثابتا رئيسا في معالجة الموضوع برمته، نظرا لما انفردت به طريقة كتابته من حس نقدي.

وفي ما يخص الوثائق الرسمية، اعتمدنا على جملة من المخطوطات المحفوظة بالخزانين العامة والحسنية، ومديرية الوثائق الملكية بالرباط، وعلى المكاتبات السلطانية التي نشرها عبد الله كنون وعبد الوهاب بنمنصور. وقد أفادتنا في استكشاف الرسائل المنصورية والإسماعيلية الموجهة إلى أبنائهما وخدامهما، وما حملته في طياتها من تصورات معبرة عن الفلسفة السياسية لحكهما، وعن رؤيتهما للتدبير الإداري والعسكري لشؤون البلاد.

ولتغطية القصور الناتج عن غياب الرائد، والمرتبطة بمظاهر الخراب التي أعقبت وفاة السلطانين، الشيء الذي جعلنا لا ندرك إلا بعض التنف مما تم تداوله من وثائق، كان لزاما علينا البحث في السلسلتين السعدية والعلوية للمصادر الأصيلة لتاريخ المغرب، لعلها تساعدنا على استكمال ما نحن في حاجة إليه من مادة تاريخية تستجيب لتطلعاتنا. بيد أن لجونا إليها لم يشف كل تلك التطلعات بالشكل المطلوب، إذ مكنتنا فقط من سد بعض الثغرات، خاصة

وأن المجموعة الإسبانية توقفت عند أحداث معركة وادي المخازن¹⁹، ونظيرتها الهولندية لم تستثمر دار محفوظات الأقاليم المتحدة بلاهاي²⁰. ومن ثم تساءلنا عن الإسهام الذي يمكن أن يقدمه أرشيف سيمانكاس Simancas بإسبانيا، والأرشيف الوطني الهولندي بلاهاي في دراسة موضوع المخزن.

ويحتضن الأرشيف العام لسيمانكس كما هائلا من الوثائق المرتبطة بتاريخ المغرب، وتحديدًا المرحلة السعدية. وتختلف مستويات هذه الوثائق، فمنها رسائل أصلية جُلها إسبانية المصدر، والنزر القليل منها مغربي، أو موقع بتوقيع عربي، أو مترجم من العربية إلى الإسبانية، ومنها نسخ لرسائل²¹، أو رؤوس أقلام²²، أو فقرات ونسخ لفقرات من رسائل تتضمن أحداثًا مرتبة ترتيبًا زمنيًا²³، أو تلخيصًا لنسخ رسائل متعددة²⁴، أو رواية ونسخة لرواية رسالة²⁵، أو تعليمات²⁶ صادرة في الغالب عن الملك الإسباني، أو عن حكام الجهات، وخاصة دوق دي مدينا سيدونيا El duque de Medina Sidonia. ونتج عن تباين مستويات هذه الوثائق على صعيد الشكل والمضمون، وتبعًا للسياق الذي أفرزها، ضرورة تبني الحذر في التعامل معها، من خلال مراعاة الفروق بين الأصلي والمنسوخ، وبين الرسمي وغير الرسمي، وبين الموضوعي وغير الموضوعي. أما عن مصادرها، فهناك شق من المراسلات تم تبادل داخل إسبانيا، وشق آخر بين إسبانيا والمغرب.

وتهم الحمولة الموضوعاتية للوثائق الإسبانية التي أتاحت لنا فرصة الاشتغال عليها ثورة الناصر، وافتداء أسرى معركة وادي المخازن، والتجارة، وقضية سجن التاجر بالتاسار بولو

¹⁹ بعد أن تعذر على هنري دو كاستري (H. de Castries) استثمار وثائق الأرشيفات الإسبانية لإنجاز جزء ثان عن تاريخ المغرب، قامت شانتال دو لافيرون Ch. de La Veronne بجمعها ما بين 1952 و 1954 من مائة، والمكتبة الوطنية لمدير، وأركون، وبرشلونة، وعلى الخصوص من سيمانكس. لكنها لم تتناول عهد أحمد المنصور، راجع: S.I.H.M., 1^{ère} série, Esp., t. II.

²⁰ S.I.H.M., 1^{ère} série, Pays-Bas, t. IV, et t. VI.

²¹ En Carta, Copia de Carta.

²² Puntos de despachos del ..., Puntos de Carta.

²³ Copia de Capitulo ..., En Capitulo de Carta.

²⁴ Sumario de las copias de Cartas.

²⁵ Relación de una Carta, Relación de las Copias de Cartas.

²⁶ Instrucción.

Baltazar Polo، وتقارير عن بعض المدن المغربية، وعن الإمكانات العسكرية لأحمد المنصور وطبيعة تحركاته، والصراعات التي اندلعت بعد وفاته.

وعلى الرغم من الصعوبات التي يطرحها استغلال هذا الأرشيف، والمتمثلة أساسا في تكدر محتوياته على شكل رزم غير خاضعة لترتيب معين - تتطلب من الباحث مجهودا كبيرا لانتقاء ما يتماشى منها مع موضوعه، داخل ركام ضخمة من الوثائق مكتوبة أحيانا بخطوط يستعصي أمر تفكيكها، ومتضمنة لأحداث لها علاقة بالتاريخ الإسباني العام - فإن تجاوزها بهدف توظيف مضامينه يعد مسألة في غاية الأهمية.

أما وثائق الأرشيف الهولندي التي تمكنا من الاطلاع عليها، فتندرج في سلسلة الأقاليم المتحدة، وتتناول مرحلة ما بعد وفاة أحمد المنصور والتطاحنات بين أبنائه. كما تضم عددا هاما من الرسائل التي تبادلها المولى إسماعيل وحاكمه على الشمال علي بن عبد الله الحمامي الريفي مع هولندا، وتمحورت حول قضايا التجارة، والجهاد بثغر سبتة، واقتداء الأسرى، واقتناء العدة ومستلزمات بناء السفن وغير ذلك. وكل هذه الوثائق مدونة بلغة عربية باستثناء تلك الصادرة عن الذميين من أفراد عائلة بلاش Pallache الذين دأبوا على استعمال اللغة الفرنسية في مراسلاتهم.

وقد أسهم استخدام الوثائق المستمدة من هذين الأرشيفين في توفير معلومات عن الأوضاع بالمغرب، ساعدتنا على تجاوز الفقر والهزال اللذين اتسمت بهما المصادر المغربية في بعض الجوانب، كما هو الحال مثلا بالنسبة لثورة الناصر، والأسس التي انبنت عليها روابط المخزن بالإسبان والهولنديين، خاصة وأن الرؤية التي حملتها رسائل الأجانب وتقاريرهم، ركزت دائما على تفاصيل إما لا يوليها عادة الإخباريون أية عناية، أو يعتبرونها من باب المسلمات التي لا حاجة للوقوف عندها، أو لا يسعفهم واقع الحال في الإفصاح عنها. مما جعل هذه الوثائق مكملة لنظيرتها المحلية، بغض النظر عن المرجعية الثقافية التي صيغت في ظلها، إذ تناولت المخطوطات الإسبانية المغرب من خلال القضايا التي لها علاقة بخدمة مصالح المملكة الإسبانية فيه.

وبغض النظر عن ذلك، فهي لا تخلو من العديد من التقاطعات التي تجمعها بما أوردته الكتابات المحلية، على أساس أن تتم المقابلة بينهما، وذلك ما حاولنا القيام به بغية تطعيم حصيلة المصادر المغربية ودعمها وتأكيدا. وجعلنا نستشف أنه في الوقت الذي حرصت

فيه الكتابات التقليدية المحلية على توظيف إنتاجاتها لتجلية كل التدابير التي استهدفت إظهار عظمة السلطان - الشيء الذي أضفى على طريقة تناولها نوعا من النمطية - نجد الوثائق الأجنبية لا تروم تقديم صورة واحدة، وإنما عدة صور عن المغرب تترجم أبعادا مختلفة ومتداخلة أحيانا²⁷.

وعلى الرغم من تنوع الرصيد المصدري الذي راهنا على استثماره في هذه الدراسة، فإن ذلك لا يعني في شيء أنه مكنا من الإحاطة بكل حيثياتها، وتتبع جل تدقيقاتها، بل ظل أمر مقارنة بعض الأفكار معلقا ورهينا بما قد تكشف عنه الأيام من مستجدات. فالمصادر المحلية على سبيل المثال، لم تسعفنا في تشخيص تفاصيل عن ظروف عيش الأطر المخزنية، ونوعية ممارساتها على الصعيدين الجهوي والمحلي، بل اقتصرت على تناول أخبارها في سياق ما أملتته التدابير السلطانية عليها، وهو ما جعلنا نفتقر إلى تصوراتها لمفهوم الحكم، وحال بيننا وبين « الانطلاق في التحليل من القاعدة إلى القمة... لأننا لا نتوفر إلا على وجهة نظر السلطة المركزية »، كما أثبت ذلك عبد الله العروي²⁸.

ولما كانت عدة دراسات عاجلت المخزن في سياقات مختلفة، فإن مجالات عملها اتخذت بالخصوص من القرن التاسع عشر منطلقا لها، إذ ركزت المدرسة الكولونيالية باتجاهاتها المختلفة جهودها على محاولة فهم بنية المخزن المغربي والآليات المتحركة فيها. وهكذا خلص إدمون دوتي E. Douthe، إلى أن المخزن هو مؤسسة مفروضة على المجتمع²⁹. واعتبره غيار H. Gaillard « المركز الذي يتجمع حوله الجهاز المكون من الغزاة، والذي يستمد قوته الوحيدة من وحدته وتجانسه وتنظيمه، على حساب التشتت والفوضى السائدين بالبلاد، اللذين يستثمران من قبله في جلب أكبر الفوائد الممكنة »³⁰. بل ذهب إلى أنه منذ عهد

²⁷ حول الوثائق المغربية والأجنبية، راجع: عبد المجيد القدوري، « الوثائق المغربية، الوثائق الأجنبية: تكامل واختلاف »، ضمن ندوة المغرب وهولندا، الرباط، منشورات كلية الآداب، سلسلة ندوات مناظرات رقم 8، 1988، ص ص. 32-40.

²⁸ A. Laroui, *Les origines...*, op. cit., pp. 69-70.

²⁹ E. Douthe, *Le Sultanat marocain*, A. Davy, Paris, 1909, pp. 8-9.

³⁰ H. Gaillard, « Le makhzen, étendue et limites de son pouvoir », in *Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du nord*, 1909, pp. 348-9.

الادارة تمت بداية تشكيله طبقة ذات امتيازات، تمت في وسط الدولة وتكفلت بحكم الطبقات الأخرى³¹.

وسار ميشو بيلير Michaux-Bellaire على النهج نفسه من خلال مقالاته المتعددة التي مست جوانب مختلفة من مكونات المجتمع المغربي في علاقاتها بجهاز المخزن³². ولم يذكر روبر مونطاني R. Montagne، وسعا في التأكيد على وجود انفصام بين نظام مخزني تقليدي سعى إلى الهيمنة، وبين مؤسسات اجتماعية ودينية، همها الوحيد الدفاع عن تنظيماتها وأعرافها الخاصة³³. وبالمقابل حاول رينيي Reynier أن يقدم تعريفا لمفهوم المخزن، وجردا تاريخيا لمكوناته منذ العهد السعدي³⁴.

وإذا كانت هذه النماذج وغيرها تغنيانا عن اجترار الخلفيات الموجهة لها، فإن ما نود شد الانتباه إليه، هو أنها انطلقت من كون « غياب بعض المؤسسات دليل على نقص، وأن وجودها علامة نضج، فالمجتمعات التي لا توجد بها دولة، أو توجد إنما على نحو مغاير لـ « نموذج » الدولة القائم في المجتمعات - المرجع، لا تعد مجتمعات. بمعنى الكلمة »³⁵.

والأكيد أن فترة ما بعد الاستقلال تخللتها اهتمامات متعددة بموضوع المخزن، نظرا لما يثيره البحث في ماهيته من إغراء لم يجذب إليه المختصين في التاريخ فحسب، وإنما استقطب أيضا باحثين من حقول أخرى. واتخذت هذه الاهتمامات إما شكل دراسات أو مقالات، ويمكن استحضار أعمال عبد الله العروي، وجرمان عياش، ومحمد حجي، الذين كرسوا كتاباتهم لمحور أساس قوامه التعامل مع المخزن باعتباره سلطة غير مفصولة عن المجتمع.

³¹ Ibid, p. 349.

³² Edouard Michaux-Bellaire, « L'administration au Maroc », in *Bulletin de la société de géographie d'Alger*, 1909, pp. 401-37.

Du même auteur, « L'organisme marocain », in *Revue du monde musulman*, n° 9, 1909, pp. 1-41.

³³ R. Montagne, *Les Berbères et le makhzen dans le sud du Maroc : essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires, groupe chleuh*, Alcan, Paris, 1930.

³⁴ A. Reynier, *L'ancien maghzen, 1550-1912 : conférence donnée par M. le Contrôleur civil Reynier [pour] la Direction générale des affaires indigènes*, Rabat, Publications de la Résidence générale de France au Maroc, 1930.

³⁵ سالم يفوت، حفريات الاستشراق، في نقد العقل الإستشراقي، بيروت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1989، ص ص. 79-80. ولزيد من التفاصيل حول الكتابات الكولونيالية يمكن الرجوع إلى: إبراهيم بوطالب، « البحث الكولونيالي حول المجتمع المغربي في الفترة الاستعمارية: حصيلة وتقييم »، ضمن البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقييم، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1989، ص ص. 107-173.

ثم دراسة مصطفى الشابي حول النخبة المخزنية في القرن التاسع عشر، وإبراهيم حركات حول السياسة والمجتمع في العصر السعدي، التي حاول من خلالها تحديد الهياكل السياسية للمخزن السعدي³⁶. كما خصص عبد المجيد القدوري في دراسته لمسألة التجاوز حيزاً هاماً للأسباب التي أعاقَت السياسات التحديثية للمخزن المغربي منذ العهد السعدي إلى نهاية عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

وتناولت بعض المنوغرافيات المخزن في سياق تحليلاتها، إذ أفرد أحمد التوفيق القسم الرابع من عمله حول قبيلة إينولتان، إلى علاقة هذه القبيلة بـممثلي السلطان. وتوقف محمد مزين عند الروابط التي جمعت فاس وباديتها بالسلطة السعدية. وناقش عبد الرحمن المودن مرتكزات السياسة المخزنية بمنطقة إيناون خلال القرن التاسع عشر³⁷.

وبعد مقالات متعددة لمرسديس غارسيا أرينال García-Arenal Mercedes حول الدولة السعدية، تناولت في كتاب صدر لها مؤخراً بداية المغرب الحديث تحت حكم أحمد المنصور السعدي، وصدر قبلها بستين كتاب مماثل ألفه ريتشارد سميث Richard L. Smith³⁸.

وخارج حقل التاريخ تصدى محمد الحبابي لتحديد معالم الهياكل المخزنية المركزية خلال بداية القرن العشرين. وسعى بول باسكون P. Pascon في مؤلفه حول حوز مراكش إلى معالجة نوعية العلاقات التي ربطت المخزن بالبنيات الاجتماعية وخاصة بمؤسسات الزوايا³⁹.

³⁶ A. Laroui, *Histoire du Maghreb, un essai de synthèse*, Paris 1970 ; G. Ayache, *Etudes d'histoire marocaine*, Rabat, 1979 ; G. Ayache, « La fonction d'arbitrage du makhzen », in *Recherches récentes sur le Maroc moderne : actes [du séminaire] tenu du 13 au 15 juillet 1977 à Durham*, Rabat, B.E.S.M., 1977.

مصطفى الشابي، النخبة المخزنية في مغرب القرن 19، الرباط، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، 1995.
إبراهيم حركات، السياسة والمجتمع في العصر السعدي، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1987.

³⁷ عبد الرحمان المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار، إيناون والمخزن، بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، الرباط، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1995.

³⁸ M. García-Arenal, *Ahmad al-Mansur, The Beginnings of Modern Morocco*, Oneworld Publications United Kingdom, 2008.

R. L. Smith, *Ahmad Al-Mansur: Islamic Visionary*, Library of World Biography Series, Longman Publishers, 2006.

M. Garcia-Arenal, « Pouvoir sacré et mahdisme : Ahmad Al-Mansour Al-Dhahabi », in *Al-Qantara : revista de estudios árabes*, vol. 17, fasc. 2, 1996, pp. 17-453.

³⁹ M. Lahbabi, *Le gouvernement marocain à l'aube du XX^e siècle*, Casablanca, Editions maghrébines, 2^e éd., 1975 ;

P. Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, Rabat-Tanger, Éditions marocaines et internationales, 1977, 2 vols.

وانجزت رشيدة شريفي دراسة تحت عنوان المخزن السياسي بين الأمس واليوم، اعتبرته فيها « أسلوب عمل وحضور، وأسلوب حكم خاص، يتدخل حين تتعطل إيواليات الدولة »⁴⁰.
 بينما حاول عبد اللطيف أكنوش إثارة موضوع المخزن في سياق تناوله لمراحل تطور التاريخ السياسي العام للمغرب⁴¹.

وتدل النماذج الأخيرة على مدى الاهتمام الذي حظي به المخزن من قبل الاتجاهات السوسيولوجية والسياسية، التي تبنت في معالجة الموضوع طرائق مختلفة استهدفت بلوغ غايات تتباين عما يطمح إليه المؤرخ. وهو ما عبر عنه محمد شقير، في معرض محاولته البحث عن ماهية الدولة في المغرب بالقول: « إن منطق الباحث السياسي، يختلف جوهريا عن منطق المؤرخ السياسي؛ فهدف الأول هو تحديد معالم ظاهرة سياسية، في حين يبحث الثاني عن صياغة وثيقة تاريخية »⁴².

وأُسفرت تلك الطرائق عن وقوع أصحابها أحيانا في بعض الانفلاتات التي جردت استنتاجاتهم من أي منطق تاريخي، من قبيل اعتبار أن كلمة المخزن لم تستعمل رسميا إلا في القرن التاسع عشر، كما تشهد بذلك الأرشيفات الوطنية⁴³، وأن المولى إسماعيل رفض أي احتجاج ولو رمزي من قبل العلماء المتشددين⁴⁴. على الرغم من أن كلمة المخزن استخدمت في الظواهر والرسائل السلطانية قبل ذلك بقرون، وأن جرأة الحسن اليوسي، وصرامة خطابه، تقم الدليل على نوعية المعارضة التي واجهت هذا السلطان العلوي وقبل بها.

ويعزى هذا التسرع في الأحكام، إما إلى تغييب البعد التاريخي، أو إلى سوء توظيفه من منطلق أن « طريق المؤرخ وطريق الاجتماعي، كلاهما ينطلق حتما من مفاهيم عامة... لكن الأول يميل إلى التعيين والتخصيص، في حين أن الثاني يتجه نحو التعميم، الدولة الفرعونية

⁴⁰ R. Cherifi, *Le makhzen politique au Maroc, hier et aujourd'hui*, Casablanca, Afrique-Orient, 1988, p. 14.

⁴¹ A. Agnouché, *Histoire politique du Maroc : pouvoir, légitimités et institutions*, Casablanca, Afrique Orient, 1987.

انظر أيضا: رشيد بكاج، القبيلة، الزاوية، المخزن، د. د. ع. في السوسيولوجيا مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 1994-1995.

⁴² محمد شقير، تطور الدولة في المغرب، إشكالية التكوين والتمركز والهيمنة من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن العشرين، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، 2002، ص. 123.

⁴³ R. Chérifi, *Le makhzen politique...*, op. cit., p. 17.

⁴⁴ A. Agnouché, *Histoire politique du Maroc...*, op. cit., p. 235.

تزداد مع تقدم بحث المؤرخ فرعونية، ومع تقدم بحث الاجتماعي دولوية، أي تزداد تعميما وتجريدا، يستعمل المؤرخ المفهوم الجامع وهمه الدائم تقليص عموميته حتى عندما يكتب في التاريخ المقارن»⁴⁵. وهو ما عبر عنه الدارس نفسه في موضع آخر بالقول، «إن علماء السياسة يتعاملون مع النظام المغربي في القرن التاسع عشر كمعطى ثابت، ولد تبعاً لضرورات جغرافية وأنثروبولوجية واقتصادية»⁴⁶، الشيء الذي ينطبق على كتابات غلنر Gellner رائدة التيار الانقسامى بالمغرب، وقد رد عليها عبد الله حمودي⁴⁷.

وإذا كان جزء من هذه الدراسات الوطنية التي تنسب إلى الحقل السياسي والسوسيولوجي، قد أقر بأن إيجاد إطار نظري للتفكير في مفهوم الدولة بالمغرب، أو حتى اتخاذه محورا للبحث، يعد أمرا من السابق لأوانه⁴⁸، فإن معظم تحاليلها ظلت محكومة عن وعي أو عن غير وعي بانشغالين أساسين: هل مثل المخزن دولة بالمعنى الحديث؟ وكيف يمكن تشخيص أسلوب سلطة مرتبط بالشرف، ما دام المخزن اقترن حكمه منذ القرن السادس عشر بهذه الصفة وما انطوت عليه من خصوصيات؟ ويجد هذان الانشغالان تبريرهما في ما يثيره موضوع المخزن من جاذبية مستمدة من رمزيته السياسية والدينية، والتي لا يجب مع ذلك أن تعفي الباحثين في كنهه من وضعه في سياقه التاريخي الذي له وحده القدرة على كشف الجوانب التي تبقى عصية على فهم بنياته.

بالاعتماد على المصادر والإنتاج التاريخيين للفقود الأخيرة، وبالانفتاح على الدراسات التي لا تنتمي لحقل التاريخ، يمكن التأكيد على راهنية موضوع المخزن، وعلى تشعب الاستفهامات التي تطول ماهيته، وهو أمر يحفز أكثر على المساهمة في رهانات النقاش الحالي، من خلال محاولة الانطلاق من تحديد طبيعة بنية المخزن المنصوري والمخزن الإسماعيلي، أي من أوجه الشبه والاختلاف بينهما، مما سيقودنا إلى التساؤل في النهاية عن إمكان تحديد هوية هذه المؤسسة.

⁴⁵ عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، م.س.ذ، ص. 246.

⁴⁶ A. Laroui, *Les origines...*, op. cit., p. 69.

⁴⁷ عبد الله حمودي، «الانقسامية، التراتب الاجتماعي، السلطة السياسية والولاية، تأملات حول مقولات غلنر»، ترجمة محمد البزاز والتمسماني خلوق، مجلة دار النبأ، عدد 5، 1985. وللمؤلف نفسه، الشيخ والمريد، ترجمة عبد الحميد جحفة، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 2000.

⁴⁸ راجع على سبيل المثال:

R. Chérifi, *Le makhzen politique...*, op. cit., p. 24.

يطمح هذا العمل إذن إلى معالجة مسألة تطور المخزن باعتباره جهازاً من منظور مقارن، ومسألة العلاقات بينه وبين السكان، بمعنى محاولة البحث عن مظاهر الاستمرارية والقطعية في ركائزه وممارساته، عن الثوابت والتحويلات في بنياته. فإلى أي حد تمكنا المقارنة من رصد المكونات البنيوية للجهاز المخزني وتطورها في الزمن، ومن ملامسة التقاطعات التي جمعت بين الجهازين؟ أي ما هي الخيارات الممكنة لبناء نسق يربط بين التجريبتين؟ وما مدى استفادة المخزن على عهدي أحمد المنصور والمولى إسماعيل من تراكم التجارب على المستويات السياسية والعسكرية والإدارية والاقتصادية؟ وما مدى ارتباط سياسته بالظروف أكثر من ارتباطها بإيجاد حلول هيكلية للمشاكل المطروحة، بمعنى آخر أكانت الأوضاع السياسية مرتبطة بنظام معين، أم كانت رهينة بالإمكانات السياسية والعسكرية المتوفرة لدى السلطان وكيفية استغلالها؟ أي إلى أي حد تمكن المخزن في عهد السلطانين من منح البلاد مؤسسات قارة وقادرة على تجاوز الأزمات التي أعقبت وفاتهما، أم أن حكميهما بنيا خصيصاً على شخصيتهما؟

لا ندعي أننا قدمنا إجابات حاسمة لكل هذه الاستفسارات، أو أننا أحطنا بها تمام الإحاطة، بقدر ما حاولنا من خلالها الإسهام في فهم موضوع شائك، ندرك كل الإدراك الأهمية التي حظي ولا يزال يحظى بها من قبل تخصصات معرفية مختلفة تناولته من زوايا اهتماماتها. لذلك سعينا إلى تفكيك بنية المخزن على امتداد حكمي سلطانين قوين، إيماناً منا بأن إخضاع تجريبتيهما المتميزتين إلى المنهج المقارن سيساعد على تحديد العوامل المتغيرة والثابتة، وعلى استخراج ما هو أساس وثابت انطلاقاً من قراءة تتخذ من المحددات التاريخية مرجعية لها، ومن الوثائق والمصادر المعاصرة للمرحلة منطلقاً لها، وتتوخى عدم الخروج بأحكام قطعية، وإن كانت بعض الاستنتاجات التي تخلصنا منها قد توحي بعكس ذلك، فعلى القارئ أن يستحضر طبيعة الموضوع التي تجعل من الصعب سبر أغواره بتجرد تام. ومع ذلك فليلاحظ أننا اقتصرنا طيلة أشواط هذه الدراسة على التمسك بجملة من المحاذير، من قبيل الحرص على استخدام مصطلح المخزن بدلاً من نعت الدولة، والاستحضار المستمر للتساؤلات التي اعتمدها مرتكزاً من شأنه تبديد الغموض الذي مس بعض الجوانب، أو على الأقل المشاركة في فتح آفاق النقاش حولها. فما هي الخطوات التي اتبناها في تناول الموضوع؟

بما أن نعتي الدولة والسلطة يوظفان في الخطاب العادي للدلالة على مؤسسة المخزن، فقد استهللنا هذا العمل بمدخل خصصناه للمقاربات النظرية المتعلقة بهذه المفاهيم باعتبارها

نقطة الانطلاق التي يمكن في ضوئها تمحيص إشكالية المماثلة بينها، وسر أغوارها، على امتداد خلاصات هذه الدراسة. ثم بدأنا بالتطرق لهذه المنظومة وأشكال حضورها، وهو ما مثل محور القسم الأول الذي وزعناه على ثلاثة فصول، خصصنا أولهما لمقاربة شخصيتي السلطانين أحمد المنصور والمولى إسماعيل، مستهدفين من جهة كشف النقاب عن أسرار قوتيهما، وما أفرزته من خطاب إسطوغرافي جمع بين الأسطورة والواقع، ومن جهة أخرى الإلمام بظروف نشأتهما، وبالتجارب التي اكتسبها قبل توليهما دفة الحكم.

وأفردنا الثاني لأشكال الحضور المادي للمخزن، إذ وقفنا عند دواعي تبني السلطانين للآتين العسكريتين المحترفتين، وتساءلنا عما إذا مثلتا نموذجين منفردين أم شكلتا مجرد إعادة إنتاج فقط، وبحثنا عن مدى حضور البعد الاستراتيجي في سياستيهما العسكريتين، وعن أسباب احتفاظهما بالجيش القبلية. ثم انتقلنا إلى مقارنة الإدارة المخزنية من خلال محاولة فهم مكونات بنياتها على المستويات المركزية والجهوية والمحلية. وسعينا إلى تتبع الصور التي حملتها في خطاب المخزن وممارساته، عبر تحديد أصول خدامه وانتماءاتهم الجغرافية والأسرية، وهو الأمر الذي قادنا إلى تشخيص الأولويات التي تحكمت في معايير انتقائهم، والخلفيات الموجهة لها، انطلاقاً من محتويات الظواهر والرسائل الرسمية، وإلى تحديد الألقاب الإدارية الصادرة عن السلطانين. لنمر إلى وظائف الإدارة التي عمدنا فيها إلى التمييز بين الجباية من المنظور المخزني، والأساليب التي استعملت في تحصيلها، باعتبارها مصدراً لتقوية الهياكل السلطانية، وإثبات حضورها في المجال، وبين التدابير الأمنية التي تم اتخاذها لإنعاش الحياة الاقتصادية، وضمان أمن السكان. وعالجنا في الفصل الثالث الحضور الرمزي للمخزن ومدى إسهامه في ترسيخ مشروعية السلطانين؛ فدرسنا الطقوس الاحتفالية إبان الأعياد الدينية وما واكبها من كرم، وخلال مراسيم البيعة واستقبال المبعوثين الأجانب أو الرعايا. وتطرقنا إلى الأنساق التنظيمية التي روعيت في المواكب المخزنية، والحمولات الرمزية التي حرصت على إظهارها، كلما عقدت العزم على اختراق المجال، إما خلال المناسبات الرسمية، أو في إطار الحركات، كتعبير عن منظومة ثقافية مستمدة من المرجعيتين الدينية والسياسية.

وأنهينا هذا القسم بتناول الحضور الرمزي الثابت والمتجسد في البناء والترميم، وتوخينا إبراز مظاهر الاستمرارية في سياسات السلطانين في هذا المجال، ونوعية المضامين التي

اختزلها المعمار كوسيلة من وسائل التأثير، التي تمت المراهنة عليها لإظهار العظمة، ولضرب المخيلات.

وانكب القسم الثاني على تتبع آليات الممارسات المخزنية وأبعادها في المجالات الدينية والسياسية والاقتصادية والدبلوماسية، فناقشنا في فصله الأول طبيعة العلاقات التي ربطت المخزن بالقوى الدينية في سياق الجدل الذي احتدم حول كيفية التوفيق بين الشريعة نظرياً وممارسة، أي طبيعة النظرة التي نظر بها الطرفان إلى الصلات بين الديني والسياسي، إذ تساءلنا عن الأدوار والمهام التي تكفل بها العلماء، وعن الأسباب الكامنة وراء عزوف جلهم عن الدخول في خدمة المخزن، وعن الوسائل التي استخدمها المخزن لاستقطابهم، أو للضغط عليهم، وعن مواقفهم من نازلتي فتح السودان وتمليك الحراطين. وانتقلنا إلى المقارنة بين سياسات السلطانين تجاه الروايا، التي تراوحت بين الإغراءات والضغط، وحاولنا فهم الآليات المفسرة لها. ثم أنهينا الفصل بتحديد الصور التي حملها المخزن في أذهان هؤلاء، والتدابير التي اتخذها السلطانان تجاههم.

ووقف الفصل الثاني عند العوامل التي تحكمت في صيغ انتقال السلطة، وخاصة ما تعلق بمعضلة المشروعات التي أُلقت بثقلها على حكم كل من أحمد المنصور والمولى إسماعيل.

أما الفصل الثالث، فطمحنا فيه إلى مناقشة مظاهر تحكم المخزن في البنيات الاقتصادية، ومدى تمكن سياسات السلطانين في هذا الصدد، من الإفادة من تجارب بعضهما البعض. كما حاولنا من خلاله تأطير الآليات التي مورست من خلالها الدبلوماسية المخزنية.

في القسم الثالث، بحثنا عن مضامين مفهوم المخزن وأبعاده من خلال عهدي حكم السلطانين، فبعد أن أفردنا الفصل الأول لمسألة السياق التاريخي الذي تبلورت فيه مؤسسة المخزن، ومدى تجسيدها للدولة، ووقفنا على ما حملته التمثلات الجمعية عنها انطلاقاً من الأوصاف التي خلفتها الكتابات الإخبارية، ختمنا بفصل خصصناه لمضامين المخزن وكنهه اعتماداً على أسس الحكم لدى السلطانين، وللمقاربة بينه وبين المسار الذي اتخذته مؤسسات السلطنة العثمانية والملوكيات المطلقة في أوروبا. لنخلص في النهاية إلى إبراز مكانم الهاشاشة التي اعترت السلطة السلطانية على جميع المستويات، وشكلت كابحاً من كوابح إفادة الخلف من السلف، وعائقاً أمام ضمان استمرارية المركزة كما توخاها السلاطين الأقوياء.

مدخل

تواجهنا في الكتابة التاريخية إشكالية المقارنة المتعلقة بحقل المفاهيم، والتي تعزى بدون شك إلى كونها تختزن قيمة رمزية، تجعلها قابلة للتأويل حسب أصلها واستعمالاتها، مما يفسح المجال بشكل كبير أمام إسقاط معان متعددة على المفهوم الواحد. وبالرغم من ذلك، فإن مقارنة الاختلافات بين المفاهيم أو أبعادها، أمر أضحى اليوم أكثر خصوبة من المقابلة البسيطة المرتكزة على ترجمة الاصطلاحات أو المرادفات. لكن بداية يجب التسليم بأن هناك حدوداً تشكل قاعدة لأية مقارنة، لا ينبغي تجاوزها¹.

فالحديث عن التسميات التي تتعلق بنظام سياسي ما، هو حديث عن مؤسسة تخفي نسق أفكار، وتتجسد في تنظيم معين، وتنطوي تبعاً لذلك على وجهتين: إحداهما مادية والأخرى رمزية، إذ لا توجد مؤسسة بدون قوانين وبرنامج تشتغل على أساسهما². لذا فإن أي تناول للمؤسسة المخزن، لا يمكن أن يتم بمعزل عن مساءلة المفاهيم، التي توظف في الخطاب العادي للدلالة على هذه المؤسسة كالدولة والسلطة. فما المقصود بالدولة وما هي أهم النظريات المفسرة لتطورها؟

¹ J. Dakhli, *Le divan des rois, le politique et le religieux dans l'islam*, Paris, Aubier, 1998, pp. 18-9. ولمزيد من التفاصيل حول توظيف المفاهيم في الكتابة التاريخية، انظر:

H.- Irénée Marrou, *De la connaissance historique*, Paris, Seuil, 1954, pp. 61-140 ; P. Veyne, *Comment...*, op. cit., p. 174.

² B. Barret-Kriegel, « l'Etat aux XVII^e et XVIII^e siècles : l'impossible réformation des codes » in *Réflexions idéologiques sur l'Etat, aspects de la pensée politique méditerranéenne : actes du colloque d'Aix-en-Provence, 25-26-27 septembre 1986*, Collection d'histoire des idées politiques, Aix-en-Provence, Presses universitaires d'Aix-en-Provence, 1987, p. 23.

الدولة

إذا كان مفهوم الدولة ليس كونيا ومن الصعب تعريفه، فإن مختلف المرجعيات المتعلقة به، تنفرع عن التاريخ الغربي المرتكز على إرث القانون الروماني والنظرة الثقافية لعصر النهضة³. على أن كل تساؤل عن الدولة هو استفسار عن أهدافها، وتطوراتها ووظائفها⁴. لذا لا ينبغي تجريد مفهومها من خلال اعتبارها تصورا اجتماعيا، أو منظومة من الحقوق والقوانين، أو جملة من الوظائف والأجهزة، بل يجب أن ينظر إليها باعتبارها ظاهرة مركبة من نسيج متشابك، يجمع بين ما هو مجرد وما هو واقعي⁵.

إن كل مجتمع حسب دونالد Bonald يحمل في طياته شكل حكومة، أو دولة كبنية مستقلة ذاتيا عن أية شرعية معينة، لكن كلما كانت الدولة ظاهرة بجلاء في المجتمع، كان المجتمع أقل تنظيما. وكلما اقتربت الدولة من العقد الذي حدده روسو كانت أكثر استبدادا؛ لأنها لا تركز على أي مبدأ سوى القوة التي تشكل شرعية وجودها⁶.

إن هذه التأويلات التي تجعل من الدولة صفة لمظاهر الحياة في المجتمع، ونمطا للتنظيم الاجتماعي، وكل وسيلة تمكن من وضع النظام والمحافظة عليه، في حدود مجال اجتماعي محدد، هي تعبير عن نظرة محافظة ثيولوجية، تسعى إلى تجريد الدولة من طابعها التاريخي⁷. كما أن الطرح الذي يضيف على الدولة طابعا قانونيا مرتبطا بنظام القيم التشريعية، يعد تأويلا تعسفيا ما دام يقي على مفهوم الدولة في إطاره الرسمي.

وتتضمن الدولة بمعناها العام، المؤسسات السياسية والإيديولوجية التي تهدف إلى الهيمنة

³ B. Badie, « *Etat* » et « *Légitimité* » en monde musulman : crise de l'universalité et crise des concepts », *Annuaire de l'Afrique du nord*, t. 26, 1987, p. 19 ; A. Kazancigil, « Théories de l'Etat et analyse de l'Etat moderne Turc », in *Peuples méditerranéens*, n° 27-28, avril-septembre, 1984, p. 68.

J.P. Genet, *La genèse de l'Etat moderne. Culture et société politique en Angleterre*, Paris, PUF, 2003.

⁴ عبد الله العروي، مفهوم الدولة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الخامسة، 1993، ص ص. 6-7.

⁵ فتحي التريكي، « مفهوم الدولة في الحقل الفلسفي المعاصر », مجلة الفكر العربي المعاصر، ع. 24، 1983، ص. 45.
N. Elias, *La société de cour*, Flammarion, 1985, p. 155.

⁶ G. Gengembre, « La notion d'Etat chez Bonald », in *Réflexions idéologiques sur l'Etat, aspects de la pensée politique méditerranéenne...*, op. cit., pp. 94-5.

⁷ G. Balandier, *L'anthropologie politique*, Paris, P.U.F, 1967, pp. 146-7.

على المجتمع باسم المحافظة على وحدته وتوازنه، ومن خلالها الانفراد بحق ممارسة العنف المادي⁸. ومن هنا يؤكد ماكس فيبر Max Weber أن الدولة أداة للسيطرة، تمتلك احتكار **القهر** المادي المشروع، وتستأثر بالجهاز العسكري القوي لهذه الغاية، شأنها في ذلك شأن أي جماعة مهيمنة، ذلك أنها تخول لأقلية معينة الوسائل الكفيلة بالتحكم في أنشطة المجتمع بواسطة إدارة «معقنة»، فتصبح بذلك شكلاً من التنظيم يستمد مشروعيته الدائمة من قدرته على التحكم في العنف، ومن المستوى العالمي من الانسجام والتنظيم الاجتماعيين اللذين يمكنان من توسيع سلطتها⁹.

والمثير، أنه في الوقت الذي يقصد بالدولة في المعجم الأوروبي الاستمرارية التي لا تتأثر بتبدل الحكام، وتحيل على الاستقرار والارتكاز على المؤسسات، نجدها تحمل في القاموس العربي مدلول التغير والتحول والغلبة والقوة¹⁰. ولعل هذا التباين يجد تفسيره في كون الحياة السياسية في المفهوم الأخير ترتبط بالظرفيات المتقلبة والمتقطعة، وتنشق في المفهوم الأول من مؤسسات سياسية ثابتة. مما يدفع إلى التساؤل، هل الدولة ملازمة بالفعل لمفهومها؟ وهل المفهوم ملازم للدولة، على حد تعبير هيجل¹¹؟

إن أي حكم نصدره في حق الدولة، رهين بالتصور الذي نرسمه حينما نقوم برصد وظائفها ووسائلها، وإن كانت بنية كل دولة حديثة أو قديمة، حسب إنكلز Engels، تكون من أجهزة عسكرية وجبائية وقضائية، ومن جماعة تنسق بينهما، ثم سلطان يترفع فوق الجميع¹². وهو ما يعني أنها تسعى أولاً وقبل كل شيء لتحقيق المركزية السياسية، والتحكم

⁸ فتحي التريكي، ن.م، ص. 49.

⁹ G. Balandier, *L'anthropologie...*, op. cit., p. 152. Voir aussi, A. Claisse, « l'Etat et son double », in *L'espace et l'Etat*, ouvrage collectif, Rabat, Edino, 1985, p. 83 ; Voir aussi : Maurice Godelier, « L'Etat, les processus de sa formation, la diversité de ses formes et de ses bases », in *Revue internationale des sciences sociales*, septembre 1997, n° 153, pp. 657-8.

جاك دونديو دوفابر، الدولة، ترجمة سموحي فوق العادة، بيروت، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، 1970، ص. 6.

¹⁰ فتحي التريكي، ن.م، ص. 45-46. يعتبر عبد الله حمودي أن « لفظ الدولة في المغرب يقصد به الدور في السلطة المنتزع بالقوة »، راجع: الشيخ والمريد ترجمة عبد الحميد جحفة، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 2000، ص. 73، 90. ثم فؤاد إبراهيم، الفقيه والدولة، تطور الفقه السياسي الشيعي، بحث فقهي/تاريخي، بيروت، دار الكنوز الأدبية، الطبعة الأولى، 1998، ص. 32.

¹¹ H. Lefebvre, *De l'Etat. Tome 2, De Hegel à Mao par Staline : la théorie marxiste de l'Etat*, Union générale d'éditions, 1976, p. 117.

¹² عبد الله العروي، مفهوم الدولة... م.س.ذ، ص. 60-62.

في الموارد الجبائية، وتأمين الاستقرار والاستمرارية. بل بالرغم من أن معظم التحليلات تربط تكوين الدولة بثلاثة عناصر، تتجسد في المجال والسيادة الترابية والمجموعة البشرية، ثم قواعد تنظيم متينة ودائمة، فإن أصل هذا التكوين تجاذبه عدة مقاربات حاولت تقديم العوامل المتحكمة في بناء الدولة¹³.

فحسب المقاربة الأنثروبولوجية، يتمثل أصل الدولة في بزوغ هيمنة جزء من المجتمع على بقيته، نتيجة لتطورات اجتماعية داخلية، أو بفعل غزو خارجي. أما المقاربة « الثقافية » Culturaliste، فتفسر تكوين الدولة كحركة اجتماعية، انطلاقا من عوامل ثقافية وقيم ومعايير سياسية، مبنية على العقلنة والمفاضلة وذات طابع دينوي، ومعارضة لكل السلوكات « التقليدية ». وبذلك يتحدد شكل الدولة وطبيعتها الداخلية والخارجية، تبعا للمتغيرات السياسية والثقافية، فتكون الدولة الحديثة، وفقا لهذا الطرح، نتاجا لعوامل دينية وثقافية خاصة بالغرب. على أن المقاربة البنيوية ارتكزت في تحليلها لتطور الدولة على التمفصلات بين التطورات السياسية والثقافية والاقتصادية، وبين العوامل الداخلية والخارجية، التي وإن تشابهت ظاهريا أو شكليا، فيمكن أن تفضي إلى نتائج متباينة تبعا لمراحل التطور التي يشهدها العالم¹⁴.

ألا نستنتج من هذه المقاربات أن أي تحليل للدولة يجب أن يراعي تداخل كل هذه العوامل السابقة الذكر، التي يمكن أن يتباين ثقلها حسب الحالة المدروسة؟

لا يمكن التسليم أو حتى الاعتقاد بوجود قوالب معيارية جاهزة، يمكن أن ننسج على منوالها نظرية ثابتة لبناء الدولة؛ نظرا لأنها ظاهرة متغيرة في الزمان والمكان، تخضع في تطورها إلى مسلسل بطيء تنمو فيه المؤسسات، وتكتسب استقلاليتها التي تتوج بإضفاء سماتها الخاصة عليها. إذن فلا مجال للاقتصار على مصدر نشأتها ما دام هذا المعطى لا يمكنه أن يحدد إلا جزءاً من هويتها¹⁵.

¹³ G. Chauvel, *Les notions d'Etat et de nationalité au Maroc*, Casablanca, Librairie Farairre, 1937, p. 18.

G. Balandier, *L'anthropologie ...*, op. cit., p. 147. Voir aussi : A. Kazancigil, « *Théories de l'Etat* »..., op. cit., pp. 65-6.

¹⁴ حول هذه المقاربات، راجع:

A. Kazancigil...op. cit., pp. 68-9.

¹⁵ برتران بادى، الدولتان ... م.س.ذ.، ص. 126.

وبذلك يمكن القول، إن تناول موضوع الدولة ارتبط في مده وجزره بطبيعة المرجعيات التي تحكمته في منطق المحللين. فالمؤرخ عاجلها من منظور صيرورتها في الزمن؛ بهدف استخلاص وثيقة تاريخية متعلقة بها¹⁶، والفيلسوف رأى فيها وسيلة أساسية مجردة تم تكريسها لتجعل من خدمة المجتمع أبرز أولوياتها، أما السوسيولوجي فانطلق من وظائف الدولة ليفهمها في إطار سياقها الاجتماعي، في حين أن رجل القانون تعامل مع مؤسساتها باعتباره معطى اجتماعيا وإنسانيا¹⁷. إذن أين هو منطق الدولة بين كل هذه التصورات؟

أكد أن معظم هذه التصورات يعكس بدون منازع غلبة الطرح السوسيولوجي الساعي إلى بلوغ الكونية، مع تقصير ملحوظ في الرؤية التاريخية، التي لا يمكن فهم تطور الدولة وصيرورتها المحلية إلا في إطارها. ومن ثم فلا محيد عن تبني أسلوب الانفتاح والتلاقح بين التخصصات المعنية، بهدف صياغة مفهوم للدولة يراعي تطوريتها المؤرخ، واستنباطية الفيلسوف، وافتراضية عالم الاجتماع¹⁸؛ لأنه حتى في ما يتعلق بظهور الدولة الحديثة، نلاحظ أن المؤرخين يربطونها بالمسألة القومية، والماركسيين وعلماء الاقتصاد يربطونها بنمو الطبقة الوسطى في النظام الرأسمالي¹⁹.

وعلى الرغم من وجود رابط بين هذين المنظورين، فإن التساؤل عن صعوبة تحديد واضح لنشأة الدولة يبقى مشروعاً، خاصة وأن هناك من يعتبر أن الدولة كانت موجودة منذ زمن قبل وعي أفراد المجتمع بها، واقتناعهم بضرورة تحديد ماهيتها وواجباتها وحقوقها. بل حدث أن حارب الناس دولتهم الموجودة والدولة بصفة عامة، ولكنهم أجبروا دائماً على استبدال جهاز مماثل وضروري بها، مهما اتخذ شكلاً أو اسماً آخر فاعتبر دوماً دولة، باستثناء المجتمعات التقليدية أو البدائية التي وجد فيها تطابق بين الحكام والمحكومين²⁰.

¹⁶ محمد شقير، تطور الدولة المغربية، ص. 123. انظر أيضاً، عبد الله العروي، مفهوم الدولة... م.س.ذ.، ص ص. 7-8.

¹⁷ عبد الله العروي، مفهوم الدولة، ص ص. 5-8.

¹⁸ عبد الله العروي، ن.م، ص. 8.

¹⁹ عبد الله العروي، ن.م، ص ص. 78-79.

²⁰ R. Mousnier, *Monarchies et royautés de la préhistoire à nos jours*, Paris, Librairie Académique Perrin, 1989, pp. 9-10 ; J.-M. Cottet, *Gouvernants et gouvernés*, Paris, PUF, 1973, p. 19.

بينما رأى البعض، أن ظهور الدولة يرجع إلى فشل المجتمع في إيجاد نوع من الانسجام أو التكامل، الذي لم تعد أشكال التضامن الجماعي قادرة على توفيره²¹، اعتبر البعض الآخر، أن الدولة هي الأداة التي تمكن الطبقة المهيمنة من ممارسة هيمنتها العنيفة على الطبقات المهيمن عليها. ولكي تظهر الدولة، لا بد أن يسبقها تقسيم المجتمع إلى طبقات اجتماعية متنافسة مرتبطة فيما بينها بواسطة علاقات استغلال. إذن فبنية المجتمع يجب أن تكون سابقة لبزوغ آلة الدولة²². أما مكيا فيللي فذهب إلى « أنه ليس هناك أي شكل من أشكال الدولة بإمكانه أن يدوم طويلا، لقد تعاقبت في الماضي مختلف نماذج الحكومات، وهكذا سيكون الحال في كل العصور، هناك دورة محددة تجري بانتظام طبيعي »²³.

وهكذا نستنتج أن تحديد معنى للدولة أمر شائك، نظرا لتباين منطلقات المهتمين بها، ونتيجة لصعوبة الفصل بطريقة مضبوطة بين وظائفها وسلطاتها، خاصة وأن الخدمات التي تقوم بها تتداخل مع الامتيازات التي تحظى بها²⁴. فماذا بالنسبة للسلطة؟

السلطة

إن أي تناول لظاهرة الدولة يستوجب استحضار مفهوم السلطة، الذي يحدد في إمكان إخضاع أفراد المجتمع للعمل طبقا لنسق معين، وفي القدرة على اتخاذ القرارات الملزمة للجميع، والعمل على تنفيذها بواسطة الآخرين²⁵، ومن خلال التأثير عليهم بواسطة وسائل تتراوح بين الإقناع والقهر. بل إن السلطة هي نتاج للمنافسة، وسيلة من وسائل احتوائها داخل بنية اجتماعية معينة خاضعة لمحددات داخلية وأخرى خارجية²⁶، ومن ثم فهي تلازم كل مجتمع.

²¹ برتران بادي، الدولتان...، م.س.ذ.، ص. 124.

²² P. Clastres, *La société contre l'Etat*, Paris, Minuit, 1974, pp. 173-4.

²³ ماكس هوركهايمر، بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية، ترجمة محمد علي اليوسفي، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1981، ص. 15.

²⁴ جاك دونديو دوفابر، ن.م، ص. 7.

²⁵ R. Mousnier, *Monarchies et royautés...*, op. cit., p. 9.

²⁶ G. Balandier, *L'anthropologie* ..., pp. 43-4.

ويمكن للسلطة أن تتخذ عدة أشكال: سلطة دينية توظف الطقوس والاحتفالية والدعاية، بهدف إثبات حضورها الرمزي، وسلطة تمارس الإكراه والقهر بواسطة الجيش، ثم سلطة اقتصادية تستمد من السلطتين السابقتين ومهمتها الإنتاج والتوزيع. ويمتلك كل زعيم قوي هذه السلطات، التي يجسدها جهاز يستجيب لحاجات المجتمع ونطلق عليه اسم الدولة²⁷. إذن أيتداخل مفهوم الدولة مع مفهوم السلطة كما عبر عن ذلك ألتوسير؟ أم أنه من الخطأ تشبيه السلطة السياسية بالدولة²⁸؟

إن مفهوم السلطة ممتد إلى درجة كبيرة تجعله يشمل كل السلوكات الاجتماعية، بما فيها المتعلقة بالفرد. وعلى هذا الأساس يلح فوكو على تعدد ماهية السلطة المركزية وعملها، اللذين يغطيان على الخصوص مجالات غير تلك التي تدخل في اختصاصات الدولة، كالقمع والعنف والسيطرة، بل يشملان كل ما هو « تحت طيات المعرفة والأقوال »²⁹. إذن « السلطة ليست مؤسسة ولا بنية، وليست نوعاً من القدرة التي يتوفر عليها البعض، بل هي الاسم الذي نطلقه على وضعية إستراتيجية معقدة داخل مجتمع ما »³⁰. ومن هنا فكلما توسعت الدولة، تمددت السلطة السياسية بتمظهراتها المختلفة، سواء القائمة منها على الإكراه المادي أو الإكراه المعنوي.

وإذا كانت لفظة الدولة تثير دائما فكرة السلطة، باعتبارها مفهوماً أوسع يسفر انتفاخها عن اختفاء الطبقة السياسية تدريجياً لفائدة الاقتصاد والإدارة³¹. فإلى أي حد يمكن اعتبار الدولة مصدراً لجميع السلطات، من منطلق أنها جهاز مشخص في فرد أو عدة أفراد، وغير

²⁷ R. Mousnier, *Monarchies et royauté...*, op. cit., p. 9.

²⁸ فتحي التريكي، ن.م، ص. 49.

J.-M. Domenach, *Approches de la modernité*, Palaiseau et Paris, Ecole polytechnique, 1986, p. 19.

²⁹ M. Foucault, « Vérité et pouvoir, l'arc, la crise dans la tête », in *Revue l'Arc*, n° 70, 1977, p. 20.

أورده فتحي التريكي، ن.م، ص. 49، راجع أيضاً:

J.-M. Domenach, *Approches de la modernité...*, op. cit., p. 19.

³⁰ Voir également : P. Veyne, *Comment on écrit l'histoire...*, op. cit., pp. 398-9.

مصطفى الحسناوي، فوكو والسياسة، الصخيرات، منشورات مجلة اختلاف، الطبعة الأولى، 2003، ص. 91.

³¹ J.-M. Domenach, *Approches de la modernité...*, op. cit., p. 19.

منفصل عن المجتمع³²، أم هي منظومة تدل على الأسرة الحاكمة، وتتداخل مع السلطة التي تجسد أدواتها الإدارية الممثلة لها³³؟

يبدو أن مساءلة مفهوم الدولة والسلطة على المستوى النظري أمر لا يخلو من أهمية، نظرا لتعدد التأويلات المتعلقة بتشخيصها وتحديد ماهيتها، فمقابل تراجع التحليلات التي تضيء على كل تنظيم سياسي مستقل صفة دولة، والتي تخلط بين تحليل الظاهرة السياسية وبين نظرية الدولة، أوضحت التجليات التاريخية للظاهرة السياسية تشكل محددات رئيسا لها³⁴. ومن هذا المنطلق، يتجلى أن أية مقارنة لمفهوم الدولة أو السلطة، مهما تباينت في خلفياتها النظرية وفي تصوراتها المؤسساتية، وفي مرجعياتها الزمنية، لن تقضي إلى صياغة تصور لهذا المفهوم يمكن التوافق بشأنه، إلا إذا استحضرت حمولته التاريخية التي لا بديل عنها لرصد معالمة، وتتبع مساره أولا بأول، لكن دون توظيف تلك الحمولة بأسلوب انتقائي أو تعسفي يجردها من بعدها الحقيقي.

المخزن

يدل مصدر المخزن معجميا³⁵، على خزن، وحافظ، واكتنز، واذخر الأقوات والبضائع المختلفة. فهو يفيد إخفاء الشيء والاحتفاظ به لاستعماله عند الحاجة، ويوحى حسب السياق الذي يستخدم فيه، إما بفكرة الاحتياط تحسبا لأي طارئ، أو بفكرة التراكم، إذن فمعناه اللغوي يعكس الرغبة في تجميع الشيء، وضمان سرите من أجل إعادة استخدامه. وورد الحديث عنه لأول مرة بشمال إفريقيا خلال القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، للدلالة على الخزينة الحديدية التي كانت توضع فيها المداويل المالية المحصلة من الضرائب، قبل أن يبعث بها والي إفريقية إلى الخليفة العباسي. وكلف بحراسة هذه الخزينة أشخاص

³² عبد الله العروي، مفهوم الدولة... م.س.ذ.، ص. 5-7.

³³ فؤاد إبراهيم... م.س.ذ.، ص. 32.

³⁴ G. Balandier, *L'anthropologie...*, op. cit., p. 145.

³⁵ ابن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، بيروت، دار لسان العرب، 1970، ص. 828. *Encyclopédie de l'islam*, t. VI, p. 131. Voir également : A. Reynier, *L'ancien maghzen*, Rabat, 1930, p. 3.

حملوا اسم « عبيد المخزن » في بلاد الأندلس³⁶. وبعد انفصال المغرب عن المشرق، أضحي المفهوم يدل على معنى إداري أوسع نسبيا في الغرب الإسلامي منذ العهدين المرابطي والموحدي³⁷، فقد أورد البيدق في أخباره عن ابن تومرت عبارة « عبيد المخزن »، التي تجسد كل الخدام الذين يتقاضون أجرا من الخزينة خلال حكم المرابطين والموحدين والمرينيين، ثم وصف دخول الموحدين لمراكش بما يلي: « وكان السبي يضمنون للمخزن أنماه الله، ما كان من الحلي والقش والسلاح، وما كان بالمدينة كلها رفع للمخزن، وابتيع النساء، ورجع كل شيء للمخزن »³⁸. كما أورد ابن أبي زرع العبارة نفسها، وهو يتحدث عن الصراع بين المرتضى الموحدي وأبي دبوس؛ « فسار حتى وقف بباب البنود من قصبتها، فغلقت الأبواب في وجهه، ووقف عليها عبيد المخزن يقاتلونه »³⁹.

وهناك من اعتبر أن المصطلح مقتبس من كلمة « الخزين » التركية، والتي تدل على بيت المال، ومنها اشتق مصطلح الخزيندار⁴⁰. بينما ربط محمد بن الحسن الحجوي أصله بمستودع للمعدات الحربية والتموين وعائدات الجبايات، الذي كان يطلق على دار الوالي بإفريقية، ثم « صار يطلق على دار السلطان والحكومة، توسعا على سبيل المجاز، علاقته بالإطلاق والتقييد من إطلاق الحال على المحل أيضا، كما يطلق اسم الباب العالي عند الترك، والأعتاب الشريفة بالمغرب، فهما مترادفان دار المخزن والأعتاب الشريفة، وإذا أطلق لفظ المخزن مجردا انصرف إلى رجل الدولة غالبا »⁴¹.

³⁶ Encyclopédie de l'islam, t. VI, pp. 131-2.

³⁷ عبد الرحمن بن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، الرباط، المطبعة الملكية، 1962. ج. 1، ص. 46، هامش رقم 1.

³⁸ أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971، ص. 57، 64، 66، راجع أيضا: إبراهيم حركات، « الأجهزة السياسية المركزية لدى المخزن السعدي »، الرباط، مجلة كلية الآداب، ع. 11، 1985، ص. 19؛ عبد الرحمن بن زيدان، ن.م، ج. 1، ص. 409. انظر أيضا:

R. Cherifi, *Le makhzen politique...op. cit.*, p. 17.

³⁹ علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس، مراجعة عبد الوهاب بنمنصور، الرباط، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، 1999، ص. 342.

⁴⁰ M. Thaminy, « Pour une réévaluation de la notion du makhzen », in *Revue marocaine de droit comparé*, n° 2, 1983, p. 24.

⁴¹ أسية بنعدادة، الفكر الإصلاح في عهد الحماية (محمد بن الحسن الحجوي فوجذا)، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2003، ص. 129، هامش 22.

وهكذا شكل مصطلح المخزن ذو الدلالة اللغوية البسيطة لغزا سياسيا مركبا، اتخذ معان مختلفة، وتاويلات متعددة من الصعب الوقوف على محدداتها بشكل كاف ودقيق⁴²، مما دفع البعض إلى تشبيهه بشعبان البحر غير القابل للحجز⁴³. ويفسر هذا الطرح بالصمت المطبق للمصادر والوثائق المغربية التي أحجمت عن تعريف مفهومه، ولم تتناوله إلا بشكل متناثر وفي سياقات متباينة، لا تمكن الدارس من تكوين صورة متكاملة عنه، فربما اعتبرته من المسلمات التي لا تحتاج إلى توضيح، أو صنفته ضمن خانة المسكوت عنه، وسرا من أسرار السلطان لا يجوز الخوض فيه أو إمطة اللثام عن مكوناته.

وحين نتصفح المصادر المرتبطة بالمرحلة موضوع الدراسة، نسجل تردد عبارات «المخزن»، «المخازنية»، «التكاليف المخزنية»، «طريق المخزن»، «الخدمة في المخزن»، «ممثلو المخزن»، «أهل المخزن»، «دار المخزن»، «سيرة المخزن»، و«طريقة المخزن»... لكن الملاحظ أن كل عبارة من هذه العبارات، توظف في سياقات مختلفة، وبدلالات متعددة. فأحيانا تدل عبارة المخزن على الجيش الذي يقوم بحركة معينة لجباية الضرائب؛ فأهل المخزن حسب جون بريثويت J. Braithwaite «هم فرسان مجندون يجمعون نصيب السلطان المتمثل في الضرائب، ويضعونه في المخازن ليستعمله السلطان وجيوشه»⁴⁴. ويقصد بها أحيانا أخرى كل ما يرتبط في الوقت نفسه بالمهام الإدارية والعسكرية، التي يقوم بها أشخاص لفائدة السلطان. وفي صيغة ثالثة يعبر المخزن عن أسلوب عمل له ضوابطه ونواميسه، وقوانينه وطرقه وسيرته التي ينفرد بها⁴⁵.

⁴² F. Fumey, *Choix de correspondances marocaines pour servir à l'étude du style épistolaire administratif employé au Maroc : 50 lettres officielles de la cour chérifienne*, Paris, Maisonneuve, 1903, vol. 2, p. 141 ;

A. Laroui, *Les origines...*, op. cit., pp. 120-3.

⁴³ إدريس بنعلي، «الدولة وعملية إعادة الإنتاج الاجتماعي بالمغرب»، ضمن جدلية الدولة والمجتمع بالمغرب، الدار البيضاء، دار أفريقيا الشرق، الطبعة الثانية، 1994، ص. 216.

⁴⁴ عبد الله التسافتي، رحلة الوافد، تحقيق علي صدقي عازايكو، القنيطرة، منشورات كلية الآداب، 1992، ص. 79، 92، 94؛ جون بريثويت، تاريخ الثورات في إمبراطورية المغرب بعد وفاة السلطان الراحل مولاي إسماعيل، ترجمة مينة مادي، رسالة د. د. ع. في التاريخ مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 2000، ص. 168. وذكر الزباني أن المولى عبد الله تفقد أهل المحلة «فوجدوها أكثرها هرب، ولم يبق معه إلا النصف من المخزن»؛ البستان الظريف في دولة مولاي علي الشريف، القسم الأول، تحقيق رشيد الزاوية، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، 1992، ص. 318؛ محمد بن عيشون الشراط، الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، دراسة وتحقيق، زهراء النظام، الرباط، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، 1997، ص. 247، 283.

⁴⁵ رسالة من المولى إسماعيل إلى محمد بن عبد القادر الفاسي بتاريخ 25 ذي الحجة 1108هـ، ضمن: M. El Fasi, «Biographie de Moulay Ismail»... op. cit., p. 49.

واستخدم مفهوم المخزن لنعت خلفاء السلطان أو خدامه بمنطقة معينة، كما أطلقت تسميات « دار المخزن » و « طريق المخزن » على أماكن بالقصبة السعدية والعلوية، مما يدل على أن استخدام هذا المصطلح ارتبط بالسلطان وسلطته⁴⁶. بل اعتمد عليه محمد بن عبد الوهاب الغساني في وصفه للنظام البريدي أثناء رحلته بإسبانيا، إذ اعتبر الرقاص موظفا لدى المخزن. بمعنى الدولة الإسبانية، ووظف المفهوم نفسه للدلالة على السلطة المغربية في الاتفاقية مع هولندا سنة 1682م⁴⁷.

وتعج المصادر بكلمة « المخازنية »، وهي مشتقة من المخزن وتعني خدام السلطان، أو أعوان الباشا والقائد، أو فيالق عسكرية تحارب في الجيش، وتتكون من الحيلة على عكس العسكر الذي يضم المشاة⁴⁸. وعموما ارتبط استعمالها بالتعبير على كل من يمت بصلة إلى المخزن وخاصته، ويقدم لها خدمة ذات طابع عسكري.

تساءلنا في مدخل هذه الدراسة عن الدولة بشكل عام دون أن نتوقف عند مفهومها العربي الإسلامي، في أفق تناوله خلال الحديث عن مضامين المخزن، الذي يبدو أنه يحمل دلالة لغوية بسيطة، ويعبر عن تصور سياسي مركب. لقد اعتبر برتران بادي الدولة الإسلامية بشكل عام مجرد استيراد تعسفي لنموذج الدولة الأوروبية الذي لم يسفر إلا عن مظاهر التسلط وما واكبه من احتكار مراكز القرار من قبل النخب البيروقراطية. فما هو السياق التاريخي الذي تبلورت في ظلّه معالم منظومة المخزن؟ وأخيرا هل تعكس وظائفه ومكوناته من خلال الدراسة المقارنة لعهدي السلطانين أحمد المنصور السعدي والمولى إسماعيل العلوي بنية دولة أم سلطة سياسية لها خصوصياتها؟

ورسالة من المولى إسماعيل إلى علماء الأزهر، مجموع مخطوط، خ. ح، رقم 12598، ص ص. 60، 63.

⁴⁶ H. Koehler, « La Kasba sâadienne de Marrakech d'après un plan manuscrit de 1585 », in *Hespéris*, 1940, p. 15 ; D. Maxange, *Le Grand Ismaïl empereur du Maroc*, Paris, Marpon, Imprimerie du palais, 1929, p. 53.

⁴⁷ محمد بن عبد الوهاب الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، تحقيق الفريد البستاني، العرائش، مؤسسة الجزائر فراككو، 1940، ص. 33. وثائق إسماعيلية، محمد الإفرائي، روضة التعريف... (ملحق)، م.س.ذ.، ص. 94.

⁴⁸ ظهر من أحمد المنصور لقائد الجيش أحمد بن يحيى الهوزالي، م. ر. س، خ. ع، ك 278، ص ص. 80، 82. انظر أيضا: المجهول السعدي، تاريخ الدولة السعدية التكميلية، تحقيق عبد الرحيم بنحادة، مراكش، عيون المقالات، دار قنصل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1994، ص ص. 70، 72-73؛ محمد القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والحظي، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط، مكتبة الطالب، 1986، ج. 2، ص. 229؛ محمد ابن عزوز حكيم، مساهمة رباط تازروت في معركة وادي المخازن، الرباط، مطبعة الساحل، 1989، ص. 78، هامش 164.

القسم الأول

المخزن، المؤسسة وأشكال الحضور

الفصل الأول

أحمد المنصور والمولى إسماعيل
القوة والرمز

إن السلطان في الأدبيات السياسية الأوروبية هو الحاكم الذي يركز في شخصه السلطة السياسية العليا للمجتمع، ويفوض بعض قراراته لفئة من الخدام الذين ينفذونها تبعا لإجراءات محددة، ويمكنه أن يتخذ صفة طاغية يزاول حكما بطريقة تعسفية لمصلحته الخاصة ولمصلحة حاشيته، أو شكل حاكم مطلق يستحوذ على السلطة بالقوة أو المكيدة. ولذا وجب التمييز بينه وبين الملك الذي يعتبر مبدئيا سلطانا، لكنه يمتلك سلطة شرعية متداولة، مؤسسة بالتوافق، ومعترف بها، ويمكن أن يمارسها بنفسه إلى درجة الاستبداد في بعض الحالات، والحكم المطلق في حالات أخرى¹، يصبح فيها جالسا فوق عرش الله يضع القوانين ويؤلفها، ويغيرها دون رقابة من أحد. ومن هذا المنطلق، خلص بوسيهي Bossuet إلى القول: «بما أنه لا توجد سلطة عمومية بدون إرادة الله، فإن أي حكم كيفما كان مصدره، عادلا أو جائرا، سلميا أو عنيفا، فهو شرعي، وكل مستبد بالسلطة كيفما كان فهو مقدس، والثورة ضده من قبيح انتهاك الحرمات»².

يحافظ الحاكم التقليدي إذن على السلطة بفضل صفاته الشخصية والدينية، وضمن حدود معينة لا يسمح بتجاوزها، أو المساس بخصوصياتها³. ومن هنا فالملوك حسب مذكرات لويس الرابع عشر، «هم أسياد مطلقون، لهم طبعيا الحق الكلي والشامل للتمتع بكل الممتلكات الدينية والدنيوية»⁴. فهل من مقارنة مع مفهوم السلطان في الإسلام؟

إن صورتَي اللقب السياسي، أو الرمز السياسي، اللتين تطلقان على شخص الحاكم لا تدلان على ذاتها فقط، بقدر ما تعبران عن سلوكات ومواقف لها علاقة بنوعية الممارسة السياسية، وبدرجة الثقل الذي يجثم به الدين عليها. فحين نستحضر مفهوم السلطان

¹ R. Mousnier, *Monarchies et royautés...op. cit.*, p. 10.

² E. Preclin et V. – L. Tapié, *le XVII^e siècle : monarchies centralisées (1610-1715)*, Paris, P.U.F, 2^e édition, 1949, p. 535.

³ G. Balandier, *L'anthropologie...op. cit.*, p. 167.

⁴ E. Preclin, *le XVII^e siècle...*, op. cit., p. 222.

والسلطنة في الإسلام، نجد الأول يدل على حجة الله، وبرهانه في أرضه⁵، ويعكس الثاني الإمامة والخلافة في الوقت نفسه. وتعتبر الإمامة هي الأهم باعتبارها تجسد « ممارسة السلطة العليا الدينية والدنيوية »⁶، الموروثة عن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، ويعد الإمام الشرعي الوسيلة الأنجع لضمان الأمن وتفادي الفتن التي تسفر عن الاضطراب والفوضى. لذا لا بد من تخويل سلطات كبيرة لشخص السلطان، حتى يؤمن استمرارية الدولة واستقرارها، وإن كان فاسقا أو فاجرا⁷، لأن المشروعية لا تكتسب في ظل غياب قانون محدد لولاية العهد، انطلاقا من صفة الشرف فحسب، بل استنادا إلى قانون الغلبة وحسن تدبير الأحوال والظروف. بديهي -والأمر كذلك- أن تلعب شخصية الأمير دورا حاسما في اعتلائه العرش، وفي الاستمرار فيه، ما دامت سلطة المخزن وعظمته، تبقين رهينتين بقوته أو ضعفه⁸، ويمدى نجاحه في استغلال الإمكانيات الاقتصادية والعسكرية والسياسية المتاحة له، على أن صلاحياته مطلقة، لكنها مشروطة بعقد بيعة تتحكم في مده وجزره الإمكانيات نفسها. لكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الإطار هو: هل قوة شخصية السلطان وحجم تفوقه هما اللذان أفرزا الصور الواقعية والأسطورية التي حملها في أذهان الإخباريين؟ وما هي ظروف نشأة السلطانين، ودور التجارب في صقل شخصيتهما؟

تمثل شخصيتي السلطانين

إن الهدف من تناول هذا التمثل بالتحديد، هو إثارة مسألة تركيز الإسطوغرافية من خلال بعض النماذج، على الربط بين تولي السلطانين للحكم، وبين نظيمة الرؤى والعلامات التي ترافق هذه العملية.

⁵ ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني، م.س.ذ.، ص. 182.

⁶ A. Laroui, *Les origines ...op. cit.*, p. 71.

⁷ الحسن البوسي، القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم، تحقيق حميد حماني، الرباط، مطبعة شالة، الطبعة الأولى، 1998، ص. 192، راجع أيضا:

⁸ Laroui, *Les origines...*, op. cit., p. 72.

J. Berque, *Ulémas fondateurs insurgés du Maghreb, XVII^e siècle*, Paris, Sindibad, 1982, pp. 267-8.

الإسطوغرافية المحلية

- النبوءات والكرامات

لقد انطلقت الأدبيات الإسطوغرافية في تعظيم شخصيتي أحمد المنصور والمولى إسماعيل وإعلائهما، من النبوءات والكرامات التي أسهمت في إضفاء طابع خاص عليهما، يتداخل فيه الأسطوري مع الواقعي، ويختلط المقدس بالسياسي. فجمعت صورهما في الخطاب التاريخي بين صفات التفرد، وبين القدرات الخارقة المستمدة من ملكة الفراسة، ومن الصبر على تحدي الأهوال والصعاب؛ إذ تنبأ أهل المكاشفة بمصر بأن رجلا يدعى أحمد سيتربع على عرش الخلافة، ويقوى سلطانه، ويعلو شأنه، وحملت النبوءات وكتب الأزياج في طياتها، أخبارا عن ملك من نسب حسني يدعى إسماعيل، يحكم المغرب لمدة تتراوح بين أربعين وستة وخمسين سنة، وينجح في تمهيد أقطاره، وقهر أعدائه⁹. وكانت بوادر الخلافة ميسرة لأحمد المنصور منذ صغر سنه¹⁰، وولد المولى إسماعيل في يوم تكاثر فيه النمل، مما يرمز إلى الخير ويشر بمستقبل كبير¹¹. وشهدت مجالس الشريف محمد الشيخ والمولى الشريف فرائد صادقة من بعض المقربين في حق الأميرين منذ نعومة أظافرهما، فكانت مسحة على رأسيهما كافية لمعرفة إمكاناتهما من الفطنة وسداد الرأي وحسن التدبير، وهي مواصفات تفصح عما سيكون لهما من شأن عظيم¹².

ولم تقتصر أشكال الفراسة على مجالس البلاط، بل امتدت لتتحرر من قيود العقل، وتشمل قضاء الأحلام، فقدمت النبوءات في صيغة رؤى فقيه وصالح يقف عليهما الرسول صلى الله عليه وسلم، ويأمرهما بأن يخبرا أحمد وإسماعيل بنصبيهما من الخلافة. بل إن الأول رأى

⁹ عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تحقيق عبد الكريم كريم، الرباط، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، 1972، ص. 29. انظر أيضا: محمد الإفرائي، روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، 1995، ص. 53، 59. وعن نبوءة توات لسيد عبد الله ابن سيدي أحمد الحبيب المتوفي حوالي سنة 1610م، راجع:

A.-G.-P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine : au Sahara de 1504-1902, au Maroc de 1894 à 1912*, Paris, Félix Alcan, 1923, pp. 62-3.

¹⁰ أحمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج. 5، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1955، ص. 90.

¹¹ Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail, roi de Fès et de Maroc d'après Joseph de Léon, 1708-1728*, Paris, Librairie orientale Paul Geuthner, 1974, p. 11.

¹² عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 28-29، راجع أيضا: العربي بن عبد السلام، الدرة المكنونة الغالية في وصف أهل الدولة العلوية العالية، مجموع مخطوط، خ. ح. رقم 12018، ص. 68-70.

في منامه الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو يشير عليه بأصابعه الثلاثة التي ترمز إلى توليه الحكم في سن الثلاثين¹³.

ماذا نستشف من هذه التصورات التي أحاطت بشخصيتي هذين الأميرين؟ ألم يكن التنبؤ بقدوم سلطانين قوين يمهدان المغرب، ويخضعان القاصي والداني من سكانه، يرتبط ارتباطاً عضوياً بحالة ترقب عاشتها البلاد في ظل الفتن التي أنهكتها، وطمحت إلى التخلص منها، والخروج من انعكاساتها؟ إن الصراع بين المتوكل وعميه، وحروب المولى رشيد لإرساء ملكه، وما نتج عن كل ذلك من خراب ودمار، كل ذلك أفرز تطلعا إلى تجاوز هذه المحن، التي نجح السلطانان إلى حد كبير في امتصاص تبعاتها، فجددا استجابة لذلك الترقب. مما أضفى عليهما صفة استثنائية، إن لم نقل خارقة، جعلت الكتابات الإخبارية تربط بين منجزاتهما على أرض الواقع، وبين ما شاع في الكتب القديمة من نبوءات. بل هناك من جعل من هذا الترقب حالة انتظارية مرتبطة بفكرة المهدوية، انطلاقاً مما أورده الإفرائي حول دخول جيش أحمد المنصور إلى السودان، وما أكدّه ابن أبي محلي من كون ذلك التوسع، « علامة من علامات آخر الزمان لأهل المغرب الأقصى »¹⁴. فهل ينطبق الافتراض نفسه على نبوءة توات التي توقعت أن يتولى المولى إسماعيل الحكم في نهاية الزمن؟¹⁵

كما اتخذت الرؤى من الاختيار النبوي للأميرين علامة لها، بهدف تأكيد المرجعية التاريخية التي تضفي الشرعية على سلطتيهما، سواء في مواجهة القوى الدينية المنافسة أو الخلافة العثمانية، وتجسد الاستمرارية التي يتم من خلالها إعادة إنتاج مفاخر الرسول صلى

¹³ محمد الإفرائي، روضة التعريف... م.س.د.، ص. 58. انظر أيضاً: عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 26؛ أحمد الناصري، ن.م، ص. 90.

¹⁴ عبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي ورحلته من خلال الإصليت، الرباط، منشورات عكاظ، 1991، ص. ص. 34-35، راجع أيضاً:

M. Garcia Arenal, « Mahdisme et dynastie sâadienne », in A. Kaddouri, *Mahdisme crise et changements dans l'histoire du Maroc : actes de la table ronde organisée à Marrakech du 11 au 14 février 1993*, Rabat, Faculté des lettres, 1994, p. 112. M. Garcia Arenal, « Pouvoir sacré et mahdisme : Ahmad Al-Mansour Al-Dhahabi », in *Al-Qantara*, vol. 17, fasc. 2, 1996, pp. 453-71.

عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 29، هامش 1.

¹⁵ A.-G.-P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine... op. cit.*, pp. 62-3.

ظهر أحمد المنصور في الاسطوغرافية كمنقذ، وهو ما أكدّه الجنابي: « ... وقالوا في حق الشريف مولاي أحمد هذا هو الفاطمي الموعود على لسان صاحب الشريعة في آخر الزمان »، راجع: الجنابي، البحر الزخار والعيلم التيار، مخطوط، خ. ح.، رقم 1507، ص. ص. 531-532.

عليه وسلم، وإخراج البلاد من دائرة عدم النظام التي تتخبط فيها¹⁶، وكأن عهديهما شخصان عودة حقيقية إلى البداية تمثل تجديد ركائز الدولة وأسسها، إن على المستوى البلادي أو الرمزي. ومن هنا تبدو الأحلام كما لو نسجت لإثبات واقع ملموس كرسته قوة شخصيتي السلطانين، وتجذر في ذهنية الإخباريين الذين لم يتوانوا في الاستشهاد بأية رواية تقر بهذا الواقع، وتجعل من صورته مرادفة للخوارق. كان أحمد المنصور «له في الغيب من السر المكنون»، و«مرائيه الكريمة...أصبح من رؤية العين»¹⁷، فقد شهد في منامه أن بشرى ستطل عليه في ظرف خمسة أيام، وبمجرد ما انقضت هذه المدة، أتته بشرى القضاء على ثورة الناصر¹⁸. وكان المولى إسماعيل «يكاشف عما أخفوه، ويصير عنده كأنه علانية»¹⁹، حيث كانت رؤيته حول ابن أخيه أحمد بن محرز، مصدر حزن واكتئاب بعد أن طال تمرده، أولها وزيره أحمد اليمحدي على أنها بشارة من الله تعالى، توجت بتوقيع الصلح بين السلطان وخصمه²⁰. فكيف يمكن تفسير مضامين هاتين الرويتين، من منطلق تركيزهما على أكبر ثورتين واجههما السلطانان طيلة مدة حكميهما؟ إن ضغط الثورتين وحجمهما هما اللذان أفضيا إلى انشغال مخيلتي السلطانين بهما؟ أم أن النجاح في إخمادهما هو الذي أقرز البشارتين في الخطاب الإسطوGRAفي الرسمي الذي سعى دوما إلى استخدام هذا النوع من التصورات، لتحصين السلطة السلطانية أمام كل الأخطار المحتملة؟ وهل استهدف هذا الخطاب ترسيخ فكرة «السلطان غير المرئي» الموجود إلى حد ما بقصره، والقادر بفضل شبكة من العيون والآذان على رؤية وسماع كل ما يدور في البلاد²¹، ويتحول إلى فراسة من قراساته؟

¹⁶ A. Sebti, «Présence des crises dans la chronique dynastique marocaine entre la narration et les signes», in *Cahiers d'études africaines*, n° 19, 1990, p. 241. Voir aussi : M. Garcia.Arenal, «Mahdisme et dynastie Sâadienne», p. 107.

¹⁷ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص.ص. 27، 178.

¹⁸ ن.م، ص. 178.

¹⁹ أحمد ابن الحاج، الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن، مخطوط، خ. ح، رقم 12184، ج. 7، ص. 146.

²⁰ محمد أكنسوس، الجيش العرمم الخماسي في دولة مولانا علي السجلماسي، تحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، ص. 130.

²¹ J. Dakhliia, *Le divan des rois...op. cit.*, pp. 238, 240 ; voir aussi, M. Senellart, *Les arts de gouverner : du regimen médiéval au concept de gouvernement*, Paris, Seuil, 1995, p. 280.

أكد أن الثورتين شكلتا هاجسا كبيرا للسلطانين، وأسفرتا عن خلخلة حكميهما بدليل الفرحة الكبرى التي انتابت بلاطيهما بعد القضاء عليهما، فحاولت الكتابات الإخبارية أن تكشف عن هولهما، وتؤكد أن مآل التمرد ضداً على السلطة هو الفشل بالنظر لقوة العاهلين. وبذلك يبدو أن عرض الرؤيتين يصب في اتجاه إثبات قدرة الهيبة السلطانية، على التزكية الرمزية لأي انتصار عسكري تم تحقيقه في مواجهة الخصوم.

كما ارتبطت شخصيتا السلطانين بالكرامات التي أدخلتهما في خانة الأولياء، وألبستهما لباس الصلاح، فظهر أحمد المنصور في صورة من لا يخترقه الرصاص، ويحتمي به الجنود كلما داهمهم أخطار العدو، ويعبر الفيافي والقفار دون حاجة إلى ماء أو طعام، فقد تخلى عنهما لحاشيته وخدامه ليتهافتوا عليه من شدة العطش والجوع. وتعجب الناس من قدرة المولى إسماعيل في زمن المسغبة، على إطعام خمسين ألفاً من قواته المرابطة على وادي بهت، بخمسة أوسق من الشعير فقط، وعلى الاستجابة لرجل عقيم قصده في طلب ولد فمنحه إياه في المنام، فمن الله عليه به²². أنكون أمام أعمال يمارسها أهل الظاهر والباطن، وتسعى إلى الرفع من شأن السلطانين، عبر تعزيز تفوقهما المادي بقوة رمزية موازية للقوى الرمزية الأخرى المنافسة²³؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون مبالغة فرضتها هيبة السلطانين الدينية والسياسية لدى الناس، فحول الخطاب الإسطوGRAفي الرسمي في الكثير من الأحيان حسن تدبيرهما لبعض القضايا، إلى سلوكات خارجة عن إرادة البشر؟

لقد أراد الفشتالي التعبير عن شجاعة مثالية لولي نعمته، فأدخله في عالم الخوارق، واستهدف ابن الحاج إثبات نجاعة التدبير السلطاني في مواجهة الشدائد من مجاعات وغيرها، بوسائل تدل على بركته التي تقوم على الكيف وليس على الكم. كما أراد أن يؤكد قدرته على تجاوز

²² يقابل الفشتالي في هذا الوصف بين صورتين رمزيتين متباينتين، فبينما تهافت أفراد حاشية السلطان الجائعين على أرنب هم المنصور بالتوضؤ وهو ينظر إليهم، فالصورة الأولى تجسد سلوكا في أبعاده المادية الدنيوية، والثانية تعكس موقفا نبيلاً في دلالاته الأخلاقية والدينية. عن كرامات السلطانين، راجع: عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 31، 38. انظر كذلك، أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. 147، 342؛ أحمد بن القاضي، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، تحقيق محمد رزوق، الرباط-بيروت، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، 1986، ص. 676، هامش 29. وعن الخوارق التي استخدمها ملوك أوروبا في علاج المرضى، راجع:

M. Bloch, *Les rois thaumaturges : étude sur le caractère surnaturel attribué à la puissance particulièrement en France et en Angleterre*, Paris, Gallimard, 1983, pp. 186, 409.

²³ R. Jamous, *Honneur et baraka : les structures sociales traditionnelles dans le Rif*, La Maison des sciences de l'homme et Cambridge University Press, 1981, pp. 217, 234-5.

إعطاء المادي إلى عطاء معنوي مرتبط بالنام، مادامت « عطية السلطان لا ترد »²⁴. وتبعا لذلك يمكن اعتبار هذه الكرامات تعبيرا عن المنافسة بين السلطان والولي على المستويين الديني والسياسي²⁵.

نلاحظ مما سبق، أن هناك عناصر ثابتة تم توظيفها في هذه الرؤى، من قبيل الحضور الدائم لرسول صلى الله عليه وسلم باعتباره مانح الأحقية في الخلافة، أي أن الأحلام حافظت على بناء نسق متقارب²⁶، تخول من خلاله الشرعية، وما يتغير هو اسم أحمد المنصور بالمولى إسماعيل. ومن المنظور نفسه، يمكن أن تتناول الرؤيتين المتعلقين بثورتي الناصر وابن محرز، إذ وردت البشارتان في سياق مماثل، مؤداه شعور السلطانين بالحيرة والملل والخوف مما قد يسفر عنه التمردان. وهو ما يدل على أن وظيفتي الرؤيا والبشارة في كلتا الحالتين ثابتة، وإن تغير السياق الذي وردتا فيه، فدلالتهما لا تخلوان من استمرارية يتم إدراكها أكثر من خلال تلمس أوجه الشبه بين شخصيتي السلطانين، ويعكس وجود بنيات سردية ثابتة لهذه الأحلام، بالرغم من التباين في طرق عرضها، مستوحاة من المرجعية الثقافية الإسلامية، وخاضعة لمنطق الكتابة الإخبارية الرسمية، التي تتخذ من خدمة السياسة السلطانية بمختلف الوسائل، أولى أولوياتها.

وإذا كانت هذه الرؤى والكرامات تختزنان وقائع تاريخية، اتخذت من شخصيتي السلطانين موضوعا مركزيا لها، فإنها لم ترتبط بتفوقهما الرمزي فحسب، بقدر ما ارتبطت بطول مدة حكميهما، وبمدى نجاحهما في بلوغ أهدافهما²⁷، بمعنى أنها وليدة ظريات فرضتها قوة السلطانين، وما واكبها من ضرورة تعالي المخزن ورفعته، ولو باستخدام منطق خيالي يعبر عن أحداث مستحيلة. إذن أنحن أمام روايات تاريخية خاطئة بالرغم من صفتها التاريخية، أم أننا إزاء أحداث تاريخية صحيحة بالرغم من طابعها الأسطوري²⁸، أم أن من مستلزمات التحكم في السلطة امتلاك ما سماه ماكس فيبر Max Weber خاصية الإلهام التي

²⁴ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. 147. كمال عبد اللطيف، في تشريح أصول الاستبداد قراءة في الآداب السلطانية، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الأولى، 1999، ص ص. 203-204.

²⁵ L. Valensi, *Fables de la mémoire : la glorieuse bataille des trois rois*, Paris, Seuil, 1992, p. 104.

²⁶ V. Propp, *Morphologie du conte : traduction française*, Paris, Seuil, 1970, pp. 28-9.

²⁷ L. Valensi, *Fables de la mémoire...op. cit.*, p. 77.

²⁸ E. E. Evans Prichard, *Les anthropologues face à l'histoire et à la religion*, pp. 57-8.

تخول للزعيم سلوكات خارقة للعادة؟ أم أننا أمام تاريخ حقيقي أضحي مقدسا، واستهدف تكرار ماض نمودجي، واستعادة الجذور الأولى التي انبثقت منها المؤسسة السلطانية، مادامت الأسطورة تعبر عن الزمن العجائبي الذي تخلق فيه أشياء جديدة، لا يجد الإنسان بديلا عن استحضارها في مراحل القوة؟²⁹

والخلاصة أن تمثل الإسطوغرافية الرسمية لشخصيتي السلطانين، لم يقتصر على تقديم صورهما من خلال الروى والكرامات فقط، وإنما امتد ليضفي عليهما مختلف الصفات النبيلة، التي تستهدف تأكيد سمو المؤسسة السلطانية، وتركيز شرعيتها الدينية بشرعية أخلاقية ترسخ تفردا وتميزا من الرعية، وتضمن استمراريتها.

- الخصال الحميدة -

لقد حاز السلطانان مدارك من الفطنة والذكاء لا يضاهيهما فيها أحد، إذ كلما استعصى على القضاة والعلماء أمر بعض النوازل، استفسروا أحمد المنصور الذي سبق له أن استوعب كتاب إقليدس دون أستاذ، فبهتهم وأشفى غليلهم. وكان المولى إسماعيل يبهر العلماء بعقله الراجح، وتدخلاته الثاقبة، التي تفضي في الغالب الأعم إلى حل أعقد المعضلات، لذا يستحيل أن تنطلي عليه حيل أي كان. وشكل التقوى والانقياد لأحكام الشرع وأداء واجباته، شعارات ملازمة لسياسات السلطانين؛ فلم يتردد أحمد المنصور في الإنصاف من أحكام القضاء حتى من نفسه، وفي إحياء ليالي رمضان الكريم بخشوع كبير. واعتاد المولى إسماعيل أن يسجد مقبلا التراب ثلاث مرات ومتضرعا إلى الله، ليعينه على تسيير شؤون البلاد والعباد³⁰. كما اتسم الرجال بقوة الصبر وبالطاقة على التحمل، إذ أثبت أحمد المنصور قدرة فائقة على تجاوز الشدائد في أسفاره وحروبه، فاقت قدرات البشر حتى كان « شأنه... في الصبر والاحتساب آية »³¹. وأظهر المولى إسماعيل، بالرغم من معاناته الأمرين

²⁹ مرسيا إلباد، مظاهر الأسطورة، ترجمة نهاد خياطة، دمشق، دار كتعان للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 1991، ص 19، 21-22. وعن متى تنتهي الأساطير ومتى يبدأ التاريخ؟ انظر: كلود ليثي شتراوس، الأسطورة والمعنى، تعريب شاكر عبد الحميد، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، سلسلة المائة كتاب، الطبعة الأولى، 1986، ص ص. 60، 62، 64.

³⁰ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص ص. 213، 268؛ محمد الإفرائي، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، صحح عباراته التاريخية هوداس، الرباط، مكتبة الطالب، الطبعة الثانية، د.ت، ص. 133. انظر أيضا، روضة التعريف... م.س.ذ.، ص ص. 78، 81؛ وأحمد ابن الحاج، الدر المنتخب... م.س.ذ.، ج. 7، ص. 155.

³¹ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص ص. 30-32، 227؛ محمد الإفرائي، روضة التعريف... م.س.ذ.، ص. 65.

في تمهيد البلاد، صمودا كبيرا في ردع المتمردين، وفي تحمل عواقب ملاحقتهم³².

أما صفحهما وعدلتهما وتواضعهما، فقد شمل كل شرائح المجتمع؛ إذ غفر السلطان السعدي زلات عناصر من حاشيته، وعثرات بعض القبائل كأهل سوس الذين قدموا الدعم للمتوكل، وخصص أوقاتا معلومة للبت في شكاوى المظالم التي يعاني منها المستضعفون. وأبان السلطان العلوي أحيانا عن عفو سخي تجاه خطايا الثائرين، إذ صفح عن أهل فاس بعد عصيانهم، وعن أهل القصر الكبير، بعد أن مالوا إلى صف غيلان، وعن أهل مراکش الذين ساندوا ابن محرز، بل لم يذخر وسعا في البروز أمام الناس، متيحاً بذلك الفرصة لمن أراد إنصافه من تجاوزات عماله³³.

يتبين من خلال هذه النماذج من الصفات التي أضفتها الإسطوغرافية على شخصيتي السلطانين، أننا أمام خطاب استهدف رسم صور تعكس في الوقت نفسه، المؤهلات المادية والأخلاقية المستمدة من سيرة الخليفة المسلم الورع، والتي استوحاها من نسبه الشريف، ومن قدراته التنظيمية النابعة من شخصيته. فاستنادا إلى هذا التصور، شبه ابن القاضي معركة وادي المخازن بغزوة بدر، وتوخي ابن الحاج المماثلة بين سلوكات المولى إسماعيل ونظيرتها لدى عمر ابن الخطاب والحجاج³⁴. إذن يترجم استحضار هذه المرجعيات التاريخية رغبة الإخباريين في ربط الحاضر بالماضي من خلال استعارة النعوت، من عصر صدر الإسلام ونقلها وتحويلها لفائدة السلطانين بهدف تكريس شرعيتيهما القائمتين، وإثبات تجذرهما التاريخيين. بل إن الفشتالي حين أكد على صبر أحمد المنصور وشجاعته ونباهته في حروبه ضداً على المتوكل، بالرغم من نقص العدة والعدد، فهو سعى من جهة إلى إعادة إنتاج أحداث تاريخية إسلامية سابقة انتصرت فيها أقلية من الجند على أغليبيته. وحاول من جهة أخرى أن يجسد مسبقا معركة وادي المخازن³⁵، وما تلاها من فتح توات وتيكورارين والسودان، أي

³² أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. 29؛ أحمد ابن القاضي، ن.م، ص ص. 676-677.

³³ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 66، 79. عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص ص. 227-228؛ أحمد ابن القاضي، ن.م، ص ص. 252-253؛ محمد ابن العياشي، زهر البستان في نسب أحوال سيدنا المولى زيدان، مخطوط، خ.ع، رقم 2152، ص ص. 91-92؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 76. ورد أن المنصور سجد وقيل الأرض خلال استقباله من طرف أخيه عبد الملك عشية اندلاع معركة وادي المخازن، غير أن هذه الممارسة يبدو أنه تخلى عنها بعد توليه الحكم، راجع: H. de Castries, (Comte), S.I.H.M., 1^{re} série, Fra., t. 1, Paris, Ernest Leroux, 1905, p. 537.

³⁴ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص ص. 252، 260؛ أحمد ابن القاضي، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة أبي العباس المنصور، تحقيق محمد رزوق، الرباط، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، 1986، ص. 242.

³⁵ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص ص. 31-35، راجع أيضا:

أنه طمح إلى ترسيخ ذاكرة قوامها الاستمرارية المستوحاة من الماضي الحي. وسار الإفرائي في الاتجاه نفسه حين أشار إلى فطنة المولى إسماعيل ونجابهته بصفته خليفة بفاس، واعتبر المولى رشيد مجرد ممد ومهيء لفتوحات واسعة. لكن هذا لا ينفي عن السلطانين اهتمامهما بالروايات التاريخية، بهدف اتخاذها مرجعية لممارساتهما السياسية، فتشبهها بالسلف الصالح، وحاولا قدر الإمكان تتبع خطواته، وهو ما يجد تفسيره في تكليف المولى إسماعيل وزيره أحمد اليعمدي، بتأليف كتاب ضم جردا لأهم المصنفات التاريخية والفقهية والأدبية، ولمواضيع حول الخلفاء الأمويين والعباسيين³⁶، مما يعكس رغبته في الإفادة من تجارب الآخرين والتشبه بهم. وفي السياق نفسه، يمكن فهم تشجيع المنصور العلماء والكتاب على إنجاز تأليف لفائده أهمها « مناهل الصفا... »

وهكذا نستنتج وجود صفات سلوكية ثابتة انطلق منها الإخباريون، واتخذت من الآداب السلطانية نموذجا لها، ومن المقومات الشخصية للحاكم أساسا لها، ومن إثبات تفرد المؤسسة السلطانية هدفا لها. فتقريب المنصور للعلماء مثلا، هو الذي كساه برداء الجود والسخاء المنقطع النظير، والتحرك الدائم للمولى إسماعيل في مختلف الاتجاهات ومراقبته الصارمة لعماله، هما اللذان جعلاه حاضرا باستمرار في أذهانهم، يمارسون مهامهم وهم خائفون منه³⁷. لذلك فإن المؤهلات الشخصية، والإرادة القوية لتخطي كل العقبات، أضفت على السلطانين صفات اتخذت أحيانا طابعا أسطوريا، يفسر بما سبقهما وبما أعقبهما من فترات مليئة بالفتن والاضطرابات؛ لأن الحكم المستمد من الله لا تتم فيه طاعة الحكام الأقوياء من قبل الرعية، إلا إذا كانت لهم مؤهلات تمكنهم من الاستفادة من الهبة السماوية³⁸. إذن أتعلق الأمر بمغالاة الإسطوغرافية في تعظيم الصفات الشخصية للسلطانين فقط؟ أم أن الأمر محكوم بالمنطق الإخباري القائم على توظيف التاريخ للعبرة من زاوية أفقية سعت إلى إبراز عظمتهما؟

L. Valensi, *Fables...*, op. cit., p. 69.

³⁶ أحمد اليعمدي، مدد التأيد في ترتيب المحفوظات والنقايد، مخطوط، خ.ع، رقم 11535، ص. 2، 39، 44. وتضمن الكناشة التي تقع في 431 صفحة، رسائل سلطانية سعدية.

³⁷ محمد الإفرائي، نزعة الحادي... م.س.ذ.، ص. 125؛ أحمد ابن الحاج، ن.م.، ص. 253.

³⁸ A. Jouanna, « L'institution divine des magistrats inférieurs selon Théodore Bèze », in Marie-Madeleine Fragouard et Michel Peronnet (dir.), *Tout pouvoir vient de Dieu (St Paul. Rom. XIII 2)*, actes du VII^e colloque Jean Boisset, Université de Montpellier III, Sauramps, 1993, p. 213.

إن إضفاء الطابع الأسطوري استهدف بدون منازع، ترسيخ رؤية قوامها أن الممارسة السلطانية ما هي إلا محاكاة للأسلاف، وعودة للأصل³⁹، لذا حرص الإخباريون في بناء صورة متكاملة للسلطانين، على استقاء قاعدة أخلاقية، إما من حكاياتهما المباشرة، أو انطلاقاً من الملاحظات، ومن تعاليق بعض الثقة. غير أنهم صاغوا مادتهم وفقاً لتلك الرؤية، فشيّدوا شخصيتين مستمدتين من الميثولوجيا الإسلامية، ومن درجة تشبعهم بالثقافة السلطانية في علمها السياسي⁴⁰. لكن أيمكنا الحديث عن التماثل أم التكامل بين الإسطوغرافية المحلية، وبين تصور الكتابات الأجنبية لشخصيتي السلطانين؟

الكتابات الأجنبية

إذا كان من الصعب الوقوف في المصادر الأجنبية، على لوحة تمثل الصفات الشخصية لأحمد المنصور بشكل أوضح، فإن شخصية المولى إسماعيل على العكس من ذلك، احتلت حيزاً أوفر في تلك الكتابات، ويعزى ذلك بالدرجة الأولى إلى اختلاف الظرفية التي حكم خلالها الرجلان. فمرحلة أحمد المنصور ظلت مطبوعة بنتائج معركة وادي المخازن، وما أكبها من اشتداد الصراع بين المسيحية والإسلام. كما أن الرحلات والكتابات الأوروبية عن المغرب لم تعرف في عهده انطلاقاً حقيقياً، وانتشارها الواسع، بل بقي اهتمامها منصباً على الصراعات بين الإمبراطوريات التقليدية، وعلى الانتعاش الذي بدأت ملامحه تدب في شرايين المحيط الأطلسي، مقابل انكماش ملحوظ للبحر الأبيض المتوسط. لذا لم تنل شخصية أحمد المنصور، بالرغم من صيتها، حظها الكافي من أقلام الرحالة والمبعوثين، بالقدر نفسه الذي أولي لتحركاته وتحالفاته الدبلوماسية، ولمشاريعه التوسعية.

في حين تزامنت مرحلة حكم المولى إسماعيل مع انتقال المبادرة والغلبة للاقتصاديتين، الثقافييتين بالتبعية إلى دول أوروبا الشمالية الغربية، التي أضحت تسيطر على ممرات التجارة العالمية، وتسعى إلى تأمين حرية الملاحة والقضاء على القرصنة، فتوسعت من هذا المنظور دائرة الكتابات الأوروبية حول المغرب، بالنظر إلى موقعه الجغرافي المتميز، وإلى مراهنة سلطانه على نشاط الجهاد البحري، واستجابت لحاجات جمهور متعطش إلى « الاستغراب

³⁹ روسيا إياد، ن.م، ص. 37.

⁴⁰ فيليب هامون، سيمولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بنكراد، الرباط، منشورات دار الكلام، 1990، ص. 37. راجع أيضاً:

J. Dakhli, *Le divan des rois...*, op. cit., p. 46.

الرومانسي»، فلم تتوقف أقلام الأسرى والرحالة ورجال الدين والسفراء ومرافقيهم عن تقديم صور عن السلطان العلوي جمعت بين الحقيقة والخيال، وبين الموضوعية والتحامل.

لم يول الأسير البرتغالي شالدانيا في تقييده التي خصصها لمرحلة حكم أحمد المنصور، عناية خاصة بشخصيته، فقد اكتفى بالتركيز على حكمته وحذره الشديد، وسخائه الكبير، ومهارته في استغلال الفرص المتاحة له، لكونه كان محظوظا يحقق كل مشاريعه حسب رأيه بطريقة تجاوزت ما كان يرغب فيه، فاتفق بذلك مع المجهول السعدي، الذي اعتبره عظيم البخت حتى « قيل إنه إذا هم بأمر أتاه فوق ما أراد ونوى »⁴¹. وأشارت المصادر الإسبانية والبرتغالية إلى لباقة، وحسن تدبيره، وانفتاحه على عصره، وكفاءته وحيطة الكبيرة في تدبير شؤونه، باستثناء صاحب « زهرة الشماريخ... » الذي اعتبر أن أحمد المنصور كان يعطي الأولوية للذاته وشهوته، ثم العلاج الإسباني سيمون ميندس Simon Mendes الذي ادعى أنه شارك في حفلات ببلاطه، غصت بالجواري الحسان، وتدفق فيها النبيذ⁴².

أما شخصية المولى إسماعيل فقد أسالت مدادا كثيرا، تراوحت ألوانه بين صور الطاغية الدموي الذي يعيش في قصر الألف ساحة، والمحاط بسرايا ضخمة، وبعدد لا يحصى من الأسرى⁴³، وبين لوحات أكثر اعتدالا، وأشد قربا من منظور الكتابات المحلية. ودون الوقوف عند الطرح الأول المحكوم بخلفية التحامل، وبمنطق الأحكام المسبقة، يمكن الإقرار بوجود تقاطعات جمعت الكتابات الإخبارية بميثلاتها الأجنبية، لكن هناك صفات انفردت بها هذه الأخيرة وتغاضت عنها الأولى، أو ربما اعتبرتها من باب البديهيات.

⁴¹ المجهول السعدي، تاريخ الدولة السعدية التكميلية...، م.س.ذ، ص. 63، 102.

A. de Saldanha, *Chronique d'Al-Mansour sultan du Maroc (1578-1603)*, D. Farinha (Editeur scientifique) ; L. Bourdon (trad.), Lisboa, Instituto de investigação científica tropical, 1997, pp. 44, 80, 98.

⁴² محمد الإفرائي، نزهة الحادي...، م.س.ذ، ص. 120. نسخة رسالة موجهة من فيليب II إلى Baltazar Polo بتاريخ 1595-8-28؛ ونسخة رسالة من Diégo Marin إلى دوق Medina de Sidonia بتاريخ 1594-3-2.

Archivo General de Simancas, (Valladolid), Espagne, seccion Estado, Legajo 174.

R. Ricard, « Le Maroc à la fin du XVI^e siècle, d'après le Jornada de Africa de Jerónimo Mendoça », in *Héspéris*, t. XLIV, 1957, p. 195. B. & L. Bennassar, *Les chrétiens d'Allah : l'histoire extraordinaire des renégats, XVI^e-XVII^e siècles*, Paris, Perrin, 1989, p. 406.

انظر أيضا، ملف محاكمة العلوج الأربعة بكناريا، عبد الرحيم شكري، العلوج بالمغرب خلال العهد السعدي، أطروحة دكتوراه في التاريخ، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، سنة 2000، ص. 65 من الملف، ص. 104 من الأطروحة.

⁴³ M. Morsy, « Mulay Isma'il ou l'instauration de l'Etat 'alawite », in *Les Africains*, t. IV, Paris, Jeune Afrique, 1977, p. 133.

تؤكد الكتابات الأجنبية في وصفها لشخصية المولى إسماعيل، على شجاعته وصرامته وعمله، وتواضع مأكله وملبسه، وعلى تمسكه الشديد بالدين، وإشرافه المباشر على كل الأمور بحسه. غير أنها تشير بالمقابل إلى كونه كتوماً، وسريع الغضب، ومتقلب الطبع، وقاسياً مع محمردين، وهي الصفة التي مكنته من تحقيق الأمن بالطرق والمسالكة⁴⁴. فهل يتعلق الأمر بحكام في الأوصاف بين الكتّابتين، مع اختلاف الخلفيات الموجهة لكل كتابة على حدة؟

مثلت قدسية المؤسسة السلطانية جوهر الكتابة الإخبارية، ومنظارها الذي تم من خلاله تناول باقي فئات المجتمع، لذا فلا غرابة أن تتباين خلفيات أصحابها، مع تلك المؤطرة لأحكام الصادرة عن الأسرى الأوروبيين ومفتديهم، أو عن الدبلوماسيين، التي صبت في اتجاه مشروع أساسه معرفة كل التفاصيل عن الآخر، باعتبارها مفتاحاً لفهم خصوصياته. فالمستحضر صور المولى إسماعيل باعتباره حاكماً مستبدّاً ورجلاً يخفي وراءه ألغازاً غريبة، أمر لا ينفصل عن هذا المشروع الذي يتخذ من الكتابة عن «الآخر» بداية التمهيد للسيطرة عليه. وقد سبق للتقارير الأجنبية أن أشارت إلى أن المغرب لا يمكنه الحفاظ على استقلاله، إلا إذا كان محكوماً من قبل زعيم قوي⁴⁵، مما يدل على العناية الكبيرة التي كانت تحظى بها شخصية السلطان، باعتبارها تجسد درجة عظمة المخزن. «فحكم المولى إسماعيل الطويل والمتشدد، وطموحه في فرض هيئته على جيرانه، قد أضافت نمطاً جديداً من التصورات للتبادلة في فرنسا، إن مولاي إسماعيل معاصر للويس الرابع عشر، ونقد الاستبداد الذي بدأ في فرنسا آنذاك كان يفضل الاستعانة بالرموز، من هنا تشكل صورة إسماعيل للمعادل لصورة المستبد القاسية والتي هي تورية لصورة لويس الرابع عشر»⁴⁶. بذلك ورد الحديث عن شخصية السلطان في الكتابات الأجنبية ضمن سياق عام، تقدم فيه بالأساس صورة سياسية، ترتبط بأسلوب حكمه، وبقدراته العسكرية، ويمدّى انفتاحه. بينما تركز الإسطوغرافية المحلية أكثر على البعد الديني، لكونه مصدراً تستمد منه الصفات الشخصية

⁴⁴ جون وندوس (Windus)، رحلة إلى مكناس، ترجمة زهراء إخوان، مكناس، منشورات جامعة المولى إسماعيل، المحمدية، مطبعة فضالة، 1993، ص. 88، 93؛ جرمان مويط (Mouette)، رحلة الأسير مويط، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الريصاني، نشر مركز الدراسات والبحوث العلوية، ص. 75، راجع أيضاً: D. Maxange, *Le Grand Ismail...*, op. cit., pp. 28, 30, 220 ; Ch. de La Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., pp. 5, 14.

⁴⁵ انظر مذكرة Cabrette سنة 1582: H. de Castries, (Comte), *S.I.H.M*, 1^{re} série, Ang., t. I, Paris, Ernest Leroux, 1918, p. 408.

⁴⁶ خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا، بيروت، رياض الرايس للكتب والنشر، الطبعة الأولى، 1983، ص. 66.

للسلطان، وإطاراً ثقافياً تبرر من خلاله ممارساته السياسية في شقيها المادي والرمزي، كما سنرى فيما بعد. لهذا فإن أي قراءة لشخصيتي السلطانين، لا يمكن أن تكون ناجعة بمعزل عن إدراك الدلالات الحقيقية للروايات الإخبارية في أبعادها الثقافية والسياسية، التي يتم توظيف المرجعية التاريخية والدينية في نصوصها، عن خلفية تبريرية لمختلف الممارسات السلطانية، تحاول من خلال تحيين الماضي الحي، ولو بواسطة مشاهد أسطورية وخرافية، ضمان استمراره في الحاضر لما تمثل ممارساته ورموزه من تحصين للمؤسسة المخزنية، ومن استجابة لأنماط البنيات الاجتماعية والدينية السائدة في علاقاتها مع تلك المؤسسة.

وجملة القول إن قوة شخصيتي السلطانين، شكلت حجر الزاوية في تحديد الحيز الذي احتلاه في الكتابات المحلية والأجنبية، من حيث حجمه وطبيعته التي جمعت بين ما هو واقعي وأسطوري. فكيف نشأ السلطانان؟ وما هو رصيد التجارب والخبرات التي اكتسبها قبل مبايعتهما؟

مسار السلطانين

النشأة

كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، حظي كل من أحمد المنصور والمولى إسماعيل باهتمام وعناية كبيرين، سواء من قبل الكتابات التاريخية المحلية أو الأجنبية، ويعود ذلك إلى سمعتهما المكتسبتين بصفتهم سلطانين قوين نجحا في تحقيق نوع من الاستقرار الداخلي، وفي تخويل المغرب هبة على الصعيد الخارجي. إذ اعتبرت تجارب حكميهما نماذج متميزة لتحديث المؤسسة المخزنية، وبنينا شيد على أساسه المغرب الحديث، وربطت أغلب التأويلات ذلك بمؤهلاتهما الشخصية، وبحسن تدبيرهما، فمن هو أحمد المنصور؟ ومن هو المولى إسماعيل؟ وما هي ظروف نشأتهم، والعوامل التي أثرت في صقل شخصيتيهما؟

ولد أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد الشيخ المهدي بفاس سنة 956هـ/1549م من أمه الحرة مسعودة الوزكيتية الورزاتية، وعاش قسماً من صباه بقرية أمسكروود بسوس، تلقى تعليمه بتارودانت وفاس ومراكش، حيث درس العلوم الدينية واللغوية والتاريخ والفلك والرياضيات والمنطق والتراجم، على يد أساتذة كبار أمثال أحمد المنجور، وعبد الواحد الحميدي، ورضوان الجنوي، ومحمد الدرعي، ويحيى السراج، وسليمان بن إبراهيم. كما

حضر عدة مجالس علمية مع أخيه عبد الملك، قبل أن يشارك الفقهاء والعلماء في المناظرات يلاطه. وحصل على إجازات من علماء المشرق، كالحسن البكري وبدر الدين القرافي، ونظم قصائد شعرية وألف عدة كتب، ثم كلف أهل العلم بإنجاز تأليف أخرى لخزائنه⁴⁷. وقدمت المصادر وصفا جسمانيا له، فكان حسب الإفرائي « طويل القامة، ممتلئ الخدين، واسع المنكبين، تعلوه صفرة رقيقة، أدعج، أسود الشعر، كحل العينين، ضيق الفلج، براق الثنايا، جميل الوجه، مليح الصورة، ظريف الترع، لطيف الشمايل، حسن الشكل »⁴⁸. بالمقابل وصفه المجهول السعدي بكونه، « أسمر اللون غائر العينين، وافر اللحية، غليظ الجسم، جهير الصوت، له لثة وافر الثياب، له شرطات على خده »⁴⁹.

أما المولى إسماعيل بن الشريف، فولد سنة 1056هـ/1646م بسوس حسب البعض، وبقصر أبحار بتافيلالت حسب البعض الآخر، وأمه جارية تدعى مباركة المغافرية الأودية. وقد سكنت المصادر عن ذكر مراحل تعليمه وأهم مشايخه، باستثناء ما أورده الزباني وأكنسوس من كون أحمد اليحمدي هو الذي لقنه الدين وألف كتابا لفائدته⁵⁰، وما ذكره الإفرائي حول إلام السلطان بالتاريخ والأنساب وعلم السير، ومشاركته في المحاضرات مع كتابه⁵¹، في حين اعتبرته بعض الكتابات الأوروبية غير ملم بالقراءة والكتابة، أو بأي صنف من العلوم، إلى درجة أنه اعتمد في قراءة الرسائل الموجهة إليه على كتابه، أو وزيره أو إحدى جواريه⁵².

⁴⁷ حول نشأته، راجع: محمد الإفرائي، *نزهة الحادي...* م.س.ذ.، ص. ص. 79، 130؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. ص. 266-267، 272، 294، 299، 301-305؛ أحمد المقرئ التلمساني، *روضة الآس العاطرة الأنفاس*، الرباط، المطبعة الملكية، 1964، ص. ص. 34، 57، 69؛ أحمد بن القاضي، ن.م، ج. 1، ص. 248. ثم المؤلف نفسه، *جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس*، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973، ص. ص. 114-115؛ محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، تحقيق عبد الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني ومحمد حمزة بن علي الكتاني، *الدار البيضاء، دار الثقافة*، 2004، ج. 3، ص. ص. 279-281.

⁴⁸ محمد الإفرائي، *نزهة الحادي...* م.س.ذ.، ص. ص. 78-79.

⁴⁹ المجهول السعدي، ن.م، ص. 63.

⁵⁰ أحمد اليحمدي، ن.م، مخطوط، خ.ع، رقم 11535، ص. ص. 2، 39، 44.

⁵¹ محمد الإفرائي، *نزهة الحادي...* م.س.ذ.، ص. 305. وروضة التعريف... م.س.ذ.، ص. ص. 81-82؛ أحمد بن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 3؛ عبد الرحمن بن زيدان، *المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف*، تحقيق عبد الهادي التنازي، الدار البيضاء، إديال، الطبعة الأولى، 1993، ص. 43؛ محمد أكنسوس، ن.م، ج. 1، ص. 136؛ محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، *سلوة الأنفاس...* م.س.ذ.، ج. 3، ص. ص. 283-284.

⁵² جون بريثويت، *تاريخ الثورات في إمبراطورية المغرب...* م.س.ذ.، ص. 291.

راجع أيضا:

Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 51.

وكان المولى إسماعيل ذا قامة متوسطة، نحيفاً، رشيقاً، ذا وجه طويل، وأنف أقنى، وجبهة عالية، وعينين سوداوين نظراتهما حادة، له علامة على خده، لونه كامد، وجهه جميل، بسيط الملبس والمأكّل⁵³.

ونحن نتصفح هاتين اللوحتين، تستوقفنا ملاحظتان، أولاهما: أن ولادة أحمد المنصور كانت سنة دخول أبيه محمد الشيخ إلى فاس وطرده الوطاسيين، بينما ولد المولى إسماعيل في العام الذي انهزم فيه أخوه محمد بن الشريف أمام الدلائيين في وقعة الكاعة. وجسد الحدث الأول البداية الحقيقية لتوطيد دعائم الدولة السعدية، ومثل الثاني انعقاد الصلح مع الدلائيين، على أساس امتلاك المولى محمد لما يوجد جنوب جبل بني عياش، وهي أيضاً بداية الاعتراف بنفوذه على مجال ترابي شكل قاعدة لانطلاق الدولة العلوية. ثانيهما تتعلق بالفرق بين الرجلين من الناحية الثقافية، حيث ظهر أحمد المنصور من خلال المادة المصدرة المحلية والأجنبية، سلطاناً مثقفاً في مجالات عدة، امتدت لتشمل علم الفلك، الذي لم يذخر وسعاً في اقتناء آلياته ومستجدات مخترعاته بأثمان باهظة⁵⁴، في حين نعتت كتابات أوروبية المولى إسماعيل بصفة الأمية. وإذا كان من المؤكد أن آفة تلك الكتابات تكمن في التحامل المقصود على هذا العاهل، فإن صمت الإخباريين الرسميين عن رصد أساتذته وأنواع العلوم التي تلقاها، لا يجد تعليله إلا في تواضع المستوى التعليمي لهذا السلطان. لكن ما أثر التجارب في صقل شخصيتي السلطانين؟

التجارب المكتسبة

لما اغتيل محمد الشيخ المهدي سنة 1557م، كان سن أحمد المنصور لا يتجاوز الثامنة، فتكلفت به أمه لالة مسعودة المشهورة بلالة عودة، وأخوه عبد الملك. وعندما توفي المولى الشريف بلغ المولى إسماعيل الثالثة عشرة من عمره، فرعاه أخوه المولى رشيد. وأسفر تولي عبد الله الغالب عن فرار الإخوة الثلاثة عبد الملك وأحمد وعبد المومن إلى تلمسان ومنها إلى الجزائر، فظل عبد الملك يحاول الاتصال، عن طريق باشاوات الجزائر بالخليفة العثماني. وذهب إبراهيم

⁵³ جون وندوس، رحلة... م.س.ذ.، ص. 75؛ جرمان مويط، رحلة... م.س.ذ.، ص. 74-75.
Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 13.

⁵⁴ محمد الإفرائي، نزهة الحادي... م.س.ذ.، ص. 132.
H. de Castries, (Comte), *S.I.H.M.*, 1^{re} série, Ang., t. II, Paris-Londres, 1925, pp. 168-70.

اعتبر Maxange أن كثرة أبناء المولى الشريف حالت دون تعليم المولى إسماعيل والاعتناء به. انظر:
D. Maxange, *Le Grand Ismaïl, empereur...*, op. cit., p. 24.

حركات إلى أن أحمد قفل عائدا إلى المغرب في ظروف غامضة لمتابعة دراسته، ثم سرعان ما التحق بأخيه للمرة الثانية، بعد ترشيح المتوكل لولاية العهد وتعيينه خليفة بفاس. لكن شالدانيا أورد أن عبد الله الغالب حاول خلال مناسبتين اغتياله بتلمسان⁵⁵. وبمجرد وفاة عبد الله الغالب، قصد الأخوان السلطان العثماني سليم بهدف مساعدتهما على استرداد العرش، لكنه رفض الاستجابة لطلبهما، إلا بعد أن شارك في استرجاع حلق الوادي من يد الإسبان، وبادرت أم عبد الملك سحابة الرحمانية بزف البشري للخليفة العثماني، الذي أصدر أوامره بدعمهما عسكريا، فدخل في صراع مع عمهما المتوكل، انتهى باندحاره في معركة خندق الريحان وفراره إلى سوس. وأصبح أحمد نائبا عن أخيه بمراكش، قبل أن يفوضه أمر ملاحقة خصمهما وهزمه⁵⁶، ليستخلفه بفاس ويستدعيه مرة ثانية للقدوم إلى مراكش، بعد دخول المتوكل إليها، فنجح في طرده منها، وهو ما دفعه إلى الاستنجاد بالنصارى. بينما عاد أحمد إلى فاس لممارسة المهام العسكرية التي كلفه بها أخوه، والمتمثلة في إعداد الجيوش، التي بلغ عددها تحت قيادته ما بين ثلاثين وأربعين ألفا من الخيالة⁵⁷. ثم ما لبث عبد الملك أن طلب منه تهيئ العدة والعدد استعدادا لمواجهة جيوش سياستيان والمتوكل التي نزلت قرب أصيلا، فاتخذ أحمد عدة تدابير في هذا الشأن، من بينها تعبئة المناطق التابعة لنفوذه، فأرسل مبعوثا إلى زعيم رباط تازروت يحثه على تجنيد الرجال تحسبا لهجوم النصارى من جهة الساحل، وهكذا بمجرد نزول قوات الملك البرتغالي، سارع شيخ الزاوية إلى إبلاغه هو وأخوه عبد الملك عبر رسالتين موجهتين إلى فاس وسلا⁵⁸.

وأُسند المولى رشيد لأخيه المولى إسماعيل مهام عدة، فعينه خليفة عنه بمكناس وفاس التي أسكنه بها وزوجه، فأشرف على أمن المدينة المهدد من قبل أولاد جامع، ونجح في وضع حد لعمليات قطع الطريق التي كانوا يمارسونها خارج أسوارها، كما استعان به أخوه في مراقبة شؤون الأسرى، وفي الإشراف المباشر على قضاياهم. وبالرغم من انشغالاته الكثيرة بفاس،

⁵⁵ إبراهيم حركات، «أحمد المنصور الذهبي كرجل دولة»، مجلة دعوة الحق، ع. 8، 1978، ص. 60. انظر أيضا: A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 24.

⁵⁶ محمد الإفرائي نزهة الحادي...، م.س.ذ.، ص. 59، 63-64؛ المجهول السعدي، ن.م، ص. 54-55؛ أحمد الناصري، ن.م، ج. 5، ص. 61-66.

⁵⁷ المجهول السعدي، ن.م، ص. 57.

⁵⁸ محمد ابن عزوز حكيم، مساهمة رباط تازروت...، م.س.ذ.، ص. 72، 76.

فقد استقر معظم الأحيان بمدينة مكناس⁵⁹، غير أن المادة المصدرية المتوفرة لا تسعفنا في تتبع طبيعة هذه الانشغالات بدقة أكبر. إذن بماذا توحى لنا تجارب الأميرين قبل توليها الحكم؟

كلاهما فقد أباه في سن مبكر. وعاشا في أحضان أخويهما، يراقبان عن كثب ما يجري في البلاد من ترتيبات لتوطيد دعائم الحكم، بل شاركا في إعداد هذه الترتيبات من خلال القيام بمهام الخلافة بفاس. وهو منصب سياسي وعسكري يسند عادة لأولياء العهد لتمكينهم من التمرس على مزاولة قضايا الحكم تمهيدا لتسلم مقاليد تسيير شؤون البلاد. وإن كان المولى إسماعيل أوفر حظا من أحمد المنصور⁶⁰، إذ ناب عن أخيه لسبع سنوات، بينما لم تتجاوز المدة سنتين بالنسبة للأمير السعدي. لكن ما ميز الرجلين هو التباين في نوعية التجارب المتراكمة لديهما، فإذا كان المولى إسماعيل قد قضى طفولته بتافيلالت، ولم يغادرها إلا في سن التاسعة عشرة حين تولى أخوه الحكم، فإن أحمد المنصور تنقل في صباه، بين عدة مدن مع والده محمد الشيخ، قبل أن يضطر للتوجه إلى الجزائر، ويرافق على ما يبدو عبد الملك إلى القسطنطينية، ليشترك في حركات الجهاد البحري. ودامت هذه الإقامة ما يربو على عقدين من الزمن، وهي مدة كانت كافية للتعرف على التنظيمات الإدارية والعسكرية العثمانية، بل للاحتكاك بالبيئة المتوسطة من خلال التواصل مع ثقافات مختلفة استقطبها نشاط القرصنة وأسهم في تلاقحها، إذ كان لتكوين أخيه عبد الملك وانفتاحه أثر بالغ في صقل شخصيته⁶¹، واحتكاكها بالمستجدات الدولية، وهو ما ستعبر عنه مشاريعه التحديثية، وأسلوبه الدبلوماسي بعد توليه الحكم، فقد اعتبر ديكو مرين Diégo Marin أن اطلاعه الواسع على الأوضاع الدولية أسهم في حسن تديره، وفي تقوية حكمه، وإعلاء شأنه⁶². وأكد المجهول السعدي أنه «أخرج... في فترة حكمه العجائب، والغرائب من الذكاء والمعرفة بجميع الأشياء، والهمة العلية، والسعادة الدنيوية، ومواتاة الليالي والأيام»⁶³.

⁵⁹ محمد الإفرائي، روضة التعريف... م.س.ذ.، ص. 60؛ جرمان مويط، ن.م، ص. 34، 37؛ أحمد الناصري، ن.م، ج. 7، ص. 41.

⁶⁰ محمد الإفرائي، نزهة الحادي... م.س.ذ.، ص. 78.

⁶¹ عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا ما بين القرنين 15 و18 (مسألة التجاوز)، بيروت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2000، ص. 184-185، 187.

⁶² نسخة رسالة وجهها Diégo Marin إلى دوق دي مدينا سيدونيا، بتاريخ 28-8-1595: Archivo General de Simancas, (Espagne) S.E, Legajo 174.

⁶³ المجهول السعدي، ن.م، ص. 102.

ولا ندرى طبيعة الأدوار التي قام بها أحمد المنصور بالجزائر، إلى جانب أخيه عبد الملك، إذ لم تتم الإشارة في المصادر إلى تحركاته، إلا بعد عودتهما لاعتلاء عرش المغرب، فقد بدا المساعد الأيمن لأخيه الذي اتخذه رفيقاً له، ووضع فيه ثقة لم يخولها لا من قبل ولا من بعد لأحد من أقربائه، على حد تعبير شالدانيا⁶⁴، ولذا كلفه بحرب عمهما، وأوكل له إدارة مناطق بالغة الحساسية، مثل قبائل الهبط وصنهاجة وغمارة حتى لا يستميلها المتوكل لصفه. ولم يتردد في لومه على تراخيه، وتنبهه إلى ضرورة الحزم واليقظة في معالجة الأمور⁶⁵، وهي الصفات التي أظهرها خلال معركة وادي المخازن، وفتحت له الطريق نحو الملك.

والأكيد أن المولى إسماعيل استفاد إلى حد كبير من تجارب أخيه المولى رشيد، الذي أنابه عنه في العديد من المهمات، بعد أن «اختبر سيرته ونجابهته، فرأى من فطنته ما زاد به ولوعاً وكساه محبته عنده»⁶⁶، لكن الإفرائي لم يحدد لنا بعض حقول الاختبار تلك، واكتفى بالإشارة إلى خبر تفويضه أمر فاس ومكناس. أكان يسعى إلى جعل المولى رشيد في الظل لتلميع صورة المولى إسماعيل، شأنه في ذلك شأن الفشتالي الذي تفادى الحديث عن عبد الملك ودوره الحاسم في معركة وادي المخازن، وعن تجربة المنصور إلى جانبه خلال مقامهما بالجزائر؟ أم أن المولى رشيد لم يسند لأخيه مهام كثيرة غير تلك التي أوردناها، جعلت الإفرائي لا يقف عندها؟ المهم أن بصمات سياسة المولى رشيد ظلت حاضرة في نهج المولى إسماعيل، الذي اتخذ بدوره من الشوكة أساساً لتوحيد البلاد.

والملاحظ أن السلطانين توليا الحكم بصورة مفاجئة وفي سن مبكرة. فأحمد المنصور ورث العرش من عبد الملك، الذي عصفت به المنية في ساحة الوغى بوادي المخازن، ولم تمهله لاستكمال مشروعه التحديثي الطموح⁶⁷. والمولى إسماعيل تولى الملك، بعد أن اختطف الموت أخاه رشيداً في حادثة فرس، وهو مازال يسعى لتدعيم نفوذه. إذن كلاهما تحمل مسؤولية الحكم، وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره، فحاولا معاً إتمام مخططات أخويهما،

⁶⁴ A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 24.

⁶⁵ محمد ابن عزوز حكيم، ن.م، ص. 67. الراهب خوان بوتيسا، «مولاي عبد الملك»، تعريب آمنة اللوه، مجلة البحث العلمي، ع. 34، 1984، ص. 128. انظر رسالة عبد الملك لأخيه أحمد، الناصري، ن.م، ج. 5، ص. 66-67؛ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 78.

⁶⁶ محمد الإفرائي، روضة التعريف... م.س.ذ.، ص. 60.

⁶⁷ حول تدابير عبد الملك للجناح «بالدولة إلى السيرة العجمية»، راجع: عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 200-201؛ عبد المجيد القدوري، ن.م، ص. 195.

الذين لم تمهلهم الظروف غير المنتظرة لتنفيذها، فشكل ذلك حافزا لهما على تحدي كل الصعاب التي اعترضتهما، بالرغم من اختلافها، وأكسبتهما ثقة وقدرة أكبر على ممارسة السلطة، جعلت من أعمالهما التي أكملت ووطدت مشاريع أخويهما تكتسي طابع إنجازات شخصية محضة، حققا من ورائها سمعة وصيتا كبيرين، خاصة أنهما لم يسعيا نحو الملك، بقدر ما أضفت الفاجعتان اللتان ألتتا بسلفيهما -في ظروف دقيقة كانت تجتازها البلاد- على مهمتيهما صفة كاريزماتية أفرزها القدر وقوة الشخصية، وجسدتها كيفية استفادتهما من إرث أخويهما لتمهيد السبيل إلى دفة الحكم.

جنى أحمد المنصور ثمار معركة وادي المخازن، في كسب الإجماع على مبايعته، وعرف كيف يوظف التجارب المكتسبة رفقة أخيه في تدعيم نفوذه، وردع كل من سولت له نفسه الإخلال بهذا الإجماع الذي أضحي ضروريا لمواجهة الأعداء المتربصين بالبلاد والعباد، فكان الملك يمثل بالنسبة إليه القدرة على تخطي المحن، وعلى إثبات الذات في صد المتآمرين في الداخل والخارج⁶⁸. ونجح المولى إسماعيل في استثمار جهود أخيه لتمهيد البلاد وتهئية العباد، فسار على نهجه، واعتبر إتمام ما بدأه من أولويات تحدياته، فكانت مهمة الملك في نظره تعني الصبر والصمود في وجه المآسي، والقدرة على تحمل النكبات، ما دام أن الله هو الذي قلده هذه الأمانة، ولن يستطيع أحد أن ينزعها منه⁶⁹، لأنه «كلما تحرك في مسألة يزين الله عليه فيها»⁷⁰، وهو لا يحزع من الموت، ولا ييكي على من مات، ولا يهمه من الدهر خطب من الخطوب⁷¹. ومن ثم كان لظروف توليهما، وقوة شخصيتهما، الأثر البالغ على أسلوب الإصرار الذي واكب سياساتهما، إلى الحد الذي جعل الإخباريين يصفون طابع الخصوصية على أعمالهما، ويحرصون على إقصاء حصيلة التراكم التي استمداها من أخويهما. وهو سلوك يجد تبريره في قصر عهدي حكم المولى عبد الملك والمولى رشيد من جهة، ومن جهة أخرى في ارتباط معظم هؤلاء الكتاب ومن نقل عنهم بخدمة المؤسسة

⁶⁸ A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 22.

⁶⁹ جرمان مويط، ن.م، ص. 75.

⁷⁰ انظر رسالة المولى إسماعيل إلى ولده المامون: المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، الرباط، المطبعة الملكية، 1967، ص. 41.

⁷¹ رسالة المولى إسماعيل إلى ولده المامون يخبره بموت عمه الحران في 24 شعبان 1099هـ، مجموع مخطوط، خ. ح، رقم 12598، ص. 193.

السلطانية، التي كانوا يرون في قوتها تكريسا لعظمة المخزن الذي يدورون في فلكه ويمدون، بالرغم من ضآلة أعدادهم، نفوذهم داخل دواليب هياكله المركزية.

على أن ما يمكن استشفافه من هذه المقاربة بين شخصيتي الرجلين، هو أن وجود قواسم مشتركة، ومظاهر اختلاف، ارتبط في شكله ومضمونه بطبيعة العوامل المتداخلة في بناء المادة الصدرية التي اتخذت من حضورهما المتميز منطلقا لإعادة صياغة خطاب أخلاقي يتماشى مع هذا الحضور. ومهما حملته ذلك الخطاب من روايات خرافية وأسطورية مغالية أحيانا في المبالغة والإسراف، فإنه لا يخلو من تعبير عن تجذره في قوة شخصيتي السلطانين، وفي تأيا البنية الاجتماعية التي أسهمت في إفرازه. لذا وجب البحث عن دلالاته العميقة خارج وظيفته الظاهرة، وداخل الحضور المادي والرمزي للمخزن، لأن المهم ليس مساءلة تلك الروايات وإيجاد إمكانات لتأويلها، ولكن إثارة الانتباه إلى دوام استمرارية توظيفها على عهد أحمد المنصور والمولى إسماعيل. فما هي إذن أهم مظاهر هذا الحضور؟

الفصل الثاني

أشكال الحضور المادي للمخزن

إن الحديث عن أشكال الحضور المخزني، هو بالدرجة الأولى عن آليات ممارسات سلطة المخزن، المعبرة عن مدى أبهته وعظمته، ودرجة وجوده داخل المجتمع عبر ركائزه الأساس للمادية والرمزية. وقد أولى السلطانان أحمد المنصور والمولى إسماعيل عناية خاصة لهذه الركائز، باعتبارها دعائم رئيسة لتقوية حكميهما واستمراره، فراهنا عليها في توطيد هياكل المخزن ضمانا لاستمراريته. فما هي أوجه الشبه والاختلاف بين الحضور المادي للمخزن فيان عهد السلطانين؟

بادئ ذي بدء تجدر الإشارة إلى أن أي فصل بين الجوانب المادية والرمزية للحضور المخزني، يعتبر فصلا منهجيا فقط، نظرا للتداخل الحاصل بينهما من حيث الوظائف والأهداف، لذا وجب فهم كل السلوكات المخزنية ضمن سياق واحد يراعى فيه هذا التداخل؛ لأنه حين تنطرق للحضور المادي بشقيه العسكري والإداري، فإننا لا نعلم إلى تغييب أبعاده الرمزية، بقدر ما نؤجل البث فيها إلى حين. فالجيش والإدارة شكلا الأداتين الرئيسيتين اللتين يسجل من خلالهما المخزن وجوده. بمختلف أنحاء البلاد، ويتم عبرهما التواصل بين السلطان ورعاياه بهدف ضمان استمرارية نفوذه. ومن هنا لم يذخر المخزن جهدا في توظيف كل الوسائل المادية المحلية منها والجهوية والمركزية، التي من شأنها ترسيخ تلك الاستمرارية، من خلال تزكية الزعامات القبلية وتكريس سلطتها الإدارية والعسكرية وهو الغالب، أو عن طريق تعيين أطر مخزنية لتسيير مناطق أخرى. وتدخل عمليات التزكية والتعيين، في إطار ما يمكن أن نسميه بالحضور المادي الثابت الذي يؤكد تبعية المجال الفعلية للسلطة المخزنية، ويتجسد بواسطة وجود جهاز عسكري وإداري يمثل السلطان، ويعمل تحت إشرافه على استخلاص الضرائب وتوفير الأمن، ويوازيه حضور مادي متنقل اتخذ طابعا ظرفيا ومؤقتا، وارتبط في مده وجزره بمدى نجاعة الحضور الثابت في الحفاظ على علاقات التوازن بين السلطان والرعايا. فكلما اختلت أسس هذا التوازن عبر انعدام الأمن والامتناع عن أداء الضرائب، إلا وأصبح تدخل الجيش المركزي ضروريا. وتبعاً لذلك، مثل الحضور المادي المتنقل عنصرا مكتملا للأول، يسعى إلى ترسيخه وإضفاء الشرعية عليه، أو إلى هيكلمته بهدف

العودة به إلى وضعه الطبيعي الذي يعبر عن استمرارية السلطة المخزنية.

وإذا كان الحضور المادي للمخزن قد تجسد في جهاز الجيش والإدارة، واتخذ من الجباية والأمن أولويته الرئيسة، فإن ما يثير الانتباه هو طبيعة التداخل الموجود بين وظائف هذين الجهازين، إلى الحد الذي يصعب فيه غالبا التمييز بين المهام العسكرية والإدارية لبعض الأطر المخزنية. لكن أيرجع هذا بالدرجة الأولى إلى اعتبار هذه الأطر بمثابة خدام شخصيين للسلطان أكثر من كونهم جهازا مهنيا متخصصا؟ أم أن مرحلتي حكم السلطانين مثلثا أولى المحاولات الجادة لبناء تنظيم عسكري محترف، حمل في طياته البوادر الأساس لترسيخ تقاليد إدارية قادرة على احتواء الزعامات المحلية القبلية منها والدينية؟

أكد أن التسليم بوجود ذلك التداخل لا يعني استحالة الفصل بين ما هو عسكري وإداري، بل يمكن تجاوزه من خلال تفادي الحديث عن الإدارة العسكرية بصفته مفهوماً مركباً، والتركيز في البداية على تحديد طبيعة الجيش السلطاني، قبل الانتقال إلى تناول الإدارة المخزنية، والوقوف على نوعية أجهزتها المدنية والعسكرية، للوصول في مرحلة ثانية إلى رصد العوامل المتحكمة في علاقات الجيش بالإدارة. لكن كيف يمكن معالجة هذه العلاقات بين هياكل لم يكشف عنها بعد، وربما جسدت منظومة واحدة يستمد كل منها دعامة من الآخر؟ فما هي إذن أوجه الشبه والاختلاف بين المؤسستين العسكرية والإدارية، اللتين تبناهما كل من أحمد المنصور السعدي والمولى إسماعيل العلوي؟

الآلة العسكرية

يمثل الجيش السلطة المادية التي يركز عليها أي حكم سياسي، لتدعيم نفوذه، وتوسيع مؤسساته بقوة الإكراه². وقد شكل وسيلة أساسية لنمو الدولة الحديثة على المستويين الداخلي والخارجي، إذ كان تبني الجيش الدائم أداة قوية لإقرار المركزية الإدارية، ليس بواسطة تحركه الذي ساعد الحكام على إخماد التمردات الجهوية والمحلية فقط، لكن أيضا بواسطة ضرورات تنظيمه، وما واكبها من نفقات ووسائل مادية متصاعدة ارتبطت بدرجة

¹ W. Reinhard, « Croissance de la puissance de l'Etat : un modèle théorique », in A. Stegmann (éd.), *Pouvoirs et institutions en Europe au XVI^e siècle*, 27^e colloque internationale d'études humanistes (Tours), Paris, J. Vrin, 1987, p. 173.

² C. Demaizière, « Puissance/pouvoir : synonymie apparente ou hasardeuse », in M. Madeleine Fragonard & M. Peronnet (dir.), *Tout pouvoir vient de Dieu... op. cit.*, p. 94.

توسع هياكله، وبوتيرة المكاسب الميدانية المحققة³. وهكذا شهدت أوروبا مثلاً ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر عدة تجارب عسكرية محترفة تراوحت بين النجاح والفشل؛ فبينما مارس الجيش مثلاً تأثيراً إيجابياً وعميقاً على الإدارات والدولة ببعض البلدان، ظل وقعه سطحياً ببلدان أخرى حيث انحصرت مهامه في حل مشاكل محدودة جداً⁴.

وعلى غرار محاولات التحديث العسكري التي كان العمل جارياً بها في حوض البحر الأبيض المتوسط، شهد المغرب خلال المرحلة نفسها تجربتين اعتمد فيهما على جيش محترف، قادهما كل من أحمد المنصور، ومن بعده المولى إسماعيل. فكيف كانت نظرة كل منهما لهاتين التجربتين؟ وإلى أي حد يمكن الحديث عن حضور الوعي بالتحديث ضمن التصور الذي حكم إنشاء الجيشين من قبلهما؟ وما هي طبيعة التقاطعات التي يمكن نسجها بين التجربتين؟

لماذا الجيش المحترف؟

إن فهم أبعاد تبني السلطانين للجيش المحترفة، يرتبط برصد السياق العام الذي تم فيه هذا التبني عبر الكشف عن حجم علاقته بالرغبة في تشييد دولة مركزية قوية، وعن مدى خضوعه لنماذج التحديث العسكري السابقة أو المعاصرة لحكيمهما، بمعنى محاولة قراءته من خلال هذه الجدلية الثنائية، وتحديد العلاقات التي تربط بين عناصرها، والتي قد تمثل بوثة واحدة ونسقا أو حد تحكم في خوض غمار هذه التجربة. أكان العاهلان يسعيان إلى إرساء مؤسسة عسكرية من منظور الاستمرارية؟ أم أن الضرورة الآتية، وإكراهات المرحلة هي التي أيقظت لديهما فكرة تنظيم جيوش على ذلك المنوال؟

³ A. Corvisier, « Armées, Etat et administrations dans les temps modernes », in W. Paravicini et K. Ferdinand Werner (dir.), *Histoire comparée de l'administration (IV-XVIII siècles) : XIV^e colloque historique franco-allemand [27 mars-1^{er} avril 1977]*, organisé en collaboration avec le centre d'études supérieures de la renaissance par l'institut historique allemand de Paris, München, Artemis Verlag, 1980, pp. 557-8 ; W. Rienhard, « Croissance de la puissance de l'Etat... », *op. cit.*, pp. 177-8.

⁴ عبد الله العروي، مجمل... م.س.ذ.، ج. 3، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1999، ص. 89،

راجع أيضاً:
A. Corvisier, « Armées... op. cit. », pp. 565-8.

أكد أحمد المنصور في إحدى رسائله، « أن العساكر والأجناد والمدد والأمداد هو الشغل الأكيد عندنا الذي نعمر به الوقت في الحال، ونصرف إليه وجه الاعتناء والاهتبال »⁵. وهو الموقف نفسه الذي عبر عنه المولى إسماعيل في رسالته لعلماء الأزهر، حين اعتبر أن تملك العبيد يدخل ضمن حاجته « إلى جند كثيف، وجيش متظافر حصين »⁶، لإدارة المغرب. وينم هذا التصور عن الأهمية التي حظيت بها مؤسسة الجيش في سياسة السلطانين، المرتكزة على الاستكثار من الجند، وتنويع عناصره، باعتبار ضبط أموره من « سياسة الدولة... وقصب مدارها وسبب استقرارها... والتيقظ... والتحافظ فيه من أعظم الأغراض... »⁷، حسب تعبير وزير المولى إسماعيل أحمد اليعمدي. من هذا المنطلق، استخدم السلطانان فرقا عسكرية مختلفة تباينت أهميتها حسب تجاربهما المكتسبة، وتبعا للمستجدات التي أفرزتها مرحلتا حكميهما، والظرفية الدولية التي عايشاها، ولذا وجب فهم المبررات التي أنتجت تجربتيهما.

إن أول ملاحظة تستأثر بالانتباه في هذا الصدد، هي الحضور اللافت لمبرر الجهاد في تصور السلطانين للآلة العسكرية. فالمنصور لوح غير ما مرة في رسائله، بهذه الورقة معتبرا تقوية العساكر والأجناد خير وسيلة لاسترجاع الأندلس وحماية البلاد، والمولى إسماعيل ألح، وهو يخاطب سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي، على أن الجند « هو عدة الله في أرضه، وبه حماية بيضة هذه الأمة، به تشحن ثغورها »⁸، نظرا لقربها من العدو الكافر. أكان هاجس الجهاد وراء لجوء السلطانين إلى خيار الجيش المحترف؟ أم أن إكراهات السياسة الداخلية، وما استلزمته من وجود جيش متماسك كانت تلقي بثقلها على هذا الاختيار؟

⁵ عبد الله كنون، رسائل سعدية، تطوان، معهد مولاي الحسن، 1954، ص. 178.

⁶ مجموع مخطوط، خ. ح، رقم 12598، ص ص. 60، 63؛ المولى عبد الحفيظ، داء العطب قديم، خ. ح، رقم، 12160، ص. 58.

⁷ عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف... م. س. ذ.، ص. 74.

⁸ انظر رسالة المولى إسماعيل إلى محمد بن عبد القادر الفاسي بتاريخ 25 ذي الحجة الحرام 1108هـ، ضمن: M, El Fasi, « Biographie de Moulay Ismail » in *Héspéris Tamuda*, 1962, numéro spécial publié à l'occasion du troisième centenaire de l'accession au trône de Moulay Ismail, p. 48.

ورسالته لعلماء الأزهر، مجموع مخطوط خ. ح، رقم 12598 ص ص. 60-63. ثم مجموع مخطوط خ. ح، رقم 4490، ورقة 7-8، أوردته نفيسة الذهبي، الزاوية الفاسية، التطور والأدوار حتى نهاية العهد العلوي الأول، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2001، ص ص. 406-407. وحول أحمد المنصور، راجع: عبد الله كنون، ن. م، ص. 134.

لقد احتفظت ذاكرة أحمد المنصور بذكرى اغتيال الأتراك لأبيه محمد الشيخ، وبالشبهات التي حامت حول تورطهم في وفاة أخيه عبد الملك، وما أعقبها من بلبلة أثاروها مباشرة بعد انتهاء معركة وادي المخازن⁹، فقد أشاعوا أحقية إسماعيل بن عبد الملك في العرش، ودعموا ثورة داوود بن عبد المومن. كل ذلك أفقده الثقة فيهم، بل دفعه إلى التخلص منهم، وإبعادهم عن مجال الجندية، ولم ينس هذا السلطان كثرة القلاقل، التي تسببت فيها بعض العناصر العربية من الخلط لما امتنعت عن الإسهام بفرقة عسكرية في فتح تيكورارين، فاضطر إلى معاقبتها¹⁰. كما لم يجد المولى إسماعيل حين توليته جيشاً يمكن أن يثق به، فرأى أن « أهل هذا المغرب لهذا العهد لا يصلحون للجندية... لما جبلوا عليه من التكاسل والتخاذل، وغلبة الشهوة، وكثرة الأطماع »¹¹، إذ كثرت الفتن، واستشرى النهب والفساد، وأضحى من الصعوبة نكاح الاعتماد على قبيلة أو عصبية لتكوين الجيش.

وهكذا شكلت هشاشة التنظيم العسكري من منظور السلطانين، حافزا أساسا لإقدامهما على التفكير في تكوين فرق محترفة تحظى بثقتهم وتحقق أهدافهما، وتستجيب للمتغيرات الفعلية المحيطة بهما، فراحنا بإعادة هيكلة الجيش على الانطلاق من تقاليد البلاد مع الاقتباس من تجارب أجنبية أخرى، إذ استفاد أحمد المنصور خلال إقامته بالجزائر والقسطنطينية من النماذج العسكرية التي عاينها، إما لدى الأتراك، أو خصومهم الإسبان. ولهذا لا يمكن فهم تبني هذا السلطان لجيش محترف من العلوج، إلا باستحضار نموذج الإنكشارية. وانطلق المولى إسماعيل بدون شك من محاولة أحمد المنصور، وعمل على تطويرها من خلال تجاوز ثغراتها، وتطعيمها بكل الوسائل التي من شأنها تكريس استقلالية المؤسسة العسكرية عن المجتمع¹².

وإذا كان السلطانان قد وظفا شعار الجهاد لتبرير استخدامهما للجيش المحترفة، فإن المهام التي أوكلت إليها دلت على أولويتها القصوى في إخماد الفتن الداخلية أكثر من ارتباطها بمواجهة الكفار، إذ اتسمت مرحلة حكم السلطان السعدي بتوالي التهديدات الإسبانية

⁹ محمد الإفرائي، نزهة الخادي... م.س.ذ.، ص.ص. 43، 77.

¹⁰ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 111؛ محمد الإفرائي، ن.م، ص.ص. 98-99.

¹¹ رسالة المولى إسماعيل إلى علماء الأزهر، ن.م، ص.ص. 60-63. ورسالة المولى إسماعيل إلى محمد بن عبد القادر القاسي، ن.م، ص. 48؛ محمد القادري، نشر المقاتي... م.س.ذ.، ج. 2، ص. 219.

¹² عبد الله العروي، ن.م، ج. 3، ص.ص. 54، 83. M. Morsy, « Mûlây Isma'il et l'armée de métier », in R.H.M.C., t. XIV, 1967, p. 99.

والعثمانية للمغرب، التي أوحى له دون شك بفكرة تقوية جيشه تحسبا لأي طارئ. لكن واقع الحال أثبت حضور هاجس الأمن الداخلي الذي لم ينفصل في المقام الأول عن ضمان استمرارية السلطة ومركزتها، وهو التصور نفسه الذي حكم السياسة العسكرية للمولى إسماعيل، بالرغم من المكاسب التي حققها على مستوى استرجاع الثغور¹³، وهي مكاسب أسهمت فيها ظرفية دولية مساعدة لم تتأت لأحمد المنصور، فقد تعرض السلطان العلوي لضغوط الباب العالي من أجل تحرير المدن الساحلية المحتلة، في حين ظل السلطان السعدي يعبر عن استعداده للجهاد¹⁴، ويوظف تلك الثغور في تحقيق التوازن بين العثمانيين والإسبان المتصارعين في حوض البحر الأبيض المتوسط.

وما يستخلص من توظيف شعار الجهاد هو الحضور القوي للبعد الديني في الممارسة السياسية، الذي دفع أحمد المنصور إلى تقنيع تحركاته العسكرية لإضفاء الشرعية عليها، كما حدث خلال غزو السودان وثورة الناصر، فقد استثمرت ورقة الجهاد في تغليف الأهداف الاقتصادية للحملة المتوجهة نحو الجنوب، وفي حشد العزائم لصمد تمرد «مارق» آت من الشمال¹⁵. بينما بادر المولى إسماعيل إلى احتكار الأنشطة الجهادية، لتوظيفها في علاقاته الدبلوماسية والاقتصادية مع الدول الأوروبية¹⁶، قاطعا بذلك الطريق على بعض القوى الدينية التي ما فتئت تحت أحمد المنصور على استخدام الجيش في المجال الجهادي¹⁷. وهو تباين في المواقف يعكس نوعا من الجدلية التقليدية، التي ميزت باستمرار علاقة الخطاب الديني بالخطاب السياسي اللذين يتفقان على أهمية الجيش في تمهيد الأقطار، وقطع دابر المفسدين، والقضاء على الفتن، وجهاد الكفار، لكن يختلفان في آليات التنفيذ وأولوياته، فبينما يركز الخطاب الأول على أسبقية البعد الجهادي في وظيفة الجيش، يرى فيه الثاني وسيلة أساسية

¹³ عبد الله العروي، ن.م، ص. 55. انظر أيضا:

M. Morsy, Mûlây Isma'il et l'armée..., *op. cit.*, p. 98.

¹⁴ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص ص. 81، 185.

¹⁵ محمد المنصور، «الضغوط العثمانية وأثرها على تحرير الثغور المغربية المحتلة من خلال حالة طنجة»، مجلة دار النيابة، ع. 5، 1985، ص ص. 29-30؛ رسائل المنصور لمراد خان العثماني، وللعالم البكري، عبد الله كنون، ن.م، ص ص. 21-22، 54، راجع أيضا:

A. de Saldanha, *Chronique...*, *op. cit.*, p. 210.

¹⁶ M. Morsy, «Mulay Isma'il ou l'instauration de l'Etat 'alawite», in *Les Africains*, tome IV, Paris, Jeune Afrique, 1977, p. 147.

¹⁷ أحمد المرابي، تحفة الإخوان ومواهب الامتنان في مناقب سيدي رضوان، مخطوط، خ.ع، الرباط، رقم 154 ك، ص ص. 423-424؛ محمد ابن العياشي، زهر البستان في نسب أحوال سيدنا المولى زيدان، مخطوط، خ.ع، رقم 2152 د، ص. 107.

لواجهة المستجدات الطارئة التي قد تعرقل استمرار السلطة السلطانية، ومركزة دواليبها. والواقع أن ظاهرة تبني الفرق العسكرية المحترفة، تدفعنا إلى البحث في طبيعة الغموض الذي اكتنف التحديث العسكري في التاريخ الحديث، من خلال طرح السؤال التالي: أتم هذا التحديث تحت ضغط التهديدات الخارجية؟ أم أنه ارتبط بأسباب أخرى تعزى إلى طبيعة البنية الاجتماعية؟ وإلى أي حد يمكن مقارنة تجربتي أحمد المنصور والمولى إسماعيل، انطلاقاً من هذا التساؤل، وعبر مقارنة النموذجين الاحترافيين؟

نموذجان منفردان أم إعادة إنتاج؟

سعى السلطانان منذ توليتهما إلى تكوين آلة عسكرية محترفة. وهكذا أبان أحمد المنصور عن تواجده في توظيف العلوج مباشرة بعد انتهاء معركة وادي المخازن، لما عمد إلى جمع الأسرى الذين كان من بينهم عدد كبير من الأطفال، تقل أعمارهم عن خمس عشرة سنة، ليرحلوا إلى فاس ومراكش¹⁸، بهدف تنشئتهم على قواعد الشريعة، وتلقينهم الحرف، وتدريبهم على الإضطلاع بمسؤوليات داخل المخزن السعدي، ثم تزويجهم بالعجلات الموجودات داخل البلاط. فتكاثرت أعدادهم خاصة بعد أن انضافت إليهم جموع من المسيحيين الفارين من أوروبا، ومن الثغور المحتلة، أو القادمين عبر وهران، الذين استقطبتهم الأجور العليا التي لم يتردد أحمد المنصور في دفعها لهم، والإغراءات المختلفة التي لم يتوان أبناؤه في عرضها عليهم¹⁹. وأنشأ السلطان إلى جانبهم فرقا من الأندلسيين قاربت الأربعة آلاف عنصر²⁰. كما

¹⁸ S.I.H.M, 1^{re} série, Ang., t. I, 1918, p 319 ; A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 26 ; B. et L. Bennassar, *Les chrétiens d'Allah...* op. cit., pp. 233, 246, 262-3.

¹⁹ عبد العزيز الفشتالي، *مناهل الصفا...*، م.س.ذ.، ص. 201، راجع أيضا:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 106-107. A. Dziubinski, « L'armée et la flotte de guerre marocaine à l'époque des Sultans de la dynastie saâdienne », in *Hespéris Tamuda*, vol. XIII, 1972, pp. 83-5.

عمل مولاي أبو الحسن على امتلاك عدد كبير من العلوج من خلال تكليف بعض اليهود بشراء أسرى صغار السن من الجزائر وتونس لفائدته، راجع:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 144-5.

انظر أيضا رسالة Baltazar Polo إلى فيليب II بتاريخ 26-3-1594: *Archivo General de Simancas*, S. E, légajo 174.

²⁰ Ch. de la Veronne, S.I.H.M, 1^{re} série, Esp., t. III, Paris, 1961, p. 258 ; M. Jadour, « L'apport des renégats au makhzen saâdien », in *Migration et transferts culturels au Maroc et dans les Mondes Occidentaux*, A. Kaddouri & Kh. Saadani (coord., publications laboratoire Maroc et Mondes occidentaux, F.L.S.H, Ben M'sik, Casablanca, 2010, pp. 46-59.

عمد قبل وبعد حملته على السودان إلى توظيف العبيد بطريقة مماثلة، إذ أورد صاحب تاريخ مراكش وملكها أن الباشا محمود لما عاد من السودان « أتى معه بعشرة آلاف عبد، وعشرة آلاف جارية، كلهم في سن البلوغ... فرفع المنصور نصف العبيد لرؤساء البحريين يركبون فيه ويخدمون معهم، والنصف الآخر أعطاهم السلاح والخيل من جملة الجند، وزوجهم بالجواري كل واحد أعطاه امرأة، فأولاد العبيد هؤلاء هم أصل العبيد الذين جمعهم السلطان مولاي إسماعيل »²¹. ومهما تنطو عليه هذه الأرقام من مبالغة، فإنها تؤكد استخدام أحمد المنصور لفرق من العبيد في جيشه، الذين قدر عددهم حسب المصادر الأجنبية بما يفوق ثلاثة آلاف ذكورا وإناثا تم جلبهم من كاو وتومبوكتو²².

وانطلق المولى إسماعيل من فكرة العلوج، الذين احتفظ بعدد منهم²³، ووسعها لتشمل العبيد السود، فجمع ما تبقى منهم أو من ذريتهم منذ عهد أحمد المنصور، واعتنى بهم، وقام بتزويجهم بنات جلدتهم، وحدد للذكور منهم طريقة تكوينهم في مجالي الحرف والجندي، وللإناث أساليب عملهن في القصور السلطانية. وبذلك تمت تربيتهم على الولاء والإخلاص لشخصه، حتى إذا ما اشتد عودهم زودهم بالخيل والسلاح، ووزعهم إما على القلاع والحصون، أو كلفهم بمهام أخرى²⁴.

نستنتج أن طريقة التكوين تلك، تعبر عن حرص السلطانين الشديد على خلق جيش محترف يرتبط بشخصيهما ويحظى بثقتهم؛ إذ « جرى العرف - حسب خورخي دي هنين J. De Henin - بين المسلمين بعدم تعيين أبناء البلد في المناصب التي تهم شؤون الحكم، لذا فهم يعتمدون على الأجانب في تسيير أمور البلاد، وقد رأينا كيف أن معظم القواد في الجيوش المغربية كانوا من هؤلاء »²⁵. وهي طريقة اتخذت من النموذج العباسي ومن بعده

²¹ مجهول، تاريخ مراكش وملكها، مخطوط، خ. ع، رقم 970، ص. 359.

²² رسالتان من بالتسار بولو إلى فيليب II، بتاريخ 1594-3-26 و 1594-7-4 من مراكش، وثالثة من دوق سيدونيا من سان لوكار بتاريخ 1594-5-4.

Archivo General de Simancas (Espagne) S.E, legajo 174

Voir aussi H. de Castries (comte), *S.I.H.M.*, 1^{re} série, Fra., t. II, Paris, 1909, p. 51.

²³ يقدر عددهم بما بين ستمائة وألف عالج، ومن أشهرهم توماس بيلو الذي كان يقود فرقة منهم بتامسنا، راجع: M. Morsy, « Mûlây Isma'il et l'armée... op. cit., p. 105.

²⁴ أحمد الناصري، ن. م، ج. 7، ص ص. 56-58، 71.

²⁵ خورخي دي هنين، وصف الممالك المغربية، 1603-1613: مذكرات خورخي دي هنين، ترجمة عبد الواحد أكمر، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1997، ص. 188.

الإنكشاري مرجعية لها، إذ استهدفت تنظيم مؤسسة عسكرية معزولة عن المجتمع على غط طائفة الممالك، لتعايش مع البنيات العسكرية التقليدية، وهو الأمر الذي تطلب من السلطانين توفير موارد مالية لتمويل جيش عصري، قادر على مسايرة التحولات العسكرية الحاصلة لدى الأوروبيين والأتراك²⁶. وفي هذا السياق، حاول المنصور الاستفادة من موارد اقتداء أسرى معركة وادي المخازن، ومن المداخل التي وفرتها صادرات السكر، ودرتها عملية فتح السودان. وهي أورش طمح من خلالها السلطان إلى تخفيف العبء الضريبي على السكان، وتأمين نفقات اقتناء العدة التي راهن في الحصول عليها على علاقاته مع إنجلترا²⁷. لكن بالرغم من ذلك ازداد هذا العبء استفحالاً في عهده. وفي الوقت الذي سعى فيه السلطان السعدي إلى تغذية بيت المال بموارد مستقلة تستجيب لمطلبات الآلة العسكرية المحترفة، لجأ المولى إسماعيل إلى توظيفها أداة ناجعة لتحصيل ضرائب أنفقت من أجل تنظيمها، فمارس سياسة جبائية صارمة قادرة على تعويض المصادر الخارجية التي اعتمد عليها سلفه²⁸، وعلى سد حاجيات جيش من العبيد أكثر عدداً وأوسع انتشاراً في مختلف أرجاء البلاد، وما واكب ذلك من ضرورة اقتناء الأسلحة، واحتكار نشاط الجهاد والتجارة الخارجية²⁹.

ولتنفيذ السياسة التي رسمها السلطانان لجيشيهما المحترفين، والمتمثلة في المراقبة الصارمة للبلاد، عمداً إلى تشييد عدة قصبات اخترقت طول البلاد وعرضها، بلغ عددها ثلاثين قصبة في العهد المنصوري، وستة وسبعين قصبة في العهد الإسماعيلي، أقامت بها حاميات عسكرية تم استبدالها من حين لآخر، حتى لا ينسجم أفرادها مع سكان المنطقة الذين لا

²⁶ لمزيد من التفاصيل حول جيش العبيد راجع: محمد الحيمر، جيش العبيد والدولة المغربية منذ التأسيس إلى سنة 1757م، رسالة د.د.ع. في التاريخ، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 1997. وللباحث نفسه، الجيش الدخيل في الدول الإسلامية، جيش العبيد والإنكشارية العثمانية، محاولة في المقارنة، أطروحة دكتوراه في التاريخ، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 1999-2000. انظر أيضاً: M. Morsy, « Mulay Isma'il ou L'instauration... », *op. cit.*, p. 154 ; A. Dziubinski, « L'armée et la flotte ... », *op. cit.*, p. 73.

²⁷ عبد الله العروي، مجمل... م.س.ذ.، ص ص. 58-59.

²⁸ عبد الله العروي، ن.م. ص ص. 83-84. M. Morsy, « Mulay Isma'il ou L'instauration... », *op. cit.*, p. 155, Voir également, du même auteur, *La relation de Thomas Pellow, une lecture du Maroc au XVIII^e siècle*, Paris, Ed. Recherche sur les civilisations, 1983, p. 43.

²⁹ راهن المولى إسماعيل في توفير الأسلحة على هولندا: رسالتان منه إلى الأقاليم المتحدة بتاريخ 10 و26 ربيع الأول 1093هـ، الأرشيف الوطني الهولندي لاهاي، سلسلة الأقاليم المتحدة رقم 1.01.08، رقم الوثيقة 21-12594.

يرتبطون معهم بأية علاقات³⁰. بماذا توحى لنا إذن مقارنة هاتين التجربتين العسكريتين؟

مما لا شك فيه، أن إقدام السلطانين على تبني الآلة العسكرية المحترفة، ينم عن رغبتهما الأكيدتين في إيجاد حل لمعضلة الجيش التي طالما شكلت شرخا في جسم المخزن المغربي ينخر منجزاته، ويعوق تراكمها واستمراريتها. فاتجها إلى تبني أسلوب الجند الدخيل الذي تمت تنشئة عناصره بين يدي السلطانين وحاشيتيهما، وتحت إشرافهما بهدف ضمان ولاء لا يعتريه الشك، ولا يخضع لمساومات عصبية قبلية، أو زاوية معينة، وهي محاولة لتخطي مشكل عدم الثقة الذي مثل حجر الزاوية في العلاقات بين المخزن والجيش التقليدية.

إن ما يستدعي الملاحظة، ونحن نقابل بين هذين الجيشين المحترفين اللذين استمد آخرهما من أولهما، هو أن المولى إسماعيل حاول من وراء تكوين هذه الأداة العسكرية وبواسطتها، أن يتخطى ثغرات تجربة أحمد المنصور، إن على مستوى الوسائل المعبئة، أو الأهداف المرجوة؛ ففي الوقت الذي اعتمد فيه السلطان السعدي على العلوج، وعلى الفرق الأندلسية المتخصصة في السلاح الناري، وأسند إليهم المناصب العليا في المخزن، بل جعل منهم حرسه الخاص، والمكلفين بتسيير شؤون بلاطه وقصور أولاده³¹، ووظف إلى جانبهم عددا مهما من العبيد السود، أبانت هذه التجربة عن بعض النقائص، أهمها: هيمنة هاجس الفرار على أغلب العلوج، الذين كانوا يستغلون أية فرصة ممكنة للعودة إلى بلدانهم ودياناتهم الأصلية، بالرغم من الامتيازات الكبيرة التي كانوا يتمتعون بها، وأسفرت عن اغتناء بعضهم بشكل كبير. فعلى سبيل المثال قام سنة 1599م العلج لويس باريتو Luis Barreto المعروف بعلي، الذي مارس مهام سامية في بلاط محمد الشيخ المامون، بمحاولة للفرار عبر حجر بادس كلفته ثلاث سنوات سجنًا. في حين نجح العلج الإيطالي كافالان فليبي Cavalin Felipe، الذي كان يشرف على مصانع الأسلحة بمراكش، في العودة إلى بلاده سنة 1589م. كما أن الثقة الكبيرة التي وضعها أحمد المنصور في العلوج اهتزت نسبيا بعد تورطهم في قتل ابنه مولاي

³⁰ مجهول برتغالي، وصف المغرب أيام أحمد المنصور، تعريب محمد مزين وعبد الرحيم بنحادة، مراكش، دار تينمل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1995، ص. 30.

M. Morsy, « À propos de l'histoire de la longue captivité et des aventures de Thomas Pellow », in *Héspéris Tamuda*. Vol. IV, 1963, p. 303-306. Voir aussi : A. Dziubinski, « L'armée et la flotte... », *op. cit.*, pp. 66, 87.

أحمد الناصري، ن.م، ج. 7، ص. 72.

³¹ عبد العزيز الفتحاتي، ن.م، ص. 201-202؛ عبد الرحيم شكري، ن.م، ص. 102-104، راجع أيضا: A. de Saldanha, *Chronique...*, *op. cit.*, p. 24.

في الحسن، وهو الحادث الذي حز في نفسه كثيرا، إلى حد جعله يوقف جميع معاملاته التجارية، حسب ما أورده الإسباني بالتسار بولو³²، الذي أكد ترحيل المنصور لكل العلوج الموجودين تحت إمرة ابنه إلى مراكش، حيث عفا عنهم نظرا لكونهم يمثلون أجود عناصر جيشه. وهي الرواية نفسها التي ترددت في تصريحات العلوج الأربعة أمام محكمة كناريا³³، وأكدت تدابير أحمد المنصور القاضية بإسكانهم في أحياء خاصة بهم، ومنعهم من الابتعاد عن مراكش مسافة أربع مراحل، تحت طائلة تعرضهم لعقوبات شديدة بتهمة الفرار³⁴. كما ظل الحذر مهيمنا على أسلوب تعامل أحمد المنصور مع الفرق الأندلسية التي سبق لبعض عناصرها أن تورطت في الإعداد لبعض التمردات.

تستشف إذن أن فئة العلوج مارست مهامها بمخزن أحمد المنصور تحت وطأة شعور دائم بالاستفادة من سلطة ظرفية، ومن امتيازات آنية خولتها لها مؤهلاتها وثقة السلطان فيها، فعملت باستمرار من هذا المنظور، وفي سياق الرغبة الملحة للتخلص من وضعية ظلت تعي أنها عابرة، مادامت لا تعكس هويتها الدينية والإثنية، بقدر ما تعبر عن طموحاتها المادية. وهي الصورة التي رسمت معالمها مرحلة ما بعد المنصور، فقد قتل السلطان الوليد هو وقواده

³² Baltazar Polo: تاجر إسباني أسر من قبل الراجس العليج علي، واقتيد إلى تطوان واقتاده دوق دي مدينا سيدونيا، ثم ربط علاقة صداقة مع أحمد المفضل (Monfadel) وشارك في حملة سيدياسيان على المغرب، ثم اقتاده المفضل واستطاعه معه وكلفه بجلب مشتريات المنصور من الجواهر، وتكفل بعد وفاة السفير Francisco da costa بالقيام بمهام مثل غير رسمي لفيليب الثاني لدى المنصور، وقد التمس مرارا هو ودوق دي مدينا سيدونيا، إضفاء صفة السفير عليه رسميا، لكن الملك الإسباني رفض. حوله، راجع: رسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى الملك من سان لوكار بطريخ 1595، Leg. 174. ورسالة أخرى من بالتسار بولو إلى كاتب فيليب الثاني بتاريخ 11-30-1594: Leg. 174. H. de Castries, S. I. H. M. 1^{re} série, Ang., t. 2, Paris, 1925, p. 101, note 1.

Voir aussi ; A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 122, 128, 190.

— دوق دي مدينا سيدونيا (El duque de Médina Sidonia): حاكم فيليب الثاني على الأندلس، لعب دورا مهما في العلاقات بين المغرب وإسبانيا، إذ كانت كل القرارات التي تتخذ في بلاط فيليب الثاني، وكل المراسلات من وإلى مراكش تتم عبره. ولمزيد من التفاصيل، راجع: محمد جادور، مادة دوق دي مدينا سيدونيا، معلمة المغرب، العدد 21، سلا، مطابع سلا، 2005، ص ص. 7055-7056.

³³ A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 48, 144-145, 198, 200, 202. Voir également : B. et L. Bennassar, *Les chrétiens...*, op. cit., pp. 237, 246 ; R. Ricard, « Le Maroc à la fin du XVI^e siècle », in *Hespéris*, 1957, pp. 201-2.

ورسالة بالتسار بولو إلى فيليب II، مصدر سابق. ثم عبد الرحيم شكري، ن.م، ص. 132 من ملف المحاكمة. تقارب رواية شالدانيا، والتسار بولو، ومحاضر محاكمة العلوج الأربعة، حول أسباب اغتيال أبي الحسن بن المنصور، يخالف الرواية الإنجليزية التي جعلت وفاته على يد بعض رجاله وهو في السودان، راجع: S.I.H.M. 1^{re} série, Ang., t. 2, Paris, 1925, p. 86.

³⁴ G. Deverdun, *Marrakech des origines à 1912*, Rabat, Ed. techniques nord-africaines, 1959, p. 445.

من قبل أربعة من العلوج الفرنسيين الذين عينوا مكانه أخاه محمد الشيخ، وبالطريقة نفسها اغتيل عبد الملك بن زيدان³⁵. والراجح أن اعتبارات من هذا القبيل، هي التي أوحى للمولى إسماعيل بفكرة الاحتفاظ بالعلوج، لكن دون إسنادهم مناصب سامية في المخزن العلوي، مقابل توظيف بقايا العبيد السود الذين بقوا في الظل على عهد أحمد المنصور.

وينم هذا الاختيار عن عزم السلطان العلوي تجاوز نقائص تجربة سلفه، إذ شكل تبني جيش من العبيد في نظره، على الأقل، حلا لمعضلة الهوية الثقافية للجند الدخيل، بالنظر إلى اعتناق السود للإسلام. وهذا ما يفسر توظيف صيغة القسم على صحيح البخاري، ليس ضامناً للولاء لشخصه فقط، وإنما تعبيراً عن الوفاء للعقيدة الإسلامية، وعن الارتباط بالمنظومة الفكرية المخزنية في بعدها الديني، أي تفادي مشكل الانتماء الديني الزائف للعلوج، الذي لا يضمن ولاهم التام من جهة، ويثير استياء كبيراً لدى القوى الدينية التي كانت تنظر بعدم الرضا إلى تخويل مناصب سامية لفئات تعتنق الإسلام شكلياً، وتحافظ حسب شالدانيا على نمط حياتها السابق الذي يقوم على الفسق والإباحية، إذ يشير صاحب «تذكرة النسيان» إلى تفشي الخمر والميسر والإدمان على الحشيش في صفوف أفرادها³⁶. وربما إذا غاب بعد هذه الانحرافات السلوكية في تصور المولى إسماعيل، فإن البعد الإثني طغى بثقله على اختيارات السلطان، الذي لم يرد من خلال تكوين جيش من الجنس الأسود، غير مرتبط بعصبية أو بأرض معينة، إلا فصله عن المجتمع. لكن الظاهر أنه لم تكن له نية في خلق توتر خفي بين فئتين من السكان، أي البيض والسود، كما افترضت ذلك ماكالي مورسي Magali Morsy³⁷.

مهما يكن أمر الطرح الإثني حاضراً، فقد اقتبس المولى إسماعيل فكرة أحمد المنصور المستوحاة من تجربته المتوسطة، وحاول تنفيذها بالاعتماد على العمق الإفريقي للمغرب ومدى امتداده في بلاد السودان. أكان السلطان يسعى إلى الاستفادة من أفول التجارة

³⁵ رسالة David Pallache من لاهاي مؤرخة بـ 28-08-1636، الأرشيف الوطني الهولندي، سلسلة الأقاليم المتحدة لاهاي، رقم 1.01.04، رقم الوثيقة 6903، راجع أيضاً: الناصري، ن.م، ج. 6، ص. 77، 82-83؛ الإفرائي، نزهة الحادي، ... م.س.ذ.، ص. 245-246، 253.

³⁶ A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 48. B. et L. Bennassar, *Les chrétiens...*, op. cit., p. 402. محمد زروق، «مسألة الأندلس في عملية فتح السودان خلال عصر أحمد المنصور السعدي»، المغرب وإفريقيا في بدايات العصر الحديث، الدار البيضاء، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، سلسلة ندوات ومناظرات، 1995، ص. 23.

³⁷ عبد الله العروي، ن.م، ص. 84.

M. Morsy, «Mûlây Isma'il et l'armée...», op. cit., p. 116, et du même auteur, «La relation de Thomas Pellow ...», op. cit., p. 40.

صحراوية، وما واكبها من فقدان فئة الحراطيين لمكانتها؟ أم أن نواة الجيوش المكونة من السود مثلت مؤسسة قديمة بالمغرب، لم يعمل السلطانان معا إلا على تطويرها³⁸؟

في الوقت الذي حظي فيه العلوج بثقة المنصور، لما فوض لهم حرية التصرف في الشؤون الداخلية للقصر، أوكل المولى إسماعيل هذه المهام إلى العبيد الذين تراوحت أعمارهم بين عشر وست عشرة سنة، فعملوا بالقصر إلى جانب أمهاتهم اللاتي كن يخدمن في السرايا³⁹. وأضاف إليهم عددا من « قواد روسهم »، بلغ حسب ماكالي مورسي ألف وثمانمائة شخص من المقربين لأصهار السلطان أو من العبيد، كلفوا بمهام غير محددة⁴⁰.

واحتل العلوج مكانة متميزة في صناعة الأسلحة، والإشراف عليها خلال المعارك وخاصة ما يرتبط منها بقطع المدفعية والقنابل، إذ كان أحمد المنصور يتوفر على ورشات داخل قصره، يزورها كل يوم، ويكافئ الساهرين عليها بسخاء، تصنع فيها المدافع البرونزية والقذائف من مختلف الأصناف، إضافة إلى كل أنواع الأسلحة الخفيفة. وهي الملاحظة نفسها التي وقف عليها جون وندوس، وهو يصف الجولة التي قام بها وفد السفارة البريطانية في قصر السلطان المولى إسماعيل، وعائين بأحد أجنحته أوراشا مخصصة لصناعة الأسلحة، وأماكن أخرى تخزينها، يشرف عليهما بعض العلوج⁴¹. كما أشار المولى إسماعيل في إحدى رسائله لهولندا إلى وجود مصانع للأسلحة؛ « والحمد لله رب العالمين الذي تفضل علينا بإنشاء بريمتين في

جمع عامل مولاي زيدان على درعة القائد الميرا » - وكان أسود اللون- جيشا من حوالي خمسمائة وألف رجل أغلبهم من السود، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا الجيش أثار فضول الأعراب واستهزاءهم، ذلك لأنهم كانوا يعتبرون السود أناسا جبناء ضعيفي الهمة، ثم إنه لم يسبق أن عرفت البلاد في تاريخها تكوين جيش أسود ». غير أن المصادر الغربية تؤكد وجود أنوية لهذا الجيش منذ العهد المرابطي. بخصوص جيش السود خلال عهد أحمد المنصور وأبنائه، راجع: خورخي دي هنين، م.ن، ص ص. 118، 122.

³⁹ Ch. De la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 57. Voir aussi : H. de Castries, *S.I.H.M.* 2^e série. Fra., t. II, Paris, 1909, p. 175-6, et Phi. de Cosse Brissac, Paris, P. Geuthner, t. VI, p. 651. A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 24.

مختصوص المهام المختلفة التي أنيطت بالعلوج على عهد أحمد المنصور، راجع: M. Jadour, « L'apport des renégats... », op. cit., pp. 58-9.

⁴⁰ Allan. R. Meyers, « Note sur les Qaid -Ras-Hu », in *Hésperis Tamuda*, vol. 17, 1976, pp. 77, 87, 89, 92.

M. Morsy, « La relation... », op. cit., p. 97, note 130.

⁴¹ Ph. de Cosse Brissac, *S.I.H.M.* Fra., 2^e série, t. V, Paris, P. Geuthner, 1953, pp. 400, 410 ; A. de Saldanha, *Chronique...*, pp. 81-2, 142 ; M. Morsy, « Mûlây Isma'il et l'armée... », op. cit., p. 110.

راجع أيضا: جون وندوس، رحلة... م.س.د.، ص ص. 78، 80.
حسب جوزيف دوليون كان العليج Juan Leonardo مكلفا بمستودع الأسلحة، انظر: Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 7.

بر الإسلام واحدة تخدم بالماء والأخرى تخدم بالريح... حتى كانت تطلع من المكاحيل في دار العدة عمرها الله أربعة عشر مائة مكحلة أو ما يزيد عليها عند كمال كل شهر... كدنا أن نستغني عن عدتكم وعدة غيركم بعدتنا الذي (كذا) يسرها الله وأنشأها بعونه وتوفيقه علي يدنا»⁴².

ويؤكد هذا الحرص الشديد للسلطانين على تصنيع الأسلحة في ترسانات داخل أسوار قصورهما، وتحت إشراف العلوج، عزمهما على الحيلولة دون سقوط الأسلحة في أيادي الرعايا، عن طريق البيع، أو في حالة وقوع اضطرابات وفتن، وخاصة سلاح المدفعية الذي اختزل القوة العسكرية للمخزن، على اعتبار أن الأسلحة النارية الخفيفة انتشرت بشكل واسع في أوساط السكان منذ نهاية القرن السادس عشر⁴³. ولعل هذا الطرح هو الذي يفسر لنا إصرار المولى إسماعيل على استكمال المشروع الذي بدأه أحمد المنصور، والرامي إلى تجريد القبائل من السلاح لضمان تفوق الجيش السلطاني، ولإرساء دعائمه على أسس حديثة انطلقت من احتكار المدفعية.

وفضلا عن الثقل الذي شكله تسليح جيش محترف، مثلت الأجور عبئا إضافيا على الخزينة السلطانية بالنظر إلى ارتفاع قيمتها، خاصة بالنسبة للحرس والرماة في أوقات السلم، ولباقي العناصر إبان الحملات العسكرية⁴⁴. وإذا كان المنصور يؤديها لجنوده كل ثلاثة أو أربعة أشهر، فإن المولى إسماعيل كان يوزع على جيش العبيد مائة قنطار من الفضة سنويا، يتم اقتسامها بين أفرادها، ويقطع المشاة منهم أراضي معفاة من الضرائب لاستغلالها ويزودهم بالأسلحة، ولا يؤدي لهم أجورهم إلا خلال نشوب الحرب⁴⁵.

⁴² رسالة من المولى إسماعيل إلى هولندا بتاريخ 20 شعبان عام 1098هـ، مصدر سابق، سلسلة الأقاليم المتحدة، رقم 1.01.08، الوثيقة رقم 12594.27.

⁴³ حسب المصادر الإسبانية كان أحمد المنصور يولي عناية كبيرة لسلاح المدفعية التي توفر على أعداد كبيرة من قطعها ذات أعيرة مختلفة احتفظ بها في عاصمته مراكش، راجع: Archiv General de Simancas. S.E. Legajo 179. وأيضا:

A. Dziubinski, « L'armée et la flotte... », *op. cit.*, p. 90.

⁴⁴ كان على المنصور « أداء النفقات الباهظة لهؤلاء والمتمثلة في الأجور، والسلاح والأكل واللباس الذي يتكون عادة من الحرير الأحمر والقطيفة، كما أن الأسلحة المسلمة للجنود الأجانب كانت مزينة بالذهب والفضة »؛ خورخي دي هنين، ن.م، ص. 31.

⁴⁵ A. de Saldanha, *Chronique...*, *op. cit.*, p. 48, 168. A. Dziubinski, « L'armée et la flotte... », *op. cit.*, p. 85. Ch. de La Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, *op. cit.*, pp. 56-7.

ديكيو دي طويريس، تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، مطابع سلا، شركة النشر والتوزيع المدارس،

والملاحظ أن رواتب العلوج والأندلسيين في العهد السعودي كانت تمتص مبالغ مالية هائلة، بالرغم من قلة أعدادهم، مقارنة مع جيش العبيد الذي كانت عناصره تقاضى رواتب زهيدة، وهو ما يوحي بأن المولى إسماعيل إنما أراد من خلال تملك أكبر عدد من العبيد تهادي تجربة سلفه، مادام هؤلاء أضحووا في وضعية قانونية لا تخولهم المطالبة برواتب عليا، على عكس العلوج الذين لم يكرسوا أنفسهم لخدمة بلاط أحمد المنصور إلا طمعا في تلك الرواتب، التي أسفرت عن الثراء الفاحش لبعضهم. وبذلك لم تهدف فكرة التملك فقط إلى ربط العبيد بشخص السلطان، بقدر ما طمحت إلى الاستفادة من أعداد كبيرة منهم بأجور غير مكلفة على الأقل على المستوى الفردي، لكنها مؤثرة بشكل كبير على خزينة البلاد، بالنظر إلى كثرتهم.

ولقيام الجيش المحترف بالأدوار المنوطة به على أحسن وجه، لجأ السلطانان إلى تشييد أو تجديد عدة قصبات، كما أسلفنا، جسد عددها طبيعة السياسة السلطانية، ومدى إرادتها في مراقبة البلاد، وتكريس الحضور المخزني بأبعاده المختلفة، وإن كنا سنركز في هذا الفصل على الأبعاد المادية، على أساس أن نتناول الأبعاد الرمزية في الفصل الموالي.

القصبات وتكوين الحاميات

إن سياسة القصبات في بعدها العسكري، لا يمكن فهمها بمعزل عن الرغبة في توسيع دائرة السلطة السلطانية، ومحاولة تقريب المسافة بين مراكز القرار والمجال، بحكم الامتداد الجغرافي للبلاد، أي أن المخزن سعى من خلال هذه السياسة إلى إنتاج حدود مادية تثبت أشكال وجوده في المجالين القبلي والحضري، وتعبّر عن إصراره على استثمارهما بطريقة مباشرة، بمعنى إعادة تنظيمها وفقا لأهداف سياسية تترجم قوته العسكرية، وتعكس درجة تفوقه، وقدرته على الردع كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

إن أول ملاحظة تستوقفنا ونحن نقارن بين شبكة القصبات التي وظفها السلطانان في سياساتهما العسكرية، هي أن أحمد المنصور شيد معظم البستونات الجديدة بشمال البلاد، وجهزها بالمدفعية بكل من فاس والعرائش وتازة ودبدو وأصيلا، بهدف حماية المغرب من

1988، ص. 235. ويقدر عدد العلوج الذين استخدمهم أحمد المنصور ما بين أربعة آلاف وستة آلاف، بينما تضاربت الآراء حول أعداد جيش العبيد، راجع: أحمد الناصري، ن.م، ص. 58، 78.
A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 144. Ch. de La Veronne, *Vie de...*, op. cit., p. 54.

أية هجمات خارجية محتملة، وخصوصاً من لدن الأتراك أو الإسبان. في حين عمل بالجنوب على تجديد القصبات القديمة، خاصة على طول الممرات المؤدية إلى السودان، بهدف تأمين وصول القوافل التجارية الصحراوية بمنطقة سوس، وبدرعة الشرقية، وبمحميد الغزلان⁴⁶. أما المولى إسماعيل، وفي غياب تهديدات خارجية جدية، فإنه استحدث العديد من القصبات بالمغرب الشرقي، وعلى امتداد الطرق المنطلقة من مكناس في اتجاه تافيلالت ومراكش، ومن الأخيرة صوب تارودانت، وتافيلالت ومنها إلى فاس، ووظفها في مراقبة البنيات الاجتماعية ومحاصرتها، وفي سياق هاجس الإخضاع الكلي للبلاد بهدف توفير الأمن، وضمان حرية مرور السلع⁴⁷. وهو هاجس يجد تبريره في حجم التمويل الذي تطلبت عملية الإنفاق على هذا الجيش الهائل، على اعتبار أن السلطان العلوي لم يلجأ إلى موارد خارجية كما فعل أحمد المنصور، بل اتخذ أساساً من المداخل الضريبية مصدراً لهذا التمويل، وهو ما يفسر العلاقة التناسبية بين أعداد الجيش وبين تعدد القصبات.

ثاني ملاحظة تتعلق بتداخل البعد الاقتصادي مع البعد الأمني في إستراتيجية القصبات التي تبناها أحمد المنصور جنوب البلاد، حيث راهن هذا السلطان على إقامة محطات آمنة لاستراحة التجار بين نزلة وأخرى، مزودة بالمواد الغذائية والدواب، ومسؤولة عن توفير الأمن. مما دل على رغبته في ضمان ضخ موارد السودان التي جعل منها إضافة إلى الضرائب، إحدى الدعائم الرئيسة لماليته التي كانت تركز حسب شالديانيا على عائدات السكر، ومداخل أعشار البضائع. بينما استوحى المولى إسماعيل الإستراتيجية نفسها، لكنه وظفها في إطار حضور جلي للبعد الأمني⁴⁸، الذي يتوخى إعطاء الأولوية لعمليات التحصيل الضريبية، وهو

⁴⁶ مجهول برتغالي، ن.م، ص 64-65، 82. عن قصبات الجنوب انظر:

D. Jacques Meunier, *Le Maroc saharien des origines au XVI^e siècle*, Klincksieck, 1982, pp. 555, 565, 569-70.

لعبت الحاميات العسكرية في الإمبراطورية العثمانية أدواراً مماثلة تجسدت في التصدي للصووية وقطع الطريق وتأمين مهام الجباة، إضافة إلى تقديم خدمات للسفن الصغيرة الموجودة بالبحار والأنهار، راجع: روبر مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشر السباعي، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1993، ص. 305.

⁴⁷ F. De La Chapelle (Lieutenant), « Le sultan Moulay Ismaïl et les Berbères Sanhaja du Maroc central », in *Arch. Mar.*, vol. 28, 1931, pp. 26-7 ; M. Morsy, « Réflexion sur le système politique marocain dans la longue durée », in *L'espace et l'Etat*, ouvrage collectif, Rabat, Edino, 1985, pp. 126-7. Et également M. Morsy, « Mulay Isma'il ou l'instauration de l'Etat... », *op. cit.*, pp. 155, 156, 158, 161.

⁴⁸ حول أحمد المنصور، انظر أحمد ابن القاضي، ن.م، ج. 2، ص 827-828. وبخصوص المولى إسماعيل راجع: أحمد الناصري، ن.م، ج. 7، ص 62-63؛ « ... ولم يبق بالمغرب سارق ولا قاطع... » عبد الرحمن بن زيدان، إنحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، الدار البيضاء، مطابع إديال، الطبعة الثانية، 1990، ج. 1، ص. 139.

صور يجد تفسيره في أفول تجارة القوافل الصحراوية مقارنة مع العهد السعودي، وفي المنطق حاصل للسياسة الإسماعيلية، التي اعتبرت التشدد في استخلاص الضرائب خير تعبير عن سعي نجاعة الآلة المحترفة في تحقيق تبعية السكان للمخزن المركزي، وفي الحد من ظاهرة استقلال النسبي التي كانت تتمتع بها بعض القبائل. ترى أ توجد علاقة بين إستراتيجية سلطانين تلك، وبين المسلسل الكلاسيكي الذي رافق تكوين الدولة القومية في أوروبا؟ أن الأمر لا يعدو أن يكون حلا مؤقتا ومفروضا على بنية اجتماعية لم يحظ بقبولها⁴⁹، وحرمت من المشاركة فيه؟

قد حرص السلطانان على أن تشكل عناصر أغلب الحاميات من الجيوش الدخيلة، أي من جهاز لا تربطه أية علاقة بالسكان، يتم نقل أفرادها من منطقة لأخرى كل ستة أشهر، لحيلولة دون انسجامهم سواء مع محيطهم الاجتماعي، أو مع قائداهم الذي لا يحتفظ بعنصره أيضا، إذ سرعان ما يعين على رأس حامية أخرى⁵⁰. وتباين عدد الجنود في الحامية تبعا للأهمية الإستراتيجية للقصب؛ إذ شكلت تاركالة (واحة المحاميد) وقصبه العلوج ولكتاوة في عهد محمد المنصور أقوى القصبات، حيث كان يقطن بكل منها حوالي أربعمئة جندي، نظرا لأهميتها في تدوير الذهب المجلوب من تغازي، بينما نادرا ما كانت الحاميات الأخرى تتجاوز مائتي رجل. في حين أن قصبات المولى إسماعيل بأدخسان والدلاء وإمتمنانوت مثلا، تراوح فيها العدد بين ألف وخمسمائة، وألفين وخمسمئة جندي، ولم يقل في الحالات الأخرى عن أربعمئة رجل⁵¹.

ويعكس هذا التفاوت في المقام الأول التباين الحاصل في تصور السلطانين لإستراتيجية القصبات على مستوى الأولويات، وحجم الوسائل المكرسة لبلوغها، وإن كان هدفهما واحد يتمثل في تكريس ثوابت السياسة المخزنية، التي لا تنفصل عن الازدواجية القائمة

⁴⁹ M. Morsy, « La relation de Thomas Pellow... », *op. cit.*, pp. 39, 43.

⁵⁰ مجهول برتغالي، ن.م، ص. 30. A. de Saldanha, *Chronique...*, *op. cit.*, p. 86. M. Morsy, « La relation de Thomas Pellow... », *op. cit.*, p. 102, voir aussi, du même auteur : « A propos de l'histoire de la longue... » pp. 303, 306. ورد في ظهير إسماعيلي للحاج محمد معينو حول بناء قصبه باب شعبة بسلا مؤرخ بسنة 1181 هـ أن أحد الأشخاص اقترح على المولى إسماعيل عدم إخراج الوصفان للقصبه، مقابل إسكانهم بحومة العلو وحومات أخرى، لكنه رفض، انظر: عبد الرحمن ابن زيدان، النزاع اللطيف... م.س.ذ.، ص. 334-335.

⁵¹ مجهول برتغالي، ن.م، ص. 82-83، 91. B-J. Meunié, *Le Maroc Saharien...*, *op. cit.*, pp. 555-569 ; A. Dziubinski, *L'armée...*, *op. cit.*, p. 88 ; L. De la Chapelle, « Le sultan Moulay Ismaïl... », *op. cit.*, pp. 25-7, note 2.

على إبراز السطوة والتفوق، وتدعيم الموارد المالية للخرينة السلطانية. على أنه يجب فهم الموقف الإسماعيلي في إطار أعم، يتجسد في محاولة هذا السلطان استثمار التجربة العسكرية لسلفه، عن طريق توسيعها لتشمل مختلف أطراف البلاد، ولتسهم خاصة في تغيير علاقة القبائل بالمخزن.

أما في ما يتعلق بتموين الحاميات، فالظاهر أن المخزن عموما لم يكلف نفسه عناء الإنفاق على الجيش، فأحمد المنصور حدد لكل قائد عدد المناطق الملزمة بتوفير المؤونة والخيول للقصة القرية منها، وأمر المولى إسماعيل كل قبيلة بتخصيص مواردها من الزكوات والأعشار لتموين عبيد قلعتها⁵². لكن هناك وضعيات اضطر فيها المخزن إلى القيام بهذا الدور، كما هو الحال بالنسبة للسلطان السعدي الذي أمر ابنه أبا فارس باقتناء الزرع، ولو عن طريق الشراء، لإرساله بحرا إلى حامية خندق الوادي، وهو وضع تركه شهادة توماس بيلاو Thomas Pellow حول دور باشاوات المخزن في توفير مؤونة ستة أشهر للحاميات التي كان هذا العليج يرأس إحداها⁵³. ترى أيتعلق الأمر بحالات خاصة تختلف ربما حسب خصوصية الحاميات والمهام الموكولة لها؟ أم أن مصادر التموين تلك، لا تعدو أن تكون في نهاية المطاف هي نفس المواد الغذائية ذاتها والدواب نفسها المحصلة من السكان، سواء بطريقة مباشرة من قبل جنود القصبات، أو بواسطة أطر مخزنية تشرف على توزيعها؟

بالرغم من أن المخزن لم يقدم على إقامة مخازن احتياطية جهوية لتموين قصباته، على شاكلة المطامير السلطانية، وراهن فقط على الاستخلاص المباشر للمؤن من السكان، فقد استهدف من وراء ذلك إرساء تقليد يضيف على حضوره العسكري بعدا محليا، يمكنه من أداء وظيفته بكل فعالية، ويقلل من ارتباطه بالمركز على هذا الصعيد، ويغني رجال حامياته عن اللجوء إلى النهب إذا ما نفذت أقواتهم. إذ الراجح أن إلحاح المنصور على وصول الشعير إلى حامية خندق الوادي في وقتها المناسب، وتخوفه من فراغ مخزونه لا يخرج عن هذا الطرح الأخير. وبالنظر لنفسه، يمكن فهم أوامر المولى إسماعيل لابنه المامون حول كيفية توزيع الزرع على

⁵² الناصري، ن.م، ج. 7، ص. 62.

S.I.H.M, 2^e série, Fra., t. II, p.160. A. Dziubinski, *L'armée...*, op. cit., p. 85.

وابن زيدان، ن.م، ص. 338.

⁵³ الإفرائي، نزهة الحادي... م.س.ذ.، ص. 185. انظر أيضا:

M. Morsy, « La relation de Thomas Pellow... », op. cit., p. 102.

عض القصبات⁵⁴. إذن تمثل هدف المخزن في تحقيق نوع من التموين الذاتي لقصباته يمكنه من تجاوز مشكل ضعف البنيات التحتية، وما واكبه من صعوبة التنقل، لكنه حرص بشدة على أن لا يسفر ذلك عن تعاضم نفوذ الحكام الجهويين.

ماذا نستخلص من كل ما سبق؟ أنحن أمام تجربتين عسكريتين منفردتين في تاريخ المغرب، عبران عن مدى انشغال السلطانين بهاجس « دولتي »، على اعتبار أن تكوين الجيوش المحترفة بشكل عام، مثل حلقة أساسية في مسار ترسيخ قواعد الدولة وتطويرها؟ أم أننا أمام محاولتين لم تتجاوزا النظرة الضيقة التي تترجم البعد الشخصي للسياسة السلطانية، الذي يتقاطع بالضرورة، ولو مرحليا، مع مشروع بناء الدولة؟

تعكس المقارنة بين الآلتين المحترفتين بدون شك، الإرادة الملحة للسلطانين لاحتواء المؤسسة العسكرية بأسلوب جديد، يروم الحفاظ على المسافة بينها وبين السكان، وتكريس قيم الغلبة والقوة التي لا تستمر السلطة السلطانية بدونها، ما دام الهدف تجسّد دوما في « ملئ (كذا) الخزينة، وإعداد الجيش لحماية الحكم السلطاني، بالوفرة في المال، وبالوفرة في الجند والعتاد »⁵⁵. ومن ثم، شكل عنصر انعدام الثقة في الجيوش التقليدية مبررا موضوعيا لتبني البديل المحترف، إذ في الوقت الذي عاتب فيه أحمد المنصور ولي عهده على استخدام أولاد طلحة في بطانة جيشه حتى أضحووا بملكون المدافع، لم يذخر المولى إسماعيل جهدا في الربط بين فشل حملة ولده مولاي أبي النصر على أولاد دليم، وبين عدم اعتماده على فرقة من الجيش المحترف يثق بها ويطمئن إليها⁵⁶. لكن هل يعني هذا أننا أمام نسختين متماثلتين، وإن تم تبنيهما في سياقات مختلفة، ومثلت الآلة العسكرية الأولى نموذجا للثانية؟ أي هل كان السلطانان معا يستحضران التصورات نفسها التي أوحى إليهما بفكرة إنشاء الجيش المحترف؟

من الجلي أن هم تدعيم مركزية المخزن كان حاضرا بكل قوة في مشروع السلطانين، على الرغم من تباين طبيعة وحجم الفئة العسكرية الدخيلة التي استخدموها لبلوغ هذا الهدف، وبغض النظر عن اختلاف النتائج المحققة. بمعنى أن هذه الظاهرة تترجم في العمق وجود

⁵⁴ رسالة المولى إسماعيل إلى ولده المامون بتاريخ 1 ذي الحجة 1104هـ، مجموع مخطوط، خ. ح. رقم، 12598، ص. 178.

⁵⁵ كمال عبد اللطيف، ن. م.، ص. 213.

⁵⁶ رسالة المولى إسماعيل إلى المامون بتاريخ ربيع الثاني 1109هـ، وثائق إسماعيلية منشورة، مملحق كتاب روضة التعريف للإفراني، ص. 112. وحول المنصور، راجع: محمد الإفراني، نزعة الحادي...، م. س. د.، ص. ص. 177-178.

ثوابت عامة تدل على مفهوم الاستمرارية في المخزن المغربي، وإن تغيرت الأسر الحاكمة. فالمولى إسماعيل استمد تجربة العلوج والفرق الأندلسية ليعيد إنتاجها على أسس جديدة يتخطى بها مزالق أحمد المنصور، إيماناً منه بأن « كل دولة تستمد من الدولة التي كانت قبلها على عادة الدول في سيرها الأول »⁵⁷. غير أن محاولتيهما معا استجابتا لمستلزمات مرحلتين حكميهما، أكثر مما ارتبطت بإيجاد حل دائم لمعضلة الجيش، بدليل أن الجند الدائم، وإن اعتبر ضامناً للمخزن، بل ومسيراً لأجهزته المختلفة، خاصة خلال عهد المولى إسماعيل، فقد ظل ولاؤه لشخص السلطان غير مفصول عن ولائه للمؤسسة المخزنية⁵⁸ باعتبارها مجسدة فيه، وأن استمراريته رهينة بمدى قوته.

وإذا كان تأسيس الآلة العسكرية المحترفة المنفصلة عن المجتمع يترجم حضور الوعي بالتحديث لدى السلطانين، فإن هذا التأسيس يؤكد حرصهما أيضاً على تحجيم الموقع العسكري لقوى أخرى، قابلت هذه المحاولات الرامية إلى إقصائها بالرفض، فرأت في هذه الآلة حزاماً عسكرياً متسلطاً يحاصرها أكثر مما يحميها، وترقت الفرص المواتية لاستعادة مواقعها، وخاصة في عهد المولى إسماعيل، الذي تحول فيه العبيد، بالنظر إلى كثرة أعدادهم، من جهاز عسكري إلى أداة إدارية وسياسية تهيمن على البلاد. لكن بماذا نفسر احتفاظ السلطانين بفرق عسكرية أخرى، وتوظيفها بشكل دائم إلى جانب الجيش المحترف؟

الفرق العسكرية الأخرى

أورد الفشتالي في وصفه لجيش المنصور وكيفية ترتيبه، أهم الفرق التي تشكل منها، وهي على التوالي: جيش سوس، وجيش شراكة، والعلوج، ثم عسكر الأندلس. وبرر استخدام أحمد المنصور لأهل سوس بكونهم « أشد شوكة، وأقوى عصبية »، و« لأنهم أنصار مولانا الإمام، وعصائب الدولة »⁵⁹، لذا كلف فخذة من الشبانات بحراسة الساحل المقابل لهم بسوس الأقصى ليلاً ونهاراً، حتى يتمكنوا من مضايقة البرتغاليين، مقابل إعفائهم من الكلف

⁵⁷ رسالة المولى إسماعيل إلى علماء الأزهر، ن.م.

⁵⁸ R. Mousnier, « Le problème des fidélités aux XVII^e et XVIII^e siècle », in *Revue historique*, t. CCLIV, 1975, p. 543.

⁵⁹ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص ص. 51، 164، 203. رسالة المنصور إلى أهل سوس، انظر: عبد الله كنون، ن.م، ص. 152. بخصوص جيش الأندلس، راجع: أبو القاسم الزياني، تحفة النبهاء في التفريق بين الفقهاء والسفهاء، مخطوط، خ.ع، رقم ك 241، ص. 190 وما تلاها.

لوظائف المخزنية. ونقل بني جرار وأولاد مطاع، وزيرارة، وما تبقى من الشبانات إلى الحوز، حيث أقطعهم الأرض، وأدخلهم في سلك الجندية⁶⁰، شأنهم في ذلك شأن النصف من قبائل الخلط الذين نقلهم إلى أزغار. كما رفع عنهم المغارم، لكنهم نهبوا بني حسن وأولاد مطاع، فعاقبهم المنصور وأبعد عنهم هؤلاء الآخرين، ثم عاد ليطلب منهم الإسهام في حملة تيكورارين فرفضوا، فقرر تجريدهم من الخيل والسلاح، وإخضاعهم للضريبة. لكن سرعان ما ساندوا الناصر في ثورته، ودفعوا بأهل سوس وأهل مراکش في اتجاه سلا، فأعاد نزع عدتهم، ونقلهم إلى مراکش، ليشئت شملهم في ممالك السودان. ولم يكتف المنصور بهذه الإجراءات، بل أمر بتجريد قبائل الهبط وجبال غمارة وأولاد حسين وعرب دكالة وحاحة، من الخيل والسلاح، بسبب عدم انضباطهم⁶¹.

وفي الوقت الذي حافظ فيه أحمد المنصور على الهيكل التنظيمي لقبائل الكيش إسوة بأبيه، مقتصرًا على توظيفها في أجهزته العسكرية بشكل محدود، وعازفًا عن تعميم هذا النظام على كل القبائل الموالية له، قام المولى إسماعيل باستخدام جل القبائل العربية الأكثر تروعا نحو التمرد، على شكل مجموعات مستقلة مكونة لقبيلة أو لعدة قبائل تنحدر على الخصوص من عرب المعقل. وتم تقسيمها إلى عدة أقسام: كيش الودايا، ويضم رحي أهل سوس، والمغافرة، والودايا، ثم كيش تادلة الذي زوده بالخيول والسلاح واستعمله لمواجهة قبائل الأطلس. وكلف شبانات الحوز بمراقبة الحدود الشرقية، في حين وطن الودايا بفاس ويضواحي مكناس. واحتفظ بكيش شراكة الذي كونه السعديون، قبل أن يلجأ إلى تجريد عدة قبائل من الخيل والسلاح⁶². كما ألزم الأندلسيين « بتقديم ثلاثة آلاف رام في كل سنة يكتبونها في دفتر معين، منها خمسمائة تنزل بقيق ستة أشهر، وتخلفها خمسمائة أخرى، وخمسمائة ترابط بستة ستة أشهر، وتخلفها خمسمائة أخرى، وخمسمائة تكون مع محلته أين ما كانت ستة أشهر وتخلفها خمسمائة أخرى »⁶³.

⁶⁰ ظهر لأحمد المنصور بتاريخ 18 شوال 998هـ/1588م، أورده:

Jean Le Coz, « Les tribus Guichs au Maroc », R. G. M., n° 7, 1965, pp. 3-4.

⁶¹ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص ص. 96، 110-112، 191-192، 199.

⁶² أحمد الناصري، ن.م، ج. 7، ص ص. 50-52.

أهم القبائل التي نزع منها المولى إسماعيل الخيل والسلاح هي: عرب الخلط، وبنو يزناسن، وآيت يدارسن، وآيت موسى وآيت سغروشن وسليم، وزمور، وبنو حكم، وآيت يافلما، وآيت يسرى... راجع: أبو القاسم الزياني، البستان الطريف... م.س.ذ.، ج. 1، ص ص. 151، 164، 166-169، 178.

⁶³ أبو القاسم الزياني، تحفة النبهاء... م.س.ذ.، ص. 192.

وهكذا اقتدى بسياسة المنصور، وأدخل عليها عدة تغييرات، تجسدت في تطوير قبائل الكيش وتنظيمها، وتحويلها إلى مؤسسة من خلال تعيين قواد الرحي، حتى تستجيب للأدوار التكميلية التي أناطها بها إلى جانب جيش العبيد، التي تمت إعادة نشر فرقها بالشكل الذي يمكنه من التحكم في تحركاتها، وتفادي أي تمردات محتملة منها، قد تعيد تكرار تجربة أحمد المنصور مع زواوة، التي ساندت داوود بن عبد المومن، ومع عرب الخلط الذين تمردوا عليه، ثم تجربة محمد الشيخ المامون الذي تضرر من خيانة شراكة خلال ثورة الناصر⁶⁴. وحاول المولى إسماعيل بذلك، خلق توازن عسكري بين مؤسسة الكيش ومؤسسة العبيد، عبر توزيع المهام بينهما، وإن ظلت كل المعابر خاضعة للوصاية المباشرة لحمايات جيش السود، التي تقوم بدور المراقبة والدعم، انطلاقا من القصبات المحيطة بالمجالات الترابية التي تشرف عليها القبائل العسكرية.

واستهدف السلطانان من وراء مصادرة الأسلحة النارية التي تمتلكها القبائل الغارمة، ضمان نجاعة هذه المؤسسة العسكرية المختلطة، من خلال تكريس تفوقهما الميداني على خصومهما، خصوصا إذا علمنا أن الأطلس الكبير في عهد أحمد المنصور كان يحتضن، حسب المجهول البرتغالي، عشرين ألفا من الرماة، الذين بلغ عددهم أيضا بوادي نفيس خلال قدوم حركة باشا المولى إسماعيل على مراکش اثني عشر ألفا⁶⁵. وهي أرقام لا تخلو من دلالات على حجم التهديد الذي يمكن أن يشكله بقاء هذه العدة في أيدي جماعات لا تتردد في استعمالها لإشعال نار الفتنة كلما أتيحت لها الظروف⁶⁶.

والبين أن الرغبة في تجاوز هذه الفتن هي التي دفعت المولى إسماعيل إلى إعادة هيكلة مؤسسة الكيش، وتوسيع قاعدة جيش العبيد، بهدف إقرار تنظيم عسكري يستمد مشروعيته من فئات مجتمعية حليفة، ومن عناصر دخيلة، شكلت معا حدا فاصلا بين ما هو مخزني، وما هو خارج المخزن. ولعل هذا التصور هو الذي عبر عنه أكنسوس في معرض تبريره لتدابير المولى إسماعيل المتعلقة بتجريد القبائل من الخيل والسلاح، وما أثارته من نقاش ديني حاد، إذ اعتبر

⁶⁴ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 175، راجع أيضا:

R. Ricard, *Le Maroc...*, op. cit., p. 195. A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 46-8.

⁶⁵ مجهول برتغالي، ن.م، ص. 37؛ عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 127.

⁶⁶ اعتبر شالدانيا قرار المنصور بتجريد عرب الخلط من الخيل والسلاح، قرارا حكيما وغاية في الأهمية؛ لأنهم في نظره، هم رواد السلب والنهب، لا يفوتون أي فرصة للعصيان، راجع:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 86-7.

« ذلك العسكر القوي الشديد، قام عن المسلمين بالواجب، وكفاهم كل مؤونة، وأراحهم علف القيام بالخيول والسلاح، مع أن الفساد الذي يظهر منهم عند ملك الخيل والسلاح عظم، وذلك بقطع الطرقات، ونهب الأموال والأنفس، وخلع اليد من الطاعة »⁶⁷. وهو طرح يعكس مسألتين: الأولى ترتبط بأحقية السلطان في امتلاك وسائل الردع، لما يمثل ذلك من حماية لأمن السكان؛ بمعنى أن السبب في اندلاع الفتنة لا يكمن، في جزء منه، في سياسة الضغط التي يمارسها المخزن على القبائل، وإنما في احتفاظ الأخيرة بأسلحتها، وما يمثل ذلك من تعارض مع مفهوم الطاعة. أما المسألة الثانية: فتتعلق بالأبعاد السياسية لهذا التصور، التي تجسد في كون تقوية جهاز المخزن، وضمان استمراريته مؤسسة عليا بالبلاد، رهين بانتقال القوى الاجتماعية التي لا تحظى بالخدمة في المخزن، من وضعيتها شبه العسكرية إلى وضعية مدنية. إذن فنحن أمام نظرة تركي اختيارات السلطة المخزنية، وتحذر القبائل الغارمة « من عفة الخروج عليها، كما تنشر أخلاق الطاعة والصبر بحجة المحافظة على النظام، والتغلب على أزمدة الفتنة التي ترهق فيها الأرواح »⁶⁸.

يبد أن تدابير السلطانين الرامية إلى الاستئثار بالمبادرة العسكرية، مثلت حلقة ضمن الأساليب السائدة آنذاك في تحديث الدول، بالرغم من أنها لم تتعد الرغبة في الحفاظ على الأمن الداخلي، ولو بنظام عسكري تم إقحامه في نسيج اجتماعي رأى فيه ظاهرة غريبة عن تقاليد البلاد.

ومهما يكن من أمر، فالراجع أن هذين البعدين كانا حاضرين، إما عن وعي، أو عن غير وعي، في التصورات العسكرية للسلطانين، وإن كانت تجربة المولى إسماعيل المستوحاة من تجربة أحمد المنصور، تحمل في طياتها إرادة سلطانية تبدو أكثر عزيمة على استثمار الوسائل المتاحة لإقرار سلطة المخزن. وهو أمر يرجع إلى التباين في الظروف التي أفرزت السياسة العسكرية لكل منهما. ففي الوقت الذي حاول فيه المنصور الاستفادة من الإجماع الذي أعقب وادي المخازن، ومن المصادر الخارجية في التمويل، تفاديا لخلخلة التوازن الاجتماعي الذي انبنى عليه حكمه، لجأ المولى إسماعيل إلى وسيلة الضغط لإكراه الجميع على الإسهام

⁶⁷ محمد أكنسوس، ن.م، ص. 137. قال أكنسوس: « وكان المولى إسماعيل رحمه الله ارتكب أخف الضررين، وأدنى المفسدين، في إضعاف قبائل المسلمين بسلب الخيل والسلاح، مع أن المطلوب هو تقويتهم بذلك لمقاومة العدو الكافر... وهذا القدر الذي اعتذرنا به عن السلطان ظاهر غاية الظهور، ولعله خفي على الشيخ اليوسي حتى كتب إليه برسالته المشهورة » أحمد الناصري، ن.م، ج. 7، ص. 81.

⁶⁸ كمال عبد اللطيف، ن.م، ص. 266.

في بناء جيش حدد مهامه الأساسية في إخضاع البادية والحاضرة، بحيث إنه لم يحتفظ بخيله وسلاحه إلا العبيد والودايا، وآيت يَمُور والجيش الريفي، حسب رواية الناصري⁶⁹.

وبالإضافة إلى الجيش المحترف وقبائل الكيش، لم يفوت السلطانان فرصة مطالبة المدن الكبرى بتجنيد فرق من سكانها، أو المساهمة ماديا في الحملات العسكرية عند الحاجة، إذ كلف أحمد المنصور قواده بجمع حصّة فاس ومراكش في حملة توات وتيغورارين. وخول لأسرة آل النقيس مهمة جهاد الإسبان بثغر سبتة، التي خضعت في مدها وجزرها لتشجيع الخليف الإنجليزي وللتذبذب الحاصل في طبيعة العلاقات مع إسبانيا والعثمانيين، وخاض المولى إسماعيل صراعا مريرا مع سكان فاس، من أجل إجبارهم على المشاركة بفرق من الرماة، إلى جانب الجيش الريفي المكلف بحصار سبتة، والمؤطر بفرق من العبيد⁷⁰.

أعداد الجيش

أما في ما يتعلق بأعداد الجيش في عهد أحمد المنصور، فقد حددتها المصادر الإنجليزية والبرتغالية في حوالي ستين ألفا، ما بين الفرسان والرماة⁷¹. بينما لم ترد إشارة حولها في المصادر المغربية، التي أجمعت بالمقابل على أن جيش المولى إسماعيل بلغ عند وفاته مائة وخمسين ألفا، وهو رقم استبعدته مكالي مورسي واكتفت بثلثه، لتضيف إليه عشرة آلاف من الكيش، وخمسمائة من العلوج⁷².

ويدل هذا التباين على صعوبة تحديد عدد القوات المجندة من قبل السلطانين، نظرا لغياب دفاتر مخزنية، ولاستحالة ضبط الرقم التقريبي للجنود، الذي اختلف حسب الظروف السياسية والعسكرية للبلاد؛ إذ أشار شالدانيا إلى أن المنصور جند بعاصمته، بعد ورود خبر نزول الناصر بمليية، ثمانية عشر ألفا من العلوج والأندلسيين وشراكة، وبعض الأتراك،

⁶⁹ أحمد الناصري، ن.م، ج. 7، ص. 81؛ عبد الله العروي، مجمل...، م.س.د.، ج. 3، ص. 58-59، 83-85.

⁷⁰ رسائل المولى إسماعيل إلى محمد بن عبد القادر الفاسي، مرجع سابق، ص. 48؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 75، 77، 96. انظر أيضا:

H. de Castries, *S.I.H.M.*, 1^e série. Ang., t. II, 1925, p. 121.

⁷¹ A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 144, 206. Voir aussi, *S.I.H.M.*, 1^e série. Ang., t. 2, 1918, p. 395.

⁷² أحمد الناصري، ن.م، ص. 58.

M. Morsy, « Mûlây Isma`il et l'armée... », op. cit., pp. 101, 103, 105.

وعشرين ألفا من الفرسان في زمن لا يتعدى عشرة أيام⁷³. وهو وضع يقيم الدليل على القموض الذي اكتنف أعداد الجيش الرسمي، بغض النظر عن الفرق التي تم تجنيدها في الحالات الاستثنائية. لكن الأكيد أن أهداف السلطانين قد تطلبت منهما التوفر على جيش دائم، قادر على تحقيق غايتيهما بالنظر إلى امتداد المجال المغربي، وإلى عزمهما على إخضاعه ومراقبته. وتجسد هذا الوضع في سياسة السلطان العلوي بشكل كبير، فقد راهن على امتلاك آلة عسكرية أكثر تنوعا من تلك التي تبنّاها أحمد المنصور، واهتم بالتحالفات القبلية لتحقيق التوازن مع القبائل المتمردة بالأطلس.

التحالفات القبلية

بما أن أحمد المنصور نجح في فرض الطاعة على معظم القبائل التي تحتضن مجالاتها الطرق التجارية الرئيسية، وفي إخضاعها لسياسته الجبائية، مستفيدا من الإجماع الذي أعقب بداية توليته وما واكبه من مظاهر الإقطاع العسكري ببعض المناطق، ومستغلا إمكانات جيشه، فإن فصول المواجهة مع التشكيلات القبلية الكبرى لم تنح منحى خلفه العلوي، الذي لعبت التحالفات القبلية دورا محوريا في سياسته العسكرية والإدارية، إذ اعتمد على الاتحاديات الكبرى، ولعب على تناقضاتها، لوضع حد لتحركات الساكنة بمجالات الأطلسين المتوسط والكبير الشرقي، ولتسيير مناطق بأكملها.

وفي هذا الصدد، وبعد كسر شوكتها وتطويقها بمجموعة من القصبات، كلف المولى إسماعيل صنهاجة الأطلس المتوسط، التي نجحت في لم شملها خلال القرن 17م، مستفيدة من بزوغ القوة الدلائية⁷⁴، بمراقبة مجالاتها، والسهرة على تحقيق الأمن بمحيطها، وتأمين استخلاص واجبات المخزن. وهكذا اعتمد لأول مرة على الاتحاديات القبلية ما بين 1683 و1693 للقضاء على مقاومة الجبال الأمازيغية⁷⁵، وتحديد آيت أومالو وآيت يافلمان وآيت إيسري. فنتيجة تعرض قبائل الواحات الجنوبية الشرقية منذ زمن لضغط عرب المعقل، أقدمت

⁷³ A. de Saldanha..., *op. cit.*, p. 206.

ذكر الزباني أن مرجان الكبير كان يمتلك دفاتر متعلقة بعدد الجنود، لكن أحرقت بعد وفاة المولى إسماعيل، راجع: **البيان الطريف**... م.س.ذ.، ص ص. 213-215. عبد الرحمن بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**... م.س.ذ.، ج. 1، ص ص. 269-271.

⁷⁴ Marcel Lesne, « Les Zemmour. Essai d'histoire tribale (suite et fin) », in *R.O.M.M.*, vol. 4, **Année** 1967, p. 32.

⁷⁵ أحمد الناصري، **الاستقصا**، ن.م، ص. 80 وما تلاها.

على تشكيل تحالف في ما بينها. كما سارت قبائل صاغرو على النهج نفسه وكونت اتحادية آيت عطا، التي أسفر امتداد نفوذها في اتجاه سفح الأطلس المتوسط والأطلس الكبير الشرقي عن تكوين كونفدرالية آيت يافلما.

وكانت اتحادية آيت يافلما تحتل السفح الجنوبي للأطلسين المتوسط والكبير⁷⁶. أما آيت أوالمو فهي اتحادية أمازيغية كانت تستوطن السفح الشمالي للأطلس المتوسط والهضاب الفاصلة بين هذه السلسلة وسهل سايس⁷⁷.

وهكذا شكل توظيف التحالفات القبلية لزموور وبني حكم⁷⁸ وآيت يمور وآيت يدراسن إلى جانب جيشه المحترف، أعمدة للسياسة العسكرية والإدارية للسلطان، وذلك لاعتبارات تكتيكية على ما يبدو؛ إذ الراجح أن إكراهات المرحلة وضروراتها هي التي ساقطت زموور للعب هذا الدور، خاصة وأن زعيمهم علي بن يشي القبلي كان يعتبر من كبار رجالات البلاط. ولكي يعزز المولى إسماعيل إمكانات هذا القائد العسكرية سمح له باستضافة فرق مجندة من تودغة وفركلة وغريس ومن عرب الصباح بتافيلالت. كما ينطبق الأمر نفسه تقريبا على آيت يمور المنتمين إلى كونفدرالية آيت يدراسن، بقيادة علي أوبركة، إذ لم يجدوا أمام ضعفهم سبيلا للانخراط في خدمة المولى إسماعيل، وتشكيل درع أمان لمواجهة القبائل المعارضة للسياسة المخزنية، والحيلولة دون انتقال آيت أوالمو إلى السهل، وسرعان ما التحقوا، كما أسلفنا، بسلك الكيش، حيث تلقوا بعد الحركة على الأطلس ألفاً من الخيل وعدداً مهماً من البنادق مقابل احتواء سكان المنطقة وضمان أمنها⁷⁹. كما وظف السلطان العلوي آيت يوسي لحماية الطرق الرابطة بين فاس وتافيلالت⁸⁰.

وبذلك جعل المولى إسماعيل من هذه القبائل، التي كانت في وضعية أضعف بالأمس،

⁷⁶ شملت هذه الاتحادية: آيت حديدو وقبائل آيت مرغاد وآيت زدك وعرب بني معقل.

⁷⁷ لمزيد من التفاصيل انظر:

Le Lieutenant Reyniers, « Un document sur la politique de Moulay Isma'il dans l'Atlas », in *Arch. Mar.*, t. XXVIII, 1931, Paris, Honoré champion.

⁷⁸ حول قبائل زموور، راجع:

M. Lesne, *Histoire d'un groupement berbère les Zemmour*, thèse dactylographiée, Paris, Faculté des Lettres et Sciences Humaines, 1959.

M. Lesne, *Les Zemmour...*, op. cit., pp. 31-80.

⁷⁹ M. Morsy, « Mûlây Isma'il et l'armée... », op. cit., pp. 99-100.

⁸⁰ M. Lesne, *Les Zemmour...*, p. 33-4.

وسيلة لمحاصرة نظيرتها المتمردة والأقوى منها⁸¹، وهي سياسة اعتداد المخزن بالعمل بها لتحقيق التوازن تجاه الأطراف القوية في المعادلة السياسية، إذ راهن بموازاة ذلك على الزوايا الأقل تأثيراً لدعم التحالفات القبلية الموالية له، ولمواجهة الزوايا الوازنة والمعارضة، ومن يدور في فلكها من تنظيمات قبلية، الشيء الذي أفضى إلى كمون حركيتها إلى غاية وفاة المولى إسماعيل.

مثل إذن الحفاظ على التوازن مبرراً لاعتماد السلطانين على فرق عسكرية متنوعة المشارب، ومختلفة الأصول. وعبر هذا التنوع عن سياسة حاذقة سعت إلى تفادي التمردات، عن طريق وضع الثقة في فرق إثنية دخيلة لم تكن تحظى برضا السكان، ولا بمباركة الفئات العسكرية المحلية، التي رأت فيها عناصر غريبة سلبت منها امتيازاتها وأدوارها داخل الجهاز المخزني؛ فالسلطان « يستحب... أن يكون جنده أجناساً متفرقة، وقبائل شتى، لا يأتيه منها الاتفاق على رأي واحد »⁸²، أي أن انعدام التجانس القبلي والثقافي للجيش شكل رابطاً أساسياً للحفاظ على استمرارية الحكم السلطاني، ووسيلة لرصد مدى وفاء الفرق العسكرية له، من خلال تنافسها على خدمة أبوابه، والسعي للحصول على أعطياته، التي يفضي التباين في الاستفادة منها إلى الكشف عن مكامن التمرد والتخلص منها⁸³. وفي هذا الاتجاه، لم يتردد النصور، حسب بعض الروايات، في إبعاد فرقة من جيشه، بعد أن أضحت في حالة بطالة تمارس الطغيان والفساد، فأمر قائده حمو بن سالم بتجهيز حملة إلى تومبوكتو وكأوا انتهت بهلاكها⁸⁴.

ومما لا شك فيه أن أصدقاء مثل هذه الأحداث لم تكن غائبة عن ذهن المولى إسماعيل، الذي ارتكز في تصوره العسكري على جيش من العبيد، مثل قوة اجتماعية بالنظر إلى أعداده، وطريقة تكوينه وانتشاره، وقوة سياسية كرستها المهام الحيوية التي أنيطت بعناصره، والمتمثلة

⁸¹ M. Morsy ..., *op. cit.*, p. 108.

⁸² محمد بن سعيد المرغيتي، الإشارة في تدبير الإمارة، مخطوط، خ. ح، رقم 5708، ورقة 56.
A. Dziubinski, « L'armée et la flotte... », *op. cit.*, p. 84.

⁸³ اعتبر Treillaut أن تفضيل محمد الشيخ المامون للعلوج والأندلسيين يعد سبباً من أسباب خيانة شراكة له خلال ثورة الناصر، إذ كان يزود هؤلاء في تغذيتهم بالشعير والآخرين بالقمح، راجع:
H. de Castries, *S.I.H.M*, 1^{re} série, Fra., t. 2, 1909, p. 216.

⁸⁴ المجهول السعدي، تاريخ الدولة السعدية... م. س. ذ.، ص. 66.
A. de Saldanha, *Chronique...*, *op. cit.*, pp. 97-8, 102.

أساسا في تأطير مختلف مناطق البلاد، بما فيها تلك الخاضعة لمراقبة الفرق العسكرية الأخرى، بواسطة حزام من القصبات. إذن فالحضور المكثف لهذا الجيش كان يهدف إلى امتصاص أي طرف اجتماعي يفكر في الإخلال بمفهوم التوازن الذي أراد السلطان أن يحققه بواسطة هذا الجيش ولفائده، وهو أمر لم يتأت لأحمد المنصور بلوغه بفعل قلة أعداد العلوج، التي لم تؤهلهم للقيام بتغطية عسكرية لمجموع أطراف البلاد، بل بقيت أدوارهم محدودة نسبيا وحبيسة بعض المهام المحددة، وإن كانت قيادية في المخزن المنصوري، فإنهم لم ينزلوا بثقلهم باعتبارهم قوة عسكرية ضاغطة اجتماعيا وسياسيا مقارنة مع العبيد.

والخلاصة أن التجربتين العسكريتين اللتين أقدم عليهما السلطانان جسدتا في شكلهما ومضمونهما، إصرارا على الانفراد بآلة القهر والإكراه، من أجل الوصول إلى مركز قوة للسلطة، وعبرت عن وجود بعض مظاهر الاستمرارية في سياسة المخزن⁸⁵، بدليل أن تجربة أحمد المنصور اقتبسها المولى إسماعيل وأعاد صياغتها بأسلوب جديد، وأن سيدي محمد بن عبد الله الذي عايش النتائج التي آلت إليها تجربة جده، فضل الاقتداء بخطة السلطان السعدي. وإذا كان الجيش المحترف قد أسهم في إقرار مؤقت لسلطة المخزن، فأى دور لعبه في المجال الإداري؟ وقبل البدء بهذا السؤال: ما هي السمات العامة المحددة للإدارة المخزنية على عهد السلطانين؟

الإدارة المخزنية

إذا كان من الصعب إيجاد مرادف مضبوط للخدمة أو الوظيفة المخزنية، على اعتبار أنها ظلت تمثل بنية خاصة، فإن محاولات فهم مكونات هذه البنية محليا وجهويا ومركزيا، وكيفية توزيع الأدوار بها، والميكانيزمات المتحركة في تفاعل عناصرها، تبدو في غاية الأهمية، نظرا لما لها من دور في الكشف عن أنماط العلاقات التي تربط كل مكون من هذه المكونات ببعضه البعض.

استعملت كلمة « الإدارة » في بداية الأمر، كمفهوم تكميلي للدلالة على عملية تسيير نشاط معين (مثلا إدارة العدل)، ثم أضحت منذ نهاية القرن الثامن عشر تعبر عن المصلحة العامة وتسعى لبلوغها. لكن يصعب تمييز مضمونها عن الحكم السياسي، نظرا لوجود

⁸⁵ عبد الله العروي، ن.م، ص ص. 83، 89.

تتمرارية بينهما، إذ في الوقت الذي ينفرد فيه الأخير باتخاذ القرارات الحاسمة لمواجهة مختلف الأزمات، إما بواسطة التحكيم أو التفاوض أو الإكراه، فإن الإدارة تمثل مختلف مظاهر الاستجابة للحاجيات اليومية للسكان، إذن فهناك فصل بينهما وإن كان شكليا ومجردا. ما تيار آخر فيرى في الحكم السياسي مصدرا للقرارات الكبرى، التي تقن حياة المجتمع بواسطة الظواهر والمراسيم التي تعد وسيلة لتنفيذها، بمعنى أن الموظف نفسه يمكنه أن يسهم في الحكم أو الإدارة حسب الظروف، مما ينفي أي فصل بينهما⁸⁶. غير أن دراسة الإدارة لا يمكن أن تتم بمعزل عن باقي المجتمع، ما دامت نابعة منه، ووظائفها مرتبطة بممارساتها المختلفة داخل شرائحه. فلفهم آلياتها لابد من تشخيص العناصر المؤثرة فيها بشكل كبير، كدور الجيش والأنشطة الاقتصادية في ترسيخ دعائمها، وأهمية التغيرات العددية للكثافة السكانية في إثبات نجاعتها، ومدى توسع دائرة استخدامها للسجلات والربائد، ودرجة حضور البعد الديني في سلوكاتها، وحجم انتشار السيولة النقدية في مجالي المبادلات والضرائب⁸⁷، ومدى قدرتها على تعميم أفضية للعدالة الاجتماعية التي يقرها الملك، وإسهامها في مسلسل تحديثها⁸⁸. فإلى أي حد يمكن إضفاء نعت الإدارة على الوظائف المخزنية؟

تراوحت التحليلات التي تناولت هذا الموضوع، بين طرح قائل بتوفر خدمات ذات بنية هرمية عمودية قوامها التراتبية، وبين اتجاه يقر بوجود غموض في هذه التراتبية على الأقل في ما يتعلق بالفرق بين الألقاب، وبين رأي ثالث يستبعدا من منطلق أن السلطان شكل قاعدة رسو النظام، وتبعاً لذلك لا يعترف كل طرف بالآخر إلا عبره⁸⁹. هل يعود هذا الأمر إلى التداخل الحاصل في نوعية المعايير المعتمدة في تخويل المراتب لخدام المخزن، وفي طبيعة

⁸⁶ R. Mousnier, « Conclusion générale », in W. Paravicini et K. F. Werner (dir.), *Histoire comparée de l'administration (IV-XVIII siècles)*, pp. 615-6 ; G. Balandier, *l'anthropologie ...*, op. cit., p. 36.

⁸⁷ R. Mousnier, « Conclusion ... », op. cit., pp. 616-21 ; A. Corvisier, « Armées... », op. cit., pp. 557-8.

⁸⁸ W. Blockmans, *Histoire du pouvoir en Europe : peuples, marchés, états*, Anvers, Fonds Mercator, 1997, p. 206.

⁸⁹ بنسالم حميش، « في سيميائية الاستبداد أو ابن خلدون أمام الدولة المغربية »، ضمن جدلية الدولة والمجتمع بالمغرب، إفريقيا الشرق، الطبعة الثانية، 1994، ص. 182. لا يتم غالبا الفصل بين المهمة أو الوظيفة في المجتمعات التقليدية؛ لأن مزاولتها ترتبط أساسا إما بالقيام بواجب تجاه شخص قوي، أو بالخوف الشديد منه «، راجع: N. Elias, *La société de cour...*, op. cit., p. XXX.

راجع أيضا:

A. Laroui, *Les origines...*, op. cit., p. 124.

وظائف هذه المراتب، وهو ما أسفر عن صعوبة الفصل داخل نسيجها وعلاقاتها بين بنيات واضحة المعالم؟ الظاهر أن هذا التداخل في حد ذاته يعكس من وجهة نظر الكثيرين، شكلا من أشكال التسيير الذي يشكو من نقائص، تدخله في خانة ما يسمى « الإدارة التقليدية »، القائمة على الاستبداد بمختلف الوظائف. فما هي الصور التي حملتها الإدارة في خطاب المخزن وممارساته؟

من الخطاب إلى الممارسة

- من هم خدام المخزن؟

استهدف المخزن من وراء إقرار جهاز إداري، ممتد عبر أهم المناطق الحيوية بالبلاد، إثبات حضوره، وقدرته على اختراق المجال بأبعاده المختلفة، لتأكيد هيمنته على البنيات الاقتصادية والاجتماعية، ولإعادة تنظيمها وفقا لمنظوره الخاص الذي لا ينفصل عن هاجس الجباية، وتوفير الأمن. ولبلوغ هذه الغاية لم يذخر وسعا في تكريس الوسائل المادية والبشرية التي تباين حجمها تبعا لأهمية الفضاء الجغرافي، ولوتيرة خضوعه وولائه للسلطة السلطانية. وهو ما يدفعنا في البداية إلى التساؤل عن الأصول التي انحدر منها خدام المخزن الذين أنيطت بهم تلك المهمات. فمن هم خدام المخزن؟

لتأمين مراقبة صارمة لأطراف البلاد، راهن أحمد المنصور والمولى إسماعيل على شبكة من الأطر المخزنية، اتسمت بالتنوع والتكامل على مستوى بنياتها التنظيمية، إذ جمعت بين عناصر محلية وأخرى دخيلة. واختلفت مكانة كل منها وأدواره في هيكل المخزن من سلطان لآخر، وإن طبعت هذه الازدواجية بتقاطعات كثيرة تنهض دليلا على وجود إرادة لترسيخ فعالية الجهاز الإداري، وإثبات تفوقه على السكان. ويجد هذا التصور تبريره في صعوبة الفصل، في المراتب المسندة سواء إلى العلوج والعبيد أو إلى عناصر الكيش، بين ما هو عسكري وما هو مدني، وهو أمر ارتبط بطبيعة الحكم خلال هذه المرحلة، الذي كان ينبني على الجمع بين السلطات المالية والعسكرية، وحتى القضائية، وخاصة على المستوى المحلي. فقد حاول أحمد المنصور الدمج بين العنصر العربي والعلوجي، فأناط « رؤساء العرب وأكابر الدولة منهم بالمشورة والتدبير، وقيادة عساكر الخيل »⁹⁰، وأسند للعلوج رئاسة

⁹⁰ عبد العزيز الفتتالي، ن.م، ص.ص. 200-201. « لقد جرى العرف بين المسلمين بعدم تعيين أبناء البلد في المناصب التي تهم شؤون الحكم، لذا فهم يعتمدون على الأجانب في تسيير أمور البلاد، وقد رأينا كيف أن معظم القواد في

جيوش النار، والأمور الخاصة بالملك. وجعل المولى إسماعيل من العبيد معظم كبار قواده وخدامه، إذ قلدهم مناصب سامية بالبلاد⁹¹. وبالرغم من تركيز السلطانين في اختيار الأطر الإدارية على الفئات الدخيلة، فإن العناصر المحلية ظلت حاضرة بكل ثقلها في وظائف السيف والقلم، بل وفي مراكز القرار. لكن حين نلقي نظرة على التركيبة الإدارية للجهاز المخزني، يستوقفنا سؤال حول الانتماءات الحضرية أو البدوية لعناصرها، ومدى أهميتها بالنسبة للتصور السياسي للسلطانين، بمعنى دور هذه الانتماءات في تحديد حجم تحالفات المخزن وطبيعتها.

وإذا كان أحمد المنصور قد اتخذ من بعض الزعامات القبلية كبار مستشاريه، كعزوز الوزكيتي، وإبراهيم السفياي، وبوكرزية، فإن المولى إسماعيل قرب إليه عددا من الشخصيات أمثال أحمد اليحمدي الغماري، وسليمان الزرهوني، وعبد الرحمان الفيلاي⁹². وتدل هذه النماذج وغيرها على الحضور القبلي في أجهزة المخزن الذي كان يمنح الأولوية للشخصيات القوية ذات النفوذ الكبير داخل مجموعاتها القبلية، وهو ما يمكن من ضمان ولائها. وتجسدت هذه الظاهرة بشكل جلي خلال عهد السلطان العلوي، الذي عين علي بن ويسي على زمور وبني حكم، وابن الأشقر على زرهون، وأحمد بن علي الريفي على الشمال. بل اتخذ من العناصر المؤثرة في بعض الأقاليم رهائن بقصره، كما هو الحال بالنسبة لزعيم سوس عبد المالك العمري⁹³.

وأشار العلامة محمد المختار السوسي إلى تربع السوسيين على المراتب العليا في جهاز المخزن السعدي، إذ « خرج العلماء إلى الميدان الحيوي والمعتك السياسي، فشاركوا في الأمور

الجيوش المغربية كانوا من هؤلاء » خورخي دي هنين، ن.م، ص. 188.

⁹¹ Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 7.

⁹² محمد الإفرائي، نزهة الحادي...، م.س.ذ.، ص. 169. ورسالة من بالتسار بولو إلى فيليب II بتاريخ 26-3-1594؛ ومجهول برتغالي، ن.م، ص. 86.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 76-7, 288, 327.

S.I.H.M. 1^{re} série, Ang., t. 2, p. 248, et 1^{re} série, Fra., t. II, pp. 199-200, note 5, p. 395.

عن المولى إسماعيل، انظر: أبو الحسن البصوتي العثماني، سنا المهدي إلى مفاخر أبي العباس اليحمدي، مخطوط، خ.ح، رقم 521، ص. 10؛ وعبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م.س.ذ.، ص. 233.

⁹³ أبو القاسم الزياني، البستان الطريف...، م.س.ذ.، ص. 215؛ محمد ابن العياشي، ن.م، ص. 99. وحول رهائن القصر في عهد المولى إسماعيل، راجع:

M. Morsy, *La relation de thomas Pellow...*, op. cit., p. 83, note 72. Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 53.

العامّة، واستحوذوا على قيادة الشعب، فكانوا سبب توطد الدولة السعدية، ثم جازتهم هي أيضا بدورها، فكان منهم أفراد بين الكتاب والشعراء الملازمين للعرش، والسفراء، ورؤساء الشرطة، وقواد الجند، والحرس الملكي الخاص⁹⁴. وهو وضع ارتبط بدورهم في انطلاق الدعوة السعدية، إذ شكلوا عصبيتها الأساسية، لكن مساندتهم للمتوكل في حروبه ضدًا على عميه، قلصت بالتأكيد من مكانتهم لدى أحمد المنصور، الذي وإن عفا عنهم واستمر في الاعتماد على فرقة عسكرية منهم، ظلت علامات الحذر بادية على سياسته تجاههم، بدليل أن عددا من القواد السوسيين شاركوا في حملة السودان تحت إمرة القائد الأندلسي جوذر باشا⁹⁵. غير أن هذا لا يعني في شيء إقدام السلطان على تهميشهم، وهو ما تؤكده نصائحه الموجهة لابنه محمد الشيخ المامون حول وضع الثقة فيهم، والمكانة الكبيرة التي حظي بها القائد عزوز لديه، إذ كان لا يقطع أمرا دون استشارته. وهي المكانة نفسها التي تمتع بها كبار العلوج والأندلسيين أمثال منصور غوتيريس أو كيترس Gutierrez، والباشا محمود، والباشا يختيار العليج، والباشا مصطفى، والباشا عمار البرتغالي وغيرهم⁹⁶، وإن أسندت لبعضهم مهام حيوية، من قبيل الإشراف على الخزائن السلطانية، وتوزيع الأعطيات على الجنود. وأوكل المولى إسماعيل معظم هذه الأدوار للعبيد، من أمثال مرجان الصغير ومرجان الكبير، وباعلال، وعنبر، الذين اتخذهم حجابا له⁹⁷. والملاحظ أن هذا السلطان الذي ولى بعض الحكام الجهويين على مناطقهم الأصلية، أمثال عبد الصادق الكلاوي على كَلَاوَة، وعلي العتابي على تادلة، وعمر بن حدو على الريف وجباله والفحص، لم يلتزم بهذا التقليد في

⁹⁴ محمد المختار السوسي، سوس العامة، المحمدية، مطبعة فضالة، 1960، ص. 20.

⁹⁵ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 51، 130، 164، 201. بالرغم من نجاح أحمد المنصور في إخضاع منطقة سوس، فقد اندلعت بها من جديد تمردات، وإن كانت محدودة، قادها علي بن الشيخ سيدي أحمد أو موسى سنة 1597م، راجع: محمد المختار السوسي، يبلغ قديما وحديثا، الرباط، المطبعة الملكية، 1966، ص. 27.

⁹⁶ رسالة من ديكو مرين إلى دوق دي مدنيا سيدونيا بتاريخ 28-8-1595: *Archivo General de Simancas S.E. Leg. 174. Voir aussi : A. de Saldanha, Chronique..., op. cit., pp. 76-7, 144.*

⁹⁷ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 58، 149، 171، 190، 201. أبو القاسم الزياني، البستان الطريف...، م.س.د.، ص. 215.

A. de Saldanha, *Chronique..., op. cit.*, p. 144. Ch-de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail..., op. cit.*, p. 6.

عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم، مساهمة في دراسة تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى عهد المولى عبد الله بن إسماعيل، دراسة وتحقيق، أسية بنعدادة، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، 1992، ص. 49. عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م.س.د.، ص. 261.

جهات أخرى، حيث عمد إلى تعيين عبد المالك الخطيب ويحيى أعراص، وهما من أصول ريفية على سوس الأقصى وعلى مراكش⁹⁸. ألا يوحي ذلك بأن الانتماء القبلي والجهوي لم يكن في جميع الحالات عنصرا ملازما للاختيارات السلطانية، بقدر ما كانت هناك اعتبارات أخرى تتم مراعاتها؟

أول ما يثير الانتباه أن بعض الأطر المخزنية الرئيسة انحدرت من أصول متواضعة. إذ إن قاضي فاس عبد الواحد الحميدي قبل توليته من قبل المنصور، كان بائعا للثياب البالية بإحدى دكاكين السوق القديم بالمدينة. وانتسب الباشا علي بن عبد الله الريفي إلى عائلة فقيرة بتمسمان، فعمل حمالا على البغال، وعاش في فقر مدقع قبل تعيينه من قبل السلطان⁹⁹. وكان الباشا عبد الكريم بن منصور « في أول زمانه، حمارا يتجر في المغزل... في أعلى وادي تقيس، يشتره ويذهب به لمراكش، يبيعه بها مدة طويلة، وبعدها دخل المخزن بمكناس »¹⁰⁰. ومارس محمد تميم قبل تعيينه، صناعة النجارة بمهارة، حسب ما أورده سكيرج. ويعود أصل آل الروسي إلى جبل الحبيب من بلاد الهبط، حيث استقر زعيمهم حمدون بفاس، وربط ابنه عبد الله علاقات مصاهرة مع أربع أسر فاسية، واشتغل بالحياكة في عهد المولى رشيد قبل أن يدخل في خدمة خلفه المولى إسماعيل¹⁰¹.

وأسند السلطانان وظائف مختلفة لبعض الأسر، فاستخدم أحمد المنصور عناصر من عائلات تسمى لسوس وفشتالة وسفيان وجبل العلم، أو ذات أصول حضرية أندلسية احتكرت على الخصوص مناصب الإفتاء والخطابة والقضاء، كآل الغساني وآل بن سودة. كما اعتمد المولى إسماعيل على خدام من أسر ريفية بحمامة وتمسمان، ومن أسر من زمور، وأخرى أندلسية كآل تميم ولوقش Lucas بتطوان، وآل عواد، وآل معينو، وآل بيريس بسلا، ثم أسرة الروسي

⁹⁸ عبد الكريم الريفي، ن.م، ص ص. 44-43.

Ch. de la Veronne... *op. cit.*, pp. 118, 202, note 10.

⁹⁹ محمد القادري، نشر الثاني... م.س.ذ.، ج. 1، ص. 44. سبق لعبد الواحد الحميدي أن شغل منصب القضاء في عهد عبد الله الغالب، ثم المعتصم الذي سجنه ثم أفرج عنه، والراجح أن هذه النكبة هي التي أدت إلى سوء حاله، وراجع: محمد الإفرائي، نزعة الحادي... م.س.ذ.، ص ص. 171-172. وجون وندوس Windus، ن.م، ص. 123.

¹⁰⁰ عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 70. وعبد الرحمن ابن زيدان، ن.م، ص. 255.

¹⁰¹ نفيسة الذهبي، الزاوية الفاسية... م.س.ذ.، ص ص. 227، 230. وعن تنوع أصول رجال المخزن، راجع: مصطفى الشابي، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، الرباط، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، 1995، ص ص. 109، 118.

المنحدرة من بلاد الهبط، التي تخصصت في حكم مدينة فاس¹⁰².

وأُسفر التباين في أصول الأطر المخزنية؛ عن حدوث تنافس بين بعض أفرادها، بلغ درجة حادة من الصراع أحيانا. وهكذا، رفض القاضي الحميدي مثلاً تقديم المنجور عليه في الصلاة، فاعترضه وهو في طريقه إلى المحراب، وبرر موقفه لأحمد المنصور بكون نسبه اليهودي لا يؤهله لإمامة المسلمين، مهما بلغت كفاءته العلمية. ولم يكن الصراع بين العربي بردلة ومحمد المجاصي، حول تقلد المناصب الدينية بفاس مرتبطاً بشح الأوقاف، بقدر ما كان تعبيراً عن معارضة سكان فاس تخويل المناصب للدخلاء، الذين حاولوا، على العكس من ذلك، إيجاد مكان لهم في المدينة، بدليل أن المجاصي استمر في التدريس بالقرويين دون تعيين، وهو ما يعكس وجود توتر بين الطرفين، اتخذ تارة صورا خفية وأخرى ظاهرة. وعانى الباشا أحمد بن علي الريفي ذو الأصل البدوي، من مزاحمة الحاج عمر لوقش الأندلسي، الذي كان يرى فيه عنصراً دخيلاً على مدينة تطوان، ومن منافسة عبد القادر بيريس الذي لم يخف عداؤه الصريح له¹⁰³. ورأى إبراهيم حركات أن ذلك التطاحن يعبر عن الصراع الدائر بين الأرستقراطية الحضرية وبين الفئات الكادحة المتأصلة من هوامش المدن الكبرى¹⁰⁴. وتدل هذه الأمثلة وغيرها على احتدام المنافسة بين الأسر، سواء خلال العهد السعدي أو العلوي، من أجل تبوأ المناصب الإدارية، التي يبدو أنها كانت ترزح تحت رحمة العصبية العائلية القوية، أي التي لها من العلاقات، وعدد الأفراد، ما يمكنها من اكتساب الأتباع والخدام.

ومن هذا المنظور شكلت المصاهرة وسيلة من وسائل تعزيز المكانة الاجتماعية، التي تخول لصاحبها تسلق الوظائف المخزنية، فبدون شك، ساهمت مصاهرة عائلة بوكركية مع أحمد المنصور¹⁰⁵، في تقلد عدد من عناصرها لمهام القيادة. وتمكن عبد الله الروسي من

¹⁰² عن المرحلة السعدية راجع: عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 52، 85، 130. ظواهر ورسائل تعيين أحمد المنصور للأطر المخزنية، ضمن مجموع رسائل سعدية، خ. ع، ك 278، ص. 14-16، 23-73، 80-81؛ مجهول برتغالي، ن.م، ص. 86؛ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 168، 171؛ محمد حجي، الحركة الفكرية في عهد السعديين، المحمدية، مطبعة فضالة، 1977، ج. 2، ص. 408؛ نفيسة الذهبي، ن.م، ص. 230. وعن المرحلة الإسماعيلية انظر: عبد الكريم الريفي، ن.م، ص. 44-45؛ محمد داود، تاريخ تطوان، مكتبة الناصر، 1959، ج. 2، ص. 168. M. Morsy, *La relation de Thomas Pellow...*, op. cit., pp. 94, 172, note 448.

¹⁰³ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 137؛ محمد القادري، ن.م، ج. 2، ص. 232، وج. 3، ص. 55-56. Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 94.

¹⁰⁴ إبراهيم حركات، التيارات السياسية بالمغرب خلال القرنين ونصف قبل الحماية، مطبعة الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1985، ص. 97.

¹⁰⁵ مجهول برتغالي، ن.م، ص. 86.

خلال زواجه بابنة أحمد بن صالح الليريني، من التخلي عن ممارسة مهنة الحياكة والدراسة، والتمهيد لانصهار أسرته في شريحة الأعيان بالمجتمع الفاسي، التي لم تكن تنظر بعين الرضا لسياسة سلطانية اتخذت من أسرة آل الروسي الوضيعة أداة لحكم المدينة، مع أن هناك أسراً لها من النفوذ والمكانة الاجتماعية ما يؤهلها لتولي ذلك المنصب. وهي الوضيعة نفسها التي عانت منها عائلة الباشا أحمد بن علي بن عبد الله الريفي، الذي ووجه بفتور ونفور كبيرين من قبل الأعيان الأصليين لمدينة تطوان. ولتقوية مكانة الأطر الدخيلة، حرص السلطانان على تدعيمها بشريا بواسطة السماح لها باستقدام قاعدة من الأتباع الموالين لها، تستند عليها في تنفيذ مهامها. وهكذا أمر أحمد المنصور مثلاً بإسكان فئة من قبيلة سفيان بعدوة القرويين، لخدمة قائده إبراهيم السفيناني¹⁰⁶. وهذا المثال وغيره يثير أكثر من تساؤل حول الأهداف الحقيقية، التي سعى السلطانان إلى بلوغها من خلال تعيين فئات دخيلة، أو ذات أصول متواضعة، في مناصب القيادة أو الولاية، أو حكم المدن. فهل يتعلق الأمر برغبة في تقليص من دور النخب المحلية والجهوية بهدف إضعافها، وتحجيم قدرتها على المناورة¹⁰⁷؟

الأكيد أن أي تشخيص لهذه الأهداف لا يمكن أن يتم إلا عبر مساءلة الأسس المحددة لمساطر التعيين المخزني، والبحث عن التقاطعات الجامعة بينها، التي من شأنها إمطة اللثام عن صور الإدارة في ذهنية المخزن. فما هي المعايير التي اعتمدت في انتقاء الأطر المخزنية؟ وإلى أي حد يمكن الحديث عن وجود ثوابت في الآليات المتحكمة في هذا الانتقاء؟

- معايير الاختيار

تقودنا التصورات السابقة المتعلقة بانتماءات الأطر الإدارية وأصولها، إلى تأكيد حقيقة مفادها أن تسمية هذه الأطر داخل النسق المخزني، ظلت حبيسة منظور واحد هو المنظور السلطاني الذي يمثل الأصل والجوهر في أية محاولة لتفكيك الأبعاد المتحكمة في معايير الاختيار

¹⁰⁶ حول القائد السفيناني انظر: محمد ابن العياشي، ن.م، ص. 92.

Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay...*, op. cit., p. 84.

¹⁰⁷ كانت العداوة مستشرية بين القائد عزوز وبين العلج أحمد بن كوكسو Coko حاكم منطقة القصر الكبير، إذ لم يتخر الأول وسعا في اتهامه بالجور والتعسف على الرعية، غير أن هذه الاتهامات، التي تنم عن الصراع الدائر بين العناصر المحلية والدخيلة، لم تجد أذانا صاغية لدى أحمد المنصور، راجع:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 250-2.

وقصار القادري إلى أن « أهل فاس كانوا يكرهون ولاية الغير، ويطعنون فيه »، راجع: محمد القادري، ن.م، ج. 4، ص. 8. فهل كان المخزن يوظف أصحاب الأصول المغمورة والمتواضعة، في سياق سياسة الحذر من ذوي الجذور الاجتماعية العريقة، كما انتهى إلى ذلك مصطفى الشابي في دراسته لمغرب القرن التاسع عشر؟ راجع: النخبة المخزنية... م.س.د.، ص. 118.

المعتمدة، سواء المرتبطة منها بالانتماءات الجغرافية والأسرية، أو بالمؤهلات الشخصية. على أن تحليل ذلك النسق يجب أن يراعي حتما طبيعة الأولويات التي حكمت مساطر الانتقاء التي تحيل جملة وتفصيلا على الثقافة السلطانية بأبعادها المتعددة.

وتبعا لذلك فإن الوظائف المخزنية حملت دلالات محددة، وقامت بأدوار ومهام معينة، وعليه فإن قراءتها رهينة بمدى فهم الثقافة السلطانية التي تنضوي داخلها، من منطلق أنها الأساس المرجعي الذي خولها المشروعية، وجسد ممارساتها. غير أنه لا يمكن القيام بقراءة سليمة، دون الوصل بين هذا الأساس وبين طبيعة الأطر، من خلال استحضار المبررات المعتمدة من قبل السلطانين في تفويض المناصب الإدارية، وهو الأمر الذي يستوجب الانطلاق من المادة المصدرية، وخاصة من الرسائل والظواهر الصادرة عنهما لما تنطوي عليه خطاباتهما من تصورات معبرة عن تلك المبررات.

خضع توزيع الوظائف المخزنية لمعايير متعددة، اختلفت وفقا لنوعية المهمة، أي لمدى تعلقها بالسيف أو بالقلم، أو بهما معا. لكن هذا لا ينفي وجود أبعاد ثابتة محددة لجوهر كل الوظائف، وأبعاد متغيرة حسب خصوصيات بعضها. ومن هنا شكلت السيرة الحسنة قاسما مشتركا تتقاطع فيه الاختيارات السلطانية برمتها، التي ربطت تقلد المهام بجملة من الخصال الحميدة التي لا يحيد عنها، كالثقة والصدق والاستقامة والطاعة والجد والمحبّة الطبيعية لإرضاء الجناح الإمامي. وهي صفات كانت تؤهل صاحبها للتقرب من البلاط وخدمة اعتابه، تنضاف إليها مؤهلات خاصة كالتيدين والعلم والعدل، بالنسبة للوظائف الدينية من قضاء وإفتاء ونظارة وحسبة وإمامة ونقابة الشرفاء¹⁰⁸. ففي هذا السياق، برر أحمد المنصور اختياره لقاضيه على مكناسة، بتوفرهما على عدة أوصاف زائدة عن صفة العلم، وهي الرغبة الصريحة والصادقة في خدمته، وعين المولى إسماعيل نقيب الشرفاء ثقة منه « بحسبه ومعرفته وديانته ومروءته »¹⁰⁹.

أما الوظائف العسكرية والسياسية، من ولاية وعمالة وقيادة وحجابه وكتابة، فاتخذت

¹⁰⁸ ظهر تولى المنصور لمحمد بن علي الهوزالي قاضيا على سجتانة، وظهر تولية أبي القاسم بن أبي النعيم قضاء مكناسة، انظر: م. ر. س. ك 278، ص. 15-16، 23-24، 30-32، 70-73. وظواهر إسماعيلية لفائدة أسرة معينو، عبد الرحمن ابن زيدان، العز والصولة... م. س. د.، ص. 80-81.

¹⁰⁹ عبد الرحمن ابن زيدان، ن. م.، ص. 13، 79، 82. وحول المنصور، راجع: ظهر تولى الغساني وابن سودة خطة القضاء، م. ر. س. ك 278، ص. 70-71.

من معايير التجربة والحنكة والمهارة أساسا لها، ومن خدمة السياسة السلطانية هدفها. فقد ارتبطت تولية قائد مكناس من قبل السلطان السعدي، بما « حصل وأجرى في مضامير الحنكة والاختبار »¹¹⁰. واعتبر الشخص الكيس والعارف والمجرب أولى الناس، لتقلد منصب العامل في نظر السلطان العلوي¹¹¹. لكن ما يسترعي الانتباه، ونحن نقارن بين الظواهر والرسائل الصادرة عن السلطانين، هو التباين في الصيغ المستخدمة فيها، إذ يلاحظ غلبة المفردات المعبرة عن خطاب الصرامة لدى المولى إسماعيل، الذي كان يركز ويلح على ضرورة تحلي من تمت توليته بالحزم والعزم والنباهة واليقظة والسطوة والضببط¹¹². وهو إلحاح يجد تبريره، دون شك، في إرادته القوية لإخضاع كل أطراف البلاد، وعدم التساهل مع الثوار والمتمردين، لذا لم يأل جهدا في حث خدامه على تبني أسلوب الإصرار لبلوغ أهدافهم، مقدما لهم كل أشكال الوعد والوعيد والترغيب والترهيب.

وتتج عن اعتماد المعايير السابقة الذكر، اختصاص أسر في رئاسة بعض الوظائف المخزنية، فأضحى الانتماء إلى إحداها يمثل تقليدا يحتذى في إسناد خدمات، أو في توريثها. وهكذا برر أحمد المنصور تعيين عبد المومن بن عبد الملك في رتبة قائد، بصلته مع سلف كرس أعضاؤه أنفسهم لخدمة المخزن، فاكسبوا مؤهلات سياسية جعلت منهم ركنا من أركان الإدارة. ونصح المولى إسماعيل آل معينو بأن يتخذوا قدوة في الخدمة والثقة والطاعة أخاهم الأكبر محمد الذي اختبره فنال رضاه¹¹³. ولعل هذا التقليد يكرس حرص السلطانين، إما عن وعي أو لمجرد الاعتياد، على ضمان استمرارية بعض الأسر في تزويد المخزن بحاجياته

¹¹⁰ ظهير تولية عبد المومن بن عبد الملك قائدا على مكناسة، م. ر. س، ك 278، ص ص. 30-32.

¹¹¹ المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون، ص. 38. برر أحمد المنصور تعيين الرايس إبراهيم الشط قائدا على الأسطول، « معرفته بأحوال البحار والحصون »، عبد العزيز الفشتالي، ن. م، ص. 204. وهو التبرير نفسه الذي قدمه المولى إسماعيل حول تولية عبد الله بن عائشة وعبد القادر بيريس، كرياس علي أساطيله. وذكر علي الحمامي في رسالة إلى هولندا بتاريخ 6 ذي الحجة سنة 1106 هـ ما يلي: « موكلنا نصره الله وأيده قد فوض لنا في الكلام في أمور البحر كله معكم ومع غيركم »، الأرشيف الوطني الهولندي لاهاي، سلسلة الأقاليم المتحدة، رقم 1.01.08، رقم الوثيقة 34-

112

¹¹² المولى إسماعيل، ن. م، ص ص. 17، 38، 45، 50؛ ظهير إسماعيلي لمحمد معينو، عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع خليف... م. س. ذ.، ص ص. 257، 308.

¹¹³ م. ر. س، مصدر سابق، ص ص. 30-32؛ عبد الرحمن ابن زيدان، ن. م، ص. 132. وذكر ابن القاضي أن خطة القضاء كانت في أسلافه منذ القديم إلى العهد الوطاسي، وهو أول من تولى من بني العافية في عهد أحمد المنصور، راجع: أحمد ابن القاضي، المتقى المقصور... م. س. ذ.، ص. 710. وتطورت الأحلاف العائلية إلى الحد الذي أصبحت فيه تكون أسرا مخزنية في القرن التاسع عشر، توظف حشدا هائلا من أقاربها. انظر: مصطفى الشابي، د. م، ص. 119.

من الأطر، نظرا لمؤهلاتها الشخصية، ولما راكمته من خبرات كافية لتولية الأمور، مما يدل على أن الأسبقية في الخدمة وماضي الأسرة، شكلا أحد المعايير المعتمدة في إسناد المناصب الإدارية. فمحمد بن مومن السوسي شغل منصب صاحب الشرطة والخراج إبان حكم عبد الله الغالب وعبد الملك المعتصم، واستمر في مزاولة مهامه مع أحمد المنصور، والمسار نفسه اجتازه الحاجب عبد الكريم بن مومن، ووالي المظالم علي بن سليمان التاملي. وبرر الفشتالي هذه الاستمرارية بما للرجلين من تجارب متراكمة، روعيت أيضا في تقريب القائد إبراهيم السفياي الذي برهن عن حنكته في معركة وادي المخازن. ومارس محمد بن الحسن المجاصي القضاء على عهد المولى رشيد والمولى إسماعيل الذي أوكل لأسرة الطيب الشريف الإدريسي مهمة تामزوارت الشرفاء، بل استمرت بعض الأسر في خدمة المخزن على عهد السلطانين السعدي والعلوي، كما هو حال أسرة بوعبدلي التي احتكرت مناصب القيادة والقضاء بمنطقة درن وتافيلالت¹¹⁴. لكن أيعني هذا وجود نمط وراثي لبعض الوظائف المخزنية ولو بشكل جزئي؟ أم أن الخدمة في المخزن ظلت مفتوحة لكل من نال عطف السلطان وثقته؟

على الرغم من تقلب أفراد من أسر معينة، في مهام سياسية وإدارية وعسكرية متعددة، يبقى من باب المجازفة الحديث عن نظام توريث. بمفهومه الضيق، أسفر عن ظهور فئات متخصصة في مزاولة مهام محددة. فمن الواضح أن الأمر لا يعدو أن يكون حالات محصورة في بعض الأسر؛ فقد جعلت خدمات القائد بوكريزية مثالا عددا من إخوانه وأبنائه رهن إشارة الجهاز المخزني لأحمد المنصور وأولاده من بعده، مما أكسبه حسب شالديانيا شهرة واسعة استمدتها منهم ومن أهمية القبائل التابعة لهم، وتدعمت بروابط المصاهرة التي جمعتها بأحمد المنصور وبابنه أبي الحسن، كما استفاد القائد علي بن (شقارة؟) Xacara من خدمة مائة من أبنائه¹¹⁵. وأكد المولى إسماعيل في رسالته لكبير آل معينو الحاج محمد، أنه أحبه وقربه وأمنه «هو وأولاده وأهله والمحسوبون عليه والمتسبون إليه في نفسه وماله وسائر أحواله»¹¹⁶. وأوكل

¹¹⁴ عبد العزيز الفشتالي ن.م، ص ص. 52، 228؛ عبد الرحمن ابن زيدان، النزع اللطيف... م.س.ذ.، ص ص. 219-220. وعن دور أسرة بوعبدلي، انظر: محمد الإفرائي، نزهة الحادي... م.س.ذ.، ص ص. 170-171؛ عبد الله التسافتي، ن.م، ص ص. 223، 226.

¹¹⁵ مجهول برتغالي، ن.م، ص. 86.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 64, 326.

¹¹⁶ عبد الرحمن ابن زيدان، ن.م، ص. 257.

باشا تطوان لثلاثة من إخوته وظائف سامية في منطقة نفوذه¹¹⁷، كما شغل أفراد أسرة عبد الله الروسي من أمثال عبد الخالق وحمدون ودحمان مناصب سامية في الجهاز المخزني، وعمل علي بايشي أو بن يشي القبلي وابنه في خدمة المولى إسماعيل¹¹⁸.

وهكذا تستفيد الأسر التي تدور في فلك شخص نال حظوة السلطان، وأثبت ولاءه للمؤسسة المخزنية، من امتيازات تداول بعض المناصب بين عناصرها. بل إن هذه الثقة كانت تزداد رسوخا كلما تعلق الأمر برابط القرابة من السلالة الحاكمة، فقد أسند أحمد المنصور لخاليه ولابن أحدهما ولأصهاره، مناصب القيادة بجهات حيوية من البلاد كسوس وتادلة. واختار المولى إسماعيل عددا من الأطر المخزنية من قبيلة الأوداية باعتبارهم من أخواله¹¹⁹، ومن المغافرة لكونهم عائلة أصهاره من زوجته خنثة بنت بكار.

على أن معيار القرابة، لم يكن محصورا في الروابط المباشرة الناتجة عن الانتماء الأسري، أو عن المصاهرة مع السلطان، بقدر ما امتد ليشمل كل شخص تمكن من تأكيد قدرته على الظفر بحظوة القرب من البلاط. وهكذا أفضى اغتراب محمد بن عمر الشاوي رفقة أحمد المنصور بالجزائر، إلى تفويضه خراج قبائل مسفيوة. وأسفرت نصائح القصار، للشيخ محمد بن علي بن ريسون بعدم الانسياق وراء ثورة الناصر، عن توليه خطتي الفتوى والخطابة بجامع القرويين. كما توجت نصيحة مماثلة وجهت لمحمد العالم بهدف وضع حد لتمرده، برفع مكانة عبد الله الروسي لدى المولى إسماعيل، الذي أسند ولاية الخطابة والإمامة للفقير محمد أبو عنان جزاء على هدية قدمها له¹²⁰. وفي ضوء ذلك بدت الوظيفة المخزنية مكافأة

¹¹⁷ جون وندوس Windus، رحلة...، م.س.ذ.، ص. 36. نفيسة الذهبي، الزاوية الفاسية...، م.س.ذ.، ص. ص. 230-231؛ محمد القادري، النقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، دراسة وتحقيق هاشم العلوي القاسمي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1983، ص. 235.

¹¹⁸ محمد القادري، ن.م.، ص. 235. انظر أيضا نفيسة الذهبي، الزاوية الفاسية...، م.س.ذ.، ص. ص. 230-231.

¹¹⁹ حول المنصور، راجع: محمد الإفرائي، ن.م.، ص. 186؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م.، ص. 42؛ أحمد الناصري، ن.م.، ج. 7، ص. 70.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 44-5, 290-2.

وأحمد الناصري، ن.م.، ج. 7، ص. 52.

كان القائد عبد الصادق الكلاوي صبها للمولى إسماعيل، راجع:

M. Morsy, *la relation de Thomas Pellow...*, op. cit., p. 55.

¹²⁰ مثلت الهدية في حجرة التيمم التي كان يستعملها رضوان الجنوي، راجع: محمد القادري، نشر المغاني...، م.س.ذ.، ج. 2، ص. 312، وج. 4، ص. 238. وبخصوص فترة أحمد المنصور، انظر: عبد العزيز الفشتالي، ن.م.، ص. 229؛ محمد القادري، ن.م.، ج. 1، ص. 92؛ أحمد الناصري، ن.م.، ج. 5، ص. 145.

مقابل خدمة أسديت وبرهن صاحبها عن مدى استعدادده للتقرب من السلطان. وإذا كانت الاعتبارات السابقة قد وجهت بشكل خاص أو عام وبدرجات متفاوتة، الاختيارات السلطانية للأطر المخزنية. فإلى أي مدى يمكن الحديث عن مكانة الثروة باعتبارها معياراً تم الارتكاز عليه في هذه الاختيارات؟

علل أحمد المنصور، وهو يجيب ابنه أبا فارس، الذي أبدى تحفظه الشديد على تعيين أحد الخدام على ولاية درعة، بأن المهم في هذا الاختيار ليس استحقاق الرجل لهذا المنصب أولاً، بل ثرواته الهائلة، وما توفره من تحصين وحماية لمال السلطان. مما يعني أن حفظ الأموال رهين بضمانات الثروة التي في ذمة الموظف، وإن كان يفتقر إلى مؤهلات التسيير، أو حتى يكره المهمة المسندة إليه، ويعتكف في منزله ولا يكلف نفسه عناء مباشرة أمور الناس، ما دامت مداخيل ولاية درعة الغنية معروفة مسبقاً¹²¹. فهل يدل ذلك على أن معيار الثراء ارتبط أحياناً بنوعية المهمة المسندة للشخص بغض النظر عن مؤهلاته الأخرى؟

حرص السلطانان على إسناد بعض الولايات الحيوية إلى الخدام المتصفين بالثقة والقرب، وهكذا نصح أحمد المنصور ولي عهده محمد الشيخ المامون بأن يوكل تازة وبلاد الفحص إلى هذا الصنف من الخدام. وشدد المولى إسماعيل في رسالته لولده المامون على أن بلاد درعة لها من الخصوصية ما يجعل إدارتها تحتاج إلى رجل قادر على تأمين مداخيلها المالية، والحفاظ على مصالح المخزن بها¹²². غير أن هذا لا يعني بأن الثروة شكلت معياراً رئيساً وثابتاً في تحويل مهمات محددة، ففي الوقت الذي برر فيه أحمد المنصور المراهنة عليها لتفادي مشكل الاختلاس الذي قد يطول بعض ولاته، فإن الوضعية المالية لجل عمال المولى إسماعيل ظلت متواضعة حسب شهادة جرمان مويط¹²³. وهو أمر ينم مع ذلك، عن التقارب بين تصور السلطانين على أساس أن هدفهما كان واحداً، ألا وهو تقوية الفرصة على الأطر التي تغتنى على حساب الرعايا، وإن بدا السلطان العلوي أكثر حزمًا وصرامة من سلفه في معاقبة هؤلاء¹²⁴، فإنه بقي وفيًا للمنطق المخزني الذي يعتبر التكليف بمهمة معينة، عملاً لا ينفصل عن التصرف في مال السلطان. على أن السلطانين قد اتخذا من بعض العناصر الثرية كبار

¹²¹ رسالة المنصور إلى ابنه أبي فارس، محمد الإفرائي، ن.م، ص. 186.

¹²² حمد الإفرائي، ن.م، ص. 176. والمولى إسماعيل، إلى ولدي المامون...، م.س.ذ.، ص. 46.

¹²³ جرمان مويط (Mouette) رحلة الأسير...، م.س.ذ.، ص. 147.

¹²⁴ Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., pp. 64-5.

سشاريهما أمثال عزوز الوزكيتي بالنسبة لأحمد المنصور، وإدريس العراقي، وإبراهيم سمران بالنسبة للمولى إسماعيل¹²⁵. لكن احتفاظ هذه العناصر بإمكاناتها المالية ظل رهينا على قدرتها على التكيف مع السياسة السلطانية ومستجداتها، وهو ما يؤكد أن توفر الثروة وعدمها لم يتخذ في شتى الأحوال مقياساً في الاختيار، بقدر ما روعيت مقاييس أخرى بالنسب والتقوى والعلم، وخاصة القوة العسكرية¹²⁶.

ما يستشف من خلال السياسة الإدارية للسلطانين، أن المولى إسماعيل كان يكثر من عمليات التعيين والعزل، إلى درجة أن عددا مهما من أصحاب الخطط الدينية، وخاصة من القضاة والأئمة، لم يتجاوزوا في ممارسة مهامهم أحيانا بضعة أشهر في مدينتي فاس ومكناس. بل إن بعضهم أعفي من مهامه ثم سرعان ما أعيد إليها، ليعزل منها مرة ثانية، أو حتى له مسؤوليات دينية أخرى، مما أفضى إلى ظهور نوع من التعاقب على هذه الخطط بين أسماء شخصيات تردد ذكرها باستمرار لدى الإخباريين، ومنها من تقلبت في خطط دينية مختلفة، أو مارست الخطة نفسها بمدن متعددة، ولمدد وصلت أحيانا إلى أربعين سنة، كما هو الحال بالنسبة لأحمد المجلدي، بينما احتفظ القضاة عموما بمناصبهم لمدة طويلة على عهد أحمد المنصور، كما هو الشأن بالنسبة لأبي القاسم الشاطبي الذي انفرد بقضاء مراكش، وعبد الواحد الحميدي الذي ظل بمنصبه لمدة زادت على ثلاثين سنة، والكاتب ابن عيسى الذي سبق له أن عمل مع محمد المتوكل وعبد الله الغالب¹²⁷. والراجح أن هذا التباين يعزى إلى محاولة المولى إسماعيل الرامية إلى توظيف الفقهاء والقضاة في مواجهة الزوايا لإضفاء الشرعية على سياسته الصارمة¹²⁸، لذا لم يتوان في التخلي عن كل من لا يستطيع الانخراط

¹²⁵ محمد القادري، النقاط الدرر...، م.س.ذ.، ص. 367، هامش 3. بخصوص الذمي ميمران، انظر: محمد جادور، مطبعة المغرب، المجلد 21، سلا، مطابع سلا، 2005، ص. 7349.
S.I.H.M, 1^{re} série. Fra., t. II, 1909, pp. 199-200, note 5.

¹²⁶ نورمان سيكار Cigar، «البنى المجتمعية الاقتصادية ونشوء بورجوازية حضرية في المغرب قبل الاستعمار»، تعريب محمد بنجني الروداني، مراجعة محمد معتمد، الرباط، مجلة كلية الآداب، ع. 20، 1995، ص. 158-159.

¹²⁷ تولى الفقيه أحمد بن ناجي السجلماسي قضاء الرباط وسلا وفاس ومكناس، وتولى بن سودة قضاء تازة ومكناس وفاس ومراكش، انظر: محمد القادري، ن.م.، ص. 24، هامش 44، ص. 226، هامش 1. ولنفس المؤلف، نشر المثاني...، م.س.ذ.، ج. 2، ص. 210، 232-231، 312، 335. والأمثلة كثيرة في كل أجزاء نشر المثاني. وحول قضية المنصور، انظر: محمد الإفرائي، نزعة الحادي...، م.س.ذ.، ص. 170-171. ولجأ أحمد المنصور بدوره إلى عزل بعض خدامه من مناصبهم، راجع مثلاً: محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، سلوة الأنفاس...، م.س.ذ.، ج. 3، ص. 133؛ وعبد الله كنون، رسائل سعية...، م.س.ذ.، ص. 205، 210؛ والمجهول السعدي، ن.م.، ص. 72.

¹²⁸ عبد الله العروي، مجمل...، م.س.ذ.، ج. 3، ص. 85.

في هذه الإستراتيجية. في حين أن ظروف وصول المنصور إلى الحكم فرضت عليه تقريب الجهاز الديني، والتعايش معه، عبر تخويله جملة من الامتيازات، من أبرزها احتفاظ أفرادهم بمناصبهم.

إن ما يدعم هذا الطرح هو دخول المولى إسماعيل في مواجهة مع القضاة، توجت بسجنهم بتهمة الجهل، وهو عقاب بالغ الدلالة على طبيعة الاختلاف بين منظوري السلطانين، وما واكبه من تفاوت جلي في وتيرة ظاهرتي العزل والتعيين. لكن الظاهر على ما يبدو أن هاتين الظاهرتين ارتبطتا بما أورده القادري حول وضعية مدينة فاس، التي لم تكن الخطط الدينية بها تعرف استقرارا إلا بعد تعيين شخص لا ينتمي إليها، إذ مثل لجوء السلطان إلى الغرباء خير سبيل لقطع الطريق على تعسف وجور الولاة من جهة، وعلى مداينة السكان لهم من جهة أخرى¹²⁹. إذن أشكل بالفعل عدم الانتماء للمدينة، معيارا في تعيين الأطر المخزنية عليها لضمان العدل والنزاهة؟ أم أن السلطان سعى أيضا إلى تشديد المراقبة على فاس بالنظر إلى وزنها الديني، وإلى ما أبدته من معارضة عنيدة له؟

وفضلا عن الاعتبار السابقة، يبدو أن تعيين شخص من خارج المدينة يعفي السلطان من السقوط في صعوبة الاختيار من الأسر الفاسية، وما يرافق ذلك من إرضاء طرف على حساب الآخر، مما يرجح كفة دخیل لا يمكن أن يكون موضوع منازعة¹³⁰. كما أنه ليس من السهل، وفي جميع الحالات، الشكاية به للسلطان، إذا ما مارس الشطط، كما ذهب إلى ذلك القادري¹³¹، بدليل أن سكان مدينة فاس تضرروا من الطاحونة المائية التي أقامها أحد قواد الكيش الإسماعيلي بالمدينة، وانتظروا عدة سنوات رحيل هذا القائد، قبل إقدامهم على المطالبة برفع الضرر عنهم¹³².

وقصارى القول، إن المعايير التي تم تبنيها في انتقاء الخدام، ارتبطت في مدها وجزرها بالعوائد السلطانية الخاصة بكل خدمة من الخدمات، التي استمدت أصولها أساسا من ثوابت الولاء المعتمدة في إسناد المهمات المخزنية. وهو ما يؤكد سيادة الاستمرارية الإدارية

¹²⁹ محمد القادري، نشر المظني،... م.س.ذ.، ج. 3، ص. 56.

¹³⁰ مصطفى الشابي، ن.م، ص. 118.

J. Berque, *Ulémas...*, op. cit., p. 252.

¹³¹ محمد القادري، ن.م، ج. 3، ص. 56.

¹³² نورمان سيكار Cigar، ن.م، ص. 159.

التي تحيل على وجود قواعد مشتركة مستوحاة من نسق واحد. فما هي الصور التي حملها هذا النسق في ذهنتي السلطانين، أو بعبارة أخرى ماذا كانت تمثل الإدارة في تصوراتهما؟

- بين البعدين الديني والسياسي

إن القراءة العميقة للآليات المتحكمة في الإدارة المخزنية، وللخلفيات الموجهة لها، توحى بوجود بعدين، أحدهما ديني أخلاقي والآخر سياسي. وقد كان الوعي بهذه الثنائية حاضرا في اختيارات السلطانين اللذين وظفا البعدين تارة بشكل متداخل، وأخرى بشكل منفصل. لكن السياق العام لهذا التوظيف اتسم في الغالب الأعم باستحضار البعد الأول للخدمة الثاني، نظرا لما له من أهمية في إسباغ الشرعية، وفي تدعيم السلطة وضمان استمرارها، إذ كان اكتمال السياسي رهينا بدعم الديني، مما جعل خطاب الظهائر والرسائل الذي كان يتم عموجه تعيين الأطر، يخضع لنوع من الجدلية المميزة لهذين البعدين. ومن هذا المنظور، شكلت المهمة الإدارية المخزنية واجبا دينيا لما فيه خير الدنيا والآخرة، يدخل في خانة أعمال البر « مقدارها عند الله عظيم، ونفعها لديه في الدارين عظيم »¹³³. ولذا وجب على كل من تولى شؤونها، أن يدرك أنها هبة من الله يشرف السلطان على توزيعها على أصحاب الاستحقاق الذين عليهم تقدير قيمتها، وتهئ الشروط الملزمة والضوابط الكفيلة بتحمل أعبائها¹³⁴. ومن ثم، فهي عطاء يمنحه السلطان لمن يشاء من خدامه، ونعمة ينعم بها على كل من برهن عن ولائه، والتزم بالحدود المرسومة له. فأحمد المنصور لم يتقاعس في توجيه اللوم لولي عهده، نظرا لإقدامه على توسيع دائرة العطاء حتى شملت عددا كبيرا من القواد وأفراد عائلاتهم، ونصح به بعدم استخدام أبناء قائد سلا وإخوته ودفع الأجرة لهم، مادام قد أعطى هذا القائد المدينة لينفق من مواردها عليهم. ومنح المولى إسماعيل لمحمد معينو مرسى سلا والرباط ليتصرف فيه، ثم عاتب ولده المامون على ركونه بتايفالنت، وتخليه عن ولاية درعة، لقائدة جملة ممن أسماهم بالأوباش، الناهيين لها¹³⁵.

¹³³ المولى إسماعيل، ن.م، ص ص. 45، 50.

¹³⁴ ظهر أحمد المنصور لقائدة ولي عهده، م.ر.س، ك 278، ص ص. 65، 76. رسالة من محمد الشيخ المامون إلى أحمد المنصور، مجموع مخطوط، خ.ح، 12598، ص. 73.

¹³⁵ المولى إسماعيل، ن.م، ص. 39؛ عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف... م.س.ذ، ص ص. 257-258؛ ظهر إسماعيلي لقائدة صموئيل ميموران بتاريخ ربيع الثاني 1112هـ، خ.ح، المحفظة رقم 1 من 737هـ إلى عهد المولى إسماعيل.

« ... واعلم أننا كبرناه وأعطيناه قبيلة... وفوضنا له فيها التفويض التام لسبي الأموال، وجني الرقاب... » ظهر إسماعيلي لقائدة القائد عبد الصادق بتاريخ 28 ربيع الأول 1112هـ، خ.ح، نفس المصدر. وعن المنصور، راجع:

وتبعا لذلك، اتخذ مفهوم العطاء صفة العطف، الذي يقوم من خلاله السلطان بالإنعام على المقربين، جاعلا من إسناد المهام المخزنية وسيلة للإحسان والكفالة¹³⁶. بمعنى أنها تمكن الشخص المنعم عليه، من الحصول على مورد للعيش إن كان معوزا، أو من تعزيز وضعيته المادية إن كان موسرا. فبينما حرص السلطانان على تحديد مبالغ رواتب بعض الخدمات الإدارية والدينية والتعليمية، التي شكلت في حالات معينة مصدرا وحيدا لأصحابها¹³⁷، غضا الطرف أحيانا عن ذلك التحديد، وفوضا حرية استخلاص الأجر من المداخل المحصل عليها. لكن في الحالتين أضفي على هذا المقابل المادي طابع أخلاقي، يحسن من خلاله السلطانان إلى خدامهما، أكثر منه تعويضا عن أوامر تم تنفيذها. وبذلك ظلت مكانة الخادم رهينة بمدى قربه أو بعده من المؤسسة السلطانية، التي تستخدمه وفقا لمنطقها الخاص، الذي لا ينفصل عن الربط بين العمل في المهمة المخزنية، وبين ما يحققه هذا العمل من ثواب عظيم عند الله¹³⁸، ومن نفع في الدنيا والآخرة، مادامت المشاركة فيه تستهدف تحقيق الأجر. فقد عين أحمد المنصور مثلا أبا القاسم بن سودة وأبا القاسم بن أبي النعيم، كقاضيين على مكناسة وبواديها، «إسباغا للنعمة، ومجازاة على جميل الخدمة»¹³⁹، في حين فوض لخدمته محمد بن عمر الشاوي مغارم قبائل مسفيوة الجبل من الزيت إلى أن صار غنيا. وأقطع المولى إسماعيل للقائد عبد الصادق أرضا «يستعين بها على حالته، ومؤنة عياله، وكل ما هو مكلف به وبصدده وملاقة الأضياف الواردين والصادرين...»¹⁴⁰.

وأضحى إسناد المناصب المخزنية في بعض الحالات، إجراء يعبر عن رافة السلطان وشفقته، اللتين تقتضيان من العنصر المخزني المنعم عليه إخضاع سلوكه تجاه المحكومين للطابع نفسه الذي كان حاضرا بقوة في تصور ابن القاضي، حين اعتبر أن أحمد المنصور كان يعين على

محمد الإفرائي، ن.م، ص. 178.

¹³⁶ كمال عبد اللطيف، ن.م، ص. 218.

¹³⁷ ظهر المنصور إلى قاضي الجماعة بالمحمدية، ثم جريدة المنصور لتحديد رواتب المدرسين، ضمن حوالات تارودانت، خ.ع، رقم 145، ص. 87؛ محمد القادري، ن.م، ج. 4، ص. 230، وج. 2، ص. 232.

¹³⁸ كمال عبد اللطيف، ن.م، ص. 231؛ سعيد بنسعيد، الفقه والسياسة، بيروت، دار الحداثة، الطبعة الأولى، 1982، ص. 91. والمولى إسماعيل، ن.م، ص. 45، 50.

¹³⁹ محمد القادري، ن.م، ج. 1، ص. 53.

¹⁴⁰ ظهر المولى إسماعيل للقائد عبد الصادق بتاريخ رجب 1137هـ، خ.ع، المحفوظة رقم 1. واعتمد المنصور على القائد محمد بن إبراهيم بن بجة نظرا لهجرته معه إلى الجزائر ولسابق خدمته، عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 57، 229؛ م.ر.س، ص. 70-72.

القاس من يتمتع بالشفقة « على أمة محمد من الرؤفاء الرحماء »¹⁴¹، وأيضا في رسالة المولى إسماعيل لقائده أبي علي الروسي، التي أكد فيها على أنه ولاه أمر المسلمين لينظر « إليهم بعين الشفقة والرحمة، وليسعى في مصالحهم »¹⁴².

وبناء على ذلك، ظلت الأطر المخزنية تنظر لما أوكل إليها من مهام، على أنه هبة أحسن بها ولي نعمتها إليها، واستجاب بواسطتها لحاجياتها الاجتماعية وما يرتبط بها من امتيازات. ومن ثم فقد نالت رضاه، ووجبت عليها طاعته. وهو أمر بالغ الدلالة على هيمنة مفهوم لئولية الحاكم الذي يخضع فيه الخادم لوصاية أخلاقية يسعى عبرها لبلوغ رضى الله، من خلال الخدمة الناصحة التي يسديها للسلطان، وتكسبه ثقته وعطفه¹⁴³. لذا لم تتوان بعض الشخصيات التي أسندت إليها مناصب مخزنية دينية على الخصوص، في المبادرة إلى الموافقة والانقياد للأوامر، لما للسلطان من حق الطاعة عليها، قبل أن تتحل جملة من الأعدار لإعفائها من توليها. بمعنى أن القرار السلطاني، وإن كان لا يتماشى مع إرادة من وقع عليه الاختيار وموقفه، فما عليه إلا الانصياع، ثم البحث عن وسيلة للتخلص من هذا القرار. وهكذا تذرع الفقيه محمد التمنارتي بانشغالاته التعليمية والأسرية، وبعدهم أهليته لتبوء خطة القضاء، حتى يحصل على الإعفاء من أحمد المنصور. ولم يتردد محمد الكاتب في التعبير عن جهله بضوابط خطة النظارة، ليطلب من محمد بن عبد القادر الفاسي التوسط له لدى المولى إسماعيل، ليختار بديلا عنه يقوم بانتقاء من يصلح لقضاء فاس¹⁴⁴. وهي مواقف لها ما يبررها كما سنرى لاحقا، لكنها لا تخلو من دلالة أكيدة على تجذر أخلاق الطاعة التي تضفي على الفعل الإداري طابعا دينيا. لكن أعني هذا أن الإدارة المخزنية ذات صبغة دينية؟ أم أن البعد الديني وظف في هياكلها ومعايير اختيار أطرها لخدمة البعد السياسي الهادف إلى ضمان استمرارية السلطة السلطانية¹⁴⁵؟

¹⁴¹ أحمد ابن القاضي، ن.م، ص. 409.

¹⁴² محمد القادري، ن.م، ج. 4، ص. 229.

¹⁴³ عبد الله العروي، مفهوم الدولة... م.س.ذ.، ص. 166. كمال عبد اللطيف، ن.م، ص. ص. 217، 264.

¹⁴⁴ رسالة محمد الكاتب إلى محمد بن عبد القادر الفاسي، ضمن رسائل محمد بن القادر الفاسي، M. El Fasi, « Biographie de Moulay Ismail », op. cit., pp. 82-83.

وحول المنصور، راجع: رسالة من محمد التمنارتي إلى المنصور، محمد المختار السوسي، مترعات الكؤوس في آثار طائفة من أدباء سوس، مخطوط، خ.ح، رقم 12647، ص. ص. 10-11.

¹⁴⁵ كمال عبد اللطيف، ن.م، ص. 162.

الواضح أن الإدارة المخزنية وظفت المواصفات الأخلاقية المستوحاة من المرجعية الدينية لتبرير اختياراتها، ولإضفاء الشرعية على ممارساتها، فجعلت من الفعل الإداري مهمة تصب في خدمة مصالح عامة الناس، وقضاء أغراضهم الدينية والدينية، وانتقت لهذه الغاية عناصر توفرت فيها، حسب الخطاب المخزني، خصوصيات سلوكية أهلتها لتحمل مسؤوليات مختلفة في الجهاز المخزني. غير أن هذه الخصوصيات ظلت حبيسة التصور السياسي السلطاني، الذي يعطي الأسبقية لمعيار الولاء الشخصي أولى أولوياته، على الأقل في ما يتعلق بوظائف السيف، في حين بقيت سير الورع والتقوى إلى جانب هذا المعيار، مهمنة بكل ثقلها على عمليات إسناد الخطط الدينية.

ويعزى هذا الوضع، إلى كون وظائف السيف احتفظت بأهميتها الحيوية في تقوية بنيات المخزن، مما جعل انتقاء أفرادها يهيمن عليه الطابع النفعي المستمد من القدرة على التدبير، المبني على رجاحة العقل وسرعة البديهة؛ لأن السلاطين « لا يولون إلا من تعود عليهم منافع ولايته »¹⁴⁶. وهذه الصفات لم يكن يؤخذ فيها ببعض الثوابت التي توكل من خلالها وظائف القلم، كصفة العلم مثلاً، فلقد أشار محمد داود نقلاً عن السكيرج، إلى أن القائد علي بن عبد الله كان أمياً، والصفة نفسها نعت بها التسافتي الباشا عبد الكريم بن منصور ومعظم حاشيته، لكنهما أكداً معاً على حزم الرجلين ونجاعة تدبيرهما¹⁴⁷.

على أن استحضار هذه الحالات، لا يعني في شيء التسليم بمنطق التعميم؛ نظراً لأن عدداً من أطر المخزن الإسماعيلي أمثال الباشا أحمد الريفي والحاج لوقش وعبد القادر بريس، انفردوا بمستوى تعليمي جيد، بل منهم من أتقن بعض اللغات الأجنبية¹⁴⁸. وحتى بالنسبة للوظائف الدينية، فإن المعرفة بالشرعية لم تكن دائماً كافية للظفر بخطة من خططها، بل كان يشترط في المستفيد منها، صفات المحبة والدنو من الجناح العلي الإمامي. فقد اعتبر المولى إسماعيل في رسالة لولده المامون أن « الخديم إذا كان بالمنة والجميل والكره... فإنما هو عدو ميين »¹⁴⁹. وهي أمثلة تعكس الحضور القوي للبعد السياسي في مساطر التعيين المخزني، إذ حظيت معايير الوفاء والقرباة والولاء بنصيب وافر يفوق المكانة التي احتلتها المؤهلات

¹⁴⁶ محمد بن سعيد المرغيتي، الإشارة في تدبير الإمارة، مخطوط، خ. ح، رقم 5708، ص. 18.

¹⁴⁷ محمد داود، ن. م، ج. 2، ص. 44؛ عبد الله التسافتي، ن. م، ص. 70، 144، 154.

¹⁴⁸ جون بريثويت (Braithwaite)، ن. م، ص. 80، 100، 149.

¹⁴⁹ رسالة إسماعيلية إلى المامون، بتاريخ 20 محرم 1108هـ، مجموع مخطوط، خ. ح، رقم 12598.

والكفاءات. غير أنها بقيت محتجبة وراء القناع الديني والأخلاقي، الذي يوظف بطريقة فعلية أو رمزية لتعليل التدابير السلطانية، وتكريس شرعيتها، مما أفقد هذه المعايير بصمة مؤسساتية واضحة¹⁵⁰، وجعلها مرتبطة بشخص السلطان، أكثر من ارتباطها بجهاز المخزن.

وتجربنا هذه الوضعية إلى التأمل في ظاهرة اعتماد السلطانين على عناصر دخيلة في إدارة البلاد، وإصرارهما المتواصل على إغرائها بتولي أعلى المناصب، شريطة اعتناقها للإسلام، مما يقيم الدليل على وعي أحمد المنصور والمولى إسماعيل، بأن توظيف العلوج والعبيد لخدمة شخصيهما لا يمكن استكماله، إلا عبر إصباغه بالصبغة الدينية التي من شأنها التخفيف من انتقادات القوى الدينية المعارضة، وإن ظل هذا الاعتناق في أغلب الحالات شكليا، فإنه يدفعنا إلى تأكيد حضور البعد الديني الذي يسبغ المشروعية، ومساءلة النزوع الدائم للسلطانين إلى إسناد المناصب الإدارية الحيوية لفائدة هذه العناصر، ومدى علاقة هذا الإسناد بالرؤية السياسية، التي تجد في الدخيل خير من يضحي لخدمة ولي نعمته¹⁵¹.

هكذا اتسمت الممارسات الإدارية المخزنية عموما، بوجود أسس ثابتة ومتغيرة، لكن إذا كانت هذه الممارسات متذبذبة بين هذه الأسس، فقد احتضنت في طياتها مواقف خاضعة لوصاية أخلاقية في الغالب الأعم، تجسدت في اعتبار المهمة الإدارية أمانة¹⁵²، تطوق أعناق من تكلفوا بها، وتلزمهم بالوفاء للعقد الشخصي الذي يربطهم بالسلطان، وللواجب الأخلاقي المنبثق من الدين، والمستبعد لفضيحة الخيانة. ومما يدل مثلا على الحضور الوازن لمفهوم الأمانة، هو الاستخدام الشائع في بعض الوظائف الحساسة، لمصطلح أمين المرسى للتعبير عن الموظف المكلف بتحصيل الضرائب الجمركية، وأمين بيت المال الذي يشرف على الخزينة السلطانية. وهي ألقاب تعبر عن رسوخ المرجعية الثقافية الإسلامية في المنظومة الإدارية المخزنية، لذا فلا غرو أن تتردد في بنيات ظواهر التعيين ورسائله العبارات الدالة على مضامين الأمانة. وفي هذا السياق، اعتبر أحمد المنصور إسناد مهمة القضاء بسجنانة لمحمد بن علي الهوزالي « كعصاة ألقاها على جبينه، وعهدة جعل زمامها يمين علمه ودينه »¹⁵³.

¹⁵⁰ R. Mousnier, « Le problème des fidélités... », *op. cit.*, p. 542.

¹⁵¹ عبد الله العروي، مجمل...، م.س.ذ.، ج. 3، ص. 84. انظر أيضا: J. Dakhli, *Le divan des rois...*, *op. cit.*, p. 313.

¹⁵² كمال عبد اللطيف، ن.م، ص. 218؛ عبد الله العروي، مفهوم الدولة...، م.س.ذ.، ص. 129.

¹⁵³ م.ر.س، ك، 278، ص. 14-16، 77، 79.

وورد في ظهير سعدي لتولية قائد عسكري، أن عليه « الوفاء بشرط هذه الأمانة، والاصطبار على حمل أعبائها ببركة العفاف والديانة »¹⁵⁴. وذكر المولى إسماعيل في إشارة إلى محمد بن إبراهيم معينو، أنه أمنه على المداخل الجمركية المرتبطة بالخدمة البرية والبحرية. بمراسي سلا والرباط وآسفي¹⁵⁵.

وتبين هذه العبارات بجلاء النظرة المخزنية لمفهوم الخدمة، التي ترى فيها بالدرجة الأولى مهمة للحفاظ والائتمان على ممتلكات السلطان، وعربونا لإثبات علاقات التبعية الشخصية، غير أن هذه النظرة ظل يتجاذبها في معظم الأحيان خطاب يضمن القصور، إذ لا تنفك الرسائل الرسمية عن دعوة الأطر المخزنية إلى ضرورة الاستقامة والجد والالتزام بالسبيل المعروف، والمشورة عند الحاجة¹⁵⁶. وهو ما يكرس طغيان الوصاية الأخلاقية، التي يمارسها السلطان على الأطر المخزنية، باعتباره الأصل الذي تدور في فلكه، والمحور الذي يتم من خلاله إعادة بناء العلاقات الإدارية في بعدها الديني والسياسي، إذ كانت أوامره ونواهيته تطول كل صغيرة وكبيرة، على الصعيد المركزي أو الجهوي، أو حتى المحلي. فأحمد المنصور صدرت عنه عدة ظهائر تناولت قضايا جزئية من قبيل مراقبة المصرف الذي يزود جوامع تارودانت بالماء، وتوزيع الاستفادة الأسبوعية من مورد مائي بالمدينة نفسها. ولم يفوت المولى إسماعيل فرصة التدخل في أدق التفاصيل المتعلقة بسياسة أبنائه أو باشاواته وقواده¹⁵⁷. وهي ممارسات تترجم إيمان المؤسسة السلطانية بأحقيتها المطلقة في تتبع مستجدات السكان من جهة، وفي مراقبة التجاوزات المحتملة للخدام من جهة أخرى، عن طريق بث العيون، ونصب الآذان، التي تحول دون إخفاء الأخبار إن سرا أو علانية¹⁵⁸.

وتؤكد هذه المواقف، بما لا يدع سبيلا للشك، غلبة التصور السلطاني الذي لا يرى وفاء

¹⁵⁴ ن.م.

¹⁵⁵ عبد الرحمن ابن زيدان، ن.م، ص. 257.

¹⁵⁶ انظر بعض ظهائر ورسائل المنصور، م. ر.س، ك 278، ص. ص. 30-32، 73-74؛ كمال عبد اللطيف، ن.م، ص. 218.

¹⁵⁷ عن المنصور، انظر: حوالات تارودانت، ص. ص. 41، 196. وبخصوص المولى إسماعيل، راجع: المولى إسماعيل، ن.م؛ رسائل إسماعيلية، مجموع مخطوط، خ. ح، رقم 12584.

¹⁵⁸ أحمد ابن القاضي، ن.م، ص. ص. 409-410؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. ص. 155، 252؛ المولى إسماعيل، ن.م، ص. 37، راجع أيضا:

Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., pp. 51-2.

الأطر المخزنية للثقة التي وضعت فيها، إلا عبر البرهنة عن انضباطها وطاعتها لما أمرت به، مما يستدعي الحذر، حتى من المقربين الذين شملتهم العناية السلطانية¹⁵⁹. والحيطة هي التي تخول الهيبة التي لا استمرارية للسلطة إلا بإظهارها، لأنه مهما بلغت الثقة في إطار مخزني معين، فلا بد من الحفاظ على المسافة التي تحدد مكانة كل طرف من الأطراف. فالطرف السلطاني تأرجح بين تخويل الثقة لهذا الإطار، وبين الرغبة في احتوائها، أي بين منحه الصلاحيات وبين السعي نحو تقليصها، لما قد تمثله من تهديد من شأنه المساس بالتقاليد، أو انتهاك حرماناتها. وهو ما تجسده في تقديرنا عمليات التعيين والعزل المتكررة التي أقدم عليها السلطانان، وإن بدرجات متفاوتة كما أسلفنا، ثم التدابير التي اتخذها لمحاربة إقدام بعض الأطر المخزنية على تجاوز الحدود المرسومة، أو لجوئها إلى الاغتناء الفاحش، وقد تظهر هذا الوضع بصيغة أوضح خلال عهد المولى إسماعيل¹⁶⁰.

هذه السلوكات عبرت بشكل أو بآخر، عن الشعور الذي كان ينتاب المؤسسة السلطانية، وهي ترى في تقوي بعض عناصر الجهاز الإداري مسا صريحا بتفردا وتميزها، وإلا كيف تفسر ما أورده القادري حول قتل الكاتب الخياط بن منصور: « ونظر السلطان في ما كان يتصرف فيه قال: لو قال قائل إن الخياط بن منصور كان سلطانا، لكان القائل صادقا في قوله »¹⁶¹. وإن كان قطع رأس هذا الكاتب مرتبطا بتجاوزه، فإن عبارة المولى إسماعيل تؤكد أن هناك خطوطا تحدد المراتب لا ينبغي تجاوزه، حتى من قبل أقرب الخدام. ومن قبل عبر عن التصور نفسه أحمد المنصور في رسالته لولي عهده محمد الشيخ المامون¹⁶²، مما يعني أن الخدمة في المخزن نادرا ما كانت تمكن ممارستها من اكتساب تراتبية إدارية قارة.

نستنتج أن الإدارة بمختلف أبعادها، ظلت تمثل من وجهة النظر المخزنية فضاء يولد من رحم المؤسسة السلطانية، ويكرس آلياته لخدمتها، أي أنه امتداد طبيعي للمكياتها الخاصة، وتجسيد لحضورها المجتمعي. فما هي الصيغ التي اتخذها هذا الحضور مركزيا ومحليا وجهويا؟

¹⁵⁹ كمال عبد اللطيف، ن.م، ص. 201.

¹⁶⁰ جون وندوس (Windus)، ن.م، ص. 42، 127.

Ch. de la Veronne, *Vie de...*, op. cit., p. 65.

راجع ما حدث لكاتب أحمد المنصور ابن عيسى، إذ صودرت ممتلكاته نظرا لإقدامه على إشهار رسائل النصيح التي قدمها للسلطان. عبد الله كنون، رسائل سعية، ص. 205، 210؛ المجهول السعدي، ن.م، ص. 72.

¹⁶¹ محمد القادري، نشر الماني... م.س.ذ.، ج. 4، ص. 233.

¹⁶² رسالة أحمد المنصور إلى ولي عهده، الإفرائي، نزهة الحادي... م.س.ذ.، ص. 176.

تراتبية الإدارة المخزنية

اختزل أحد الباحثين وظيفه الحاكم، من خلال صيغتها الأكثر بساطة، في قيادة جماعة معينة وتسييرها وممارسة السلطة السياسية، واتخاذ القرارات المتعلقة بها. وميز تبعا لذلك بين المفهوم الضيق لمصطلح الحكام، أي الذين يتكلفون بالسلطة والإدارة السياسية العامة للبلاد بدعم من مساعدين يطلق عليهم عادة لقب « رجال الإدارة »، وبين المفهوم الواسع الذي يشمل الأشخاص المتمتعين بأي نعت يمكنهم من ممارسة السلطات داخل جماعة ما. وفي ضوء هذا التقسيم يتبوأ الهرم الحكام وبطانتهم التي تشارك بطريقة مباشرة في ممارسة السلطة، بصفتهم مستشارين استعان بهم الحكام، أو مجموعة من المحكومين أو من يمثلهم اكتسبوا حق المشاركة، إن كلياً أو جزئياً في عمل السلطة، أو يتعلق الأمر، بحكام من الدرجة الثانية يمارسون سلطات على المستويين الجهوي والمحلي على شاكلة رجال الحكم المركزي، أو بأعضاء من الفئة الحاكمة¹⁶³. فهل يعبر المفهوم الضيق على الإدارة المخزنية بمعناها المركزي، ويحيل الثاني على الإدارة المخزنية بدلالاتها الجهوية والمحلية؟

نظرا للدور المحوري الذي حظي به السلطان في جهاز الإدارة المخزنية، فقد شكل مؤسسة بأبعادها السياسية والإدارية المادية منها والرمزية، باعتباره قائد الجيش، ورئيس الإدارة ينفذ، ويشرف، ويراقب كل ما يجري بالبلاد، سلطته مطلقة تستهدف ضمان الأمن الداخلي والخارجي، مقابل طاعة وخضوع السكان أشخاصاً وممتلكات¹⁶⁴، ويساعده أولاده وخدامه من وزراء وقواد وغيرهم ينعتون بالإدارة المخزنية المركزية.

- في العاصمة

بادئ ذي بدء تجدر الإشارة إلى أنه في الوقت الذي استعادت فيه مراكز أهميتها بصفتها عاصمة سياسية وإدارية مع بلوغ السعديين سدة الحكم، لأسباب تداخل فيها القرب من منشأ الدولة، ودرعها الواقعي، والبعد عن ضغوط الإمبراطوريتين العثمانية والإسبانية

¹⁶³ J. Gilissen, « Les rapports entre gouvernés et gouvernants, vus à la lumière de l'histoire comparative des institutions : synthèse générale », in *Gouvernés et gouvernants*, 1^{re} partie, (Synthèse générale, Civilisations archaïques islamiques et orientales), Bruxelles, Librairie Encyclopédique, 1969, pp. 40-41, 69.

وعن تنظيم الإدارة المخزنية في القرن التاسع عشر، راجع: مصطفى الشابي، ذ.م. ص. ص. 29-75.

¹⁶⁴ A. Laroui, *Les origines...*, op. cit., pp. 73, 111-115 ; N. Elias, *La société de cour...*, op. cit., p. XXIV.

التنافسيتين في حوض البحر الأبيض المتوسط، وما شكلته من تهديد يمكن أن يعصف بهم في أية لحظة، ولم يتقاعس أحمد المنصور عن إيلائها كل عناية واهتمام، تجسدت في تحميل أحيائها، وخاصة في تشييد معلمة البديع الذي مثلت سمو دار ملكه، وبجال اتخاذ قراراته، واستقبال السفراء والمبعوثين الأجانب، بالمقابل انفراد المولى إسماعيل بالتخلي عن العاصمتين التقليديتين، واتخاذ مدينة مكناس عاصمة لسلطنته، وتضافرت في بلورة هذا الاختيار جملة من العوامل ارتبطت بمؤهلات الطبيعة « إذ اختصت... بطيب التربة وعذوبة الماء، وصحة الهواء »¹⁶⁵، وبالموقع الجغرافي المتميز الذي أهلها للعب دور هام في الإستراتيجية العسكرية، ثم بالاعتبارات السياسية المرتبطة في شكلها ومضمونها بالقلقل التي شهدتها مدينة فاس عقب وفاة المولى رشيد وما واكبها من مواقف مناهضة من قبل نخبتها لم يستسغها هذا السلطان. كما لا يفوتنا أن التجربة التي خاضها هذا الأمير بصفته حاكماً للمدينة قد تركت دون شك بصمات جاذبة في ذهنه جعلته يفكر في الاستقرار بها. ومن ثم، فالظاهر أن طموحاته الشخصية، ورغبته في التميز وإثبات الذات، وولعه بالتشيد، وتصوراتهِ للممارسة السياسية، وللعمارَة العسكرية، كلها مؤشرات دالة على أن الأمر لم يكن اعتباطياً بقدر ما أفرزته إرادة لتشييد عاصمة بحمولاتها المادية والرمزية المعبرة عن مظاهر العظمة والهيبة، والهادفة إلى لعب دور الحلقة الرابطة بين مجالي الأطلس المتوسط والريف. ومن هنا، فإعادة بناء مكناس وتجديد معالمها لا يمكن فصله في هذا السياق عن مكانتها مركزاً لمراقبة وتسيير شبكة القلاع التي أنشأها بجوارها لتأمين الطريق والرفيق.

ولا غرو، أن إصرار السلطان على الإشراف بنفسه على مشروع العاصمة الجديدة « ... يقف على بنائه، وكلما أكمل قصراً أسس غيره »¹⁶⁶ يحيل إلى عزمه ترسيخ نموذج الحاضرة السلطانية الذي كان يحمله في مخيلته القائم على مبدأ علو المنشآت وضخامة أسوارها وأبراجها وتكامل وظائفها، إذ جمعت بين الخدمات السكنية والتخزينية والعسكرية، « وفوق كل باب منها برج عظيم عليه من المدافع النحاسية العظيمة الأجرام، والمهاريس الحربية الهائلة الأشكال، ما يقضي منه العجب، وجعل في هذه القصبة بركة عظيمة تسيّر فيها الفلك... وجعل بها هرباً عظيماً لاختران الطعام... يسع زرع أهل المغرب... وجعل

¹⁶⁵ أبو القاسم الزياني، البستان الطريف...، م.س.ذ.، ص. 147-148؛ أحمد الناصري، الاستقصا...، م.س.ذ.، ج. 7، ص. 48.

¹⁶⁶ أبو القاسم الزياني، البستان الطريف...، م.س.ذ.، ص. 154.

بها إسبلا عظيما لربط خيله وبغاله...»¹⁶⁷. وهي بنية معمارية تؤكد غلبة منطق التخطيط والتنظيم والاستعداد لإظهار علو السلطان العلوي، وقدرته على الاحتواء والتخفي، وترجم حضور الحس الهندسي والجمالي لديه المستوحى لا محالة من السعي إلى إظهار الخصوصية، كما سنرى حين تناولنا للأبعاد الرمزية للمخزن.

وفي ما يخص طبيعة الإدارة المركزية بالعاصمة، تجمع جل الكتابات على أنها جهاز بسيط تشكل من خدام تربطهم بالسلطان علاقات شخصية، لهم معرفة « بصناعة سياسة الملوك، وتدير القياد والوزراء »¹⁶⁸، ينظرون للأمور نظرة مخالفة للعامة والدهماء، ويقدر عواقبها أحسن تقدير، ويمارسون مهامهم وفقا لما ينظر به السلطان صاحب الرأي والتنفيذ في مختلف النوازل¹⁶⁹. وضم هذا الجهاز الحجاب الذين يشرفون على خزائن السلطان، ويؤمنون على خصوصياته، وتسند لهم أيضا مهام سياسية وعسكرية متنوعة، ويصعب الفصل بين منصبهم ومنصب الوزير. لكن يبدو أن تولي الشخص للوزارة، واكتسابه ثقة ولي نعمته يمكنه من الجمع بينها وبين الحجابة¹⁷⁰، وهذا لا ينفي وجود خدام مارسوا أحد المنصبين دون الآخر. أما الكتاب فيشترط فيهم معرفة الإنشاء، وجودة الخط، يشرفون على كتابة الرسائل الديوانية، ويحمل الثقة منهم الخاتم السلطاني، وكانوا يلقبون « بكتاب السر »، فهم يؤمنون الاتصال بين الخليفة وجميع الولايات، ويتصرف رئيسهم في أمور الباب، ويشرف على بيت المال وعلى الخدم¹⁷¹.

والملاحظ أنه كان يتم الخلط أيضا بين وظيفة الكاتب ووظيفة الوزير، فقد ذكر القادري أن عبد الله الروسي، « كان مكلفا بالكتابة... مثل الوزير »، وأن الخياط بن منصور كاتب

¹⁶⁷ أحمد الناصري، ن.م، ص. 55-54؛ عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس...، م.س.ذ.، ج. 1، ص. 134 وما تلاها.

¹⁶⁸ عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 70.

¹⁶⁹ عبد الرحمن ابن زيدان، العز والصولة...، م.س.ذ.، ج. 1، ص. 53، 145، 271.

¹⁷⁰ تولى عزوز الوزكيتي الوزارة في عهد عبد الملك السعدي، ثم أضاف إليها الحجابة في عهد أحمد المنصور، انظر: محمد القادري، نقاط الدرر...، م.س.ذ.، ص. 56 هامش 7؛ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 169.

¹⁷¹ أحمد ابن القاضي، ن.م، ص. 164-169؛ الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة 2، 1983، ص. 286؛ عبد الرحمن ابن زيدان، النزاع اللطيف...، م.س.ذ.، ص. 288.

Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 51.

حول إسماعيل، « يتوسط للولاة سرا مع السلطان بمنزلة الوزير »¹⁷². وكان الكاتب أحمد حمدي وزيرا ورئيسا مقدما على سائر الكتاب على حد تعبير الزرويلي¹⁷³، واعتبر علي بن عبد الله الريفي الحمامي « قبطان البحر وزير الكوشطة البحرية »¹⁷⁴. أليست وضعية القرب من السلطان هي التي كانت تضيفي على هؤلاء صفة الوزراء؟

يفسر تزايد نفوذ الكتاب داخل الجهاز المخزني المركزي، بما خولته إياهم صنعتهم من اطلاع على مختلف الأسرار المستمدة من صدور الرسائل وورودها من وإلى أيديهم. وكان هذا الوضع وراء إمساك بعضهم بكتابة التاريخ لجعلوا منه تاريخا للسلطان، باعتبار أن هدف المعرفة لديهم هو خدمة المخزن، في حين بات هدف العلماء من العلم هو معرفة الشريعة، وكتابة تاريخ الأمة الإسلامية¹⁷⁵. وكانت كتابات عبد العزيز الفشتالي، ومحمد الإفرائي، وأبي القاسم الزباني، ومحمد بن العياشي، ومحمد أكنسوس، محكومة بالخلفية نفسها، التي تنطلق من كون الكاتب يميل حيث مالت ريع الدولة، وأن العالم ظل بالمقابل متمسكا بعلوم شرعية ثابتة. ومن ثم، يمكن التسليم بخضوع نسق التأليف لدى هؤلاء الكتاب لمنطق مشابه، غايته الأساس إثبات سياسة عامة للمخزن المغربي على عهد أحمد المنصور والمولى إسماعيل.

لقد حرص الفشتالي بصفته مؤرخا رسميا للدولة كلف بكتابة مؤلف مناهل الصفا، على هدم خطاب تاريخي يخدم بالدرجة الأولى التوجه العام لسياسات ولي نعمته. ومن هذا المنطلق، تجاهل عدة أحداث أوردتها معاصروه، أو تغاضى عن التفصيل في حيثياتها بالرغم من اطلاعه الواسع على خباياها، وانتقى منها ما يلائم التصورات السلطانية، وما يتماشى مع الطروحات الرسمية، فعظم مخزن أحمد المنصور، وألصق صفة المروق بكل الحركات التي حاولت الخروج عن طاعته، وتناولها في أحاديث شتى، بدرجات عالية من التحامل، دون أن يكلف نفسه عناء التصدي للأسباب التي أفرزتها. كما اتخذ من مخدمه مركزا لإنتاجه التاريخي، فقرأ وأول الأحداث التي شهدتها المغرب من خلاله ولصالحه، صانعا بذلك تاريخا يظهر التعالي السلطاني، ويعبر بجلاء عن التمثلات الذهنية والفكرية للكاتب

¹⁷² محمد القادري، ن.م، ج. 3، ص. 360، وج. 4، ص. 228، 232-233، 239.

¹⁷³ أبو الحسن البصوتي العثماني، ن.م، ص. 10، 322.

¹⁷⁴ رسالة من المولى إسماعيل إلى هولندا بتاريخ 5 رجب الخير عام 1108هـ، الأرشيف الوطني الهولندي لاهاي، سلسلة الأقاليم المتحدة رقم: 1.01.08، رقم الوثيقة: 12569.35.

¹⁷⁵ خالد زيادة، كاتب السلطان حرفة الفقهاء والمثقفين، بيروت-لندن، رياض الرايس للكتب والنشر، الطبعة الأولى، 1991، ص. 183.

المخزني. وطمح أحمد اليحمدي للمسعى نفسه، حين ألف كناشته مدد التأيد في ترتيب المحفوظات والتقايد بأمر من المولى إسماعيل، فلم يذخر وسعا في تمجيد سياساته والبحث عن مرجعيات تاريخية تبرر قراراتها، وتشيد بالتدابير التي تبنتها. وهذان النموذجان يكشفان عن طبيعة الأنماط التأليفية التي التزم بها ممارسو حرفة الكتابة الرسمية¹⁷⁶.

كما ضم المخزن المركزي صاحب المظالم، الذي كان يث في الشكاوى المتعلقة بالتظلمات التي تلحق الرعايا، وقاضي القضاة، وكبار قواد الجيش، وبعض العلماء، وكلهم شكلوا أصحاب المشورة الذين يدون رأيهم في خبايا الأمور بالنظر إلى تجربتهم.

وهكذا نستنتج أن السلطان ظل يشكل المحور الذي تدور في محيطه جميع الأجهزة المركزية للمخزن، من منطلق أنه جسد مصدرا لتفويض الصلاحيات الإدارية أو سحبها، وورقيا لزر كل من فكر في تجاوز ما وهب له من منزلة، فلا أحد يعلو فوق مرتبته. وبالرغم من صعوبة التمييز بين اختصاصاتها ووظائفها، فإن هذه الأجهزة، مع ذلك، لم تكن معزولة عن أحضان المجتمع، ولم تشكل طبقة منغلقة على نفسها، تعيش من الضرائب والسخرات التي تفرضها، بل كانت تمثل بنية متحركة بواسطة التعيين والعزل وليست ثابتة، لما يسجله الحضور السلطاني من وزن في إعادة ترتيبها.

- جهويا

اعتمد السلطانان في إدارة البلاد على مجموعة من الحكام، من بينهم أبناء وهما الذين كانوا يسيرون الولايات نيابة عنهما، بهدف إرساء دعائم المخزن وتقوية أركانه¹⁷⁷. وتمتع هؤلاء بمواصفات سلطة مركزية جهوية، وهكذا أوصى أحمد المنصور ولي عهده محمد الشيخ المامون باتخاذ حاشية مخزنية مماثلة لما لديه، تضم الحاجب والكاتب والوزير والمكلفين بالمشور والحرس الخاص وديوان المظالم، بل ألح عليه في انتقاء كتبته من الماهرين، على اعتبار أنه مقبل على مراسلة الدول الأجنبية. وتبنى الموقف نفسه المولى إسماعيل من خلال نصحه وعتابه لولده المامون باتخاذ قواده وكتابه وعماله من الأكفاء لتسيير شؤون ولاية سوس¹⁷⁸.

¹⁷⁶ « Les abus de l'histoire ne sont le fait de l'historien que lorsqu'il devient lui-même un partisan, un politicien ou un valet du pouvoir politique » J. Le Goff, *Histoire et mémoire*, Paris, éd. Gallimard, 1988, p. 198.

¹⁷⁷ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 92-93؛ المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون... م.س.ذ.، ص. 46.

¹⁷⁸ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 178؛ أحمد ابن القاضي، ن.م، ص. 223-224، 410؛ المولى إسماعيل، ن.م، ص.

نحن أمام « مخزن مركزي مصغر » يجسد الحضور الرمزي والمادي الدائم لسلطة السلطان سام رعاياه؟ أم أن الأمر لا يعدو محاولة من السلاطين لتدريب أكثر الأبناء حظوة، على تفرس بشؤون السياسة والرياسة بهدف إعدادهما لخلافتهما؟

لقد كان تعيين كل أمير أو نقله من ولاية إلى أخرى يتم تبعاً لدرجة كفاءته ومكانته لدى السلطان، مما يكسبه خبرة سياسية وعسكرية؛ إذ كان المولى الشريف بن إسماعيل يمتلك سيطرته الخاص، الذي يستخدمه للإقامة فيه، ولاستقبال ضيوفه، وبلغ عدد جيوش محمد عالم بالسوس ثلاثين ألفاً. كما حكم أبو الحسن بن أحمد المنصور ولاية تادلة لسنوات طويلة، وتحت إمرته جيش هام من العلوج والأسرى المسيحيين¹⁷⁹. واستعان هؤلاء الأمراء في ممارسة مهامهم بمجموعة من الأطر المخزنية، التي كانت ترتبط مباشرة بالسلطان، بل إن كل أمير وجد بجانبه باشا أو قائداً يأخذ بيده عند الحاجة، ويمثل عين البلاط وأذنه عليه، يكشف عن أخباره، وعن وتيرة طموحاته، ويحدد طبيعة علاقاته مع السكان، حتى لا يسيء السيرة¹⁸⁰. وفوض السلطانان إدارة بعض الجهات لحكام استمدوا سلطتهم منهم، فإذا كان أحمد المنصور قد كلف مثلاً القائد حم بن فارس بالإشراف على تيكورارين، والباشا جوذر وأخاه محمود بحكم السودان، فإن المولى إسماعيل خول تسيير شؤون الشمال والعلاقات مع الدول الأوروبية لأعضاء أسرة الريفي. وتمتع هؤلاء الحكام الذين كانوا يحملون في الغالب لقب باشا بصلاحيات واسعة، أكسبتهم هيبة كبيرة لدى السكان، فأسهموا بشكل فعال في ضمان الاستقرار بالبلاد، فقد خاطب المولى إسماعيل هولندا في إحدى رسائله قائلاً: « إن خديم دارنا القائد علي بن عبد الله هو وزيرنا ومتولي أمور البحر كله والكلام في جميع شؤونهم، ونصاراكم أعطيناهم له وهو يكاتبكم والعمل على ما يقوله لكم »¹⁸¹.

أما المدن فكانت تدار من قبل حكام قد يحملون اسم باشا أو قائد أو عامل¹⁸²، مما يكشف

ص. 15، 17، 36، 52.

¹⁷⁹ عن أبناء المولى إسماعيل، انظر: عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 148-223. وعن أبي الحسن، انظر رسالة من Baltazar Polo إلى فيليب II بتاريخ 26-3-1594: *Archivo General de Simancas, Espagne, S.E. Legajo 174*.

¹⁸⁰ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 179؛ المولى إسماعيل، ن.م، ص. 15؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 47. Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., pp. 51-2.

¹⁸¹ رسالة من المولى إسماعيل إلى هولندا بتاريخ أواسط ذي الحجة الحرام عام 1106هـ، مصدر سابق، سلسلة الأقاليم للتحفة رقم، 1.01.08، رقم الوثيقة 12594.34.

¹⁸² يميز عبد الله العروي بين العامل الذي يمثل المخزن بمعنى الجيش في المدينة، والقائد الذي يتكلف بالأمن بالقبيلة.

عن الغموض التام الذي طغى على التراتبية الإدارية، وعلى طبيعة المهام التي تجمع في الغالب بين ما هو إداري وما هو عسكري. وإلى جانب هؤلاء الحكام، تم تعيين أطر دينية وعسكرية وإدارية وقضائية على شاكلة المخزن المركزي، ترأب مراقبة شديدة، وتنقل أخبارها أولا بأول. ولتسهيل مهامهم تخلى الحكام الجهويون عن اختصاصاتهم لبعض الأشخاص، غير أن اللبس اكتنف في الغالب الصفة الإدارية التي يحملونها، لكن عملية التخلي تلك كانت تتم أحيانا بواسطة إصدار مراسيم تبين الخطط المحددة لهم¹⁸³. والملاحظ أن جميع المدن التابعة للحكام الجهويين، ظلت مرتبطة ارتباطا مباشرا بالسلطانين اللذين يراقبان مداخيلها، ويعينان من يتولى شؤونها، ويرسلان إليها بين الفينة والأخرى مبعوثين عنهما لتفقد أحوال الرعايا، ولتشخيص مظاهر الشطط¹⁸⁴. لكن بالرغم من المراقبة الشديدة لكل أطراف البلاد، فقد فرضت ظروف الامتداد الجغرافي أن يتمتع المخزن الجهوي بدور صلة الوصل بينه وبين المخزن المحلي.

- محليا -

ارتبطت وظائف الإدارة المحلية بتمثيل السلطان وبالربط بينه وبين القبائل، إذ كان يشرك حكاما محليين من خلال تعيينهم أو الاعتراف بسلطتهم، بهدف إقرار نوع من التوازن الذي تعجز الوسائل التقنية والإدارية للمخزن المركزي عن تحقيقه¹⁸⁵. ويشرف على هذا الجهاز المحلي ممثل أصبح يحمل لقب القائد، بمعناه العسكري منذ توظيف المخزن لقبائل الكيش¹⁸⁶، ثم عمم ليدل على كل زعيم قبيلة يحافظ على الأمن، ويحصل الضرائب، ويجند الرجال عند الضرورة، ويدير محكوميه حسب الأعراف، ويعينه السلطان بموافقتهم. وفي هذا الإطار، تم

انظر:

A. Laroui, *les origines...*, op. cit., p. 160.

¹⁸³ مرسوم صادر عن علي بن عبد الله الحمامي، يعين فيه محمد عاشر التطواني على خطة أبي المواريث بتطوان، راجع: محمد داود، تاريخ تطوان، ج. 2، ص. 33. ثم ظهر توقيع واحترام صادر عن القائد حمو بن بركة والقائد أحمد بن الحداد لفائدة سيدي يوسف بن محمد دين الله، انظر:

A.-G.-P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine...*, op. cit., p. 37.

¹⁸⁴ مجهول برتغالي، وصف... م.س.ذ.، ص.ص. 71-72، راجع أيضا:

A.-G.-P. Martin, *Quatre siècles...*, op. cit., p. 47.

¹⁸⁵ G. Balandier, *L'anthropologie...*, op. cit., pp. 162-3, 171.

¹⁸⁶ « Relation de R.O.C », in *S.I.H.M.*, 1^{re} série, Ang., t. II, p. 395. Voir aussi, *Encyclopédie de l'islam*, Paris, 1978, p. 476.

التقاء القواد من الأعيان الذين تمتعوا بنفوذ داخل القبيلة، وذلك حفاظا على هياكلها، ورغبة في التعايش مع بنياتها المحلية، التي اتسمت بحرية تسيير في سوس والشرق، وفي المناطق الجبلية لاعتبارات جغرافية¹⁸⁷. وبالرغم مما كانت تسفر عنه هذه الوضعية من تجاوزات، فإن المخزن لم يعمل قط على احتواء المؤسسات المحلية، أو تنصيب نفسه للقيام بوظائفها، بل نظر إليها كأجهزة لتخفيف العبء عنه عبر تمثيل سلطته، الشيء الذي جعل منها مكونا أساسا من مكوناته. واعتمد القائد في تسيير منطقة نفوذه على الأسيخ وأعوانهم، الذين يرتبطون بالسكان برابطة الدم أو اللف، مما كان يسهل عليه إخضاعهم لنفوذه دون حاجة إلى إقرار وجوده الفعلي بصفة مباشرة. لكن هذه الوضعية تدل إما على قدرة المخزن على التستر والتخفي وراء الزعامات السياسية المحلية من خلال تركيتها وتدعيم سلطتها، بهدف تقادي آلية مواجهة محتملة مع السكان قد تكون مكلفة، أو على أنها لا تعدو أن تكون طريقة للتسيير تسعى إلى الحفاظ على التوازن.

وبدل هذا الوضع على وجود أسلوب حكم محلي خاص، يظهر فيه المخزن وكأنه يرضى بحد أدنى من الاعتراف، ويفضل تسييرا غير مباشر¹⁸⁸، وتبدو فيه القيادات المحلية بالمقابل مقتنعة بمشاركتها في السلطة، وما تمثله هذه المشاركة من ضمان لاستمرارية المخزن. غير أن القائد وأعوانه لم يكن باستطاعتهم تأكيد الحضور المخزني وسط القبائل، بمعزل عن الإشراف الفعلي للشرفاء والصلحاء والمرابطين، الذين يعزز السلطان وجودهم إما بالصلوات، أو بظواهر التوقير والاحترام. فيمارسون وظيفة التحكيم، ويسهرون على تنظيم الحياة الاجتماعية، مما يخولهم بالضرورة مكانة داخل أجهزة المخزن، الذي لا يذخر وسعا في دعمها، والحفاظ على صيغ عملها، ما دامت تقي بالغرض، شريطة أن تمارس هذا الدور بتزكية سلطانية، وليس من خلال مبدأ التضامن مع قاعدتها الاجتماعية، والذي قد يسفر عن بروز سلطة مضادة تسعى لوضع حد لهيمنة السلطة المحلية¹⁸⁹. ويعني هذا أن المخزن إما كان مضطرا

¹⁸⁷ الحسن الوزان، ن.م، ج. 1، ص. 286. انظر أيضا:

A. Laroui, *les origines...*, op. cit., pp. 160-3.

¹⁸⁸ J. Dakhli, *Le divan des rois...*, op. cit., p. 307.

رحمة بورقية، الدولة والمجتمع، دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب، بيروت، دار الطليعة، 1991، ص. 67-69. وعن تدخلات المخزن في بعض القبائل لخلق جهاز إداري متكيف مع الأعراف، راجع: علي الحمدي، السلطة والمجتمع في المغرب، نموذج آيت باعمران، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى 1989، ص. 117-118.

¹⁸⁹ M. Morsy, « Réflexion sur le système politique... », op. cit., pp. 113, 128-9 ; A. Laroui, *les*

لتوظيفها ضمن حدود معينة لإيمانه بأهميتها، باعتبارها بديلاً لا يمكن الاستغناء عنه في ظل قصور تغطيته العسكرية والإدارية، بالرغم من المجهودات التي بذلها كل من أحمد المنصور والمولى إسماعيل لتفادي هذا القصور عبر محاولة إثبات حضورهما في كل المناطق، وأن هذه الزعامات المحلية برأسمالها الرمزي والمادي، كانت تمارس أدوارها الأساسية داخل المجتمع القبلي، فتسهم بطريقة مباشرة في دعم المخزن المركزي، الذي ظل متمسكاً بهاجس مراقبة الطموحات السياسية لهذا الدعم، وربما لم ينتبه إلى أبعاده في تجاوز العديد من الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية المحلية، أو أن المخزن المركزي بسياسته تلك، كان يسعى إلى احتواء هذه الزعامات شيئاً فشيئاً، وصهرها ضمن منظومته المحلية، وهو يعي صعوبة ذلك كما سنرى لاحقاً، بهدف تحجيم مواقعها، وحصر أدوارها في خدمة أهدافه.

لقد حمل المخزن المحلي في طياته أي عنصر داخل القبيلة يمتلك سلطة القرار، التي تمكنه من القيام بدور تنظيمي معين، حافظ فيه على نوعية المسافة التي فرضها المخزن المركزي من جهة، وعلى طبيعة الأعراف التي اعتبر الالتزام بها قاعدة أساسية للحفاظ على التوازن من جهة أخرى.

وإجمالاً، شكلت الإدارة المخزنية بمستوياتها الثلاثة جهازاً إذا نزع مركبة، تعايشت مكوناته في إطار نوع من الجدلية، على الرغم من تفاوت القدرات التنظيمية لهذه المستويات، لذا فإن أي فصل تعسفي، أو أي إسقاط لتصور إداري معين، لن يساعد بالتأكيد على فهم إبياليات هذا النظام الذي تداخلت فيه عدة أبعاد وصلت إلى درجة التعارض أحياناً. لكنها صبت دوماً في اتجاه السلطان الذي مثل حجر الزاوية بالنسبة لما هو محلي وجهوي ومركزي، بمعنى أن السلطة الإدارية ظلت مشخصة في أفراد يشرفون على خدمته، مما يجعل من باب المجازفة الجزم بوجود تراتبية إدارية بالمعنى الصحيح، سواء في الشكل أو في الأدوار.

- بنية المراسلات

للمحافظة على تواصل متين مع الأجهزة الجهوية والمحلية، اعتمد السلطانان على المراسلات الرسمية، والوثائق الإدارية، التي أشرف الكتاب على صياغتها في ديوان الإنشاء، وضمنوها الأوامر والنواهي الموجهة للخدام¹⁹⁰، بغرض تنفيذها والاستفادة من الصلاحيات

origines..., op. cit., pp. 144-6.

¹⁹⁰ A. Abel, « Gouvernés et gouvernants en terre d'islam », in *Gouvernés et gouvernants*, 1^{re} partie

والامتيازات التي تخولها. غير أنه، ونحن نقارن بين بنية المراسلات الإدارية الصادرة عن أحمد المنصور والمولى إسماعيل، نستوقفنا ملاحظتان رئيستان: أولاًهما التباين الحاصل بينهما على صعيد علامات التصديق ورموزه وختم الرسائل. فإذا كان أحمد المنصور قد استخدم علامة خطية على شكل توقيع ضمت عبارة « صحيح ذلك » أو « صح هذا »، ثم طابعاً مدادياً، فإن المولى إسماعيل تخطى عن الإمضاء اليدوي، وعن الطابع السعدي ليستعمل طابعاً دائرياً مذهباً يحمل اسمه وعبارة « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيرا »¹⁹¹.

وثانيتهما تتجسد في الاختلاف بين مراسلات السلطانين من حيث المستوى اللغوي. ففي الوقت الذي حافظت فيه الوثائق الصادرة عن السلطان السعدي على مهارة أدبية رفيعة غنية بالصور البلاغية من استعارة وبجاز وطباق، أضفت عليها طابعاً من التصنع، جعل القادري يصفها « بالغلو والإغراق، والإطراء في المخلوق بما هو من صفة الخلاق »¹⁹²، يثير انتباهنا في الظواهر والمراسلات الإسماعيلية تدني مستواها اللغوي، وركاكة أسلوبها، إلى درجة غلبة اللهجة العامية على تعابيرها، مما أفقدها في الغالب صفة الرسائل الإنشائية¹⁹³، وأضفى عليها أسلوباً تراوح بين الوعد والوعيد، وبين النصح واللوم، والتهديد بالزجر. فالمولى إسماعيل خاطب ولده قائلاً: « ... خَدَم الكلاب خدمة البراهيش ولا يتألهوا عليك مثل ما تُلَاهُوا على محرز... وإياك والسَقَاطَة التي تضر بمروءتك... وشد روحك مع خدينا عبد الرحمن غرنيط أَتَهَلَّا فيه... »، « ... فإذا بك ما عاوناك هذه لمرّة حتى أردنا أن نصيرها على عادة كل ساعة أَرَأَا... »، ثم أضاف « ... ولا بد انظر مسائلك التي تخل بك... فوا الله إن شاء الله حتى أقطع عليها ظهرك... وتريد أن تأنيك الكسوة من هنا بعد تصرفاتك في ذلك الإقليم، وَا الله إن شاء الله حتى أقطع عليها كَرَشَكَ... » وتابع قائلاً: « ... وصار علي بن حمادي يعمل الديار والقصور في الرتب... ورغبك فيه عبد الرحمان بن هاشم... فأَي

(Synthèse générale, Civilisations archaïques, islamiques et orientales)... op. cit., pp. 379, 382.

¹⁹¹ H. de Castries, « Les signes de validation des chérifs sâadiens », in *Hespéris*, t. I, 1921, pp.231-252. Voir également : P. Pascon, « Sigillographie marocaine, empreintes de validation des souverains alaouites », in *Hespéris Tamuda*, vol. 17, 1976-7.

¹⁹² محمد القادري، نشر المثاني...، م.س.ذ.، ج. 1، ص. 55. وأشار عبد العزيز الفشتالي إلى أن المنصور كان يملئ أجوبة الرسائل على كتيبه، انظر: مناهل الصفا...، م.س.ذ.، ص. 206.

¹⁹³ رسائل المولى إسماعيل إلى ولده المامون، مجموع مخطوط، خ.ح، رقم 12598، ص. ص. 200-201، 206. انظر أيضاً: المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون...، م.س.ذ.؛ ثم ظواهر إسماعيلية، خ.ح، المحفظة رقم 1.

محبة لعبد الرحمن ابن هاشم في أبيك، وأي محبة أو حنانة في أمه... لقد كانت أمي رحمها الله تعس علي منها وأنا في الكمّاط...»، ثم ختم: «... وبالله الذي لا إله إلا هو يا بُوكُ إن وصلك الشيلولي ولم يجد الأربعمائة من الإبل ميسرة مهيأة موجودة كما أمرناك... حتى نبعث لك من يعمي عينيك باثنين»¹⁹⁴. ولم يقتصر هذا الأمر على المراسلات السلطانية بل امتد ليشمل حتى تلك المتبادلة بين الأطر المخزنية، كما هو الحال في الرسالة التالية: «... وأما لَقَطْن يخصصه الماء والغبار والزبير، ونحن واقفين على الخدمة... والفِسانُ أَحْفَاؤُنا وهذه القابضة تصلك بعينها..»¹⁹⁵.

ويجد هذا التراجع اللغوي تبريره، إما في تواضع مستوى بعض الكتاب الذين كانت تسند لهم مهام الإنشاء من جهة، أو في التدخل المباشر للمولى إسماعيل في صياغة المراسلات التي عكست بنيتها منعطفات توجيهاته الشفوية، ولهجته الانفعالية، وثقل حضوره في ثنايا النص الإداري أو الإنشائي، وما يمثل هذا الحضور من دلالات على نباهته وقدرته على تتبع كل صغيرة وكبيرة. لذا لم يتوان في انتقاء الألفاظ، أو تصحيح المبهم منها لكتابه، احترازا منه أن تقضي إلى معان مخالفة للمقصود¹⁹⁶. وهو ما تؤكد نصائحه لولده المامون، حين ألح عليه بضرورة استقدام كاتبه، وإملاء الرسالة عليه حرفيا، ثم قراءتها للتعرف على مضمونها وطريقة صياغتها قبل ختمها¹⁹⁷. ولما كان الخوف من السلطان هو الذي يجبر الكتاب، الذين يختارون مبدئيا من بين الفئات المثقفة، على ترديد عباراته العامة حرفيا في الرسائل إرضاء له، وتوجسا من فقدانهم لوظيفتهم إذا ما تمسكوا بأسلوب أدبي بليغ، فإن بلاط المولى إسماعيل احتضن من رؤساء الكتاب من لا يحسن الكتابة، حسب ما أورده ابن زيدان نقلا عن أكنسوس¹⁹⁸. والظاهر أنه يجب الربط بين تقريب أحمد المنصور للعلماء، وبين الجودة الإنشائية للمراسلات، خصوصا إذا علمنا أن هؤلاء هم الذين كانوا يتولون تعليم الكتاب، أو يمارسون بأنفسهم مهام الكتابة¹⁹⁹. بالمقابل كان حضور هذه الشريحة في دواوين المولى

¹⁹⁴ رسائل من المولى إسماعيل إلى ابنه المامون، مجموع مخطوط، ص. 188، 205.

¹⁹⁵ رسالة من العربي بوشعيب الدكالي إلى القائد إبراهيم بن سعيد، رسائل إسماعيلية، خ. ح، المحفوظة رقم 1.

¹⁹⁶ أحمد ابن الحاج، الدر المنتخب...، م. س. ذ. ج. 7، ص. 155؛ كمال عبد اللطيف، ن. م، ص. 147.

¹⁹⁷ المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون، ص. 53.

¹⁹⁸ عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م. س. ذ. ج. ص. 238-239.

¹⁹⁹ خالد زيادة، كاتب السلطان...، م. س. ذ. ج. ص. 135.

إسماعيل أقل بكثير، نظرا للتحفظ، وأحيانا الصرامة التي مارسها السلطان تجاهها، مما قلص من تأثيراتها المباشرة أو غير المباشرة على جهاز الكتاب، ففسح المجال لغير أهل الاختصاص الذين لم يسعفهم تكوينهم في إبقاء المراسلات على ما كانت عليه من بلاغة أدبية. لكن ألا يرتبط هذا التراجع بسياق عام انحط فيه المستوى الثقافي للنخب الحضريّة منذ القرن السابع عشر على حد تعبير عبد الله العروي²⁰⁰؟

واتسمت الوثائق الإدارية المخزنية بثبات بنيتها العامة التي حافظت على تركيبة إنشائية مماثلة، وخاصة بجل ظواهر ورسائل أحمد المنصور، وأخرى مميزة لتلك الصادرة عن المولى إسماعيل، وإن كان الهيكل الأساس لهذه الوثائق لا يخرج عن نظيره الذي ميز المراسلات الإسلامية عموما، التي تستهل بالبسملة والحمدلة والسلام والبعدية، وتنتهي بالتاريخ ثم العلامة²⁰¹. وبلغ الاحتياط بأحمد المنصور حدا، جعله يقدم على استعمال الشيفرة في المراسلات المتبادلة بينه وبين أولاده وعماله، خوفا من تمكن أعدائه وخصومه من كشف أسرارها²⁰². بينما لا توجد دلائل تثبت تبني نظام مماثل لدى المولى إسماعيل، الذي يبدو أنه استعاض عن ذلك بتكثيف شبكات المراقبين والمخبرين الذين كان ينتقيهم من بين ثقافته²⁰³. وأثار التساوتي معضلة اعترضت التواصل الإداري بين المخزن والسكان، تمثلت في عدم معرفة أهل جبال الأطلس للغة العربية، مما حرمهم من فهم المضمون الحقيقي للألفاظ والعبارات الواردة في المراسلات، وأعاق إبلاغهم بالقرارات والتدابير المتخذة من قبل السلطان أو الباشا عبد الكريم بن منصور، الذي كان يجهل هو ومرافقوه القراءة والكتابة. وهو ما تزكّيه نصائح أحمد المنصور والمولى إسماعيل لأبنائهما بضرورة قراءة رسائلهما على الملأ²⁰⁴. ويعبر

²⁰⁰ عبد الله العروي، مجمل...، م.س.ذ.، ج. 3، ص. 63-64.

²⁰¹ محمد جادور، «الدبلوماسية السعدية، الدبلوماسية العلوية، استمرارية أم قطيعة: أحمد المنصور والمولى إسماعيل نموذجاً»، التاريخ والدبلوماسية، قضايا المصطلح والنهج، تنسيق عبد المجيد القدوري، الرباط، منشورات كلية الآداب، 2003، ص. 234.

²⁰² حسب رواية شالدانيا، كان علج أنجليزي يشرف على استخدام الشيفرة: A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 126.

²⁰³ حمد الإفرائي، ن.م، ص. 119؛ أحمد ابن الحاج، الدر المنتخب...، م.س.ذ.، ج. 7، ص. 252-254. G.S. Colin, «Note sur le système cryptographique du Sultan Ahmed Al-Mansour», in *Hespéris*, t. VII, 1927, p. 228.

²⁰⁴ ذكر التساوتي أن أفراد حاشية الباشا عبد الكريم بن منصور طلبوا منه أن يكتب لهم رسائل باسمهم لفائدة ذويهم، راجع: عبد الله التساوتي، رحلة الوافد...، م.س.ذ.، ص. 144. ثم انظر نصائح المنصور لابنه محمد الشيخ المامون وتوجيهات المولى إسماعيل لابنه المامون: محمد الإفرائي، ن.م، ص. 175؛ المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون...

هذا الموقف عن وجود خلل في التواصل الإداري بين المخزن ورعاياه، ولا ندري حدود إمكان تعميمه على كل المناطق الأمازيغية في عهد السلطانين، أم علينا الاكتفاء باعتباره مجرد استثناء اختصت به مناطق معزولة دون غيرها، وينهض دليلا على عدم تمكن المنظومة الإدارية المخزنية من النفاذ إلى كل المناطق لترسيخ حضورها. كما يؤكد غياب ضوابط ثابتة للممارسة الإدارية، من شأنها الإسهام بشكل جلي في فهم الآليات الموجهة لها، والتي اتخذت من توفير الأمن، وتحصيل الجباية هدفها الرئيس؟ فما هي الثوابت والمتغيرات المتحركة في هذا الهدف على عهد السلطانين أحمد المنصور والمولى إسماعيل؟

الجباية والأمن

لما كانت وظائف الإدارة تابعة ومنبثقة عن الوظيفة السياسية، ولما كان توفير الأمن هو المبرر الذي دعا لخلق هذه الوظائف، فإن الأخيرة شكلت بالأساس مصدرا لتوفير المداخيل المالية، التي يتم إنفاق مبالغ هامة منها في تقوية المؤسسات المكونة لتلك الوظائف، أو المتفرعة عنها، وتعبيرا عن الرغبة الملحة للمخزن في توسيع مجال حضوره عن طريق التكثيف من وجود آلياته التي ارتبط تعزيزها في مده وجزره بحجم تحديات العصيان التي واجهته جراء الامتناع عن أداء الضرائب²⁰⁵. وهو الأمر الذي يفسر هيمنة البعد العسكري على تلك الآليات التي اعتبرت التحصيل الجبائي مؤشرا على إذعان القبائل لسلطتها، وإيمانا بسيادة الأمن بربروعها. فما هي أوجه الشبه والاختلاف بين السياستين الجبائيتين للسلطانين؟ وما مدى أهمية عائداتها المالية في تحصين أجهزة المخزن وتدعيمها على عهديهما؟

- الجباية من المنظور المخزني

احتلت الجباية مكانة متميزة في خطاب الآداب السلطانية، باعتبارها تجسيدا للقاعدة المادية التي يركز عليها الملك، ويضمن بواسطتها قوته واستمراريته. ومثل المال المحصل منها العدة التي لا غنى عنها للتصدي لأهل البغي والفساد، ولقهر الخصوم والأعداء في الداخل والخارج. فلدرء الفتن، وتحقيق العدل، لا بد من توفير حقوق بيت المال، مما أوجبه الشريعة، وعملت به السنة، إذ أجمع الفقهاء على أن تحصين السلطة عبر نشر الأمن، وإصلاح السبل، وممارسة العدل، رهين بتبني الجباية الشرعية، التي تمكن من تجنيد الجيش وتمويله. وقد اعتبر

م.س.ذ.، ص. 30.

²⁰⁵ برتران بادى، الدولتان...، م.س.ذ.، ص. ص. 129، 137.

ابن خلدون أن « الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية، ويجبي الأموال، ويبعث البعث، ويحمي الثغور، ولا يكون فوق يده يد قاهرة »²⁰⁶.

هكذا شكلت العلاقة الجدلية بين الجباية وتجنيد الجيش إحدى الأولويات التي انطلق منها التصور السلطاني، فقد كرس أحمد المنصور والمولى إسماعيل كل جهودهما لتوظيف هذين المجالين، في خدمة أهدافهما الرامية إلى تمتين عضد المؤسسة المخزنية، ومد إشعاعها السلطوي إلى كل أطراف البلاد. ولتحقيق هذه الغاية، حرص السلطانان على ضبط أمور الجباية من خلال توظيف آلة عسكرية محترفة قادرة على تعمير بيوت الأموال بالحقوق الشرعية الواجبة وغير الشرعية المفروضة على السكان. لذا فإن الجباية حملت في ذهنيتهما، وانطلاقاً من ثنايا مراسلاتهما صفتين: إحداهما مستمدة من المرجعية الدينية التي ترى في الضرائب ضرورة شرعية لحماية بيضة الإسلام لا مبرر للتملص من تبعاتها، وأن أي رفض لها هو غي وبغي وضلال، وخروج عن طاعة الله وأولي الأمر، يستوجب إما التوبة أو الزجر، وكل من بقي في ذمته شيء من هذا الواجب فقد حرمه الله عليه، ولا يحق له التصرف فيه²⁰⁷. وثانيتهما مرتبطة بالأولى وتتخذ من « الثقافة السلطانية » خلفية لها، إذ تعتبر الموارد الجبائية بمختلف أشكالها أمراً يختص السلطانان بصلاحيات جمعها، تبعاً للضرورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية باعتبارها من مالهما الخاص، الذي جاد الله به عليهما للتصرف فيه، والنظر والاجتهاد في وجوه تدبيره، فهما أو صياؤه وحراسه، لما فيه ضمان لاستمرارية حكميهما. وعبر عن هذا التصور أحمد المنصور في رسالته إلى آسكيا حول ملاحاة تغازي، كما كشف عنه المولى إسماعيل في عتابه المتكرر لولده المامون، من أجل حثه على استغلال أحد مناجم درعة²⁰⁸.

²⁰⁶ عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق أحمد طاهر، القاهرة، دار الفجر للتراث، الطبعة الأولى، 2004، ص ص. 240-241؛ الحسن اليوسي، المحاضرات، أعدها للطبع، محمد حجي، الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976، ص. 109؛ كمال عبد اللطيف، ن.م، ص ص. 203-205.

²⁰⁷ « ولو علم الناس أن [من] وجب عليه شيء كان يبرئ ذمته منه مع الله تعالى، ما زاد أحد على ما هو مفروض شرعاً »، المولى إسماعيل، ن.م، ص ص. 27-30؛ ورسالة إسماعيلية إلى المامون، مجموع مخطوط، خ.ج، 1259، ص. 197. وحول المنصور، راجع: عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص ص. 65-96؛ ورسالة أحمد المنصور لأهل توات وتيكورارين، عبد الله كنون، ن.م، ص ص. 169-171.

²⁰⁸ عبد الله كنون، ن.م، ص ص. 133-134؛ المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون... م.س.ذ.، ص. 13. وعن علاقة الجهاد بالجباية في العهد السعدي، راجع: الفقيه الإدريسي، الجباية في عهد الدولة السعدية، رسالة د.د. ع. في التاريخ، مرقونة، فاس، كلية الآداب، 1995، ص ص. 164-165.

انطلاقاً من ذلك، نخلص إلى أن السلطانين وظفا الصبغة الدينية، فرعوا شعار الجهاد ومحاربة الفتن، لدعم أحقيتهما في ملاءمة عملية التحصيل الجبائي وفقاً للمنطق النفعي، الذي يتماشى مع المتطلبات والمستجدات الطارئة التي تفرضها شروط السياسة، ولا تراعي بالنتيجة ما هو محمقوت شرعاً، مما يعكس موقفاً قوامه توظيف الديني لخدمة السياسي. فإذا كان الجيش والعدد هما الشغل الشاغل لأحمد المنصور للتصدي لأعداء الدين، ولتوفير الأمن، وإقامة العدل، لما يعود به ذلك من نفع على المسلمين، فإن هاجساً مماثلاً هو الذي حكم نظرة المولى إسماعيل للمداخيل الجبائية، حين اعتبر أن إنفاقها في مصالح المسلمين يتم من خلال تقوية الجيش، وبناء المساجد، حتى يصير « الناس مشغولين بأسبابهم من جهاد وحج وتجارة وأمانة »²⁰⁹.

وهي تصورات شاهدة على مدى تفرس المؤسسة المخزنية، وقدرتها على إنتاج خطاب يضفي المشروعية، من جهة على ممارساتها الجبائية، ويررر المبتدعة منها، ويسوغ من جهة أخرى، المجالات التي أنفقت فيها عائداتها، وذلك بهدف تدعيم ركائز الحكم بالدرجة الأولى، وضمان استمراريتها بما يتماشى وأولويات المنظومة السلطانية. فاستحضار المبرر الديني للإنفاق على الجيش، والاستكثار من أعداده لممارسة الجهاد، إنما يعكس السعي الحثيث للسلطانين لتقنيع الأهداف الحقيقية الكامنة وراء هذا الاستكثار، والمتمثلة أساساً في تحصين المؤسسة المخزنية، بدليل أن ذلك الجيش استعمل غالباً لجمع ضرائب صرف جزء هام منها في الاستجابة لحاجياته. وهو ما أثار كما أسلفنا، احتجاجات من قبل بعض القوى التي ما فتئت تدعو إلى تغليب الرؤية الدينية على الرؤية السياسية، من خلال منح الأولوية في الإنفاق إلى الجهاد، كما هو حال العالمين رضوان الجنوي والحسن اليوسي. فهل يجب فهم هذا التصور في سياق عام مؤداه أن تحصيل الضرائب تحت ذريعة محاربة عدو خارجي، يجعل الرعايا يقبلون دفعها بسهولة أكبر، مقارنة مع جمعها اعتماداً على مبرر مرتبط بتوسع السلطة داخلياً²¹⁰؟

ارتكزت المؤسسة السلطانية على المرجعية الدينية لإعادة صياغة الجبائية، من منظور

²⁰⁹ المولى إسماعيل، ن.م، ص. 12؛ عبد الله كنون، ن.م، ص. 169، 178.

²¹⁰ W. P. Blockmans, « Les institutions représentatives de 1566 à 1609 », in *Pouvoir et institutions en Europe au XVI^e siècle*, 27^e colloque internationale d'études humanistes (Tours), Paris, J. Vrin, 1987, p. 131.

واقعي يرى في توسيع الوعاء الضريبي، وتمديد مجال تحصيله وتعميمه، خير سبيل لاستمرار هذه المؤسسة، وإثبات عظمتها، وقياس هيبتها، وترسيخ دعائم حضورها بأبعاده المختلفة المشارب، أو على الأقل تحيينه. حين نعود إلى الكتابات الإخبارية المحلية والأجنبية²¹¹، التي تناولت عهدي حكم السلطانين، وإلى الدوافع الموجهة لها، فإن ما يمكن ملاحظته، يكمن في الإجماع الحاصل حول ثقل الأعباء الضريبية، ويتجلى في الصرامة الكبيرة التي واكبت عمليات استخلاصها، وفي التعسف الشديد الذي طال الجماعات الراضية لدفعها. فإلى أي مدى يمكن المقاربة بين الأسلوب الجبائي لأحمد المنصور والمولى إسماعيل؟

شكل استفحال الجبايات، بدون منازع، سمة بارزة انفردت بها مرحلتا حكم السلطانين اللذين لم يتقاعسا عن إرغام كل من اعتاد الامتناع عن أداء الضرائب، ويجد هذا الإجحاف الضريبي تبريره في ارتفاع حجم الحاجيات، وما واكب إشباعها من تزايد في وتيرة النفقات. وهو أمر دفعهما إلى عدم الاقتصار على الموارد الضريبية الشرعية أو العادية، واللجوء إلى فرض أصناف أخرى استثنائية تشعبت أنواعها، وتضخمت مبالغها تبعا لدرجة امتدادها الترابي، ولعدد حالات العصيان المسجلة، ولمدى توسع فضاء الإعفاءات التي تحملت أعباءها الفئات الغارمة. وتمثلت الضرائب في الزكوات والأعشار والخراج، ثم كل ما يدخل في التكاليف المخزنية، والوظائف السلطانية، إما الدائمة من نواب ومكوس، أو الظرفية من مؤونة وهدية وسخرة ومغارم ومصادرات وغيرها. فعلى أي أساس تمت عمليات تحصيلها؟

- الخوص

الواضح أن السلطانين كانا يحددان الخوص الضريبية لكل منطقة حسب أهميتها الطبيعية وإمكاناتها الاقتصادية والبشرية، ويوزعان على أطرها من الباشاوات والعمال والقواد مهام اقتضائها، وفقا لحاجتهما المالية من جهة، ولمدى التزام الأطراف المستهدفة من الجباية بشروط الولاء والطاعة تجاههما. فمن خلال إحدى رسائل أحمد المنصور، يستشف أنه كان على اطلاع بقيمة المبالغ التي تدرها كل منطقة، خاصة حينما اعتبر أن خراج ولاية درعة بين وواضح ومعروف. ويترجم هذا الموقف درجة متابعتة الدقيقة لأمر الجباية، ويكشف في

²¹¹ محمد الإفرائي، نزهة الحادي... م.س.ذ.، ص. 158؛ مجهول برتغالي، ن.م، ص. 37، 92؛ محمد القادري، نشر الخاني... م.س.ذ.، ج. 3، ص. 144، 261، وج. 2، ص. 230؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 58. A. de Saldanha, *Chronique...* op. cit., p. 6 ; Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...* op. cit., pp. 61-62 ; H. de Castries, *S.I.H.M.*, 2^e série, Fra., t. 3, Paris, 1911, pp. 313-4.

الوقت نفسه عن وجود جهات من السهل تقدير المبالغ الممكن تحصيلها منها، وأخرى يلفها غموض جعل من الصعب ضبط مواردها، والتأكد من ممارسات الجباة بها²¹². كما حدد المولى إسماعيل لجباة مسبقا الحصيلة المالية الملتزمين بجمعها من مناطقهم، ولم يتردد في سجن كل من أخل بتعهداته، أو عجز عن استكمال ما أمر بجمعه سنويا، بل كان يكلف بعض ثقاته بالتنقل لعين المكان، وتقدير الضريبة حسب حجم المحصول²¹³.

وإذا كان السلطان السعدي قد خير الرعية حسب الإفرائي، بين الأداء العيني، أو بواسطة السعر، فاختاروا السعر، فإن السلطان العلوي قبل بهما معا. غير أن تحديد قيمة المثلث ظل بيد خدام المخزن، الذين كانوا يشرفون في كل جولة ضريبية، على وضع أسعار الصرف بالنسبة للضرائب²¹⁴. ويفسر هذا التباين، إما بتوسع قاعدة السيولة النقدية نتيجة لكميات الذهب الوافدة من السودان، مما كان يسهل على السكان الأداء بالسعر، خاصة وأن أحمد المنصور عمد إلى الرفع من قيمة العملة لمنع خروجها من البلاد²¹⁵، في حين أن مرحلة حكم المولى إسماعيل، كما سنرى لاحقا، شهدت أفول تجارة القوافل، وما واكبها من تراجع في رواج العملة، أجبر هذا السلطان على قبول الضرائب العينية، التي لا غنى له عنها للاستجابة لمتطلبات جيشه الجرار، أو يفسر بهيمنة أسلوب الأداء الجماعي للضريبة الذي حال في عهد السلطانين دون انتشار السيولة النقدية.

ما يدعو للملاحظة، أنه بالرغم من التحديد المسبق من قبل السلطانين لمقدار الضريبة المزمع تحصيله، فإنهما لم يتأخرا في تخصيص استقبالات كبيرة لفائدة الجباة الذين يلجون أبواب القصر وهم محملون بمبالغ مالية هامة. مما يوحي بأن الحصص إنما يتم تعيينها حداً أدنى للعناصر

²¹² رسالة أحمد المنصور لابنه أبي فارس، محمد الإفرائي، ن.م، ص. 186.

²¹³ طالب المولى إسماعيل من ولده المامون، الحصول من عامله بتغاضي على ما تبقى في ذمته من ثلاثة آلاف مثقال، إذ لم يأت به إلا بمائتين وألفي مثقال. ثم خاطبه أيضا حول عرب الصحراء قائلا: « فاجعل لهم وظيفة وقدرًا مستونًا يعرفونه ويحققونه »، المولى إسماعيل، ن.م، ص. 8، 30. انظر أيضا:

A.-G.-P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine...*, op. cit., p. 82.

²¹⁴ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 222. غير أن ذلك لا يعني أن المنصور اعتمد بشكل كلي على الأداء النقدي، بدليل إشارة الفشتالي إلى الدفع العيني للضرائب، راجع: عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 229؛ عمر أفا، النقود المغربية في القرن الثامن عشر، الرباط، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، 1993، ص. 106.

Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., pp. 61-3. Voir aussi : A.-G.-P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine...*, op. cit., pp. 39, 63, 65, 78.

²¹⁵ خورخي دي هنين ن.م، ص. 175.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 84-5.

الجزئية لتثبت كلما تجاوزته مدى كفاءتها ونجاحتها في خدمة المؤسسة السلطانية، وهو ما يؤول في الغالب من قبل هؤلاء، بنوع من التشجيع الضمني على استخلاص أكبر حصيلة ممكنة، خاصة من الفئات السكانية الراضية للأداء.

لقد حدد أحمد المنصور قيمة الضريبة الرأسية السنوية للإنفاق على الجيش في أربعة دنانير لكل شخص، لكن القواد كانوا يحصلون ثلاثة أضعاف هذا المبلغ، لهذا لم يتردد في تخدير ولي عهده من الإفراط في الثقة ببعضهم²¹⁶. وعاقب المولى إسماعيل قائده محمود الغنجاوي الذي لم يحصل نصف المبالغ الضريبية المنتظرة منه، بالرغم من استعماله العنف ضدًا على السكان، ثم عاتب ولده المأمون على بقائه بتافيلالت، وعدم التوجه لدرعة للإشراف المباشر على تحصيل مقادير الضريبة، بدل الاكتفاء بما يصله من عماله، الذي لا يتعدى في رأيه عشر ما يتم تحصيله²¹⁷. ترى أتعكس هذه المواقف بعض التجاوزات المرتبطة بعمليات التحصيل الجبائي غير العادية؟ أم أنها مثلت ظاهرة مواكبة للنظام الضريبي المخزني، الذي شكل فيه تعويض الجباة اقتطاع أجورهم، ونفقات فرقهم العسكرية من الضرائب، إحدى الثغرات النسبية لتلك التجاوزات؟

- حملات التحصيل

حاول السلطانان منذ بداية عهديهما تحقيق أكبر قدر من المراقبة للمجال المغربي من خلال تمهيد أقطاره، وإخضاع المناطق الخارجة عن سلطتيهما، بهدف استعادة المستحقات الضريبية، التي يعد الالتزام بأدائها خير مؤشر على الولاء والانتماء لمنظومة المخزن. لذا جسدت مؤسسة المحلة والحركة تعبيرا عن إستراتيجية خاصة لقياس وزن هذا الولاء، ورد فعل تجاه كل قوة تعوق بشكل مباشر أو غير مباشر الإرادة السلطانية لتعميم حضور الأجهزة المخزنية في الوسط القبلي، وما واكب ذلك الحضور من تعزيز وصول الموارد المالية للمخزينة المركزية، ومن تزايد في وتيرة النفقات التي تصبح مكلفة للسكان، بالنظر إلى العلاقة التناسبية

²¹⁶ كانت المداخل الجبائية حسب خورخي دي هنين توزع حسب القبائل، وبلغ مجموعها على عهد أحمد المنصور 12.700.000 أوقية، تضاف إليها الرسوم المفروضة على البضائع المستوردة أو المصدرة، ثم العشور المفروضة على القمح والشعير... انظر: وصف الممالك المغربية... م.س.ذ.، ص.ص. 175-177.

²¹⁷ R. Ricard, *Le Maroc...*, op. cit., p. 194. Voir également, Ch. de la Veronne..., op. cit., p. 63.

المولى إسماعيل، ن.م، ص. 39؛ الإفرائي، ن.م، ص. 177؛ جون وندوس، ن.م، ص. 62، راجع طريقة استقبال أحمد المنصور لقائده أحمد بن كوكسو بعد عودته بجبايات القصر الكبير.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 252.

بين حجم الفضاء المتمرد، وبين أعداد الجيش اللازم تمويلها لإعادة إقرار تبعيته للسلطة.

وهكذا بمجرد أن استقر أحمد المنصور بفاس وجه حركة إلى ضواحي المدينة، ثم إلى مراكش، كما أمر المولى إسماعيل جيشه بأخذ البيعة من سائر أقطار المغرب، قبل أن يقود حملة إلى مراكش لمواجهة ابن أخيه، ثم حملات إلى مناطق فاس وتازة والفحص لإخضاعها²¹⁸. واستهدفت هذه الحركات الأولى انتزاع المشروع السياسية التي ربطت بتجديد عهد الطاعة بمدى الالتزام بالأداء الجبائي، الذي أفضى إلى تذبذب هذه المشروع، واختلالها من حين لآخر، تبعا لمستوى الإجحاف والتعسف اللذين طالا الجهات الغارمة. وهو ما يعني أن سياسة تعميم الضريبة التي نهجها السلطانان بتلك الجهات، أسهمت في إفراز تمردات استقطبت حشودا هائلة من الأتباع في المناطق التي اندلعت بها، لما وجدت في نصرتها من سبيل للخلاص من أعباء لم تتعود على الانصياع لمطالباتها. وتجسد ذلك بشكل جلي في ثورات ابن قرقوش، والناصر بن الغالب ضداً على أحمد المنصور، ثم ثورة أحمد ابن محرز، وتمرد قبائل آيت عطا، والأطلس المتوسط ضداً على المولى إسماعيل، التي دل الإقبال الواسع لدعمها، والإمكانات العسكرية المجندة لإخمادها، على مدى اتساع دائرة السخط، التي وجدت فيها متنفسا لتحرر من مغارم أفضت شدة وطأتها، حسب شهادة الإخباريين، إلى تفكير السكان، بمن فيهم الميسورين منهم الذين اضطروا إلى بيع ممتلكاتهم، بل والهجرة إلى خارج البلاد²¹⁹.

ومما زاد من استفحال الوضع الطابع العقابي الذي طغى على الحركات وجعل منها وسيلة لاسترجاع المتأخرات الضريبية المتراكمة طيلة سنوات الامتناع، وهو ما أدى إلى تجريد السكان أحيانا من ثرواتهم لاستيفاء ما في ذمتهم. بل إن بعضهم أدى غالبا ثمن دعم التمردات، كما هو الشأن بالنسبة لقبائل الهبط، وغمارة التي ساندت ثورة ابن قرقوش، والقبائل المجاورة لسوس الأقصى التي سكنت عن عصيان محمد العالم لأبيه²²⁰. وتبين هذه الأمثلة أن الضريبة شكلت من المنظور المخزني، ورقة ضغط تتمتع السلطان بحرية توظيفها

²¹⁸ عبد العزيز الفتشالي، ن.م، ص. 40، 51-52؛ محمد القادري، ن.م، ج. 2، ص. 200-201؛ عبد الكريم الريفي، زهر الأكوم...، م.س.ذ.، ص. 58.

²¹⁹ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 158؛ محمد القادري، ن.م، ج. 4، ص. 231؛ أحمد الناصري، ن.م، ج. 7، ص. 83. A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 6.

²²⁰ عبد العزيز الفتشالي، ن.م، ص. 96؛ محمد القادري، ن.م، ج. 3، ص. 157.

عداً على كل من سولت له نفسه المساس بمشروعيته، إلى درجة أنها اتخذت بعدا انتقاميا في بعض الأحيان، عبرت عنه الزيادات المفرطة في حجم المستحقات الجبائية التي فاقت تعاف إمكانات السكان المعنيين بأدائها، كما تم خلال حركة أحمد المنصور ضداً على حرب الخلط، وحركة المولى إسماعيل الموجهة ضداً على أهل الريف²²¹، وما آلت إليهما معا من حصيلة مالية تجاوزت بالتأكيد حصصهما المفترضة من الحقوق الضريبية.

من هذا المنطلق، وجب التمييز بين الحركات الاعتيادية التي يتم فيها تحصيل الواجبات الجبائية المتعارف عليها، التي لا نجد أصداء كثيرة لها في إسطوغرافية المرحلة، ثم الحركات الاستثنائية التي تركز للتصدي لمختلف أنواع المخالفات، بما فيها عمليات الامتناع، أو حتى التمرد العسكري على السلطة المركزية التي نالت حظاً أوفر من أقلام الإخباريين، نظراً لما شكلته من تهديد مباشر لاستمرارية المخزن.

وظهر المخزن في الصنف الأول من هذه الحركات، وكأنه يحافظ على مبدأ تأطير القبائل، الذي يرضى من خلاله الاعتراف بالسلط المحلية، التي تشرف بشكل مباشر على عمليات تحصيل الجبائي، وهو الأمر الذي كان يحبذه السكان²²². أما الصنف الثاني من الحركات فبدأ فيه المخزن جهازاً مؤسسياً مفروضاً على القبائل، يسعى إلى التسرب لعمقها ولو بشكل متقطع، لانتزاع مستحقاته الضريبية، بدل الاكتفاء بتأطيرها خارجياً، وهو ما يجعلنا نميز بين أسلوبين مخزنيين في الجبائية؛ أحدهما يقاس بمفهوم الطوعية، الذي يسمح للمخزن بمراقبة غير مباشرة لمجال نفوذه، وفقاً لإستراتيجية أقل كلفة. وثانيهما ينبني على منطق الإكراه، الذي يمكن من إخضاع مباشر للمجال، لكن أحياناً بتكاليف أكبر، ومردودية أقل، بالنظر إلى حجم الإمكانيات اللازم تجنيدها لتمهيد كل المناطق²²³، على مستوى النفقات المخصصة للمجهود العسكري، أو على صعيد الأضرار التي تلحق بالقبائل المستهدفة.

²²¹ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 110. ثم، م.ر.س، ك 278، ص. 220؛ عبد الكريم الريفي، ن.م، ص. 58. وذكر الناصري أن أحمد المنصور ضرب على عرب الخلط سبعين ألف غرامة، الاستقصا...، م.س.ذ.، ج. 5، ص. 98. وراجع أيضاً:

Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 62.

²²² خلال حركته بالسوس، عقد باشا مراكش الصلح مع زداغة ليدفعوا له الضرائب، لكنهم اشترطوا عليه أن لا يدخل جيش العبيد أو كيش العرب إلى أراضيهم. عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 138.

²²³ J. Dakhli, *Le divan des rois...*, op. cit., pp. 296, 307 ; M. Morsy, *La relation de Thomas Pellow...*, op. cit., p. 9.

والظاهر أن الأسلوب الأخير كان حاضرا بكل ثقله في سياسة السلطانين اللذين حاولا مدّ سلطتهما إلى أبعد نقطة في تراب البلاد بهدف إخضاع السكان. وينهض تعدد الحركات في عهديهما دليلا على هذه السياسة، التي تجد تبريرها في إقدام أحمد المنصور على تقسيم البنيات القبلية إلى كوانين لتسهيل الأداء، وفي لجوء المولى إسماعيل إلى المراقبة الشديدة لأنشطة الجباية في عين المكان. ولعل الشبكة الواسعة للقصابات التي شيدت في عهديهما، وتقسيم البلاد جبايا إلى عدة ولايات، يعبران عن الأولوية الرئيسة التي حظيت بها الجباية لديهما، على الرغم من أن ممارسات المولى إسماعيل جسدت رغبة أكبر، وإصرارا أشد على اكتساح المجال، ومراقبة سكانه، فقد ضاعف من عدد القصابات، وكثف من الحركات مقارنة مع أحمد المنصور. لكن هذا التباين لا يقلص في شيء من القواسم المشتركة بين سياسة الرجلين، والمتمثلة في عزمهما على فرض إرادتهما على كل أشكال التمرد والعصيان، وإنما يميّط الثام عن مدى استفادة السلطان العلوي من تجربة سلفه، إذ انطلق من ثوابتها، وعمل على توسيعها لتشمل سلطته مختلف الأطراف بما فيها المناطق الجبلية الوعرة التي صعب على قوات المخزن ولوجها، فأهل جبل درن، على سبيل المثال، لم يخضعوا لأية سلطة منذ العهد الموحيدي حسب ما أورده التسافتي²²⁴.

ونحن بصدد الحديث عن حركات المنصور والمولى إسماعيل، تستوقفنا مسألة محورية موصولة بمدى مساهمة هذه الحركات، التي كان هدفها تأكيد السلطة السلطانية بمختلف أنحاء البلاد في تدعيم أسس المخزن. لتتساءل أظلت تعبر عن عجز هذا الأخير عن ممارسة حضوره الدائم والمستمر، ولجؤه إلى نظام الجولات الضريبية المؤقتة والعنيفة²²⁵؟ أم أن حزام القصابات في عهد السلطانين، بالرغم من كثافته، بقي معزولا عن المجتمع باعتباره عنصرا دخيلا، ولم ينجح في إيجاد حل دائم لمشكل الجباية يعفي المخزن من اللجوء إلى الحركات؟

ما يستنتج من حركات السلطانين أن معظمها استهدف نشر أجهزة جباية دائمة تضمن تقوية دعائم المخزن، وتغنيه عن اللجوء إلى كثرة التنقلات التي يدل تعددها في عهديهما على درجة المقاومة، التي اعترضت محاولاتهما الرامية إلى احتكار السلطة الإدارية الخارجة عن

²²⁴ عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 59؛ مجهول برتغالي، ن.م، ص. 37، 41، 105.

انظر: الفقيه الإدريسي، « الحركة على عهد أحمد المنصور الذهبي ملاحظات أولية »، مجلة أبحاث، ع. 33، 1994، ص. 58-74، راجع أيضا: عبد الكريم الريفي، ن.م، ص. 58-60.

²²⁵ B. Rosenberger et H. Triki, « Famines et épidémies au Maroc aux XVI^e et XVII^e siècles », in *Hespéris*, vol. XV, 1974, p. 86.

ناقرة نفوذيهما. غير أن أي نظرة للحركات المخزنية في أبعادها المادية، وتحديد الجبائية، تبقى قاصرة عن فهمها، نظرا لما تمثله من أبعاد رمزية ستتطرق إليها في حينها. بيد أن هذا الأسلوب لا يعفينا من الإشارة إلى أن الدولة الأوروبية كانت تعتمد إلى التقليل من نفقاتها، من خلال الاحتفاظ بموظفيها أجرا يؤدي جزء من رواتبهم من قبل الرعايا، وتحصل هي بالمقابل على ما تبقى من موارد الجبائية، التي كانت تبيع حقوق استخلاصها لفائدة مجموعة من الملتزمين بها²²⁶.

مهما يكن من أمر، فإن الحركة شكلت وسيلة أساسية لاستخلاص الجبايات من السكان، ولتركيع المتمردين منهم، ولتأديب الأطر المخزنية التي ثبت تورطها في تجاوزات أثارت من حولها الزوابع²²⁷. وقد تباين حجم الحركة حسب نوعية المخالفات المسجلة، ومدى قوة مرتكبيها، فهناك حالات اكتفى فيها السلطان بإرسال من ينوب عنه، وأخرى قاد فيها الحملات بنفسه. وبالرغم من توفر السلطانين على مخازن ضخمة للقمح والشعير والذرة، اعتمدا في تمويل الحركات على السكان الذين يجندون الحراك ويوفرون الراتب متى دعت الضرورة لذلك. ومن الراجح جدا أن تنظيمها كان يتم سنويا²²⁸، إذ كان الجيش يجهز قبل انطلاقه بكل حاجياته، التي توزع على الطوائف الحرفية بمختلف أصنافها، كالحدادة والديباغة والدراسة والحبازة، فتزوده بكميات عينية تتماشى مع أعداد الخيول والرجال، بل إن التجار من أهل الذمة والفاسيين كانوا يرافقون الحركة، وهم يحملون السلع التي يحتاج إليها العسكر، فيقيمون الأسواق بكل نزلة²²⁹. على أن سكان القبائل التي يمر منها موكب الحركة كانوا ملزمين بتموينها، إذ يضع السلطان أو القائد لائحة بأسماء الفخذات وعدد الليالي التي تتكفل فيها بإيوائها، وأحيانا يشرف أعيان المنطقة على عملية توزيع حصص مالية

²²⁶ W. Blockmans, *Histoire du pouvoir...*, op. cit., pp. 228-30.

²²⁷ عبد الرحمن المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1995، ص 340-344.

²²⁸ « وفرض السلطان الذهبي على القبائل ثماني موزونات لكل سرجة عام بعام »، إبراهيم الحساني، ديوان قبائل موس، تحقيق عمر آفا، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1989، ص. 29. « اعمل على أن تحصل من عاملنا على تغازي ما يكمل... المال الذي كنا جعلنا معه يأتينا على رأس كل سنة وضمنه هو ». المولى إسماعيل، إلى ولدي المون...، م.س.ذ.، ص. 8، راجع أيضا:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 86-7.

²²⁹ عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 55، 90، هامش 436.
Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Moulay Ismail...* op. cit., pp. 58, 61-3.

خاصة « بالضيافة »، على كل فخذة قبل وصول قائد الحملة²³⁰.

ولم تمنع هذه التدابير الجيش من استعمال جزء من المواد الغذائية المحصلة بواسطة الجباية في تموين حاجياته، التي تزداد كلما فشل في الحصول على مصادر لهذه المواد خاصة في المناطق الجبلية الوعرة، التي يعمل فيها السكان على نقل ممتلكاتهم إلى مناطق آمنة، لا تصلها أيادي الجنود. مما أفضى أحيانا إلى سقوط الحركات في أزمة تموين خانقة، استفحلت كلما تزامنت مع قسوة الظروف الطبيعية، كما حدث لأحمد المنصور ومن بعده المولى إسماعيل، اللذين حوصرا بجيشيهما في ممرات الأطلس الكبير بفعل تساقط الثلوج، وما أسفر عنه من هلاك أعداد كبيرة من جنودهما، خصوصا إذا علمنا أن هذه الحركات كانت تدوم مددا طويلة تراوحت ما بين أربعة أشهر وستة أشهر، وتارة سنة كاملة. وهو ما يعني أن تموينها بقي رهينا بحجم المداخل الضريبية العينية المحصل عليها²³¹. لذلك فإن توقيتها تزامن في معظم الأحيان مع فصل الصيف أو الخريف، اللذين تمارس فيهما عمليات الحصاد ويتم جني الفواكه، وهي أوقات مناسبة تجمع بين حرارة واعتدال الجو وملاءمة المسالك لتنقلات الجيش من جهة، وبين وفرة الإمكانات عند السكان لتجهيز المؤونة، ولأداء الضرائب من جهة أخرى. الأمر الذي جعل المخزن ينتظر حلول السنوات ذات المحاصيل الجيدة للمطالبة بالحقوق الجبائية المتركمة، حتى لا يجد الغارمون أية ذريعة للتملص منها²³². لكن هذا لا يعني في شيء وجود

²³⁰ إبراهيم الحساني، ن.م، ص ص. 27-28. « وزعت على الواحات التواتية، ضريبة لضيافة القائد أحمد بن علي الروسي سنة 1688م » انظر:

Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, p. 58 ; A.-G.-P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine...*, op. cit., p. 65.

« كان الجيش يرغم سكان المناطق التي يمر منها، وجريا على العادة السارية بهذه البلاد، بالتكفل بكل حاجيات إقامته »

« وعند قيام الملوك بحملة عسكرية، فإنهم لا ينفقون أي شيء على مؤونة الجيش؛ ذلك لأن قبائل الأعراب التي يمررون بها تكون مرغمة على تغطية كل حاجيات هذا الجيش. هذه القبائل تبدأ في إعداد كل ما عليها تقديمه أياما قبل مرور الجيش بها »، خورخي دي هنين، ن.م، ص ص. 69، 174-175.

²³¹ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 227؛ أبو القاسم الزباني، الترجمان العرب عن دول المشرق والمغرب، باريس، طبعة هوداس، 1886، ص ص. 1، 18.

S.I.H.M. 2^e série, Fra., t. II, pp. 83, 120, 165.

دامت حركة أحمد المنصور بتمامها سنة واحدة، عاشت فيها المحلة على حساب السكان نظرا لغنى المنطقة، أما حركته بسوس فدامت أربعة أشهر من ربيع النبوي إلى رجب 1588م. انظر: مجهول برتغالي، ن.م، ص. 80؛ إبراهيم الحساني، ن.م، ص. 29. بخصوص المولى إسماعيل، راجع:

M. Morsy, *La relation de Thomas Pellow ...*, op. cit., p. 102.

²³² « كانت تلك الحركة في زمن الخريف، وقت العنب وغيره من الفواكه... واعتدال الزمان »، ... انطلقت للحركة في سنة كثيرة الفواكه... حيث اختارت وقت الدّراس... بشهر غشت »، عبد الله التسافتي، ن.م، ص ص.

فترات ثابتة لا محيد لتنقل الحركات خلالها، بل كان السلطان وأطره، يجهزونها كلما اتخذ التمرد الضريبي لمنطقة معينة بعداً أمنياً تجاوز الحدود التي يرسمها المخزن، وأضحى يشكل تهديداً للعبة التوازن التي تؤمن استمراريته؛ لأنه بالرغم من تعاقب سنوات رطوبة وأخرى عجاف، فإن المخزن كان يدرك جيداً مدى اعتماد القبائل على تخزين احتياطياتها من المواد الغذائية، وخاصة الحبوب، في المطامير، التي يمكنه المراهنة عليها في انتزاع الضرائب من السكان، الذين كيفوا سلوكياتهم مع الحركات، إما من خلال تهريب مخزوناتهم، ووضعها في أماكن خاضعة لوصاية الزوايا مثلاً، أو إخفائها بكل عناية. وهو وضع لم تجد الأجهزة المخزنية صعوبة في تجاوزه، إبان حكم المولى إسماعيل الذي وظف الكلاب للكشف عن المطامير²³³. ويترجم هذا التقابل إما ارتباط توقيت الحركات ارتباطاً عضوياً، بمدى حاجة المخزن للموارد، وبدرجة تمسك الأطراف الغارمة، بمواقف الامتناع عن التسديد، مما يعني أن تنظيم بعض الحركات لم يكن متزامناً مع مواسم جني المحصول، أو يؤكد أن الإلحاح على استخلاص الضرائب من مدخرات القبائل المعارضة، هو تعبير عن رغبة المخزن في تجريدتها من مصادر قوة قد تستعمل ضداً عليه، بدليل أنه لم يكن يتأخر في نهب كل المخازن التي يجدها في طريقه²³⁴.

ومثلت ظاهرة العنف في الحركات آخر إجراء كان يلجأ إليه المخزن بعد أن يستنفد كل الوسائل السلمية، وطرق التفاوض الممكنة، فيبعث الرسائل والوفود للتوسط، أو يطالب بحضور ممثلين عن القبيلة قبل الإقدام على استخدام القوة. فالسلطان أو من ينوب عنه لا يتخذ الحل العسكري إلا خياراً أخيراً لا مفر منه، لإجبار القبائل المتمسكة بموقف العصيان على الخضوع لشروط الطاعة. ويبدو أن كفاءة عامل الخراج، وقدرته على المناورة واستخدام الحيل والرشاوى، وتوظيف أشخاص يرتبطون برابطة الدم أو اللف لإقناع القبيلة المتمردة، وإظهار القوة تلافياً لاستعمالها، عبر قطع الأشجار وتمهيد الطريق للجيش لإخافة السكان،

99، 109. « وجهنا وصفانا يخيمون عليهم حتى يؤدوا حق بيت المال الذي عليهم هذه سنون... فإنها (البلاد) جاءت بالزرع هذه السنة وصاياتها بالسنين، فلا نجد أحسن من هذه السنة »، رسالة إسماعيلية إلى المامون، مجموع مخطوط، خ. ح، رقم 12598، ص. 198، راجع أيضاً: رحمة بورقية، ن.م، ص. 57.

²³³ عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 69؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 193.

B. Rosenberger, « Société, pouvoir, et alimentation », Rabat, Alizés, 2001, p. 77 ; Voir aussi S.I.H.M, 2^e série, Fra., t. II, p 83, 165.

²³⁴ عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 109؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 192-193.

كلها كانت عناصر مساعدة على « قبض المغارم بلا فتنة ولا قتال »²³⁵ على حد تعبير التسافتي. وهو أمر يدفع إلى الاعتقاد بأن الطابع الدموي للحركات، مرده أحياناً إلى فشل بعض الأطر المخزنية في مسאיصة العصاة، إما لافتقارها إلى المؤهلات التي تمكنها من بلوغ ذلك الهدف، أو لرغبتها الضمنية في استغلال ذلك الفشل في ممارسة العنف، وما يواكبه من إتاحة الفرص السانحة لابتزاز السكان المستهدفين، الذي أسفر تارة عن قتل بعض القواد، كما هو الشأن بالنسبة لقائد أحمد المنصور بتيكورارين سعيد بن الحسن، وقائدي المولى إسماعيل علي الدكنتي وبن شتي الكدميوي بجبال سكساوة²³⁶.

وتفسر هذه المواقف بمدى تسلط بعض ممثلي المخزن، واتساع دائرة تعسفهم التي تستبيح كل ممتلكات السكان، تحت ذريعة خروجهم عن الطاعة، بهدف الاغتناء على حسابهم ما دام منصب الجباية يمكن صاحبه من تكديس الثروات لاستيفاء حقوق بيت المال، والاحتفاظ بما تبقى منها لاستخلاص الأجر. لذلك لم يتردد السلطانان في معاقبة كل من ثبت تورطه في تجاوزات عبر عنها تعالي أصوات المشتكين، وأكدها العيون المبثوثة في الأقاليم، فتم مصادرة الممتلكات، أو سجن المخالفين أو قتلهم أحياناً²³⁷. وإذا مثل التعسف في التحصيل الجبائي ظاهرة غير مقتصرة على المغرب، باعتبار أنها لازمت البوادر الأولى لنشوء الكيانات السياسية منذ القديم، فالبادي أن المولى إسماعيل استفاد في هذا الاتجاه بشكل كبير من تجربة سلفه أحمد المنصور، وعمل على تطويرها من خلال تكثيف وسائل المراقبة، بواسطة شبكة من « قواد روسهم » تنقل الأخبار عن تصرفات عماله، الذين ألزمهم بتقديم حصيلة ضريبية عن أقاليمهم، لمقارنتها مع المعلومات المتوفرة لديه، حتى يتفادى ابتزازاتهم²³⁸. وكانت

²³⁵ عبد الله التسافتي، ن.م، ص.ص. 70، 74، 76-77، 84، 92، 133-134، 154-155، 211. ثم، م.ر.س، ك 278، ص.ص. 104-105؛ إبراهيم الحساني، ن.م، ص.ص. 13-14؛ عبد الله كنون، ن.م، ص.ص. 169، 262. انظر كذلك: M. Morsy, *La relation de Thomas Pellow...*, op. cit., p. 106.

ستعمل قائد المولى إسماعيل محمود الغنجاوي اللين مع سكان الواحات، لكنه فشل في تحصيل الضرائب، فلجأ إلى القوة العسكرية، انظر:

A.-G.-P.Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine...*, op. cit., p. 81.

²³⁶ عبد الله التسافتي، ن.م، ص.ص. 228-229؛ جون وندوس، ن.م، ص.ص. 62، 66؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص.ص. 100. كانت مساطر العزل والمصادرة تطول كل الموظفين العثمانيين الذين ثبت تورطهم في ممارسة تعسفات مالية أو في لاغتناء غير المشروع، راجع: روبر مانتان، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1993، ص.ص. 260.

²³⁷ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص.ص. 199-200؛ محمد القادري، ن.م، ج. 4، ص.ص. 229. Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., pp. 64-5.

²³⁸ المولى إسماعيل، ن.م، ص.ص. 37؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص.ص. 252.

زيارات خدامه له سنوية، وهو ما أكده علي بن عبد الله الحماوي بقوله: « فاعلموا أنه جرت العادة أننا في كل عام نقدموا على مقام موكلنا نصره الله لزيارته، والوقوف عليه، وتقبيل يساطه الكريم »²³⁹.

غير أن تشديد إجراءات المراقبة، لم يحل دون احتفاظ الأطر المخزنية بجزء من المبالغ الضريبية لفائدتها، على أساس تقديم هدايا ثمينة للسلطان، ازدادت قيمتها كلما سجل تأخير أو تماطل في تاريخ العودة إلى العاصمة لتقديم الحصىلة. بل كان قائد الحزكة ملزما بتخصيص هدايا لبعض الشخصيات الوازنة. بمن فيها نساء البلاط حتى تدافع عنه، وتقنع السلطان بقبول حصىلة المغارم والهدايا التي قدم بها، لمواجهة من يعاديه من أعضاء الحاشية. فالهدايا التي قدمها القائد أحمد بن كوكسو للمنصور بددت على ما يبدو، كل اتهامات التعسف والابتزاز، التي كان يلصقها به الحاجب عزوز. ولم يتمكن القائد بوعبدلي من إقناع المولى إسماعيل بهزلة المبالغ الضريبية التي جلبها باشا مراکش عبد الكريم بن منصور من حرّكته يسوس، نظرا لتدخل القائد عبد المالك المهري بمساعدة قواد وباشاوات آخرين للتوسط لدى السلطان، الذي قبل في النهاية ما توصل به²⁴⁰، وهو أسلوب مكن الأطر من البقاء في مناصبها لأطول مدة ممكنة. لكن هذا لا يعني أن المخزن المركزي كان يتغاضى عن التعسفات الضريبية في كل المناسبات، مقابل حصوله على هدايا، كما أشار إلى ذلك كل من شالدانيا Saldanha وبريثويت Braithwaite، بل كانت تتم الاستجابة لمطالب المشتكين من الجور، إما عن طريق إرغام العمال على تغريم ما نهبوه منهم ظلما وعدوانا، أو بواسطة مصادرة ممتلكاتهم لرد الحقوق لأصحابها. والأكثر من ذلك أن السلطان كان يصدر أوامره لتخفيف حجم المستحقات الضريبية، أو لإسقاطها لمدة معينة لرد الاعتبار للرعايا. فأحمد المنصور قرر إلغاء مثقال عن كل نائبة لتعويض قبائل دكالة وحاحة، التي تضررت من سياسة عامله داوود

Ch. de la Veronne, *Vie de...*, op. cit., pp. 51-2, 62-5 ; M. Morsy, *La relation...*, op. cit., p. 97. note 130 ; B. Bennassar, « Les hommes du roi en Espagne », in A. Stegmann (dir.), *Pouvoir et institutions en Europe au XVI^e siècle...* op. cit., p. 89. P. Claus Hartmann, « L'administration financière en Europe au XVIII^e siècle », Werner Paravicini et Karl Ferdinand Werner (dir.), in *Histoire comparée de l'administration (IV^e-XVIII^e siècles)*, p. 536.

²³⁹ رسالة من علي بن عبد الله الحماوي إلى هولندا بتاريخ ربيع النبوي عام 1103 هـ، الأرشيف الوطني الهولندي لاهاي، سلسلة الأقاليم المتحدة رقم 1.01.04، رقم الوثيقة 6918.

²⁴⁰ S.I.H.M, 1^{re} série, Pays-Bas, t. I, pp. 633-645 ; A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 252. Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 64.

عبد الله التسافتي، ن.م، ص ص. 206-208؛ جون بريثويت، ن.م، ص ص. 81، 120.

بن علي وجباته، كما أعفى سكان تامسنا من أداء الضرائب لمدة سنة جزاء لهم على تمويل محله التي خيمت بمنطقتهم. وأمر المولى إسماعيل قائده، في رسالة إلى سكان تيكورارين وتوات ووحدات أخرى، بإعادة نصف ما دفعته كل منطقة من زكاة، ثم قرر سنة 1688م عدم مطالبتهم بالأعشار²⁴¹.

- بين الزجر والرأفة

ظل اتخاذ التدابير السابقة رهينا بمدى تحكم المخزن في لعبة التوازن التي تقوم عليها علاقاته بالقبائل، إذ نادرا ما كان يقدم على إسقاط الضرائب أو تخفيفها لمدد معينة دون مراعاة لهذه العلاقات، بدليل أن الإعفاء الجبائي « المؤقت » كانت تستفيد منه القبائل، إما بعد أن ينجح المخزن في كسر شوكتها، أو عقب مبالغة أطره في نهبها، إلى درجة يصبح فيها الابتزاز مهددا للتوازن الذي تركز عليه روابطه مع قاعدته البشرية، وامتداد نفوذه في المنظومة القبلية.

وما يثير الانتباه في الحالتين، هو أن المخزن كلما مارس العنف في حركاته، يحاول أن يجعل من الإعفاء الجبائي « المؤقت »، نتيجة حتمية ملازمة وموالية لتفوقه الميداني على خصومه، فيضفي عليه خطاب العفو، مما يظهر المؤسسة السلطانية قوة مانحة للرحمة والشفقة، تنصف المظلومين، وتعاقب الظالمين. فأحمد المنصور عفا عن أهل سوس الذين ساندوا المتوكل، لكن بعد أن هزمهم عسكريا، « فأسقط عنهم مغارم ثلاث سنين، رفقا بهم، ورجاء أن يخلف الله عليهم »²⁴²، والمولى إسماعيل قرر سنة 1685م، إعادة نصف الزكاة لسكان توات وتيكورارين، جزاء لهم على طاعتهم وولائهم له، ثم ألغى مطالبتهم بالعشور تعويضا لهم عن ما خلفته قسوة حركة عامله أحمد بن علي الروسي على واحاتهم، إذ لم يتردد في تخريب قصورهم، وإجبارهم على أداء قنطار من المال نفقات يومية لجيشه، وقنطار في الأسبوع لفائده²⁴³.

²⁴¹ Ch-de. La Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., pp. 64-5.

انظر رسالة المولى إسماعيل إلى سكان الواحات الجنوبية بتاريخ شعبان 1096هـ، 7-10-1685م، ضمن: A.-G.-P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine...*, op. cit., pp. 65-7.

وحول المنصور، راجع: عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص.ص. 199-200؛ مجهول برتغالي، ن.م، ص. 80.

²⁴² عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص.ص. 200، 228.

²⁴³ رسالة المولى إسماعيل إلى سكان الواحات تعلق سلوك الإعفاء: « وهذا من طيبة سلوكنا فتقبلوه بفرح، والله يحقق مبتغاكم... »، راجع:

A.-G.-P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine...*, op. cit., pp. 65-7.

وما يستنبط من هذين النموذجين، هو مدى ارتباط الإعفاء الجبائي «المؤقت» بمنطق التوازن السابق الذكر، فاستفادة أهل سوس منه لا يمكن فهمها إلا في إطار الأهمية الحيوية لقبائل المنطقة باعتبارها «عصائب الدولة التي توكت عند نهوضها على منساتهم»²⁴⁴، وتمتع سكان الواحات بامتيازاته لا يفسر إلا بما مثلته توات وتيكورارين وغيرهما من قاعدة خلفية تجسد عمق الأسرة العلوية، التي حافظت باستمرار على روابطها بالمنطقة من خلال تعدد الزيارات، التي درج بعض أفرادها على القيام بها إليها كل سنة²⁴⁵. ويعني هذا أن الحركة كانت تقوم بإعادة تأكيد الحضور المادي للسلطة المخزنية، الذي يتم تركيته بواسطة الإعفاءات الجزئية أو المتقطعة، التي تخول عربونا على الخضوع، وإيدانا بسيادة التوازن الذي يؤمن استمرارية تعالي المخزن وعظمته تجاه القبيلة.

وفي الوقت الذي شكل فيه الإعفاء من الضرائب نعمة يغدق بها السلطان على كل من أثبت ولاءه، وامتيازاً يحظى به الأوفياء من الخدام، فضلاً عن الشرفاء والصلحاء، بدت الضريبة في المنطق المخزني زجراً. ففرض عرب الخلط المساهمة في حملة تيكورارين مما أفضى إلى فرض المغارم الثقيلة والخراج عليهم، وسخط المولى إسماعيل على سكان مدينة فاس، بلغ درجة جعلته يكلف عامله بتحصيل أربعين قنطاراً من المال منهم²⁴⁶.

لقد ظل السلوك الجبائي للمخزن في حالة إخضاع القبائل للضرائب، أو إعفائها «المؤقت» من بعضها، محكوماً بالمنطق السياسي نفسه الذي يوظف ما هو ديني لتبرير مواقفه، إذ يرى في عملية استخلاص السلطان للضريبة، استرجاعاً للحقوق المالية الواجب انتزاعها شرعاً، وفي عملية إلغائها «المؤقت» تصرفاً في ما فوضه الله إياه من ثروات يمنحها لمن يشاء وبالطريقة التي يشاء، لما فيه حماية للبلاد والعباد من الفتن؛ بمعنى أن العمليتين معا تصبان في اتجاه أخلاقي يكرس المخزن من خلاله بعد الطاعة الذي يفرضي الالتزام به بالضرورة، إلى الظفر بنصيب من العطف السلطاني. وهو خطاب اعتادت الإسطوغرافية ترسيخه، من خلال إضفاء طابع النعمة على الإعفاء الضريبي، وجسدته الممارسات المخزنية، التي جمعت بين

²⁴⁴ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 51، 164.

²⁴⁵ قام أعمام السلطان بزيارة لتوات سنة 1709م بقيادة الشريف الفيلاي مولاي امبارك، ثم في السنة الموالية بزعماء الشريف مولاي محمد، راجع:

A.-G.-P. Martin ... *op. cit.*, pp. 78-9.

²⁴⁶ محمد القادري، ن.م، ج. 3، ص. 261؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 110.

الزجر والرافة، بين تأديب العصاة والإحسان إليهم. فالمولى إسماعيل قاد حركة دموية ضداً على قبائل الأطلس المتوسط انتهت بإخضاعها، لكنه قابل هذا العنف بمنحها قطعان الماشية لتربيتها مقابل تعهده بشراء الأصواف والسمن منها²⁴⁷. ويترجم هذا السلوك في صيغته المادية عزم المخزن على إعادة هيكلة المجال القبلي وفقاً لرؤيته الخاصة، التي تجعل من السلطان مصدراً لكل عطاء مادي، والسلطة الوحيدة القادرة على نزعه، وفي صيغته الرمزية إعادة إضفاء للطابع المقدس المستمد من البركة على كل الثروات، كما سنرى لاحقاً.

ولا يمكن تناول الإجراءات المتخذة من قبل المخزن للتخفيف من الأعباء الجبائية، بمعزل عن علاقاته بالقوى الدينية التي توطر السكان، وتؤثر فيهم، وعن مدى اعتماده على الموارد الضريبية في الاستجابة لحاجياته. ففي الوقت الذي أسفرت فيه معركة وادي المخازن عن تحالف ظرفي بين الزوايا وأحمد المنصور الذي سعى إلى مصادر بديلة كصناعة السكر، وفتح السودان، تغنيه عن الاعتماد الكلي على الجبايات، راهن المولى إسماعيل على الاستكثار من الأخيرة وتعميمها، بل أخضع الزوايا، وعمد إلى إضعافها²⁴⁸. وهذا التباين في المواقف، يمكن من فهم السياق الذي أقدم فيه أحمد المنصور على تغيير ضريبة الثابتة، من عينية إلى نقدية تدفع بالدراهم وبسعر الوقت، وقام فيه المولى إسماعيل بالمقابل بإقرارها²⁴⁹.

مثل سلوك السلطان السعدي استجابة لضغوط القوى الدينية التي أضحت تعبر عن احتجاجها على استفحال الثقل الجبائي، وإن كانت هذه الاستجابة لا تمثل إلغاء للنائبة في

²⁴⁷ عن المولى إسماعيل، راجع: أبو القاسم الزياني، الترجمان المغرب...، م.س.ذ.، ص. 20. S.I.H.M, 2^e série, Fra., t. II, pp. 118- 20.

وأورد عبد العزيز الفشتالي في شأن أهل سوس، أن أحمد المنصور «... قابل جميعهم بالعفو، وخفض لهم جناح الذل من الرحمة، وبسط رواق حلمه عليهم، ورفع سيفه عن سفك دمائهم، وتجاوز لهم كل ما سلف منهم من سوء المشاققة، وقبح المعاملة». ثم قال في حق الخلط، «وردهم إلى ما كانوا عليه من بذل المغارم والخراج جزاء على كفران النعمة». انظر: مناهل الصفا...، م.س.ذ.، ص. 111، 228.

²⁴⁸ تشير وثائق إسماعيلية أن توزيع ضريبة الضيافة على أعيان الواحات الصحراوية، لم يكن يستثنى منه الأشراف والمرابطون والزوايا، إذ كانوا يساهمون بنصيبهم بكافي القبائل. فهل تعلق الأمر فقط بتجاوزات بعض الأطر المخزنية، كما هو الشأن بالنسبة لعامر الدكالي، الذي كاتبه المولى إسماعيل بخصوص إعادة الأعشار التي استخلصها من المرابطين الدغوغيين؟ انظر:

A.-G.-P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine...*, op. cit., pp. 65-6, 71.

وعبد الرحمن ابن زيدان، ن.م، ص. 332؛ عبد الله العروي، ن.م، ج. 3، ص. 58-59، 85-86.

²⁴⁹ عبد الله كنون، ن.م، ص. 147-148؛ أحمد الناصري، ن.م، ج. 5، ص. 31؛ عبد الله العروي، ن.م، ص. 85. ولمزيد من التفاصيل عن ضريبة الثابتة، راجع: حليلة بنكري، مداخيل بيت مال المغرب في عهد السعديين، رسالة د.د. ع. في التاريخ، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 1985، ص. 79.

حد ذاتها، وإنما تعويضها بضريبة الخراج وتخفيف آليات استخلاصها. والإجراء الذي اتخذه السلطان العلوي استهدف توفير موارد لتحرير الثغور المحتلة. فكلما الإجراءين يدخلان في إطار سعيهما الخيث لإضفاء المشروعية على سياستيهما الجبائيتين، على اعتبار أن أحمد المنصور برر قرار الاستبدال بعدم شرعية النائبة، والمولى إسماعيل فرضها تحت ذريعة الجهاد، الذي لم تفلح الزوايا من خلال ممارسته في تحقيق مكاسب كتلك التي حققها السلطان.

والظاهر أن سن الإعفاءات الجزئية والظرفية يعبر ضمناً عن وجود ثقل ضريبي، تخلله قيام الأجهزة الجبائية بالتعسف وبالتجاوزات التي كانت تلحق خسائر فادحة بالسكان، فحاول المخزن التخفيف منها تبعاً لطبيعتها وحجمها، ولمدى قرب أو بعد الفئة المتضررة منه، فبدأ وكأنه يسعى من خلال هذه الممارسات إلى ترويض القبائل على الطاعة²⁵⁰، وتخويفها من عواقب عدم الالتزام بقواعدها؛ لأن الإعفاء في شكله العام ارتبط في المنطق المخزني، إما بمزاولة واجب الخدمة العسكرية، أو بامتلاك سلطة دينية تخول التوقيع والاحترام كما هو حال الأشراف والزوايا، لذلك فإن قبائل الكيش كانت محرة من الضرائب، تستفيد من الإقطاعات الممنوحة لها، ومن اعتلاء رؤسائها لمناصب القيادة. وهو وضع لم تكن القبائل الغارمة تنظر إليه بعين الرضا، لما ترى فيه من إجحاف يمارس عليها، فتتربص بأدنى فرصة للانفلات من تبعاته، ومعانقة التحرر الضريبي، خاصة حين يكلف المخزن القبائل المستفيدة بدعم الجيش المحترف لتحصيل الضرائب منها، إذ فوض أحمد المنصور لقبيلة سفيان بزعامة إبراهيم السفياني جمع المغارم الثقيلة من أولاد حسين وحلفائهم. وأخضع المولى إسماعيل قبيلة كروان للوضائع بواسطة علي ابن يشي قائد قبائل زمور²⁵¹. ولعل أسلوباً جبائياً من هذا القبيل، شجع على بث روح العداء من جهة بين هذه القبائل، ومن جهة أخرى على ارتكاب المزيد من التجاوزات التي أسفرت عن اغتناء الأطر المخزنية بمختلف أشكالها، سواء المنتمية إلى الكيش أو المصنفة في مراتب الجيش الدائم، أو المرتبطة برابط القرابة مع السلطان. وتجسدت مظاهر الاغتناء تلك في تمتع بعض العمال والقواد بحياة تسودها مظاهر البذخ والثراء؛ فالقائدان أحمد كبير حاكم سوس وأحمد صغير حاكم تادلة كدسا ثروات طائلة بحكم روابطهما العائلية مع أحمد المنصور، الذي اغتنى في عهده أيضاً بعض قواد

²⁵⁰ كمال عبد اللطيف، ن.م، ص. 213.

²⁵¹ أحمد الناصري، ن.م، ج. 7، ص. 76-77. وحول المنصور، راجع: عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 98.

العلوج أمثال أحمد بن كوكسو وسليمان وعزوز وأحمد بن منصور كوريتو²⁵². وأوردت المصادر صوراً للثراء الذي كان ينعم به علي بن يشي وعبد الله الروسي والباشا أحمد بن علي الريفي، وباقي العمال الذين كانوا يتنافسون في بناء الدور الفخمة إبان عهد المولى إسماعيل²⁵³. فكيف نفسر عدم إقدام السلطانين على تجريد هؤلاء من ثرواتهم، عملاً بالمنطق المخزني الذي يعتبر المال مال السلطان؟

- جابة محظوظون -

يتبدى أن احتفاظ ثلثة من العمال والقواد بمظاهر الأبهة، يدخل ضمن الإستراتيجية المخزنية، التي تسعى إلى إضفاء صورة على البلاط السلطاني باعتباره مكاناً تكتسب فيه الثروات²⁵⁴، ويسمح فيه بتسلق المراتب الاجتماعية شريطة التفاني في الخدمة وإثبات الطاعة، والتصرف تحت الوصاية المباشرة للسلطان. وهو تصور ينم عن مدى حرص المخزن على التصدي للأفكار التي يروج لها معظم العلماء، وتعتبر الخدمة مع الأمير أمراً مرفوضاً ومهيناً يفقد صاحبه كل هبة ومصادقية، وأن المال المكتسب من ممارستها غير شرعي، بل يثبت أن الملوك يستهونون « عظام الأمور لطيعهم الرعية »²⁵⁵ على حد تعبير الإفرائي. لكن المخزن احتاط حتى لا يسفر هذا الثراء عن ظهور قوى منافسة له، من شأنها المس بتفرد وعظمته، إذ لم يتقاعس في تجريد أي شخص شعر بأنه أضحى يهدد تميزه، لأن امتلاك المال يفضي إلى الطغيان والاستخفاف بالمملكة²⁵⁶. مما يعني أن وضعية الاغتناء قد تنقلب بسرعة إلى حالة

²⁵² حول الثراء الفاحش لعزوز ولأحمد بن منصور كوريتو وللباشا جودر، راجع: خورخي دي هنين، ن.م، ص ص. 48-50.

²⁵³ أبو القاسم الزياني، البستان الطريف...، م.س.ذ.، ص. 246؛ جرمان مويط، ن.م، ص. 13؛ عبد الله التسافتي، ن.م، ص ص. 206-207؛ جون بريثويت، ن.م، ص. 80؛ الحسن الوزان، ن.م، ج. 1، ص. 253. وعن الخدمة المخزنية كمصدر للثراء بمغرب القرن التاسع عشر، انظر: مصطفى الشابي، النخبة المخزنية...، م.س.ذ.، ص. 111. وكانت ترقية كل أصناف الخدام في سلايم الإدارة العثمانية مرتبطة برغبة السلطان. روبر مانتران، ن.م، ص. 259.

²⁵⁴ J. Dakhli, *Le divan des rois...*, op. cit., p. 311, 394.

²⁵⁵ راجع موقف محمد الإفرائي من سياسة الملوك، نزهة الحادي...، م.س.ذ.، ص. 49.

²⁵⁶ قارن مثلاً موقف أحمد المنصور من عمال داوود بن علي، مع موقفه من القاضي علي الشاطبي؛ وعبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص ص. 199-200، 218. ولاحظ شالدانيا أن الثراء كان يخلق متاعب للقواد الذين يشتهرون به. راجع:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 396.

انظر إجراءات المولى إسماعيل تجاه تجار الحبوب من كبار الباشاوات:

Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., pp. 48-9.

ثم ظهره إلى الحاج محمد معنينو، ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م.س.ذ.، ص. 257. وقال المولى عبد الله بن إسماعيل

قهر، وهو ما عبرت عنه جوسلين دَاخْلِيَا J. Dakhliya بضعف «الرأسمال الشرفي» المرتبط بالتردد على البلاط السلطاني²⁵⁷. إذ من الشائع صعود فئات وضيعة في السلم الاجتماعي ونزول فئات عليا، مادام جاه أهل الدولة ومختلف الخدام ما هو إلا انعكاس لجاه السلطان²⁵⁸.

ويترجم هذا الانقلاب المفاجئ في التراتبية المادية للأطر المخزنية وجود ثقافة سلطانية قوامها، أن اغتناء أي خادم من الخدام هو بمثابة هبة تدخل في إطار سياسة إعادة توزيع اللداخيل الضريبية²⁵⁹، بهدف الحفاظ على التوازن داخل المؤسسة المخزنية، وخاصة على الصعيد المركزي. وراهن السلطان دوما على هذه الورقة لخلق تفاوتات بين العناصر الإدارية للكونة لأجهزته، استفاد منها في الإبقاء على حضوره القوي بصفته سلطة مخولة للجاء والعظمة، وفي التقليص إلى حد كبير من حظوظ تكوين بيروقراطية، وهو ما تؤكد شتى أوجه التنافس والصراع التي خيمت على العلاقات بين كبار خدام المخزن، فلم تذخر أي شكل من أشكال الدسائس والمكائد لإقصاء البعض الآخر، بلغت أحيانا درجة الاغتيال²⁶⁰. مما جعل من الوظيفة الجبائية فضاء يجذب إليه كل من حظي برضا السلطان، ويبعد عنه كل من طاله غضبه، أي أنه ظل يتمتع بهامش تحرك يمكنه من تدجين أطره وفقا لمنظوره الخاص، الذي لا يخضع لتنميط معياري معين، بقدر ما يكتنفه غموض يصعب معه أحيانا فهم الآليات المتحركة في الإدارة الجبائية المخزنية.

وإذا كانت سياسة السلطانين قد اتسمت بالصرامة تجاه تعسفات بعض جباتهما، فكيف

لعامله على فاس: «أقبض منهم المال، وألقه في وادي الخراب، ولا تتركه عندهم، فما أطغاهم إلا المال حتى استخفوا للملكة»، أبو القاسم الزياني، البستان الطريف... م.س.ذ..، ص. 248.

²⁵⁷ J. Dakhliya, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 311.

بالرغم من الثروات الطائلة التي كدسها الخياط الزرهوني، فإن المولى إسماعيل جرده منها وأمر بقتله، فاضطر ولده لممارسة حرفة الحياكة لضمان قوته، راجع: القادري، نشر الثاني... م.س.ذ..، ج. 4، ص. 231. ثم انظر: R. Ricard, *Le Maroc...*, pp. 189-90.

²⁵⁸ A. Cheddadi, «Le système du pouvoir en islam d'après Ibn Khaldoun», in *Annales ESC*, mai-août, 1980, pp. 544-547.

²⁵⁹ حول مفهوم إعادة التوزيع، راجع: عبد الرحمن المودن، ن.م، ص. 233.

²⁶⁰ أورد عبد الله التسافتي أن باشا مراکش عبد الكريم بن منصور، مات مسموما على يد الباشا مساهل سنة 1717م، وأن عداوة القائد بن شتي للقائد بوعبدلي دفعته إلى قتله، راجع: رحلة الوافد... م.س.ذ..، ص. 219-220. وعن قواد المناطق الشمالية انظر: محمد داود، ن.م، ج. 2، ص. 168.

Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., pp. 17, 47, 66.

ويخصوص التنافس بين قواد المنصور، راجع:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 252, 288, 290.

نفسر اكتفاءهما بمكاتبه البعض الآخر، وحنه على الكف عن تجاوزات، أثرت بدون شك على مصداقية الوثائق الرسمية الصادرة عنهما من قبيل ظواهر التوقيير والاحترام، التي دلت في حالات معينة على عدم التزام الجباة بمقتضياتها²⁶¹؟ أم أن غضهما الطرف عن هذه السلوكات، مثل جزءا من رؤيتيهما اللتين تتوخيان جني ربح سياسي أكبر يتجاوز البعد المادي، ويسعى إلى إبراز المخزن سلطة تحكيمية تستمد مشروعيتها من قدرتها على إعادة الحقوق لأصحابها، وحماية الامتيازات الممنوحة لهم؟

إن هذه الازدواجية المسجلة في تعامل السلطانين مع المتعسفين من جبايتهم، تترجم إصرار المخزن على ترسيخ مفاهيم الحيطه والحذر في أذهان خدامه. بمن فيهم الأكثر وفاء، أي أنه حرص على إنتاج حدود ضبابية لسلوكاته تجاههم، تراوحت، كما أسلفنا، بين الزجر تارة، وبين العفو أحيانا أخرى، وهو ما ضمن ولاءهم، وجعلهم في وضعية تقرب دائمة لطبيعة مواقفهم المحتملة تجاه ممارساتهم. لقد تجاهل أحمد المنصور لمدة طويلة الشكاوى المتكررة من تجاوزات جباة ولي عهده منذ زيارته الثانية لفاس، ودفعته ثقته الكبيرة في القائد أحمد بن كوكسو إلى عدم الاستجابة لمطالب المشتكين من ابتزازاته. في حين أظهر صرامة شديدة تجاه تظلمات جباة بقيادة داود بن عبد المومن على قبائل دكالة وحاحة. وفي الوقت الذي بدا فيه المولى إسماعيل أكثر إلحاحا على ملاحقة المخالفين من خدامه ومعاقبتهم، نجده يغض الطرف عن الإجحاف الضريبي لبعض أطره، كما هو حال الباشا أحمد بن علي الريفي²⁶²، بل ويظهر عاجزا عن تخليص سكان الواحات من تعسفات جباة، بدليل أن التواتين مثلا قرروا جمع الضرائب والامتناع عن أدائها، إلا بحضور ممثلين مباشرين عن السلطان، نظرا لأن الرسائل التي وجهها لهم ردا على شكاواهم من الابتزاز، لم تجد على ما يبدو صدى لدى عماله²⁶³.

²⁶¹ رسالة المنصور إلى القائد إبراهيم الميري، يطلب منه إعفاء قبيلة بني زروال من التكاليف، ويظهر من الرسالة أن المنصور كاتبه قبل ذلك ولم يمثل للأوامر، أنظر محمد الفاسي، قبيلة بني زروال: مظاهر حياتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، الرباط، مطبوعات المركز الجامعي للبحث العلمي، كلية الآداب، بيانات ومستندات، الجزء الثاني والعشرون، 1962، ص. 68. ووجه المولى إسماعيل رسالة إلى الوصيف عامر الدكالي لإعادة الأعراس إلى المرابطين الدغوغيين، الذين يتوفرون على ظهري توقيير واحترام، راجع: ابن زيدان، المنوع اللطيف...، م.س.ذ.، ص. 332.

²⁶² ذكر محمد الإفرائي أن امرأة عانت من تعسف أحد العمال عليها، فاشتكت لأحمد المنصور الذي لم ينصفها، في حين أنصف رجلا قصده في ضيعة انتزعت منه، راجع: نهضة الحادي...، م.س.ذ.، ص. 158-159، 179. وعبد العزيز الفتشالي، مناهل الصفا...، م.س.ذ.، ص. 99، 158-159، 190؛ جون بريثويت، تاريخ الثورات...، م.س.ذ.، ص. 81.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 200, 252, 284. Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 64.

²⁶³ إن الازدواجية في تعامل المؤسسة السلطانية مع السكان، تؤكد ملاحظة جون وندوس حول المولى إسماعيل:

ونستنتج أن السياسة الجبائية لكل من أحمد المنصور والمولى إسماعيل، وإن تباينت في بعض مظاهرها الجزئية، فقد حملت في طياتها عدة تقاطعات يمكن إجمالها في عزمهما القوي على تحصيل أكبر قدر من المبالغ الضريبية الكفيلة بالاستجابة لحاجياتهما، التي تزايدت بالنتيجة مع اتساع دائرة التحصيل، وما واكبها من استفحال ظاهرة الاحتجاج والتمرد بالبوادي والمدن، ضدّاً على أسلوب لم يعهده السكان، ولم تستطع الإمكانيات الإنتاجية للبلاد تحمل ثقله، وامتصاص عواقبه. مما أفرز موقفين متناقضين، أولهما جسده المخزن الذي رأى في الجبائية مصدراً لتقوية بنياته، ولإثبات حضوره الدائم في المجال، وثانيهما مثله السكان الذين كانوا يطمحون إلى التخفيف من هذا الحضور، الذي لا يستفيدون منه، يقدر ما يرون فيه عبئاً إضافياً عليهم. لكن ألم يرافق كلا الموقفين مسلسل بناء الدولة في أي مكان، وفي أي زمان؟²⁶⁴ أم أن الوضع بالمغرب اتسم بخصوصية عبرت عنها الإعفاءات التي خلقت شرخاً في النظام الضريبي، لكونها رسمت حدوداً مادية بين فئات مستفيدة وأخرى متضررة، طمحت باستمرار إلى تكسير تلك الحدود، كما تجسدت هذه الخصوصية في عملية الاستكثار من الضرائب غير الشرعية وما واكبها من تعسف، اتخذهما السكان مبرراً لرفض الأداء الذي هدد دوماً الأمن بمختلف مناطق البلاد؟

تأمين السبل

من البديهي أن الجبائية لم تشكل لوحدها الهدف الرئيس لنشاط الإدارة المخزنية في صيغها الثابتة والمتحركة، إذ كان من بين أهداف تشييد القصبات، وتنظيم الحركات، توفير الأمن في الطرق والمسالك لحماية السكان، ولضمان سلامة شرايين التجارة. غير أن إشراف الجيش على الجبائية وعلى تحقيق الأمن، أسفر عن تلازم هاتين المهمتين، فغالبا ما كان الامتناع عن

« فالיום يحتضنهم ويقبلهم ويفضلهم، وغدا يعريهم وينهبهم ويجلدهم »، راجع: رحلة إلى مكناس...، م.س.ذ.، ص. 97.

— « لقد أمرناه بأن لا يفرض عليكم شيئا، فلا تقدموا له إلا ما فرض الله عليكم، وحسب استطاعتكم ». رسالة إسماعيلية إلى سكان الواحات يبدو أنها وجهت جواباً على شكاية منهم، بتاريخ 7-8-1699م. والراجع أن استفحال ظاهرة التعسف دفعت المخزن إلى توزيع الحصص الضريبية على القبائل بحضور الأعيان، راجع:

A.-G.-P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine...*, op. cit., pp. 71-4, 78.

لم يكن العاهل المسيحي يكافئ فحسب، ولكن كان يعاقب أيضاً لتقديم العبرة والمثال للمتمردين، راجع: W. Blockmans, *Histoire du pouvoir...*, op. cit., p. 279.

²⁶⁴ عبد الله العروي، مجمل...، م.س.ذ.، ج. 3، ص. 9؛ ومفهوم الدولة...، م.س.ذ.، ص. 131.

A. Laroui, *Les origines...*, op. cit., p. 163.

B. Badie, « "Etat" et "Légitimité" en monde musulman : crise de l'universalité et crise des concepts », *Annuaire de l'Afrique du Nord*, t. 26, 1987, pp. 26-7.

أداء الضرائب سببا في انعدام الأمن، الذي تظاهر في قطع السبل ونهب الممتلكات، وكلما عجزت الأجهزة المخزنية المحلية عن احتوائه، إلا وتكفل المخزن المركزي بالتدخل لتغطية القصور الذي يعتري آلياته المثبثة عبر أطراف البلاد. ومن هنا بدت كل سلوكات الإدارة المخزنية وكأنها تصب في الوعاء الضريبي، الذي استوعب جل جهودها، والتهم معظم أوقاتها. ترى أرتبطت هذه الصورة بندرة المادة التاريخية، على اعتبار أن الإسطوغرافية لم تتناول الأحوال الأمنية للسكان إلا في حالة تمردهم أو تحرك الجيش لمواجهةهم؟²⁶⁵ أم أن الحزام العسكري الذي أحاط به السلطانان القبائل، هو الذي أسفر عن هذه الندرة؟ أم أن الخطاب الإسطوغرافي الرسمي كان يسعى إلى تكريس تلك الصورة التي تظهر عظمة المخزن، وهو يواجه كل أشكال المروق، لتبرير مشروعية ممارساته من جهة، ولتمرير خطاب تعاليه، وترسيخ ذاكرة تسجل لحظات تفوقه من جهة أخرى، بينما اعتبرت سياسته الأمنية من باب المسلمات التي لا حاجة للوقوف عندها؟

لقد شكل الأمن من المنظور الفقهي، إحدى الأولويات التي لا تنتظم أمور الدولة الإسلامية إلا بإقرارها، إلى درجة أن شرعية الأمير الجائر اعتبرت جائزة، إن هو نجح في قهر الناس، وحفظ النظام، واستبعاد الفتن.²⁶⁶ لذلك فإن تقويم تجربة الحاكم كانت تقاس بمدى قدرته على تأمين السبل، وضمان أمن الطريق والرفيق. وأجمعت كل الكتابات المحلية والأجنبية التي تناولت عهدي أحمد المنصور والمولى إسماعيل على نجاعة سياستيهما، وإن بدرجات متفاوتة، في تحقيق نوع من الاستقرار بمعظم أطراف البلاد. ففي الوقت الذي أشار فيه شالدانيا إلى أن أحمد المنصور نشر السلم والأمن بممالكه بشكل كبير، وأن ابنه المولى أبا الحسن اشتهر بيقظته وصرامته في ملاحقة قطاع الطرق، إلى الحد الذي أرسل فيه امرأة من تادلة إلى مراکش، وهي تحمل وعاء مليئا بالمتقال الذهبي، ولم يستطع أحد اعتراض سبيلها، أكد الزباني أن المرأة واليهودي كانا يعبران من وجدة إلى وادي نول دون أن يلحقهما أدنى أذى.²⁶⁷ وهي شهادات، تجد تبريرها في عزم السلطانين وإرادتهما مد حضورهما العسكري والإداري إلى المجالات النائية. فأحمد المنصور رد على انتقادات قاضيه عبد

²⁶⁵ M. Morsy, *La relation de Thomas Pellow...*, op. cit., p. 56.

²⁶⁶ حسن فيومي، القانون... م.س.ذ.، ص ص. 191-192.

²⁶⁷ تاريخ قسنطيني، ن.م، ص. 185.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 192-4. Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay*, op. cit., pp. 50-1.

الواحد الحميدي، الذي لأمه على صرامته الشديدة قائلاً: «لولا ما رأيت ما أمكنك أن تجيء مع أصحابك عشرة أيام في أمن ودعة، فإن أهل الغرب مجانين مارستانهم هي المحن من السلاسل والأغلال»²⁶⁸. كما لخص المولى إسماعيل في رسالته لولده المامون نتائج سياسته في كون أيام الهرج انزاحت، «وخمدت نيران الفتن من... الأقطار المغربية، وحسم الله مادة أهل الزيغ والثوار الذين كانوا يمرحون بها... وأمنت الرفاق»²⁶⁹.

ولضمان فعالية تدابيرهما الأمنية، عمد السلطانان إلى إشراك القبائل فيها، من خلال إقدام أحمد المنصور على وضع خيام نقطاً لبيع المواد الغذائية، التي يحتاج إليها المسافرون بالترالات، ولتوفير الدواب لفائدتهم، وإشراف فئات من السكان على حراستهم، وحماية ممتلكاتهم، وغرم ما سرق منها، والتأكد من هوية الغرباء، وتسليم اللصوص إلى ممثلي المخزن، وكل من تستر على مجرم يحاسب به²⁷⁰، بل حول المولى إسماعيل تلك الخيام إلى قلاع اعتمدت في تموينها على القبائل المجاورة، واحتضنت فنادق لإيواء القوافل التجارية، وعابري السبيل²⁷¹.

وينم هذا الإشراك، عن رغبة المخزن في توظيف سكان القبائل المجاورة للمعابر والمسالك الرئيسية في منظومته الإدارية، حتى تتعايش مع أجهزتها، وتقوم بأدوار تكميلية لها وإن يشكل جزئي، ليشعرها بمسؤولياتها في الحفاظ على الأمن، ويقحم في بنياتها أساليب تقوم على تعويض مفهوم إتاوة المرور أو «الزطاطة»، بمفهوم اقتصادي يركز على تقديم خدمات لبيع الأغذية للمسافرين، وحمايتهم بدل ابتزازهم. وهو سلوك يظهر من جهة عجز المخزن عن توفير تغطية شاملة لامتداده الإداري والعسكري بالبلاد، ومن جهة ثانية اقتناعه بأن هذا الإشراك، مثل دوما ذريعة لمراقبة مدى وفاء هذه القبائل بالتزاماتها الأمنية، ومبررا لكسب

²⁶⁸ محمد الإفرائي، نزهة الحادي... م.س.د.، ص. 158.

²⁶⁹ المولى إسماعيل، ن.م، ص. 12.

²⁷⁰ «حرص مولاي أحمد على أن يعيش الأعراب في الحد الأقصى من الفقر والحاجة، واستثنى من ذلك فقط أعيانهم الذين عمل على إغداق الهبات عليهم، وكان قد احتفظ ببعضهم إلى جانبه في مراكز ليكونوا بمثابة مفاتيح لقبائلهم، هذه السياسة سمحت له بحكم تلك البلاد لمدة عشرين سنة (كذا) بنظام وانضباط كبيرين» خورخي دي هين، ن.م، ص. 204.

²⁷¹ أحمد ابن القاضي، ن.م، ج. 2، ص. 827-828؛ أبو القاسم الزياتي، البستان الطريف... م.س.د.، ص. 185؛ أحمد الناصري، ن.م، ج. 7، ص. 62-63. وفي ما يتعلق بحماية الطرق، استثمرت الدولة العثمانية مداخل الأوقاف لبناء خانات على طول الطرق يبيت فيها أصحاب القوافل، راجع: عبد الرحيم بنحادة، العثمانيون، المؤسسات والاقتصاد والثقافة، الدار البيضاء، اتصالات سبو، الطبعة الأولى، 2008، ص. 190 وما تلاها؛ روبر مانتران، ن.م، ص. 318.

وهان سياسي يتجسد في تدجينها وترويضها على الانخراط في خدمة المجال المخزني بشروطه، وتحت إشرافه، عبر تخويلها امتيازات من قبيل إقطاعها الأراضي المحاذية للطرق تشجيعاً لها على الاستقرار. لكن هل تمكن السلطانان من تعميم هذه الإستراتيجية على كل المناطق؟

إن افتقار المخزن إلى الوسائل التقنية الكافية، فوت عليه فرصة التدخل المباشر في المجالات الجغرافية الوعرة كمناطقة سوس والجبال، التي شهدت بين الفينة والأخرى عدة تمردات عبرت عن هشاشة الأوضاع الأمنية بها؛ فالمجهول البرتغالي أشار إلى عصيان سكان الأطلس الكبير، وممارستهم لقطع السبل، حتى على امتداد طريق المخزن بين فاس ومراكش، وهو ما أكدته المصادر الإنجليزية. وتحدث عبد الله التسافتي عن عدم نجاح المولى إسماعيل في إخضاع بعض قبائل سوس بتارودانت وتافراوت²⁷².

وعلى الرغم من كون الأمر يتعلق بحالات استثنائية، فإنه يدل على أن بعض السكان استغلوا عزلة مناطقهم للإخلال بالأمن، الذي امتد ليشمل أحيانا جهات مختلفة بما فيها السهول، كما حدث خلال غزو السودان، وثورة الناصر، فقد أفضت عمليات تعبئة الموارد والجنود إلى إحداث فراغ عسكري، استثمرته بعض القبائل في ممارسة النهب والعبث بالطرق²⁷³. ولعل محاولات المولى إسماعيل التكتيف من القصبات، استهدفت بالأساس تشديد المراقبة على السكان لتفادي تكرار مثل تلك الحالات. كما أن لجوء السلطانين إما إلى تجريد القبائل من الخيل والسلاح، أو إلى نقلها من مواطن لأخرى، لا يمكن فهمه إلا في هذا السياق. والأكثر من ذلك أن صرامة الإجراءات الأمنية دفعت المخزن إلى ممارسة الضغط على

²⁷² تعرضت محلة أم المنصور عند عودتها من زيارة صلحاء فاس، لهجوم قبيلة آيت واستر قرب تادلة، راجع: محمد ابن العياشي، ن.م، ص. 1؛ مجهول برتغالي، ن.م، ص ص. 37-38، 41. ثم شكوى بعض الموكلين الإنجليز سنة 1598م، بخصوص السرقة التي تعرضوا لها بين مراكش وسوس:

S.I.H.M, 1^{re} série, Ang., t. II, p. 134.

كما سجلت سنوات 1599-1600-1602م عدة أحداث قطع الطريق بالوحدات، انظر: A.-G.-P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine...*, op. cit., p. 40.

وعن فترة المولى إسماعيل، راجع: عبد الله التسافتي، ن.م، ص ص. 151، 230-231.

²⁷³ أنظر ملاحظات المجهول الإسباني حول حملة السودان:

H. de Castries, « La conquête du Soudan par el Mansour (1591) », in *Hespéris*, n° III, 1923, p. 457.

وبخصوص انعكاسات ثورة الناصر على الأوضاع الأمنية، راجع: الإفرائي، ن.م، ص. 101.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 236.

القبائل المخلة بالنظام، من خلال عزلها عن مراعيها ومزارعها وأسواقها²⁷⁴.

ولم يكن الإخلال بالأمن حكرا على جماعة دون أخرى، بقدر ما ارتبط بمدى الاستفادة من الامتيازات الممنوحة من قبل المخزن، فكلما انعدمت إلا وظهر نزوع نحو البحث عنها، فيتم التعبير عن وضعية عدم الرضا بواسطة إضرام نار الفتنة، لذا فإن الجماعات التي اعتادت التمتع بحيز أوسع من حرية التسيير الذاتي لشؤونها، وقبلت على مضض سياسات السلطانين لإخضاعها، ظلت تتحين أية مناسبة للعودة إلى وضعها السابق. وهو ما يجعلنا نلاحظ أن إستراتيجية أحمد المنصور والمولى إسماعيل الهادفة إلى تحقيق مراقبة شاملة لأطراف البلاد، كانت ربما أقل مردودية، بالنظر إلى اعتمادها في إقرار الأمن على بعض القبائل المؤطرة بجيش محترف، مقابل إقصاء أخرى، مما أسفر عن ربط الأوضاع الأمنية بشخصيتهما، إلى حرجة أنه حينما ألم المرض بهما فزع الناس لذلك فزعا كبيرا، وتخوفوا من الفتنة التي تنجم عن وفاتهما، حسب رواية الإخباريين²⁷⁵.

وهذا موقف بالغ الدلالة على مدى إيمان السكان، أو على الأقل النخب المعبرة عنهم، بأن للرجعية الأمنية كامنة في المؤسسة السلطانية، أي في المخزن المركزي بأبعاده المادية والرمزية، وليس في الأجهزة التي تمثل على الصعيد المحلي. ولا أدل على ذلك من كون معظم القضايا الأمنية، لا يتم حلها إلا بواسطة الحركات السلطانية، التي تقضي إلى نتائج مؤقتة، وترسخ لدى السكان المستهدفين فكرة قصور البنيات المخزنية الموجودة بين أحضانهم عن الحفاظ على الأمن، لذلك لم يترددوا في جعلها من أولى ضحاياهم بعد وفاة السلطانين. بل الأبعد من ذلك أن سيادة الأمن برزوع البلاد ظل رهينا بروؤية السلطان، لأن غيابه يثير الشكوك، ويخلق البلبلة؛ فالظنون حامت والأقوال كثرت حول أسباب ملازمة المولى إسماعيل العاصمة مكناس لمدة طويلة، مما اضطره، لما بلغه ذلك، لتجهيز حركته. كما نتج عن انتشار خير مرضه الشديد حدوث الفوضى في محلة ابنه أحمد الذهبي، الذي لم يتمكن من إخمادها إلا بعد أن تمت قراءة الرسالة التي توصل بها من مكناس جماعة وفرادى، ليطمئن الناس.

²⁷⁴ حمل ابن القاضي والزباني والمجهول البرتغالي، المسؤولية في انعدام الأمن إلى القبائل الأمازيغية، في حين مال كل من الفشتالي وشالدانيا إلى إصاقها بالقبائل العربية. انظر: أحمد ابن القاضي، ن.م، ص. 849؛ أبو القاسم الزباني، ن.م، ص. 216؛ مجهول برتغالي، ن.م، ص. 37.

A. de Saldanha..., *op. cit.*, p. 236.

²⁷⁵ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 53؛ محمد القادري، *التقاط الدر...*، م.س.ذ.، ص. 333-334. لما مرض السلطان أظهر الناس قلقهم مما سيؤول إليه أمر البلاد، لكنه حينما شفي، فرحوا أشد الفرح بذلك»، أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 175-176.

والهدف نفسه سعى إليه من قبل أحمد المنصور من خلال القراءة العلنية لرسالة ابنه مولاي محمد الشيخ المامون، التي يخبره فيها بانطلاق حملته ضداً على الناصر، حتى لا يمنح الفرصة للقبائل العربية التي كانت في حالة فوران، مستغلة ثورة هذا الأمير لقطع الطرقات²⁷⁶.

مما سبق، نستخلص أن الحضور المادي بوظائفه المختلفة بقي مجسداً في شخص السلطان، الذي كان يختزل القوة العسكرية والإدارية للمخزن، ويؤمن استمرارية سلطته وسط القبائل والمدن، وهو وضع يدل على مدى تمتع المؤسسة السلطانية بنفوذ رمزي لافت، تغلغل إشعاعه في طبقات الأجهزة التي تمثله على الصعيدين الجهوي والمحلي، فأضفى عليها في عهدي أحمد المنصور والمولى إسماعيل هبة وعظمة كبيرتين، أكدت حجم الترابط العضوي بين الشق المادي والشق الرمزي للممارسات المخزنية، التي لا يمكن تناولها أو الوقوف عند طبيعتها بمعزل عن فك الآليات المتحركة في هذا الترابط. فما هي الأشكال التي اتخذها الحضور الرمزي للمخزن إبان عهدي حكم السلطانين؟

²⁷⁶ أحمد بن الحاج، ن.م، ج. 7، ص ص. 341-361.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 210.

ساد الوضع نفسه بالإمبراطورية العثمانية، إذ كان خير تعبير عن تمتع السلطان بصحة جيدة هو ظهوره علانية على ظهر فرسه وترأسه لجيشه في جبهات القتال. ففي سنة 1623 حامت الشكوك حول غياب السلطان مصطفى. كما اضطر محمود الأول، بالرغم من عجزه عن ركوب فرسه، إلى حضور صلاة الجمعة بمسجد الآغا، ومات خلال عودته بأحد أبواب قصره. وعادة ما كان يتم اللجوء إلى إخفاء خطورة المرض الذي كان يعاني منه السلطان. والأمثلة في هذا الباب كثيرة، راجع:

N. Vatin & G. Veinstein, *Le sérail ébranlé : essai sur les morts, dépositions et avènements des sultans ottomans (XIV^e-XIX^e siècle)*, Fayard, 2003, pp. 30-4.

الفصل الثالث

أشكال الحضور الرمزي للمخزن

تحتضن الرمزية في ذاتها حمولة قوية ليس فقط على المستوى السياسي، ولكن أيضا من حيث المضمون الفكري والعملي؛ لأننا لا نعبر بواسطة الرموز عن مفهوم الدولة وأجهزتها وعن مختلف الشخصيات البارزة فحسب، وإنما نتجاوز ذلك لنعبر عن القوة المحركة التي تسيطر على المؤسسات، والجماعات، والفئات الاجتماعية، والأفراد. إذن لفهم الآليات المتحركة التي تحكم الأحداث الإنسانية، فلا بد من تفكيك الدلالة الرمزية التي تنبعث منها؛ لأن الرمز يتحد مع ذات الشيء الرموز إليه، ويكون إلى جانب ما هو خيالي وواقعي بنيته، إذ ينطبق على أي شيء يمثل علامة تربط بينه وبين موضوعه². وهو ما عبر عنه فيستيل دو كولانج Fustel de Coulanges، بكون كل مؤسسة تخفي نظام أفكار تعبر عنه رموزها التي تنتشر في أبعادها المقدسة، وفي ممارساتها السياسية التي تدخل كنسيج قوي ومتماسك³.

وهكذا لا يمكن تناول الحضور المادي لحكم معين في غياب رموزه، التي تعتبر من مستلزمات وجوده، والحفاظ على استمراريته؛ لأن الجبروت وحده لا يخول الزعامة الكاملة، مادام يمكنه ممارسة قوة الإكراه وليس الإقناع⁴، الذي لا يتم تحقيقه إلا بالسلطة الرمزية التي تملك القدرة على إنتاج أشكال تعبيرية، تظاهري في قوتها ونجاعتها نظيراتها المادية، وتسعى إلى تبرير سلوكات النظام السائد، وإلى إيجاد حدود ومراتب جديدة أو إعادة إحياء الموروث منها، حتى تتمكن من امتلاك القدرة على تعبئة القوى الاجتماعية التي

¹ G. Pistarino, « Les symboles de Gênes dans les établissements d'Outre-mer », in M. Balard et A. Ducellier (dir.), *Coloniser au Moyen Âge*, Paris, Armand Colin, 1995, p. 299.

² كاترين ب. كليمان، « الخيالي، الرمزي، الواقعي »، مجلة بيت الحكمة، ع. 8، نونبر 1988، ص ص. 22، 25؛ ترنس هوكس، « مدخل إلى السيمياء »، تعريب مصطفى كمال، مجلة بيت الحكمة، ع. 5، أبريل 1987، ص ص. 110-111. Selon C. Lévi-Strauss « c'est le symbolique qui domine l'imaginaire » ; « Les symboles sont plus réels que ce qu'ils symbolisent ». Voir : M. Godelier, *L'énigme du don*, Paris, Fayard, 1996, pp. 39-40.

³ B. Barret-Kriegel, « l'Etat aux XVII^e et XVIII^e siècles, l'impossible réformation des codes », in *Réflexions idéologiques sur l'Etat, aspect de la pensée politique ...*, op. cit., p. 23.

⁴ C. Demaizière, « Puissance/Pouvoir... », op. cit., pp.93-4.

⁵ سير بورديو، الرمز والسلطة، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، الطبعة الثانية، 1990،

تخضع لها واحتوائها، أو على الأقل التفوق عليها.

وبما أن الرمزية باعتبارها شكلاً من أشكال تظهر السلطة أضحت علامة إيحائية، بحيث لا يتم الاعتراف بهيبة الدولة وبحكمها وبماهيتها وبتصوراتها إلا من منظور رمزي، فإنه من اللازم التذكير بأن الأمر يتعلق بمظاهر ثابتة، وأخرى متغيرة في الزمن، وأن ما بين الرموز المختلفة يوجد تدرج وحدود مضبوطة، تتباين حسب أذهان السكان والوضعيات الاجتماعية التي يحيون في ظلها. وانطلاقاً من ذلك، يتم التمييز بين سلطة رمزية مرئية ملموسة، وأخرى لا مرئية مجردة، ترتبط ممارستها بمدى خضوع المحكومين لها، وبدرجة تسليمهم بمشروعيتها⁶.

لقد وظف المخزن المغربي خلال العصر الحديث رموزاً مختلفة، تجسدت في مظاهر الاحتفالية والبروتوكول، وفي مواكب التنقل السلطانية، وفي البناء والترميم. وظلت جميعها مؤطرة بنسق الثقافة الإسلامية، وبخاصية البركة التي يستمدّها السلطان من نسبه الشريف. فما هي السمات المميزة لهذه الأشكال الرمزية التي تبناها السلطانان أحمد المنصور والمولى إسماعيل، لإظهار سلطة المخزن وعلامات حكمه في المجال المغربي؟ وإلى أي حد يمكن الحديث عن مساهمتها في ترسيخ مشروعيتها؟ وما هي أوجه الشبه والاختلاف بينهما؟

الاحتفالية والبروتوكول

تعتبر المراسيم والطقوس الاحتفالية ظاهرة ملازمة للسلوك الإنساني، الذي يحقق من خلالها حاجياته ورغباته، غير أن العوامل المتحركة في تفسيرها تراوحت بين اعتبارها فعلاً مقدساً أفرزته الأسطورة، وأضفت عليه طابع مؤسسة تقوم بإعادة إنتاجه على حد تعبير M. Vander Leeuw، وبين طرح مؤداه أن الطقوس الاحتفالية سابق كرونولوجياً للأسطورة، وأن هذه ما هي إلا تفسير له⁷. وإذا كان هذان التصوران متباينين، فإنهما يتقاطعان على الأقل

ص ص. 52، 55، 60.

C. Geertz, « Centres, rois et charisme : réflexions sur les symboliques du pouvoir », in *Savoir local, savoir global : les lieux du savoir*, trad. D. Paulme, P.U.F., 1986, pp. 156-7. Voir également, M. Senellart, *Les arts de gouverner...*, op. cit., pp. 15, 55.

⁶ بير بورديو، ن.م، ص ص. 52، 67، راجع أيضاً:

M. Senellart, *Les arts de gouverner...*, op. cit., p. 280.

⁷ J. Chelhod, *Les structures du sacré chez les Arabes*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1964, p. 119.

في الربط بين الدلالة العميقة للاحتفالية، وبين البنيات الاجتماعية والدينية، في علاقتها مع الوسط الجغرافي الذي توجد فيه. فالطقوس تساهم في تكريس الشرعية، وفي لعب دور أداة السلطة، « ولا يمارس الحكم على الأشخاص أو الأشياء دون اللجوء إلى الإكراه المشرع، وإلى أدوات رمزية، وإلى المخيال » حسب جورج بلانديي G. Balandier. ومن هنا يلاحظ أن الاحتفالية تحمل في طياتها عدة أبعاد اجتماعية ونفسية ورمزية⁸، يؤكد هذا التداخل الحاصل بين وظائف الخيالي والرمزي و« الواقعي »⁹. وسنقتصر على تناولها من المنظور المخزني عبر البحث في أشكالها، وفي مدى نجاح المخزن في توظيف تلك الأبعاد لخدمة أهدافه السياسية. فما هي الآليات الاحتفالية التي راهن عليها المخزن في عهدي السلطانين لإقرار سلطته الرمزية وترسيخها؟

الأعياد الدينية

يمكن التمييز داخل الاحتفال بين ما هو رسمي عادي أو استثنائي، يومي وأسبوعي وسنوي، إذ كانت كل الممارسات المخزنية المركزية منها أو الجهوية أو المحلية، تتم وفق أنساق تنظيمية معينة تعبر عن تميزها وتفردها وأبهتها.

ومثل الاحتفال بالأعياد الدينية، أبرز اللحظات التي كان المخزن يعمد فيها إلى إظهار سلطته الرمزية أمام رعاياه، إذ حرص دوماً على استثمارها طقوساً، من خلال إحاطتها بمختلف المظاهر التي تجمع بين التعالي والبساطة، بين الهيبة والتواضع، بين الديني والسياسي، وبين الفضاء الخاص للسلطان، والفضاء الجماعي الذي يمثلته عامة الناس.

وتقدم لنا المصادر أوصافاً لطريقة الاحتفال بعيدي الفطر والأضحى؛ فبعدما يحيي السلطان ليالي رمضان بحضور نخبة من أهل العلم، الذين يحدثون ويسردون صحيح البخاري بين يديه، يستقبل عيد الفطر بخروجه في موكب رسمي ينطلق من القصر، ويمر وسط جموع الرعايا ليصل إلى المصلى، حيث يؤدي صلاة العيد بحضور أنبائه وكبار رجال

⁸ G. Balandier, *Le détour : pouvoir et modernité*, Paris, Fayard, 1985, p. 24 ; G. Balandier, *L'anthropologie ...*, op. cit., p. 137.

محمد شقير، « إبياليات الشرعة السياسية: النظام السياسي المغربي كنموذج »، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، ع. 4، خريف 1987، ص. 81. انظر أيضاً:

D. Handelman, « Rituels et spectacles », in *Revue internationale des sciences sociales*, n° 153, septembre 1953, pp. 423-7.

⁹ M. Godelier, *L'Etat...*, op. cit., p. 42.

الحاشية، الذين يقدمون له التهانى. ويتكرر المشهد نفسه خلال عيد الأضحى، ليتوج بنحر السلطان للأضحى، التي يتم حملها بسرعة إلى قصره وهي لازالت تحتضر¹⁰.

والملاحظ، أن الحدثين الدينين شكلا مناسبة لبروز السلطان أمام الرعية، بأبهته وعظمتها التي يستعيد بواسطة قوتها الرمزية ماضي الأسلاف، ويجدد مشروعيته أمام الرعايا الذين تتاح لهم الفرصة لرؤيته، على طول المسار الذي يخترقه موكبه، للاتصال به في فضاء المصلى، وإن كان هذا الاتصال لا يعني بالضرورة اختلاطا مباشرا بين الطرفين، بدليل أن الوفد السلطاني حافظ، ولو بدرجة أقل، على المسافة التي تفصله عن الرعية. فالمولى إسماعيل كان يصلي تحت سرادق يقام له في ساحة المصلى إبان عيد الفطر، وأحمد المنصور كان يقطع الطريق المؤدية من وإلى قصره يوم العيد ليصلي، فيتم الحفاظ على التراتبية المعتادة¹¹. وقد أثارت مسألة نحر السلطان لأضحى العيد أمام الملأ عدة تأويلات، خاصة ما يرتبط منها بحرص المخزن الدائم على إيصالها إلى القصر وهي لازالت تحتضر؛ فالأسيرة الهولندية ماريا تيرمتلن Maria Ter Meetelen، والأسير جوزيف دوليون Joseph De Léon، اعتبرا ذلك من المؤشرات الدالة في قاموس البلاط على أن السنة ستكون جيدة، وأن الخير والأمن سيعمان الجميع. في حين رأت جوسلين داخلها J. Dakhliia في تلك الممارسة، إما محاولة سلطانية لاستكمال إظهار الشرعية في النحر، الذي ينطلق وينتهي بالقصر، أو رغبة للربط بين الفضاء الخارجي الذي تم فيه النحر وبين القصر¹². والظاهر أن المؤسسة السلطانية ربما كانت تسعى، من خلال هذه الممارسة إلى إشراك عامة الناس في عملية النحر، عبر رؤية الأضحى من قبل أولئك الذين لم يتمكنوا من اقتنائها، وقد تطولهم صدقات البلاط، وهو ما يضيف على هذه المراسيم بعدا رمزيا، يظهر فيه السلطان وكأنه يمارسها باسم البنية الاجتماعية ونيابة عنها، مما يساعده على تدعيم نفوذه في ثناياها، باعتباره مصدرا لكل طقس ديني ولكل عطاء مادي يرتبط به.

وبخلاف عيدي الفطر والأضحى، اتسم الاحتفال بإحياء ذكرى المولد النبوي الشريف

¹⁰ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 202؛ جون وندوس، ن.م، ص. 99-100؛ ماريا تيرمتلن، قصة الهولندية الأسيرة ماريا تيرمتلن Maria Ter Meetelen الأسيرة التي عاشت بمكناس العاصمة في النصف الأول من القرن 18، ترجمة ودراسة وتحقيق إدريس أبو إدريس، المحمدية، مطبعة فضالة، 1996، ص. 53. انظر أيضا،

Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 32.

¹¹ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 203؛ جون وندوس، ن.م، ص. 99.

¹² ماريا تيرمتلن، ن.م، ص. 53. ثم راجع:

J. Dakhliia, *Le divan des rois...*, p. 271 ; Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 32.

مكوث السلطان بقصره، وبانطلاق استعراض موكب الشموع في أحياء العاصمة، حيث يمر وسط جموع الناس المصطفين على جنبات الطريق، وتحت نغمات الموسيقى، وأصوات التكبير. وتنتهي مسيرة هذا الموكب بالدخول إلى القصر وتندفق جموع من الحزابين ومقرئي المولديات، ومن الشعراء الذين يتبارون في عرض قصائدهم، قبل أن تقدم لهم مختلف صنوف الأطعمة الفاخرة، التي يشارك السلطان في تناولها إلى جانب الأشراف، والفقهاء، والقضاة، والعلماء، وكبار رجال الدولة، ثم تقدم بعد ذلك إلى باقي الحضور من أهل الذكر والإنشاد، فيختم الحفل بالدعاء والشكر لله، ليؤذن بعد ذلك للمساكين والمحتاجين بالتهام ما تبقى من فضلات الطعام¹³.

ومن خلال قراءة هذا الوصف الدقيق للاحتفال الذي قدمه الفشتالي وغيره من الإخباريين، نلاحظ أن حرص السلطان على تنظيمه داخل القصر، ينم عن رغبة أكيدة في إظهار أبعده المستمدة من نسبه الشريف وتأكيدهما، وجعل إحياء هذا الحدث بأبعاده الرسمية والعلمية حكرا على البيت السلطاني، الذي يتمتع بأحقية وأولوية تقبل التهاني وتبادلها مع الأشراف، احتفاء بذكرى ميلاد جدهم الرسول صلى الله عليه وسلم. وهي محاولة لا تخرج على ما يبدو، عن إستراتيجية المخزن السلطاني القائمة على التميز والتفرد، بامتلاك أي رمز ديني من شأنه تحقيق إشعاع، إن على مستوى المجال المغربي برمته، أو على صعيد علاقته مع القوى الدينية المنافسة، وهو الأمر الذي يجد تبريره في إقدام السلطان على توزيع الأعطيات على الشرفاء خلال شهر شعبان، أو قبل يوم أو يومين من حلول عيد المولد استعداداً للاحتفال، من خلال اقتناء أنواع الأطعمة والألبسة والعطور والبخور¹⁴. ويجسد هذا الموقف كيفية استثمار المخزن السلطاني هذه المناسبة، في ممارسة الوصاية المادية والأخلاقية على فئة الشرفاء بهدف احتوائها، كما سنرى لاحقا.

نستنتج من صور الاستعارة التي استخدمتها الإسطوغرافية في وصف هذا الحدث، من قبيل تشبيه الفشتالي لمسيرة الموكب بالزفاف، وللشموع بالعرائس أو بالمنارة حسب المقرئ، وللمساكين بالحجيج، عدة دلالات تتجاوز المهارة اللغوية البليغة لتكشف عن الأبعاد

¹³ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص.ص. 236، 251؛ أحمد ابن القاضي، ن.م، ص.ص. 367، 379؛ أحمد المقرئ، **روضة الآس...**، م.س.ذ.، ص. 13. وعن درجات حضور الأبعاد الدينية في الطعام بالمجتمع الإسلامي، راجع:

M. Hocine Benkheira, *Islam et interdits alimentaires : juguler l'animalité*, Paris, PUF, 2000, p. 49.

¹⁴ أحمد ابن القاضي، ن.م، ص. 379.

الرمزية، التي كانت تحملها هذه المناسبة في ذواكر صانعي الخطاب الإخباري الرسمي. وقد أولت داخلها استعارة الزفاف التي وظفت للتعبير عن الطقس الاحتفالي، برغبة الكاتب في جعل الذكرى فرصة لتحقيق وحدة زيجية بين السلطان والرعايا، بدل الاحتفال بنسبه، يعبر فيها ضوء الشموع عن القدسية، وعن مراسيم الزواج¹⁵. لكن الراجح، أن الفشتالي حاول أيضا من خلال هذا التقابل، أن يربط بين طقس الزواج، الذي يعبر عن الاستمرارية الاجتماعية، ويرمز لإعادة الحيوية السياسية لركائز التأسيس¹⁶، التي يجدد من خلالها الرعايا سنويا المشروعية للسلطان، وبين العذارى التي تحل محل الشموع رمزاً للطهارة والنور، إذ عبرت الشموع دوماً في الثقافة الإسلامية عن النور الذي رافق الرسالة السماوية، التي وجهت للبشرية لإخراجها من الظلمات. غير أن تحول تلك الشموع، إلى مآذن ومنازل تصعد في السماء بعد وضعها أمام القبة، يحمل في طياته تعبيراً عن المجال الذي تستمد منه السلطة السلطانية، مادامت القبة التي تعلو مجلس السلطان تحتفظ بقيمة رمزية مرتبطة بعلو شخصه. وبالمثل يمكن تناول إضفاء صورة الحجيج على المحتاجين الذين كانوا ينتظرون أبواب القصر للتبرك بما تبقى من فضلات الطعام، إذ يعكس ذلك استعارة تقابل على المستوى الأفقي مجازيا بين الأماكن المقدسة، وبين قصر السلطان، الذي يتيح الفرصة للفئات الاجتماعية المحرومة، لممارسة شعيرة من شعائر ما يعرف بحج المسكين. وبالرغم من مشاركة فئات اجتماعية مختلفة في الحفل على مرأى ومسمع أحمد المنصور، فإن المراسيم التنظيمية حوفظ فيها على التراتبية نفسها الموجودة خارج أسوار القصر، وتجلى ذلك بشكل واضح في طريقة تقديم الأكل، كما بدا السلطان وكأنه اندمج عاطفياً ووجدانياً¹⁷، في جو احتفالي عائلي مع المدعوين، من خلال تذويب مؤقت للمسافة التي تفصل بينه وبين باقي الفئات الاجتماعية، إذ لاحظ الفشتالي وهو يتنابه الضحك، جراء مشاهدته « لأهل الذكر

¹⁵ نلاحظ أن عبد العزيز الفشتالي قابل أيضاً بين شفاء المنصور من علته، وبين بروز العذارى من وراء الستور، مناهل الصفا...، م.س.ذ.، ص. 54.

J. Dakhliia, « Une légitimité « flottante » fête du sacrifice et Mawlid au Maghreb et dans l'empire Ottoman », in A. El Moudden, *Le Maghreb à l'époque Ottoman*, Rabat, Faculté des lettres, 1995, p. 27. Voir aussi du même auteur, *Le divan des rois...*, op. cit., p. 277.

¹⁶ محمد شقير، « إيوالات... » ص. 82-83.

G. Balandier, op. cit., p. 133.

Voir aussi ; R. Bourqia, « Don et théâtralité, réflexion sur le rituel du don (hadiya) offert au sultan au XIX siècle », in *Héspéris-Tamuda*, vol 31, fasc. unique, 1993, p. 68.

¹⁷ محمد شقير، ن.م، ص. 84.

والإنشاد ولقيف أهل البلد»¹⁸، وهم يتهافون على الطعام.

ولا تقتصر هذه الاحتفالية على ليلة المولد النبوي، بل تحمل الشموع نفسها إلى ضريح والد السلطان في اليوم السابع، حيث تتكرر عملية الإنشاد والذكر نهارا بحضور السلطان وأولاده، وليلا بالقصر¹⁹. ويترجم هذا الطقس من جهة، محاولة لربط الحاضر بالماضي بهدف إثبات الاستمرارية التي يؤكد بها وجود أبناء السلطان، الذين سيحمل أحدهم المشعل فيما بعد، ويعبر من جهة أخرى، أسبقية الأحياء على الأموات، إذ تم الحفل الأول بالبلاط والثاني بالضريح. وما يركي هذا الربط كون أحمد المنصور دأب على أداء صلاة الجمعة أحيانا بمسجد يعقوب المنصور الموحد، وأخرى بضريح والده²⁰.

وإذا كانت الإسطوغرافية قد أولت متابعة دقيقة، لأساليب الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف خلال عهد أحمد المنصور، فإنها أحجمت عن ذلك في ما يتعلق بمرحلة حكم المولى إسماعيل، وإن كانت هناك إشارات إلى إحياء هذه الذكرى²¹. وهو أمر يثير أكثر من تساؤل، إذ ظهر السلطان السعدي في صورة من يبالغ في تعظيم هذا الحدث، ويكرسه بكل الوسائل المتاحة، متخذاً إياه أداة من بين أدوات أخرى، للكشف عن سلطته الرمزية. ترى لذلك علاقة بالشكوك التي أثبتت حول نسب السعديين، أم بالخصوصية التي طبعت روابط السلطان بالعلماء مقارنة مع المولى إسماعيل؟

يظن هذا التعظيم بما لا يدع سبيلا للشك، نية سلطانية في إبراز الأبهة المستوحاة من النسب الشريف، بل وتضخيمها لمواجهة الخصوم، ولتدعيم المشروع. غير أن هذا السلوك يمكن قراءته من زاوية أخرى، باعتباره تعبيراً أيضاً عن شكل من أشكال النقص، ومظهراً من مظاهر القصور التي اعترت الحكم السلطاني، وحاول تجاوزها²². ففي الوقت الذي نسلم فيه بأن السلطانين سعياً معاً من وراء تخليد المولد النبوي إلى استثماره في إثبات أحقيتهما في الخلافة أمام العثمانيين، نلاحظ أن الاهتمام الكبير بهذا الحدث من قبل أحمد المنصور، ارتبط بما عاينه من طقوس احتفالية أخرى خلال إقامته بإسطنبول، فحاول الاقتداء بها وتوظيفها

¹⁸ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 251.

¹⁹ أحمد المقرئ، ن.م، ص. 14.

²⁰ أحمد ابن القاضي، ن.م، ص. 353؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 206.

²¹ Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 32.

²² J. Dakhliia, *Le divan des rois...*, op. cit., p. 268.

من جهة، في إظهار تفوقه الرمزي على العثمانيين الذين لم يشرعوا في تخليد هذه الذكرى إلا سنة 1588م²³، ومن جهة أخرى، في سحب البساط من تحت أقدام الزوايا، التي اعتادت استغلال هذه المناسبة لمنافسة المخزن كما سنين فيما بعد.

أما المولى إسماعيل الذي تزامن حكمه مع تراجع النفوذ التركي، فانتقل على ما يبدو، من مرحلة التعبير غير المباشر عن ذلك التفوق، بواسطة تعظيم الحدث كما راهن على ذلك سلفه، إلى مرحلة التعبير العلني عن عدم شرعية الخلافة العثمانية. بل إن توثيق صلاته مع علماء الحرم الشريف وصلحاته وتكثيف الأعطيات لهم²⁴، أكثر من أحمد المنصور، لا يمكن فهمه إلا في هذا السياق. وهي إشارات ربما كافية لفهم عدم إقدام هذا السلطان على تضخيم الاحتفال بهذه المناسبة، وتركيز اهتمامه على عيد الأضحى مثلاً، الذي كان يخلده بأبهة كبيرة²⁵. ولعل هذا الأمر هو الذي جعل جاك بيرك J. Berque يخلص إلى كون أحمد المنصور أجبر على احتواء الأدوار السياسية للقوى الدينية من خلال الحد من دور الزوايا، وعبر تحويل حماس السكان إلى الاحتفالات الرسمية²⁶، بينما لم يضطر المولى إسماعيل لذلك لأنه حكم اعتماداً على هيبة الدولة، وليس على الهيبة الدينية.

سلطة الكرم

ولتوسيع قاعدة الأبعاد الرمزية للاحتفالات المخزنية، رام السلطانان إلى ربطها بظاهرة الكرم، التي شكلت طقساً ملازماً لكل حفل رسمي نظم تحت إشرافهما؛ فلم يتقاعس أحمد المنصور عن تضخيم وسائل إكرام ضيوفه إبان المناسبات الدينية كليلة عيد المولد، من خلال تقديم مختلف ألوان الأطعمة، وتوزيع الخلع الشريفة، والذهب والفضة، والجوائز إبان اليوم السابع منه، حتى يتخيل للحاضرين أنهم في جنة النعيم²⁷. واستغل ختم شهر رمضان لإخراج

²³ Ibid, p. 276.

²⁴ عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م.س.ذ.، ص 88، 388. وورد في رسالة من المولى إسماعيل إلى محمد بن عبد القادر الفاسي بتاريخ 22-01-1693 بأن «الترك عاجزون عن الدفاع عن أنفسهم»، M. El Fasi, « Biographie de Moulay Ismail », op. cit., p. 44.

²⁵ Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 32.

²⁶ J. Berque, *Ulémas...*, op. cit., p. 241.

²⁷ أحمد المقرئ، ن.م، ص. 14؛ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 146-147؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 229، 251؛ أحمد بن القاضي، ن.م، ص. 379.

صدقات الأموال، ويوم عاشوراء لختان أطفال المحتاجين بالعاصمة ونواحيها، وتوزيع قطع الكتان، وأكياس الدراهم، وحصص من لحم البقر، وزمن المجاعة لتفريق الطعام²⁸. ومارس المولى إسماعيل السلوك نفسه، إذ كان يقدم إعانات وألبسة للفئات المحتاجة في الأعياد والمواسم. وحين تحتاج الناس القحوط، يفتح مخازن القمح، ويفرق الأموال والأطعمة والكسوة. وكانت جلسات ختم التفسير تنتهي بإكرام الفقهاء والعلماء بدار السلطان²⁹. فما هي الأسباب الكامنة وراء تدخل الاحتفالية السلطانية بظاهرة الكرم؟ أيتعلق الأمر بإستراتيجية مخزنية محكمة، أم أنه سلوك يدخل في إطار منظومة العطاء والصدقة، باعتبارها من واجبات المؤمن المוסر في الإسلام؟

إن التلازم العضوي القائم بين تخليد المناسبات وبين تلك المنظومة، يبرز أن الكرم وظف بصفته سلطة مادية في أبعادها الرمزية والسياسية، التي لا تنفصل عن تكريس فكرة مؤداها أن السلطان مثل مصدرا مختلف أشكال العطاء، التي سهر على توزيعها وفقا لرويته الخاصة، وتبعا لضوابط اتخذت من الأحداث الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الشخصية مرجعية لها.

شكلت الأعياد الدينية الثلاثة فرصا مواتية لممارسة الجود السلطاني، الذي امتد ليشمل بعض المناسبات السياسية، من قبيل إقدام أحمد المنصور على إطعام الناس عدة أيام عقب فتح السودان، وبعد دخوله لفاس ونجاحه في سجن ولي عهده محمد الشيخ المامون، إذ أصدر أوامره بتوزيع الصدقات؛ لأنه «ظفر بولده من غير قتال»³⁰، حسب عبارة المجهول السعدي. كما قام المولى إسماعيل بإكرام الفقهاء، والمبالغة في الإحسان إليهم بعد أن استحسن جوابا توصل به من علماء فاس³¹.

²⁸ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 252. لمزيد من التفاصيل حول هبات المخزن، راجع:

M. Jadour, « Le don du makhzen : acte de générosité ou aspect de subordination », in Kh. Saadani, *Le don au Maghreb et dans les mondes occidentaux*, Université Hassan II, Mohammedia-Casablanca, 2008, pp. 63-8.

²⁹ محمد القادري، نشر الثاني... م.س.ذ.، ج. 2، ص. 357؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. 390؛ محمد الضعيف، تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق أحمد العماري، الرباط، دار المآثورات، الطبعة الأولى، 1986، ص. 70، 97.

³⁰ المجهول السعدي، ن.م، ص. 74.

³¹ عبد الرحمن ابن زيدان، ن.م، ص. 79؛ أحمد الناصري، ن.م، ج. 5، ص. 124. اعتبر السخاء تجاه الخدام والمقربين والراعايا، وحتى تجاه المبعوثين الأجانب، من السمات المميزة للسلطان العثماني، التي جعلته محبا وملتزما بمبادئ الدين الحنيف وثقافة الجود. روبر ماتران، ن.م، ص. 253-254.

وأُسفرت الأزمات الطارئة على المجتمع والاقتصاد، والناجمة عن المجاعات والغلاء، عن تدفق عطاءات السلطانين، بل إن دائرة هذه العطاءات اتسعت لتعقب شفاءهما من علل أصابتهما، فالخلع والأموال الكثيرة تدفقت كالسيل من مجلس أحمد المنصور بعد أن تداركه الله من وعكة صحية. وأمر المولى إسماعيل بعد مرضه سنة 1706م باحتفاظ كل منطقة بخراجها، وتوزيعه على الأعيان والمحتاجين، وبعد شفائه بتقديم العطايا للأشراف³². والملاحظ أن السلطانين حرصا على الربط بين أي اجتماع رسمي بقصريهما، وبين المبالغة في إطعام الحضور خاصة من العلماء، إذ أشار الفشتالي إلى أن أحمد المنصور كان يطعم بيده العلماء على شاكلة الأمراء وأهل القرابة، والملاحظة نفسها أثارها القادري حول حفل نظمه المولى إسماعيل بقصره.

وهكذا نستنتج أن المخزن مارس سلطة الكرم في مواقف محددة، ارتبطت إما بالمناسبات الدينية الرسمية التي مثلت أفراحا استغلها للاستحضار الرمزي للماضي، ولإعادة إنتاج سلوك السلف الصالح، عبر توزيع الهبات، وإيلاء الحدث ما يستحقه من عناية وتقدير، أو ببعض الشدائد التي اعترضت التدبير السلطاني بمختلف أوجهه، وأضحت تمثل تهديدا مباشرا لاستمراريته، أو حتى أثناء لقاءاته مع خدامه خلال بعض أيام الأسبوع، فلم يجد بدا من تسخير آليات الجود لتأمين تلك الاستمرارية، ولإضفاء صورة المنقذ على ممارساته كما هو الحال خلال المجاعات. وظهر الكرم السلطاني في حالة ثالثة، تعويضاً عن نكبة تم تجاوزها، ومؤشراً لبداية مرحلة جديدة، وإعادة رمزية لمشروعية يصعب الحفاظ عليها بدونه.

وما يثير الانتباه أن الخطاب الإسطوغرافي الرسمي، حرص على تضخيم هذه المواقف السابقة الذكر بهدف رسم صورة ذات أبعاد مزدوجة، تعكس أولاها صفات أخلاقية تظهر أبوية السلطانين، وهما يحسنان إلى الرعية، ويتكفلان بها من منظور الرأفة والرحمة، طلبا للتوبة والجزاء في الدار الآخرة³³. أما ثانيها فترجم البعد السياسي للكرم باعتباره سلطة

³² عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 53؛ عبد الرحمن ابن زيدان، ن.م، ص. 78؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. 362-363.

³³ وصف عبد العزيز الفشتالي حفل الختان الذي نظمه أحمد المنصور بما يلي: «وعلت أصوات الصبيان... يعلو وجوههم مثار الحاجة، ومذلة الانكسار، فتنبعث الرحمة وترق النفوس ويعظم الخشوع... ويشمل الإحسان... أما لا تحصى... فيحتقب مولانا أمير المؤمنين من مثوبة هذا اليوم المبارك، مما ينقل به موازين أعمال بره يوم الجزاء الموعد... «مناهل الصفا... م.س.ذ.، ص. 252.

وكان المولى إسماعيل حينما يفتح أهراء القمح، يباشر التوزيع بنفسه ليستفيد جميع المحتاجين بعاصمته، حسب ما أورده عبد الرحمن ابن زيدان. وهذه السلوكات تترجم أبعادا رمزية متمثلة في إظهار الطابع الأبوي للسلطانين، وفي

الضمان الولاء، ولتهدة النفوس القادرة على التمرد، ولمجاملة العناصر المؤثرة ولاستقطاب القوى المعارضة، أو على الأقل منافسة الدينية منها. وهي خصلة «تعوّلها الوجوه، وتذل لها الرقاب، وتخضع الجبابرة، وتسترق بها الأحوال، ويستمال بها الأعداء، ويستكثر بها الأولياء، وتحقن بها الدماء، ويحسن بها الشاء، وتملك بها القرباء والبعداء، ويسود بها في غير عشائهم الغرباء»³⁴.

على أن البعد الأول، ظل ظاهراً باعتباره يمثل المرجعية في تحديد الشرعية المخزنية، وفي أعداد رموزها الأكثر تأثيراً³⁵؛ إذ بقيت صورة السلطان تقاس بمدى سخائه، وبدرجة انفتاح مآقده أمام الناس، وهو ما يفسر مراهنه السلطانين في الغالب الأعم، على تنويع الأحداث الدينية، وحتى السياسية، بممارسة الجود. فابن القاضي أشار إلى أن أحمد المنصور كان يخرج الصدقات «ليلة موسم كالعيدين والميلاد النبوي وعاشوراء المحرم، والأشهر الثلاث (كذا) من رجب وشعبان ورمضان، بل في كل وقت من السنة»³⁶. وكان المولى إسماعيل ينظم كل يوم حفلات لختم كتاب معين ينيها بتوزيع الأطعمة والجوائز³⁷. وتبعاً لذلك حرصت الكتيبات الإخبارية على إضفاء الطابع السماوي على سلوك الكرم، عبر توظيف استعارات تم فيها تشبيهه «بالغمامة الموظفين» أي بالمطر الذي يرمز إلى الخير³⁸. إذن فهل حاول المخزن أن يجعل من الكرم خلال المناسبات الدينية، وسيلة لنهج سياسة إعادة التوزيع بهدف تحديد الروابط مع الفئات الاجتماعية؟

من المؤكد أن الأخيرة ظلت تنظر للسلطة السلطانية، باعتباره فضاء لتراكم الثروات ومنبعاً

طلعهما إلى الحصول على الثواب من الله. عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م.س.ذ.، ص. 78، راجع أيضاً: عبد الرحمن المودن، ن.م، ص. 231؛ كمال عبد اللطيف، ن.م، ص. 144، 218، 264.

عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 233. ولمزيد من التفاصيل، راجع: محمد مقر، اللباس المغربي من بداية الدولة المرينية إلى عهد الدولة السعدية، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، طبعة الأولى، 2006، ص. 215. وكان أحمد بن محمد الشاوي «يطعم الطعام في سائر الأيام، ويكثره في المولد النبوي، فيكون عنده مثل الوليمة فرحاً به». وهي ممارسة تقيم الدليل على أن المخزن سعى من خلال سلطة الكرم، حواء الزوايا أو على الأقل منافستها، كما سعى في الفصل اللاحق، راجع: محمد القادري، ن.م، ج. 1، ص. 134-135.

³⁵ G. Balandier, *L'anthropologie...*, op. cit., p. 177.

³⁶ أحمد بن القاضي، ن.م، ص. 346.

³⁷ محمد الإفرائي، روضة التعريف...، م.س.ذ.، ص. 82؛ عبد الرحمن ابن زيدان، ن.م، ص. 78.

³⁸ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 53؛ كمال عبد اللطيف، ن.م، ص. 144.

لا محدود للعطاء، وبالمقابل كان المخزن على وعي بهذه النظرة، لذا لم يتقاعس في تكريس ثقافة مرتبطة بها تقوم على توظيف آلية الكرم في بعدها المادي، بصفتها سلطة رمزية في أي طقس ديني سياسي لإظهار تعاليه من جهة، ولترسيخ حضوره في ثنايا المجتمع، كقوة جاذبة لذوي الحاجة، وكمجال لاغتناء البعض من جهة أخرى. إذ أضحت هذه الآلية « رسماً وعادة يتحيناها »³⁹ الناس تبعاً لوصف الفشتالي، وخاصة بالمدن والعاصمة التي تحتضن النخب الحضرية، وتتجسد فيها التراتبية الاجتماعية بشكل واضح، فيشرف على تنظيمها الثقة من كبار رجال المخزن إن على الصعيد المركزي أو الجهوي، كالأمناء والقضاة وأصحاب المظالم، وتحت مراقبة السلطانين وعيونهما الموثوقة في أطراف البلاد. بل إن المولى إسماعيل، لم يتقاعس عن توزيع الصدقات بنفسه إثر انتشار القحط داخل مكناس، بخلاف أحمد المنصور الذي اقتصر على تكليف بعض خواصه للقيام بذلك حسب حومات مراکش⁴⁰.

وهي ممارسات توحى بأن المخزن الذي حرص دوماً على مراكمة الثروات بواسطة السياسة الضريبية على الخصوص، إنما قام بذلك من أجل تنظيم إعادة توزيع الفائض منها على من يستحقها، ووفقاً لمنطقه الخاص الذي يوظف الدين في خدمة السياسي، ويضفي على الأبعاد المادية للكرم سلطة رمزية مستمدة من بركة السلطان، تربط العطاء المادي وما يخوله من نقلة نوعية، بمدى إظهار المستفيد لشروط الطاعة والولاء⁴¹. واستهدف هذا الموقف بالخصوص ضرب مخيلات الأتباع والخصوم على السواء، لترسيخ صور مضمونها أن أي مكسب مادي، لا يمكن تحقيقه إلا بمباركة ورضى السلطة السلطانية المخولة شرعاً بالتصرف فيما فوضه الله إياها من خيرات، لضمان سقف معين من التكافل الذي يحافظ على توازن البنية الاجتماعية. ومن هنا نفهم لماذا كان السلطان يقدم على تجريد كل شخص من ثروته، كلما شعر بأنه اغتنى خارج دائرة مراقبته.

ولعل هذا التصور المخزني المرتكز على استثمار ورقة الكرم في أي حضور علني ورسمي للسلطان، يترجم، على ما يبدو، إصراراً لجعل هذا الحضور فضاء تتحرك فيه الثروات بأبعادها

³⁹ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 252.

⁴⁰ عبد الرحمن ابن زيدان، ن.م، ص. 78؛ محمد القادري، نشر الماني...، م.س.ذ.، ج. 2، ص. 311.

⁴¹ راجع الفصل الثاني من هذا العمل.

المختلفة⁴²، حيث إن الجود السلطاني اتخذ في الغالب شكل أموال وأطعمة وكسوات سلطانية.

إنها عطاءات حملت في طياتها شحنة رمزية تجاوزت حمولتها المادية، لتدل على أن الظفر بها هو مظهر من مظاهر التبعية، ومؤشر من المؤشرات الداعمة للوجود السياسي للمخزن في أحضان الشرائح الاجتماعية، والذي يظهر كسلطة مانحة للعطف تطعم ضيوفها حسب مراتبهم بوجبات فخمة، وتكسيهم بخلع وأزياء يستحضر باستمرار من يرتديها خلال صلوات الجمعة أو مختلف الحفلات، رمزيتها الدينية المستمدة من طابعها الشريف، ودلالاتها الاجتماعية المستوحاة مما توفره من حظوة وتميز وجاه داخل المجتمع وخاصة تجاه الخصوم، أو كل من يتشكك في عظمة المخزن. وهذا ما يفسر إقدام هذا الأخير على توزيعها في كل المناسبات لتكريس تقليد قوامه، أنه وحده القادر على تجديد رموز التبعية لكل من أثبت ولاءه، ونزعها ممن حاد عن ذلك⁴³. كما أن توزيع القطع الذهبية والفضية، يمكن فهمه في سياق سعى من خلاله المخزن إلى إضفاء صفة رمزية على قاعدته المالية، باعتباره القوة التي تسهر على سك العملة الحاملة لشعاره، وعلى منحها لمن يشاء من رعاياه، وبطريقة أسفرت عن ارتقاء العديد منهم في السلم الاجتماعي⁴⁴، فحرص على أن يقترن الكرم اللحظي المجسد في الطعام، بكرم نقدي يذكر على الدوام بعظمة السلطة السلطانية. ولتأكيد تفوقه، راهن المخزن خلال الاحتفالات التي أقامها بالبلاط، على إبراز كل الشارات الدالة على سموه من أفرشة حريرية وأوانٍ مذهبة وغيرهما، حتى يحمل كل حاضر صورة خيالية عنه مرادفة

⁴² J. Dakhli, *Le divan des rois...*, op. cit., p. 260.

⁴³ استعمل الفشتالي خلال وصفه لكرم السلطان إبان المولد النبوي، عبارة « الخلع الشريف » أو الملابس النبوية، التي تقدم لعلية الناس، بينما وظف في وصفه لحفل الختان، عبارة « هضاب الكتان » التي كانت توزع على ذوي الحاجة. كما انتهت إحدى معارك السلطان المولى إسماعيل مع سكان الأطلس بتوقيع الصلح مع الشيوخ، فتم ذبح جمل وتناول الطعام مع السلطان الذي منح لكل واحد منهم كسوة فاخرة. وأعطى السلطان للفقير عبد السلام جسوس كسوة ومائة مثقال بعد أن ألقى قصيدة بين يديه. وأشار التسافتي إلى أن الباشا عبد الكريم بن منصور التكني كان يوزع المال والكسوة على شيوخ القبائل. وهذه الأمثلة توضح الأسلوب الذي تشبث به المخزن للحفاظ على التراتبية، وتؤكد رمزية اللباس الذي سعى من خلال توزيعه على الوجهاء إلى استمالة المعارضين لسياسته، وهو أمر يترجم أيضا الطابع الأبوي للسلطان، حيث يقوم مقام رب الأسرة، راجع: مناهل الصفا...، م.س.ذ.، ص. 89، 229، 251-252؛ محمد القادري، ن.م.، ج. 2، ص. 357؛ أحمد ابن الحاج، ن.م.، ج. 7، ص. 222، 390؛ عبد الله التسافتي، ن.م.، ص. 66، 96؛ عبد الرحمن ابن زيدان، ن.م.، ص. 78.

⁴⁴ راجع مثلا حالة الطبيب الذي نجح في علاج أحمد المنصور من علة، مما أكسبه ثروة طائلة؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م.، ص. 53؛ أحمد المقرئ، روضة الآس...، م.س.ذ.، ص. 14.

للجنة، فيطمح بعد أن يصاب بالدهشة والذهول، إلى المشاركة في خدمة أعتابه⁴⁵.

مما سبق، نستنتج أن مخزن كل من أحمد المنصور والمولى إسماعيل، حاول بمختلف الوسائل استغلال الاحتفالات العلنية التي تنظم داخل القصر أو خارجه، لإظهار تفرد الذي يتداخل فيه الديني والسياسي بشكل غامض، وهو غموض وإن مثل خاصية أساسية للحكم في رأي جورج بالانديي، فقد أبطن مظاهر عبرت عن خطاب الغرابة والرغبة والخوف⁴⁶، واختزلت قوة السلطة المخزنية التي أفرزت «صورة هائلة تبعث للمهابة في الأعين، والرعب في الصدور»⁴⁷. والمثير أن الملوك في أوروبا والسلاطين في الدولة العثمانية عمدوا بدورهم إلى تكييف احتفالاتهم تبعاً للظروف والمستجدات، إذ حرصوا على توظيف كل الصور بألوانها وأصواتها وكلماتها لخلق حوار رمزي مع رعاياهم، يسهم في إثراء وسائل التواصل خلال المناسبات الرسمية التي يتقاسم فيها الجميع الشعور نفسه الممثل للفرح أو للحزن⁴⁸.

على أن الإقرار بوجود روابط الاستمرارية بين مخزن السلاطين، لا يغني عن الإشارة إلى أن السلطان السعدي مقارنة مع نظيره العلوي، أفرد عناية خاصة لهذا النوع من الاحتفالية الرمزية⁴⁹، التي لم تنحصر في ما هو ديني، بل امتدت لتشمل أحياناً أحداثاً سياسية ودبلوماسية. فما هي الأهداف التي سعى المخزن إلى تحقيقها من وراء توسيع دائرة الوظيفة الرمزية لتهم ذلك النوع من الأحداث؟

الأحداث السياسية والدبلوماسية

لم يقتصر المخزن في أساليبه الاحتفالية على الانزواء في قصره، بل حاول توظيف أي تظاهرة

⁴⁵ «يتخيل لكل واحد منهم أنه في جنة النعيم... مما يدهش الناظر». محمد الإفرائي، نزهة الحادي...، م.س.ذ.، ص. 146-147، محمد القادري، نشر الثاني...، م.س.ذ.، ج. 2، ص. 357.

⁴⁶ ألن غولد شليغر، «نحو سيمياء الخطاب السلطوي»، تعريب مصطفى كمال، مجلة بيت الحكمة، ع. 5، 1987، ص. 144، راجع أيضاً:

Balandier, *L'anthropologie...*, op. cit., p. 49. G.

⁴⁷ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 203.

⁴⁸ Blockmans, *Histoire du pouvoir...*, op. cit., p. 283.

وحول الدولة العثمانية، انظر: عبد الرحيم بنحادة، العثمانيون...، م.س.ذ.، الدار البيضاء، اتصالات سبو، الطبعة الأولى، 2008، ص. 90 وما بعدها.

⁴⁹ ظهرت صورة المنصور في الأسطوغرافية المحلية والأجنبية، كرجل سخي مقارنة بالمولى إسماعيل. محمد الإفرائي، نزهة الحادي...، م.س.ذ.، ص. 125. انظر أيضاً:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 98, 190.

وصمية، واستغلال المجال الذي انعقدت فيه لإبراز أبهته وعظمته للعيان. فأحمد المنصور اختار عقد البيعة الأولى لولي عهده محمد الشيخ المامون في فسطاطه، وهو معسكر على ضفاف تانسفيت، حيث تمت طقوس هذا الحدث وسط استعراض جيشي السلطان وابنه، هذا الذي قدم من فاس في « أفخم زي، وأحسن أبهة، وأجمل شارة »⁵⁰، وبحضور السفير الإسباني الذي ذهل بما شاهده. كما شكل بسيط تامسنا فضاء لعقد البيعة الثانية، بعد أن أدرك إخوة ولي العهد سن الرشد، فتكرر المشهد نفسه أمام تجمعات بشرية هائلة ضمت عناصر الجيش وزعماء القبائل والأشياخ والأعيان والعلماء. ترى أكان أحمد المنصور يهدف من وراء تنظيم هذه المراسيم بالمعسكرات، إلى إشارك أكبر عدد من الناس حتى يشهدوا، حسب الفشتالي، بأهلية ولي العهد للمنصب، أم أن استنفار تلك الحشود الهائلة من البشر، استهدف بالدرجة الأولى إظهار سطوة المخزن؟

بعد اختيار أحمد المنصور للبسيطين اللذين كان يعسكر بهما، أمرا بالغ الدلالة على نيته في تعبئة أكبر عدد من الناس لمشاهدة الحفل، وما يواكبه من طقوس رمزية تسهم في تدعيم ولاء الأتباع، وفي ترهيب نفوس الخصوم والأعداء. فلقاء الأب بابنه، وطريقة تقديم فروض التحية والطاعة، وبناء فسطاط ولي العهد بجانب فسطاط السلطان، وأسلوب استعراض الجيشين، كلها علامات ومؤشرات تزكي هذا الطرح؛ لأن مشهد التقابل بين الطرفين، يخفي في ثناياه عزم السلطان على ترسيخ ثقافة الاستمرارية المخزنية في أذهان الحاضرين، الذين عليهم إدراكها واستيعاب أبعادها. إذ يرمز المعسكران إلى القوة الضاربة لجيش السلطان، ولجيش الأمير المؤهل لخلافته، وإلى قدرة المخزن على ردع المعارضين، وكسر شوكتهم، بالنظر إلى التلاحم والانسجام الحاصلين بين السلطان وابنه، الذي تتبدد معه كل الشكوك التي تخالج الصدور، وتخامر الأذهان، فتظهر المؤسسة المخزنية كلحمة متماسكة لصد الأعداء، وسحق المارقين.

كما يجعل هذا المشهد الرمزي من المخزن مصدر جذب بالنسبة للرعايا، الذين يتحول انبهارهم بعظمته، وضخامة آلياته، إلى رغبة للانخراط في أسلاكه، أو على الأقل، التسليم بسلطته، خاصة وأن انتقال الحفل من القصر إلى البسيط يعبر عن استبعاد المخزن لأسلوب التستر والتخفي عن الرعية، وهو ما أسهم ولو ظرفيا، في اقترابه من الرعايا، الذين تسابقوا

⁵⁰ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص ص. 60، 81.

لروية ولي العهد، وتقيل يده وهو في خيمة السلطان. وإن حافظ الفشتالي في وصفه على التراتبية نفسها، مركزا في الحدثين على أسبقية إقامة السلطان لمعسكره، وانتظاره قدوم الابن، وأبرز الطريقة الفخمة التي يجلس بها أمام الناس⁵¹.

وأعاد خطاب الفشتالي، وهو يصف استقبال المنصور لسفارة بورنو برأس الماء ضاحية فاس، الثوابت نفسها، وسعى إلى إبراز أبهة السلطان، التي أثارت المهابة و«أخرست الألسن، وخشعت القلوب والأبصار»⁵². وحافظ على منطق التراتبية المعهود في وصف مسار دخول السفير عبر أجنحة الفسطاط، حيث روعي الانتقال من الديوان الذي يجلس به كبار رجال المخزن، إلى القبة العربية فالتوأمتين. وهو تدرج يكرس من جهة تعالي المؤسسة السلطانية وسموها، وينطوي من جهة ثانية على رغبة جليلة في إصابة السفير بالذهول والحيرة، خاصة حين يقارن بين معسكر السلطان ومعسكر ولي عهده المجاور له، ويطل على «دنيا أخرى، وأبهة مدهشة، ومثابة هائلة»⁵³، فيخيل له كأنه في عالم آخر، خصوصا بعد أن تندفق عليه النعم بمقر إقامته بفاس، وهو مازال لم يستفق بعد من الصدمة الرمزية التي انتابته بمعسكر رأس الماء، الذي احتضن أيضا خلال زيارة أحمد المنصور الثانية لفاس سنة 1589م مشهدا احتفاليا ضخما، استقبل فيه محمد الشيخ المامون أباه وسط حشود عسكرية هائلة، وعلى مرأى ومسمع من وفد السفارة العثمانية، الذي أعجب، بل واستغرب مما شاهده، حسب رواية الفشتالي⁵⁴.

والثير أن الفشتالي ركز بشكل كبير على إظهار القوة العسكرية للسلطان وولي عهده، خلال وصفه للحدثين اللذين حضرهما السفيران الإسباني والعثماني، وتغاضى عن ذلك وهو يستعرض طريقة استقبال سفير بورنو. مما يوحي بأن المخزن إما كان ينتقي من الصور الرمزية ما يتماشى مع طبيعة الحدث والأهداف المرجوة من وراء تحقيقه، أو أن الخطاب الإسطوغرافي الرسمي المطلع على خبايا الأمور، عمد إلى تكييف الأسلوب الاحتفالي نفسه

⁵¹ «وقعد لهم قعدا فخما، وفسح لهم المجلس لسمع الجمع الغفير بانتظام ديوانه الأعظم...» عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 82.

⁵² عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 67.

⁵³ ن.م، ص. 67.

وعن ذهول السفير البرتغالي Da Costa من احتفالية معسكر المنصور، راجع: A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 60.

⁵⁴ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 98-99.

كما للمنطق الذي حكم كتاباته، والمتمثل في إظهار عظمة السلطة السلطانية تجاه أكبر الخصوم.

كما استقبل المولى إسماعيل السفارة البرتغالية، وهو في حركة بمراكش سنة 1677م، حيث أحرق موكبها أحياء المدينة في ظرف ثلاث ساعات وسط جموع غفيرة من الناس، وتحت طلقات المدفعية، ونغمات الفرق الموسيقية، ليصل إلى محلة السلطان التي كانت تضم أكثر من مائة وعشرين ألف رجل. وفي الغد تم تنظيم مراسيم انتقال السفير للقصة بعد مروره من عدة أبواب، ترمز إلى التراتبية نفسها التي أشار إليها الفشتالي سابقا، ليلتقي بالسلطان الذي استقبله بمسامة كبيرة، ثم أقيمت للسفير فيما بعد مراسيم مماثلة لتوديعه⁵⁵. وهي الصورة التي تكررت خلال استقبال السفير الفرنسي سانت أمان Saint Amant بمعسكر السلطان، والسفير الإنجليزي بتطوان من قبل باشا المدينة، الذي لم يذخر جهدا في إبراز الأسلوب الاحتفالي الرمزي للمخزن، سواء من خلال استعراض الفرق العسكرية، أو حشد جموع الناس على طول الطريق الذي يجتازه السفير داخل المدينة، أو منها إلى العاصمة مكناس، حيث تكفل موظفو الجهاز المخزني بتوفير المؤن والدواب والأمن وإقامة استعراضات احتفالية، في الوقت الذي أرسل فيه السلطان فرقا مجهزة بكل ما يلزم لاستقبال الوفد الدبلوماسي⁵⁶، وخصصت له إقامة بمكناس قبل استدعائه لمقابلة السلطان، إذ انتقل في موكب احتفالي رسمي في اتجاه القصر، فمر من ساحاته، وانتظر خروج المولى إسماعيل، الذي نزل عن ظهر فرسه ليقبل الأرض، قبل امتطائه من جديد ولقاء السفير⁵⁷.

والواقع أن المولى إسماعيل، اقتبس البروتوكول المعتمد في استقبال السفراء والمبعوثين الأجانب، من أحمد المنصور الذي استمد بدوره من الباب العالي، وحرص على إضفاء

⁵⁵ ج. كولفن (Goulven)، « بعثة برتغالية إلى بلاط مراكش خلال القرن السابع عشر »، تعريب جواد المهدي، مجلة البحث العلمي، ع. 33، 1982، ص ص. 129-138.

⁵⁶ جون وندوس، ن.م، ص ص. 33-35؛ عبد الرحمن ابن زيدان، العز والصولة...، م.س.ذ.، ج. 1، ص. 297؛ جون بريثويت، ن.م، ص. 90.

Ch. Penz, *Les rois de France et le Maroc*, Casablanca, A. Moynier, 1947, pp. 135-9.

⁵⁷ جون وندوس، ن.م، ص ص. 73-74. لاحظت مورسي Morsy أن المولى إسماعيل كان يستقبل السفراء المفوضين على صهوة جواده، بينما يلتقي بالمبعوثين وهو جالس، راجع:

M. Morsy, *La relation de Thomas Pellow...*, op. cit., p. 93, note, 111.

وحول استقبال السفارة الفرنسية من قبل المولى إسماعيل، انظر: D. Busnot, *Histoire du règne de Moulay Ismael, roy du Maroc, Fez, Tafilelt, Souz : de la révolte et fin tragique de plusieurs de ses enfants & de ses femmes*, Rouen, G. Behourt, 1714, pp. 23-5.

طابع استعراضي عليه، كما تم خلال استقباله للوفود التي قدمت من البرتغال وإسبانيا وإسطنبول وفرنسا، للتهنئة بالانتصار في معركة وادي المخازن، فراهن السلطان على إبراز أبهة المخزن وعظمته، وهو يتلقى الهدايا الثمينة التي تهافت عليها الناس لاكتشاف قيمتها⁵⁸.

غير أنه حينما نقارن بين السلطانين، نستنتج أن السلطان السعدي وظف هذه المناسبات أكثر للرفع من شأن المخزن في عيون الرعية، ولتأكيد تعاليه المستوحى من قدرته على قهر أعداء الدين، المتدافعين على أبوابه، والراغبين في كسب وده. إذ لم يتقاعس في استثمار مختلف الوسائل الرمزية المتاحة لإظهار تفوقه، وتجسد ذلك في لباسه، وطريقة جلوسه، وأسلوب استقباله للمبعوثين، مما يكشف عن طبيعة الأهداف السياسية المتوخاة من وراء هذه الحفاوة. في حين أن المولى إسماعيل، بالرغم من حفاظه على ثوابت العنف الرمزي نفسه الذي مارسه سلفه، بدا أحيانا أقل تمسكا بآلياته، وأقل التزاما بضوابطه؛ إذ استقبل السفارة الفرنسية المكلفة بافئداء الأسرى، وهو جالس على الأرض ورجلاه عاريتان وسط حديقة قصره بمكناس. ولاحظ المبعوث البرتغالي أيضا أنه لا يولي عناية كبيرة للتدابير الرسمية المتعارف عليها، حين قال: «فكنا نقف أو نجلس، بل وكنا نتكى أحيانا، إذ كان لا يعير اهتماما لذلك»⁵⁹.

وهو تباين يجد تفسيره في طبيعة تكوين الرجلين، ففي الوقت الذي حملت فيه مخيلة أحمد المنصور مظاهر الاحتفالية التي عاينها في منفاه، وحاول إعادة إنتاجها بطريقة تضمن سمو المؤسسة المخزنية فوق الجميع، عمد المولى إسماعيل إلى توظيف هذه المظاهر وفقا لمنظوره الخاص الذي لم ينفصل عن إصراره الدائم على الحضور في كل مكان، وإقحام نهج البساطة في ممارساته التي أثارت استغراب معظم الكتاب الأجانب، خاصة في ما يتعلق بمأكله وملبسه⁶⁰. ويبدو أن هذه البساطة فرضتها ضرورات تنقل السلطان باستمرار طيلة العقود الثلاثة الأولى من حكمه لإخضاع المتمردين، مما أكسبه صفات أسهمت في تقليص نسبي لهوة التباعد بينه وبين محيطه، وحرمة من الاستقرار بشكل دائم في البلاط، بهدف تتين أبهته على شاكلة أحمد المنصور، الذي استفاد من ندرة أسفاره وقلة حركاته خلال حكمه، في

⁵⁸ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص ص. 48-50.

⁵⁹ ج. كولفن، «بعثة برتغالية...»، م.س.ذ.، ص. 131.

⁶⁰ راجع مثلاً جون وندوس، ن.م، ص ص. 76، 93.

ترسيخ تقاليد بلاط مزجت بين النمطين المشرقي والمغربى، أي بين تخفي السلطان عن الناس وبين ظهوره.

استعمال الحجاب

بينما حرص المولى إسماعيل على ضمان حضور دائم أمام رعاياه في مناطق مختلفة، حتى ألصقت به صفة السلطان « غير المرئي » الذي يوجد في كل مكان، ويث الرعب في نفوس خدامه، أوردت المصادر خبر استعمال أحمد المنصور الحجاب بينه وبين مخاطبيه⁶¹. وهو تقليد ربطه البعض بالطابع المقدس للسلطة السلطانية، واستبعد أنه يكون دالاً على سرية ما يجري داخل البلاط، بقدر ما اعتبره تعبيراً عن نقط ضعفه⁶². ولاحظ البعض الآخر بأن استعماله كان بين السلطان وحاشيته، وليس بينه وبين الرعايا خلال الاستقبالات العادية⁶³. فهل خضع توظيف الستر من قبل السلطان السعدي لهذين التصورين؟

الظاهر أن أحمد المنصور اتخذ من الحجاب شارة من بين الشارات المعبرة عن تميزه وتقرده، والهادفة إلى الحفاظ على المسافة بينه وبين رعاياه، لتفادي أية ممارسات من شأنها خلخلة الحدود التي اعتاد رسمها لمحكوميه؛ فكتب زهر البستان أشار إلى أنه أمر بإرخاء الستور خلال استقباله لأحد أبرز مقربيه وهو القائد إبراهيم السفيناني⁶⁴، مما يتماشى مع طرح سورديل Sourdél الذي لا يصمد بدوره أمام الموقف الذي اتخذته العالم السوداني أحمد بابا التنبكتي من السلطان، حين كلمه من وراء حجاب. وهو ما ينفي فرضية التمييز بين الحاشية وعامة الناس، ويقيم الدليل على استعماله داخل قبة على ما يبدو تجاه الجميع. فهل كان الهدف هو الإبقاء على الهيبة السلطانية في وجه بطانته، وكل من قدم لزيارته بمحضرها في إيوانه؟

أوردت المصادر أن أحمد المنصور كان يجلس بعد كل احتفال ديني، لسماع شكاوى

⁶¹ محمد ابن العياشي، ن.م، ص. 102؛ أحمد ابن الحاج، الدر المنتخب...، م.س.ذ.، ج. 7، ص. 252، 254.

⁶² اعتبرت الكاتبة أن استعمال الحجاب يحيل على فكرة الإله المتخفي، وعلى تحريم وضع صورة للرسول صلى الله عليه وسلم، راجع:

J. Dakhli, *Le Divan des rois...*, op. cit., pp. 243, 246.

⁶³ D. Sourdél, « Questions de cérémonial abbaside », in *Revue des études islamiques*, t. XXVIII, 1960, pp. 121-48. J. Dakhli, *Le Divan...*, op. cit., p. 246, note 72.

⁶⁴ محمد ابن العياشي، ن.م، ص. 102.

الرعايا حين يصلي صلاة الجمعة أو خلال أيام معلومة بالديوان، بحضور كبار رجال المخزن من قاضي الجماعة ومفتي الحضرة والعلماء وقائد القواد والكتاب وضباط الجيش، فضلا عن عامة الناس، وبمجرد الانتهاء من البت في المظالم يستدعي الجميع لحضور مواعيد الطعام، فيأكلونها بين يديه، حسب عبارة الفشتالي⁶⁵. وهذا الوصف وما سبقه بخصوص الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، يدفعنا إلى التساؤل عن اللحظات التي كان أحمد المنصور يلجأ فيها إلى استعمال الحجاب، بمعنى مدى ارتباط ذلك بالاستقبالات الرسمية التي كانت تخصص في بعض الحالات لحاشيته أو لبعض الزوار، أو أن رفع الستر ظل رهينا بحضور عامة الناس، وهو ما يستنبط من رواية الفشتالي.

مهما يكن من أمر، فإن هذه الإشارات التي تخللت بعض المصادر حول توظيف أحمد المنصور للحجاب، لا تخلو حين نقابل بينها، من دلالات أكيدة على محاولة هذا السلطان التوفيق بين نمطين من الرمزية، يختلفان حسب طبيعة المجال الذي تمارس فيه السلطة، ونوعية الفئة التي تخضع لها. فللحفاظ على هيئته تجاه بطانته، عمد إلى التواصل مع أفرادها بطريقة غير مباشرة، لإضفاء نوع من القوة على خطاب الأوامر الصادرة عنه، ولإظهار عطفه وعدله على الرعايا، فضل مقابلتهم بوجه مكشوف يعكس تواضعه وبساطته، وإن بشكل مؤقت، مما يؤدي إلى انبهارهم، فتحول البساطة إلى سلطة رمزية مؤثرة في كل من أتاحت له فرصة رؤية السلطان، وهو ينزل من برجه ليفصل في قضاياهم. غير أنه حرص على الفصل بين مشهدين أحدهما يتعامل فيه بمنطق التراتبية مع حاشيته، والآخر ينصهر فيه معها وكأنه واحد من أفرادها، غالبا بعد الانتهاء من النظر في أمور الدولة، وهذه الملاحظة تجدد تبريرها في الإستراتيجية المخزنية القائمة باستمرار، على إنتاج حدود ضبابية وغامضة لسلطتها المادية أو الرمزية تجاه الرعايا وحتى المقربين⁶⁶.

أما في ما يتعلق باستخدام أحمد المنصور الحجاب خلال استقباله للعالم السوداني، فالراجع أن الأمر إن حدث فعلا، شكل استثناء حاول فيه السلطان أن يظهر تعاليه أمامه، لتذكيره بنسبه الشريف، وبكونه الخليفة المسلم، الذي يتمتع بالشرعية لضم السودان، والحصول على

⁶⁵ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 205.

⁶⁶ راجع الفصل المتعلق بالحضور المادي للمخزن. انظر أيضا: بدير بورديو، الرمز والسلطة...، م.س.ذ.، ص. 60. يقول أميرتو إيكو: «ينبغي أن نعرف اللبس، من الناحية السيميائية، باعتباره صيغة من صيغ خرق قواعد الترميز». انظر: ترنس هوكس، مدخل إلى السيمياء...، م.س.ذ.، ص. 125.

البيعة من علمائها. وهو سلوك رمزي كما سنرى لاحقاً، استهدف زعزعة صرامة هذا العالم الذي ما فتى يندد باحتلال ممالك إسلامية، لكن السلطان لم يفلح في مسعاه على ما يبدو، لما رفض أحمد بابا التنبكي إتمام المقابلة من وراء الستار.

والظاهر أن استخدام الحجاب من قبل أحمد المنصور، اتسم بنوع من المحدودية تجعل من المستبعد تعميمه على كل استقبالاته، أو تشبيهه، شأنه في ذلك شأن باقي مظاهر البروتوكول، بما كان سائداً في المشرق الإسلامي. غير أن توظيفه يمكن فهمه في سياق عام تزامن مع قوة الخلافة العثمانية، وانبعث إشعاعها الاحتفالي وسط حوض البحر الأبيض المتوسط. مما دفع هذا السلطان إلى محاولة إثبات خصوصيته، المستمدة من مرجعيته الدينية والتاريخية أمام خليفة عثماني لم يحتجب عن حاشيته⁶⁷، وهو تقليد تخلى عنه المولى إسماعيل، ليؤكد حضوره العلني أمام الناس، وليثبت الطابع المميز لشخصيته.

تلقي المظالم

لتنظيم الاستقبالات داخل القصر، عمد السلطانان إلى تقسيم أيام الأسبوع، فبينما خصص أحمد المنصور السبت والاثنين والأربعاء للنظر في شؤون الحكم، وأمور المستضعفين التي كان يبت فيها غالباً يومي الاثنين والجمعة بهيئة الديوان أو مجلس الملاء، أفرد المولى إسماعيل الأربعاء للجلوس مع كبار قواد دولته، والأحد والثلاثاء للفصل في المظالم⁶⁸. ويعبر هذا التصنيف عن الأهمية التي كانت تولي لشكاوى الرعايا، باعتبار الإشراف عليها جسد بشكل مباشر وملمس سلطة التحكيم التي مارسها السلطانان وما اختزنته من حمولة رمزية، تراوحت بين إبانة القدرة على تحقيق الإنصاف المادي في صيغته الأخلاقية، وبين ترسيخ ثقافة سمو المؤسسة السلطانية على الرعية والأطر المخزنية، من خلال حرصها على حماية مصالح السكان، وتتبع قضاياهم، ومحاسبة كل من تجرأ على ارتكاب تجاوزات أو تعسفات في حقهم.

ومما يؤكد هذا الطرح، أن السلطانين لم يقتصر في تلقي المظالم على تخويل سلطاتهما

⁶⁷ أشارت J. Dakhliya إلى أن السلطان العثماني كان يقتسم الغذاء يومياً مع ضباطه وجنوده. J. Dakhliya, *Le divan des rois...*, op. cit., p. 243.

⁶⁸ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص.ص. 205-206؛ أحمد ابن القاضي، ن.م، ص.ص. 352-353؛ عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م.س.ذ.، ص.ص. 73-77.

لأفراد الحاشية، بل عمدا إلى مراقبة أعمالها، إما بواسطة تخصيص يوم الثلاثاء بالنسبة للمولى إسماعيل، والجمعة بالنسبة للمنصور، للتأكد من مدى نزاهة الإجراءات المتخذة من قبل أفرادها، أو من خلال منح الفرصة لكل من ترصد موكبيهما خارج البلاط. وقد أوردت الإسطوغرافية عدة مواقف تم فيها تقديم الشكاوى أو المطالب للسلطانين، وهما في طريقهما من وإلى القصر أو داخله، ووظفت في الغالب الأعم صورة المرأة المشتكية. فأحمد المنصور تلقى شكوى أمه عما وقع لها مع قبيلة آيت واستر خلال عودتها من زيارة مشاهير الأولياء بفاس، وشكوى امرأة دكالية سلبها أحد عماله مالها. والمولى إسماعيل اعترضت سبيله الأسيرة الهولندية تيرمتلين لتشكو له محنة زوجها، وطلبت منه المرأة الفيلاية إنصافا من ابنه سيدي محمد الضيفي الذي اغتصب ابنتها وقتلها. كما استقبل نساء الجند اللائي قدمن لطلب الإعانة بسبب ضيق حالهن⁶⁹. والواضح أن طغيان صورة المرأة المشتكية على الخطاب الإسطوغرافي يترجم حمولة رمزية تكرر الطابع الأبوي للسلطة السلطانية، التي تتكفل برعاية كلية للمجتمع من خلال حماية الضعيف، وإنصاف المحروم، فتظهر كملاذ وملجأ لكل من طالته أيادي المتعسفين⁷⁰.

والملاحظ أن الاحتفالات العلنية خلال القرن السادس عشر بأوروبا، كانت تتم دائما بأبهة كبيرة اتخذت تدريجيا الطريق في اتجاه وظيفة التحكيم السياسي، وأصبح الحوار بين الأمير ورعاياه يتخذ شكل سيناريو منظم من جانب واحد لفائدة جمهور متعطش، يهرع بكثافة إلى المدن لرؤية الملك. فترسخت من هذه الزاوية روابط عاطفية بين الملك ورعاياه، اختفى معها دور الجمعيات الدينية والتجارية التي كانت في الأصل مجالا لاستقطاب كل شرائح المجتمع⁷¹.

نستخلص مما تقدم، وجود تقاطعات كثيرة بين الأساليب الاحتفالية للسلطانين خلال مختلف المناسبات الرسمية استمدت من المرجعية الدينية، ومن الإرث البروتوكولي المتراكم،

⁶⁹ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. 389-390؛ محمد ابن العياشي، ن.م، ص. 102؛ محمد الإفرائي، نزهة الحادي...، م.س.د، ص. 158؛ ماري تيرمتلن، ن.م، ص. 52.

Ch-de. La Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 48.

ولاحظت Dakhliia أن المرأة كانت دائما هي المشتكية للسلطان؛

J. Dakhliia, *Le divan des rois...*, op. cit., p. 167.

⁷⁰ أكيد أن الوضعية الدونية للمرأة جعلتها عرضة لمختلف التعسفات، وهو ما يفسر توظيفها في هذا الإطار، وقد لاحظنا سابقا كيف اتخذها الزباني وشالدانيا، كمثال للتعبير عن انتشار الأمن بالمغرب خلال عهد السلطانين.

⁷¹ W. Blockmans, *Histoire du pouvoir...*, op. cit., p. 283.

وإن عبرت مظاهر التباين بينها عن السمات الشخصية لكل سلطان، وعن نوعية التجارب المكتسبة لديه، والأهداف التي توخى بلوغها من وراء ذلك. وإذا كانت هذه الأساليب قد مورست داخل بلاطيهما أو في المصلى، فإنها امتدت لتهم كل تنقلاتهما خارج العاصمة. فما هي الأنساق التي هيمنت على أسلوب التنقل المخزني، وما هي أبعادها الرمزية؟

المواكب المخزنية

بما أن المخزن مثل شكلا من أشكال التنظيم الذي استمد مشروعيته من قدرته على التحكم في المجال، فإن هذا التحكم لا يفسر فقط بوسائل الإكراه المادية والرمزية الثابتة، وإنما تسرب عبر كل الآليات المؤسسية المتنقلة داخل ذلك المجال، وما واكبها من صور غنية بالرموز الدالة على أهمية هذا النوع من السلطة العابرة بحمولتها الثقافية، وبإمكاناتها الردعية، وبأبعادها الظاهرة والخفية، في إعادة تحديد حضوره وسط السكان المهيئين سلفا للتعامل مع هذا النمط من السلطة.

ومن هذا المنطلق، شكلت المواكب المخزنية المتنقلة، سواء بقيادة السلطان أو أتباعه، إحدى الأدوات الرئيسة لتجسيد بنيات نفوذه، ولتحسينها بين الفينة والأخرى، ولتغطية قصوره عن ممارسة وجوده الإداري في بعض أطراف البلاد، فاتخذت أنساقا تنظيمية مميزة روعيت في انتقائها عدة معايير كفيلة بإظهار عظمتها وقدرتها على التأثير بواسطة شاراتها⁷². فما هي الحمولات الرمزية التي احتضنتها الأساليب المخزنية في اختراق المجال خلال عهدي السلطانين؟

دأب المخزن في خروجه بمناسبة العيدين والحركات والاستقبالات، أو دخوله منها على الظهور في مواكب رسمية، خضعت لطقوس احتفالية قائمة على التكرار المضبوط

⁷² لتنظيم الحياة الاجتماعية، ولمواجهة جور السلطات المحلية، كان الملك الفرنسي يتنقل إلى مختلف الأقاليم لإبراز سلطته المادية والرمزية، راجع:

M. Reulos, « La notion de "justice" et l'activité administrative des rois en France (XV- XVII siècle) » in W. Paravicini..., *Histoire comparée de l'administration (IV-XVIII siècles)*, pp. 34-6. Du même auteur, « La justice attribut essentiel du roi de France », in *le recueil, le juste et l'injuste à la Renaissance et à l'âge classique*, Saint Etienne, Publications de l'Université de Saint-Etienne, 1986, pp. 101-7.

ولمعرفة كيفية دخول الملك الفرنسي لباريس وللمدن الأخرى، وطرق استقباله، حيث كان الشعراء يسردون قصائد شعرية في مدحه، وتشبيهه بالأبطال التاريخيين. انظر:

W. Blockmans, *Histoire du pouvoir...*, op. cit., pp. 274, 279, 280.

لسلوكيات وأفعال ترسخت في أذهان الرعية، وأضحت تمثل أساسا للتصورات التي حملتها عن السلطة. ويزكي هذا الطرح الأوصاف التي قدمتها الإسطوغرافية عن طرق التنقل، وعن العلامات المعبرة عنها، التي دلت دلالة واضحة على مدى الاستعداد والحرص الكبيرين، لاستثمار هذا النوع من الممارسات في دعم الأسس السياسية للحكم السلطاني وتقويتها.

اعتاد السلطانان خلال تحركاتهما امتطاء فرسيهما المفضلين، وإحاطة نفسيهما وحاشيتيهما بأجود فرقهما العسكرية، وفق ترتيبات معلومة ودقيقة، مستمدة من أهمية الأخيرة في جهاز المخزن المركزي. فقد احتل جيش العلوج والأندلس في موكب أحمد المنصور، وجيش العبيد في ركب المولى إسماعيل، مكانة متميزة بالنظر إلى حزمهما، وحسن ضبطهما للتقاليد الاستعراضية، وما تتميز به من لباس فاخر، وتنظيم محكم، وتكفل البيك أو العبيد برفع المظلة فوق رأس السلطانين، فتعلو فوق الرايات والأعلام المجسدة لشعاريهما، ويتحرك الجميع تحت أنغام الطبول والمزامير⁷³.

المظلة السلطانية

أفرز استخدام المظلة السلطانية بالمغرب تفسيرات تراوحت بين موقف اعتبرها من ابتكار السعديين، وآخر ربطها بمن سبقهم⁷⁴. وإذا كان من المسلم به أنها مقتبسة من المشرق، فإن وظيفتها أيضا أثارت عدة تأويلات توزعت بين جعلها تعبيراً عن استمرارية الأسرة الحاكمة وتعاقبها، وبين كونها مركزاً متحركاً كناية عن القصر المتنقل للسلطان، وبين تيار ثالث رأى فيها تجسيدا لقدسية الحاكم⁷⁵.

والجلي أن المظلة مثلت علامة من علامات المخزن المرئية، التي انبنت عليها هيئته النابعة من رغبته المستمرة في ترسيخ ثقافة التفرد؛ فالفشتالي حينما شبه مظلة أحمد المنصور بالغمامة، فهو لم يخرج عن هذا الإطار، إذ رمز من جهة إلى عظمة السلطان التي تعلو فوق الجميع، وأحال من جهة أخرى إلى العناية الإلهية التي يستمد منها تعاليه، وتوفر له الحماية، عملاً بمقولة « ظل الله في الأرض ». ولما أورد ابن زيدان أن كبار رجال الحاشية والعبيد يحيطون

⁷³ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. ص. 98-99، 202-203؛ جون وندوس، ن.م، ص. ص. 99-100؛ عبد الرحمن ابن زيدان، ن.م، ص. 72، راجع أيضاً:

Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 32.

⁷⁴ الإفرائي، ن.م، ص. 117. أحمد الناصري، ن.م، ج. 5، ص. 156.

⁷⁵ J. Dakhli, *Le divan des rois...*, op. cit., pp. 248-50.

بالمولى إسماعيل، « وقاية له وهيبة منه »⁷⁶، فهو كان يدور في الفلك نفسه.

وبذلك دل استخدام المظلة، على إصرار المخزن على جعلها شارة تميزه من الآخرين، فالسفارة العثمانية التي انتهزت الفرصة لرؤية الموكب السلطاني برأس الماء، وهو يلتقي بركب ولي العهد محمد الشيخ المامون، لم تستطع تمييز أحمد المنصور وسط الحشود البشرية الهائلة إلا بواسطة المظل الكبير، الذي مكن أيضا جون وندوس والوفد الإنجليزي من التعرف على المولى إسماعيل بعد خروجه من قصره⁷⁷. ومما يدعم هذا الطرح أن السلطانين كانا يسيران راكبين في معظم الأحيان، وسط الخدام الذين يمشون على الأقدام، وهو ما يجسد سموهما.

الأعلام والشارات

جسدت الأعلام ركنا من أركان المنظومة الرمزية التي انبنت عليها المواكب السلطانية، ففي الوقت الذي اتخذ فيه السلطان السعدي من العلم الأبيض شعارا لدولته، اقتداء على ما يبدو بالمرينيين⁷⁸، ومن أعلام أخرى تعبيراً عن الفرق المكونة لركبه، راهن المولى إسماعيل على علم أحمر عريض يتوسطه هلال⁷⁹. وشخص هذان العلمان البارزان قوة السلطة السلطانية، وعبرا عن تصوراتها السياسية والدينية، وعن ماهيتها التاريخية، وعن حدود تحركاتها، فلونهما ورموزهما باعتبارهما ظاهرة ثقافية بالدرجة الأولى، شكلا سياقاً حكايا له دلالات محددة، تشير إلى أحداث وتصورات معينة⁸⁰، تحيل إلى المرجعية الإسلامية.

وحين لقب الفشتالي العلم الأبيض « باللواء المنصور »، فهو كان يهدف إلى إعلاء شأن ولي

⁷⁶ عبد الرحمن ابن زيدان، ن.م، ص. 72؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 99، 203؛ محمد شقير، ن.م، ص. 63. وأورد De Léon أن صاحب المظلة كان يرافق السلطان، حين يقوم بجولات لمراقبة الأوراش، راجع: Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 30.

⁷⁷ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 99؛ جون وندوس، ن.م، ص. 74.

⁷⁸ مثل اللون الأبيض شعار الدولة المرينية من حيث الرايات ولباس الحملات الرسمية، وأخية الجيش والسلطان، راجع بهذا الخصوص: محمد مقر، اللباس المغربي... م.س.ذ.، ص. 201، 210.

⁷⁹ « ... برز مولانا الإمام أمير المؤمنين أيده الله فيصلني بالناس، ثم يقتعد أريكة قوته، وسرير ملكه، وعليه خلع البياض شعار الدولة الكريمة... » عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 99، 204، 236؛ وعن المولى إسماعيل، راجع: جون وندوس، رحلة... م.س.ذ.، ص. 100.

⁸⁰ M. Pastoureau, « Genèse du drapeau », in *Genèse de l'Etat moderne en Méditerranée : approches historique et anthropologique des pratiques et des représentations : actes des tables rondes internationales tenues à Paris les 24, 25 et 26 septembre 1987 et les 18 et 19 mars 1988*, (Collection de l'Ecole française de Rome ; 168), Rome : Ecole française de Rome, 1993, pp. 99-100. Voir également, G. Pistarino, « Les symboles de Gènes... », op. cit., pp. 300-1.

نعمته، من خلال الربط بين حدث معركة وادي المخازن الذي مثل انتصارا للإسلام على المسيحية، وبين تخويل السلطان أحمد لقب المنصور، وكان يسعى إلى إقصاء عبد الملك الذي نسب له البعض استخدام العلم بشكل رسمي⁸¹.

كما أن تبني أحمد المنصور لذلك اللون لم يقتصر على العلم، وإنما امتد ليشمل ذيل الفرس الأبيض الذي كان يمثل شعارا للدولة العثمانية، وأثار احتجاجات كبيرة من قبل السفير الإسباني الذي طالب السلطان بالتخلي عنه⁸². بل إن السلطان اعتاد خلال احتفالات عيد الفطر ركوب فرسه الأبيض، وهو ما يؤكد أنه وظف اللون الأبيض رمزا لكسب ود الأتراك المتربصين به، ولاستفزاز الإسبان بهدف الحصول على تنازلات منهم. وبينما شكلت المظلة رمزا للهبة الشخصية للسلطان، مثلت الراية شارة رمزية لامتداد نفوذ جهازه المخزني.

حاشية المراكب

حرص السلطانان على تميز حاشيتيهما، سواء من حيث تركيبتهما، أو من حيث نوعية أسلحتيهما ولباسهما وسروجهما، لإضفاء طابع الخصوصية على موكبيهما؛ فأحمد المنصور تبني معيار الرتبة والعطاء في تنظيم الفرق المحيطة بموكبه، إذ كان يلفه البياك ثم السلاق، ولبردروش وهم يرتدون أبهى الأزياء، وكان العبيد المرتدون للثياب الفاخرة، والمدججون بخودات مذهبة، يحيطون بالمولى إسماعيل وأبنائه، وتلفهم فرق عسكرية أخرى من الفرسان ذات دروع مزخرفة⁸³. ولم يكن بإمكان كبار الخدام الملازمين للسلطان العلوي مرافقته وهم راكبون، أو الانتعال وخفض السروال أسفل الركبتين، ورفع جوانب الحايك والبرنوس، باستثناء قاضي القضاة الذي كان يرافقه وهو ممتط فرسه، ومحتفظ بحذائه ولباسه⁸⁴.

وبذلك عبرت الحاشية المرافقة للموكب بشكل تناسبي عن درجة المجموعات البشرية المنضوية تحتها وأهميتها، وعن طبيعة المهام الموكولة لها في الجهاز المخزني. إذ كان مظهرها

⁸¹ ذكر الحسن الوزان أن الموكب السلطاني كان يضم فرقة حملة الأعلام، لا يرفع إلا واحد منها خلال السير، وصف إفريقيا، ج. 1، ص. 287، راجع أيضا:

A. Dziubinski, « L'armée et la flotte... », *op. cit.*, p. 83.

⁸² A. de Saldanha, *Chronique...*, *op. cit.*, pp. 38, 56.

⁸³ جون وندوس، ن.م، ص. 100-101؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 60، 203.

S.I.H.M, 1^{re} série, Fra., t. II, p. 47.

⁸⁴ Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, *op. cit.*, pp. 30, 46.

الخارجي، وممارستها خلال الطقوس الرسمية للتنقل، تتماشى مع هيتها، ومع ما رسمت لها السلطة السلطانية من علامات وشارات تصب في اتجاه خدمة منظومتها الرمزية، التي خضعت للمنطق نفسه حتى في الحالات التي لا يكون فيها السلطانان راكبين. فأحمد المنصور اعتاد تأدية الصلوات في المسجد مشيا على الأقدام من قصره وإليه، والمولى إسماعيل دأب كلما حل الجفاف على السير مترجلا رفقة كبار رجال بلاطه طلبا للاستسقاء⁸⁵. وهما أسلوبان احتفاليان استهدفا من خلالهما إظهار خشوعهما وتواضعهما لله خلال هاتين للناسبتين الدينتين، وتخليهما عن تعاليهما بواسطة تساو رمزي، ولو بشكل مؤقت، مع حاشيتيهما، وإن دل احتفاظهما بالمظلة على تميزهما عما يحيط بهما.

ومن خلال المقارنة بين المواكب السلطانية نبدي بعض الملاحظات:

أولاهما: أن المولى إسماعيل كان يتنقل بصفة شبه يومية وسط العاصمة، إما لمراقبة أورش البناء، أو لاستعراض جيوشه، أو لتفقد أسعار المواد الغذائية بالأسواق وجودتها، إلى درجة أن جل أعضاء بلاطه، لم يكونوا مجبرين على مرافقته إذا كانت لهم انشغالات معينة، في حين اتسمت خرجات أحمد المنصور بندرتها⁸⁶.

ثانيتهما: ترتبط ببساطة الأساليب الاحتفالية التي تبناها السلطان العلوي، الذي بالرغم من توفره مثالا على عربات فاخرة، فإنه كان يركب واحدة صغيرة تجرها بغلة، ويشارك في صلوات الاستسقاء وهو غير منتعل يرتدي ألبسة رثة. بينما حرص أحمد المنصور على إظهار أبهة عظيمة في تحركاته التي كان يستعد لها بطريقة محكمة، ويكثر من إعداد كل الوسائل لتنظيمها⁸⁷.

ثالثتهما: تتعلق بطغيان صورة «السلطان المحارب» على المظهر الخارجي للمولى إسماعيل الذي كان يتقن ركوب الفرس، واعتاد أن يتنقل وهو يحمل مسدسين، أو سيفاً،

⁸⁵ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 203. انظر أيضا:

S.I.H.M., 2^e série, Fra., t. II, p. 126.

وعن تنقلات السلطان العثماني لأداء صلاة الجمعة انظر:

N. Vatin & G. Veinstein, *Le sérail ébranlé...*, op. cit., pp. 316-7.

عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 93.

⁸⁶ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 202؛ عبد الرحمن ابن زيدان، ن.م، ص. 73.

Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 30.

⁸⁷ عن المنصور، راجع: محمد الإفرائي، ن.م، ص. 120. وبخصوص المولى إسماعيل انظر:

S.I.H.M., 2^e série, Fra., t. II, p. 126 ; Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 33.

أو بندقية. بالمقابل حافظ أحمد المنصور في ما يبدو، على التقليد الموروث عن المرينيين والوطاسيين، الذي كان بعض خدمه يتكفلون فيه بحمل أسلحته، ولا يحتفظ إلا بسيفه المرصع بالجواهر⁸⁸.

فإذا كان هذا التباين يكشف عن غلبة ظاهرة البساطة على الأساليب الاحتفالية للمولى إسماعيل، فإن مبالغة أحمد المنصور في إبراز أبهة مواكبه تدل على مدى تأثره بما راكمه من تجارب لدى العثمانيين. غير أن البساطة والمبالغة في حد ذاتهما تترجمان وضع الاستثناء الذي تمتع به السلطانان في تاريخ المغرب الحديث، وتبرزان قدرة كل منهما على توظيف المظاهر الرمزية الخارجية واستثمارها بطريقة الخاصة لإظهار قوة سلطته⁸⁹.

ومارس السلطان العلوي نزولا رمزيا، حاول من خلاله إظهار نوع من التقشف، في حين أبقى السلطان السعدي على تعاليه. وهو أمر يجد تبريره في السمات الفردية المميزة لكل منهما، وفي اختلاف مواقفهما تجاه القوى الدينية، وإن كان من المسلم به أن استفادة المولى إسماعيل من تجربة سلفه في هذا المجال، تجسدت في إصراره على احتواء مختلف أشكال السلط التقليدية، التي مثلت إحدى مكونات المخزن، فراهن لتحقيق ذلك على التنقل باستمرار.

الأبعاد الرمزية للحركات

إضافة إلى الخرجات السلطانية الأخرى، شكلت الحركات أبرز المواكب إثارة، سواء من حيث حجمها وشكلها، أو امتدادها في الزمان والمكان، أو الأهداف المتوخاة من مظهراتها⁹⁰، فكان يتم الإعداد لها بعناية كبيرة، لتعبر عن سمات التفاخر الممثلة لعظمة المخزن. لذلك روعي في تنظيمها، وطريقة سيرها، وأساليب تعاملها مع الرعايا، جملة من الضوابط، التي أضحت تمثل قاعدة عامة ميزت هذا الصنف من التنقلات. وهكذا بعد الانتهاء من تجهيز

⁸⁸ الحسن الوزان، ن.م، ج. 1، ص. 290؛ جون وندوس، ن.م، ص. 100.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 132.

⁸⁹ لا نقصد بالبساطة تخلي مواكب المولى إسماعيل عن شارات العظمة، بل لاحظنا أن مواكب أحمد المنصور ظهرت في الإسطوغرافية أكثر أبهة.

⁹⁰ عن الحركات في مغرب القرن التاسع عشر، راجع:

M. Aafif, « Les Harkas hassaniène d'après l'œuvre d'Ibn Zidane », in *Hespéris Tamuda*, vol. XIX, fasc., unique, 1980-1981, pp. 153-68.

D. Nordman, « Les expéditions de Moulay Hassan », in *Hespéris Tamuda*, op. cit., pp. 123-52.

الموكب، تتم قراءة صحيح البخاري بالقصر، وبسائر مساجد المدينة، ثم بالفسطاط كلما توقف السير، لينطلق من مرحلة إلى أخرى، ويستخلف السلطان أحد أبنائه على العاصمة، فقرر الطبول في إشارة إلى بداية السفر، وخلال المسير ليتأكد ويتهيأ كل قريب أو بعيد لملاقاة الموكب⁹¹، الذي يستثمر المجال الممتد على طريقه بكل تناقل في ممارسة عدة أنشطة كالصيد وزيارة الأولياء، وفي إظهار تعاليه للمحكومين، عبر الأشكال التي تتموضع بها المحلة. إذ جسد الفسطاط أبرز عناصرها، وهو عبارة عن قصر متنقل من الخشب يحيط به سور من أفرأك تتخلله أربعة أبواب، وتلفه خيام القواد، وتوجد خارجه خيام متخصصة في الخدمات التجارية والصناعية، فيشكل الكل مشهد مدينة متحركة⁹²، تخترق فضاء البادية بوسائلها العسكرية، وبقوتها السياسية، وبمظاهر ثقافتها الحضرية، مما يخلف انبهاراً لدى الرعايا، خصوصاً وأن المخزن راهن دوماً على إقامة معسكره في مواضع خارج التجمعات البشرية التي يمر بها أو يقصدها.

لقد نصب أحمد المنصور محلته بيسيط رأس الماء خلال حركته لفاس، وكان المولى إسماعيل يعسكر خارج مدينة مراکش، إبان جولاته العسكرية لمواجهة ابن أخيه. وهي مواقف تؤكد بشكل جلي مدى تشبث المؤسسة المخزنية بالحفاظ على تميزها بواسطة خلق صورة تكرر تفرد المحلة، وخاصة الفسطاط الذي مثل الرمزية المتنقلة للقصر، وعبر عن استمرار الحواجز بين السلطان أو من يخلفه، وبين الرعية⁹³. إذ أن اختيار موضع جغرافي مقابل للتجمع السكاني يعبر عن قدرة المخزن على التعبئة والتنظيم، والحضور في كل مكان، كلما دعت الضرورة لذلك، لثمتين ولاء الأتباع ولا إثارة الرعب في نفوس الخصوم، وكأنه ملزم بإعادة إنتاج مظاهر البلاط لإقناع المحكومين، بل وإكراههم على الإيمان بسمو سلطته، ولإفراز

⁹¹ رسالة من زيدان إلى محمد بن عبد القادر الفاسي، خ. ح، المحفوظة رقم 1 من 737 هـ إلى عهد المولى إسماعيل؛ نفيسة الذهبي، ن. م، ص. 255. اعتاد أحمد المنصور قبل مغادرة مراکش أن يترك زمام الأمور بيد ابنه أبي فارس، كما أقدم المولى إسماعيل قبيل حركته ضداً على برايرة الأطلس المتوسط على إسناد شؤون مدينة مكناس إلى ولده زيدان. انظر: أحمد الناصري، ن. م، ج. 7، ص. 78؛ عبد العزيز الفشتالي، ن. م، ص. 66، 113. وحول استخدام الطبول في الموكب السلطانية، راجع: عبد العزيز الفشتالي، ن. م، ص. 204؛ أحمد ابن الحاج، ن. م، ج. 6، ص. 122؛ الحسن الوزان، ن. م، ج. 1، ص. 288؛ جون وندوس، ن. م، ص. 99؛ إبراهيم الحساني، ن. م، ص. 19؛ رحمة بورقية، ن. م، ص. 53.

⁹² الحسن الوزان، ن. م، ج. 1، ص. 290-291؛ محمد الإفرائي، ن. م، ص. 120؛ عبد العزيز الفشتالي، ن. م، ص. 215.

⁹³ لم يقتصر استخدام الفسطاط على السلطان، بل كان أبناؤه وباشاواته وقواده يتوفرون عليه. انظر: عبد العزيز الفشتالي، ن. م، ص. 67؛ عبد الله التسافتي، ن. م، ص. 148.

صورة مماثلة لتلك المترسخة عنه في أذهانهم. وهو ما يفسر لنا حفاظ المواكب على أبهتها المعتادة سواء من حيث تركيبها أو حركاتها من قبيل الأزياء الفخمة، والتنظيم المحكم، وإطلاق النار في الهواء⁹⁴. والأكثر من ذلك أن السلطان، أو من يقود الحركة نيابة عنه، يستقبل أعيان المناطق التي ينزل بها في سيره، يقدمون له الهدايا، فيطعمهم ويكسوهم، كما لو أنهم ضيوف لديه في العاصمة. وهذا الموقف غني بأبعاده الرمزية التي تكرر ثقافة الجود المخولة للهيبة، والمحافظة على التصور الذي يحمله هؤلاء عن المخزن باعتباره مورد عطاء مادي ومعنوي لا ينضب؛ لأنه عوض أن يقوم الأعيان بإكرام الموكب يتم العكس، أي أن التراتبية المعهودة يحتفظ بها خلال التنقل في المجال. وإن كانت تحركات المحلة تتم تحت مرأى ومسمع السكان، فإنهم لا يندمجون فيها بالنظر إلى الرقعة الجغرافية التي تتموضع فوقها، والتي تترجم حسب البعض السياسة الحذرة للمخزن تجاه رعاياه، وغير المنفصلة عن رغبته في العيش في عزلة عن المجتمع⁹⁵. وتنعكس حسب البعض الآخر مظهرا من مظاهر الدونية الذي يبدأ بتقديم الهدية، طمعا في التقرب، وينتهي بحظوة رؤية السلطان والاستمتاع بحضوره⁹⁶.

كما أن حرص السلطان على تخصيص الاستقبالات للأعيان، بدل النزول في ضيافتهم، وعلى تبادل الهدايا معهم، يدخل في إطار التقاليد السياسية الهادفة إلى تجديد المشروعية، وضمان طاعة الأطر المخزنية، وتركبة صلاحيتها أمام الرعايا المهينين سلفا لمعاينة هذا النوع من المشاهد، التي تؤكد استمرارية عظمة المخزن، وقدرته على التنقل لتأديب المتمردين، ولمكافحة الأتباع⁹⁷. مادام أن أي غياب مطول للموكب يثير من حوله الشكوك، وي طرح التأويلات، بل ويفسر بعجز السلطان عن تدبير الأمور، والنظر في شؤون الرعية⁹⁸. وهو وضع يدل على ترقب الأخيرة، للحركات التي اتخذت من رفع المظالم عن المستضعفين

⁹⁴ عبد الله التسافتي، ن.م، ص. ص. 115، 158؛ جون وندوس، ن.م، ص. 100.

⁹⁵ J. Dakhli, *Le divan des rois...*, op. cit., pp. 308-10.

⁹⁶ عبد الله حمودي، الشيخ والمريد...، م.س.ذ، ص. ص. 72، 79، 85.

⁹⁷ اعتبرت رحمة بورقية « الحركة والمحلة أداتين لفرض السلطة، وفي نفس الوقت رمزين لهذه السلطة »، راجع: الدولة والسلطة والمجتمع، ص. ص. 51-52. وعن الهدية، انظر للمؤلفة نفسها:

« Don et théâtralité, réflexion sur le rituel du Don... », op. cit., pp. 61-75. Voir aussi : C. Geertz. « Centres, rois et charisme... », op. cit., p. 173.

⁹⁸ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. ص. 341-342؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 96.

وزجر المخالفين، إحدى أولوياتها. فأسهمت بذلك في اتخاذ إجراءات ردعية لتنظيم الحياة الاجتماعية، وفي ترسيخ فكرة مؤداها أن السلطان، أو أتباعه، يتحركون لتحقيق العدل خارج أسوار القصر، وفي أحضان المحكومين. ويؤكد هذا التنقل الرمزي تعالي سلطتهما من جهة، وقدرتهما على مواجهة جور السلطات المحلية؛ فقد بادر أحمد المنصور، خلال دخوله لفاس سنة 1589م، بالجلوس لسماع شكاوى الرعايا، واستقبل المولى إسماعيل المتضررين من تعسفات جيشه إبان نزول محلته بسيدي رحال⁹⁹.

وامتدت الرمزية في الخطاب الإسطوغرافي لتربط بين مرور المواكب السلطانية وبين انجلاء الجذب والقحط عن المناطق التي تمر بها، إذ سرعان ما يغمرها المطر والثلج، فتتراح أيام الترقب، ويعم الناس السرور؛ فرحلة السلطان السعدي إلى فاس كانت بشرى لسكان منطقة حوالة؛ لأنهم سرعان ما تخلصوا من القحط الذي كان يخيم عليهم. بل إن موكبته تابع طريقه تحت تهاطلات ثلجية كبيرة، اضطرت به إلى تغيير طريقه في اتجاه مكناس، كما انتهت حركته لأغمامت بنزول الغيث. وهي الصورة نفسها التي واكبت تنقل السلطان العلوي لمواجهة برايرة جبل صاغرو¹⁰⁰.

ومن هذا المنظور، حرص الإخباريون على الملازمة بين الحركات وبين ثقافة العطاء التي تتقل بتقل السلطانين، وتكرس مدى ارتباطها بشخصيهما، وبركتهما اللتين لا تتمظهران كرماسال رمزي فحسب، وإنما كمنظومتين للقيم يتم تلمس فعاليتيهما في ثنايا الممارسة الاجتماعية، باعتبارهما قوتين قادرتين على الإقناع وتوليد الانبهار، إذ على نتائج الحركة أن تستجيب لانتظارات السكان سواء عامتهم، أو الذين يمتلكون رأسمالا مماثلا¹⁰¹.

ومن هنا يمكن فهم الترابط العضوي بين الحركة السلطانية وبين صور الخصب المواكبة لها بشقيها المادي والمعنوي. فغالبا ما يتوج العنف العسكري المستخدم ضداً على القبائل بعنف رمزي تجسد في العفو عن العصاة، أو في منحهم وسائل إنتاجية تعوضهم الخسائر التي طالتهم؛ فأحمد المنصور عفا عن أهل سوس بعدما أثخت فيهم جيوشه قتلا. كما

■ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 99. ابن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 124.

■ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 98، 220؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 124.

■ عبد الله حمودي، ن.م، ص. 10، 72، راجع أيضا:

R. Jamous, *Honneur et baraka...* pp. 204, 211 ; C. Geertz, *Centres, rois et charisme...*, op. cit. p. 171.

استأصل المولى إسماعيل شأفة قبائل الأطلس، وجردها من الخيل والسلاح كما أسلفنا، قبل أن يمنحها قطعان المواشي، ويلتزم بشراء أصوافها مقابل دفع العشر¹⁰². غير أن تمادي بعض القبائل في تمردها، والعجز عن ملاحقتها، اضطر المخزن أحيانا إلى استخدام سلطة الأدعية للنيل والانتقام منها؛ فالسلطان السعدي دعا في أهل جبل الصوابيين بعدما فروا من ديوانه الجبائي، ونتج عن سخطته على عرب الغرب، أن سلط الله عليهم حريقا التهمهم مع محاصيلهم. ورأى المولى إسماعيل في الجذب الذي اجتاحت أولاد دليم، استجابة لأدعيته عليهم بالهلاك، بعد أن تشبثوا بتمردهم¹⁰³.

وهكذا وظف السلطانان سلاح الأدعية سلطة رمزية مكملة ومماثلة للسلطة المادية، على اعتبار أنها تجدد صدى لدى المحكومين الذين يتخوفون من عواقبها التي تظهر إن عاجلا أم آجلا، ويؤمنون بانعكاساتها التي تسفر عن تحقيرهم وإذلالهم، خاصة وأن مضمون الأدعية تمحور بالأساس، حول التضرع بالله لنزع بركته عن البنية الإنتاجية للقبائل المستهدفة، حتى تجتاحها موجات الثلج أو الجفاف أو الجراد تعبيراً عن لعنة السماء: « ونعوذ بالله من دعوة السلطان التي تدع الديار بلاقع... فصرنا منتظرين من الله السلامة والفرج... »¹⁰⁴.

وبالمقابل لم يتردد السلطانان في توجيه أدعيتهم الصالحة لكل من تمسك بولائه لهما¹⁰⁵، وهو ما يبين الطابع المزدوج لهذا النوع من السلطة الرمزية، التي تزواج تبعا للسياق بين قوة الخير، وبين عقوبة الجذب، إذ إن من « يتصرف تصرفا خليقا بالأمير، فإنه يتلقى رضاه ودعواته، مما يضمن في نظر الجميع، الهدوء والرخاء الماديين »¹⁰⁶، ومن يشق عصا الطاعة تناله سخطته التي تقضي إلى المحن والهلاك. وفي هذا الإطار يتم الربط بين غضب السلطان وغضب الطبيعة، الذي يدل على الأثر الآني لبركته باعتبارها قوة ملموسة تقاس بتشريد العصاة، وجعلهم حفاة عراة، إمعانا في إهانتهم، وانتقاما لما صدر عنهم من مروق.

¹⁰² إبراهيم الحساني، ن.م، ص. 14.

S.I.H.M., 2^e série Fra., t. II, p. 120.

¹⁰³ المولى إسماعيل، ن.م، ص. 62؛ الفشتالي، ن.م، ص. 116، 193؛ إبراهيم الحساني، ن.م، ص. 25.

¹⁰⁴ عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 46.

¹⁰⁵ خاطب أحمد المنصور سكان الشاوية وتامسنا قائلا: « ... وستجدون إن شاء الله بهذه النية الصالحة، ما يحقق البركة الظاهرة في أموالكم، وزيادة الخير في أعمالكم... » عبد الله كنون، رسائل سعدية... م.س.ذ.، ص. 149. وعن سلطة الأدعية، راجع: عبد الرحمن المودن، البوادي المغربية... م.س.ذ.، ص. 232-233.

¹⁰⁶ عبد الله حمودي، ن.م، ص. 77-78.

لم يتقاعس السلطانان، لتدعيم تفوقهما الديني، وتحيين مظاهر استمرارية سلطتهما، عن زيارة الأولياء، من خلال تنظيم حركات راحة على حد تعبير الفشتالي، يختار لها فصل الربيع، وتحافظ فيها المواعيد على أبعثها وبهجتها. فأحمد المنصور كان يتعهد صلحاء أغمات بالزيارة، وخاصة ضريحي الهزميري وعبد المجيد، واعتاد المولى إسماعيل ملازمة ضريح مولاي إدريس زرهون بالزيارة كل عام، حيث تقام الأدعية، ويمارس الكرم بمختلف أشكاله تجاه المحتاجين والقائمين على الولي¹⁰⁷.

وظهر السلطان السعدي أكثر اهتماما بهذا النوع من الممارسة، مقارنة مع نظيره العلوي، ويعزى هذا التفاوت إلى طبيعة الظرفية السياسية التي أوصلت كلا منهما إلى السلطة. فإذا كان الأول قد تربع على عرش البلاد مباشرة بعد الملحمة الجهادية ضدًا على البرتغاليين، التي أسهمت فيها الزوايا بشكل فعال، فإن الثاني عمد إلى احتواء الزوايا بالقوة، ليقود بنفسه مسيرة الجهاد ضدًا على المحتل. وهو وضع اضطر معه أحمد المنصور إلى إعادة تنشيط روابطه بشكل أكبر مع الصلحاء لضمان توازن سلطته القائمة على إجماع القوى الدينية. وفي الوقت الذي استهدفت فيه هذه الزيارات سحب البساط من تحت أقدام هذه القوى، أو على الأقل منافستها، كما سنبين لاحقًا، فهي لم تنفك عن إظهار رغبة السلطة السلطانية في تحويل هذه الأضرحة من رموز مجتمعية إلى رموز مؤسسية خاضعة لوصايتها، تبدو في نظر الرعايا وكأنها ضمن تراتبية تتبع فيها للسلطان¹⁰⁸. وهو ما يكرسه حرص الإخباريين على الربط بين زيارات أحمد المنصور والمولى إسماعيل للصلحاء، وبين نزول الغيث¹⁰⁹، بهدف إثبات حضورهما في المشهد السياسي والديني بصور العطاء نفسها التي تحملها الرعية عنهما.

كما أن المواعيد المخزنية التي كان يقودها أبناء السلطان أو باشاواته اتسمت بدورها بأبهة كبيرة أيضا، على مستوى تركيبها، وطرق تنقلها، إذ حافظت على نسق تنظيمي رفيع مثل

¹⁰⁷ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. ص. 214-216، 220-221؛ أحمد المقرئ، روضة الآس...، م.س.ذ.، ص. ص. 34، 51؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. 399؛ عبد الكريم الريفي، ن.م، ص. 190؛ وعن زيارة السلطان العثماني للأضرحة، انظر:

عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. ص. 93-94.

N. Vatin & G. Veinstein, *Le sérail ébranlé...*, op. cit., pp. 316-7.

¹⁰⁸ M. Morsy, « Mulay Isma'il où l'instauration ... », op. cit., pp. 142-4.

¹⁰⁹ لما انتهى أحمد المنصور من زيارة الأولياء، « أرسلت السماء صبيها الغزير أياما تباعا... » عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 220؛ وزار المولى إسماعيل عدة أضرحة طلبا في الاستسقاء.

خير تعبير عن عظمة المؤسسة المخزنية¹¹⁰.

وعموما جسدت التنقلات الرسمية غمطا للتواصل بين الحكام والمحكومين، لا يختزل فقط في أبعاده المادية والنفعية، وإنما مثل لغة رمزية لها وزنها المؤثر في كل المجتمعات؛ لأنها تمكن من التعبير عن المواقف الاجتماعية والقيم دون الإعلان عنها بشكل مباشر¹¹¹.

ومن ثم شكلت المواكب المتنقلة في المجالين الحضري والقروي، إحدى الركائز التي راهن عليها المخزن في ممارسة شؤون الحكم، وفي التعبير عن سلطته الرمزية من خلال التعريف بقوة الآلة السلطانية، وبقدرتها على اقتحام فضاء المحكومين، أو على الأقل إيهاهم بذلك. ولذا وجب النظر إلى هذه المواكب باعتبارها منظومة ثقافية تتداخل في تحديد هويتها، وتشخيص الميكانيزمات المتحركة في تنظيمها، المرجعتان الدينية والسياسية اللتان تخولان الهيبة، وإن طغت على الأخيرة منهما في كل الحركات حمولة عسكرية بالأساس، مثلت ثقل المخزن ووزنه، وطمحت إلى توظيف الوسائل الرمزية المتنقلة بصفتها أداة موازية للوسائل الرمزية الثابتة التي تجسدت في البناءات. فما هي الأهداف التي سعى السلطانان إلى تحقيقها من وراء اهتمامهما بتشييد المنشآت العمرانية وترميمها؟

البناء والترميم

يعد البناء من بين الشارات الرسمية والتقليدية لأي نظام سياسي، فهو حجر الزاوية في تسجيل حضوره، والتعبير عن سلطته باعتباره قوة كبرى يتم من خلالها استحضار العظمة، وفرض الهيبة التي تميزه وتضفي على وجوده في المجال صفة التفرد، التي لا محيد عنها لتكريس تفوقه على المحكومين. فالمعمار «الرسمي»، بالرغم من أبعاده الاجتماعية والمادية، يكشف في المقام الأول عن رموز الحكم القائم وتصورات، التي تسعى لإقرار السيادة، ولتأكيد المشروع. على أن الحمولة الثقافية لذلك المعمار، ومدى توسع دائرة

¹¹⁰ كان أبناء أحمد المنصور والمولى إسماعيل يتنقلون وسط مظاهر تفاخر كبيرة، كما هو الحال بالنسبة لمحمد الشيخ المامون، والمولى أبي الحسن، والمولى الشريف، والشيء نفسه ينطبق على قواد حملاتهم أمثال قائد السودان محمد بن سالم، وباشا مراكش عبد الكريم بن منصور، راجع: عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 90، 148، 223؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 81. انظر أيضا:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 146.

¹¹¹ W. Blockmans, *Histoire du pouvoir...*, op. cit., p. 267. Pour d'amples informations, voir : E. Le Roy Ladurie, *Saint - Simon ou le système de la Cour*, Paris, Fayard, 1997.

انتشاره، وموقف القوى الاجتماعية منه، كل ذلك ارتبط ارتباطاً وثيقاً بدرجة قوة المؤهلات الشخصية للحاكم.

من هذا المنطلق شكل البناء أحد الانشغالات الرئيسة للسلطانين أحمد المنصور والمولى إسماعيل، اللذين أوليا عناية خاصة لتشييد القصور، والقصبات، والقناطر، والمساجد، والأضرحة، أو ترميم بعضها. وهي منجزات تردت أصدائها في الكتابات الإخبارية التي تناولت المرحلة. فما هي الأبعاد الرمزية لاهتمامهما بالمجال المعماري؟ وإلى أي حد يمكن الحديث عن علاقات الاستمرارية في سياستيهما في هذا المجال؟

ارتبط البناء في تصور الرعايا بعلو همة المخزن، وبوفرة ثروته، وبعظمة حكمه، وظل السلطان المشيد متميزاً عن أسلافه وخلفائه، بواسطة مآثره التي تتجاوز المعهود، وتثير الإعجاب والذهول، إذ كان هاجس التفوق والتفرد هو الذي يحكم السياسة المعمارية. فالقشتالي والزياني نظرا إلى مشاريع السلطانين في هذا المجال، باعتبارها إنجازات خارقة للعادة، تعدت كل ما تركته الحضارات القديمة. وإذا كان أحمد المنصور قد اتخذ منها معياراً للظهور على آثار المرابطين والموحدين والمرينيين، ولتمييز الشرفاء السعديين عنهم¹¹²، فإن المولى إسماعيل بدا من خلالها، وكأنه يسعى إلى إظهار قدراته التنظيمية على استثمار المجال، وإعادة هيكلته وفقاً لرويته الخاصة.

القصور السلطانية

شيد السلطان السعدي معلمة البديع الفاخرة من منطلق معانياته وتجاربه، وتوخى جعلها منفردة، وغير مرتبطة بمحاكاة نموذج سابق، ومتماشية مع النهضة المعمارية السائدة لدى القوى المتوسطة الكبرى، إذ لم تغب عن ذهنه أصداء تشييد الإسكوريال¹¹³. لذلك لم يعمد إلى جلب المرمر من بلاد الأندلس على غرار الموحدين، أو نقله من آثار أسلافه كما فعل المرينيون، بل حرص على استيراده من فرنسا والبنديقية¹¹⁴. في حين أنشأ المولى إسماعيل قصوراً ضخمة بمكناس، لكن بأساليب معمارية أقل أبهة؛ لأنه لم يهدف من وراء ذلك، على

¹¹² عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص.ص. 252-254؛ أبو القاسم الزياني، البستان الطريف...، م.س.ذ.، ص. 188؛ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 103.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 84.

¹¹³ A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 182.

¹¹⁴ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 260؛ أحمد المقرئ، ن.م، ص. 21؛ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 103.

حد تعبير ابن الحاج، إلى التباهي والافتخار، وإنما إلى إظهار خصوصية الدولة العلوية¹¹⁵. من المؤكد أن تقارير سفرائه حول المنشآت المعمارية للويس الرابع عشر¹¹⁶، وملك الإنجليز، كان لها وقع على إستراتيجيته في هذا الباب¹¹⁷، وإن لم يتأثر بالوتيرة نفسها أحمد المنصور الذي قضى ردحا من الزمن ببلاطات الباب العالي، فتشبعت ذاكرته بطراز فني رفيع، حاول أن يضاهيه بقصر جامع لمختلف الأشكال الزخرفية، ومحتضن لعدة قباب صممت بكل عناية ضمن تراتبية روعي فيها البعد الجمالي الذي يصب في اتجاه خدمة الأبعاد السياسية؛ فمن القبة الزجاجية إلى الخمسينية، فالنصر، فقبة التيجان التي مثلت « شعار سقف المخزن »¹¹⁸، فالقبة الخضراء، وانتهاء بالقبة العظمى التي أراد لها أحمد المنصور أن تبنى فوق مساحة شاسعة، وبطريقة مزخرفة حتى تكون قادرة على استيعاب جموع الناس خلال الأعياد والمواسم، وتخصص لاستقبال الوفود الأجنبية¹¹⁹.

وهو ما يترجم حرص هذا السلطان، على توظيف فضائها في النسق الرمزي المخزني، الذي سعى دوما لضرب المخيلات. ولم تخرج الدار الكبرى التي بناها المولى إسماعيل عن هذا الإطار، إذ ضمت عدة قصور أهمها قصر الستينية الذي دلت هندسته ورونقه على قيامه بالدور نفسه¹²⁰، وإن كرس أحمد المنصور أكثر من خلفه، كل وسائل التفاخر المتاحة لجعل قصره نموذجا معماريا متميزا، بدليل أن مدة بنائه استغرقت سبعة عشر عاما، أي ضعفي المدة

¹¹⁵ اعتبر ابن الحاج « أن الأمير ينبغي له أن لا يخالط العامة في محل سكناهم؛ لأن البعد يوجب مزيد التعظيم، ومنها أن الأمير يكون مع جيشه الخاص به الغير (كذا) المختلط بالعامة، وذلك يوجب السلامة ». أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 70، وج. 7، ص. 174.

¹¹⁶ « أسهم لويس الرابع عشر في خلق ما يمكن تسميته بنموذج مجتمع البلاط، من خلال البناءات المزخرفة التي شيدها، والاحتفالات المنظمة التي أقامها، واستهدفت في المقام الأول ترسيخ تراتبية تجاهه في عقلية النبلاء »، وقد استوحى زخرفة إقاماته خلال مراحل حكمه الأولى، أساسا من ميثولوجية التاريخ القديم، راجع:

W. Blockmans, *Histoire du pouvoir...*, op. cit., pp. 294-6. Consulter aussi :

M. Aymard & Marzio A. Romani (dir.), *La cour comme institution économique*, XII^e congrès international d'histoire économique, Séville-Madrid, 24-28 août, 1998, la Maison des sciences de l'homme, Paris ; N. Elias, *La société de cour...*, op. cit.

¹¹⁷ انظر رسالته للويس الرابع عشر التي عبر فيها عن إعجابه ببنائه، وبالأساليب المعمارية للمدن الفرنسية، كما وصف له ذلك سفيره ابن عائشة.

S.I.H.M, 2^e série, Fra., t. V, Paris, P. Geuthner, 1953, pp. 461-2.

¹¹⁸ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 255-258.

¹¹⁹ ن.م، ص. 255-258، 262.

¹²⁰ عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس...، م.س.ذ.، ج. 1، ص. 124-125؛ أبو القاسم الزياني، البستان الظريف...، م.س.ذ.، ص. 189.

التي تم فيها تشييد الدار الكبرى بمكناس. ورأى البعض في سرعة البناء الإسماعيلي تعبيراً عن الذوق المتقشف، ورفضاً للترف والبذخ، وإصراراً على الادخار والاكتناز الذي ترمز إليه المطامير، والمخازن، والصهاريج الضخمة التي توحى بغلبة الطابع العسكري المتمثل في اعتماد المدينة على إمكاناتها الذاتية في حالة دخولها في صراعات محتملة مع أمازيغ الأطلس. وعبر عن ذلك ابن زيدان بالقول: « ولم يزل يبالغ في التحصين حتى صير عاصمة ملكه حاضرة في بادية، وبادية في حاضرة، بحيث يمكن لأهلها الاستغناء عن كل ما يجلب إليها من الخارج من زرع وضرع، فلهم من المزارع بداخل سورها ما هو فوق الكفاية لأنواع الحراثة، ورعي الماشية، والجدران الحصينة وراء الكل، ومحيطة بالجميع والبواب (كذا) ذات الأبراج، والسقائل المدهشة الحصينة مغلقة في وجوه البغاة، وذوي الشقاق. ولم يكن ذلك لخوف منه، ولا لجبن فيه، كما توهمه الجهلة الحاسدون ومن فيه مرض من الملحدّين والقاصرين... »¹²¹.

ومما يؤكد طغيان البعد الشخصي على هاتين المعلمتين، حرص السلطانين على تتبع أورايش بنائهما، وتفقد مراحل تمييقهما، وإصدار الأوامر، كلما اقتضت الضرورة، لإدخال تعديلات، أو لحل مشاكل استعصت على البنائين أو الصناع. بل إن إصرارهما على إشراك السكان، إما بطريقة مباشرة يداً عاملة، وزعت مناوبة بين القبائل والمدن، أو من خلال تقديم مواد البناء كالجبس والجير¹²²، لا يمكن فهمه بمعزل عن سياقه الرمزي الذي أضفى على أعمالهما صيغة جماعية وطلدت سلطتيهما تجاه الرعية، التي شعرت من جهة بمساهمتها في عمليات التشييد، وترسخت لديها من جهة أخرى، فكرة عظمة السلطانين وحزمهما

¹²¹ M. Barrucand, « L'architecture de la qasba de Moulay Ismail à Meknès », Ministère d'Etat chargé des affaires culturelles, (Etudes et travaux d'archéologie marocaine, vol. 6), 1976, p. 214.

« ولم يكن مقصده المحمود في حفر تلك الآبار، واختراع ذلك الصهرج، يرمي لتلك الغاية فقط، بل لغرض أشرف وأسمى وأهم... هي بقاء سكان المدينة في اطمئنان وأمان في حالتها السلم والحرب مع عتاة البربر، إذ المياه الداخلة للمدينة إنما تأتي من بحبوحة القبائل البربرية... ولذلك تراه بالغ في تحصين هذه القلعة، فأحاطها بأسوار عديدة لا يخلو سور منها عن (كذا) سقائل وأبراج مشحونة بالعدة والعدد، وادخر بها من الأقوات والذخائر والقوة الحربية ما تؤمن به كل غائلة، وتكسر به شوكة كل عاد باغ ومارق عن الطاعة، ولزوم الجماعة »، عبد الرحمن ابن زيدان، *تحقيق أعلام الناس...*، م.س.ذ.، ج. 1، ص. 138-139.

حول القصور والدور التي بناها المولى إسماعيل، راجع أيضاً: عبد الرحمن بن زيدان، *المنزع اللطيف...*، م.س.ذ.، ص. 354 وما تلاها.

¹²² عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 259، 263؛ المجهول السعدي، ن.م، ص. 74؛ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 103؛ أحمد الناصري، ن.م، ج. 7، ص. 49؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، مخطوط، خ.ح، ج. 6، ص. 69.

Ch. de la Veronne, *Chronique d'Al-Mansour...*, op. cit., p. 30.

وصراتهما ونفوذ حكميهما، اللذين تحولت معهما تلك المساهمة إلى مؤشر على الولاء والطاعة، تمت تركيته بجلب أمهر المهندسين من مختلف البقاع، وبتوظيف الأسرى في الأوراش¹²³، وما واكبه من إظهار علومه الإسلامية.

وفي الوقت الذي بنى فيه أحمد المنصور البديع على أنقاض القسبة الموحدية، شيد المولى إسماعيل قصره أيضا فوق مخلفات القسبة الموحدية¹²⁴، التي جددتها المرينيون، وهو ما عكس نية السلطانين في تكريس الاستمرارية، لكن مع أسلافهما غير المباشرين. ترى أيعبر ذلك عن رغبة في تجاوز الإرث المعماري السياسي للأسلاف المباشرين؟ أم يكشف عن النفور من الاستقرار ببنائاتهم؟ أم أن الأمر ارتبط في مده وجزره بعدم ثبات الحكم المخزني في عاصمة واحدة¹²⁵؟

إن غياب الاستمرارية المباشرة، يترجم عزم السلطانين على ربط الحاضر بماضي أبعد منه نسبيا، وتفاذي إحداث تراكم مع أسلاف أقاما حكميهما على أنقاضهما، مما يعني ضرورة إعادة تأسيس بلاط جديد فوق آثار أقدم لاستحضار لحظات المجد من جهة، وللتفوق عليها من جهة أخرى. فأحمد المنصور فضل إنشاء البديع على خمس مائة عمود رخام، بعض منها من القسبة الموحدية، وطمح بذلك إلى إحياء مدينة مراكش بصفقتها عاصمة، وإلى التعبير عن إعجابه بحكامها السابقين، إذ لم يتوان بعد غزو السودان، في سك دينار مربع على شاكلة ما كان سائدا في دولة ابن تومرت. وانطلق المولى إسماعيل من القسبة المرينية، فشيد عدة قصور محيطة بها، ليجعل من مدينة مكناس عاصمة جديدة¹²⁶. غير أن رؤية كل منهما لطريقة البناء تباينت؛ فالأول أراد ترسيخ تقليد معماري مستمد من النموذج العثماني، شكل نسبيا قطعة مع تقنيات البناء المعتمدة، إن على مستوى طبيعة المواد المستعملة، أو النمط الهندسي والزخرفي. وأضفى على ثقافة المعمار «الرسمي» شحنة جديدة ذات أبعاد سياسية ورمزية

¹²³ وجه أحمد المنصور رسائل إلى ملكة إنجلترا، ودوق دي مدينا سيدونيا، وإلى هولندا وفرنسا وإيطاليا، يطلب فيها تزويده بالفنيين الأكثر خبرة في مجال البناء.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 84.

زياني، ن.م، ص. 189؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 254؛ عبد الرحمن ابن زيدان، ن.م، ص. 385.

¹²⁴ أبو القاسم الزياني، الترجمان المغرب...، م.س.ذ.، باريس، طبعة هوداس، 1886، ص. 12.

¹²⁵ J. Dakhli, *Le divan des rois...*, op. cit., pp. 162, 177-178, 182.

¹²⁶ لم يسك المنصور الدينار الدائري، وإنما المربع. انظر: عبد العزيز الفشتالي، ن.م، 260. وعن المولى إسماعيل راجع: عبد الرحمن ابن زيدان، إنحاف أعلام الناس...، م.س.ذ.، ج. 1، ص. 123-124؛ أحمد الناصري، الإستقصا...، م.س.ذ.، ج. 7، ص. 49.

مخرج بين المرجعية الإسلامية وبين التأثير المتوسطي، وتهدف إلى التفرد وتأكيد العظمة. أما الثاني فأقدم على هدم البديع، حتى أضحي يمثل مجالا مهجورا تستوطنه الطيور والكلاب، وترعى فيه المواشي، على حد تعبير الإفرائي، الذي اختار عدم الإفصاح عن أسباب ذلك¹²⁷، التي ارتبطت على ما يبدو بالرغبة في إظهار علامات التفوق على الأسلاف، من خلال تخريب الإرث المادي الأثري، وإعادة توظيفه بصيغة جديدة تحتضن بصمات أقوى، وتسعى إلى محو الذاكرة المادية لأي أثر من شأنه منافسة المشروع المعماري السلطاني الضخم دون اجتنائه، وإلى تأسيس ذاكرة جديدة، حتى وإن تمت بمواد بناء مأخوذة من خراب الأسلاف.

وهذا التصور كرسه بعض الإخباريين أمثال أكنسوس الذي شبه البديع، وهو يقارن بينه وبين ما بناه المولى إسماعيل، بلعبة عاشوراء¹²⁸، والزياني الذي قال في حقه: «لقد شاهدت ضخامة بنائه بعد خرابه ونقل خشبه ورخامه في دولة سيدي محمد بن عبد الله بن إسماعيل، ووددت لو كان الفشتالي حيا، وشاهد ما بناه السلطان الأعظم مولاي إسماعيل في قلعة مكناسة من الدور والقصور، التي تزيد على عشرين، أصغرها يشاكل قصر البديع، وأوسطها أعظم منه، وأكبرها لا يظهر البديع في زواياه»¹²⁹.

ويستشف من هذا محاولة إقصاء فكرة التراكم، وتأكيد مفهوم رمزية السلطة التي اتخذت من الخراب وسيلة للتخلص من الإرث السياسي للمعلمة، ومن إعادة البناء أحد الثوابت لإظهار قوتها الراهنة، وهو ما جعل عمليات التشييد في الأصل ترزح تحت مقولة إن كل شيء معرض للفناء، ولا دوام إلا لسلطة الله¹³⁰. فقصة الرجل الصالح الذي طلب منه أحمد المنصور إبداء رأيه في البديع، فأجابه بأنه مهما علا سيحوله الهدم إلى كدية تراب، تصب في هذا الاتجاه، بل وتحيل على التعارض الموجود بين القوى الدينية، التي لم تكن تنظر بعين

¹²⁷ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 113. رأى عبد الرحمن ابن زيدان في سرعة تخريب قصور المولى إسماعيل حكمة لإقدامه على هدم البديع، انظر: المنزع اللطيف... م.س.ذ.، ص. 380؛ إنحاف أعلام الناس... م.س.ذ.، ج. 1، ص. 147 وما تلاها. بينما اعتبر عبد الله العروي هدم المولى إسماعيل للبديع، ونقل مواده إلى مكناس دليلا على التبعية الرمزية لهذا السلطان لأحمد المنصور، مجمل... م.س.ذ.، ج. 3، ص. 83.

¹²⁸ محمد أكنسوس، الجيش العرمم... م.س.ذ.، ص. 152.

¹²⁹ ليفي برونفيسال، مؤرخو الشرفاء... م.س.ذ.، ص. 132، هامش 60.

¹³⁰ J. Dakhli, *Le divan des rois...*, op. cit., pp. 184, 188-90, 199.

حين أراد المولى إسماعيل توسيع القصبة المرينية بمكناس لبناء قصوره، أمر بهدم الدور المجاورة لها، وكلف أصحابها بحمل أنقاضها لبناء منازلهم بالمكان الذي حدد لهم، وبعد وفاته قرر ابنه المولى عبد الله هدم مدينة الرياض، التي مثلت رمزا لعظمة المخزن الإسماعيلي. انظر: أبو القاسم الزياني، البستان الطريف... م.س.ذ.، ص. 246.

الرضا لشرعية هذا النوع من البناءات ذات البعد السياسي، باعتبارها مجرد تبذير لثروات البلاد¹³¹، وبين الرؤية السلطانية التي كانت ترى فيها تكريسا لتعالى المخزن في قمة التراتبية الاجتماعية، ورمزا لعظمته، وتعبيرا عن رفض الاستمرارية المادية المبنية بطريقة مباشرة على سلطة منهارة. لذا لم يتردد الإفراي في اعتبار عملية الهدم أمرا طبيعيا مادام « أن الله مهما رفع شيئا... إلا وضعه »¹³²، أي أن التخريب حتمية لا مفر منها؛ لأنه بمجرد تفكك الدولة السعدية، أصبح البديع مهجورا يصاب كل من اقترب منه من أولاد المولى إسماعيل، بأمراض دفعت الأخير إلى نعتة بدار أم ملدم¹³³.

ولعل هذا التبرير يؤكد مدى تجذر ثقافة القطيعة مع الإرث المعماري للأسلاف المباشرين، تحت ذريعة أن إعادة استعمالها تمثل مصدر شؤم¹³⁴. وهو خطاب يقارب بين عدم خلود الآثار وبين مصير الإنسان، ويلح على آنية كل بناء ذي وظيفة غير دينية. إذ امتنع أحمد المنصور من لجوء الفشتالي إلى المماثلة بين البديع وبين الجنة، مما يعني أن رمزيته مرتبطة بشخصية السلطان الذي حاول نقش اسمه، لكن ليس من زاوية الخلود. وقد رأى البعض في استخدام المواد الطينية السريعة التلف في البناء، تعبيرا عن القوة الآنية والراهنة للسلطان، وعن عدم رغبته في تحدي الزمن، بخلاف ما هو عليه الأمر في المعمار الغربي¹³⁵.

والمثير أنه بالرغم من إقدام المولى إسماعيل على هدم البديع، فإنه حرص على استعارة بعض النعوت، لإضافتها على أجنحة قصره، من قبيل الدار الكبرى للتعبير عن السكن الشخصي، وقصر النصر، وقصر الستينية، في إشارة إلى قبة النصر وقبة الخمسينية¹³⁶، وهو موقف غني

¹³¹ J. Dakhli, *Le divan des rois...*, op. cit. pp. 160-1 ; J. Berque, *Ulémas...*, op. cit., p. 268.

محمد الإفراي، ن.م، ص. 113. مما يدل على مواقف القوى الدينية الراضية لهذا النوع من الإنشاءات إقدام أحمد المنصور على استشارتها قبل بناء البديع، راجع: محمد الإفراي، ن.م، ص. 103؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. 103.

¹³² محمد الإفراي، ن.م، ص. 113.

¹³³ محمد الإفراي، روضة التعريف...، م.س.ذ.، ص. 65، 113؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 177.

¹³⁴ M. Barrucand *L'architecture de la qasba ...*, op. cit., p. 215 ; Voir également : J. Dakhli, *Le divan des rois...*, op. cit., p. 182.

« وطبيعة الدولة المتجددة نحو آثار الدولة السابقة ». عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة...، م.س.ذ.، ص. 455.

¹³⁵ M. Barrucand, *L'architecture de la qasba ...*, op. cit., p. 216.

¹³⁶ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 254-257؛ عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس...، م.س.ذ.، ج. 1، ص. 124-125.

بدلالاته الرمزية التي تقوم على استبعاد الإرث المادي مقابل الاحتفاظ باستمرارية الألقاب والكلمات.

وإذا كان قصر السلطانين قد بنى بمشاركة السكان عن طريق السخرة والوظائف، وتعرضا للتخريب لتشتت أنقاضهما في كل أطراف البلاد، فإن ذلك مثل إعادة توزيع ولو رمزي لثروات تم جمعها غصبا من قبل المخزن الذي ألزم القريب والبعيد باستيفاء ما فرض عليه¹³⁷. مما يدل على أن عزم أحمد المنصور والمولى إسماعيل على الاستئثار بقصريهما بصفتهم قوتين ومزيتين، شكل منذ البداية إيذانا بهدمهما، نظرا لأنه عمق مسافة تعالي المخزن السلطاني، تجاه الرعية التي لم تتقاعس عن مد أياديها، لاستعادة إرث تم تكديسه دون أن تستفيد منه، وهو ما يفسر لنا ملازمة ظاهرة التخريب لكل البناءات غير الدينية التي ترمز إلى عظمة المخزن¹³⁸. وبذلك ظلت ضخامة البناء بأسواره وأبوابه العالية التي تبين، من جهة قوة المخزن وقدرته على التخفي والاحتماء، وتثير من جهة أخرى الخوف والرعب في نفوس الأتباع لتزيد من ولائهم، وفي صدور الخصوم لتضرب مخيلاتهم، ظلت تمثل لغزا سعى هؤلاء لاكتشاف أسرارها خلال نشوب الفتن والفوضى التي كانت تعم البلاد.

وبذلك شكلت القصور السلطانية إحدى الوسائل الأساسية التي راهن المخزن على توظيف فضائها الداخلية المزخرفة، وهندستها الخارجية المثيرة في إظهار سلطته الرمزية أمام كل من يشكك في أبعته وتعالیه. فجسدت إلى جانب منشآت أخرى خطابا سياسيا مرثيا موجها للسكان، إذ إن حجوما وأمكنة بنائها تختزل عدة مستويات من التعابير والدلالات للجسدة للغة معمارية واضحة المعالم¹³⁹.

رمزية القصبات

لم تقتصر البناءات المخزنية على القصور، بل امتدت لتشمل القصبات، التي بذل السلطانان جهدا لتوسيع شبكتها، وترميم الموجود منها. غير أن هذا الجهد الموجه لأغراض عسكرية

¹³⁷ عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م.س.ذ.، ص. 381. ولاحظ القادري أن البنايات التي تمول من قبل المخزن يصيبها الخراب، راجع: محمد القادري، نشر الثاني...، م.س.ذ.، ج. 4، ص. 264. انظر أيضا J. Dakhli, *Le divan des rois...*, op. cit., p. 199.

¹³⁸ لاحظ ظاهرتي تخريب السكان للمعاصر العسكرية بعد وفاة أحمد المنصور، ومحلة الرمل ثم قصور مكناش بعد وفاة المولى إسماعيل.

¹³⁹ W. Blockmans, *Histoire du pouvoir ...*, op. cit., p. 285.

وأمنية وتجارية كما أسلفنا، أخفى في طياته سلطة رمزية ظاهرة تمثلت في اعتباره من قبل الرعايا، سلوك عناية، واهتماما بأمنهم من جهة، وجهازا دخیلا لمحاصرتهم ومراقبة تحركاتهم، ولتذكيرهم الدائم بالحضور المخزني داخل مجالاتهم من جهة أخرى. إذ ظلت أسوار القلاع وأبراجها والمدافع المنتصبة فوقها توحى بالقدرة على الردع، وتجسد الهيبة والتفوق، وترسم معالم السيادة.

بنى أحمد المنصور حصونا تباينت حجومها حسب أهمية مواقعها، والأهداف المتوخاة منها، لذا حظيت مثلا مدن فاس والعرائش وتازة بعناية خاصة، حيث شيدت بها بستیونات جهزت بالعدة والعدد، وبمخازن الطعام والماء، ودلت ضخامة هذه الأبراج وشموخها على حرصه على صيانة البلاد، وحمايتها من هجومات إسبانية أو عثمانية محتملة. لكن ثقل رمزيتها العسكرية والسياسية، ظل ماثلا أمام السكان الذين يستحضرون من خلال رؤيتها عظمة المخزن، الذي لم يتوان في استغلال مختلف المناسبات الرسمية لتشغيل مدافعها التي كانت تحدث زلزالا وركاما من الدخان بفاس، شبههما الفشتالي برجات النفخ في الصور¹⁴⁰. وهو تشبيه لا يخلو من تأكيد الأبعاد الحقيقية لهذا النوع من الممارسات، التي عكست رغبة المخزن في استعراض قوته بهدف إثارة الرعب في النفوس، وإظهار عزمه واستعداده الدائمين للتصدي للأعداء والمارقين. ولم تخرج الحصون الأخرى التي اختطها السلطان السعدي، أو رممها بآسفي وآزمور وأصيلا والسودان عن هذه القاعدة.

وضاعف المولى إسماعيل من نسيج القصبات، فجدد أقدمها، واستحدث أخرى تماشى مع إستراتيجيته القاضية بتكثيف حجم الوجود العسكري. بمعظم الممرات الحيوية¹⁴¹، الشيء الذي عبر عن حركية هذا السلطان الدالة على تمسكه باختراق المجال لإثبات حضوره بواسطة مراكز ثابتة، معبرة عن السلطة السلطانية، وقادرة على إحداث توازن تجاه أهم التجمعات السكانية، تحولت فيه القصبات من مؤسسات عسكرية إلى قوة رمزية مؤثرة، مثلت إشعاعا لنفوذ مخزني لم يسبق له مثيل، على مستوى تمهيد البلاد أو على صعيد التأثير في السكان، وأصبحت القصبات، بالرغم من كونها مستقلة، تعتبر بالنسبة إليهم رمزا للأمن والعافية، ووقاية من النهب والفساد¹⁴².

¹⁴⁰ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص ص. 263-265.

¹⁴¹ عبد الرحمن ابن زيدان، النزع اللطيف... م.س.ذ.، ص ص. 333-338.

¹⁴² انظر موقف أحد الصلحاء من السياسة الأمنية للمولى إسماعيل، محمد القادري، ن.م، ج. 4، ص. 221، راجع

وهكذا اختزلت القصبات واتساع انتشارها القوة الراهنة للحكم السلطاني، إذ دلت أشكالها المعمارية، وسمك أسوارها، وطبيعة تجهيزاتها العسكرية على تفوق المخزن وسموه أمام الرعايا، الذين يصيهم الانبهار تحت وطأة بعد ثنائي مادي ورمزي يكرس قوة السلطة، ويحرص على إعادة إنتاج مستمرة لوسائل إقناعها التي لا تنحصر في القدرة على حفظ النظام فحسب، ولكن تعداها لتصبح أدوات لفرض السيادة السلطانية، أو على الأقل، التعريف بوجودها، واستحضار المكانة التي تحتلها، خاصة وأن السلطانين اعتمدا في بناء تلك القصبات وتعميرها على فرق الجيوش الدخيلة من العلوج والعبيد. وهو موقف بالغ الدلالة على إصرار المخزن على ربطها به، وعزلها عن السكان، حتى داخل المدن¹⁴³، لتقوم بوظائفها الرمزية من منطلق التقابل الذي تستمد من مواضعها، ومن نمط العيش المغلق الذي كان يحيا فيه الجنود المرابطون بها مع عائلاتهم، الأمر الذي جعل من هذه القصبات أداة لفرض السيطرة والخضوع على الجميع، وبجلا مفصلا يختزن أسرار قوة تهابها الرعية وتشوف للكشف عنها. ألا ينم هذا عن عزم السلطانين على جعل هذه القصبات بمثابة رموز للتعبير عن نفوذهما، ولتدعيم حزكاتها العابرة بواسطة حضور مادي يذكر بدوام سلطتيهما؟

الواضح أن حزام القصبات المتعددة عكس رغبة كل من أحمد المنصور، ومن بعده المولى إسماعيل في تثبيت علامات، تحدد وتيرة امتداد حكميهما عبر أطراف البلاد، وترسخ في أذهان الرعايا فكرة استئثارهما الشخصي بمراقبة المجال بدل الاكتفاء بالتسيير غير المباشر، من خلال تزكية القوى المحلية التي كانت تسهر عادة على القيام بتلك المهمة. وهو أسلوب تظهر بصيغة واضحة خلال حكم السلطان العلوي الذي طور تجربة سلفه عبر إضافته لعدة قصبات، وحشدها بأعداد كبيرة من العبيد المدججين بالأسلحة، لتتناسب مع طموحاته القاضية بتسجيل حضوره المادي الذي لا يحيل فقط، إلى إقرار السيادة، وضمان التبعية من خلال دفع المستحقات الضريبية، وإنما يحول تلك القصبات إلى رموز لهيبة المخزن التي تدرج من المستوى المركزي إلى المستوى المحلي، ومن المجال الحضري إلى فضاء البادية، لتؤكد قيم التفرد والتميز، ولتعبّر عن سياسة الحذر التي جسدها ضخامة الأسوار، وحاميات

أيضا: عبد الرحمن المودن، «التوتر والانفراج في علاقات البادية والمدينة في مغرب ما قبل الاستعمار: فاس وتازة وأريافهما بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر»، ندوة تطور العلاقات بين البوادي والمدن في المغرب العربي، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1988، ص. 41.

¹⁴³ راجع الفصل المتعلق بالحضور المادي للمخزن.

الجيوش الدخيلة.

غير أن رمزية القصبات الحضرية منها والقروية، وأسوار المدن وأبوابها، على اختلاف أدوارها، لا يمكن حصرها في الجانبين السياسي والعسكري، بل وجب فهمها في سياقها الاقتصادي والاجتماعي باعتبارها مراكز لتسهيل تنقل الأشخاص والبضائع، ومنشآت للتأثير والاستقطاب.

لكن الملاحظ أن إستراتيجية أحمد المنصور في بناء القصبات ظلت محكومة في القسم الشمالي من البلاد بهاجس التصدي للغزو الأجنبي¹⁴⁴، فحملت في طياتها رمزية مزدوجة تمثلت في إقناع الرعية بالقدرة على صيانة البلاد، وفي إبهار العدو بإظهار الاستعداد لصد مشاريعه التوسعية. أما في القسم الجنوبي فاستهدفت التحصينات إبراز سمو السلطة السعدية الشريفة أمام سكان السودان، وأحققتها في امتلاك بلادهم¹⁴⁵. في حين أن المولى إسماعيل شيد معظم القصبات لاعتبارات مرتبطة بسياسته الداخلية التي طمحت إلى إخضاع البلاد، باستثناء تلك المقامة بالمغرب الشرقي، التي وظفت بأبعادها الميدانية والرمزية في الصراع مع أتراك الجزائر.

القناطر والسدود

وامتدت عمليات التشييد والترميم لتطول بعض البنيات التحتية، وهكذا بنى أحمد المنصور قنطرة سبو بفاس، وجدد قنطرتي تانسيفت ووادي أم الربيع، وأقام سدين بوادي بوطوبة، وشيد السلطان العلوي قناطر بمكناس وزرهون، وجدد قنطرة الرصيف بفاس¹⁴⁶.

وعلى الرغم من الوظيفة المادية الظاهرة لهذا الصنف من البناءات بصفتها مرافق عمومية، والمتمثلة في فوائدها الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، فإنها لم تخل من رمزية تجسدت في اعتبارها مؤشرا على نجاح التدبير المخزني في تسهيل العبور بين المناطق، وفي مواجهة الشدائد العارضة من قبيل الفيضانات، وما واكبها من سيول خربت أقواس الجسور، أو

¹⁴⁴ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص ص. 64، 265.

¹⁴⁵ ن.م، ص. 165.

¹⁴⁶ أحمد المقرئ، روضة الآس...، م.س.ذ.، ص ص. 22-23؛ عبد الكريم الريفي، ن.م، ص ص. 187، 190؛ عبد الرحمن ابن زيدان، المزرع اللطيف...، م.س.ذ.، ص. 339. عن السدود، انظر: محمد مزين، فاس وباديتها: مساهمة في تاريخ المغرب السعدي، 1549-1637، ج. 1، الرباط، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، 1986، ص ص. 290-291.

اكتسحت الحقول والدور، وفي كونها وسيلة لكسب عطف سكان المدن المعنية الذين ظلوا ينظرون إليها، باعتبارها معياراً للاعتناء السلطاني بحواضرهم.

وما يثير الانتباه أن عاصمتي السلطانين وضواحيهما، فضلاً عن مدينة فاس، نالت جميعها نصيباً وافراً من عدد القناطر المشيدة، وهو اهتمام لا يمكن فصله عن نية السلطانين في التأثير على النخب الحضرية الرئيسة للبلاد بهدف احتوائها.

المساجد والأضرحة

حظيت المباني الدينية باهتمام كبير في السياسة المعمارية السلطانية، ففي الوقت الذي بنى فيه أحمد المنصور مسجد حارة ياسر بمراكش، وصحن جامع القرويين وخزانتة، شيد المولى إسماعيل أو جدد مساجد بمكناس وطنجة وتازة والعرائش، وحرص السلطانان على إحاطة بعضها بالمدارس والحمامات والقيساريات، وتزويدها بالمياه¹⁴⁷.

والواضح أن هذا الاهتمام، اختزن في أحضانه دلالات رمزية، عكست ورع الرجلين وتقواهما وعنايتهما الكبيرة بهذه البناءات، التي تجسدت في المعايير الجمالية والزخرفية المرعية في إنجازها أو ترميمها. لقد جعل السلطان السعدي مكان النافورة القديمة للقرويين نافورة أخرى جديدة تم استيراد رخامها من فرنسا، وسقفها بقبة طليت بالذهب الأحمر، وقام نظيره العلوي بعمل مشابه في جامعي الأنوار والرخام¹⁴⁸. وتنطوي هذه العناية، فضلاً عن بعدها الديني المتمثل في إعلاء شأن الإسلام، على حمولة رمزية مؤداها أن المخزن لا يحصر الإنفاق في الأساليب المعمارية الفاخرة على القصور، وإنما يجعل بيوت الله من أولوياته في هذا المجال. وهي صورة يتم فيها التقابل بين المنشآت ذات البعد السياسي، التي كانت تثير تحفظات بعض القوى المجتمعية المؤثرة، ومثيلاتها ذات البعد الديني.

والراجع أن مشروع أحمد المنصور لبناء مسجد رياض الزيتون بمراكش يضاهي القرويين يقاس، والزيتونة بتونس، وأيا صوفيا بالقسطنطينية¹⁴⁹، يصب في اتجاه ذلك التقابل، شأنه في

¹⁴⁷ أحمد المقرئ، ن.م، ص. ص. 20-22؛ المجهول السعدي، ن.م، ص. 74؛ عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع طيف...، م.س.ذ.، ص. ص. 300-302، 306، 320، 322، 325، 328-329؛ إتحاف أعلام الناس...، م.س.ذ.، ج. 1، ص. 159 وما تلاها؛ عبد الكريم الريفي، ن.م، ص. ص. 187-190؛ محمد ابن العياشي، ن.م، ص. 90؛ ظهور منصوري، حوالات تارودانت، ميكروفيلم، خ.ع، رقم 145، ص. ص. 64، 78.

¹⁴⁸ أحمد المقرئ، ن.م، ص. 21؛ عبد الكريم الريفي، ن.م، ص. 174.

¹⁴⁹ A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 182-4.

ذلك شأن المساجد العديدة التي شيدها المولى إسماعيل بمكناس¹⁵⁰.

والبين أن السلطان العلوي، مقارنة مع سلفه، أولى عناية كبيرة للأضرحة، وبنى عددا كبيرا منها¹⁵¹، وعلى رأسها قبر المولى إدريس بن عبد الله بزرهون، وقبر ابنه بفاس، اللذين وضع عليهما قبابا بديعة، وقبر ابن حرزهم الذي يرقد إلى جانب أخيه المولى رشيد. وهي عناية تحمل أكثر من دلالة رمزية، وتجدر تبريرها كما سنرى لاحقا، في طبيعة العلاقات المتشعبة نوعا ما، التي ربطت السلطان بالقوى الدينية، ودفعته إلى اتخاذ هذه المبادرات لسحب البساط من تحت أقدامها، بهدف تخويل المخزن وملحقاته سلطة الوصاية على هذا النوع من المؤسسات الدينية التي كانت تستقطب حشدا هائلا من الأتباع.

ومن هذا المنطلق، مثلت الرعاية الخاصة التي خولها المولى إسماعيل لضريح المولى إدريس الأكبر، ولقرية زرهون التي تحولت إلى حاضرة، على حد تعبير عبد الكريم الريفي، إصرارا على ربط امتداد رمزي بينها، وبين مسجد الشرفاء بمدينة فاس، حيث اكتشف قبر إدريس الأصغر، من خلال إحياء أصول المخزن الشريف بالمغرب، وربط الخلف بالسلف، واستحضار الحمولة الرمزية للماضي لتبرير الحاضر. وهو ما تجسد أيضا في استياء هذا السلطان، وعتابه الشديد الموجه لشرفاء تافيلالت بخصوص التفريط الذي لحق بضريح مولاي علي الشريف، واعتبره مسا وإهمالا لبركتهم التي لا يجب إغفالها¹⁵²، فطالبهم بضرورة الإسراع في تفقد أحواله وترميمه. ومن هنا تتضح لنا الرمزية السياسية لبناء الأضرحة أو ترميمها من المنظور السلطاني، باعتبارها قاعدة مرجعية لتأكيد المشروعية، ولضمان استمرارية الحكم.

ولم تخرج عملية توسيع زاوية القلقليين وتجديدها عن هذا المنحى، بالنظر إلى المكانة الدينية والعلمية، وحتى السياسية التي أصبحت تحظى بها¹⁵³، وما واكبها من إشعاع رمزي سعى

¹⁵⁰ عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس... م.س.ذ.، ج. 1، ص. 159 وما تلاها.

¹⁵¹ عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف... م.س.ذ.، ص. 315-316، 346-347. «قسم السلطان إسماعيل أعمال البناء والترميم على حومات فاس مناوبة، وتكفل هو وبعض أولاده وخاصته بشراء مستلزمات ذلك»، وهو سلوك يوضح الرغبة في إضفاء الطابع الرسمي على هذه الأنشطة، أو مخزنتها من خلال إشراك سكان المدينة، وإظهار عظمة السلطان، محمد القادري، النقاط الدر... م.س.ذ.، ص. 317-318.

¹⁵² رسالة من المولى إسماعيل إلى شرفاء تافيلالت، 8 رمضان 1104هـ، مجموع مخطوط، خ.ح، رقم 12598، ص. 195.

¹⁵³ محمد القادري، نشر الثاني... م.س.ذ.، ج. 2، ص. 251-252؛ أحمد ابن الحاج، ن.م.ج.، 6، ص. 97. أشارت نفيسة الذهبي إلى أن زاوية القلقليين أصبحت مركزا لعقد اجتماعات الأعيان، ولتزيك البيعات، ولانطلاق الوفود المتوجهة للسلطان، راجع: الزاوية الفاسية... م.س.ذ.، ص. 248.

المخزن إلى احتوائه، عبر توظيف آليات الترميم باعتبارها مؤشراً يوحى بتبعية السلطة، لكن الظاهر أن التفاف معظم القوى الدينية حول حكم أحمد المنصور، لم يضطره إلى الاهتمام برمزية الأضرحة بوتيرة المولى إسماعيل نفسها.

ومن تتبع ما أوردته الإسطوغرافية حول المنشآت الدينية للسلطانين، يمكن تسجيل بعض الملاحظات:

أولاًها أن السلطان العلوي بدا أكثر ولعاً بالبناء والترميم من سلفه، إذ شيد مثلاً عدة مساجد، وزودها بالمياه التي استفادت منها أيضاً مدن سلا ورباط الفتح، ومكناس، فاستهدف من وراء ذلك تحقيق إشعاع يتسرب إلى أحضان المجتمع.

وثانيها: أن البناءات الدينية، وعلى عكس نظيراتها ذات البعد السياسي، عبرت عن وجود مظاهر الاستمرارية في السياسة المعمارية المخزنية، بدليل أن المولى إسماعيل جدد عدداً من المساجد السعدية.

وثالثها: أن الوسط العائلي للسلطان أسهم في إعادة إنتاج صورته، عن طريق الاهتمام بالبناءات الدينية، كما هو الحال بالنسبة لأبي فارس، وزيدان، ولالة عودة التي بنت مسجد باب دكالة¹⁵⁴.

ورابعها أن تمويل هذا النوع من البناءات تم في معظمه من موارد الأحباس، كما هو الحال بالنسبة للقرويين، أو من الأموال التي تشرف الأطر المخزنية، وخاصة القواد والباشاوات، على جمعها من السكان¹⁵⁵.

مما سبق، تتبين الأهمية التي احتلها البناء والترميم في المنظومة الرمزية المخزنية، باعتبارهما من أبرز وسائل التأثير التي تمت المراهنة عليها لإظهار قوة السلطانين وعظمتهم، وقدرتهما على حفر ذاكرتهما في المجال من خلال إخضاع المعمار لأبعاد يتداخل فيها الديني بالدنيوي، وتوظف في الغالب الأعم لخدمة ما هو سياسي، وعبر محاولة الإشراف بطريقة مباشرة على مراحل التشييد أو التجديد، بدل ترك المبادرة بيد السكان. وتكرست هذه الصورة بشكل واضح في الخطاب الإسطوغرافي الذي جعل من تلك البناءات مؤشراً

¹⁵⁴ أحمد المقرئ، روضة الآس...، م.س.ذ.، ص.ص. 59، 62-63.

¹⁵⁵ المؤرخ المجهول، ن.م، ص. 74؛ محمد القادري، ن.م، ج. 4، ص. 264.

على عطف السلطانين وكرمهما تجاه الرعايا¹⁵⁶، وتعبيرا عن انفرادهما بتدبير أهم البنيات الثابتة التي شكلت مصدر إشعاع داخل المجال، وهو سلوك يترجم إلحاحا على المزاجية في الممارسات المخزنية المختلفة، بين الأهداف المادية والرمزية، بغية إقناع الأتباع، وتدجين القوى المجتمعية المترددة، وضرب مخيلات الخصوم. على أن النخب الدينية مثلت أكثر الفئات المستهدفة في هذا الصدد، لذلك وجب تناول الحضور الرمزي لمؤسسة المخزن، باعتباره عنصر تفوق، أو على الأقل عنصر مراقبة لباقي أشكال الحضور الرمزي الأخرى، بمعنى أن وجود هذه المؤسسة ظل رهينا بمدى نجاحه في فرض آلياته الدينية والسياسية والدبلوماسية والاقتصادية على المجتمع. فما هي طبيعة هذه الآليات؟ وإلى أي حد يمكن الحديث عن أن مظاهر استمراريتها على عهد السلطانين أفرزت تراكما للتجارب تمت الاستفادة منه في إقامة هياكل قارة؟

¹⁵⁶ ذكر أحمد المقرئ أن أحمد المنصور بنى قنطرة تانسيفت احتسابا، بعد أن ذهب السيل بنحو الأربعة أقواس منها، واعتبر محمد الضعيف اعتناء المولى إسماعيل ببناء المساجد والأضرحة دليلا على مسارعة إلى فعل الخير، راجع: أحمد المقرئ، ن.م، ص. 22؛ محمد الضعيف، ن.م، ص. 99.

القسم الثاني

الممارسات المخزنية: الآليات والأبعاد

الفصل الأول

المخزن والقوى الدينية

اتسم الديني بتأرجحه بين المرجعية المثالية وبين الممارسة الواقعية التي تذبذبت بدورها بين ما هو مؤسساتي وبين ما هو مجتمعي، لذا فإن تتبع طبيعة الروابط التي جمعت بين الدين والنظام المخزني، أمر في غاية الأهمية نظرا لقيمتها الأساسية في الكشف عن وسائل اكتساب الشرعية وتدعيمها، وعن طرق الحفاظ عليها داخل منظومة معقدة ومتشابكة من الرموز الدينية.

فالأصل الشريف للسلطانين جعل منهما جزءا من هذه المنظومة، التي استدعى إخضاعها تحقيق نوع من التوازن من جهة، بين مكوناتها المتمثلة في العلماء والأشراف والزوايا، أي المجموعات التي لها الكثير من إمكانات التأثير على المجتمع، ومن جهة أخرى، بين الزوايا والسلطان. على أن كل مكون من هذه المكونات الثلاثة احتفظ بنسق تنظيمي معين، خال من التراتبية التي لا تظهر بشكل جزئي، إلا نتيجة لنجاح الحكم السلطاني في احتواء فئات منها مثلت في الغالب الأعم الأقلية، مما أفضى بالضرورة إلى التمييز بين تيارات رسمية تدور في فلك السلطان، وأخرى معارضة له.

ومن هنا ظلت الاستمرارية السلطانية رهينة بحجم التفوق المحقق على حساب القوى الدينية، ذات الحضور النافذ في المدن والبوادي على السواء، ولمدى التوافق الحاصل معها، إما عن طريق إشراكها بشكل مباشر في الجهاز المخزني، أو بواسطة استقطابها بأنواع مختلفة من الامتيازات الدالة على تبعيتها، والمتماشية مع نوعية الأدوار التي أنيطت بها، ومع طبيعة امتداداتها في شرائح المجتمع، أو عبر استخدام مختلف وسائل الردع المتاحة لتركيع المتشدد منها.

وهكذا شكلت العلاقات مع القوى الدينية، إحدى القنوات الأساسية التي حرص المخزن على توظيفها لإسباغ الشرعية على كل ممارساته وتدابيره، لكن دون أن يتحول إلى سلطة تيوقراطية، أو يخضع إلى منطق الفصل الواضح بين الديني والسياسي، إذ ظل التداخل

¹ عبد الله العروي، مفهوم الدولة...، م.س.د، ص. 121؛ كمال عبد اللطيف، ن.م، ص ص. 244، 251.
C. Geertz, *Centres, rois et charisme...*, op. cit., p. 170.

بينهما يراوح مكانه بين الانحصار تارة، وبين الامتداد أحيانا أخرى تبعا للرغبة السلطانية. وإذا كان هذا التداخل، قد بلغ في غالب الأحيان درجات عالية من الضبابية، فإن ذلك يعزى في المقام الأول إلى احتدام النقاش حول كيفية التوفيق بين الشريعة نظرية وممارسة. فما السمة التي طبعت علاقات العلماء والأشراف والزوايا بالمؤسسة المخزنية في عهد كل من أحمد المنصور والمولى إسماعيل؟ وإلى أي حد يمكن المقاربة بين مواقف السلطانين تجاه تلك القوى الدينية المؤثرة؟ وهل من تشابه بين مواقف الأخيرة تجاههما؟ بصيغة أخرى كيف نظر الطرفان إلى علاقة الديني بالسياسي؟

المخزن والعلماء: مواقف ومهام

اعتبر العلماء ورثة الأنبياء، وحماة الشريعة وحراسها المنفردين بأسرارها المستوحاة من الكتاب والسنة، فهم أعلم الناس بخباياها، وأقدرهم على تبيان مقاصدها، لما فيه خير الثواب والأجر العظيمين. وقد أكسبهم ذلك الوضع نفوذا دينيا وسياسيا جعلهم يحظون بإجلال وتعظيم من السلطان ومن العامة على السواء، باعتبارهم يترجمون القيم الاستعلائية للمجتمع، إذ يقدمون النصح والإرشاد، ويشرفون على التعليم، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويذبون عن أموال الناس وأعراضهم².

وارتبطت مكانتهم بمدى تضلعهم في الأمور الشرعية، وقدرتهم على تأطير الأتباع وحشدهم، بطريقة غير مباشرة، ودون اللجوء إلى القوة، وهو ما خولهم تأثيرا روحيا وسياسيا³، اضطر معه المخزن باستمرار إلى سلوك سياسة حذرة تجاههم، تباينت بتباين ثقل رمزياتهم، وبدرجة امتلاكهم للمعرفة الدينية النافذة. فهل أسفرت تلك السياسة عن ظهور شكل من أشكال الهرمية في صفوف العلماء؟

لاحظ Jean-Paul Charnay أن الإسلام ليس تيوقراطية ولكن لكونقراطية logocratie نظرا لأن العلماء هم الذين يخططون الطريق الشرعي، راجع:

R. Mousnier, *Monarchies et royauté...*, op. cit., p. 86.

² أحمد بن الحاج، الدر المنتخب...، م.س.ذ.، ج. 7، ص. 195؛ الحسن اليوسي، القانون...، م.س.ذ.، ص. 1328 ثم، المحاضرات، ص. 109-112.

³ A. Laroui, *Les origines...*, op. cit., pp. 99-100.

تراتبية العلماء

إذا كان من البديهي أن تملك مفاتيح الشريعة قد أضفى على العلماء صفة مجموعة تستمد وضعها من المرجعية المتحكمة في تكوينها، فإن القرب أو البعد عن المخزن أقحما فيهم نوعا من التراتبية المفروضة التي لم يعترف بها المجتمع أو قبلها إلى حد ما، لكنه أفضى مع ذلك، إلى تمتع فئة منهم بجاه منبعث من طبيعة الخطط السلطانية التي زاولوها، إلى الحد الذي أضحت فيه هذه الفئة تمثل « طبقة » رسمية تدعم اختيارات السلطة وتركيبها. مع العلم أن الفئات التي بقيت خارج حجر المخزن نالت حيزا أعظم من الجاه، ارتبط بالأعباء الاجتماعية التي كانت تتحملها، أي أن هيبتها نمت وترعرعت في أحضان المجتمع، وخارج دواليب السلطة.

غير أن هذا التمييز، لا يعني في شيء وجود فصل واضح بين فئتين خاضعتين لنظام ثابت محدد سلفا، إذ ظلت وضعية العالم رهينة بمدى استجابته لقضايا الناس، ومدى إصرار المخزن على استقطابه؛ بمعنى أن العالم الرسمي أو المعارض شكلا معا فكا رحي السياسة السلطانية بمختلف أبعادها، وهو ما يترجم صعوبة الحديث عن وجود « طبقة » موالية بالمفهوم الحقيقي وأخرى مناهضة، نظرا لغياب أي بنية تنظيمية احتضنت كل واحدة منها، بل إن تموضع العلماء ارتبط بمواقفهم الفردية المستوحاة من الشريعة، ومن طرق تعاملهم مع القضايا المعروضة أمامهم، والتي راهن السلاطين على إشراك الجميع في اتخاذ قرارات بشأنها، لا تتعارض في معظم الأحوال مع مبدأ ضمان الطاعة والانقياد لعقد البيعة. مما يدل على أن تحركات العلماء الهادفة إلى التوفيق بين الشرع والسياسة هي التي أدت إلى تقييهم إلى موالين ومستقلين ومعارضين⁴. لكن مواقف الشريحة الأخيرة لم تكن قارة بقدر ما اختلفت باختلاف النوازل المعروضة، أي أن ممارساتها تأرجحت بين التشدد والليونة، وبين رفض أعمال السلطان وتسويقها.

وهكذا شكل العلماء على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم فئة من الخاصة بمعناها الواسع⁵، وإن كانت هذه الفئة بدورها تصنف ضمن ما يعرف « بنخبة العلماء »، أي الذين يستقر

⁴ « اختلف ولاء العالم... حسب الشريحة الاجتماعية والمجموعة التي ينتمي إليها شرفاء أو بلديين أو عامة »، راجع: محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين، 1822-1792، تعريب محمد حبيدة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2006، ص. 343؛ كمال عبد اللطيف، ن.م، ص. 243.

⁵ تستوعب دائرة الخاصة لتضم: « الشرفاء والعلماء والصالحين وأصحاب الوفاء ووجوه الناس وكبراء القبائل والأغنياء من

معظمهم في الحواضر، ولهم من الشهرة والصيت ما أضفى على حضورهم دورا وازنا في التأثير على السياسة السلطانية، ثم هناك « عامة العلماء » الذين ينتشر أغلبهم في البوادي، ولا يساهمون بالتوتيرة نفسها في توجيه القرارات السلطانية. والظاهر أن هذا التصنيف الفقهي قد روج له العلماء الذين اشتغلوا بكتابة التاريخ، وحاولوا أن يظهرُوا أحقيتهم في الانفراد بتأطير السكان، والاستفادة مما يواكب ذلك من امتيازات مادية ورمزية، فلجأوا إلى إقصاء عدد من منافسيهم بالرغم من كفاءتهم.

على أن السلاطين كانوا يدركون أشد الإدراك المكانة العلمية الحقيقية لكل أصناف العلماء، وطبيعة التفاوتات الموجودة بينهم. فالمولى إسماعيل قسمهم إلى أربعة أقسام: « قسم لا يخاف إلا من الله ولا يخاف منا، يعني نفسه، وقسم يخاف من الله ومنا، وقسم يخاف منا ولا يخاف من الله، وقسم لا يخاف من الله ولا منا »⁶. وعبر هذا التقسيم عن وجود أشكال تراتبية مستمدة من طرق تعامل العلماء مع التدابير السلطانية، ومن مدى قدرتهم على توظيف سلطتهم الدينية في الحفاظ على استقلالهم النسبي، وكشف أيضا عن درجة الوعي السلطاني بالربط بين أهمية شخصية العالم وتكوينه، وبين حجم الأدوار التي يمكن أن يلعبها في النسق المخزني، وفي المراقبة الروحية للمجتمع.

وبالرغم من توريث حرفة الفقه في بعض الأسر، التي أصبحت تحتكر مهام الشهادة والخطابة والتدريس والإمامة، فإن ذلك لم يؤد بالتأكيد إلى ظهور هيئة متجانسة من العلماء تمتلك الوظائف الدينية⁷، بل ظلت هذه الوظائف مرتبطة بقدرة ممارسيها على التحكم في قواعد الشريعة، بغض النظر عن انتماءاتهم الأسرية أو الجغرافية إلى الحاضرة أو البادية. وهو ما يعني أن أنواع التراتبية التي يعترف بها المجتمع، والقائمة على التباين في امتلاك السلطة السياسية أو المادية، لا وجود لها في أسلاك العلماء الذين روعيت في تحديد التفاوتات بينهم معايير واعتبارات علمية ورمزية، اختلفت من عالم لآخر وفقا لتكوينه ولطبيعة مواقفه، ولمدى

الرعية»، راجع: عز الدين العلام، الآداب السلطانية، دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي، سلسلة عالم المعرفة، عدد 324، فبراير 2006، ص. 196. عن مفهوم التراتب الاجتماعي، انظر: محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين XIV-XV مساهمة في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي، أطروحة دكتوراه في التاريخ، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 2000، ص ص. 62، 194، 300.

⁶ محمد القادري، نشر المثاني...، م.س.ذ.. ج. 3، ص. 37؛ أحمد ابن الحاج، الدر المنتخب...، م.س.ذ.. ج. 7، ص. 369.

⁷ خالد زيادة، كاتب السلطان...، م.س.ذ.. ص. 65.

نجاحته في تحصين الشريعة، وحماية العامة والذود عنها، وإن كان المخزن قد عمل دوماً على استمالة بعض العلماء لصفه بهدف تكريس سلطته، وإحداث تمايز في أوساطهم. فما هي الأدوار والمهام التي تكفل بها العلماء؟ وما هي طبيعة العلاقات التي جمعتهم بالمخزن السعدي والعلوي في عهدي أحمد المنصور والمولى إسماعيل؟

استمد العلماء قوتهم السياسية من دورهم في إعادة تأسيس السلطة عن طريقة تركية من تم اختياره، أو من فرض نفسه على البلاط ومقربيه، فجسد عقد البيعة أمام تعدد الطامحين إلى العرش الشرط الرئيس لاستيفاء الشرعية، خاصة من قبل علماء فاس الذين شكل اعترافهم بالسلطان أبرز مفتاح لولوج باب الحكم. وهكذا بعدما بويغ أحمد المنصور بساحة الوغى بوادي المخازن، انتقل إلى فاس لتجديد البيعة والاستكمال قواعدها من خلال ضمان انخراط كل من لم يحضر من العلماء في المعركة، قبل أن يبعث إلى مراكش وباقي حواضر المغرب لتأكيداتها. كما حضر بيعة المولى إسماعيل بفاس الحسن اليوسي، وعبد القادر الفاسي ومحمد المجاصي وغيرهم⁸.

ولم يقف الدور المؤثر والأساس للعلماء عند عتبة البيعة، بل امتد ليهم مجال المشاركة في اتخاذ القرارات تبعاً لضوابط شرعية محددة، وعبر قنوات الشورى التي تلجأ إليها السلطة كلما دعت الضرورة لذلك رغبة في تثبيت نفوذها، ويشمل اضطلاع قلة منهم ببعض المسؤوليات في الجهاز المخزني، واحتفاظ أغلبهم باستقلالية نسبية في تأطير العامة. فما هي الأسباب الكامنة وراء امتناع جل العلماء عن الدخول في خدمة المخزن؟

مواقف العلماء من الخدمة المخزنية

لم يذخر العلماء وسعاً في الدعوة إلى الابتعاد عن مخالطة المخزن، نظراً لما في ذلك من تنزيه لعلمهم عن « الأغراض الدنيوية من مال وجاه ورياسة، وتقدم وشهرة ونحو ذلك »⁹. وهكذا حثت وصية أحمد الدرعي، المعروف بأدفال، أولاده على « أن لا يخالطوا المخزن،

⁸ محمد الإفرائي، نزهة المخادي... م.س.ذ.ص. 81، وللمؤلف نفسه، روضة التعريف... م.س.ذ.ص. 60.

⁹ الحسن اليوسي، القانون... م.س.ذ.ص. 327. ويستشهد اليوسي في مقطع آخر بحديث نبوي: « العلماء أمناء الرسول على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان، فإذا فعلوا فقد خانوا الرسول، فاحذروهم واعتزلوهم »، راجع: القانون... م.س.ذ.ص. 358. وسبق لجلال الدين السيوطي أن عارض بشدة الخدمة مع السلاطين، م ستنداً على عدة أحاديث نبوية: « أبعد الخلق من الله، رجل يجالس الأمراء... » و « اتقوا أبواب السلطان وحواشيها » و « إذا رأيت العالم يخالط السلطان مخالطة كثيرة فاعلم أنه لص »، انظر: عز الدين العلام، ن.م، ص. 156.

ولا أبناء الدنيا، ولا علماء الدنيا، ولا مبتدعة الفقراء، بل لا يخالطوا إلا العلماء العاملين، والفقراء الصادقين»¹⁰؛ إذ إن التردد على أبواب السلاطين، ولو تحت ذريعة إحقاق الحق، والانتصاف للمظلوم من الظالم، يفقد العالم هيئته العلمية، ويلوث سمعته، ويسفر عن ارتثائه في أحضان الدنيا، ووقوعه في مثالب المداهنة والنفاق والكذب¹¹.

وفي هذا السياق، يمكن فهم تشدد أغلب العلماء في رفض الوظائف المخزنية المسندة إليهم، بل واستخدامهم لكل الوسائل المتاحة للتملص منها. فأحمد الجرندي ولي قضاء فاس من قبل المولى إسماعيل، «فتحامق وجعل يفعل بنفسه من لا يعقل ويرتكب المحظورات من الأعمال، حتى تركوه، وذلك منه فرارا من تقلد حقوق المسلمين، واختيار السلامة لنفسه»¹². واعتذر محمد التمنارتي عن تولي خطة القضاء التي عينه أحمد المنصور عليها تحت علة أنه «مطوق من التعليم والقيام بالأهل». بل وصف الفقيه العربي بن أحمد الفشتالي تلك الخطة، بأنها «صداع في الرأس، وسم قاتل في الجوف، وسلسلة في العنق، وسنارة في الحلق»¹³.

وتجد هذه المواقف تفسيرها في ما يثيره تقلد المهام المخزنية من شبهات تدنس مصداقية العالم، وتشكك في نزاهته، بل وتقلص من وتيرة تعظيم العامة وإجلالها له، خصوصا وأنه يصبح خاضعا لضغوط كبار رجال المخزن، ومعرضا لتلقي الهدايا والرشاوى، الاغتناء على حساب السكان، والحكم حسب شهواته، والتخلي عن الالتزام بالعدل، وبما أوجبه الشرع.

وحتى بعض العلماء الذين فرضت عليهم الظروف قبول الوظائف الدينية، تنزهوا عن إنفاق ما كان مخصصا لهم من أجور، تفاديا لإثارة الشبهات من حولهم، وإيماننا منهم بعدم شرعية تلك الأجور، إذ أوصى الشيخ محمد بن عباد خطيب جامع القرويين وإمامه بفتح صندوق بعد موته، وُجد فيه حصيلة راتبه منذ توليه. واتخذ الموقف نفسه الفقيه سيدي

¹⁰ محمد المنوني، «حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثار»، مجلة دعوة الحق، ع. 2 و3، سنة 1973، ص ص. 141-142.

¹¹ رسالة الحسن اليوسي إلى المولى إسماعيل، محمد القادري، نشر المظاني... م.س.ذ.، ج. 3، ص. 33.

¹² محمد الضعيف، تاريخ الضعيف... م.س.ذ.، ص. 80؛ القادري، ن.م، ج. 3، ص. 215.

¹³ محمد القادري، النقاط الدرر... م.س.ذ.، ص. 223؛ محمد المختار السوسي، مترعات الكؤوس في آثار طائفة من أدباء سوس... مخطوط، خ.ح، رقم 12647، ص ص. 10-11؛ محمد القادري، ن.م، ص. 223. ذكر محمد القادري أن حالات الفرار من تولي العلماء للمناصب المخزنية كثيرة، واعتبر مواقفهم سليمة ودالة على قوة دينهم، راجع: نشر المظاني... م.س.ذ.، ج. 3، ص ص. 150، 215.

الصغير، حين اعتزل في حياته عن إمامة مسجد الحوت بفاس. وبالرغم من قبول أحمد بن الحاج السلمي لمنصب القضاء الذي اقترحه عليه المولى إسماعيل، فإنه رفض المبلغ الذي خصص له أجراً من الأوقاف، ثم كسوة خطبة العيد التي كانت تفرض على اليهود، واشترى بما جمعه حمام مولاي إدريس¹⁴. وهو سلوك يكشف من جهة، تحفظ العلماء من تولي هذه الوظائف وخاصة القضاء، لما يمثلته من انغماس في شؤون الدنيا، وعزوف عن الاشتغال بطلب العلم¹⁵، ويطن من جهة، أخرى نفورهم من أموال يشككون في أصولها.

يبد أن هناك فئة من العلماء، لم تجد حرجاً في احتلال ولايات دينية سامية في السلك المخزني طمعا في الجاه والثروة، فقبلت بدون تحفظ ما منح لها من إيرادات الأحباس بالمدن، ومن أعطيات القبائل المعنية بالبوادي، بل جمع الشخص الواحد منها أحيانا بين مهام الإفتاء والخطابة والإمامة والتعليم؛ فقد تولى أحمد ناجي مثلاً، إلى جانب القضاء بفاس ومكناس وصلا، الخطابة والإفتاء بالقرويين في عهد علي الروسي قائد فاس، وشغل منصب ناظر على أوقاف المسجد المذكور. وهو وضع أسهم في تدعيم الموارد المالية لهذه الفئة، التي تعززت يلجوء بعض أفرادها إلى الارتشاء، كما هو الشأن بالنسبة لعبد الواحد الحميدي الذي اشتغل بالقضاء والتدريس على عهد أحمد المنصور، وقاضي قضاة المولى إسماعيل محمد الطالب أبو عنان، الذي زاول أيضاً مهام الخطبة والإمامة¹⁶. لكن هناك من الفقهاء من مارس القضاء وحمدت سيرته، ولم يخضع لأولي الأمر أو داهنهم¹⁷.

¹⁴ محمد القادري، ن.م، ج. 2، ص. 247؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 355. ورد في ظهير إسماعيلي مؤرخ بربيع النبوي عام 1124هـ أن المولى إسماعيل أمر بإعطاء الفقيه المدرس سعيد العمري مائة أوقية... وإن تخلى عنها ترجع للمسجد، مما يوحي بأن رفض الأجرة كان أمراً شائعاً، راجع: عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م.س.ذ.، ص. 321. ظهير من أحمد المنصور يطلب فيه من القبائل دفع أجرة القاضي، محمد القادري، ن.م، ج. 1، ص. 55. ورسالة من المولى إسماعيل إلى القاضي أحمد بن الحاج السلمي، بتاريخ صفر عام 1105هـ، محمد الإفرائي، روضة التعريف (ملحق)، م.س.ذ.، ص. ص. 109-110.

¹⁵ الحسن اليوسي، القانون...، م.س.ذ.، ص. 424.

¹⁶ تورد المصادر عدة أمثلة عما كان يدره القضاء من مداخيل على ممارسيه، راجع: محمد الإفرائي، ن.م، ص. 172؛ محمد القادري، ن.م، ج. 4، ص. 10، ولنفس المؤلف، النقاط الدرر...، م.س.ذ.، ص. 306، هامش 3. انظر أيضاً: عبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليّة الحزينة، الرباط، منشورات عكاظ، 1991، ص. ص. 53-54، 64.

¹⁷ مارس أحمد بن سعيد المجلدي القضاء لمدة طويلة، واشتهر بنزاهته شأنه في ذلك شأن محمد الهشتوكي الذي تولى القضاء بمراكش وفاس، وسعيد الهوزالي الذي كان شديد الشكيمة في الحق، راجع: محمد القادري، النقاط الدرر...، م.س.ذ.، ص. ص. 19-20، 226، 237، هامش 2.

وتدل هذه الحالات وغيرها، على نجاح المخزن في استقطاب شريحة من العلماء انخرطت في أجهزته الإدارية، وقبلت منطق الانتفاع من الامتيازات المخولة لها، وكرست رأسمالها المعرفي، وتحديدًا الفقهي، للنظر في أمور الناس خدمة للسلطة السلطانية. فهل يعني هذا نجاح هذه الشريحة في التوفيق بين الشريعة والمستجدات على أرض الواقع، مقابل فشل كل العلماء، الممتنعين عن ممارسة الوظائف المخزنية، في بلوغ ذلك التوفيق؟

لقد ربط جل العلماء مواقفهم من الحكم بطبيعة سياساتهم، ورأوا في صلاحهم خيرا للناس، ولهذا لم يعارضوا مخالطة أهل العدل منهم ومساعدتهم على تسيير شؤون البلاد، كلما دعت الضرورة لذلك، على اعتبار أن حماية الأمراء من الفساد إنما تتم بالفقهاء. بينما وقفوا بشدة في وجه كل من يتعامل مع الجائرين منهم، لكن دون الدعوة إلى القيام عليهم، بل ألحوا على ضرورة الاعتراف بشرعية سلطة الظلمة منهم، وطاعتهم لما في ذلك من وقاية للبلاد من الفتن العظيمة. كما شددوا على تكفلهم بممارسة واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حسب ما تسمح به الظروف وما يفرضه ذلك من صبر وعناء. فالشيخ القصار حض غمارة على طاعة أحمد المنصور، والحسن اليوسي وأحمد التستاتوي لم يترددا في لوم الدلائي على قيامه على المولى إسماعيل، كما دعا محمد المسناوي الدلائي الأمير محمد العالم إلى الانصياع لأبيه بعد أن بعث له ليستشيريه في أمر ثورته¹⁸.

ومن هذه الزاوية، حث هذا التيار الذي عبر عنه اليوسي، على تحافي العلماء عن ملازمة أبواب السلاطين، نظرا لما ينتج عنها من هيبة تفضي إلى نفور الناس منهم، ونزع صفة البساطة عنهم، وركز على الاهتمام بنشر العلم والدين اللذين يوفران الأمن ويعفيان السلطان من اللجوء إلى الحركات، ودعا إلى العناية بالعدل الذي يعد أس الملك، وإلى رفع راية الجهاد لحماية الثغور¹⁹.

والبين أن التفاوت في الالتزام بهذه القواعد، وخاصة خلال حكم السلاطين الأقوياء أمثال أحمد المنصور والمولى إسماعيل، هو الذي يبرر العزوف عن مخالطة المخزن، إذ ظل

¹⁸ الحسن اليوسي، ن.م، ص. 191-192، 328، 359، ثم، المحاضرات...، م.س.ذ.، ص. 121، راجع أيضا رسالة محمد بن عبد القادر الفاسي إلى المولى إسماعيل، M. El Fasi, « Biographie de Moulay Ismail »..., op. cit., pp. 26-27.

أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 90، 235، وج. 7، ص. 4-7.

¹⁹ رسالة اليوسي إلى المولى إسماعيل: محمد القادري، نشر المثاني...، م.س.ذ.، ج. 3، ص. 32-35؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 210، 215.

معظم العلماء ينظرون إلى المخزن نظرة أخلاقية، باعتباره جهازا لحراسة الدين وسياسة الدنيا، ولإعادة إنتاج دولة الخلافة طوباويا، بالرغم من إدراكهم البديهي، على ما يبدو، لطبيعة الدولة باعتبارها ظاهرة تاريخية. ولعل هذا ما جعل من الصعب تشخيص مواقفهم الحقيقية من أمور السياسة، على حد تعبير العروبي²⁰، وإن كانت تصرفاتهم تجاه المخزن، على صرامتها، لا توحى برفض خدمة السلطانين لذاتها، بقدر ما تعبر عن التخوف من عواقبها على سمعتهم الدينية والعلمية، إلى الحد الذي أصبحت فيه بمثابة تهديد مباشر لمصالحهم الخاصة، ولمكانتهم المجتمعية التي يعملون على بنائها، انطلاقا من المراقبة الشرعية لممارسات المخزن، وليس من خلال المشاركة من داخل دواليب أجهزته. ترى يمكن أن ننتع هذا السلوك بكونه انتظاريا؟ أم أن هؤلاء العلماء وجدوا ضالتهم في لعب أدوارهم داخل المجتمع، واكتفى ممن امتلك وزنا كبيرا منهم، بالتأثير على الجهاز المخزني بواسطة النصيح والإرشاد؟ أم أن حسهم الأخلاقي الزائد لم يكن يؤهلهم لتحمل مسؤوليات بالمعنى السياسي، على حد تعبير ماكس فيبر Max Weber²¹؟

إن إصرار جل العلماء على البقاء بعيدا عن دوائر السلطة، قد فوت فرصة التقريب بين تصوراتهم وبين الواقع السياسي، إذ حصروا أدوارهم في ممارسة رقابة قبل بها السلاطين في حدود معينة لضمان استمرارية حكمهم. في حين عجزت الآليات التنظيمية التي راهن عليها هؤلاء العلماء عن إحداث التغييرات المنتظرة²²، خاصة وأن المخزن تحكم في مجال التعليم من خلال إنشاء المدارس وتعيين المدرسين، وتحديد رواتب الكراسي العلمية، بل والتدخل أحيانا في انتقاء المواد الدراسية²³. مما حال دون استقلالية جهاز العلماء الذي بقي خاضعا لوصاية المخزن، وخاصة في المدن، حيث تكفل النظار بتوزيع دخل الأوقاف على الأطر المسيرة للمؤسسات الدينية التي أصبحت رسمية، وهو ما حدا بعدد من كبار العلماء، الذين

²⁰ عبد الله العروبي، مفهوم الدولة... م.س.ذ. ص.ص. 101، 105. انظر أيضا:

B. Lewis, *Le langage politique de l'islam*, Traduit par O. Guitard, Chicago, Gallimard, 1988, p. 50.

²¹ Max Weber, *Le savant et le politique*, Librairie Plon, 1959, p. 129.

²² أيمن الباسيني، الإسلام والدولة: حالة المملكة العربية السعودية، الدار البيضاء، دار الملتقى، الطبعة الثانية، 1999، ص.ص. 27-28.

²³ أمر باشا مراكش الإفرائي بالاكفاء بتدريس صحيح البخاري وترك مادة التفسير، راجع: محمد العمري، الإفرائي وقضايا الثقافة والأدب في مغرب القرنين 17 و18، الدار البيضاء، الدار العالمية للكتاب، الطبعة الثانية، 1992، ص. 94؛ عبد الله التسافتي، ن.م. ص. 226. كما حدد أحمد المنصور رواتب الخطط الدينية حسب نوعية المواد المدرسة، راجع: حوالات تارودانت، خ. ع. رقم 145، ص. 87.

كانوا يتجنبون أعطيات المخزن، إلى الامتناع عن التدريس بتلك الكراسي. وهكذا تصدر أبو المحاسن للتدريس بفاس، وحيء له بظهير مساعدة من لدن القائد فرفضه، « وما قبض قط أجرة ولا معونة من حبس ولا غيره »²⁴. وانزوى عبد القادر الفاسي بزوايته لتلقي علمه، واشتغل بنسخ الجامع الصحيح للبخاري وبيعه لتوفير لقمة العيش، كما اعتكف العربي بن أحمد الفشتالي للتعليم بمسجد صغير بحي الكدان بفاس، رافضا ممارسة القضاء، أو تقبل الهبات، وكلما احتاج للمال زاول الشهادة لدى عدول فاس. واشتغل الشيخ القصار بحرفة التدريس لزم من طويل خارج الكراسي الرسمية، قبل أن يجبره ضيق الحال على الاستنجاد بالمنصور لتجهيز بناته. وامتنع أحمد الوجاري عن ممارسة القضاء، وبقي يدرس بسطح المدرسة الشراطية، قبل أن يحتال عليه طلبته ليعلمهم بمسجد الأندلس²⁵. وأجبرت الضغوط المادية، وغط العيش الحضري، الحسن اليوسي على ترك المدينة والعودة إلى البادية، لأنه لم يندمج بفاس، وظل نموذجا للعالم المدافع عن المجال القروي لعصره، كما لاحظ ذلك جاك بيرك Jack Berque²⁶.

ويتضح من هذه الأمثلة، مدى تشبث هؤلاء العلماء بالاستقلال عن كل ما هو مخزني، إن على صعيد الموارد المالية، أو على مستوى أساليب عملهم، بهدف إثبات قوة شخصيتهم ومكانتهم، وإشعار المخزن بأهميتهم وقدرتهم على الاستقلال الذاتي، والعيش في منأى عنه وعن تبعاته، وهو ما اضطر المخزن إلى محاولة جذبهم، كلما دعت الضرورة لذلك لتمرير سياساته. غير أنهم كانوا واعين بحجم الوسائل التي كرسها لهذا الغرض من عطاءات وضغوط، فتمادوا في التمسك بمواقفهم، وفقا لما سمحت به الحدود الشرعية، ولما تماشى مع اقتناعاتهم وحافظ على كبريائهم. وأدرك المخزن من جانبه قيمتهم في الموازنة بين ممارساته

²⁴ عبد الرحمان الفاسي، ابتهاج القلوب بخير الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب، دراسة وتحقيق حفيظة الداوي، رسالة د.د.ع.، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 1992، ج. 1، ص. 224.

²⁵ محمد القادري، نشر المفاي، م.س.ذ.، ج. 1، ص. 92، 275، 277، وج. 2، ص. 297-299. ولنفس المؤلف، النقاط الدرر...، م.س.ذ.، ص. 344؛ أحمد ابن الحاج، الدر المنتخب...، م.س.ذ.، ج. 6، ص. 220-221، 234.

²⁶ J. Berque, *Al-Youssi : problèmes de la culture marocaine au XVII^e siècle*, Paris/Lahaye, Mouton, 1958, p. 58. Voir aussi : D. Bensaid, « Les oulémas marocains et la grande guerre (1914-1918) », in *Marocains et Allemands ; la perception de l'autre : actes du 3^e colloque maroco-allemand tenu à Rabat entre les 10 et 12 novembre 1993*, Rabat, Faculté des lettres, 1995, p. 45.

بين الشرع، فسعى إلى توظيف رمزيتهم لتدعيم قرارات علمائه الرسميين وإسباغها المصدقية²⁷.

وإذا كانت هذه المواقف، تترجم إيمان هؤلاء العلماء باستحالة تدجينهم من قبل السلطة السلطانية، فاللافت للنظر أنهم في الوقت الذي كانوا يأفنون فيه من التردد على أبواب القصور، ويشمزنون من تناول الأطعمة على الموائد المخزنية، ومن قبول هدايا أصحاب السلطان وأعوانه²⁸، بل حتى من الجلوس فوق الأفرشة الحيرية المعدة لاستقبالهم، نراهم لا يجدون حرجا في قبول الهبات التي يمنحهم إياها عامة الناس، دونما حاجة إلى التدقيق كثيرا في مصادرها²⁹. وهو تقليد يؤكد عزمهم على تفادي كل ما من شأنه أن يلصق بهم صفة الانتساب إلى الحكام، ويجردهم من قاعدتهم الاجتماعية، التي يترسخ امتثالهم لها، كلما أثبتوا اعتراضهم على التدابير المخزنية غير العادلة. بمعنى أنهم كانوا ملزمين بالتصرف تبعاً لما أوجبه الشريعة، ولما تنتظره منهم العامة من تضامن واستنكار لكل شكل من أشكال التجاوزات التي تطولها، وكأن السياق الذي كانوا يحيون فيه أراد لهم أن يكونوا معارضين.

²⁷ لما تلقى المولى إسماعيل خبر قبول أحمد بن الحاج السلمي منصب القضاء خاطبه قائلا: «وقد شكرنا لكم صنعكم كونكم امتثلتم أمرنا، وساعدتمونا على توليكم تلك الخطة، وأطعتم الله بطاعتنا... فقد كنت مهتما من عدم قبولكم لتلك الخطة ويتغير خاطرنا عليكم، فحين وصلنا قبولكم لها وامثال أمرنا، سجدت لله شكرا». رسالة من المولى إسماعيل إلى أحمد السلمي، محمد الإفرائي، روضة التعريف...، م.س.ذ.، ص 109-110. وكافأ السلطان الفقيه بجعل داره حرما وزاوية. ولعل في هذه الشهادة أكثر من دليل على رغبة المخزن في استقطاب العلماء لصفه.

²⁸ اختلف موقف العلماء من قبول هدايا رجال المخزن، فمنهم من تنزه عنها مطلقا، ومنهم من قبلها وأعاد توزيعها على المحتاجين، كما لو رد المال لأربابه، على اعتبار أنه نزع منهم عتوة. فالتيار الأول مثله رضوان الجنوي الذي رفض قمحا أرسله له أحمد المنصور، ودارا للسكن منحها له القاضي الحميدي بفاس، وجسد التيار الثاني الشيخ أبو المحاسن الذي قبل قمحا أهدها إياه السلطان نفسه، راجع: عبد الرحمان الفاسي، ن.م، ص 219-220؛ أحمد المرابي، تحفة الإخوان...، م.س.ذ.، ص 425.

²⁹ عبد الله حمودي، الشيخ والمريد...، م.س.ذ.، ص 83. حينما دخل اليوسي إلى قصر السلطان، رفض أكل الطعام، ووضع برنسه فوق الفراش قبل أن يجلس. وكان الفقيه العربي بن أحمد الفشتالي يرفض المرور فوق صحن القرويين منذ زلجه المولى إسماعيل؛ لأنه كان يشتهي في المال المنفق على تزليجه، محمد القادري، النقاط الدر...، م.س.ذ.، ص 223-240. واتخذ الموقف نفسه سيدي محمد بن أبي بكر الصنهاجي المجاطي الذي «كان لا يمر بصحن جامع القرويين؛ لأن بعض الولاة فرشه بالآجر، فكان يتحامي من المشي عليه، وإذا أراد الدخول للمسجد المذكور، طلع من مدارج المستودع الكائن هناك، فينزل منها للمسجد»، راجع: محمد الإفرائي، صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر، تحقيق عبد المجيد خيالي، الدار البيضاء، مركز التراث الثقافي المغربي، الطبعة الأولى، 2004، ص 139-140. ورفض أبو المحاسن الفاسي فواكه قدمها له صاحب الريف قائلا: «لأنها جاءتني على يد تباشر الحرام فأنا أعافها»، عبد الرحمان الفاسي، ن.م، ج 1، ص 218. ولما كان المنجور يزور أحمد المنصور بمراكش، ويعقد مجالسه العلمية يكافئه بهدايا مهمة، غير أنه يقوم بإعادة توزيعها على المحتاجين. انظر ليفي برونفيسال، مؤرخو الشرفاء، ص 79. وحول الأحكام المتصلة بأكل طعام السلطان وأخذ صلته، راجع: أبو العباس أحمد الونشريسي، المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1981، ج 6، ص 177-178.

بالمقابل عمل المخزن على تضيق هامش تحرك كبار العلماء، بمن فيهم الموالين له، من خلال تشديد أوجه المراقبة عليهم، فقد فرض أحمد المنصور على العلماء استئذانه قبل إقدامهم على السفر من مراكش، وإن كان المنجور قد خرق هذه القاعدة، فاغتاظ منه السلطان قبل أن يعفو عنه. ونظرا للإشعاع العلمي، أجبر أحمد الصومعي على سكنى مراكش، وترك زاويته بيد أبنائه بتأدلة. كما عمد المولى إسماعيل إلى نقل الحسن اليوسي من مكان إلى آخر تقاديا لتكاثر أتباعه³⁰. مما يبين حجم التخوف الذي تملك السلطانين من أي عالم يمكن أن تشكل تحركاته تهديدا لهما، وتحديدًا من يجذب منهم الاستقرار بالبوادي بعيدا عن المتابعة المباشرة لكبار رجال السلطة.

وبالرغم من تمسك هؤلاء العلماء بمواقفهم، فإنهم احتفظوا بتأثيراتهم على أجهزة المخزن، بواسطة بعض طلبتهم الذين قبلوا الارتقاء في أحضانه، وتقلد وظائفه الدينية. أو السياسية كممارسة صنعة الكتابة على الخصوص. وهكذا فبينما امتنع أبو المحاسن الفاسي عن المشاركة في دواليب السلطة، تقلب مثالا تلميذه علي السلاسي في قضاء فاس ومراكش على عهد أحمد المنصور، شأنه في ذلك شأن عبد الواحد الحميدي، وابنه عبد الوهاب، ومحمد الدقون خطيب المدرسة العنانية، والكاتبين سالم الزمراني ومحمد الجرني، ومحتسب فاس محمد العربي المراسي. كما شغل طالبه محمد الحضري منصب الإفتاء بفاس، وهو المنصب الذي تقلده بمراكش محمد الترغي المتلمذ على الشيخ رضوان الجنوي، الذي عزف أيضا عن تولي أية وظيفة رسمية، وآثر امتهان حرفتي النسخ والتعليم³¹. كما مارس أبو مدين السوسي القضاء والإفتاء بمكناس، والحسن بن رحال المعداني القضاء، وأحمد الولالي التدريس بمسجد قسبة السلطان. وجمع سعيد العميري بين تلك المهام وبين الشورى، والعلماء الأربعة كلهم من تلامذة الحسن اليوسي. وشغل كل من أبي عنان الشريف وعلي الزموري الفاسي ومحمد بردلة، الذين أخذوا جميعهم عن عبد القادر الفاسي، عدة وظائف دينية على عهد

³⁰ محمد القادري، نشر... م.س.ذ.، ج. 3، ص. 26. ابن القاضي، المتقى المقصور... م.س.ذ.، ج. 1، ص. 383-384، والقاط الدرر... م.س.ذ.، ص. 42، هامش 4. رُحل اليوسي إلى مراكش مرتين: 1085هـ و1092هـ، إذ بعد خروجه من فاس أنشأ زاوية في خلفون على ضفاف أم الربيع، وبقي يدرس بجامع الشرفاء بمراكش، ثم سمح له السلطان بالعودة إلى خلفون، وسرعان ما رحله بعد ثلاث سنوات خوفا من تعينته للأمازيغ المتعاطفين سابقا مع الدلائيين، راجع: أحمد الولالي، مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار، دراسة وتحقيق عبد العزيز بو عصاب، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الطبعة الأولى، 1999، ص. 233، هامش 323.

³¹ محمد القادري، نشر المظاني... م.س.ذ.، ج. 1، ص. 119، 126، 149، 181. ولنفس المؤلف، القاط الدرر... م.س.ذ.، ص. 35، راجع أيضا: نفسية الذهبي، الزاوية الفاسية... م.س.ذ.، ص. 322، 333.

المولى إسماعيل³². فهل يعني هذا رغبة ثلة من العلماء المستنكفين عن العمل داخل الأجهزة المخزنية، في الإبقاء على حضورهم الرمزي، من خلال مشاركة بعض تلامذتهم في مزاوله الوظائف الرسمية؟

إن العالم أبا المحاسن الفاسي الذي تملص من عرض أحمد المنصور، القاضي بإشراف أحد أبناء الشيخ على خزانة جامع القرويين، تحت ذريعة أن تلك المهمة تؤدي إلى « الوقوف بباب السلطان »، لم يجد غضاضة في تولي أحد أبرز رواد مجالسه، لمنصب قاضي الجماعة يقاس خلفا لعبد الواحد الحميدي، ولمهمة قاضي مراكش في ما بعد³³. واليوسي الذي أكد في إحدى رسائله إلى المولى إسماعيل على نزاهة قاضي فاس محمد المجاصي وكفاءته، أحد تلامذة عبد القادر الفاسي، وهو يقابل بينه وبين قاضي سجلماسة عبد الملك التجموعتي، الذي كانت له « وجهة مع السلطان... سامي المهمة... ضرب في الأمور المخزنية، عالم بالمخاطبات السلطانية »³⁴، إنما كان يسعى من وراء ذلك إلى تمرير تصوره عما يفترض توفره من أخلاقيات فيمن يقلد مصالح المسلمين، ويتوخى التعبير عن رفضه الصريح لمختلف التجاوزات التي تخللت هذا النوع من الخطط الدينية، التي دل عليها إقدام المولى إسماعيل بعد وفاة التجموعتي على مصادرة أمواله، وسجن ولده. بل أوصى اليوسي في رسالته إلى المولى إسماعيل بالابتعاد عن أهل الأهواء، والاقتراء بالفقهاء الثقة المقرين منه كسيدي محمد بن الحسن وسيدي أحمد بن سعيد³⁵.

والراجع أن مواقف هذه النخبة من العلماء استهدفت ضمن ما استهدفتها، محاولة اختراق السلك الإداري المخزني، عبر ترسيخ تيار موال لها في ثناياها، أو على الأقل تركيته، يروج لطروحاتها، ويسعى قدر الإمكان إلى احتواء نظيرتها المرتقبة في أحضانها، والمنساقاة بشكل كلي وراء سياساته، من خلال تقديم صورة العالم النموذجي الذي يحرص على الدين لينتفع به الخاص والعام.

³² محمد القادري، التقاط الدرر...، م.س.ذ.، ص.ص. 209-303، 311-312، ونشر الماني...، م.س.ذ.، ج. 2، ص.ص. 294-295، وج. 3، ص. 201؛ وأيضاً نفسية الذهبي، ن.م، ص.ص. 341، 344.

³³ محمد القادري، نشر الماني...، م.س.ذ.، ج. 1، ص.ص. 148-149؛ عبد الرحمان الفاسي، ن.م، ج. 1، ص. 217.

³⁴ محمد القادري، ن.م، ج. 3، ص. 162؛ والتقاط الدرر...، م.س.ذ.، ص.ص. 262-263.

³⁵ محمد القادري، ن.م، ص.ص. 36-166؛ والتقاط الدرر...، م.س.ذ.، ص. 97، هامش 2. وجه الحسن اليوسي انتقاداً شديداً لمحمد المجاصي، عقب مدحه المبالغ فيه للمولى رشيد بعد بناء قنطرة سبو، انظر: المحاضرات...، م.س.ذ.، ص. 18.

وهي محاولة ارتبطت على ما يبدو، بما كان يقدم عليه كبار العلماء الرسميين من خلق أتباع لهم في هياكل الإدارة. إذ قدم المنجور لأحمد المنصور، بمراكش العالم عبد الله ابن علي بن طاهر الشريف الحسني، باعتباره من الأطر العلمية الواعدة التي أشرف على تكوينها، تحت وطأة انتقاد مفتي الجماعة وقاضيهما عبد الواحد الحسني السجلماسي، الذي اعتبر أن سن ذلك الإطار لا يتناسب مع ما نسب له من علوم يتقنها³⁶. مما يعني أنه لم يكن ينظر بعين الرضا لهذه الخطوة، التي تفضي إلى تثبيت نفوذه لدى السلطان. كما حاول أصحاب محمد الشيخ المامون تأخير القصار عن المنصب الذي منحه إياه السلطان بفاس، فكاتب القصار ولده يطلب منه إبعاد أطماع الفقيه أبي عمران عنه³⁷.

ولعل هذين المثالين يترجمان فصلا من فصول الصراع المحتدم بين مشارب علماء الجهاز المخزني، من أجل الهيمنة على مراكز القرار الديني في الإدارة، الذي كان يجد له صدى بالتأكيد لدى نظرائهم المتحرجين من الخدمة الرسمية، والمكتفين بممارسة وصاية غير مباشرة على النزر القليل ممن انخرط من تلامذتهم في تلك الخدمة. وقد أسفر اشتداد ذلك الصراع، غير ما مرة، عن إبعاد بعض العلماء من مناصبهم. وفي هذا السياق، أسفر الخلاف بين قاضي فاس ومفتيها علي بن عمران من جهة، والشيخ القصار والقاضي الحميدي من جهة أخرى، حول مسألة الشرف عن عزل الأول من مهامه، والمصير نفسه لقيه قاضي فاس محمد بردلة، الذي أمر بإزالة سارية مسجد القرويين المنسوبة لعبد القادر الجيلاني، بالرغم من معارضة المفتي والخطيب عبد الواحد البوعناني³⁸، مما أثار احتجاجات لدى السكان توجت بعرض القضية على المولى إسماعيل الذي تبنى طرح الأخير.

ويعبر هذان الحدثان عن عدم تساهل السلطان مع أي عالم مهما بلغ شأوه، أثار من حوله الزوابع، وفشل من خلال ممارساته في إجراء الأمور على عوائدها بما يضمن الحفاظ على التوازن داخل المجتمع.

غير أن هناك صنفا من العلماء تقمص مواقف أحد شيوخه، ووجد فيها مرجعية للتجافي عن مزاوله المهن الرسمية، ولتكريس ثقافة الفقيه الذي لا يأخذه في قول الحق لومة لائم؛

³⁶ محمد القادري، النقاط الدر...، م.س.ذ..، ص. 97، هامش 2.

³⁷ عبد الرحمان الفاسي، ن.م، ج. 1، ص. 201.

³⁸ محمد القادري، ن.م، ص. 38، هامش 3، ص. 267، هامش 1، ونشر الثاني...، م.س.ذ..، ج. 3، ص. 61.

فأحمد بن أبي المحاسن يوسف الفاسي تلقى العلم على يد المنجور ويحيى السراج، وعبد الواحد الحميدي، والشيخ القصار، وكلهم انخرطوا في السلك المخزني، لكنه فضل أن يحذو حذو أبيه. وسار عبد السلام جسوس على نهج بعض أساتذته كعبد القادر الفاسي والحسن اليوسي³⁹، ولم يذخر جهدا في الذب عن أصول الشريعة.

والملاحظ أن مواقف الإحجام عن الخدمة مع المخزن، لم تتخذ في معظم الحالات بعدا وراثيا أسفر عن تعاقبها في أسر معينة، بل ظلت محكومة في مدها وجزرها بالاعتبارات والطموحات الفردية، وبالاقتناعات الشخصية لكل عالم، وبطبيعة السياسة السلطانية وما أفرزته من أحداث عايشها؛ فمحمد بن الحسن بن عرضون قاضي شفشاون على عهد أحمد المنصور، « يروي عن نفسه أنه ليس في سلفه من انتمى لمخزن أو دخل مدخله غير أبيه »⁴⁰. ولم يقتد محمد ميارة الأصغر بجده ميارة الأكبر، فأشرف على أوقاف المساكين، وتولى منصب ناظر الأحباس، كما شغل محمد الفاسي، وهو من ذرية أبي المحاسن الفاسي، مهام الإمامة والخطابة والتدريس بمولاي إدريس زرهون، ثم بمسجد السلطان المولى إسماعيل بمكناس⁴¹، والثلاثة عرفوا بعدلهم وثقتهم وهيبته لدى العامة والخاصة. فهل فضل هؤلاء العلماء وأمثالهم تجريد الوظائف الدينية الرسمية مما شابها من تجاوزات، من خلال المشاركة بدل البقاء بعيدا والاكتفاء بالنصح والإرشاد، باعتبار أن تلك المشاركة من واجباتهم الدينية التي لا تتجاوز حدود الشرع، وتحافظ على السير العادي لأمر المسلمين، وليست مهمة تنطوي على أبعاد سياسية؟

الثابت أن عزوف معظم العلماء والفقهاء عن تبوأ المناصب المخزنية، مثل نوعا من التمييز بين حدود المجال الديني من جهة، والمجال السياسي من جهة أخرى، وعبر من منظورهم عن صعوبة الجمع بين المجالين نظرا لتباين غايتيهما. فمنافع الأول وأهدافه تتجسد في نيل الثواب العظيم عند الله، أما الثاني فيسعى إلى تحقيق غايات دنيوية⁴². وبذلك وجب الفصل

³⁹ محمد القادري، ن.م، ج. 1، ص. 161-162، وج. 3، ص. 207.

⁴⁰ محمد القادري، النقاط الدر... م.س.ذ.، ص. 40، هامش 4.

⁴¹ محمد القادري، نشر الثاني... م.س.ذ.، ج. 2، ص. 120، وج. 3، ص. 330، 353، 354، والنقاط الدر... م.س.ذ.، ص. 353، هامش 7. خلافا للعلماء الشيعة الذين كانوا يكونون تقريبا طبقة مغلقة لها أسسها وتنظيماتها وقواعدها، ارتبط علماء السنة بمواقفهم الشخصية، راجع: فؤاد إبراهيم، الفقيه والدولة... م.س.ذ.، ص. 162.

⁴² الحسن اليوسي، القانون... م.س.ذ.، ص. 306، 326.

بين سلطة المخزن وبين سلطة العلماء، على الرغم من وعي هؤلاء بالتكامل الحاصل بين السلطتين، ويكون وجود كل طرف مستمد من الآخر.

بالمقابل حرص المخزن على الضغط عليهم، من أجل توظيفهم في منظومته السلطوية بصفتها قوة تخول الشرعية لقراراته، إما بواسطة الرسائل المتبادلة بين الجانبين حول القضايا الملحة، أو من خلال لعب دور صلة الوصل بينه وبين عناصر المجتمع، خاصة وأن قوتهم تتغذى بالسند الشعبي. وهكذا توسط عبد القادر الفاسي للثائر اللمانو لكي ينال عفو المولى إسماعيل، بعد أن أعلن الثورة ضدًا عليه بفاس. وشفع ابنه لعلجين، ولشرفاء المنجريين، ولسكان فاس المحاصرين. وقام العالم علي بركة بالمهمة نفسها لدى السلطان، بهدف عودة آل النقسيس من سبتة إلى تطوان⁴³. كما وجه العالم المرابي رسالة شديدة اللهجة لقائد المنصور محمد بن سالم بعد أن أخرج رجاله امرأة من بيتها ورجلاً من حانوته: « ولتعلم أن المكان الذي أنت فيه إنما صار إليك بعد زوال غيرك منه، وسيزول من يديك ويصير إلى غيرك... وكم دحت الأيام أرباب دولة وقد ملكوا أضعاف ما أنت مالكة »⁴⁴. ترى أنتم هذه الوساطة عن دلالة سياسة، أم أنها تجسد مشاركة هؤلاء العلماء في الحكم المخزني؟⁴⁵

الواضح أن العلماء لم يحصروا أدوارهم في التوسط لدى السلاطين، أو في الشفاعة لديهم كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وإنما تدخلوا متى رأوا مناسبة « للمحافظة على الديانة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهد الاستطاعة »⁴⁶، وهم مقتنعون أشد الاقتناع بحتمية ذلك، وبكونه لا يعبر عن مخالطة لأولي الأمر، أو عن المشاركة في السلطة، بدليل أنهم كانوا يستجيبون لدعوات السلطان لحضور الحفلات الدينية، إذ حضر الحسن اليوسي، بقصر المولى إسماعيل، حفل ختم التفسير على يد عبد الله المجاصي، وشهدت ليالي رمضان، التي كان يسرد فيها الشاطبي صحيح البخاري، مشاركة جل العلماء بين يدي أحمد المنصور الذي قدم

⁴³ محمد القادري، النقاط الدر... م.س.ذ.، ص. 221، هامش 1، ثم ص. 301، هامش 2. وحول عزوف علماء المشرق عن تولي المناصب السياسية، راجع: خالد زيادة، « العلماء وتجربة التنظيمات في القرن 19 »، مجلة الأجيال ع. 5، 1989، ص. 36-37. ورسائل المولى إسماعيل إلى محمد بن عبد القادر الفاسي، L El Fasi, « Biographie de Moulay Ismail », op. cit., pp. 66-73.

⁴⁴ أحمد المرابي، تحفة الإخوان... م.س.ذ.، ص. 434-436.

⁴⁵ خالد زيادة، كاتب السلطان... م.س.ذ.، ص. 73، 94.

⁴⁶ اخسن اليوسي، ن.م، ص. 328.

الأكل بنفسه لكبارهم⁴⁷.

إذن فالانخراط في السلطة ارتبط في ذهنية هؤلاء تحديدًا، بممارسة الوظائف التي يشرف عليها المخزن وتخضع لوصايته، واعتبروا أن تقلد حتى الدينية منها ينجم عنه الانغماس في الشؤون الدنيوية، بينما صنفوا باقي أنشطتهم الدينية والعلمية والاجتماعية في خانة الأنشطة غير الرسمية التي لا حرج في مزاولتها.

والمثير أنه في الوقت الذي راهن فيه هؤلاء، على الاعتناء بالتأليف والتصنيف والتلقين والوعظ، طغى على علماء المخزن الاهتمام بالفقه، وتناول العلوم الأخرى في إطاره، نظرا لما يوفره من مناصب في مجالي القضاء والإفتاء، مما أسفر عن تراجع إنتاجاتهم الفكرية، واقتصرهم على إنجاز الشروح، وتسجيل الحواشي والمختصرات، خاصة في عهد المولى إسماعيل، إذ «أقبل الناس في هذا الزمان على شرح الشروح، واتضح به النفع غاية الوضوح»⁴⁸. ويفسر ذلك، حسب اليوسي، بأن «الاتساع في الدنيا، والاشتغال بتوفيرها وتنميتها، وتعاطي ملاذها... كالقضاء والإمامة الصغرى، وتعليم الصبيان، ونحوه عائق عن الاستغراق في الطلب... والمرء لا يستطيع القيام بهما في آن واحد»⁴⁹. وهو موقف يعبر بشكل صريح عن كون العالم أمام خيارين لا ثالث لهما، إما التفرغ للتحصيل والبحث، أو الدخول في خدمة المخزن.

كما يعود هذا التراجع خلال عهدي السلطانين إلى هيمنة الثقافة الحضرية الأندلسية المتشعبة، التي أدت إلى سيادة سياق الحفظ بدل الاجتهاد، وإلى الانطواء على النفس⁵⁰، نظرا لحالة الانغلاق التي نتجت عن انكماش علاقة النخبة الحضرية بالسواحل وبالتجارة المتوسطة، وخضوع النشاط التربوي لتوجيه الزوايا⁵¹، فتمت إعادة إنتاج العلم الشرعي عبر التدريس، والشرح والتلخيص ونادرا التأليف. ففي العهد السعدي، أفضت الانشغالات

⁴⁷ محمد القادري، ن.م، ص. 240؛ أحمد ابن القاضي، ن.م، ج. 2 ص. 755؛ عبد العزيز الفتشالي، ن.م، ص ص. 205، 213.

⁴⁸ محمد القادري، نشر المثاني...، م.س.ذ.، ج. 2، ص ص. 326-327. حول اهتمام العلماء خاصة بالفقه، راجع: خالد زيادة، ن.م، ص. 64.

⁴⁹ الحسن اليوسي، ن.م، ص ص. 424-425.

⁵⁰ عبد الله العروي، مجمل...، م.س.ذ.، ج. 3، ص ص. 63-64.

⁵¹ ن.م.

المهنية لعلماء أحمد المنصور، ذوي الأصول الأندلسية أمثال عبد الواحد الحميدي، ويحيى ابن محمد السراج، ومحمد بن قاسم القصار، إلى خروجهم عن ذلك السياق، ونتج عن تفرغ بعض العلماء من قبيل عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي، عطاء غزير تجاوز مائتي مؤلف⁵².

والواقع أن العلماء الذين ارتبطوا بأجهزة المخزن، أو الذين بقوا خارجها حافظوا باستمرار، كل في موقعه، على العلاقات الرمزية التي جمعتهم بالسلطان، وبباقي فئات المجتمع، وأسهموا في تنظيم الحياة الاجتماعية، وفي التعبير عن آرائهم بخصوص مختلف القضايا المعروضة بما فيها السياسية، وإن كانت المادة المصدرية لا تتصدى لتفاصيل هذه العلاقات، إلا في الحالات التي يحتدم فيها الخلاف، أو تطرأ مستجدات تستدعي اتخاذ قرار أو إصدار فتوى في مسألة معينة، كما هو الشأن بالنسبة لغزو السودان، ولقضية تملك الخراطين. فما هي طبيعة المواقف التي اتخذها العلماء من النازلتين؟

نازلتا غزو السودان وتمليك الخراطين

حظي العلماء باهتمام كبير من لدن السلطانين، فأحمد المنصور كان «متنافسا في صحبتهم، موثرا مجالستهم، لا يفارقهم حضرا ولا سفرا»⁵³، حتى أضحي لهم «في بساط الملك شأن عظيم ووقار»، و«بلغوا في زمانه من العلو والرفعة وإجراء المرتبات العظيمة»⁵⁴، إذ كان يزورهم في منازلهم ويحسن إليهم⁵⁵. ولم يأل المولى إسماعيل جهدا في إكرامهم وتعظيمهم والإحسان إليهم، من خلال الكرم وتوزيع الجرايات والنعم، بل ذكر في رسالته إلى علماء فاس، أنه يعلم «أن الملوك حكام على الدنيا، والعلماء حكام على الملوك»⁵⁶.

تلك هي الصور التي حملتها الإسطوغرافية عن سياسة الرجلين تجاه العلماء، دون تمييز بين الرسميين منهم أو المعارضين، ودون تحديد مواقف كل طرف من تلك الامتيازات

⁵² محمد القادري، القاط الدرر... م.س.ذ.، ص. 230؛ هامش 1؛ نشر الثاني... م.س.ذ.، ج. 1، ص. ص. 70-71، 88، وج. 2، ص. ص. 326-327.

⁵³ محمد الإفرائي، نزهة الحادي... م.س.ذ.، ص. 133.

⁵⁴ أحمد المقرئ، روضة الآس... م.س.ذ.، ص. 20.

⁵⁵ ذكر في إحدى رسائله إلى محمد بن عبد القادر الفاسي، أن «العلم والخلافة أخوان مقترنان لا يفترقان»، راجع نفيسة الذهبي، ن.م، ص. 409؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 225؛ المجهول السعدي، ن.م، ص. 73؛ أحمد القاضي، ن.م، ج. 1، ص. 383.

⁵⁶ محمد ابن العياشي، زهر البستان... م.س.ذ.، ص. 91؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. ص. 219، 222، 230؛ محمد الإفرائي، روضة التعريف... م.س.ذ.، ص. 82.

للمادية والمنعوية، من عطاءات واحترام وتوقير، وهي امتيازات ظلت مشروطة بمدى استعداد المستفيد لتزكية الممارسات المخزنية وتبريرها، كلما تطلب الوضع السياسي ذلك.

لكن هناك شبه إجماع على النقلة النوعية التي عرفتتها علاقة العلماء بالمخزن على عهد أحمد المنصور، الذي لم يتقاعس عن تقديم الإنعامات والعطاءات لهم في كل المناسبات، مما رفع من مكانته لديهم ودفعهم إلى التقرب منه، ونظم أشعار مدحه، حتى إن المنجور أصابه القهر من كثرة المكافآت المالية والألبسة والكتان والإماء، التي كانت تخصص لرجال العلم⁵⁷. في حين دعا اليوسي في رسالته الشهيرة للمولى إسماعيل إلى بسط «يد الفضل على خواص الناس وأهل العلم والدين والخير ليكتسب محبتهم وثناءهم ونصرهم»⁵⁸، وهو ما يعني أنهم كانوا يشكون من نقص في العطاءات، حتى إن علماء فاس اتهمهم السلطان بالتقصير في واجباتهم التعليمية، فوعدهم بعطايا ستعم «المعلم والمتعلم متبوعة بغيرها من غير ألم الانتظار والإبعاد ولا تسويق، ولا تخصيص زيد أو عمرو»⁵⁹. مما يدل على حرمان فئة من العلماء من الأرزاق، وإقصاء أخرى. وهو ما جعلهم يؤكدون في رسالتهم الجوابية بأن على الأمير أن يتفقد أحوالهم؛ لأنها واجبة على بيت المال⁶⁰.

ويجد هذا التباين تفسيره في اختلاف الظرفية، التي أوصلت كلا السلطانين إلى الحكم، فإذا كان أحمد المنصور قد جعل من العناية بالعلماء وسيلة من وسائل مجازاتهم على الإجماع الذي أحاطوه به خلال توليه، فإن سياسة المولى إسماعيل تجاههم يمكن فهمها في سياق تدبذب مواقفهم حياله، وإقدامهم على مبايعة خصمه أحمد بن محرز خلال السنوات الأولى من تربيعة على عرش البلاد. لكن هل كان اختلاف تصور العاهلين لأشكال الممارسة السياسية، والفروق الشخصية بينهما وراء ذلك التباين؟

⁵⁷ محمد الإفرائي، نزهة الحادي... م.س.ذ.، ص. 125. من الذين مدحوا أحمد المنصور، عبد الواحد السجلماسي، وعلي الشاطبي، وأحمد المنجور، راجع: محمد القادري، القفاط الدرر... م.س.ذ.، ص. 20-22. بل استفاد بعض الفقهاء من إقطاعات، كما هو الحال بالنسبة للفقير عبد الخالق الومغاري. انظر ظهور منصور بن تاريخ 10 ربيع الثاني سنة 990هـ، مديرية الوثائق الملكية، محفظة أحمد المنصور 1578-1603. وأيضاً عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 224-225، 234.

⁵⁸ محمد القادري، نشر الثاني... م.س.ذ.، ج. 3، ص. 33.

⁵⁹ رسالة المولى إسماعيل إلى علماء فاس بتاريخ 15 جمادى الثانية 1125هـ، عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف... م.س.ذ.، ص. 106.

⁶⁰ جواب علماء فاس إلى المولى إسماعيل، عبد الرحمن ابن زيدان، ن.م، ص. 107.

مثل مشروع غزو السودان أبرز محك حقيقي لقياس وتيرة العلاقات بين العلماء وأحمد المنصور الذي أصر على استفتائهم في بداية الأمر حول ملاحه تغازى، ففوضوا له أمر البت في شؤونها، وأفتوا بأحقية بصفتها إماماً في استغلال مواردها⁶¹. وتفاديا للإنفراد بالقرار، طرح عليهم مسألة غزو السودان، فتحفظوا لقساوة الظروف الطبيعية، ولمخاطر المواصلات، ولعدم إقدام الأسلاف على التفكير في ذلك، حسب رواية الفشتالي، بينما يستشف من كلام المجهول السعدي، ومن موقفه من الحملة، أن جوهر الخلاف كان حول مدى شرعية غزو مناطق يدين أهلها بالإسلام⁶². لكن مؤرخ أحمد المنصور تغاضى كعادته عن ذكر الأسباب الحقيقية للتحفظ، وتمادى في إزالة كل العقبات التي اعترضت المشروع، من خلال التأكيد على نجاح ولي نعمته في تبديد شكوك العلماء، وإقناعهم بقدرة إمكاناته العسكرية المتفوقة على تحقيق ما عجز عنه الأولون، ويكون البلاد المستهدفة «أغزر نفعاً، وأجدى مغبة، وأرحب مجالا، وأوسع عمراناً، وأوفر نشباً، وأقوى بمعادنها، وكثرة المستاق من رقيقها»⁶³. بل إن إقدام أحمد المنصور على استخدام الحجج نفسها في رسالته المطولة إلى الجهات والأقطار، وهو ينفذ لها بشرى الفتح، وإصراره على أن المكاسب المحققة من وراء ذلك، هي تقوية الموارد للقيام بالمهمة الأساسية وهي الجهاد لاسترجاع الأندلس، إنما يدل على شعوره بأن شريحة من العلماء لم تقبل مشروعه إلا على مضض، وأن هدف الرسالة بالأساس هو إقناعها بنجاعة تدبيره، ورغبته في استقطاب المترددين من ممثلي السكان وكسبهم، ليقدروا «صنع الله فيه حق قدره... فإنه فتح لم تلد مثله الأيام ولا عوهد فيما سلف من دول الإسلام»⁶⁴.

وشكلت قضية تمليك جيش العبيد حجر الزاوية في اندلاع جدال فقهي حول شرعية هذا الإجراء، الذي لم يتم فيه الفصل بين العبد والحرطاني، أو مراعاة مبدأ الحرية في تمليك أسود الجلد وأحمره من القبائل.

⁶¹ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 122.

⁶² المجهول السعدي، ن.م، ص. 67-68؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 126؛ عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا... م.س.ذ، ص. 158-159.

⁶³ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 128.

⁶⁴ رسالة أحمد المنصور إلى سكان الأقاليم والجهات، بتاريخ 7 شعبان سنة 999هـ، 31-5-1591م، عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 145. وكتاب أحمد المنصور لأهل فاس يخبرهم بفتح بلاد السودان، خ.ح، رقم 1622. ولزيد من التفاصيل حول حملة السودان، راجع: مبارك آيت عدي، حملة أحمد المنصور الذهبي إلى بلاد السودان، مساهمة في إعادة الدراسة، أطروحة دكتوراه في التاريخ، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 2003.

ولم تثر أية ضجة حول عمليات الجمع الأولى، التي حظيت بموافقة علماء فاس البارزين، الذين أشروا على ما عرض عليهم من الدواوين الواردة من مختلف الجهات المستهدفة⁶⁵، وإنما وقع الاعتراض حين شمل الأمر مدينة فاس، واندلع نقاش شرعي حول تملك الأحرار، أسفر عن اشتداد معارضة قادها محمد العربي بردلة، وعبد السلام جسوس، ومحمد ميارة، الذين أفتوا جميعهم بعدم جواز ذلك الإجراء. بل إن محمدا بن عبد القادر الفاسي توصل بثمان رسائل في الموضوع من المولى إسماعيل، يدل عددها على تملص الشيخ من تقديم إجابة صريحة⁶⁶، وعلى عدم تمكن السلطان من إقناعه بالمصادقة على مشروع يوسع مجال الرقية إلى أشخاص أحرار، ثم قام عبد الله الروسي بجمع أعيان مدينة فاس بزواية القلقليين، وقرأ عليهم كتابا من السلطان يوبخهم فيه بسبب معارضتهم لتمليك الأحرار⁶⁷.

وتوالى الضغط بعد أن تأكد المخزن من رغبة علماء فاس في استثناء حراطين مدينتهم، وما قد يسفر عنه ذلك من تدمير في الأوساط التي همتها عملية الجمع، ومن تأثير على بنية الجيش برمته، فتقرر استدعاء الفقهاء الثلاثة إلى مدينة مكناس، رفقة محمد بن الحاج الذي انضم إليهم، فوبخهم السلطان بطريقة مباشرة وفردية، فأصغوا إليه ولم يجيبوه باستثناء الشيخ جسوس، الذي دخل في حوار معه انتهى بقراءة مسودة أعدها الفقهاء في موضوع التملك، لم ينل مضمونها رضا المولى إسماعيل، الذي هم بالقيام من مجلسه ليتجراً الفقيه عبد السلام جسوس، ويمسك بثوبه الشيء الذي أدى إلى بداية محنته⁶⁸. ماذا نستشف من فصول هاتين المواجهتين اللتين دارتا بين السلطانين وعلماء التيار الرسمي من جهة، وبين العلماء المعارضين من جهة أخرى؟

بادئ ذي بدء تجدر الإشارة إلى وجوب تسجيل أمرين، أولهما أننا لا نملك المعلومات الكافية عما دار في المواجهة الأولى حول مشروع فتح السودان، مقارنة مع المواجهة الثانية

⁶⁵ رسالة من محمد عليلش إلى محمد اليمحمدي، مؤرخة بـ 8 ذي القعدة سنة 1104 هـ يخبره بموافقة علماء فاس على ديوان عبيد بني مالك وسفيان. انظر: «رسائل إسماعيلية ضمن: M. El Fasi, « Biographie de Moulay Ismail », op. cit., p. 67.

⁶⁶ نفيسة الذهبي، ن.م، ص. 269، 272. ثم رسائل إسماعيلية، ن.م، ص. 62.

⁶⁷ محمد القادري، نشر المثاني... م.س.د.، ج. 3، ص. 117.

⁶⁸ نفيسة الذهبي، ن.م، ص. 294-295. ولمزيد من التفاصيل، راجع: محمد الخيمر، جيش العبيد والدولة المغربية؛ محمد المهنائي، التنظيم العسكري وعلاقته بالسلطة والمجتمع في العهد العلوي الأول، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ، مرقونة، الجديدة، كلية الآداب، 1996.

التي استحوذت على حيز هام من كتابات المرحلة. وثانيهما أن النزر القليل الذي وصلنا عن حوار أحمد المنصور مع العلماء، إما أنه لا يوحى بوجود مواجهة حقيقية بين الطرفين، أو أن الفشتالي الذي انفرد بالموضوع فضل عدم الدخول في تفاصيله، بدليل أنه لم يكلف نفسه عناء ذكر حتى بعض أسماء العلماء الذين تحفظوا على المشروع. وهو ما يجعل من الصعب الحديث عن فريقين متعارضين من الفقهاء، كما كان عليه الأمر خلال عهد المولى إسماعيل، باستثناء الإشارة العابرة للمجهول السعدي، التي نعت فيها المهنيين بنصر السودان، «بالمتفهمة والقواد وعلماء الظاهر العاديين البصائر والأمناء بغير حقيقة»⁶⁹، مما يعني وجود تيار آخر من الفقهاء المتعطفين، اتخذ موقفا مخالفا. لكن الإفرائي أورد بأن الفقهاء عارضوا المشروع كلهم «بلسان واحد، ورأي متفق»⁷⁰.

مهما يكن من أمر، فالواضح أن أية محاولة للمماثلة بين النازلتين، تعد من باب المجازفة، نظرا لأن الأولى تتعلق بغزو مناطق جنوب البلاد، بينما الثانية دارت رحاها حول موضوع مس شرائح مختلفة في صلب المجتمع المغربي، وأحدث خلخلة في بعض التراتيبات، وفي مصالح مختلفة ارتبطت من قريب أو بعيد بشريحة هامة من العلماء، إن على مستوى ما هو آتي، أو على صعيد مصداقيتهم في المنظومة الاجتماعية. غير أن هذا الأمر لا ينفي وجود قاسم مشترك بين النازلتين، يتجسد في حاجتهما الماستين إلى مقارنة شرعية لتبريرهما، أي إلى اجتهادات يتم من خلالها التقريب بين الإسلام بصفته نظرية في أذهان حملة العلم، وبين الإسلام بصفته ممارسة سياسية في تصور المخزن ومن يدور في فلكه، ويوضحان اختلاف منطق السياسي عن الفقيه، وهذا التقابل هو الذي أفضى باستمرار إلى اندلاع نقاشات ساخنة، اشتدت وبلغت أحيانا درجات عالية من التوتر، وعبرت عن حركية يتجاذبها التحفظ والانفتاح.

وإذا كان أحمد المنصور قد نجح في تمرير مشروعه دونما حاجة إلى أخذ ورد، حتى إن الحاضرين في مجلس المشورة استحسنا جوابه، و«استملحوا إشارته، واستجادوا رأيه، وقالوا له... ألهمت الصواب، ولم يبق لأحد ما يقول»⁷¹، فإن المولى إسماعيل اضطر إلى الدخول في مخاض طويل مع العلماء بهدف إقناعهم وإرغامهم على المصادقة على ديوان

⁶⁹ المجهول السعدي، ن.م، ص. 68.

⁷⁰ محمد الإفرائي، نزهة الحادي...، م.س.ذ.، ص. 91.

⁷¹ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 92.

التمليك، بل إنه لم يذخر أية وسيلة ممكنة لبلوغ هدفه، فتراوح خطابه بين اللين تارة، والشدة تارة أخرى. وهكذا بعدما عرض في إحدى رسائله الموجهة إلى محمد بن عبد القادر الفاسي المنافع التي ستجنيها البلاد من وجود الجيش المحترف، اعتبر أن « العلم والخلافة أخوان لا يفترقان »... وتابع قائلا بأن « بعض أهل العلم والدين والفهم والنظر السديد، يفهم ذلك ويعرفه كمعرفتنا، فيشد أزرننا، وينظر نظرنا، ويقوي أكتافنا، بينة صالحة واضحة، وبفتوى راجحة، ويقول أئمة أهل العلم والدين واليقين، ويقول الناس هذا السعي والعمل والرأي المصيب الذي وفق الله هذا الرجل إليه، ويسره فضلا منه يجب أن يسلك ويعمل به شرعا وطبعاً، ونظراً ورأياً واجتهاداً... ويشمر لإبلاغ مثل هذا مفتياً وخطيباً ومعلماً وفصيحا عن هذا الشأن باليد واللسان، وينطق بالحق الذي ما عليه غبار، معرفاً الناس خاصة وعامة بالآثار والأخبار... »⁷².

ويستنتج من هذا الخطاب، أن على أهل العلم والدين في نظر السلطان، أن يتفهموا قراراته، ويحثوا لها عن مرجعية وسند، ويفتوا بشرعيتها، ويخطبوا في المنابر لإقناع كل متردد بصحتها، وكل موقف مغاير فهو يتناقض مع الرأي السديد ويصنف دعائه فيمن يتناكسون ويتعامون ويتغافلون⁷³. ولم يتردد المولى إسماعيل في استحضار أحداث تاريخية لتدعيم تصور، وللتأكيد على أن منهجه كان معمولاً به في العلاقة بين الفقهاء والملوك على الدوام، فاستشهد بسلفه أحمد المنصور، وبروابطه مع عبد الواحد الحميدي، والمنجور، والقصار، ويحيى السراج وغيرهم، إذ « كان كلما رام مسألة يجدهم في أكتافه فيها، وكذلك كان من قبله »⁷⁴، بل ذكرهم بالنتائج الإيجابية لذلك التوافق والانسجام، وبضرورة اقتدائه، ما دام أن غزو السودان أفضى إلى إعلاء شأن الدولة السعدية، وإلى تحقيق المنافع الاقتصادية؛ إذ « جلبوا من الفياقي والبيداء والقفار من البلاد الشاسعة لإبقاء مثل هذا عليهم... وكأنكم أنتم لا شعور لكم بأولئك، ولا على شيء من سننهم وهدبهم في سلوك تلك المسالك، وكأننا نحن عملنا الفدا هو حق ولا شرع وسداد ونظر وصواب، ولا اقتفيناً عندكم ما اقتفاه الذين

⁷² الرسالة الأولى من المولى إسماعيل إلى محمد بن عبد القادر الفاسي، منشورة ضمن مخطوط، خ. ح. 4490، نفيسة الذهبي، ن. م. ص. 408-409.

⁷³ ن. م.

⁷⁴ الرسالة الثانية من المولى إسماعيل إلى محمد بن عبد القادر الفاسي، ن. م. ص. 412.

تقدموا قبلنا»⁷⁵.

إذن فاستحضر المولى إسماعيل لحدث غزو السودان يوحى بمسألتين، أولاها تمسكه الشديد بسلوك مسلك أحمد المنصور، وبتتبع خطواته، ورغبته في إعادة إنتاج العلاقات نفسها التي جمعت بينه وبين العلماء، على الرغم من تباين النازلتين والظروف التي أفرزتهما. وثانيتهما تركيزه على منطق رجل السياسة، الذي يحكم على القضايا من خلال ما ستسفر عنه من نتائج مادية ملموسة تهم الخاص والعام، وليس عبر ما ستثيره من نقاش نظري يمكن تجاوزه بإيجاد مخرج شرعي، على شاكلة ما حدث لحكام الدول السابقة، الذين «أذعنت لهم الأمم، وتحكموا في الأخص منهم والأعم، والعلماء الأعلام معهم في غاية الائتلاف من شد أزهرهم ورعاية أوامرهم ونواهيهم، لا ييغون بهم بدلا، ولا لهم عن حماهم تحول ولا انحراف أصلا»⁷⁶.

وهكذا ألح المولى إسماعيل في رسائله على ضرورة تخلي العلماء عن مواقفهم المعارضة، والانخراط في المشروع السلطاني الذي لا يهدف فحسب إلى تدعيم البنيات العسكرية للمخزن، وإنما يسعى إلى حماية المغرب باعتبار أن كل أراضي «ثغر من الثغور وهي أقصى البلاد الموالية للروم»⁷⁷. وهو تبرير يحمل في ثناياه أكثر من دلالة، إذ يجمع بين الإقناع بوجوب الانصياع لشرط الجهاد، وبين وضع العلماء الرافضين أمام المسؤولية التي يحتمها الشرع. كما لم يفت أحمد المنصور خلال عرضه لمنافع غزو السودان، التلويح بأن المتولي على بلادهم «معزول عن الإمارة شرعا، إذ ليس بقشري ولا اجتمعت فيه شرائط السلطنة العظمى»⁷⁸.

وتعكس هذه التبريرات مدى قدرة المخزن، خلال المناسبات التي كان يلجأ فيها إلى استفتاء العلماء، على إنتاج خطاب رمزي مستمد من فتاوى الفقهاء المرتمين في أحضانه، والمتفهمين لأبعاد قراراته. والأكثر من ذلك أنه وظف تلك الفتاوى للضغط على كل من تصدى لمشاريعه، ولاستقطاب كل من رام النفور من سياساته.

⁷⁵ ن.م، ص. 412.

⁷⁶ الرسالة الأولى من المولى إسماعيل إلى محمد بن عبد القادر الفاسي، ن.م، ورقة 6، ص ص. 405-406.

⁷⁷ الرسالة الثانية من المولى إسماعيل إلى محمد بن عبد القادر الفاسي، ن.م، ص. 410.

⁷⁸ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 91.

والملاحظ أن تأجج المواجهة على قتلها بين الطرفين، ارتبط في الغالب الأعم بالحالات التي كان يقدم فيها المخزن على تدابير هادفة، إلى تدعيم أسس مركزه السلطة وتقويتها، من قبيل غزو السودان وتكوين الجيش. ترى أكان العلماء المعارضون يرون في ذلك التدعيم تهديدا موجها بشكل مباشر لمصالحهم الخاصة⁷⁹؟ أم أن اقتناعاتهم الدينية وحدها هي التي حتمت عليهم التمسك بمواقفهم؟

جدلية الخطاب الديني والسياسي

اعتبر أحمد المنصور في إحدى رسائله لدوق دي مدينا سيدونيا، حول موضوع العرائش، أنه مستعد لتسليم المدينة للإسبان شريطة أن لا يمنعه من الشرع مانع، أو يزعه من الدين وازع، في إشارة إلى معارضة العلماء. واستشار المولى إسماعيل كبار فقهاءه حول مدى جواز مفاوضة الإنجليز، وأجاب مبعوثهم « هويت » Whet بأن الشرع لا يخوله توقيع اتفاق مع الكفار، الذين يحتلون طنجة، بل برر رفضه إطلاق سراح مائة أسير إسباني بمعارضة العلماء واحتجاجهم على هذه النازلة حين قال: « لا نقدر نخالف شريعتنا التي هي أساس ديننا الحنيف... ولولا معارضة العلماء لنا بهذا الاحتجاج القوي، لكننا سرحنا هذه المائة مع الفرائلي... فلأجل هذا بصرنا كلام علمائنا في هذه النازلة، لا بد منه، ولا محيد عنه »⁸⁰.

وتوحي هذه العبارة الأخيرة بما لا يدع سبيلا للشك بأن هناك فصلاً من المنظور السلطاني، بين نوعية القضايا التي يتم عرضها على العلماء، وبأن رأي هؤلاء فيها لا يتطابق بالضرورة مع أهداف المخزن، وهو ما يعني أن الأخير كان ينتقي من الفتاوى، ما يتماشى مع حساباته السياسية، لتحسيس أصحابها بأهميتهم بصفتهم شركاء في اتخاذ القرار. وبالمقابل يرفض أخرى، ويلج على إعادة النظر في مضامينها لإشعار دعائها بأنهم تابعون له، وبأن مهمتهم تكمن في تزكية ممارساته، وإسباغها بالشرعية كلما أشار لهم بذلك، إذ عبر أبو فارس السعدي عن ذلك الفصل، في رسالته لدوق دي مدينا سيدونيا، حول موضوع سجن الإسباني مرين Marin بالقول: « وهذه المسألة لو كانت من الأمور التي لا يعارض فيها وجه الشرع والدين،

⁷⁹ B. Badie, « *Etat* » et « *légitimité* »... », *op. cit.*, p. 27.

⁸⁰ رسالة من المولى إسماعيل إلى كارلوس II بتاريخ 1101هـ، أوردها محمد بن تاويت، « من زوايا التاريخ المغربي »، مجلة تطوان، ع. 7، سنة 1962، ص ص. 117، 127، 133. انظر أيضاً: محمد الإفرائي، روضة التعريف... (ملحق)، م.س.ذ.، ص. 104. وعن فترة أحمد المنصور، راجع:

A. de Saldanha, *Chronique d'al-Mansour...*, *op. cit.*, pp. 56, 90.

Y. Nekrouf, *Une amitié Orageuse : Moulay Ismail et Louis XIV*, Paris, Albin Michel, 1987, p. 50.

وأنها من المسائل التي تختص بحكم السلاطين، لأسعفنا فيها رغبتكم، وأجبننا فيها طلبكم، ولكن لا يخفاكم أن ما يكون من مسائل الشرع والدين لا يعارض ولا يناقض»⁸¹. وهي سياسية تدجينية رفضها جل العلماء، باعتبارها وسيلة من وسائل تجريدهم من سلطة الرقابة على الإجراءات التي تمس المجتمع؛ لذلك اتخذوا من التمسك بالشرع سلاحا لحماية تلك السلطة، ولمواجهة أية مبادرة تسعى لتجاوزها بغية تكريس ثقافة احتكار القرار السياسي.

ومن هنا فلا غرو، أن يجمع رأي الفقهاء على أن الآلة العسكرية المحترفة، لو وظفت في الجهاد بهدف استرجاع الأندلس، كما تعهد بذلك السلطانان إبان مرحلة تشكيلها، لأفضت إلى إعلاء كلمة الإسلام، بدلا من استخدامها في تمتين ركائز المخزن عبر الإكثار من الضرائب. وهكذا ففي الوقت الذي كان يطمح فيه المخزن إلى توظيف الشريعة لتقوية هياكل السلطة السلطانية، سعى العلماء إلى جعل تلك السلطة في خدمة الشريعة⁸².

على أن هذا لا يعني في شيء وجود تعارض دائم بين الطرفين، بقدر ما يترجم احتداد وتيرة الجدل حول بعض القضايا، التي كانت تجبر السلطانين على تمريرها في القالب الديني. أما عدا ذلك، فإن المخزن لم يتأخر في تقريب العلماء، وتخصيص استقبالات فاخرة لهم. فكلما سمع أحمد المنصور بقدوم رضوان الجنوي، « هش للقاءه، وأقبل عليه بوجه البر والترحيب، ومهد له الجلوس بإزائه تعظيما وإجلالا، واختصه بمزية الخلوة حتى ينصرف مكرما ومعظما ومشفعا »⁸³، وتعامل على النحو نفسه مع الشيخ البصري المكناسي وعلي الشاطبي، وعبد الواحد الشريف وغيرهم⁸⁴. وخرج المولى إسماعيل من قصره للقاء الشيخ عبد القادر الفاسي بروضة سيدي عبد الرحمان المجذوب، واستقبله بقصره، وأطلق سراح السجناء إكراما له وفرحا بقدومه، كما كان يستدعي فقهاء فاس لحضور الحفلات الدينية بداره⁸⁵.

ولا يخفى ما لهذه السلوكات من أهداف ترمي إلى استقطاب العلماء المعارضين واستمالتهم، وترسيخ ولاء العلماء الرسميين، وتوظيف زياراتهم في كسب إجماع السكان

⁸¹ رسالة من المولى أبي فارس إلى دوق دي مدينا سيدونيا بتاريخ 7 ربيع II 1014هـ: *Archivo General de Simancas (Valladolid) Espagne, S. E, Leg. 200.*

⁸² عبد المجيد القدوري، ن.م، ص. 156؛ عبد الله العروي، مفهوم الدولة، م.س.ذ، ص. 121.

⁸³ عبد العزيز الفتتالي، ن.م، ص. 224.

⁸⁴ ن.م، ص. 224-225.

⁸⁵ محمد القادري، ن.م، ج. 2، ص. 293-294، 357.

الذين يرون فيها مظهرا من مظاهر عظمة السلطة السلطانية، ومؤشرا من مؤشرات قدرتها على إظهار تبعية ممثلهم لها، وشكلا من أشكال تجديد المشروعية، وتقديم الدعم لتدابيرها. بالمقابل يؤكد هذا الاهتمام حاجة المخزن الملحة إلى حضورهم المادي والرمزي، باعتبارهم جزءا لا يتجزأ من نسقه السياسي. لذلك حرص على الاحتفاء بالمقرين منهم، وحاول قدر المستطاع إشراك المستنكفين، ليس بواسطة تلك الزيارات النادرة فقط، ولكن أيضا من خلال طلب الاستشارات الفقهية من أبرزهم.

وإذا كان هذا الموقف يؤكد واجبات العالم الشرعية، المتمثلة في نصيحة أولي الأمر لما فيه خدمة الأمة الإسلامية، فالظاهر أن المخزن فوض العلماء في غالب الأحيان البت في النوازل الجزئية، وعمل بخلاصات فتاويهم حول جلها، لكنه كان متشددا في جل تدخلاتهم التي ترتبط بشكل مباشر بترتيبات بناء هياكله. فلم يتقبل أحمد المنصور نصيحة قاضيه عبد الواحد الحميدي بخصوص التنكيل بالثائرين وتعذيبهم، بل هجره أياما، ولم يعف عنه إلا لمكانة المشيخة، فأراد بذلك أن يشعره، ومن خلاله بقية العلماء، بأن للنصيحة خطوطا حمراء لا يسمح بتجاوزها، بل أكد له بأن وجوده بمراكش رفقة أصحابه رهين بنجاعة تلك السياسة الأمنية⁸⁶.

وبلغ الأمر بالمولى إسماعيل إلى تهديد علماء فاس المعارضين لمشروعه العسكري وسجنهم، إلى أن انتهت القضية بوفاة عبد السلام جسوس؛ لأنه وجد في تلك المعارضة حجرة عثرة أمام طموحه القاضي بتقوية الجيش، وجرأة زائدة من أولئك العلماء الذين تجاوزوا دور النصيحة وإبداء الرأي، وانتقلوا إلى مرحلة إصدار الفتاوى التي تخل بسير شؤون المخزن، فهل يرد هذا التشدد من جانب السلطانين إلى الطرق التي كان يتم بها تقديم النصيحة؟

لقد ألح الشيخ الجنوي في رسالته الأولى إلى أحمد المنصور، على ضرورة استغلال نصر وادي المخازن في استرجاع مدن طنجة وأصيلا وسبتة، التي مازالت بيد العدو، داعيا إياه إلى «الحزم وإمضاء العزم»⁸⁷، لبلوغ ذلك. وعبر في الرسالة الثانية بلهجة شديدة، عن تدمره من إقدام السلطان على افتداء الأسرى البرتغاليين مقابل المال، عوض مبادلتهم بالأسرى المسلمين؛ لأن التعامل في نظره مع بقاء هؤلاء بأيديهم، «كأن الأمر سهل، فلا ليس الأمر سهلا، وإنما

⁸⁶ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 158.

⁸⁷ أحمد المرابي، ن.م، ص ص. 423-424.

يحاسب على ذلك من قدر عليه ولم يفعله كالراعي والرعية، فإن كان هذا حرصا على المال، فإن المال بالغرب كثير، وقبل أن كانت هذه الغنيمة أكنتم محتاجين إليه بل كنتم أغنياء عنه»⁸⁸؟

ووجه الحسن اليوسي رسالته المشهورة إلى المولى إسماعيل، التي تضمنت الموعدة والنصح لتدارك مواطن الخلل المرتبطة بتعسف الجبابة، وبضرورة تعمير الثغور لممارسة الجهاد، وبوجوب إنصاف المظلومين ومعاقبة الظالمين، مذكرا إياه بواجباته تجاه الرعية ومشددا على «أن الأرض وما فيها ملك لله تعالى لا شريك له، والناس كلهم عبيد لله تعالى وإماء له، والسلطان واحد من العبيد، وقد ملكه الله تعالى عبيده ابتلاء وامتحانا، فإن قام عليهم بالعدل والرحمة والإنصاف والإصلاح، فهو خليفة الله في أرضه... وإن قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والإفساد، فهو متجاسر على مولاه في مملكته»⁸⁹.

فمن خلال هذه المراسلات، تظهر قوة خطاب هذين العالمين وصراحتهم في مواجهة الاختلالات الشرعية التي طبعت سياسات السلطانين، ويبدو عدم تقاعسهما في الصدع بها، والكشف عن لزوم تقييها. والواضح أن تقبل هذه النصائح يدخل في إطار الخطوة التي حظي بها الشيخ الجنوي لدى أحمد المنصور، والمرتبة التي تبوأها اليوسي لدى المولى إسماعيل، بالنظر إلى وجودهما خارج النسق المخزني، وما واكب ذلك من توظيف مواعظهما في إبراز القدرة على الانفتاح على الرأي المعارض، عملا بما أوجبه الشريعة من جهة، وعلى امتصاص الانتقادات التي تطول التدابير السلطانية حفاظا على مبدأ التوازن من جهة أخرى، خصوصا إذا علمنا حجم الصيت الذي تمتع به الرجلان في عهديهما. فالجنوي كان من أبرز شيوخ فاس، أسس مدرسة صوفية شاذلية تنسب له، والحسن اليوسي كلفته شهرته العلمية التنقل من مكان لآخر بأمر من السلطان خوفا من تكاثر أتباعه، غير أن بعض فتاويه وجدت صدى لدى المولى إسماعيل الذي قرر غزو طائفة العكاكرة، بعد أن أدين من قبله باعتبارها طائفة مارقة⁹⁰.

وعلى الرغم من تباين المواضيع المدرجة في الرسائل الموجهة إلى السلطانين، ومن اختلاف

⁸⁸ ن.م، ص. 31-32.

⁸⁹ محمد القادري، ن.م، ج. 3، ص. 32 وما بعدها.

⁹⁰ محمد القادري، النقاط الدرر...، م.س.ذ.، ص. 38، هامش 3، ولنفس المؤلف، نشر المظني...، م.س.ذ.، ج. 3، ص. 26، 53. وحول طائفة العكاكرة، راجع: فاطمة خليل، رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، ج. 1، جمع وتحقيق ودراسة، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1981، ص. 274-299.

درجات المؤاخذة على تجاوزاتهم، فإن القاسم المشترك بينها يكمن في عبارات التذكير بضرورة الالتزام بالشرع، والمحافظة على نوااميسه، وتجنب كل التدابير التي من شأنها أن تخل بذلك. إذ خاطب الشيخ الجنوي أحمد المنصور قائلاً: «ولا أظن مثل هذا يخفى عليكم حتى نحتاج أن نذكركم به»⁹¹. بمعنى أن المخزن على وعي تام بالإجراءات التي يتخذها، والمتماشية مع مصلحته السياسية، وليس مع ما يدور في أذهان العلماء من أسبقيات، أي أن الأوضاع لم تكن تسعفه على الدخول في صراع مع الإسمان حول الثغور، وهو في حاجة إليهم لحمايته من تدخل عثماني محتمل، فحاول استثمار انتصار وادي المخازن في الموازنة بين الإمبراطوريتين. كما أن لجوءه إلى افتداء النصارى بالمال يرجع إلى الضرورات التي فرضها بناء جيش قوي يخضع به البلاد، ويحول دون سقوطها في يد المتربصين.

وأدرك الحسن اليوسي بشكل واضح أن «الملك بناء، والجند أساسه... فلا سلطان بلا جند، ولا جند إلا بالمال، ولا مال إلا بجباية، ولا جباية إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بالعدل، فالعدل أساس الجميع»⁹². لكن واجبه كحامي الشريعة حتم عليه أن يندد بالظلم وتقل الضرائب، لأنه يستمد مصداقيته من المجتمع الذي يعاني من ذلك الثقل، ويتحمل أعباءه، بينما شكل هذا النمط الجبائي، من وجهة نظر المولى إسماعيل، خير سبيل لتكوين جيش محترف.

ومن هنا ندرك لماذا كان المخزن يتفهم احتجاجات هؤلاء العلماء، التي تتماشى مع اقتناعاتهم، وتنبض بما تحس به العامة من حيف، وتنطق بالهاجس الذي حكم الخطاب الشرعي الخاضع لوصايتهم الأخلاقية، في مواجهة الخطاب السياسي المحسوب بحسابات الظرفية العامة التي أفرزته. وفي هذا الإطار، نلاحظ مثلاً كيف أن محمد المجاصي، اقترح رد طائفة العكاكزة عن غيها بواسطة التعليم، بينما عارض اليوسي ذلك بشدة معتبراً إياها كافترة⁹³، ووجد جاك بيرك في الموقف الأخير التزاماً بالدفاع عن قضايا العامة، ومصالح المسلمين، وتمسكاً بمحاربة الطريقة⁹⁴، وهو ما يبين الاختلاف بين مواقف العلماء الرسميين، ونظرائهم الموجودين خارج السلك المخزني.

⁹¹ أحمد المرابي، ن.م، ص ص. 423-424.

⁹² محمد القادري، ن.م، ج. 3، ص. 35.

⁹³ عن النقاش الفقهي الذي دار بين العلماء حول هذه النازلة، انظر: عبد الله نجمي، التصوف والبدعة بالمغرب طائفة العكاكزة، القرنين 16 و17م، الرباط، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، 2000، ص. 416.

⁹⁴ J. Berque, *Al-Youssi...*, op. cit., p. 66.

لكن السلطانين فضلا، على ما يبدو، أساليب النصيح التي روعيت فيها حدود التراتبية، واستبعدت التجاسر، والتزمت بما هو متعارف عليه في مخاطبة الحكام وأولي الأمر، فمحمد العربي بردلة على سبيل المثال، كثيرا ما كان يكتب السلطان، « وإذا شافهه لا يتكلم بل يقتصر على ما يكتب له بالقلم في الأجوبة والرسائل وغيرها »، ففي فتواه حول مسألة العبيد قال: « إن الناس علماءهم مجبولون على السعي في مرضاة الأمراء والمساعدة في تكميل أغراضهم »⁹⁵، وهو ما جعله في منأى عن ما آلت إليه وضعية جسوس، الذي تجرأ على الدخول في سجال فقهي، أثار نائرة المولى إسماعيل وسخطه عليه. وتبنى الفقيه التجموعي، الممثل للتيار الرسمي، موقفا مماثلا حين ألح على ضرورة مخاطبة السلطان بلباقة، وعدم مراجعته في قراراته، بل التسليم بها والانقياد لها حفاظا على هيئته، وإن كانت مخالفة لرأيهم، فيجب تقبلها، والصبر لأحكامها، وإدخالها في ما قدره الله وقضى به.

ونحن نتناول علاقة العلماء بالمخزن، تثيرنا ملاحظة أساسية مضمونها أن السلطانين حرصا معا على الحفاظ على اتصالات مستمرة مع علماء المشرق، سواء من خلال زيارات بعضهم للمغرب، أو عبر المراسلات التي تم تبادلها بين الطرفين. فما الأبعاد الكامنة وراء هذه الصلات؟

صلات السلطانين بعلماء المشرق

كتب أحمد المنصور إلى العالم البكري يطلب منه تزويده بكتب دينية، وإجازته والدعاء له بالسداد والتوفيق لاسترجاع الأندلس، وراسل بدر الدين القرافي للغرض نفسه، وخاطب صاحب أرض الحجاز حسن بن أبي نمي طلبا في الدعاء الصالح، وتبادل المولى إسماعيل مكاتبات مع العالم المصري الخرشى⁹⁶.

وارتبطت بعض فصول هذه المراسلات بمواضيع همت السياسة الداخلية بالمغرب، من قبيل نجاح السلطان السعدي في إخماد ثورة الناصر، وتمكن نظيره العلوي من فتح العرائش، وعزمه على تشكيل جيش من العبيد. وهي قضايا صبت كلها في منظومة الجهاد التي تعد

⁹⁵ محمد القادري، نشر المثاني... م.س.ذ. ج. 3، ص. 247؛ ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. 191. وحول التجموعي، راجع: المولى عبد الحفيظ، داء العطب قدم... م.س.ذ.، ص. 59.

⁹⁶ عبد الله كنون، ن.م، ص. 37، 50، 54، 59، 104، 126. الفشتالي، ن.م، ص. 187. وبخصوص المولى إسماعيل، راجع: محمد الضعيف، ن.م، ص. 74.

مفتاحاً لتقوية عضد المخزن، الذي لم يقتصر على توظيفها في إقناع العلماء المغاربة، وإنما أشرك نظراءهم المشاركة لكسب دعم إضافي لمشروعاته السياسية، وللتأكيد على أسبقية أهل البيت في حمل مشعل الخلافة، في إشارة إلى عدم شرعية الحكم العثماني.

والأكثر من ذلك، أن هذه الاتصالات يمكن قراءتها باعتبارها خطاباً موجهاً إلى النخب الدينية المحلية الرسمية، وتحديدًا المعارضة منها، التي ما فتئت تلوح بسلاح الشرع لمواجهة المشروع السلطاني الهادف إلى تمتين المركز السياسية، خاصة في عهد المولى إسماعيل، الذي لم يتردد في مطالبة محمد بن عبد القادر الفاسي، بتقديم جواب مقنع عن تساؤلاته فخاطبه قائلاً: «حتى لو رآه أهل مصر لأقروا بعلمك ويشهدوا به»⁹⁷. ويترجم هذا التعبير بشكل جلي محاولة تروم التذكير بالدور المرجعي للهيئة الدينية بالشرق، وبقدرة المخزن على التعامل معها، كلما دعت الضرورة لذلك باعتبارها تمثل الأصل، ويمكن من خلال إشراكها في النوازل الملحة، تجاوز كل التلكؤات التي قد تعتري سلوك النخبة التشريعية المحلية، أو على الأقل زعزعتها، لإضفاء المصداقية على ممارساته تجاه السكان، وهذا ما تجسد بالفعل في معضلة تكوين جيش العبيد.

ولم تقتصر العلاقات بين السلطانين وعلماء المشرق على المراسلات، بل امتدت لتشمل الزيارات التي قام بها هؤلاء لبلاطيهما. وهكذا وفد على أحمد المنصور فقهاء من الشام والعراق ومصر والحجاز، وألفوا تأليف حوله، كما استقبل المولى إسماعيل عدداً كبيراً منهم، وأجزل لهم مختلف أصناف العطاء وأحاطهم بكل عناية وتكريم⁹⁸. وفي الوقت الذي كانت تمثل فيه هذه الزيارات إحياءاً للروابط الثقافية مع المشرق، فإنها لم تخل من أبعاد رمزية، تجسدت في اعتبارها من وجهة نظر المخزن، ركيزة من الركائز التي يمكن المراهنة عليها في تركيبة أسسه الشرعية، وضمان استمراريتها أمام كل من يخالجه الشك في ذلك.

والثبير للانتباه في علاقات المخزن بالعلماء، على عهد السلطانين، هو غلبة نوع من التوافق عليها إبان حكم أحمد المنصور مقارنة مع خلفه، الذي اضطر بين الفينة والأخرى إلى مخاطبتهم رغبة في إسباغ الشرعية على سياساته، وتعكس رسائله المتعددة إليهم حجم

⁹⁷ رسالة من المولى إسماعيل إلى محمد بن عبد القادر الفاسي بتاريخ 8 شوال 1096هـ ضمن:

M. El Fasi, « Biographie de Moulay Ismail », *op. cit.*, p. 42.

⁹⁸ أحمد المقرئ، ن.م، ص. 14، 18؛ عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م.س.ذ.، ص. 89.

الصعوبات التي واجهها في احتواء اعتراضاتهم⁹⁹، الشيء الذي اضطره إلى الضغط على علماء فاس، من خلال توظيف نظرائهم المنحدرين من الزاوية الدلائية. واختير في هذا الإطار، محمد المساوي الدلائي أول خطيب لتدشين ضريح المولى إدريس بعد ترميمه، وعلى الرغم من اعتذاره عن إلقاء الخطبة بدعوى مرض ألم به، فإن المولى إسماعيل عين محمد بن عبد الرحمان الدلائي لتعويضه¹⁰⁰. ولا يخفى ما لهذا المنصب من أبعاد رمزية وازنة، وما لذلك الإصرار من قبل المولى إسماعيل على بقاءه في يد العلماء الدلائيين من أهداف، تكمن بالدرجة الأولى في تحسيس علماء فاس، بقدرته على الأقل، وهو يعي صعوبة ذلك، على إقصائهم من تسيير بعض المناصب الدينية الحيوية، وما يحمله هذا الإقصاء من دلالات لكل من حاول المضي قدما في سياسة شد الحبل معه.

وبالرغم من كون الحسن اليوسي، «سعى... في المصالح وارتكاب المخاطرة في إرشاد السلطان إلى ما هو واجب عليه... واجتمع معه وشافهه وقضاياه معه كثيرة»¹⁰¹، فنصائحهم قوبلت بصدر رحب من قبل المولى إسماعيل، لأنه وجد في علو شأوه وسيلة ناجعة لمواجهة بعض علماء فاس الذين كانوا ينفرون من حضور مجالسه العلمية، ويتقززون من أصوله البدوية، ويخشون من تنامي سمعته العلمية، ولأنه خاف من أن يثور عليه، فتغاضى عنه وكلف الفقيه التجموعي بمواجهته، على حد تعبير المولى عبد الحفيظ¹⁰².

ويجد هذا التباين في سياسات السلطانين تجاه العلماء تبريره، في اختلاف المقومات الشخصية للرجلين، والظرفية السياسية التي حكما في ظلها. ففي الوقت الذي استفاد فيه أحمد المنصور من جو الإجماع الذي أعقب انتصار معركة وادي المخازن، وما تلاه من ضرورة استثمار ذلك الإجماع في تعبئة الفقهاء للتصدي للتهديدات العثمانية والإسبانية، وعرف كيف يمتص حماسهم الديني من خلال تحويل أنظارهم من التفكير في الأندلس إلى غزو السودان، اتسمت مرحلة حكم المولى إسماعيل بعدم حصول توافق مماثل من قبل

⁹⁹ عبد الله العروي، مجمل... م.س.ذ.، ج. 3، ص. 87.

¹⁰⁰ محمد القادري، ن.م، ج. 3، ص. 267، ولنفس المؤلف، القاط الدر... م.س.ذ.، ص. 318.
J. Berque, *Ulémas...*, op. cit., pp. 252-3.

¹⁰¹ محمد القادري، نشر الثاني... م.س.ذ.، ج. 3، ص. 37-38.

¹⁰² أشار محمد القادري إلى أن مشاهير علماء فاس امتنعوا عن حضور مجالس اليوسي، الذي «بالغ في الذب عن الشريعة... لا يخاطب السلطان إلا بصريح الحق مشافهة ومكاتبه». محمد القادري ن.م، ج. 3، ص. 26. ثم للمؤلف نفسه القاط الدر... م.س.ذ.، ص. 258، المولى عبد الحفيظ، ن.م، ص. 58.

العلماء، الذين تأرجحوا تارة بين مساندته، وأخرى بين دعم خصومه، وهو الأمر الذي أسفر عن توتر العلاقة بين الطرفين. كما أن تراجع خطر الإمبراطوريتين التقليديتين في البحر الأبيض المتوسط، لم يترك له على شاكلة سلفه هامش المناورة بقصد كسب الإجماع الداخلي تجاه عدو مفترض، فبقيت صلاته بهم محكومة بهذه المعطيات، التي زاد من تعقيدها ظهور السلطان بمظهر المصير على احتواء الجبهة المعارضة داخل مؤسسة العلماء التي تمسكت بمواقفها الرافضة لتلك المحاولات. غير أن هذا الحراك بين الديني والسياسي لم يقتصر على فئة العلماء، بل امتد ليعم مؤسسات دينية كالزوايا، لها من الوزن ما جعل المخزن يمنحها الأولوية في حساباته السياسية. فما هي طبيعة هذه العلاقات التي جمعت بين الطرفين على عهد السلطانين؟

المخزن والزوايا: إغراءات وضغوط

شكلت الزوايا مجالا خاصا في النسيج الديني والاقتصادي والسياسي والثقافي للمجتمع المغربي، ارتبط في نموه وإشعاعه بالفترات التي دب فيها الضعف داخل الجهاز المخزني، وظل هذا الإشعاع رهينا بمدى قدرة الولي الصالح على إثبات وجوده، من خلال الوظائف التي تضطلع بها زاويته، والوسائل التي تكرسها لخدمة الناس، من كرم واستشفاء وتعليم وراحة وتحكيم وحرم وتعبئة¹⁰³. ودل التباين في القيام بهذه المهام على أهداف كل ولي من وراء إنشائها، وعلى صعوبة تعميم تعريف واحد على جميع الزوايا؛ لأن وضعها ارتبط بظروف تأسيسها، وتحديدًا بالمؤهلات الشخصية لزعيمها، وبنوعية العلاقات التي جمعتها بالسلطة المركزية.

فهناك صنف من الأولياء انعزل عن الناس ومارس الزهد والنقشف، وفتح الأبواب لإطعامهم، وزاول صنف آخر كسب معاشه بيده واندمج في المجتمع، وجعل كل إمكاناته من الطعام والعلم في خدمة الناس، وكرس صنف ثالث القاعدة المادية لزوايته لإظهار أبعثه وصلاحه¹⁰⁴. واشتركت الأصناف الثلاثة في خاصية واحدة هي سلطة الزعامة التي يركز فيها الولي على « الابتعاد عن دائرة باقي الأفراد العاديين، ومعاملته كشخص استثنائي

¹⁰³ عبد الله العروي، ن.م، ص. 36.

A. Laroui, *Les origines...*, op. cit., pp. 137, 143.

¹⁰⁴ عبد المجيد القدوري، ن.م، ص ص. 122-123.

يتسامى عليهم، ويتمتع بقوة خارقة أو على الأقل بقوى وصفات غير عادية استثنائية»¹⁰⁵، على حد تعبير ماكس فيبر. وجعل هذا الأمر من الولاية تعبيراً عن المعرفة الباطنية التي تتخذ من الأساليب الصوفية مرجعية لها، مقابل المعرفة الظاهرية للعلماء، أي أن مكانة الزاوية ظلت محكومة بثقافة الكرامات، وما تمتلكه من قدرة على الإقناع، وما تخوله من رأس مال رمزي، يمكن أصحابها من التمتع بمراتب، ومن القيام بأدوار داخل المجتمع، مما أضفى عليها صفة قوة تنظيمية داخل مجال نفوذها، تأرجحت تدخلاتها بين الظهور بمظهر المنافس المحلي والجهوي لسلطة المخزن، وبين البروز بصفاتها جهازاً اضطلع بمهام تحقق التوازن الاجتماعي، وتكمل ما عجزت تلك السلطة عن تأمينه.

ويبدو من هذا المنظور، أن تناول موضوع الزوايا لا يجب حصره في أبعاده الدينية فحسب، بقدر ما يستلزم معالجته في إطار الأنساق الاجتماعية الداخلية وعلاقاتها بالضغط الخارجية التي تعرضت لها البلاد، وما واكبها من إحداث خلخلة استوجبت وجود هذا النوع من المؤسسات، التي لم تجسد ردود أفعال كرسست القدرة على التكيف مع المستجدات الطارئة، وإنما مثلت تعبيراً عن الحاجة إلى فضاء مواز للمخزن المحلي، إما يتحالف أو يدخل في مواجهة معه. هل ارتبطت إذن ظاهرة الزوايا بامتداد مؤسساتي تغيا استقطاب بعض القوى الكامنة داخل المجتمع؟ سؤال مهم لفهم علاقات الزوايا بالمخزن¹⁰⁶.

بين التحالف والمواجهة

الظاهر أن استثمار الزوايا لنشاطها لم يقتصر فقط على الزهد والتصوف والمراقبة وإنتاج الكرامات، وإنما امتد ليشمل التحكيم في النزاعات بين القبائل التي عجزت عن إفراز مؤسسات تتجاوزها، وتنظم العلاقات في ما بينها، فوجدت ضالتها في الصلحاء الذين كرسوا أنفسهم لهذا الغرض¹⁰⁷، وهو وضع دعمه المخزن من خلال منح الامتيازات لهذه المؤسسات، شريطة حصر أدوارها في المجالين الديني والاجتماعي، لأنه وجد فيها وسيلة من الوسائل التي أمكنه المراهنة عليها لتغطية قصوره الإداري، فأسهم بذلك في تركية أعمالها وفي منحها الاستمرارية بصفاتها قوة فاعلة في بنية المجتمع.

¹⁰⁵ أيمن الياسيني، الإسلام والدولة...، م.س.ذ.، ص. 44.

¹⁰⁶ A. Laroui, *Les origines...*, op. cit., p. 135.

¹⁰⁷ P. Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, t. I, Rabat, Ed. marocaines, 1977, p. 256.

غير أن أي حديث عن علاقات الزوايا بالمخزن إبان عهدي أحمد المنصور والمولى إسماعيل، لا بد له أن يتم من خلال استحضار ظروف تولي كل منهما دفة الحكم في البلاد، فإذا كان السلطان السعدي قد استفاد من دعم الزوايا عقب الملحمة الجهادية بوادي المخازن، التي شكلت انتصارا لأصحاب الطرق، وتوجيا للجهود التي بذلتها الطريقة الجزولية بالتحديد، ووجد نفسه مدينا لهذا الدعم، وملزما بمراعاته على الأقل في السنوات الأولى من حكمه، فإن السلطان العلوي اعتمد في ترسيخ سلطته، على الشوكة التي مكنته من مواجهة كل من أبدى معارضة، بما في ذلك الزوايا. وهكذا تولى الأول في سياق سياسي اتسم بتأجيج نشاط الصلحاء، بينما حكم الثاني في ظل فترة فقد فيها هؤلاء « هيبته، بعد أن تورطوا في علاقات مشبوهة مع الغزاة والتجار والنصارى »¹⁰⁸.

كان أول إجراء اتخذه أحمد المنصور هو مكافأة الزاوية الريسونية، التي احتضنت الجمع العام لقبائل المنطقة بجوار ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش استعدادا لخوض معركة وادي المخازن، حيث تم أداء صلاة الجمعة والدعاء بالنصر للسلطان، فقرر جعل الضريح حرما يماثل حرم مكة، وخول لآل بن ريسون جملة من الامتيازات، وأعطى قبيلة بني عروس من أداء الضرائب، بل سمح لشرفاء العلم بتلقي نصيبهم من هبات ضريح المولى إدريس¹⁰⁹.

ومثل هذا الظهير أول مظهر من مظاهر الإقطاع التي استفادت منها زاوية بالمغرب، مجازاة لها على ما قدمته من خدمات، واعترافا من جانب المخزن بنفوذها في المنطقة. فما هي الأهداف الكامنة وراء إقدام السلطان السعدي على هذه الخطوة؟

من الجلي، أن أحمد المنصور كان على وعي تام بحساسية الظرفية التي تربع فيها على عرش البلاد، والمتمثلة أساسا في الإجماع الذي واكبها من منطلق أن حدث المعركة شكل انتصارا للإسلام على المسيحية، وأفرز التفافا حول شخص السلطان لصد كل القوى المترتبة بالمغرب، فكان عليه أن يعيد الاعتبار لكل من أسهم في ذلك الإجماع، وخاصة من شارك بشكل مكثف في تعبئة المجاهدين من أجل إحراز النصر. فتحويل الامتيازات للزاوية التي دارت المعركة في مجال نفوذها، مثل مكافأة من جهة لكل من حضر القتال من أتباع الزوايا

¹⁰⁸ عبد الله العروي، ن.م، ج. 3، ص. 83.

¹⁰⁹ محمد بن عزوز حكيم، مساهمة رباط تازروت... م.س.ذ.، ص ص. 77-79، 84، راجع أيضا: G. Dragues, *Esquisse d'histoire religieuse du Maroc : confréries et zaouïas*, Paris, Peyronnet et Cie, 1951, pp. 66-7.

الأخرى، وجسدية المخزن في عدم التخلي عن حلفائه، ومعاملة كل من أظهر الولاء بالمثل، وكرس من جهة ثانية شعورا بالأهمية الإستراتيجية للزاوية في شمال غرب المغرب، باعتباره درعاً يمكن توظيفه عند الحاجة لرد أي هجوم إسباني محتمل، ولا متصاص أية حركة تمرد تخطط للانطلاق من الريف الغربي، وهو ما يفسر لنا أسباب انطلاق ثورة الناصر من مليلية بدل العرائش كما سئرى لاحقاً¹¹⁰.

لكن ظاهرة منح الامتيازات لم تشكل ثابتاً من ثوابت سياسة السلطان السعدي تجاه الزوايا بشكل عام؛ لأنه كان يدرك خطورة ذلك على مستوى تدعيم سلطته ومركزتها، إذ إن تعميم الإعفاءات يعني حرمان المخزن من موارد مالية هامة، هو في حاجة ماسة إليها لتحديث البلاد، لهذا سرعان ما بادر إلى تقليص نفوذ معظمها، ووضع حد للتحالف المرحلي الذي أعقب معركة وادي المخازن، خصوصاً بعد أن تأكد له عزمها على استغلال ذلك التحالف لتوطيد وجودها. وهكذا اتخذ أحمد المنصور عدة إجراءات ضداً على زعيم زاوية أبي الجعد الشيخ الشرقي، نتيجة لما « بلغه... من نفوذ تجاوز منطقة تادلة إلى تامسنا وما جاورها، ووصلت أصداء ذلك إلى كل من فاس ومراكش... فتعددت حالات الاختبار والامتحان للزاوية من قبل السلطان المذكور، فكان من جملة ما أنكر عليه بعض هؤلاء لباسه الملوكي البعيد عن لباس الأولياء والصلحاء »¹¹¹، حتى إن القائد إبراهيم السفياني هم بتسميمه.

ويستنتج من موقف السلطان أمران هامين: أولهما أن للزوايا حدوداً لا يسمح بتجاوزها، ومنها ظاهرة الاعتناء التي تفضي إلى بروز الطموح السياسي، وهو ما يوضح لنا عدم تقبل ارتداء الصالح للباس رفيع لا يتماشى مع مرتبته، حتى « قال بعضهم هذا لباس الملوك فكيف يكون هذا ولياً »¹¹²؟، أي أن اللباس أضحى يمثل علامة على الثروة، ويرمز إلى تضخم السلطة المادية للولي. وثانيهما أن مجال إشعاع نفوذ الزاوية في منطقة حيوية شكل تهديداً مباشراً للسلطان، خاصة بعد أن أصبح بعض كبار أطر المخزن الساخطين على سياسته يتخذون من

¹¹⁰ مذكرة مغربي ينحدر من مدينة العرائش، وكان يعيش بإسبانيا، بتاريخ 28-6-1595:

Archivo General de Simancas, (Valladolid) España, Seccion Estado, Legajo 174.

خاب أمل أحمد المنصور بعد أن راجت أخبار حول لجوء الناصر إلى زاوية محمد بن علي بن ريسون، التي لم يتمكن قائد حمريه من دخولها. حول علاقة الزاوية الريسونية بثورة الناصر، راجع: مجموع مخطوط، خ.ع، رقم 2286، ص. 151.

¹¹¹ أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، زاوية أبي الجعد دورها الاجتماعي والسياسي، ج. 2، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1989، ص ص. 87-88.

¹¹² الحسن اليوسي، المحاضرات، ص. 79.

الزاوية ملاذا لهم. لكن عزم أحمد المنصور دفع الشيخ إلى تدارك الأمر، من خلال إرسال أحد أبنائه الذي نجح في إصلاح ذات البين بين أبيه وبين السلطان، وهو ما تأكد بتموضع الشرقي في خانة المعارضين لثورة الناصر، وبتردد أصداء هذا التطبيع في الكتابات اللاحقة، وفي ذاكرة الناس عبر تناقل عبارة، « بعد محمد لا فقر وبعد أحمد لا سلطان »¹¹³؛ أي أن تحالف الرجلين عاد على البلاد بالأمن والاستقرار اللذين افتقدا بعد موتهما¹¹⁴.

كما أن ردع السلطان لثورة ابن قرقوش، الذي لبس شعار « أهل الزهد والورع المنتمين إلى الصلاح، وانتحل المشيخة... إلى أن نزل بجمال غمارة... وادعى الهداية... فساندوه وانتشر خبره في سائر بلاد الهبط وجمالها... »¹¹⁵، لا يمكن وضعه إلا في السياق نفسه. كما يصب في الاتجاه نفسه، إقدام القائد حمريه على تخريب عدد من الزوايا، التي ساندت الناصر وخاصة زاوية عبد الله الكوش، واستعمال أحمد المنصور لأسلوب الغلظة أحيانا مع زعيم الزاوية البوعمرية الموالية له¹¹⁶. ولا يمكن فهم لجوء هذا السلطان إلى سجن شيخ زاوية سوس، للدعو علي بن موسى في تارودانت إلى أن مات بها سنة 1597¹¹⁷، إلا في إطار الأهمية التي كانت تنفرد بها المنطقة، بصفتها قاعدة خلفية للحكم السعدي، وممرًا تجاريًا هامًا.

وتزيل هذه الأمثلة وغيرها الانطباع المنبعث من بعض المصادر الإخبارية عن حسن الصلات، التي جمعت السلطان السعدي بالزوايا، مقارنة مع خلفه المولى إسماعيل، بدليل أن عددا من المرابطين حافظوا على استقلالهم بجمال الأطلس الكبير، بل منهم من أعلن تمرده بعد استفحال ثقل السياسة الجبائية لأحمد المنصور¹¹⁸.

واستفاد السلطان العلوي من نهج أخيه المولى رشيد، الذي عصف بالدلائيين والسملاليين،

¹¹³ أحمد بوكاري، ن.م، ج. 2، ص. 88-89-96-97.

¹¹⁴ ن.م، ج. 2، ص. 88-89-96-97.

¹¹⁵ الفشتالي، ن.م، ص. 93.

¹¹⁶ مجموع مخطوط، خ. ع، رقم 2286 ك، ص. 151؛ حسن جلاب، « ظواهر سعية في توقيف واحترام شيوخ الزاوية البوعمرية بمراكش »، مجلة دار النيابة، ع. 21، ص. 15.

¹¹⁷ محمد المختار السوسي، إيليغ قديما وحديثا... م.س.ذ.، ص. 31.

¹¹⁸ مجهول برتغالي، وصف المغرب... م.س.ذ.، ص. 37-38.

S.I.H.M. 1^{re} série. Ang., t. I, p. 531.

أكد العالج Jeronimo Fernandes حين مثل أمام محكمة كناريا وجود هذا الولي الثائر، راجع:

R. Ricard, *Etude Hispano-Africaine*, Tetuan, imp. del Majzen, 1956, p. 118.

فحاول استمالة الزوايا بهدف توظيفها، إلى جانب مخططة العسكري، في إخضاع المناطق المتمردة، وفي مراقبة الممرات التجارية بالنظر إلى المواقع الإستراتيجية التي كانت تمتد إليها نفوذها، ومن هنا كان اعتناؤه بالوزانيين ثم بالناصرين وأتباع طريقتهم من الشرقاويين والخصاليين.

وهكذا سمح للزاوية الناصرية بتوسيع نفوذها بالأطلس عبر تأسيس زوايا تابعة لها، ودعم وجود زاوية أبي الجعد الممتدة على حزام القصبات المخزنية، ما بين طريق فاس ومراكش. وفوض الدور نفسه للزاوية الوزانية بهدف احتواء القبائل الشمالية، خاصة وأن موقعها يربط بين سهل الغرب والهبط وبين جبال الريف؛ أي على طول طريق المخزن العابر من القصر الكبير إلى مكناس¹²⁰. كما عفا عن أهل الزاوية الدلائية، وأذن لهم بالعودة ودخول مدينة فاس، وربط علاقات جيدة مع زوايا فاس، وخاصة زاويتي المخفية والقلقليين. وبالمقابل عمد إلى تخريب زاوية تاسافت ونهب ممتلكاتها، وإضرار النار في أبوابها، وهدم مسجدها، بعد أن رفض زعيمها إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمان الزرهوني الدخول في تحالف معه لإخضاع سكان الجبال، وأصر على عدم التنقل لمدينة مكناس امتثالاً لرغبة السلطان. وسجن أيضاً زعيم زاوية تستاوت ثم أطلق سراحه، وأرغمه على الإقامة بمكناس إلى أن توفي بها¹²⁰. ويظهر من السياق العام للعلاقات التي جمعت السلطانين بالزوايا، عدم وجود سياسة ثابتة تجاهها، إذ ظلت هذه العلاقات رهينة بالمستجدات السياسية التي شهدتها البلاد، وبمدى قدرة شيوخ الصلاح على التكيف معها، من خلال الابتعاد عن كل ما من شأنه أن يضر الرغبة في التحدي، ويعبر عن طموحات تتجاوز الخطوط المرسومة. لكن كيف كانت نظرة هؤلاء الشيوخ إلى المخزن؟

التردد على أبواب السلاطين

حرص أغلب زعماء الزوايا على عدم مخالطة السلاطين والاتصال بهم، إيماناً منهم بأن ذلك يفقدهم هويتهم، وهكذا رفض شيخ الزاوية الفاسية أبو المحاسن الفاسي لقاء أحمد

¹²⁰ Hassan El Boudrari, « Quand les saints font les villes : lecture anthropologique de la pratique social d'un saint marocain du XVII^e siècle », *Annales E.S.C.*, Mai-Juin, 1985, p. 494.

¹²⁰ محمد القادري، نشر الثاني... م.س.ذ.، ج. 2، ص. 217-288. ثم لنفس المؤلف، النقاط الدرر... م.س.ذ. ص. 310، هامش 4؛ عبد الله التسافتي، رحلة الوافد... م.س.ذ.، ص. 70، 113، 136-137؛ نفيسة الذهبي الزاوية الفاسية... م.س.ذ.، ص. 241-243.

النصور تحت ذريعة كبر سنه، وحينما ألح عليه السلطان بواسطة إرسال سرير لحمله، أجابه قائلاً: «قولوا له إن أردت أن تكون ملكاً فلا تلقني، فإن لقيتني لم تبق في ملكك، وأنا أنفك من هنا ولم يزل السلطان يتيمن بذكره، ويبعث أصحابه لزيارته، حتى انضاف جلهم إلى خدمته»¹²¹. ولم تجد دعوة السلطان المولى إسماعيل صدى لدى زعيم زاوية المخفية أحمد بن عبد الله معن، لملاقاته، وللتبرك به، وطلب الدعاء منه، إذ امتنع بالرغم من الرسائل الكثيرة التي وجهت إليه، معتبراً أن لقاء السلاطين «أفسد كثيراً من أولاد الصالحين، وأخرجهم عما كان عليه أسلافهم... فربي على ذلك أبناؤهم، ففسدوا وتعدوا حدود الشريعة، وأكلوا الحرام، وخرجوا عن شكلهم، وتطوروا على غير طورهم»¹²². كما اتخذ شيخ وادي نفيس يحيى واكريم من كبر السن، مبرراً لعدم قدوم زعيم زاوية تاسافت لزيارة المولى إسماعيل¹²³. وأثار لقاء أحد زعماء زاوية أبي الجعد، المدعو محمد المعطي الشرقاوي بالسلطان أحمد للنصور ردود أفعال قوية، إذ «أنكر عليه أهل الزوايا والفقر والنسبة اتصاله بأولي الأمر بما في ذلك السلطان الحاكم»¹²⁴.

وعلى الرغم من المساندة المطلقة التي أبداهها شيخ الزاوية القندوسية ابن أبي زيان للسلطة العلوية، فإنه رفض بلباقة كبيرة طلبات الزيارة التي كانت تصله من مبعوثي المولى إسماعيل، وأفصح عن أسباب ذلك لخاصته من التلاميذ، قائلاً: «إعلم... أن اللجنة زيارة الصالحين وخدمتهم، والنار الورود على الملوك والسلاطين وخدمتهم، لأن من جاء زائراً إلى ولي من أولياء الله جاءه وقلبه فرحاً مسروراً (كذا) ورجع عنه كذلك، ومن زار السلطان يأتيه خائفاً ويلتقي معه خائفاً، ويلقى الله عز وجل خائفاً...»¹²⁵.

ويتضح من هذه المواقف، أن الصلحاء يجمعون على رفض التردد على أبواب السلاطين، لما يمثله من انغماس في طلب الدنيا والافتتان بمظاهرها، وهو ما يبعدهم عن مسار الزهد

¹²¹ عبد الرحمان الفاسي، ن.م، ج. 1، ص. 189.

¹²² سأل الشيخ معن الكاتب سليمان الزرهوني، هل السلطان لازال يطلب رؤيته ولقائه، فقال لا، فأجاب سيدي أحمد: ذلك الذي طلبت من الله، راجع: ابن الحاج، الدر المنتخب... م.س.د.، ج. 7، ص. 246-249.

¹²³ عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 148.

¹²⁴ أحمد بوكاري، ن.م، ج. 2، ص. 119.

¹²⁵ محمد مرزاق، الشيخ محمد ابن أبي زيان وزاويته بالقنادسة، الدور الديني والثقافي والسياسي، رسالة د.د.ع.، في التاريخ، مرقونة، الرباط، بكلية الآداب، 1987-1988، ص. 230.

والتقشف الذي اختاروه بانعزالهم عن الناس، ويفرض على أولي الأمر أن يطرقوا زواياهم للتبرك بكراماتهم، ولإضفاء المشروعية على قدراتهم الخارقة التي تستدعي خشية والذهول لأنها ترتبط بالأمكنة، وذلك ما تجسد في عبارة أبي المحاسن الموجهة لأحمد المنصور « وأنت أفعلك من هنا »¹²⁶؛ أي أن من يسعى في طلب البركة والدعاء فعليه أن يتنقل للحصول عليهما، ما دام شيخ الزاوية « له أنوار تكشف الحجب والأستار، حتى تنزل المرید في حضرة الهيبة والوقار »¹²⁷.

وما يثيرنا ونحن نقارن بين هذه المواقف ومثيلاتها المتخذة من قبل جل العلماء، هو مدى تأثير هؤلاء بالفكر الصوفي الذي تعايش في تصوراتهم وجعلهم يحذون حذو شيوخ الزوايا ويستنكفون عن مخالطة رجالات المخزن متذرعين بالذرائع نفسها، خصوصا إذا علمنا أن معظم هؤلاء الشيوخ كانوا من كبار العلماء. وهو ما يجعل من الصعب الفصل في تكوين الزعماء الدينيين بين حجم الامتداد الفقهي من جهة، والصوفي من جهة أخرى، ويؤكد بشكل أو بآخر، ذلك التقارب في المواقف المتعلقة بالنفور من كل ما هو رسمي، أي بالرغم من أن وسائل العلماء ونزعتهم الهادفتين إلى بلوغ الخلافة الحقيقية، تختلف عن نظيرتيهما لدى زعماء الزوايا الطامحين إلى تجريد النفس من التأثيرات الدنيوية، فإن مسعى الطرفين كان واحدا وهو تخليص المخزن من الانزلاقات التي تبعده في رأيهم، عن مسار الشريعة.

بيد أن بعض زعماء الزوايا استجابوا لدعوات السلطان، كما هو حال ابن ناصر الدرعي حين تنقل، بغض النظر عن تحفظات رفاقه، لملاقاة المولى إسماعيل الذي خرج لاستقباله، وهو يوجد بضريح سيدي عبد الرحمن المجذوب، قبل أن ينتقل للإقامة بروضة الشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر، فأكرمه وعظمه، وفرح به فرحا كبيرا، « وصافحه بيده، وجلس معه في داخل القبة ساعة واحدة »¹²⁸، حسب رواية الناصري. وهذه الإشارة تدفعنا إلى إبداء ملاحظتين:

¹²⁶ عبد الرحمان الفاسي، ن.م، ج. 1، ص. 189، راجع أيضا: خالد زيادة، كاتب السلطان... م.س.ذ.، ص.ص. 81-82، 90.

¹²⁷ عبد الرحمان الفاسي، ن.م، ج. 1، ص. 316. « كلام الأولياء لا يفهمه غيرهم، وليس لنا إلا العجز عن فهم مرادهم، فهم أولى أن يشرحوا كلامهم » أحمد الولاوي، مباحث الأنوار... م.س.ذ.، ص.ص. 173-175.

¹²⁸ أحمد الناصري، ن.م، ج. 7، ص. 112، راجع أيضا: أحمد بن محمد عمالك، جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية، من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي (1642-1907)، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، 2006، ج. 3، ص. 468؛ محمد القادري، نشر الثاني... م.س.ذ.، ج. 3، ص.ص. 159-160.

أولاهما أن أسلوب التحية الذي تم تبنيه في اللقاء، يدل على أن الأمر يتعلق بطرفين متكافئين يتعاملان ندا للند من الناحية الرمزية؛ لأنه جرت العادة أن يتم السلام على السلطان من خلال تقبيل ركبتيه أو يديه، لكن المصافحة باليد تدل من جهة، على حجم التبجيل الذي يكنه السلطان لضيفه، وعلى الوزن الديني للأخير من جهة ثانية، وتدعم أيضا ما نسب لهذا السلطان من كونه إذا لقي سيدي أحمد بن ناصر الدرعي وسلم عليه، ترتعد يده مما يدل على ثباته وقوته، شأنه في ذلك شأن أحمد المنصور، الذي كلما صافح رضوان الجنوي إلا وارتعشت يده أيضا¹²⁹.

وثانيتها أن المولى إسماعيل اعتاد استقبال زعماء الزوايا الذين قبلوا زيارته بروضة سيدي عبد الرحمان المجذوب؛ إذ بها لقي الشيخ عبد القادر الفاسي، قبل أن ينزله بالقصر¹³⁰. ولا يخفى ما لهذه الأمكنة من أبعاد رمزية، إذ تجسد بالنسبة لزعماء الزوايا تأكيد الاستمرارية في حمل رسالة الولاية والصلاح، وتنم عن تبني سياسة الحذر تجاه أمراء الوقت من خلال التحصن بالضريح تحسبا لأي طارئ، وهو ما تدل عليه تحفظات أصحاب شيخ الزاوية الناصرية، الذين رأوا في دعوة السلطان خطرا عليه، وتخوفوا من أن يتعرض لمكروه، فقبل خروج عبد القادر الفاسي للقاء المولى إسماعيل بمكناس تصدق بكل ما يملك، ولم يترك إلا لباسه وكتبه، فهل خاف من أن يصيبه أذى؟ أم أنه سعى إلى تبرير ما سيقدم عليه¹³¹؟ كما أن إصرار هؤلاء الزعماء على البقاء داخل الضريح، يترجم تمسك هؤلاء بمواقفهم من طرق أبواب أولي الأمر، إذ إن تنقل السلطان من قصره لاستقبال الزعيم واستقدامه بعد ذلك إلى مقر إقامته، يوحي بأن الأول هو الذي رغب في الزيارة طلبا في التبرك والأدعية الصالحة، الشيء الذي يمكن الثاني من الحفاظ على هيئته لدى عامة الناس، ويبعده عن كل ما يمكن أن يلصق به من شبهات.

¹²⁹ محمد المكي الناصري، الدرر المرسعة بأخبار أعيان درعة، تحقيق محمد الحبيب نوح، رسالة د. د. ع. في التاريخ، مرقونة، الرباط، بكلية الآداب، 1988، ص. 69. وحول أحمد المنصور، راجع: أحمد المرابي، تحفة الإخوان...، م.س. د.، ص. 427.

¹³⁰ أشار محمد القادري أيضا، إلى أن أهل الزاوية الدلائية حينما عادوا بأمر من السلطان، نزلوا قرب روضة سيدي علي بن حرزهم، فهل لذلك علاقة بوجود قبر المولى رشيد؟ راجع: نشر الثاني...، م.س. د.، ج. 2، ص. 217، 293.

هل سعى هؤلاء الصالحاء من خلال ذلك، إلى تحصين وجود مؤسسات الأضرحة وترسيخ قدسيتهما؟ انظر: محمد أركون، «تحويلات المقدس»، ترجمة كامل يوسف، مجلة نزوى، ع. 36، أكتوبر 2003، ص. 42.

¹³¹ محمد القادري، ن.م، ج. 2، ص. 293.

ولا ندري هل استقبل المولى إسماعيل بأحد الأضرحة أيضا، الشيخ محمد زعيم زاوية وزان الذي زاره أيضا، قبل أن ينزله بأحد المنازل بمدينة مكناس. كما استجاب محمد بن أبي بكر العياشي لدعوة السلطان، الذي طلب منه أن يأتي كل سنة لحضور ختم البخاري¹³².

وتعبر هذه الزيارات عن مدى نجاح ضغوط المولى إسماعيل على الزوايا في استقطاب بعض زعمائها، أو إقناعهم بالتنقل إلى عاصمته. لكن هذه اللقاءات ظلت من منظور هؤلاء تمثل اعترافا من جانبهم بأهميتهم، بصفتهم أقطاب أساسيين في حركة الإصلاح بالمغرب على الرغم من وعيهم بالأهداف الحقيقية للمخزن، والمتمثلة في محاولة تدجينهم من خلال استثمار صلاتهم به لإظهار تفوقه عليهم، وهو ما دل عليه ترددهم الكبير قبل إقدامهم على تلك الزيارات.

النفور من هبات المخزن وطعامه

لم يقتصر إحجام شيوخ الزوايا على عدم استجابة جلهم لدعوات السلاطين، وإنما امتد ليشمل نفورهم من هبات المخزن وأكله؛ فزعيم الزاوية الوزانية امتنع عن تناول الطعام الذي قدم له خلال زيارته لمكناس، إذ قال لأصحابه: «دوروا... فجعل... ينحي الطعام عينا وشمالا ويوهم أنه يأكل، فلا يصل حبة إلى فمه... ثم قال هات الطاس فمسح يده فغسلها، ثم قال للعبيد ارفعوها لصحن الدار، وافتحوا باب الدار للمساكين والزائرين، فجعل الناس يدخلون للأكل زمرا زمرا، حتى لم يبق من ذلك الطعام شيء»¹³³. بل إن المولى إسماعيل أمره أن يأخذ أكياسا من بيت المال بيده فرفض، وحين ألح عليه «رفع بأصبعه قطعة نقدية، لكن السلطان أفرغ ثلاث حفنات في برنسه، فوضعها الشيخ في منديل ووزعها على أصحابه، بل أمر بغسل المنديل»¹³⁴.

واستغرب أصحاب الشيخ سيدي رضوان الجنوي من سلوك أبي المحاسن الفاسي خلال زيارتهم له، لما قبل زرعاً أرسله له أحمد المنصور، فذكروه بحكاية وقعت لشيخهم، إذ

¹³² حمدون الطاهري الجوطي، تحفة الإخوان ببعض مناقب شرفاء وزان، فاس، طبعة حجرية، 1906، ص. 64. واستقبل المولى إسماعيل المرابط محمد بن الفقيه، وتواضعا منه أزال برنسه وطلب منه الجلوس عليه، نفيسة الذهبي، ن.م، ص. 244.

¹³³ حمدون الطاهري الجوطي، ن.م، ص. 65.

¹³⁴ محمد بن حمزة المكناسي، الكوكب الأسعد في مناقب الشيخ سيدي علي بن أحمد، مطبوع على هامش كتاب تحفة الإخوان للجوطي، فاس، طبعة حجرية، 1906، ص. 56-57.

« جاءه يوما زرع من قبل السلطان فما شعر به حتى صب في الدار، فأمره بحمله ورده، ثم أمر بغسل الدار من غباره... فقال (الشيخ أبي المحاسن) نعم هذا ورع... ولكن ها هنا حالة أخرى، وهو أن هذا مال جهلت أربابه، وتعذر رده إليهم، فإن رددته إليهم لم يردوه إلى أربابه قطعا، بل استعانوا به على فجورهم وطغيانهم... وإقامة أهوائهم، وإنه قد مكنتني الله منه وقدرت على استخلاصه من أيديهم، فتعين علي أخذه ليلا أعينهم على صرفه في ما لا يجوز، وأدفعه للمساكين المحتاجين الذي هو مباح لهم... لأن من اتصل بشيء من مال المصالح تعين صرفه في ذلك »¹³⁵.

ونستنتج من هذين الموقفين درجة التحفظ الشديد من مال المخزن ومن طعامه باعتبار أن مصادره غير شرعية، وأصله حرام ما دام نزع بالقوة من السكان، إما بواسطة الثقل الجبائي، أو عن طريق مختلف أشكال المصادرة، وهو ما يوجب إعادته إلى أصحابه الذين هم أولى به. ولعل في سلوك الشيخين رسالة واضحة موجهة للسلطانين بهدف مراجعة سياستيهما تجاه الرعية، ورفع المظالم عنها، وخطاب صارم يضمّر تصورهما لما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الرعية وبين المخزن.

الدعوة إلى الطاعة وتقديم النصيحة

لم تحل مظاهر الاستنكاف تلك، دون تمسك زعماء الزوايا بالدعوة إلى الطاعة لما في ذلك وقاية للبلاد من الفتق؛ فشيخ الزاوية الشرقاوية اعتبر أن « كل ما يفسده الملك في مدة مملكته تقسده الرعية إذا سابت في مدة قليلة »¹³⁶. وكان زعيم الزاوية القندوسية يعلن على المنابر، بأن « الإمام سوط الله في الأرض به يستقيم الدين... ويحضر ويقول: السلطان عاقبة الله في أرضه... إخوتي سلطان جائر ولا أمة فاسدة... »، بل كان « يرشد الناس لطاعته ويقول لهم، لولا مولانا إسماعيل ما زرعمونا ولا زرناكم... »¹³⁷. ولم يذخر الشيخ أحمد معن وسعا في الدعاء بالتوفيق للمولى إسماعيل، وفي اعتبار ثورة سكان فاس عليه غير شرعية، كما ألح عيد القادر الفاسي على وجوب طاعته¹³⁸. ورفض زعيم الزاوية الناصرية الاستجابة لطلب

¹³⁵ عبد الرحمان الفاسي، ن.م، ج. 1، ص. 220. حينما منح باشا مراکش لأخي شيخ زاوية تاسافت مبلغا من المال قبله منه، لكنه أدى به ثمن الهدية التي قدمها له، راجع: عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 149.

¹³⁶ أحمد بوكاري، ن.م، ج. 2، ص. 132-133.

¹³⁷ محمد مرزاق، ن.م، ص. 229-230.

¹³⁸ محمد القادري، ن.م، ص. 203؛ ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. 4، 248-249.

أحمد بن محرز بدعمه في تمرده على عمه المولى إسماعيل¹³⁹.

وهو ما يؤكد إيمان هؤلاء الصلحاء، ومن اتخذ مواقف مماثلة لهم، بضرورة وجود سلطة سياسية بالبلاد تسهر على توفير الأمن، وما يخلقه من ظروف مواتية تسمح للزوايا بإظهار قدرتها على القيام بأدوار التحكيم، ومحاربة جور أولي الأمر، وتقديم النصح لهم. وهكذا تدخل أبو المحاسن الفاسي بطلب من أحمد المنصور، لدى ولده محمد الشيخ المامون، فأقنعه بالتخلي عن الذهاب إلى تافيلالت، قبل أن يتراجع ولي العهد عن ذلك، ونصحه بطاعة والده، بالرغم من أنه كان يرفض الحديث معه، أو استقباله في زاويته، نظرا لسلوكه المنحرف¹⁴⁰.

ولم يتقاعس شيخ الزاوية الشرقاوية عن نصح الأمير زيدان السعدي، بعد أن بلغته أخبار غير مرضية عنه، فكتب له كتابا شديد اللهجة حملة له أحد أبنائه قال فيه: «إن الجهات الأربع تبرأت منكم، ولم يبق لك إلا ناحيتنا، فاسلكوا نهج العرب، أو أنا بريء منكم والسلام»¹⁴¹. بل إن محمد بن ناصر أوصى المولى إسماعيل في خطاب وجهه له، «بتقوى الله، والقيام بالقسط، وتعظيم ما أعظم الله، وإقامة الحدود»¹⁴²، ولم يتقاعس عبد القادر الفاسي عن كشف تجاوزات عبد الله الروسي من خلال مراسلاته للسلطان¹⁴³.

وترجم هذه المواقف مدى تشبث هؤلاء الشيوخ بواجب النصيحة تجاه أمراء الوقت، ودعوتهم إلى العدل واتباع مبادئ الشريعة، إذ لم يحل تأزم العلاقات بين أحمد المنصور وأبي المحاسن الفاسي، دون قبول الأخير التوسط بينه وبين ابنه المتمرّد، ولم يتردد زعيم الزاوية الشرقاوية، الذي امتحن من قبل هذا السلطان، في الوقوف إلى جانب الشرعية خلال ثورة الناصر، خلافا لأحمد الصومعي الذي أيد الأمير المتمرّد. وتكررت الصورة نفسها خلال عهد المولى إسماعيل، إذ وقفت الزاوية ضدّا على ثورة ابن محرز، وتمرد محمد العالم الذي شهد

¹³⁹ أحمد عمالك، ن.م، ص. 464.

¹⁴⁰ نفيسة الذهبي، ن.م، ص ص. 170-171.

¹⁴¹ أحمد بوكاري، ن.م، ص. 89.

¹⁴² عبد العزيز الخمليشي، «زاوية تمجروت والمخزن (1642-1914)»، ندوة الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، تنسيق نفيسة الذهبي، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1997، ص. 127.

¹⁴³ رسالة من المولى إسماعيل إلى عبد القادر الفاسي بتاريخ 1088هـ ضمن:

M. El Fasi, «Biographie de Moulay Ismail», *op. cit.*, p. 40.

أيضا دعما من قبل محمد بن عبد الرحمان الصومعي¹⁴⁴. كما أن سياسة شد الحبل التي نهجها السلطان العلوي تجاه الزاوية الناصرية لم تمنع شيخها من إسداء النصيح له، بل إن بعض زعماء الزوايا المتسامحين أمثال أبي المحاسن الفاسي وابن أبي زيان زعيم الزاوية القندوسية، قبلا على مضض حضور رجال المخزن وكبار الجند لمجالسهما العلمية للحصول على النصيحة، إيمانا منهما بأن ذلك قد يساعد هؤلاء على الابتعاد عن طريق الغي، والرجوع إلى جادة الصواب¹⁴⁵. فقائدا السلطان السعدي حمو بجة وعلي بن ودة كانا يداومان على زيارة الشيخ أبي المحاسن، حتى إن المار من كثرة الزوار، « لا يجد مسلكا دائما بخيولهم من فناء داره ونواحيها إلى أقصى الدرب »¹⁴⁶.

ونتج عن تباين المواقف من المخزن حدوث تنافس، وأحيانا صراع بين بعض الزوايا، فالعلاقات بين الزاوية الشرقاوية والزاوية الفاسية تأزمت بعد حصول التفاهم بين الشيخ الشرقي وبين أحمد المنصور، كما أثار الدلائيون الفتن، ونشروا الفساد في أوساط عرب تادلة الخاضعين لنفوذ الشيخ نفسه، الذي كان يدخل في منافسة قوية مع زاوية أحنصال¹⁴⁷. ويجد ذلك التنافس تبريره في اقتناع الزوايا المعارضة، بأن التحالف مع المخزن يفقد تلك المؤسسات هيبتها، ويجبرها على تقديم تنازلات، ويخضعها لجملة من الضغوط، ولكن يمكنها من الحصول على مجموعة من الامتيازات التي تزيد من توسيع قاعدتها المادية، ومن امتداد نفوذها وسط القبائل. غير أن شيوخ الزوايا حافظوا على علاقات مستمرة في ما بينهم، حتمتها روابط المشيخة، وضرورات التبادل الفكري، وأحيانا علاقات المصاهرة. وهكذا تبودلت المكاتبات بين الزاوية الفاسية من جهة، والزاوية الشرقاوية والعياشية والحمزية من جهة أخرى¹⁴⁸. أيعني ذلك أن السياسة السلطانية هي التي كانت ترغب الزوايا على اقتحام

¹⁴⁴ أحمد بوكاري، ن.م، ص. ص. 89، 126-127.

¹⁴⁵ عبد الرحمان الفاسي، ابتهاج... م.س.ذ.، ج. 1، ص. ص. 189، 218؛ محمد مرزاق، ن.م، ص. 231. كان محمد أزيات يعاتب أبا المحاسن الفاسي على سلوكه هذا، فأجابه بأن أهل المخزن الذين رآهم هم، « أهل بعد عن الحق فإن قابلتهم بالغلظة انفضوا وزادوا، شردوا عن جانب الله، بعدا من رحمة الله وظلما لعباد الله... »، راجع: محمد القادري، ن.م، ج. 1، ص. 218.

¹⁴⁶ عبد الرحمن الفاسي، ن.م، ص. ص. 113، 190.

¹⁴⁷ أحمد بوكاري، ن.م، ص. ص. 89، 121، 130.

¹⁴⁸ نفيسة الذهبي، ن.م، ص. 357؛ محمد القادري، النقاط الدر... م.س.ذ.، ص. 340. كانت لزعيم زاوية تازروت محمد بن علي بن ريسون اتصالات مكثفة بالشيخ عبد الله بن حسين شيخ تامصلوحت الذي زوجه ابنته، راجع: محمد عمراني، الشرف والمجتمع والسلطة السياسية الشمال الغربي المغربي غودجا (من القرن 16 إلى القرن 19)، أطروحة د.د. ع. في

الحقل السياسي، بالمواجهة أو بالتحالف؟ أم أن المخزن كان ينتظر من الزوايا القيام بأدوار، أدت إلى اختلاف مواقفها منه؟

الوساطة والحرم

اعتبرت الوساطة من بين أهم الأدوار التي كان المخزن ينتظرها من بعض الزوايا، لذلك لم يتأخر في قبول شفاعات شيوخها. لقد نجح أبو المحاسن الفاسي مثلاً في الإفراج عن نقيب الأشرف الذي سجنه قائد أحمد المنصور بالقصر الكبير، وتمكن محمد الصالح الشرقي من التدخل لدى أحمد، خليفة المولى إسماعيل على تادلة، لرفع المظالم عن عدد من أتباعه الذين طالهم أيادي القواد والجباة بالتعسف ومصادرة الأموال. ولقيت شفاعة محمد بن عبد القادر الفاسي كل ترحيب وتعظيم من لدن قواد المولى إسماعيل، كما كاتب يوسف بن سعيد أحنصال عامل تادلة من أجل إطلاق سراح مساجين آيت سعيد. وهمت الوساطة أحياناً خلافاً نشبت بين أبناء السلطان، كتدخل زعيم الزاوية الناصرية ليصلح بين عبد المالك وأخيه مولاي أبي النصر¹⁴⁹، أو ليطلب الصفح عن سكان وادي درعة الذين ناصروا تمرد أحمد بن محرز، أو ليفض نزاعات اندلعت بين الأطر المخزنية، أو ليفند وشايات طالت بعضهم¹⁵⁰.

ويدل قبول المخزن لهذه الوساطات، التي ارتبطت في معظمها بتجاوزات أطرها، على مدى وعيه بأهمية الزوايا في ملء الفراغ، الذي اعترى مؤسساته على الصعيدين المحلي والجهوي، وعلى مدى تمسكه بتزكية تدخلاتها، لذلك لم يتردد في منح بعضها صفة الحرم لتتحول إلى ملاجئ للفارين من تحرشات موظفيه، أو من أحكامه القضائية، وواجباته وكلفه المتعددة. ففي الوقت الذي جعل فيه أحمد المنصور من ضريح الريسونيين حرماً، متع المولى إسماعيل الزاوية الفاسية بالامتياز نفسه، خصوصاً أن الإقبال على هذا النوع من الأضرحة خلال عهد السلطانين ازداد، « لأن هذا المغرب كثير فيه الحيف من الولاة في الأموال والدماء

التاريخ، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 2001، ص. 210.

¹⁴⁹ نفيسة الذهبي، ن.م، ص. 169؛ عبد الرحمان الفاسي، ن.م، ج. 1، ص. 217؛ أحمد بوكاري، ن.م، ص. 125. ورسائل المولى إسماعيل إلى محمد بن عبد القادر الفاسي،

M. El Fasi, « Biographie de Moulay Ismail », *op. cit.*, p. 68.

عبد الله حمودي، « الانقسامية... »، م.س.ذ.، ص. 48؛ محمد المكي الناصري، ن.م، ص. 68.

¹⁵⁰ أحمد عمالك، ن.م، ج. 2، ص. 425-428.

وغير ذلك، فجعل المظلومون يلودون بضرائح الأولياء، فيتحصنون بذلك منهم، لما في أنفس كثير من الولاة من تعظيم أمر جانب الأولياء، ولما يرون من العقوبة النازلة بمن يهتك حرمان الأولياء، إذ جرب ذلك حتى صار أمراً متحققاً عند الخاص والعام»¹⁵¹.

ويستنبط من شهادة الإفرائي، أن إقدام السلطان على جعل بعض الأضرحة مناطق حرم مثل حماية لها من بطش أجهزته، واعترافاً من جانبه بالأدوار الاجتماعية والدينية التي تشرف على تأمينها، وهو ما يدفع إلى الاعتقاد بأن المخزن حينما يمارس سياسة تعسفية ضداً على الرعية، ويمنح صفة الحرم لبعض الأضرحة، فهو يسهم بشكل مباشر أو غير مباشر في تحقيق التوازن الاجتماعي والسياسي، من خلال امتصاص هذه الأضرحة لجملة من المشاكل، وإشرافها على إيجاد حلول لها، إذ استجار المولى عبد المالك بحرم المولى إدريس بعد هزيمته أمام أخيه محمد العالم¹⁵².

والملاحظ أن الحرم تم منحه للزوايا تبعاً لوضعيتها الجغرافية، ولمكانتها داخل النسق الاجتماعي، ووفقاً للأهداف التي تخدم مصالح المخزن، فتمتع ضريح جبل العلم بهذا الحق على عهد السلطانين، لا يمكن فهمه إلا في سياق الأهمية الإستراتيجية للمنطقة الشمالية الغربية، وما لعبته من دور حاسم في نشاط الجهاد، وهو ما استوجب تحصين هذه الجبهة من خلال تعزيز نفوذ العلميين، للمساهمة عند الحاجة في تحرير الثغور من جهة، وللتقليص من تجاوزات القواد من جهة أخرى. ومن هنا فإقدام المولى إسماعيل على تجديد الظهير لهم، استهدف وضع حد لخروقات قائده سعيد الزراري، وضمان النجاح لسياسته الجهادية. كما أن إضفاءه صفة الحرم على الزاوية الفاسية لا يمكن تناوله بمعزل عن الصلات الحسنة التي جمعتها بشيوخها، وعن نيته في خلق فضاء مواز للضريح الإدريسي¹⁵³. لكن ألم يكن للحرم

¹⁵¹ محمد الإفرائي، «مخطوط درر الحجال...»، م.س.ذ.، ص.ص. 41-42، أورده حسن جلاب، مجلة المناهل، ع. 36، 1987، ص. 410.

¹⁵² أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. 41. الحرم «لا يقربه المخزن، ولا يطوف حوله، ولا يصطاد فيه وحش، ولا يقطع منه شجر». محمد المنصور، «مادة الحرم»، معلمة المغرب، المجلد 10، سلا، مطابع سلا، 1998، ص.ص. 3386-3387. وكان كل من يتجاوز حرم زاوية سيدي عبد الرحمان الفاسي تصيبه عاهة، راجع: عبد الرحمان الفاسي، سلا، ج. 1، ص. 156.

A. Laroui, *Les origines, ..., op. cit.*, pp. 148, 153. Voir aussi, P. Pascon, *Le Haouz de Marrakech...*, op. cit., pp. 257-8.

¹⁵³ محمد المنصور، ن.م. ظهير إسماعيلي لفائدة الزاوية الريسونية بتاريخ 10 محرم 1136 هـ الموافق 10-10-1723م، محمد ابن عزوز حكيم، مساهمة رباط تازروت...، م.س.ذ.، ص. 87. ومثلت الزاوية الفاسية قاعدة «يحترم بها أهل الجنائيات ومن طلب بالتكاليف المخزنية، وكان السلطان المولى إسماعيل يجبر من استجار بها، ولا يقدر أحد من

تأثير على السلطات القضائية والجبائية للمخزن؟

« لقد صار من كان ظالماً، إذا دخل تلك الأحرام، أمن على نفسه، ولا يعرض له أحد... فلو كنا نخرج الجناة وأرباب الجرائم منها لكون الشرع أخرجهم... ربما أدى ذلك إلى إخراج المظلومين لأن الولاة ربما يقيمون عليهم حججاً شرعية، فسد الناس هذا الباب رعيًا لهذه المصلحة العامة... »¹⁵⁴.

وإذا كانت معظم آراء الفقهاء اتجهت نحو الإفتاء بإخراج الفارين من العدالة، فإن تصور الإفرائي المخالف يحمل في طياته ترايد عدد المحتمين بحرم الزوايا نتيجة لانتشار التعسف، ويؤكد وقوف مؤسسة الحرم في وجه السير العادي لسلطة المخزن، خاصة بعد أن تورط بعض ولاته في تحويل المظلومين إلى ظلمة، واستغل الحرم مثلاً من قبل بعض قبائل جباله في الامتناع عن أداء الواجبات والتكاليف السلطانية، إذ تحصنت به هروباً من عقوبة الجيش¹⁵⁵. ولا يعني وجود هذه الحالات، فقدان المخزن سيطرته على الأوضاع بالبلاد نظراً لمحدوديتها، ولقلة الزوايا التي استفادت من هذا الامتياز من جهة، ونتيجة لكون سياسات السلطانين أحمد المنصور والمولى إسماعيل اتسمت بصرامة شديدة ضدّاً على كل من حاول التملص من سلطتهما من جهة أخرى.

والمثير أن هناك زوايا دعا شيوخها كل من استجار بها إلى الصبر وإلى طاعة أولي الأمر مهما بلغ جورهم، كما هو الشأن بالنسبة لزعيم الزاوية القندوسية، الذي خاطب المشتكين من الوظائف المخزنية ومن التكاليف السلطانية بالقول: « اصبروا واحتسبوا... إن ما تعطونه من الوظائف إنما هي كفارات تربت عليكم، فاشكروا الله أيها المسلمون »¹⁵⁶. وعلى الرغم مما ينطوي عليه هذا الموقف من رغبة جلية في نيل رضا السلطان المولى إسماعيل وعطفه، فإنه لا يخلو من تأكيد على أن القيام بدور الوساطة، ارتباط ارتباطاً عضوياً بالوزن الذي احتلته الزاوية في المشهد الديني، وتحديدًا بمدى قدرة شيخها على فرض نفسه بصفته رجل تحكيم بين أتباعه وبين المخزن.

عماله أن يتجاسر على أحد ممن لجأ إليها ولو جنى ما جنى»، محمد القادري، نشر المظاني...، م.س.ذ.، ج. 3، ص. 153.

¹⁵⁴ محمد الإفرائي، « مخطوط درر الحجال... » ص. 410.

¹⁵⁵ محمد عمراني، « مادة الحرم العلمي »، معلمة المغرب، المجلد 10...، م.س.ذ.، ص. 3388.

¹⁵⁶ محمد مرزاق، ن.م، ص. 229.

ولم تنحصر مهام الوساطة في العلاقة بين رجال المخزن والرعية، وإنما امتدت لتهم النزاعات القبلية التي لم تحظ بعناية من قبل المصادر، لكونها ربما اعتبرتها بديهية مقارنة مع الأولى. ولعب في هذا الصدد زعماء زاوية تمكروت وأبي الجعد ووزان وأحنصال، أدواراً مهمة في حل المشاكل الناتجة عن الصراعات بين سكان السهل والجبل، خاصة في عهد المولى إسماعيل الذي راهن على الموازنة بين الحزام العسكري وبين تلك المؤسسات، بهدف إخضاع المناطق المستعصية من جبال الأطلس، كما جاء في رسالته إلى عامل تادلة، إذ أكد أن من يفلح من المرابطين هم الذين يوالون السلطة الشرعية، ويحثون الناس على الطاعة. وتكرر الخطاب نفسه في رسالة أخرى إلى زعيم تاسافات بعد تخريب زاويته، إذ اعتبر أن ما تعرض له من احتقار يرجع إلى عدم زيارته له، بمكناس لتقديم الواجب المفترض من الطاعة¹⁵⁷. إذن فعلى الزوايا أن تمارس وظائفها التحكيمية، للمحافظة على السلم الداخلي. بمجال نفوذها، وللحيلولة دون اصطدام سكان السهل بسكان الجبل، وكلما عجزت عن ذلك يتم اللجوء إلى الخيار العسكري؛ أي أن هذا السلطان حاول الجمع بين السلطة الظاهرة للجيش والسلطة الخفية للزوايا¹⁵⁸.

وإذا كانت بعض الزوايا قد نجحت إلى حد ما في تحقيق ما كان ينتظره المخزن منها، فإن محاولات الحنصاليين لم تفض إلى النتيجة نفسها؛ نظراً لأنهم ربطوا علاقات ودية في الظاهر مع المولى إسماعيل، ومع عامله على تادلة بهدف التوغل في السهل، دون أن يأخذوا بعين الاعتبار طبيعة التركيبة البشرية للمناطق التابعة لهم¹⁵⁹، التي ضمت قبائل آيت عطا، وهو ما يعني صعوبة التوفيق بين طموحاتهم وبين قاعدتهم الخلفية، ويفسر لنا دخول المولى إسماعيل

¹⁵⁷ عبد الله حمودي، ن.م، ص. 48؛ عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 136.

A. Hammoudi, « Sainteté, pouvoir et société, Tamgrout aux XVII et XVIII siècles », *Annales ESC.*, n° 3/4, 1980, p. 629.

ورد في رسالة المولى إسماعيل إلى قاضيه على فاس أحمد المرادسي، أنه طلب من أحمد بن ناصر خلال زيارته له بمكناس، بذل النصيحة وإعائته في فهم دينه ودنياه. رسالة بتاريخ 12 محرم 1105هـ، ميكروفيلم خ.ع، رقم 23، ص. 12.

¹⁵⁸ M. Morsy, « Réflexion sur le système politique... », *op. cit.*, p. 129. M. Morsy, *La relation de Thomas Pellow...*, *op. cit.*, p. 59. M. Morsy, « Moulay Ismail ou l'instauration... », *op. cit.*, p. 142. Voir aussi, A. Laroui, *Les origines...*, *op. cit.*, p. 152.

¹⁵⁹ ظهر من المولى إسماعيل إلى الغازي بو حفرة بتاريخ 1698-1699، يخبره فيه بأن زعيم زاوية أحنصال سيدي سعيد قد زاره، وطلب منه بقعة أرضية في تادلة لبناء زاوية، راجع: عبد الله حمودي، الانقسامية...، م.س.د.، ص. 48. انظر أيضاً:

M. Morsy, « Réflexion sur le système politique... », *op. cit.*, p. 130.

أحيانا في مواجهات معهم.

وهمت الوساطة في بعض الحالات خلافات نشبت بين الأطر المخزنية، إذ استغلت المحتسب عبد العزيز الفيلاي بأحمد معن زعيم زاوية المخفية، بهدف إلغاء مكوس أبواب فاس وأسواقها التي فرضها عبد الله الروسي. وبعد تردد كبير من الشيخ الذي امتنع في أول وهلة عن الخوض في أمر الولاة، تدخل واجتمع بالعمل المذكور بروضة سيدي علي بن حرزهم، تفاديا لكل شبهة على عادة زعماء الزوايا كما أسلفنا، وعاتبه فترجع ولو موافقا عن قراره¹⁶⁰. كما شكلت إعادة التوزيع إحدى أهم الوظائف التي تكفلت بها الزوايا خاصة في البوادي وفي بعض المدن. فما أبرز مظاهرها؟

الكرم وإعادة التوزيع

كرست الزوايا مذكراتها لإطعام الضيوف والمحتاجين وإكرامهم خلال السنوات العادية، ولنجدتهم خلال السنوات العجاف؛ فقد كانت لسعيد المشتري كميات هائلة من الحبوب، وأعداد ضخمة من المواشي لا يراقبها، بل ينفقها على الناس ويجعلها في خدمتهم. واحتضنت زاوية أبي عمر القسطلبي أصنافا من الأطعمة، « لا توجد في خزائن الملوك »¹⁶¹ وكان أحمد بن محمد الشاوي وأحمد معن يكثران من التصدق وإطعام الناس والإنفاق عليهم، شأنهما في ذلك شأن مولاي التهامي الوزاني الذي كان يريد من يأكل طعامه ويقول « سرنا في طعامنا فمن أراد سرنا فليأكل من طعامنا »¹⁶².

ويستنتج من سياق هذه النماذج، أن الزوايا جندت كل إمكاناتها الغذائية للاستجابة لحاجيات مريديها، الذين لم يترددوا في تقديم هداياهم وهباتهم إبان الزيارات، وهم واثقون من أنها ستعود إليهم في شكل عطاءات مادية ومعنوية، إذ إن الطعام المقدم لهم على هذه كمياته أحيانا، غني ببركته الرمزية التي تعود على الشخص بالنفع العميم¹⁶³. وهو ما جعل هذه الزوايا تحول ظاهرة الأخذ والعطاء من طابعها العفوي إلى طابع مؤسسية، تقوم بأدوار

¹⁶⁰ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 386.

¹⁶¹ محمد ابن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حججي، الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976، ص. 77، 108-110.

¹⁶² محمد القادري، نشر الثاني...، م.س.ذ.، ج. 1، ص. 134، وج. 3، ص. 191، وج. 4، ص. 17.

¹⁶³ فقد أشيع أن كل من يأكل من طعام الشيخ أحمد معن يكفيه ولو كان قليلا، محمد القادري، ن.م، ج. 3، ص. 191.

أحيانا في مواجهات معهم.

وهمت الوساطة في بعض الحالات خلافات نشبت بين الأطر المخزنية، إذ استغاث المحتسب عبد العزيز الفيلاي بأحمد معن زعيم زاوية المخفية، بهدف إلغاء مكوس أبواب فاس وأسواقها التي فرضها عبد الله الروسي. وبعد تردد كبير من الشيخ الذي امتنع في أول وهلة عن الخوض في أمر الولاية، تدخل واجتمع بالعامل المذكور بروضة سيدي علي ابن حرزهم، تفاديا لكل شبهة على عادة زعماء الزوايا كما أسلفنا، وعاقبه فترجع ولو مؤقتا عن قراره¹⁶⁰. كما شكلت إعادة التوزيع إحدى أهم الوظائف التي تكفلت بها الزوايا خاصة في البوادي وفي بعض المدن. فما أبرز مظاهرها؟

الكرم وإعادة التوزيع

كرست الزوايا مذكراتها لإطعام الضيوف والمحتاجين وإكرامهم خلال السنوات العادية، ولنجدتهم خلال السنوات العجاف؛ فقد كانت لسعيد المشتري كميات هائلة من الحبوب، وأعداد ضخمة من المواشي لا يراقبها، بل ينفقها على الناس ويجعلها في خدمتهم واحتضنت زاوية أبي عمر القسطللي أصنافا من الأطعمة، « لا توجد في خزائن الملوك »¹⁶¹. وكان أحمد بن محمد الشاوي وأحمد معن يكثران من التصدق وإطعام الناس والإنفاق عليهم، شأنهما في ذلك شأن مولاي التهامي الوزاني الذي كان يريد من يأكل طعامه ويقول « سرنا في طعامنا فمن أراد سرنا فليأكل من طعامنا »¹⁶².

ويستنتج من سياق هذه النماذج، أن الزوايا جندت كل إمكاناتها الغذائية للاستجابة لحاجيات مريديها، الذين لم يترددوا في تقديم هداياهم وهباتهم إبان الزيارات، وهم واثقون من أنها ستعود إليهم في شكل عطاءات مادية ومعنوية، إذ إن الطعام المقدم لهم على قلة كمياته أحيانا، غني ببركته الرمزية التي تعود على الشخص بالنفع العميم¹⁶³. وهو ما جعل هذه الزوايا تحول ظاهرة الأخذ والعطاء من طابعها العفوي إلى طابع مؤسسة، تقوم بأدوار

¹⁶⁰ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 386.

¹⁶¹ محمد ابن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976، ص. 77، 108-110.

لتأمين مذكراتها من الحبوب، لجأت القبائل إلى وضعها تحت وصاية الزوايا، راجع: عبد الله التسافني، ن.م، ص. 99.

¹⁶² محمد القادري، نشر الثاني... م.س.ذ.، ج. 1، ص. 134، وج. 3، ص. 191، وج. 4، ص. 17.

¹⁶³ فقد أشيع أن كل من يأكل من طعام الشيخ أحمد معن يكتفيه ولو كان قليلا، محمد القادري، ن.م، ج. 3، ص. 191.

علمية داخل المجتمع¹⁶⁴، وتشعر المخزن بقوتها المستمدة من تزايد عدد أتباعها، ومن سرقتها على خدمتهم، وترسخ في أذهان هؤلاء صورا تتم فيها المقابلة بين أدوارها وبين ممارسه المخزن من سياسة ضريبية مجحفة، لا يرى فيها السكان إلا نهبا لممتلكاتهم دون حصول على مقابل، وإلا كيف نفسر أن أحد أتباع الجزولي، ويدعى سيدي عياد بن عبد الله حوسبي، كان يسلف فائض جبوب الزاوية للناس، وخلال موسم الحصاد يمزق ضمانات سلف ولا يطالبهم بشيء¹⁶⁵.

والملاحظ أن شيوخ الروايا الذين كانوا يترددون في قبول الهدايا، خاصة من الأشخاص فقراء، عمدوا إلى ردها لهم بما يعادل أضعافها، فأحد المشتكين زار أبا المحاسن ليساعده على استرجاع حاجة انتزعها منه القائد حاملا اللحم والدقيق، فاحتج الشيخ على هذا سلوك، وأعاد له هدية مالية فاقت قيمتها ما أتى به، وهو الذي كان يتصدق على الفقراء الساكنين بما يساوي المبلغ الذي ينفقه على حاجيات داره، حتى إنه بدد جزءا مهما من المال الذي ورثه من تجارة أبيه، وأوشك أحمد معن صاحب زاوية المخفية على تبذير ثروته، من كثرة ما كان يقدمه للمحتاجين¹⁶⁶.

وعلى الرغم من اشمئزازهم من التعامل مع رجال المخزن الذين كانوا يتشفون للتردد عليهم ومجالستهم، حرص بعض زعماء الروايا على استقبالهم والاستماع إليهم وإرشادهم، وتمكينهم من معاناة ما يقدمونه من خدمات لزوارهم، بل إن التساقتي أعد طعاما رفيعا لاستقبال أعضاء الوفد المخزني، الذي حمل رسالة الأمان من السلطان بعد انتهاء حملة باشا مراكش عليه، «فتعجبوا من ذلك الطعام وصنعه غاية، ولما فرغوا حمدوا الله من أكلهم من طعام زاوية الشيخ»¹⁶⁷.

وما يظهر من سياسة الجود، أن الروايا كرسنها لتدعيم شرعيتها الدينية القائمة على مفهوم

¹⁶⁴ B. Rosenberger, *Société, pouvoir et alimentation...*, op. cit., pp. 81-3. Du même auteur, « Cultures complémentaires et nourriture de substitution au Maroc XV-XVIII^e siècles », *Annales ESC*, n° 3/4, 1980, p. 496.

¹⁶⁵ محمد الإفرائي، صفوة من انتشر...، م.س.ذ.، ص. 129.

¹⁶⁶ هناك عدة حالات قبل فيها الشيخ أبي المحاسن الهدايا وأعاد توزيعها. عبد الرحمان الفاسي، ن.م، ج. 1، ص. 182، 218-219؛ القادري، ن.م، ج. 3، ص. 191؛ النقاط الدرر...، م.س.ذ.، ص. 324، هامش 4.

¹⁶⁷ عبد الله التساقتي، ن.م، ص. 143-144. واستقبل أبو المحاسن الفاسي وابن أبي زيان زعيم الزاوية القندوسية عددا من رجال المخزن، راجع: نفيسة الذهبي، ن.م، ص. 134؛ محمد مرزاق، ن.م، ص. 231؛ عبد الرحمان الفاسي، ن.م، ج. 1، ص. 189، 218، 222.

البركة، وعلى معيار الكرامات وثقافة الزهد، ووظيفتها لإبراز ثقلها الاقتصادي والاجتماعي أمام السكان لاستقطابهم وترسيخ ولائهم، وأمام المخزن لخلخلة سياساته الجائرة في أقتنقويمها عن طريق تقديم نموذج لإقرار العدل.

على أن هذه السياسة، لا ينبغي أن ننظر إليها في أبعادها المادية فحسب، بقدر ما يجب أن نضعها في إطارها الرمزي، على اعتبار أننا أمام قوتين متنافستين تتمتعان بمرجعية البركة إذ يستمد السلطان مشروعيته من نسبه الشريف، ومن البيعة التي وضعها في عنقه أهل الحلف والعقد، ويستوحي زعيم الزاوية مصداقيته واستمراريته من الثقة والاعتراف بما وهبه الله ومن كرم الأتباع¹⁶⁸. ومن هنا فكل طرف حاول أن يظهر تفوقه على الآخر من خلال توظيف سلطة الكرم، سواء خلال الأيام العادية أو إبان المناسبات الدينية، مما أدى إلى ظهور نوع من التنافس، أفضى إلى إقدام المخزن أحيانا على محاولة احتواء الطرف الآخر. وهكذا حين طرد أمد الجفاف، قام محمد العالم بإطعام الناس داخل زاوية القلقليين طلبا في الاستسقاء¹⁶⁹، وكما سبق أن بنا، استهدف تعظيم أحمد المنصور لمناسبة المولد النبوي بالدرجة الأولى استقطاب الناس، وتجريد الزوايا من قوتها.

ولا يخفى ما لهذا السلوك من أهداف، تكمن بالأساس في إضفاء الطابع الرسمي على وظيفة الكرم، التي تضطلع بها الزاوية الفاسية داخل المدينة، وإعطاء الانطباع بخضوع ولو رمزيا إلى السلطة السلطانية. غير أنه بالرغم من هذا التنافس فكل طرف كان على وغير بحدود الآخر، فشيوخ الزوايا كانوا يدركون أهمية التزكية السياسية في استمراريتهم والسلطان يقدر من جهته حجم المكاسب التي سيجنيها من كل تحالف يجمعه بهم. ومع ذلك، ظل الأولياء يشكلون مصدرا لسلطة رمزية لها خصوصياتها التي تميزها عن السنن الأخرى الموازية، والمستمدة من عدم اكتراثهم بالحياة الدنيا، ومن قدرتهم على اكتشاف أسرار الحقائق وإزالة الغموض، مما أكسبهم شهرة أفضت إلى تقاطر المريدين عليهم، وسعي أولي الأمر إلى التبرك بهم، وإلى رفع الكدر عن نفوسهم، إذ قصدت أم المنصور مسجدا الوزكيتية زعيم الزاوية البوعمرية، ليطمئنها على حال ابنها، بعد خروجه لإخماد ثورة بعض أقاربه، وتزامن ذلك مع الزلزال. وكان السلطان المولى إسماعيل يسر كثيرا بالخضر البكري.

¹⁶⁸ راجع الفصل الثالث من القسم الأول من هذه الدراسة. وأيضا:

Valensi, *Fables de la mémoire...*, op. cit., p. 104.

¹⁶⁹ محمد القادري، نشر الثاني... م.س.ذ.. ج. 2، ص. 311.

حي يرسلها له في أوقات نضجها، شيخ زاوية المخفية عبد الله معن على عادة أبيه، إيماناً منه بكنها. مما يعني أن الولي كان ينفرد بصب السبق في تخويل تلك البركة، وإن كان أحمد بن الحاج لم يفرق بين بركة الشيخ وبين بركة السلطان حين قال: «وكانت تقع بينهما أمور خفية لا يعلمها إنسان»¹⁷⁰، لكن هذا التقابل يدل على مدى إحساس الطرفين بأهمية سلطة إكرم في تخويل الهيبة.

ولم تنحصر سياسة إعادة التوزيع في مجال الأطعمة، بل همت مجالات مختلفة، فأصحاب المحاسن الفاسي قبلوا شحنة من الرمل أرسلها أحد قواد أحمد المنصور، إسهاماً في مسجد الزاوية، فرفض الشيخ استخدامها في ورشته، وأمر بالاحتفاظ بها إلى حين أن يجد لها منفذاً. والسلوك نفسه مارسه أحمد معن، إذ كان كلما اضطر إلى قبول الهدايا إلا منحها لأشخاص آخرين¹⁷¹.

لكن من المؤكد أن أدوار الزوايا لم تقتصر على الوساطة، وإعادة التوزيع، اللتين كان يتم خلالهما إظهار عدل الصالحين وإنصافهم، مقابل جور رجال المخزن وظلمهم، بل ورزتهما إلى الميادين الاقتصادية والاجتماعية والدينية والتربوية.

أدوار مجتمعية أخرى

تشهد المصادر بوجود بعض الوظائف التي اضطلع بها زعماء الزوايا، كأحمد بن محمد حلوي الذي كرس ثراه لإنجاز عدة مشاريع بفاس، أهمها بناؤه لقنطرة ابن طاطو بعد حطمها السيل، وإصلاحه لقنوات مياه جامع الأندلس، حتى إنه أنفق في ذلك سبعة آلاف أوقية. ووظف أحمد معن شيخ زاوية المخفية أمواله الطائلة في ممارسة النشاط الزراعي بغراسة وتربية النحل، والإنفاق على المحتاجين، واستثمر محمد بن التهامي الوزاني مبالغ مالية هامة في الزراعة وتربية المواشي¹⁷².

¹⁷⁰ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. 245-246، 342؛ حسن جلاب، «ظواهر سعدية في توفير واحترام شيوخ الزاوية البوعمرية بمراكش»، مجلة دار النيابة، ع. 21، ص. 15. ومن كرامات المولى إسماعيل أنه استطاع إطعام 50 جندي بخمسة أوسق من الشعير.

¹⁷¹ هيسة الذهبي، ن.م، ص. 135؛ محمد القادري، ن.م، ج. 3، ص. 191.

¹⁷² أشهر أحمد بن محمد الشاوي بثرائه، وكانت له خمس زوايا، إحداها بفاس، وأربعة بمناطق قروية مجاورة، راجع عبد القادري، ن.م، ج. 1، ص. 133، وج. 4، ص. 262. وكان للشيخ معن خمس زوايا «يقيمها من كل ما تحتاج من طعام وغيره من ماله الخاص به ومما يوتي به إليه. وكان له بوادي سبو فلك صغير... يعبر الناس عليه زمن الشتاء يستعظم الوادي، وذلك لوجه الله عز وجل». محمد ابن عيشون الشراط، الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من

بل أصدر المولى إسماعيل ظهيرا لفائدة زاوية تمصلوحت، يرخص بموجبه لهذه المؤسسة استئناف الأشغال بشبكة الري الجديدة بتلكرت، وتغيير مسارها حتى لا تؤدي إلى نشوب منافسة حول الماء مع بني مراس، وأمر خديمه عبد الكريم الخطيب بتقديم المساعدات اللازمة لذلك، وبعد إنجاز المشروع أصدر ظهيرا ثانيا كلف فيه الزاوية بتوزيع المياه على السكان المعنيين كل يوم جمعة¹⁷³.

وحظيت الأنشطة الدينية والتربوية بعناية خاصة من لدن الزوايا، التي كانت تنفق على طلبة العلم، وتعظم ليالي رمضان، وتهتم بركب الحجاج، وتحتفل بمناسبة المولد النبوي الشريف التي تقدم فيها أفخر أنواع الأطعمة للمريدين¹⁷⁴.

من هذا المنطلق، أكانت الزوايا هي التي تطرح نفسها من خلال هذه الأدوار، باعتبارها مكوناً لا غنى عنه يسهم في تجاوز بعض المشاكل التي يستعصي على المخزن أمر البت فيها. أم أن المخزن كان مقتنعا بأهمية هذه المؤسسات في تقديم الدعم بشكل غير مباشر لسياساته، واكتفى بمراقبته حتى لا يزيغ عن الأهداف المتوخاة منه، أو يفضي إلى تبلور قوة منافسة له؟ من البديهي أن المخزن، وهو يخول للزوايا الإقطاعات، وما واكبها من حقوق التصرف في الموارد الضريبية من أعشار ومستفادات الأوقاف والهبات وغيرها، كان يدرك تمام الإدراك بأن ذلك يسفر عن تقوية قاعدتها الاقتصادية والمالية، وتبعاً لذلك يوسع أنشطتها الدينية والخيرية بواسطة تكاثر مريديها، الذين لم يتقاعسوا بدورهم عن بناء تلك القاعدة. في الحالات التي كانت فيها زاويتهم لا تتمتع بمباركة السلطة الرسمية. لكنه حرص على مراقبة تلك الامتيازات، بل وتقنينها بواسطة توزيع ظهائر التوقير والاحترام على الزوايا، التي كانت تبدي استعدادها للانخراط في السياسة السلطانية، أو تلك التي تتمتع بقوة حقيقة. يستوجب واقع الحال استمالتها، وهكذا أصدر السلطانان عدة ظهائر لفائدتها¹⁷⁵. فقد

أهل فاس، دراسة وتحقيق، زهراء النظام، الرباط، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، 1997، ص. 237. وحول الشيخ معن، انظر: النقاط الدر...، م.س.ذ.، ص. 300.

¹⁷³ الظهير الأول بتاريخ 19 شوال 1103 هـ 21 يونيو 1692م، راجع: P. Pascon, *Le Haouz de Marrakech, op. cit., t. I, pp. 278-9.*

¹⁷⁴ كانت زاوية أحمد بن محمد الشاوي، تكثر الطعام في مناسبة المولد النبوي، شأنها في ذلك شأن الزاوية الفاسية. انظر: محمد القادري، نشر الثاني...، م.س.ذ.، ج. 1، ص. 134؛ نفيسة الذهبي، ن.م، ص. 132-133؛ أحمد عمالك، ن.م، ج. 1، ص. 180-185.

¹⁷⁵ محمد ابن عزوز حكيم، ن.م، ص. 86؛ عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م.س.ذ.، ص. 118-119.

جدد أحمد المنصور لفائدة زاوية سيدي أبي محمد صالح عادة توقيرها واحترامها، وفوض لها استخلاص حقوق الأعشار والزكوات والأوقاف، والتصرف في توزيعها، وتمتع المولى إسماعيل الزوايا التابعة لحفدة أبي درقة بالشياطمة وحاجة وجزولة بالامتيازات نفسها¹⁷⁶.

والثابت أن المخزن حاول من خلال إصدار الظهائر أو تجديدها، احتواء القوة المادية للزوايا، والظهور بمظهر السلطة المخولة لتلك القوة، عبر إشعار هذه المؤسسات بأن ازدياد مواردها وهين بالظروف المواتية، التي توفرها عادات التوقير والاحترام، وأن كل موقف مناهض له يعني الحرمان من تلك الامتيازات. وهو ما عبر عنه المولى إسماعيل لمن زاره من أقرباء زعيم أحنصال، وما يمكن استشفافه من رسالة باشا مراکش إلى زعيم زاوية تاسافات، حيث نصحه بأن مصلحته لا تكمن في التشبث « بأذيال الغوغاء الذين لا طائل تحتهم، ولا يقدرّون على حماية أرواحهم »¹⁷⁷، وإنما في الاستفادة من الإنعامات المولوية، لهذا أعقب تخريب الزاوية إصدار ثلاثة ظهائر توقير واحترام، تفوضها استغلال منجم الملح، وترخص لإعادة بنائها، مما يعني أن الهدف بالأساس يكمن في تركيعها وإخضاعها لسلطته ولو الاسمية، وردّ لتسافتي بإرسال الهدية وإعلان الطاعة¹⁷⁸. ويدل هذا الموقف على أن المخزن، خاصة في عهد السلطان العلوي، أراد أن يفهم الزوايا بأن إشعاعها يجب أن تستمدّه من تركيته أيضاً، وليس من إجماع المريدين فحسب¹⁷⁹.

¹⁷⁶ 331، 127. ثم مجموعة ظهائر منصورية وإسماعيلية لفائدة الزوايا، خ. ع، ميكروفيلم، رقم 23، ص ص. 11، 30، 33. وظهائر منصورية منشورة ضمن: محمد المختار السوسي، المعسول، الدار البيضاء، مطبعة النجاح، 1962 ج. 1، ص. 93. وظهر إسماعيلي لفائدة الولي الصالح يوسف التواتي بتاريخ 4 شوال 1113 هـ، خ. ح، المحفظة رقم 1، عهد المولى إسماعيل.

¹⁷⁷ ظهر منصوري إلى الولي سيدي أبي محمد صالح بتاريخ 9 جمادى الأولى 1056 هـ، خ. ع، ميكروفيلم، رقم 23، ص. 30. « ... وقد بسطنا لهم يد التصرف على جميع زواياهم المتفرقة في جميع النواحي والأطراف كزوايا جدهم الشيخ أبو درقة المذكور، وزاوية جدهم أبي محمد عبد الله بوزرقطون دفين الساحل من بلاد الشياطمة، وزاوية أخيه الشيخ أبي البركات محمد دفين بلاد حاحة، وزاوية أخيهما سيدي فصال دفين بلاد المصامدة بجزولة وجعلنا نظر للنظر الثلاث المذكورين في جميع مستفادات الأوقاف يستعينون بما فضل منها عن مصالح الزوايات ... » ظهر إسماعيلي لفائدة حفدة أبي درقة بتاريخ 17 رجب 1083 هـ، راجع: محمد القاسي الفهري، قبيلة بني زروال...، م. س. د.، الرباط، مطبوعات إفريقية الشمالية الفنية، 1962، ص ص. 80-81؛ أحمد بوكاري، الإحياء والتجديد الصوفي في المغرب (1790-1912)، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، 2006، ج. 1، ص. 84 وما تلاها.

¹⁷⁸ عبد الله التسافتي، ن. م، ص. 149.

¹⁷⁹ عبد الله حمودي، « الانقسامية ... »، م. س. د.، ص. 48. التسافتي، ن. م، ص ص. 71، 135-136، 147، 150.

¹⁸⁰ « إن هذه التسوية التي سوطك الله بها، على يد ولدنا مولاي الشريف وخديمتنا عبد الكريم بن منصور، ما

ومن هذا التصور، يتضح أن المخزن كان يتتبع عن كتب طبيعة التحول الذي يحدث في كنف الزوايا، بفعل تضخم ثرواتها، وكان على علم بما ينطوي عليه ذلك من مجازفة، ومن أهمية في آن واحد. لكنه حرص بشدة على أن لا يفضي ذلك إلى تقويتها سياسيا، أو يخرج بها عن وظيفتها الدينية والاجتماعية. ولذلك لم ير مانعا في تقديمها لمختلف الخدمات التعليمية والخيرية والاستشفائية والاقتصادية حتى إن أدت إلى اغتائها، وعمل من جانبه على توظيف إمكاناته المادية والرمزية لتحقيق التوازن تجاهها.

وإذا كانت أدوار الزوايا بصفة عامة قد ظلت مطبوعة بحجم مواردها، وبعدد مريديها، وباقتناعات شيوخها، وبمدى تفتحهم، فإن المخزن تعامل معها انطلاقا من أهمية تلك الأدوار، وحاول توظيف رأسماله الرمزي والمادي، لإشراكها في نسقه السياسي أو للضغط عليها. فما هي الوسائل التي راهن عليها لبلوغ ذلك الهدف؟

ضغوط مخزنية

في الوقت الذي مثلت فيه سياسة زيارة الأولياء، وبناء الأضرحة أو ترميمها، كما أوضحنا، إحدى الآليات التي تبناها السلطانان لإظهار تفوقهما الرمزي على الزوايا، فإن تلك السياسة أمارت اللثام عن نوعية العلاقات التي جمعتهم بأرباب المؤسسات المعنية. فاعتناء أحمد المنصور بأضرحة أبي عبد الله الهزميري، وعبد المجيد، ودراس بن إسماعيل، وأبي بكر العربي، وعلي بن حرزهم وغيرهم، وتوجيهه لأمه لالة عودة للتبرك وطلب الدعاء من صلحاء فاس، واهتمام المولى إسماعيل بأضرحة المولى إدريس الأول والثاني، وأبي يعزى، ومحمد الشرقي، وأبي شعيب الأزموري، وابن عاشر السلاوي، والشيخ الجزولي، وابن حرزهم¹⁸⁰، يترجم بكل جلاء، المكانة التي احتلها هؤلاء في البنية الاجتماعية من جهة، وفي سياسات السلطانين من جهة أخرى.

أمرناهم بها ولا اتفقنا معهم في شأنك عليها... وإنما هي من عند الله عز وجل والقضاء والقدر جرى بها... وكل ضاع أو فسد لك فخليفته عني الله وعلينا... وأقدم على مقامنا العلي وزرنا...»، رسالة من المولى إسماعيل إلى زوايا تاسافات، عبد الله التاساقي، ن.م. ص. 135-136. انظر أيضا: I. Morsy, « Réflexion sur le système politique... », *op. cit.*, p. 128 ; A. Laroui, *Les origines...*, *op. cit.*, pp. 140, 148, 150.

¹⁸⁰ أحمد بن القاضي، المتقي القصور...، م.س.ذ.، ج. 1، ص. 387-388؛ عبد العزيز الفشتالي، ن.م.، ص. 214-215، 220؛ محمد ابن العياشي، زهر البستان...، م.س.ذ.، ص. 101؛ عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م.س.ذ.، ص. 346-347.

لقد أدرك السلطان السعدي أهمية تلك الالتفاتات في الحفاظ على جو المصالحة الذي ميز علاقاته بالزوايا، إذ لازلت ذاكرته تحتفظ بما عاناه أبوه من صراع مع جملها، ومن ثم، لم يتعاس في استثمار ذلك الجو لضمان استمرارية سلطته، التي لم تقتصر على إنشاء المدارس لتنافسها، بل ارتكزت بشكل كبير على الحذر الشديد من رجال التصوف¹⁸¹، وعلى تثبيت تقليد الزيارات الذي يسهم في تنشيط الروابط معهم لإشعارهم بأهميتهم، وفي ترسيخ صور التبعية والخضوع لوصايته. وفي هذا السياق يمكن فهم موقف الكاتب أبي عبد الله محمد بن رضوان، الذي لاحظ ازدحام الأتباع على زاوية أبي المحاسن الفاسي فخاطبه قائلا: «يا سيدي إن مولينا الشرفاء، يعني ملوك الوقت، يقع في نفوسهم شيء من هذا الأمر»، فقلص الشيخ من عدد الوافدين على زاوية المخفية¹⁸².

وعلى الرغم من دخول المولى إسماعيل في مواجهة مع الزوايا المعارضة، فإنه انطلق من ثوابت سياسة سلفه، وعمل على تطويرها، فإيلاؤه العناية مثلا لزاوية مولاي بوعزة بزيان، وللزاوية الشرقاوية بتادلة، يدخل ضمن إستراتيجيته الهادفة إلى التحكم في مناطق الأطلس المتوسط، وتعظيمه لضريحي المولى إدريس وابنه لا يمكن فهمه بمعزل عن الصراع الذي خاضه مع أعيان مدينة فاس وعلمائها منذ بيعته. غير أن هذا السلطان فرض على الزوايا أن تتخذ موقفا محددا منه، إما بموالاته أو بالوقوف في وجهه وتحمل العواقب؛ لأنه عايش إلى جانب أخيه المولى رشيد مدى نجاعة تلك السياسة في بناء دعائم مركزة السلطة العلوية. وهكذا أرغمها على فتح فروع لها بمدينة فاس بهدف مراقبة أنشطتها، وإجبارها على تقديم فروض الطاعة والولاء، ولم يتردد في أحيان كثيرة في موضوع فرض الكلف على المرابطين وأرباب الزوايا، ومساواتهم في ذلك مع العامة¹⁸³. بل ظهر في صورة رجل التحكيم الذي يسمو

¹⁸¹ محمد حججي، «المؤسسات الدينية بالمغرب في القرنين 16 و17م»، مجلة الماهل، ع. 18، 1980، ص. 123. اعتبر عبد الله العروي أن استخدام الشيفرة من قبل أحمد المنصور يجسد حذره الشديد من الزوايا، راجع: مجمل... م.س.ذ.، ج. 3، ص. 60.

¹⁸² نفيسة الذهبي، ن.م، ص. 170. «على عادة الملوك من خوفهم ممن له الأتباع، حذرا من أن يكون ذلك سببا لمنازعتهم من جاه دنياهم»، أحمد الولايلي، مباحث الأنوار... م.س.ذ.، ص. 153.

¹⁸³ فرض أحمد الروسي مثلا على زاوية رابحة 5 مثقالات وعلى مرابطي تيط 20 مثقالا، راجع: A.-G.-P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine ...*, op. cit., pp. 66, 71.

وحول فرع الزاوية الناصرية بفاس، راجع: محمد القادري، نشر الثاني... م.س.ذ.، ج. 4، ص. 211. وأجبرت الزاوية الناصرية على أداء الضرائب المستحقة عن ممتلكاتها. انظر: أحمد عمالك، ن.م، ج. 3، ص. 491. وعن تدخل المخزن في مشاكل الزوايا انظر:

Paul Marty, «Les Zaouïas marocaines et le makhzen», in *Revue des études islamiques*, n° 3, 1929, p. 579.

فوق الجميع، وينصب نفسه لحل مشاكل بعض الزوايا، إذ تدخل ابنه المولى الشريف لوضع حد للخلافات التي دارت حول الولاية بالزاوية الناصرية بعد وفاة أحمد بن ناصر، فقرر تعيين موسى بن محمد وإقصاء ابن شرحبيل أو الحسين الشرحبيلي، كما استقبل بمكناس زعيم الزاوية العياشية بمعية إخوته لتزكية توليته، ولتعزيتهم جميعا في وفاة والدهم، وساند تعيين مولاي التهامي الوزاني لأخيه مولاي الطيب خلفا له بدل أحد أبنائه، وحسم في المنافسة التي وقعت حول خلافة سيدي علي بن أحمد من خلال دعمه لمولاي التهامي¹⁸⁴.

وتنطوي هذه التدخلات على عدة دلالات، أهمها أن إعادة ترتيب أبرز الأمور الداخلية للزوايا وهي الزعامة، أصبحت تتم تحت إشراف المخزن الذي تحول من خصم إلى حكم، وأضحى يخول المشروعية لشيخ الزاوية الجديد، وما يحمله ذلك من أبعاد معبرة عن التبعية. ولم يكتف المولى إسماعيل بذلك، بل سبق له أن اتخذ قرارا بمنع زعيم الزاوية الناصرية من السفر لأداء فريضة الحج مرتين متتاليتين، بسبب رفضه الاستجابة لطلبه الداعي إلى جمع قوافل الشمال والجنوب، لتكوين قافلة واحدة، وعبور طريق تازة. وهذا الموقف لا يمكن فصله عن تمسك أرباب هذه الزاوية، بعدم ذكر اسم السلطان على المنابر باعتبار ذلك بدعة¹⁸⁵، وعن ما راج من شكوك حول تورط أتباعهم من أعيان درعة في دعم ثورتي ابنه محمد العالم وأبي النصر¹⁸⁶. كما أن السلطان أراد أن يظهر لأقوى مؤسسة صوفية، ومن خلالها لباقي الزوايا، أنها خاضعة لنفوذه، وتعمل بمشيئته، فالإصرار على قافلة واحدة، يتم عن رغبة المخزن في التحكم في عمليات تنظيم ركب الحجاج، بدلا من الزوايا، وإلزامها

لتفادي مشكل الخلافة عمل زعيم الزاوية الوزانية على إقرار قاعدة للوراثة على أساس البكورية، راجع:

El Boudrari, « Transmission du charisme et institutionnalisation : le cas de la zaouia de Ouezzane, Maroc XVII^e XIX^e siècles », in *Al Qantara*, vol. 12, Madrid, 1991, p. 526.

¹⁸⁴ رسالة من المولى إسماعيل إلى مولاي التهامي الوزاني بتاريخ 26 ربيع الأول 1126هـ، مجموع مخطوط خ.ع. تطوان، رقم 772، ص. 94. أورده محمد عمراني، الشرف والمجتمع والسلطة السياسية... م.س.ذ.، ج. 2، ص. 202. عبد العزيز الخمليشي، « زاوية تمجروت والمخزن (1642-1914) »، ضمن ندوة الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب... م.س.ذ.، ص. 142-143؛ عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف... م.س.ذ.، ص. 118-119؛ أحمد عمالك، ن.م.، ج. 3، ص. 488.

¹⁸⁵ عبد العزيز الخمليشي، ن.م.، ص. 128، 135.

Hammoudi, « Sainteté... », *op. cit.*, p. 635.

بالرغم من اعتراف زعيم زاوية تسافت بسلطة المولى إسماعيل، فإنه تفادى ذكر اسمه على المنابر، راجع: عبد التباسفي، ن.م.، ص. 14.

¹⁸⁶ أحمد عمالك، ن.م.، ج. 3، ص. 476، 479، 485.

المرور عبر تازة، يكشف عن سياسة الحذر التي لم ينج منها حتى الناصريون الذين لم يكن لهم أي طموح سياسي، إذ تخوف السلطان من تأطيرهم لركب الجنوب. بل إن أيادي المخزن لم تغب، ربما عن ادعاء محمد الصالح الشرقاوي توارثه القبطانية بعد وفاة أحمد بن ناصر، وذلك لمواجهة طموحات زاويتي أحنصال ومهاوش¹⁸⁷. وبلغ تشدد المولى إسماعيل مع شيوخ الزاوية الناصرية مستوى التهديد والترهيب، إذ لما أقدم الشيخ محمد الكبير بن ناصر، على تأسيس زاوية بجوار أماريغ آيت آمالو، استقطبت عددا هائلا من الأتباع، أمر بالمستقدامه إلى القصر السلطاني. بمكناس، وتعهد الخدام المرافقون له المرور بجانب الجناح المخصص للحيوانات المفترسة. بل أوردت المصادر، خبر نجاة الشيخ أحمد الخليفة من محاولة اغتيال، خطط لها أحد باشاوات المولى إسماعيل¹⁸⁸.

ولجأ المخزن أحيانا إلى إسناد مهمة النظر في بعض القضايا الشائكة إلى شيوخ الزوايا، وهكذا طلب المولى إسماعيل من أحمد معن البت في النزاع الذي نشب حول خراج روضة الشيخ علي بن حرزهم، لكنه اعتذر بدعوى أنه ليس أهلا للقيام بذلك. ويفهم هذا الاعتذار في إطار إحجام أهل الصلاح عن العمل تحت مظلة المخزن كما أوضحنا، كما يعبر عن سعي الأخير للبحث عن سند وازن يدعم الأدوار التحكيمية التي يقوم بها، لتسوية مشاكل هذا النوع من المؤسسات. كما استغل المولى إسماعيل زيارة أحمد بن ناصر له ليطلب منه أن يدلّه على رجل يصلح للقضاء، فأشار إلى أحمد بن العربي بن الحاج السلمي، وراسل وزير أحباسه، الشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي، لبحث له عن من يتولى الخطّة نفسها¹⁸⁹.

ونتج عن إدراك المولى إسماعيل لأهمية منطقة سوس في احتضان الثوار والخارجين، الذين كانوا يحتمون بسبعة رجال رجراجة، ويعبثون الناس ضداً عليه، محاولته نزع صفة القداسة عن هؤلاء من خلال مطالبة العلماء بالإفتاء في موضوع صحبتهم للرسول صلى الله عليه وسلم، فأفتى بعضهم، ومن بينهم محمد بن عبد القادر الفاسي، ببطلان زياراتهم له عليه السلام، بل أمر بتوجيه زيارة لسبعة رجال مراکش «العرب»، وأحاطها بكل وسائل الأبهة

¹⁸⁷ أحمد بوكاري، ن.م، ص. 131.

¹⁸⁸ أحمد عمالك، ن.م، ج. 3، ص ص. 467، 471.

¹⁸⁹ رسالة من المولى إسماعيل إلى القاضي أحمد بن الحاج السلمي، ضمن محمد الإفرائي، روضة التعريف... م.س.ذ.، ص. 108. ورسالة من وزير الأحباس إلى محمد بن عبد القادر الفاسي بتاريخ 18-4-1703 م ضمن: M. El Fasi, « Biographie de Moulay Ismail », *op. cit.*, p. 83.

ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. 246.

والإثارة رغبة في إحياء مراسيم الطواف حولهم، وراج أن الحسن اليوسي هو الذي أسندت له مهمة الإشراف على العملية¹⁹⁰.

ويقيم هذا المثال الدليل على المجهودات التي بذلها السلطان، لإرغام الزوايا على الانخراط في سياساته، إذ زواج بين الإمكانات العسكرية وما يدور في فلكها من قصبات، وبين الوسائل السياسية وما يرتبط بها من إستراتيجية قائمة على اللعب على حبل التناقضات بين الأولياء، عبر توظيفهم ضدًا على بعضهم البعض، أو من خلال استفتاء العلماء لاستصدار فتاوى من بين غاياتها الرئيسة مواجهة الزوايا المعارضة، كما تم خلال مرحلة إنشاء الجيش المحترف¹⁹¹.

ولم يقف عزم السلطان العلوي عند هذا الحد، بل سعى إلى امتلاك الرموز المتسمة بثقل حملتيها الدينية والسياسية. وهكذا بعد إقدامه على بناء ضريح رضوان الجنوي، حصل على حجرة التيمم التي كان يستعملها ذلك الشيخ، وبعد قدوم أهل فاس للاستشفاع في كثرة المغارم احتفظ بالنعل النبوي، وبرر واليه على مراكش الحملة على زاوية تاسافت بالرغبة في الحصول على سيف ملوكي في حوزة زعيمها¹⁹².

ولا تخل هذه الأمثلة من إصرار المخزن على احتكار الرموز بأبعادها التاريخية، فتعظيم المولى إسماعيل لرضوان الجنوي، واسترجاعه للنعل النبوي الذي يعتقد أنه كان سابقا في ملكية أحمد المنصور وأمه لالة عودة¹⁹³، لا يمكن تفسيره إلا من زاوية تبعيته لهذا السلطان، وإصراره على استحضار المرجعيات الدينية التي راهن عليها. كما أن تشبته بمصادرة السيف يهدف بالأساس إلى تجريد زعيم الزاوية من قوته الرمزية، وإقناعه بأن لا أحد يعلو فوق السلطان، وبأن مهمته تكمن في هداية سكان الجبل لطريق الخير، وحضهم على طاعة السلطان وخدمته، وجمع الأخبار ومراقبة ما يحدث بمنطقة نفوذه على غرار زعيم الزاوية

¹⁹⁰ حسن جلاب، ظهائر سعدية... م.س.ذ.، ص.ص. 415، 417.

Henri De Castries, *Les sept patrons de Marrakech*, imprimerie Fédala, édition Laabbassya, 2004, p. 245.

¹⁹¹ عبد الله العروي، مجمل... م.س.ذ.، ج. 3، ص. 85.

¹⁹² عبد الله التسانتي، ن.م.، ص. 201. انظر أيضا محمد القادري، نشر المثاني... م.س.ذ.، ج. 2، ص. 312، وج. 3 ص. 144، وج. 4، ص. 22.

¹⁹³ محمد القادري، النقاط الدرر... م.س.ذ.، ص. 287.

وما يستشف من مقارنة سياسات السلطانين تجاه الزوايا، أن المولى إسماعيل استفاد بالتأكيد من ثغرات أحمد المنصور، فلم يكنف بالحفاظ على نوع من التوازن الذي يستمد جذوره من ظروف تأسيس الدولة السعدية، بل دخل في مواجهة مع كل من أبدى معارضة منها، بهدف تجريدتها من كل ما من شأنه أن يعرقل تركيز أسس سلطته، وإدخالها تحت وصايته لتمتع بإنعاماته وتسهم في تسويق سياساته. لكن ألا تمثل حدة هذه المواجهة إعادة إنتاج لنظيرتها بين العلماء والمخزن، وتعكس التباين الحاصل في حركيتي الديني والسياسي، فبينما حاول الأول الحفاظ على موقعه، سعى الثاني إلى التوفيق بين الشريعة باعتبارها نظرية والواقع باعتباره ممارسة؟ وفي السياق نفسه ما هي طبيعة العلاقات التي جمعت المخزن الشريف بمن يشاركه في النسب من الشرفاء؟

المخزن والأشراف: امتيازات وحذر

اعتبر النسب مرجعية أساسية في تمييز الشرفاء من غيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى، وفي تمتعهم بسلطة رمزية نالت تقدير العامة واحترامها، وحظيت باهتمام السلاطين وعنايتهم. وتندرج أهمية هذه المكانة في سياق انتمائهم إلى سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم، وما يخوله ذلك من بركة تستجيب لانتظارات الناس¹⁹⁵، فترفع عنهم الضوائق، وتحقق لهم الخوارق، وخولهم هذا الدور عدة امتيازات تباينت في حجمها حسب قدرتهم على إثبات فعالية تدخلاتهم ونجاحتها من جهة، وتبعاً لمدى توالي فترات الأزمات والمحن، وما واكبها من تشبث العامة بهم من جهة أخرى. لكن هل أسفر ذلك الدور عن بروز تراتبية في صفوفهم؟

¹⁹⁴ بعدما رفض زعيم زاوية تسافت منح السيف للسلطان، اشترى باشا مراکش سيفاً ورصعه وأرسله للسلطان، على أساس أنه سيف الحاج الزرهوني، راجع: عبد الله التسافتي، ن.م.، ص. 76-77، 201.

¹⁹⁵ البركة هي « قوة خيرة من أصل سماوي تحدث الوفرة في المجال المادي والرخاء والهناء على المستوى النفسي »، *Encyclopédie de l'islam*, nouvelle édition, t. I, Paris éditions, Maisonneuve et Larose, 1975, p. 1063. ويعرفها Jamous بأنها مجموعة من القيم تعكس علاقات تبعية دينية، بين حاملها من الشرفاء وبين أتباعهم من العامة، ولا ترتبط بالمستوى الرمزي فحسب، وإنما تشمل الممارسة الاجتماعية.

R. Jamous, *Honneur et baraka...*, op. cit., p. 204.

تراتبية الشرفاء

ميز ابن السكاك بين أربع مراتب؛ شرفاء دار السلطنة، والشرفاء الأغنياء والتجار، والشرفاء المقتصدون ثم المفتقرون، وحدد لكل مرتبة اللقب الخاص بها. وهو تصنيف يركز على معيار الثروة والجاه، والمهنة والنفوذ، ويؤكد عدم وجود فئة متجانسة¹⁹⁶، و«إنما فئة اجتماعية مركبة يلتقي فيها الفقراء والأغنياء والمغمورون وذوو النفوذ من لهم اتصال بالسلطة، أو ممن يتكلمون باسم الجماعة كلها»¹⁹⁷، ويدل أيضا على أن صفة الشرف، على تفاوت ألقابها، والإمكانات المادية لأصحابها، اتخذت من النسب قاعدة لها للتعبير عن تميزها من العامة.

في حين أن واقع الحال كان يجري باتجاه تثبيت الارتباط العضوي بين مواقع الشرفاء، وبين ما تضعه الشرائع الاجتماعية من ثقة فيهم، تفضي بالضرورة إلى ارتقائهم في الوسط الذي يحيون فيه، بغض النظر عما يمتلكون من ثروة.

إذن فمكانة الشريف استمدتها من سلطته الرمزية، ومن دوره في بيعه السلطان، ومن قدرته على التأثير في المجتمع الذي يكفلها له، ومن هنا جاء تموضعه في التراتبية باعتبارها نتاجاً لمدى تفوقه في إبراز تلك القدرة، التي تضفي على حضوره بعدا اجتماعيا، يزداد وزنه لدى كل من يعتقد فيه، ويشير حذر أولي الأمر مخافة أن يتخذ شكلا سياسيا. ولهذا تم التمييز في الإسطوغرافية أحيانا بين خاصة الشرفاء وعامتهم، وفقا لطبيعة مشاركتهم المباشرة أو غير المباشرة في تأطير المجتمع، أو في صنع القرار على المستوى المركزي أو المحلي، وصنفوا أحيانا أخرى انطلاقا من أدوارهم الاجتماعية والإدارية، باعتبارهم مجموعة واحدة تمثل جزءاً لا يتجزأ من المخزن بمفهومه الواسع، تنعم بدعم السلاطين وبمساعدتهم ضمن شروط محددة¹⁹⁸.

وإذا كانت الأرستقراطية الدينية بأوروبا قد اكتسبت مكانتها تبعا لمرتبتها، ولقيمة أعمالها وسلوكاتها، فإن صفة الشرف ارتبطت بالوضعية الاجتماعية التي يخولها الميلاد، أو الفضيلة.

¹⁹⁶ ابن السكاك، نصح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليه من حقوق آل البيت الكرام، ص. 13، أوردته نفيسة الذهبي «المجتمع الفاسي خلال العهد السعدي؛ التراتبية والصراع»، مجلة أمل، ع. 18، أكتوبر 1995، ص. 64.

¹⁹⁷ محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، الدار البيضاء، دار توبقال، 1987، ص. ص. 69-110.

A. Laroui, *Les origines*, op. cit., p. 97.

خلاقية، وبالسمعة التي ينالها الشخص من الآخرين¹⁹⁹، فإن الشرفاء لم يشكلوا طبقة معيّنة²⁰⁰، إذ بالرغم من اشتراكهم في النسب نجدهم يتوزعون في ثنايا الشرائح الاجتماعية المختلفة، ويمارسون مهام متعددة، منهم من تقلد الوظائف، ومن زاول الأنشطة الاقتصادية، ومن تزعم زاوية أو طريقة معينة، ومن جمع بين عدة أدوار.

يبد أن مشكل أصالة النسب الشريف تمخض عنه تنافس حاد بين الأسر حول تحديد «سبقيات»، وتمييز الفروع بهدف الهيمنة على تراتبية مجموعات الأشراف؛ فالجوطيون والعمرانيون بفاس مثلاً، كانوا يصنفون أصولاً مقارنة بالفروع الطارئة كالصقليين والعراقيين والقادريين²⁰¹. بل إن الصراع بين بيوتات العلميين دفعهم إلى عرض النازلة على علماء فاس، الذين اعتبروا أن ذرية القطب تتمتع بمكانة متميزة بالنظر إلى معيار النسب، عن الشرفاء الآخرين الذين يتفاضلون في ما بينهم تبعاً لدرجة ورعهم وتقواهم²⁰².

ويمكن اعتبار هذا التنافس أبرز مؤشر على وجود نوع من التراتبية المستوحاة من متانة النسب ونقائه، ومدى قربها من البيت النبوي، ومن أقدمية وصول أهل فروعه إلى المغرب، وهو ما دفع عائلات الأشراف إلى السهر باستمرار على تحصين أنسابها ضدّاً على الفروع الأقل منها، وضدّاً على المتشرفة بالخصوص الذين مثل ترايدهم سبباً مباشراً في تكريس تلك التراتبية، من خلال تنزه الشرفاء الصرحاء عن الاعتراف بالمنتحلين، وتركيب انتماءاتهم، وعبر دعمهم المتوالي لسياسات السلاطين التي استهدفت التثقيب عن صحة الأنساب.

وفي الوجه الآخر لهذه التراتبية، سعى المخزن دوماً إلى التعامل مع أقوى الفروع الشريفة بغية استدراجها لصفه، ومراقبة تحركاتها، باعتبارها هيئة خاضعة للتبعية التي يفرضها النسب الشريف لكل من أحمد المنصور والمولى إسماعيل، اللذين راهنا عليه في تحديد شرعية سلطتيهما، وفي إعداد رموزها الأكثر تعظيماً، لأنهما أدركا أن بقاءهما في الحكم رهين

¹⁹⁹ E. Balancy, « L'Honneur militaire en Espagne et en France aux XVI et XVII siècles : une mutation idéologique », in *Annales du Midi*, t. 113, n° 233, Janvier- Mars 2001, p. 30.

²⁰⁰ يرى Berque أن الأشراف كانوا يشكلون على المستوى الثقافي طبقة مغلقة (caste) في حين مثل العلماء طائفة (corporation)، راجع:

J. Berque, *Ulémas...*, op. cit., pp. 196, 225.

²⁰¹ نفيسة الذهبي، ن.م، ص. 64.

²⁰² محمد عمراي، ن.م، ج. 2، ص. 278.

بمواجهة أية منافسة محتملة واحتوائها²⁰³. وبذلك أسهم المخزن بتعامله هذا في ظهور نوع من التراتبية داخل فئات الأشراف، إذ كان يعظمهم تبعا لطبقاتهم ولأهمية تكوينهم العلمي. لكن ما هي صور المخزن في أذهان هؤلاء؟

نظرة الشرفاء للمخزن

بما أن عددا من العلماء وأرباب الزوايا جمع بين خاصية الشرف وميزة العلم، فإن مواقفهم من المخزن عبرت أيضا عن مواقف الشرفاء، التي اتسمت كما أوضحنا بالدعوة إلى طاعة أولي الأمر، إذ اعتبر زعيم الزاوية الوزانية مولاي التهامي « أن الناس تصلح بدعاء الأمير كما تصلح الأرض بالمطر الغزير... وبعد طاعة الله ورسوله تجب طاعة السلطان... »²⁰⁴. وسار على النهج نفسه الشيخ عبد القادر الفاسي، وأحمد بن عبد الله معن اللذان أثبتا صحة النسب الشريف للأسرة العلوية، شأنهما في ذلك شأن الفقيهين ابن طاهر، وابن أحمد الشريف الحسينين السجلمايين اللذين بددا كل التحفظات والطعون التي طالت نسب السعديين²⁰⁵.

وتؤكد هذه الأمثلة وغيرها، مدى حرص الشرفاء على توظيف سلطتهم الرمزية لإثبات شرعية السلطة الزمنية باعتبارها من آل البيت، بالرغم من توجس معظمهم من مخالطتها وشعور أغلبهم بالأولوية في الاستفادة من الامتيازات التي تخولها، وبالأحقية في نيل كل عناية وتقدير من جانبها. والمؤكد أن هذا التصور قد ألقى بظلاله على سياسة المخزن وموقفه من هذه القوة الدينية، في سياق وجود عدد هام من الشرفاء المتمتعين بالوزن الرمزي نفسه، وانصراف جلهم إلى اعتزال الأنشطة الرسمية، مما أثار حذر السلطانين وحيطتهما تجاههما، مخافة أن يستثمر ذلك الاعتزال في بلورة جبهة سياسة معارضة. وفي ظل هذا التخوف بمكر التساؤل عن طبيعة السياسة التي سلكها كل من أحمد المنصور والمولى إسماعيل تجاه فئات الأشراف.

الواضح أن هاجس الحيطرة من هذه الفئات راود السلاطين منذ عهد بني مرين، فقد راقب

²⁰³ حول الرمزية الدينية وعلاقتها بالسلطة، راجع:

Balandier, *L'anthropologie...*, op. cit., p. 177.

²⁰⁴ رسالة من مولاي التهامي الوزاني إلى المولى إسماعيل بتاريخ 5 صفر 1117 هـ. انظر أيضا: عبد الرحمن ابن زيد - المنزع اللطيف... م.س.ذ.، ص. 115.

²⁰⁵ محمد الإفرائي، نزعة الحادي... م.س.ذ.، ص. 8-9، راجع أيضا: نفيسة الذهبي، الزاوية الفاسية... م.س.ذ. ص. 242-243.

أبو عنان مجرى تحركات فروعهم الأساسية وخاصة الأدارسة. وعلى الرغم من المتغيرات السياسية التي مست المخزن المغربي بعد أفول سلطة الزناتيين، والتي تجسدت في إعادة الاعتبار للشرف باعتباره قاعدة أساسية للوصول إلى دفة الحكم، فإن السعديين والعلويين سلكا مسلكهم، بل منهما من كان صارما في مراقبة الشرفاء والتحقق من أنسابهم. ويندرج توسع نفوذ هذه المراقبة، في إطار مشهد بدا فيه الحكام الأشراف يستشعرون من كذب، مدى خطورة سلاح الشرف في إمكان تهديد استمرارية سلطتهم، إذا ما تغافلوا عن تتبع خطوات المتسبين إلى بيوتاته. فما المواقف التي اتخذها السلطانان في علاقتهما مع الشرفاء؟

تحكيم وامتيازات

إن التقاليد التي درج عليها الشرفاء هي القيام بأدوار التحكيم في النزاعات والوساطة والشفاعة لدى الحكام؛ فقد قام الشريف مولاي أحمد من وزان بزيارة لواحات توات، للنظر في المشاكل التي توجد بين القبائل، والبت في حلول لها، ومارس الدور نفسه أعمام المولى إسماعيل، مثل مولاي مبارك بن المامون، ومولاي محمد بن علي، اللذين أشرفا على توقيع اتفاقيات الصلح بين عدد من المناطق وبين أعيان الأمازيغ.²⁰⁶

بل ثمة عدة حالات تشير إلى إسهام الشرفاء في إفشال طموحات المتمردين على السلطانين، كما هو الشأن بالنسبة للشريف العلمي عبد الله بن عبد الرحمان، الذي بذل مجهودات جمة، للبحث عن الثائر ابن قرقوش الفار في اتجاه الثغور المحتلة، توجت بتعرفه على مكان اختفائه وإبلاغ رجال المخزن بذلك. وغير خاف الدور الذي قام به شيوخ الزاوية الفاسية في تعبيد الطريق أمام المولى إسماعيل، من أجل نيل طاعة سكان فاس. كما أن وفدا من الأشراف توسط في الخلاف، الذي نشب إثر مطالبة أبي القاسم أخاه أبا النصر، بدفع المستحقات الضريبية لأبيهما المولى إسماعيل.²⁰⁷

والواقع أن هذا الصنف من التدخلات الذي دأبت فئة الأشراف على ممارستها، تنبه إليه المخزن وحظي بتشجيعه نظرا لأهميته في تدعيم سلطته، وفي تحقيق سعيه الخيبي نحو الدمج بين السلطتين الزمنية والروحية، شريطة ألا تزيغ الأخيرة عن مسارها الاجتماعي.

²⁰⁶ A.-G.-P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine...*, op. cit., pp. 40, 78.

²⁰⁷ رسالة من أبي القاسم إلى أخيه أبي النصر، خ. ح، 12598، ص. 176. ثم محمد القادري، نشر المخطوط...، م. س. ذ.، ج. 2، ص. 203. وعن المنصور، راجع: عبد العزيز الفشتالي، ن. م، ص. 94.

وتأكد دعم المخزن لأدوار الشرفاء، من خلال طبيعة الامتيازات التي منحها لهم وحجمها، بهدف استمالتهم إلى صفوفه؛ وهكذا أصدر السلطانان جملة من ظهائر التوقيع والاحترام إلى الأسر الشريفة، تزايد عددها بشكل لافت خلال عهد المولى إسماعيل، الذي طالت رعايته فروع الأدارسة من الشيبهيين والجوطين والعمرانيين والعلميين الريسونيين، وشرفاء فكّيك وحفدة أبي درقة وغيرهم²⁰⁸.

وامتد اعتناء السلطانين ليشمل تقديم الهدايا والهبات إلى سائر الشرفاء، خاصة خلال عيدي الفطر والأضحى ومناسبة المولد النبوي، إذ لم يتردد أحمد المنصور في إكرامهم وتعظيمهم، ولم يتقاعس المولى إسماعيل سنويا عن إرسال العادة والصلات إلى الأدارسة وشرفاء تافيلالت، وفي حث ابنه المامون على توزيعها عليهم ليستعينوا بها في قضاء مآربهم²⁰⁹. بل إنهما عمدا إلى تكليف القبائل بدفع هبات لفائدة الشرفاء، وهو ما حصل حين أقدم أحمد المنصور على إصدار أوامره لقبائل اشقير وزمور وزيان، يدعوها فيها إلى تقديم مبالغ نقدية، ومواد زراعية ومواشي لشرفاء سجلماسة، وحين ذكر المولى إسماعيل شرفاء تافيلالت، وهو يعاتبهم على تهاونهم في دعم ابنه المامون، بحجم الصلات المالية التي كانوا يحصلون عليها من القبائل. كما أن الجولات التحكيمية التي كان يقوم بها عدد من الأشراف للقبائل، اتخذت من عمليات جمع الهدايا أحد أهدافها²¹⁰. ولم تقتصر الامتيازات الممنوحة لهم على الهبات، وإنما همت أيضا الإعفاءات من الواجبات الضريبية، ومن الخدمة العسكرية، واستفادة بعضهم من العمل في الأسلاك الإدارية المخزنية قضاءً ومفتين وخطباء ونقباء ونظار أحباس، وتمتع

²⁰⁸ ظهر إسماعيلي لشرفاء أهل فكّيك بتاريخ 20 شوال 1085، ضمن، ظهائر إسماعيلية، مديرية الوثائق الملكية الرباط. أنظر أيضا: عبد الرحمن ابن زيدان، ن.م. ص. ص. 84-87، والعز والصولة... م.س.ذ.، ج. 2، ص. ص. 80-81. ثم ظهر لفائدة أولاد سيدي أحمد الشريف الجوطي بتاريخ 14 شوال 1138هـ، وآخر للشرفاء الشيبهيين بتاريخ محرم 1140هـ، خ. ح. محفظة رقم 1 من 737هـ إلى عهد المولى إسماعيل. وظهر لفائدة الشرفاء حفدة أبي درقة، أو.م. محمد البشير الفاسي، قبيلة بني زروال... م.س.ذ.، ص. 81. ظهائر منصورية لفائدة الشرفاء الكثرين والركراكيين والفيلايين وأولاد سيدي يعقوب وغيرهم، محمد المختار السوسي، المعسول... م.س.ذ.، ج. 1، ص. 93.

²⁰⁹ رسالة من المولى إسماعيل إلى ولده المامون بتاريخ 20 محرم 1108هـ، خ. ح. 12598، ص. 207؛ أحمد بن القاضي ن.م. ج. 1، ص. ص. 220، 379، أحمد ابن الحاج، ن.م. ج. 7، ص. 368. وكانت الصلات المخزنية للشرفاء عن عن مواد غذائية، كالقمح والإدام والخليع والماشية والسكر والشاي، أو أثواب مستوردة، أو مبالغ نقدية، راجع: محمد عمراني، ن.م. ج. 2، ص. ص. 469-470.

²¹⁰ تشكلت هبة قبائل الأطلس المتوسط من أربعمائة مثقال من الدراهم، وأربعين رأسا من البقر للخليع، وعشرين قنطارا من السم، ومائتي رأس من الغنم، ومائتي وسق من الزرع. انظر ظهير لأحمد المنصور ضمن مخطوطات الأنساب، خ. ح. 12596، ص. ص. 320-321. وبخصوص المولى إسماعيل، راجع رسالته بتاريخ 16 ذي الحجة 1101هـ، خ. ح. 12598، ص. 196. وحول جولات الشرفاء، انظر:

G.-P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine...*, op. cit., pp. 40, 78.

زوايا الموالين منهم وأضرحتهم بعناية كبيرة، خاصة في عهد المولى إسماعيل، الذي أعاد بناء وتجديد ضريح المولى إدريس الأكبر والأصغر وضريح سيدي محمد بن علي التاودي²¹¹. فهل خول السلطانان هذه الامتيازات للإبقاء على مسافة احترازية في علاقاتهما مع الأشراف، يهدف تجريدهم من أي حضور سياسي قد يتخذ من تدابيرهما مطية له؟

حذر وتحقق من الأنساب

إن أول ما تكشف عنه تلك الامتيازات هو تعامل الشرفاء معها على أساس أنها تمثل نصيبهم من مداخيل بيت المال، باعتبارهم ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم وأنهم أولى الناس بها، بالمقابل رأى فيها المخزن وسيلة لتكريمهم ولتعظيم مرجعيته الدينية من خلالهم، وللربط بين ولائهم له وبين استمرار تدفق هباته عليهم. ومن هذا المنطلق، تحولت هذه الهبات إلى التزام مادي ومعنوي، فرضته معايير القرابة والضرورات السياسية، التي تستدعي توظيف آلية العطاء بشكل دائم، لترسيخ طاعة الأتباع، ولاستبعاد نمو قوة موازية، قد تركز على المقومات نفسها.

وثاني شيء تعبر عنه، هو مواقف المخزن المبنية على الحيطة والحذر الشديدين من فئة الأشراف، التي ظلت تمثل بالنسبة إليه سلطة سياسية كامنة وقابلة للتمظهر في سياقات معينة، أبرزها تضخم مكانة أحدهم إلى الحد الذي يتجاوز فيه صيته الحدود المرسومة. وهو ما يفسر لنا أسلوب الصرامة الذي لجأ إليه المخزن لردع كل من أضحى يمثل خطرا عليه، في حين سمح للموالين منهم بالاستفادة من الامتيازات في اكتساب ثروات طائلة، تجسدت في امتلاك العقارات بالبوادي والمدن، مستغلين تراجع القدرة الشرائية لباقي الفئات جراء النقل الجبائي، بل منهم من كدس الأموال والأموال على حساب ضوابط الناس، وتحديدًا خلال المجاعات²¹².

عمل أحمد المنصور بعد فرار أبناء عمه وأولاد أخيه خوفا منه على تربية ما تبقى من

²¹¹ محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، سلوة الأنفاس... م.س.ذ.، ج. 3، ص. 138، 283.

²¹² محمد القادري نشر المغانى... م.س.ذ.، ج. 3، ص. 315، وج. 4، ص. 231، 237، 252. وتؤكد هاجس التخوف في قصة مولاي التهامي بن محمد الوزاني، الذي أجبرت شهرته المولى إسماعيل على إصدار أوامر بإطلاق العريش في الأسواق، والدعوة إلى عدم ذكر اسم التهامي، بل استدعاه إلى مكناس. ومهما يكن من أمر صحة أو عدم صحة هذه الرواية، فهي تعكس أصداء وجه من أوجه المنافسة بين الطرفين، راجع: المقصد السامي في التعريف بالشيخ أبي عباس أحمد بن الحسن الحمومي وشيخه مولاي التهامي، مجموع مخطوط، خ. ع، رقم 2309 ك، ص. 21.

صغارهم داخل البلاط، وتحت وصاية أمهاتهم ومراقبة حراسه، الذين كانوا لا يسمحون لهم بالخروج من القسبة. ونتيجة لورود معلومات عن استعداد العثمانيين لدعم إسماعيل بن عبد الملك، عقد السلطان مجلس مشورة بفاس حضره أبرز قواده، إبراهيم سفيان ومومن بوكريزية وعزوز، ومنصوريكو، وأطلعهم على خطورة تواجد أولئك الشرفاء في ظل التهديدات التركية واستعداد السكان لدعمهم، فتوج اللقاء باتخاذ قرار اعتقالهم وحرمانهم من البصر، وهو الإجراء الذي مورس بالفعل في حقهم، وإن كانت تصريحات العليج البرتغالي رضوان ربطت ما حدث لهم بثورتهم على أحمد المنصور بتادلة²¹³.

ولم يكتف السلطان السعدي بذلك، بل أقدم على اعتقال أربعين شريفا سجلماسيا بمراكش، مات أغلبهم بالسجن، وأرغم عبد الواحد الشريف السجلماسي الحسني على مغادرة تافيلالت بمعية أسرته، ليعيش محنة بمراكش، لم يخفف منها إلا تقربه هو وأولاده من البلاط، إذ نظموا قصائد المدح، وتولوا مناصب مخزنية. وأشار عبد الرحمان الفاسي إلى لجوء بعض الشرفاء لزاويته، فرارا من أمراء الوقت، بل تعرض كما أوضحنا، نقيب الأشراف بالقصر الكبير إلى السجن من قبل قائد المدينة²¹⁴. فما هي الأسباب التي حدثت بأحمد المنصور إلى تبني صرامة من هذا القبيل مع الأشراف؟

الراجع أن الأمر ارتبط بالدور المحوري الذي لعبه الشرف في قيام المخزن السعدي، وجعل السلطان يدرك خطورة احتفاظ هذه الفئات الشريفة بنفوذها إلى جانبه، إذ لم تغب عن ذهنه الصراعات التي نشبت حول العرش، وكان من بين ضحاياها بعد أن اضطر إلى العيش بالمنفى، إلى جانب أخيه عبد الملك، وانتظار الفرصة السانحة للاستحواذ على السلطة. بينما لم يضطر المولى إسماعيل إلى سلوك سياسة مماثلة بالنظر إلى مراعاة العلويين على الشوكة لتدعيم نسبهم الشريف، وتزكية أحقيتهم في الحكم، بل سلك معهم مسلكا تراوح

²¹³ وردت رواية تعذيب الشرفاء وحرمانهم من البصر، عند المجهول السعدي وشالدانيا وفي محاضر محاكمة الطوحي بكناريا. فالأول ذكرها في سياق الحديث عن لجوء الأمير السوداني إلى مراكش، والثاني ربطها بزيارة أحمد المنصور لفاس، أما العليج رضوان فقسم الشرفاء المستهدفين إلى فئتين؛ نفذ في إحدهما الحكم بفاس والأخرى بمراكش. راجع: المجهول السعدي، ن.م، ص. ص. 62، 106؛ عبد الرحيم شكري، العلوج...، م.س.ذ.، ص. ص. 91-234-235.

²¹⁴ Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 66-70.

²¹⁴ عبد الرحمان الفاسي، ن.م، ص. 217؛ محمد القادري، النقاط الدرر...، م.س.ذ.، ص. 35، هامش 6. وحسب سجن الشرفاء السجلماسيين، راجع: محمد المنوني، تاريخ الوراقة المغربية: صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى العصر المعاصر، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1991، ص. 82.

بين استمالة أبرز فروعهم، وبين توسيع دائرة التحقق من صحة أنساب المدعين منهم، وبين التشدد أحيانا مع بعضهم²¹⁵.

وليس ثمة ما يشير إلى تبني أحمد المنصور إستراتيجية واضحة المعالم للتنقيب عن الأشراف الصرحاء، باستثناء ما أورده القادري عن إصداره رسوما سلطانية تقر بشهرة شرفاء فاس ونسبهم وتعترف بحقوقهم، وما تطرق إليه من نقاشات اندلعت بين قاضي فاس علي بن عمران وبين الشيخ القصار، الذي كان متخصصا في تحقيق أنساب الأسر الأندلسية، والشيخ الحميدي حول صحة نسبة بعض الأسر إلى البيت، ومن بينها الأسرة القادرية النازحة من غرناطة، وما تضمنه كتاب الأقنوم من ترتيب وتوثيق لبيوتات الشرف بفاس، أثار في نسخته الأولى فتنة أشعلها أولئك الذين لم يرد ذكر أسمائهم في ثنياه، وحظي في النسخة المعدلة بمباركة أغلب شرفاء المدينة²¹⁶.

وكان على الشرفاء أن يواجهوا امتحانا أكثر دقة في تحقيق أنسابهم خلال حكم المولى إسماعيل، الذي تابع سياسة أخيه رشيد المعتكف على «تحقيق الشرف بالبحث الشديد يفوض في ذلك لذوي العلم والدين من أهله»²¹⁷؛ إذ عين نقباء بفاس ومكناس ومراكش وفكيك وأكبرهم بجبل العلم، وأمرهم بالبت في أنساب الأشراف بالقبائل، وتدوين أصولهم في دفاتر لتمييزهم من المشرفة، واحتفظ هو والنقيب بنسخ منها، وفوض للعلميين أكبر نقابة²¹⁸. وعمد إلى تحصين النسب العلوي من أي عنصر دخيل، من خلال رفض تزويج

²¹⁵ أشار محمد القادري إلى أن المولى إسماعيل أمر بقتل نقيب أشراف المغرب محمد الطيب بن مسعود المريني، فأخفاه عنه عبد الله الروسي، وعلل الأمر بشكوى وجهت من بعض الناس إلى السلطان، ولا ندري مضمونها، فهل يتعلق الأمر بتلاعب حقيقي في الأنساب أم مجرد إقصاء لفئات دون أخرى؟ راجع: محمد القادري، نشر المثاني...، م.س.ذ.، ج. 3، ص. 360، ولنفس المؤلف، النقاط الدرر...، م.س.ذ.، ص. 358. انظر أيضا: عبد الله العروي، مجمل...، م.س.ذ.، ج. 3، ص. 80.

²¹⁶ محمد القادري، كناشة، خ. ع، رقم 1574، ص. 235، أوردتها نفيسة الذهبي، «المجتمع الفاسي...»، م.س.ذ.، ص. 64؛ محمد القادري، النقاط الدرر...، م.س.ذ.، ص. 36، هامش 3، وص. 39، هامش 5، ونشر المثاني...، م.س.ذ.، ج. 2، ص. 326.

²¹⁷ عبد الرحمن ابن زيدان، المنزح اللطيف...، م.س.ذ.، ص. 245-246. واتخذ المولى رشيد من الأشراف كبار موظفيه، واستخدمهم ضدا على الزوايا في حين اعتمد السعديون على الأخيرة، راجع:

Auguste Cour, *L'établissement des dynasties des chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la Régence d'Alger, 1509-1830*, Paris, Ernest Leroux, 1904, p. 186.

²¹⁸ «... وأمر السلطان أعيان شرفاء أهل العلم وعلماءهم وقضاة القبائل وأعيانهم أن يعينوا شريفا فقيها عالما بأنساب الأشراف وأصولهم ويقفوا معه حتى يميزوا الأشراف من أهل الدعاوي لكل قبيلة [وكل مدينة] وكل قرية، فقاموا بذلك... وكل من وجدوه من الدخلاء أزالوا ما بيده من الرسوم وكتبوه في دفتر، ومن نسبه صحيح كتبوه في دفتر وتركوا له رسومه وظهاره، إلى أن طافوا على كل القبائل كلها، وعزلوا الأشراف من المشرفة... وخمدت أهل

شريفة علوية بغير شريف. ولما استفسره ولده أبو النصر عن شرعية ذلك أجابه « بأن السياسة اقتضت ذلك... والمصلحة اقتضتها، والرياسة أوجبتها »²¹⁹. فأى سياسة يقصد السلطان؟

إذا كانت الأحداث قد جرت في اتجاه يؤكد أن تزايد عدد الأشراف، بعد الفتنة التي أعقبت وفاة أحمد المنصور، بلغ مبلغا أسفر عن تراجع المداخل المالية للمخزن، وأن ادعاء الشرف كان يهدف بالأساس إلى الاستفادة من الامتيازات التي يخولها لمن يدعيه، فإن تدابير المولى إسماعيل تترجم حاجته الماسة، إلى مزيد من الجبايات لتغطية نفقاته المتزايدة جراء كثرة التمردات، التي أجبرت أطره المخزنية في أحيان شتى، على إخضاع بعض الفروع الشريفة إلى الكلف، ولهذا نجده يوصي ابنه المامون بعدم إلحاق الضرر بأهل تافيلالت، وتكليفهم بالمبيت والمؤونة والعلف وغير ذلك²²⁰.

وهي تدابير تتم عن نية السلطان في توظيف عملية التنقيب عن الأنساب لضمان توسيع الوعاء الجبائي وتبعاً لذلك لضخ المزيد من الأموال، خاصة وأنه لم يعتمد على موارد خارجية في تمويل مشاريعه التحديثية على شاكلة سلفه. لكن أعني هذا أن أحمد المنصور لم يبادر إلى القيام بهذه العملية نتيجة لحصوله على موارد من صناعة السكر وفتح السودان؟ أم أن الأمر ارتبط بالشكوك التي حامت حول نسب سلالته، فتفادى الدخول في دوامة غير مأمونة العواقب، من شأنها إحداث شرخ في الإجماع الذي يحيط به، بدليل أنه لجأ إلى عزل قاضيه علي بن عمران الذي طعن في نسبة الأسرة القادرية إلى عبد القادر الجيلاني؟ أم أن الأنساب كانت في عهده محصنة من الدخلاء على حد قول ابن زيدان²²¹؟

مهما يكن من أمر، فإن التباين في مواقف السلطانين تجاه ظاهرة التحقق من صحة أنساب الأشراف، يعبر لا محالة عن الوزن الذي احتله هؤلاء في التأثير على البنية الاجتماعية والسياسية

الدعاوي طول أيامه، ولم يبق منهم من ينتسب للشرق، وصلحت أحوال الرعايا من تشويشهم... « أبو القاسم الزباني، تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب، تحقيق رشيد الزاوية، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، 2008، ص. ص. 90-91؛ عبد الرحمن ابن زيدان، ن.م، ص. ص. 211-212. 244. ورسالة من المولى إسماعيل إلى محمد بن عبد القادر الفاسي بتاريخ 1-20-1693م:

1. El Fasi, « Biographie de Moulay Ismail », *op. cit.*, p. 46-47.

²¹⁹ أحمد بن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. 312. ارتبط المولى إسماعيل بعدد من الشرفاء بواسطة المصاهرة، راجع: عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م.س.ذ.، ص. 397.

²²⁰ رسالة من المولى إسماعيل إلى ولده المامون، مخطوط، خ. ح، رقم 12598، ص. 201. G.-P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine...*, *op. cit.*, p. 65.

²²¹ محمد القادري، النقاط الدرر...، م.س.ذ.، ص. 36، هامش 3. عبد الرحمن ابن زيدان، ن.م، ص. 243.

خلال عهدي حكميهما، وعن مدى استعدادهما للدخول في مواجهة معهم، مواجهة تأخذ بعين الاعتبار الظروف الداخلية والمستجدات الخارجية. فأمام وجود ثلاثة أمراء سعديين لاجئين لدى قوى متربصة بالمغرب، لم يجد أحمد المنصور غضاضة في تمكين الجبهة الداخلية من خلال نهجه سياسة الحذر تجاه فئة الأشراف، وعبر غضه الطرف عن قضية شائكة وبالغة الحساسية، لم يستطع حتى أهل الاختصاص الحسم في تعقيدات²²².

في حين استفاد المولى إسماعيل من ظروف خارجية مواتية، خف فيها الضغط من قبل الإمبراطوريتين الجارتين، ليحاول استتباع الأشراف، بمن فيهم زعماء الزوايا الشريفة لمواجهة نظيرتها الأمازيغية²²³، وهو ما يفسر المرونة النسبية التي تعامل بها السلطان مع هذه الفئة، وحرصه الكبير على الاعتناء بالأدارسة، إذ حذر المرابطين أولاد سيدي عبد الحجام من التطاول عليهم، باعتبار جدهم «نور هذا المغرب ومصباحه، وأصل خير الأبدى السرمدي، وعزه الدينوي والأخروي»²²⁴. وتدخلت زوجته عائشة مباركة للتحكيم في النزاع الذي نشب بين الشرفاء الجوطيين حول صدقات أحد الأضرحة، بل ربط علاقات جيدة مع شيوخ الزاوية الوزانية، فقد التمس من محمد الوزاني حين استقبله بمكناس الدعاء له، وزيارة عائلته، وأدخله إلى بيت المال للتبرك به. ولما التقى بمولاي التهامي أركبه على فرسه، وطلب منه الدعاء بالهداية وبصالح الحال²²⁵. كما سمح للشيخ الثاني للزاوية بالجهاد في سبته، وللشيخ الرابع بالجهاد. عمر تيل. بينما امتنع محمد بن ناصر الدرعي عن القيام بذلك الواجب، خوفا من اتهامه بالطموحات السياسية.

وترجم هذا التقابل المكانية التي حظي بها أشراف وزان لدى المخزن الإسماعيلي، بالرغم من ضعف إشعاعهم العلمي مقارنة لهم بالناصرين، إلى الحد الذي اكتسبوا فيه امتدادا سياسيا، يجد صداه في تبادل المكاتبات المليئة بعبارات المودة والتقدير والاحترام. كما

²²² راجع الضجة التي أثارها ترتيب الشرفاء، الذي وضعه عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي، ودفعته إلى إعادة النظر في تصنيفاته؛ محمد القادري، نشر الثاني... م.س.ذ.، ج. 2، ص. 326.

²²³ عمل المولى إسماعيل على تقريب الريسنيين والعراقيين وتوظيفهم في مهام الإفتاء والقضاء، راجع: A. Cour, *L'établissement des dynasties...*, op. cit., p. 210.

²²⁴ «رسالة من المولى إسماعيل إلى المرابطين أولاد سيدي عبد الحجام»، مجلة الوثائق، المجموعة الأولى، الرباط، المطبعة الملكية، 1976، ص. 422.

²²⁵ بخصوص روابط شيوخ وزان بالمولى إسماعيل انظر: حمدون الطاهري الجوطي، تحفة الإخوان... م.س.ذ.، ص. 64-65؛ محمد بن حمزة المكناسي، الكوكب الأسعد... م.س.ذ.، ص. 56؛ ثم، المقصد السامي... م.س.ذ.، ص. 25.

اعتنى السلطان بالشرفاء العلميين، وأمر بوضع مؤلفات عنهم، وجدد بناء ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش²²⁶.

وفي مقابل هذا الاتجاه، بقي المولى إسماعيل وفيما لسياسة الحذر التي نهجها سلفه أحمد المنصور تجاه الأشراف، إذ وظف في البداية الوزانين لمواجهة أولاد البقال والعلميين، لكنه حينما استشعر تزايد نفوذهم، لم يتردد في تقديم الدعم للريسونيين من خلال تسمية نقيب خاص بهم، جاعلا منهم بذلك قوة تحقق التوازن حتى مع بني جلدتهم من العلميين²²⁷. غير أن أبرز صور الحذر من الشرفاء، تجسدت في النصائح المتكررة التي اعتاد السلطان توجيهها لابنه المامون، والتي دعاه فيها إلى الابتعاد عن شرفاء تافيلالت وعدم مخالطتهم؛ « وإياك ثم إياك والميل لمخالطة الشرفاء والجموع معهم... فلا تسمع لهم ولا تجيرهم ولا تخالطهم إلا بالذي يدعو لك دعوة صالحة، فأجلس كل واحد عند حده وأبق معهم على هيبتك وزيك »²²⁸.

وإذا كانت لهذه الوصايا علاقة بالتجاوزات التي كانت تعرفها المنطقة، على يد هؤلاء وعبيدهم، إلى درجة أفضت فيها إلى انتشار الفوضى وانعدام الأمن، فإنها تكشف بجلاء مدى توجس السلطان من تصاعد نفوذهم، وسعيه الحثيث إلى جعلهم تحت وصاية ابنه، وإلى التمييز بين سلطته الزمنية وسلطتهم الروحية المتمثلة برأيه في الاشتغال بالأنساب،

²²⁶ حمدون الطاهري الجوطي، ن.م، ص ص. 64-65، 106. وعن النزاع بين الشرفاء الطاهريين، راجع: محمد القادري، نشر المثاني...، م.س.ذ..، ج. 4، ص. 222. وفي ما يخص الراوية الناصرية:

A. Hammoudi, *Sainteté...*, op. cit., p. 635.

ولمزيد من التفاصيل عن المراسلات المتبادلة بين مولاي التهامي والمولى إسماعيل، يمكن الرجوع إلى، عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م.س.ذ..، ص. 113 وما تلاها. وحول الدور السياسي للزاوية الوزانية، انظر محمد المنصور، « تصوف الشرفاء: الممارسة الدينية والاجتماعية والسياسية للزاوية الوزانية من خلال مناقبها »، التاريخ وأدب المناقب، الرباط، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 1988، ص ص. 20-21.

يلاحظ في مراسلة السلطانين للشرفاء توظيف معيار قرابة النسب، من خلال استعمال عبارة « إلى أخينا... »، أو « إلى ابن عمنا... »، أو « إلى أولاد عمنا... »؛ انظر: عبد الرحمن ابن زيدان، ن.م، ص. 113؛ محمد البشير الفاسي، ن.م، ص. 81. وعن أحمد المنصور: راجع: رسالته لأحد الأشراف، ضمن، مخطوط في الأنساب، خ. ح. 12596، ص ص. 332-333. وبخصوص اعتناء المولى إسماعيل بشرفاء العلم، انظر: عبد السلام شقور، « الشرفاء العلميون في ظل السلطان المولى إسماعيل »، ضمن مصادر تاريخ الدولة العلوية الشريفة، المؤسسون الأولون للدولة العلوية الشريفة، آثار وتراث منطقة تافيلالت: أعمال الدورة الأولى المنعقدة بالريصاني (1989)، الرباط، وزارة الثقافة، 1990، ص. 241.

²²⁷ G. Dragues, *Esquisse...* p. 82.

محمد العمراني، ن.م، ج. 2، ص ص. 285-286.

²²⁸ رسالة من المولى إسماعيل إلى ولده المامون، مجموع مخطوط، خ. ح، رقم 12598، ص. 200.

وتعليم الصبيان، وتعمير المساجد، مقابل الابتعاد عن الخوض في الأمور المخزنية والاطلاع على أسرار سيرها²²⁹. وتظهر من جهة أخرى الرغبة في الإبقاء على المسافة بينه وبين شرفاء تافيلالت، تحسبا لما قد ينجم من خطورة عن تزايد سلطة بعض فروعهم، علما بأنه كان يدرك طبيعة الصراعات في صفوفهم، وحجم المشاحنات التي تندلع فيما بينهم، ولذلك لم يتقاعس بعد موت الحران عن حث ولده المامون على ضرورة إظهار الحزن لأبناء عمه، حتى يشعرهم بأنه يتقاسم معهم ما حل بهم، اتقاء لنفورهم منه، ودرءا لكل ما من شأنه المس بوحدة البيت العلوي. ومما يدل على حرص المولى إسماعيل على تتبع ما يجري بتافيلالت، هو إقدامه على زيارتها لتفقد الشرفاء وتقديم الهدايا لهم²³⁰.

ويجد اهتمام المولى إسماعيل بتتبع تحركات هؤلاء الأشراف تبريراته، في ما تعرض له منذ اعتلائه عرش المغرب من تمردات وثورات اتخذت أبعادا خطيرة، وقادها أقرباؤه، وحظيت بدعم واسع من سكان تافيلالت وسوس، فأطولها تزعمها ابن محرز، وأخرى شنها إخوته الثلاثة مولاي الحران، ومولاي هاشم، ومولاي أحمد، رفقة ثلاثة آخرين من أبناء عمهم، وتلقى الشكاوى من سكان المغرب، عن اعتداءات شرفاء سجلماسة عليهم²³¹.

صلات السلطانين بشرفاء المشرق

من الواضح أن السلطانين معا أوليا عناية خاصة لشرفاء المشرق، إما بواسطة استقبالهم، أو تبادل المراسلات معهم طلبا للأدعية الصالحة، أو عن طريق بعث الهدايا. وهكذا استقبل أحمد المنصور الشريف محمد بن أبي الفضل المكي، وكاتب صاحب أرض الحجاز، واعتاد المولى إسماعيل إرسال الصلات سنويا لأشراف ينبع ومكة ولأحفاد أبي بكر الصديق، بل حبس على الحرمين الشريفين مائة ألف شجرة من الزيتون²³².

²²⁹ «فاخدموا شغلكم (الشرفاء) الذي أقامكم الله فيه، وأنا أخدم شغلي الذي أقامني الله فيه»، رسالة من المولى إسماعيل إلى ولده المامون، مجموع مخطوط، ن.م، ص.ص. 201، 205، 209.

²³⁰ رسائل من المولى إسماعيل إلى المامون. رسالتان منه إلى كافة الشرفاء بتافيلالت، الأولى بتاريخ 16 ذي الحجة 1101هـ، والثانية 8 رمضان 1104هـ، مجموع مخطوط، خ.ح، رقم 12598، ص.ص. 193-196. حول زيارة المولى إسماعيل التفقدية لتافيلالت، راجع:

S.I.H.M. 2^e série, Fra., t. II, pp. 116-7.

²³¹ محمد القادري، نشر الثاني... م.س.ذ.. ج. 4، ص. 241.

²³² عبد الكريم الريفي، زهر الأكم... م.س.ذ.. ص.ص. 65، 172؛ محمد ابن العياشي، ن.م، ص. 83؛ عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف... م.س.ذ.. ص.ص. 81-88. وعن المنصور، انظر: عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص.ص. 187، 233.

ولا يخفى ما لهذه العلاقات من أبعاد دينية، تمثلت في إظهار الهيبة، والحفاظ على الروابط مع آل البيت للترك بهم، وغايات سياسية جسدت عزمهما على تدعيم مشروعيهما المحليتين بأخرين مستمدتين من المرجعية المشرقية، وما تنطوي عليه من خلفيات رمزية تمكن السلطانين من تأكيد الأحقية في الخلافة أمام العثمانيين، ومن الحفاظ على نوع من التوازن في علاقاتهما مع فئات الأشراف، خصوصا إذا علمنا أن جلهم كانوا يرتبطون مع نظرائهم بالمشرق بصلات مستمرة، إما من خلال أداء فريضة الحج، أو بواسطة تبادل الخطابات، ومناقشة القضايا الفقهية. بل إن التهامي بن محمد الوزاني مثلاً، استقبل وفوداً من مصر والشام والعراق طلباً للبركة والدعاء حتى بلغت شهرته إلى الآفاق²³³. ولعل أحداثاً هامة من هذا القبيل، وإن انطوت على مبالغات، استهدفت الرفع من شأن الزاوية، لم تكن غائبة عن ذهن المولى إسماعيل الذي كثف من اهتمامه بشرفاء المشرق مقارنة مع أحمد المنصور.

ونخلص مما سبق أن المخزن بالرغم من حذره الشديد من الأشراف، ظل ينظر إليهم باعتبارهم يمثلون سلطة مكملية لسلطته، تقوم بتأطير الناس وإرشادهم ونصحهم، وبالدعاء الصالح في جميع المناسبات لأمراء السلطة الزمنية بالتوفيق والسداد، وهو ما عبر عنه المولى إسماعيل بتعاون سلطة الكفوف مع سلطة السيوف²³⁴.

وبقي بالمقابل، نجاح الأشراف في إرضاء المخزن رهينا بالقدره على الجمع بين مرجعيتهم الدينية وبين أدوارهم الاجتماعية، التي يفرضي تراييدها بالضرورة إلى إسهامهم في المجال السياسي، خاصة لما يمارسونها داخل مؤسسات الزوايا حيث يتداخل الشرف بالصالح، وتختلط البركة بالكرامة، فيتكاثر المريدون والأتباع وتتسع الامتيازات، وتتضخم الامكانيات المادية، وتتخذ عملية إعادة التوزيع أشكالاً تفاخرية تثير رغبة الحكام وحذرهم.

²³³ محمد القادري، ن.م،...، م.س.ذ.، ج. 3، ص. 220؛ حمدون الطاهري الجوطي، ن.م، ص. 78. لم تخل الكتابات المنقوبة والحكايات من أصداء عن الصراع الرمزي بين الشريف والسلطان، فأتباع الزاوية الوزانية تحدثوا عن طغيان حضور اسم مولاي التهامي أكثر من المولى إسماعيل، الذي استدعاه لمعاقبته، وحين أغلظ معه كتابه القول، انتفخ بطنه حتى كاد المنزل يتهدم، فجعلت هذه الكرامة السلطان ووزيره الحمدي يؤمنان بقدرته الخارقة. كما ذكرت تلك الكتابات أن عبد الله الوزاني كان يزوره أربعة عشر ألف شخص يومياً. وأورد Jamous قصة الشريف سيدي عبد السلام بن صالح مع المولى إسماعيل، الذي رفض منحه قطعة أرضية بفعل حذره منه، فأحرق الغاية بوضع يده على فمه وجبينه، ليتحول مجالها إلى سهل يوعرك بالمنطقة الشرقية، ويتراجع السلطان عن موقفه. وتعتبر هذه الكرامات عن رغبة هؤلاء الكتاب في إبراز تفوق السلطة الروحية للشرفاء على السلطة الزمنية للسلطين. حول الكرامتين، راجع: حمدون الطاهري، ن.م، ص. 35-39. ثم المقصد السامي،...، م.س.ذ.، ص. 25.

R. Jamous, *Honneur...*, op. cit., pp. 234-5.

²³⁴ رسالة المولى إسماعيل إلى مولاي التهامي، بتاريخ 24 محرم سنة 1117هـ. عبد الرحمن ابن زيدان، ن.م، ص. 113-114.

ولإفراغ الزوايا من شحنتها السياسية، عمد السلطانان إلى احتواء العمل الجهادي باعتبار أن تحصين الثغور واجب... فهي عورة يجب الاهتمام بها، والاعتناء بحالها، لأنها تؤدي إلى حفظ الدماء والأموال، والحرمة وغير ذلك»²³⁵، وأن القيام به فرض على الإمام. لكن إلى أي حد عكست الممارسات الجهادية للسلطانين هذا التصور، واستجابت لطموحات هذه القوى، وخصوصا العلماء وأرباب الزوايا؟

المخزن والجهاد

مما لا شك فيه أن مواقف السلطانين من المسألة الجهادية، ارتبطت في مدها وجزرها بجملة من العوامل، يمكن حصرها من جهة في طبيعة الظرفية الدولية التي حكما خلالها، ومن جهة أخرى في مدى نجاحهما في امتصاص الضغوط التي اعتادت القوى الدينية ممارستها عليهما، من قبيل ما أشرنا إليه، بخصوص موقفَي رضوان الجنوي والحسن اليوسي.

فما يستنتج من خلال صور السلطانين في الأسطوغرافية، هو ظهور المولى إسماعيل بمظهر السلطان المجاهد، الذي كرس فترة حكمه الطويلة لاسترجاع عدد من الثغور المحتلة، مقارنة مع أحمد المنصور الذي تمت مؤاخذته على تقصيره في واجبه الجهادي، بعد تحقيق نصر وادي المخازن، ليس فقط من قبل التيارات الدينية، ولكن حتى من قبل بعض الإخباريين البارزين، الذين اعتادوا بصفتهم كتابا على تفهم القرارات السلطانية. وفي هذا الصدد تمني محمد ابن العياشي، لو أن أحمد المنصور وظف القوات التي كان يستعرضها بتانسيقتهم خلال عيد الأضحى، والبالغ عددها تسعة وعشرين ألفا في استرجاع الأندلس، ونسب الإفرائي لأفوقاي أمنية ماثلة، وهو يعلق على الحدث نفسه، الذي لم يشر إليه الأخير في رحلة الشهاب²³⁶. أيعني ذلك أن هذين الكاتبين انطلقا من الواقع الذي عاشاه في ظل حكم المولى إسماعيل، وسعيا إلى تمجيد منجزاته، من خلال تناسي الوقوف عند الدوافع الكامنة، وراء عزوف السلطان السعدي عن خوض معارك جديّة لتحرير الثغور؟ أم أن الأمر ارتبط فعلا

²³⁵ مجهول، الرسالة الوجيزية إلى الحضرة العزيزية في علوم الخلافة، إعداد وتقديم أحمد الدغرنى، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، 1987، ص ص. 47، 52.

²³⁶ محمد ابن العياشي، زهر البستان... م.س.ذ.، ص. 107؛ محمد الإفرائي، نزهة الحادي... م.س.ذ.، ص. 118؛ أحمد بن القاسم الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق محمد رزوق، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1987، ص. 43. وسجل المجهول السعدي بوضوح تغافل أحمد المنصور عن الجهاد واهتمامه بفتح السودان. انظر: تاريخ الدولة السعدية التكميلية، ص ص. 63، 98.

بالتباين في سياسة الرجلين، وفي حجم النتائج المحققة، وإن كان الزياني بدوره قد تمنى لو وظف المولى إسماعيل جيشه الضخم، وحول ما أنفقه في تشييد القصبات إلى سفن ومراكب لاستعادة الأندلس، وهو موقف زكاه الناصري²³⁷، ويدل على تجذر الحس الفقهي لدى هؤلاء الكتاب، الذين لم يستطيعوا التخلص من هيمنة الحمية الدينية على مواقفهم؟

ما يثير الانتباه في السياسة الجهادية للسلطانين، أن أحمد المنصور ركز معظم حملاته على جزر الكناري، وكأن للأمر علاقة وطيدة بفتح السودان، في حين راهن السلطان العلوي بالخصوص على شمال البلاد.

السياسة الجهادية لأحمد المنصور

ارتبط الفتور الذي طبع السياسة الجهادية لأحمد المنصور، خلال العقد الأول من توليه، ارتباطا عضويا بالمخلفات العسكرية والسياسية والدبلوماسية لمعركة وادي المخازن، وما اكبتها من ضغوط قوية تمثلت في التهديد بحملة علي باشا، وفي مساومات إسبانية متعددة، تراوحت بين المطالبة بمدينة العرائش، وبين التلويح بمساندة الأميرين السعديين اللاجئين²³⁸.

وهكذا شهدت الحملات المهمة انطلاقها منذ 1582م، أي في المرحلة التي بدأت فيها إسبانيا تغادر فعلا البحر الأبيض المتوسط، في اتجاه الشرق والغرب مستفيدة مما ورثته من الممتلكات البرتغالية²³⁹، لتتأجج بعد هزيمة الإسبان في معركة الأرمادا سنة 1588م، تحت قيادة اليريس موراطو Murato، واليريس شعبان الذي كان يستخدم حسب الوثائق الإسبانية سفنه الخاصة، وسفنا في ملكية أحمد المنصور لمهاجمة جزيرتي لانساروتي Lanzarote وفويرتينتورا Fuerteventura، حيث نجح في أسر أكثر من ثمانين شخصا خلال حملة 1593م²⁴⁰. وقد أورد الفشتالي إشارة عن الكمين الذي نصبه المقدم أحمد بن عيسى النقسي

²³⁷ أحمد الناصري، الاستقصا... م.س.ذ.، ج. 7، ص. 82.

²³⁸ D. Cabanelas, « El problema de Larache en tiempos de Felipe II », in M. E. A. H., vol. 9, 1960, Granada, p. 35. Voir aussi : A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. LXXXIV, 24, 90-2.

²³⁹ F. Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Paris, Armand Colin, t. II, 1966, pp. 450, 467-8.

²⁴⁰ نسخة رسالة من Baltazar Polo إلى دوق دي مدينا سيدونيا موجهة من مراكش سنة 1593، ورسالة أخرى من فيليب الثاني بتاريخ 30 يناير 1594، وثالثة منه إلى الملك الإسباني من مراكش بتاريخ 13-4-1595، Archivo General de Simancas, Espagne, Seccion Estado, Légajo, 174.

راجع أيضا: عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 197. وتحدث شالديا عن هجوم اليريس موراطو على جزر الكناري

لمحتلي سبتة سنة 1588م، والذي انتهى بأسر عدد من الإسبان. ولعل توقيت الهجوم، يؤكد ما راج حول حدوث تغير في موقف أحمد المنصور من الجهاد لتحرير الثغور بعد هزيمة الأرمادا²⁴¹.

لكن المصادر لم تشر إلى هجومات مماثلة استهدفت المدينة بعد هذا التاريخ، وهو ما يعني أن الجبهة الشمالية عرفت حملات خاطفة ونادرة، سعى من خلالها السلطان على ما يبدو إلى التقليل من حدة الضغوط الموجهة من قبل القوى الدينية، وتحقيق التوازن في علاقاته مع الإسبان والعثمانيين من جهة، ومع الإنجليز من جهة أخرى، بدليل أن روبرت سيسيل Robert Cecil طلب من الملكة إليزابيث مكتابة أحمد المنصور، من أجل التدخل لتخريب مزارع القمح الموجودة بضواحي الثغور الإسبانية المحتلة، ومنع رعاياه من بيع الحبوب للإسبان²⁴²، في مرحلة كانت تخوض فيها اسبانيا حروبا طاحنة مع فرنسا، بدأت سنة 1595م ووضعت أوزارها سنة 1598م²⁴³.

ويؤكد هذا عدم جدية السلطان السعدي في الوفاء بالوعود التي قطعها للإنجليز، وعدم استعداده للدخول في مجابهة مع الإسبان لتحرير ثغور يبدو أنه كان في حاجة ماسة إليها للتصدي لعدوان عثماني محتمل. وإن كان الفشتالي الذي يعي طبيعة هذه المراوغات، قدم صورة جعل فيها هدف بناء الأساطيل من قبل ولي نعمته هو استرداد الأندلس، بالرغم من إدراكه استحالة ذلك في ظل الظروف الدولية المعقدة بالبحر الأبيض المتوسط، التي لم تكن غائبة عن ذهنه، لكن حرفته كاتباً يؤلف مؤلفا بطلب من الإمام، ويطلع على خبايا الأمور، حتمت عليه تبني ذلك النوع من الخطاب، والتغاضي عن الحثيات المتحكمة في القرار السياسي. بل إنه لم يذخر وسعا في اعتبار ثورة الناصر رد فعل إسباني على ما كان يهيئه أحمد المنصور من تجهيزات بحرية لاستعادة الأندلس. ولم يتردد في استثمار نتائج هجوم آل

كما أسفر عن أسر عدد من الأشخاص تم بيعهم بمئنة آسفي، انظر:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 184 ; R. Ricard, *Etude Hispano...*, op. cit., pp. 76, 110-1.

²⁴¹ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 96-98؛ محمد رزوق، «العلاقات المغربية الإسبانية خلال القرن 16م: العهد السعدي الأول نموذجاً»، ضمن دراسات في تاريخ المغرب، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، 1991، ص. 95.

²⁴² مذكرة R. Cecil لسنة 1597، ضمن؛

S.I.H.M. 1^{re} série, Ang., t. II, p. 121.

²⁴³ F. Braudel, *La Méditerranée...*, op. cit., p. 496.

النقسييس على سبتة، حين وصف بدقة كيف أمر السلطان المجاهدين باقتياد السبي إلى مدينة فاس، التي دخلها الموكب في يوم مشهود احتشد فيه الناس لرؤية أربعمائة من الأسرى، وهم يعرضون على أحمد المنصور، فعم الفرخ، ونظم الشعراء القصائد تخليدا للمناسبة²⁴⁴.

ولا يخلو هذا الوصف من أهداف، تجسدت بالأساس في حرص المخزن على ضرب مخيلات السكان، والفئات الدينية بالتحديد، في مدينة غنية بحمولاتها الرمزية، وبعلمائها الوازنين، وعمرابطيها المتعديدين الذين ما فتئ من اكتسب جرأة منهم يطالب بمواصلة فريضة الجهاد، فجسد مرور الأسرى بأزقة المدينة تأكيدا لعظمة الإسلام، وبرهانا على عدم تغافل السلطة عن واجب الجهاد. وهو الأمر الذي أكدته أحمد المنصور في رسالته إلى مراد خان العثماني، حين اعتبر أنه على « الأبهة والاستعداد... لإرهاب أعداء الله أهل الكفر والعناد ... »²⁴⁵. لكن واقع الحال لم يكن يسعفه للمضي قدما في إرضاء حماس القوى الدينية، وتحقيق مشاريعه الجهادية، ويفسر ذلك بكثرة الضغوط التي تعرض لها هذا السلطان من قبل القوى المتوسطة الكبرى، من أجل اتخاذ إجراءات كفيلة بالحد من نشاط الجهاد. وتوصل في هذا الصدد، برسائل من ملكي فرنسا هنري الثالث، وهنري الرابع يطلبان فيها الإفراج عن السفن والبحارة الفرنسيين، وبمكاتبات من السلطان العثماني محمد الثالث يدعوه فيها لمنع عمليات بيع الغنائم، خاصة الفرنسية بالموانئ المغربية، من قبل مجاهدي الجزائر وتونس²⁴⁶.

وتحتفظ المراسلات الإسبانية بمعلومات عن المراقبة الشديدة التي كان يمارسها جواسيس فيليب الثاني على التحركات العسكرية لأحمد المنصور، إذ دأبوا على تزويد حكام جزر الكناري بأخبار المجاهدين. ولعب بالتسار بولو، ودوق دي مدينا سيدونيا دورا كبيرا في هذا المجال، إذ قدم تفاصيل عن وصول ألفي جندي من الجنوب بحرا، إلى مدن سلا والقصر وتطوان استعدادا لمهاجمة الجزر سنة 1595م²⁴⁷. وهي تقارير تترجم من جهة، طبيعة

²⁴⁴ عبد العزيز الفتشالي، ن.م، ص.ص. 100، 170، 204.

²⁴⁵ اعتاد كتاب المنصور أن يلقبوه في الرسائل بلقب المجاهد، وهو التعبير الذي يتماشى مع الخطاب المخزني. رسالة من أحمد المنصور إلى مراد خان العثماني، عبد الله كنون، رسائل سعية...، م.س.ذ.، ص. 21.

²⁴⁶ راجع نماذج من هذه الرسائل:

I.H.M., 1^e série, Fra., t. II, pp. 141-316 et t. III, p. 576.

²⁴⁷ رسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى فيليب الثاني بتاريخ 19-1-1595، ورسالة من بالتسار بولو إلى فيليب الثاني من مراكش بتاريخ 30-1-1594:

Archivo General de Simancas, Espagne, Seccion Estado, légaio 174.

الصعوبات التي كان يواجهها السلطان في سياسته الجهادية، وتعكس من جهة أخرى اقتناع الإسبان بأن الثغور التي يحتلونها لم تكن واردة في مخططاته، بالرغم من أن تجهيز الجنود تم بالقرب منها. أوجب الاكتفاء فقط بالتفسيرات المتداولة حول صعوبة اقتحام المدينتين المحصنتين، وضعف الأسطول المغربي؟ أم أن أحمد المنصور الذي اكتسب خبرة مهمة بمنفاه، كان يدرك عواقب مغامرة من هذا القبيل، وفضل إن لم نقل أرغم على تحويل أنظاره إلى السودان، لحل مشاكل الموارد المالية، وللحصول على العبيد²⁴⁸، واكتفى بتوجيه حملات جهادية متقطعة إلى جزر الكناري، نظرا لبعدها عن دائرة الصراع في حوض البحر الأبيض المتوسط، ولتلاؤم موقعها مع مخططة الذي اتخذ من جنوب المغرب هدفا له، في انتظار ما ستسفر عنه المواجهة بين الإمبراطوريتين الإسبانية والعثمانية؟

باستثناء الإخباريين الرسميين، هناك شبه إجماع على تبني أحمد المنصور الحيلة والحذر في سياسته الجهادية، إذ حاول الحفاظ على علاقات متوازنة مع القوى الأجنبية بما فيها تلك التي تحتل الثغور، ووظف هذه الأخيرة في مساومة أعدائه وخصومه على السواء، حيث كان يعد الإسبان بمنحهم العرائش، ويقترح عليهم استبدال الجديدة بها، ويعلن أحيانا أخرى عن رفضه، تحت ذريعة أن ملكة إنجلترا تطالبه بالمعمورة. وهو يحصن العرائش، دخل في مفاوضات سرية مع باشا الجزائر من أجل سيطرة الرايس موراطو على ثغر مليلية²⁴⁹، في الوقت الذي عرض عليه العثمانيون مساعدة عسكرية قوامها « ثلاثمائة غرابا سلطانية وجيش عز ونصر، وكماة عثمانية »²⁵⁰، لفتح بلاد الأندلس، مقابل تعهده بالتحالف معهم ضدًا على الإسبان الذين ضموا البرتغال. لكن السلطان السعدي، الذي كان يراقب من كذب المؤامرة العثمانية مع الموريسكيين، لم يظهر إرادة حقيقية في الالتزام بهذا التحالف الذي

²⁴⁸ « وهو اليوم... بصدد الاستكثار من الأساطيل رغبة في الجهاد... بما أتيح لسيوفه المظفرة من الاستيلاء على الممالك السودانية، المعنية بخراجها المستبعر ومعادن الذهب على التوسع في الإنفاق، الذي لا يخشى عيلة ولا فقرا وبالسواد الأعظم المستاق من رقيقها، على تسخير المجاديف الثقيلة بالأساطيل... »، عبد العزيز الفشتالي، *مناهل الصفا... م.س.د.، ص. 194*.

²⁴⁹ A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 94-96, 130-132.

« تأمروا لأصحابكم يقبضون لأصحابنا البريجة، مثل ما أمرنا نحن للقائد إبراهيم يقايبض لأصحابكم العرائش »، رسالة من أحمد المنصور إلى فيليب الثاني بتاريخ رمضان 991هـ 15-10-1583، أوردها:

D. Cabanelas, « El problema de Larache en tiempos de Felipe II », op. cit., p. 35.

²⁵⁰ رسالة من مراد الثالث إلى أحمد المنصور، ينعت فيها « بنصير جيوش المسلمين، ظهر جيوش المجاهدين »:

D. Cabanelas, « Proyecto de alianza entre los sultanes de Marruecos y Turquía contra Felipe II », in *M.E.A.H.*, vol. 6, 1957, pp. 64-66, 71.

تفرضه روابط الدين، وفضل اقتسام انشغالات تحركاتهم مع خصمه فيليب الثاني. ولم ينسق وراء خطاب مراد الثالث، الذي أكد له أن مملكتيهما « محروستا الجوانب والأطراف من سوء الشقاق والاختلاف، ومعمورتا الأرجاء بالوفاق والائتلاف، ونعلق العهد بالكعبة المنورة، والحوضة المعظمة »²⁵¹؛ لأنه كان يدرك تشتت المجهود الحربي العثماني على عدة جبهات، أبرزها إضافة إلى البحر الأبيض المتوسط، المواجهات مع الفرس التي دامت من 1578م إلى 1590م²⁵².

السياسة الجهادية للمولى إسماعيل

خلفت الإستراتيجية الجهادية للمولى إسماعيل أصداء كبيرة في الإسطوغرافية المحلية والأجنبية، نظرا للعناية التي كرسها لتحرير الثغور المحتلة، ولنجاحه في استرجاع المعمورة وطنجة والعرائش، وصموده الطويل في حصار مدينة سبتة، وأثارت عنايته تلك الانتباه، فتم تفسيرها على أساس أنها من واجبات الإمام المفروضة شرعا، أو باعتبارها خطة سلطانية استهدفت تقنين حركة المجاهدين وتنظيمها عسكريا، وتأطيرها ومراقبتها بواسطة قواد وفرق من العبيد، لتجريدها من الخطورة التي قد تنجم عنها، وإلحاقها هيمنة الزوايا عبر إظهار الدور المحوري للمخزن في تحصين دار الإسلام، وفي تحقيق مكاسب ميدانية لم تستطع المؤسسات المؤطرة لتلك الحركة بلوغها²⁵³، في حين ربطها البعض بأهميتها في تدعيم ركائز السلطة على الصعيد الاقتصادي، وعلى مستوى العلاقات مع أوروبا²⁵⁴.

وإذا كان من المسلم به أن علاقات السلطان مع القوى الدينية، شأنه في ذلك شأن سلفه أحمد المنصور، ألفت بظلالها على نهجه الجهادي، إن على مستوى ما حتمه الشرع، أو ما فرضته ضرورات السياسة من لزوم احتواء هذه القوى، لتقوية موقعه، وللتقليص من حجم

²⁵¹ عن المؤامرة الموريسكية، راجع: محمد رزوق، « العلاقات المغربية الإسبانية... »، م.س.ذ.، ص. 94-95. ثم؛

D. Cabanelas, « Proyecto de alianza... », *op. cit.*, p. 66.

²⁵² F. Braudel, *La Méditerranée...*, *op. cit.*, p. 451.

²⁵³ A. Cour, *L'établissement des dynasties des chérifs...*, *op. cit.*, p. 200 ; M. Morsy, « Mulay Isma'il l'instauration... », *op. cit.*, p. 147.

راجع أيضا: عبد الله العروي، ن.م، ج. 3، ص. 84-85.

²⁵⁴ محمد رزوق، « الجهاد البحري في عهد المولى إسماعيل: منطقة مصب أبي رقراق نموذجا »، ضمن مصادر تاريخ الدولة العلوية الشريفة، المؤسسون الأولون للدولة العلوية الشريفة، آثار وتراث منطقة تافيلالت: أعمال الدورة الأولى المنعقدة بالريصاني (1989)، الرباط، وزارة الثقافة، 1990، ص. 149.

الانتقادات الموجهة لحكمه، فالجديد أولا هو خضوع هذا النشاط لمراقبته الشخصية منذ 1680م، حين أصبح الرياس يأثمرون بأوامره، ويسلمونه الأسرى الذين أصبحوا يشكلون ورقة مهمة في سياسته الخارجية.

أما ثانيا فتغير الظرفية الدولية، الذي تجسد في ضعف الإمبراطورية الإسبانية، بفعل ارتفاع تكاليف الإنفاق على جيوشها بأوروبا وأمريكا، ونتيجة لوفاة ملكها كارلوس الثاني وما أعقبها من صراعات حول عرشه، توجت بتعيين فيليب دونجو Philippe d'Anjou من قبل لويس الرابع عشر، الذي كان يحارب الهولنديين والنمساويين، ويتحالف مع الإمبراطورية العثمانية التي بدأ التراجع يدب في هياكلها، ولم تعد تشكل خطرا حقيقيا داخل البحر الأبيض المتوسط. في حين تحولت المبادرة الاقتصادية إلى دول أوروبا الشمالية، التي أضحت تجوب البحار لتحكم في شرايين التجارة الدولية²⁵⁵.

في ظل هذه الظروف، وبعد الفراغ من تمهيد البلاد، وإزاحة أخطر التمردات التي كانت تهدد حكمه، عمد المولى إسماعيل إلى تحمل مسؤولية الجهاد بصفة شخصية، فوزع المهام على قواده لمحاصرة الثغور، وحرص على تتبع أدق التفاصيل المتعلقة بالعمليات العسكرية، إذ تمسك بالحضور أمام أبواب المعمورة للتصديق على اتفاقية الصلح، التي توصل إليها المجاهدون مع نصارى المدينة، ليأمر بعدها بتنظيم الاحتفالات لمدة ثمانية أيام. كما أبلغ قائده علي بن عبد الله بطبيعة الإجراءات التي عليه اتخاذها بعد إخلاء الإنجليز لمدينة طنجة، وبعد تحرير العرائش، من قبيل إعادة تعمير المدينتين، ليكلفه بحصار بادس²⁵⁶.

واستغل السلطان الأسلحة التي تم الاستحواذ عليها لإعادة توزيعها على الثغور، وهكذا أوكل لأمير البحر عبد الله بن عائشة القيام بهذه المهمة، إذ زود قواد المدن المعنية بعدد من المدافع²⁵⁷. أما حصار سبتة فمر حسب الوثائق الإسبانية من مرحلتين، امتدت الأولى من سنة 1673م إلى تاريخ تحرير العرائش سنة 1689م، والثانية من 1694م إلى 1727م²⁵⁸.

²⁵⁵ E. Preclin, *le XVII^e siècle, monarchies centralisées ...*, op. cit., pp. 4-6, 47, 221 ; Ph. Sagnac, et A. de Saint Léger, *Louis XIV (1661-1715)*, PUF, 1949, pp. 468-9.

²⁵⁶ عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف.... م.س.ذ.، ص ص. 135-138، 140، 143. S.I.H.M. 2^e série, Fra., t. II, p. 403.

²⁵⁷ S.I.H.M. 2^e série, Fra., t. V, p. 410.

²⁵⁸ دام هذان الحصاران ثمانية وأربعين سنة وشهرين وستة أيام، ونشبت خلالهما ثلاثة وأربعون معركة خلفت 18506 شهيد، راجع: محمد ابن عزوز حكيم، « سبتة والمولى إسماعيل »، جامعة الريصاني، أعمال الدورة الأولى،

وتضاربت الآراء حول الأسباب الكامنة وراء فشل الجيش الريفي في اقتحام المدينة، فالزياني ربطه بعدم تحمس المجاهدين لذلك، حتى لا يكلفهم السلطان بتحرير الجديدة، ويبيدهم عن أهلهم وذويهم، وهم سئموا من مشقة الأسفار. في حين أجمعت المصادر الأجنبية على الدور الحيوي الذي لعبه بعض الخونة المغاربة، في إطلاع المحتلين على تفاصيل الخطط العسكرية أولا بأول²⁵⁹.

بينما كان المخزن من جانبه يعي، أن مكامن ضعفه تتمثل في غياب أسطول بحري قادر على عزل المدينة عن مصادر تموينها، وهو ما عبر عنه عبد الله بن عائشة في رسالته إلى لويس الرابع عشر حين قال: « والله لو أن العرب يساعدونا على ركوب البحر وركوب السفين... لما تركنا أحدا من الإنجليز يمر بكوشطة البوغاز، ولكن العرب لا معرفة لهم بأمر الحرب وركوب السفين، ولا خبرة لهم بشؤونها ولا يعرفون العرب إلا ظهور الخيل... »²⁶⁰.

ويدل هذا على ما كان يشعر به المسؤولون المغاربة من عجز تقني، يحول بينهم وبين استرجاع شبه جزيرة سبتة، على غرار ما حققوه في مدينتي المعمورة والعرائش الممتدتين على مصبات نهريّة. غير أن حصار سبتة تداخلت فيه مجموعة من المعطيات، ارتبطت بالتطورات التي كانت تشهدها الصراعات بين الدول الأوروبية. ففي البداية راهن المولى إسماعيل على دعم الملك الفرنسي، الذي كان يبحث عن تحالف مع المغرب لمواجهة مجاهدي الجزائر ولتنمية تجارته، لكن لويس الرابع عشر رفض محاربة إسبانيا باعتبارها دولة مسيحية وفضل حل مشكل الأسرى²⁶¹.

واتجه في مرحلة ثانية، إلى إنجلترا للحصول على مساعدتها من أجل تحرير المدينة، وحاول

1989، ص. ص. 143-146.

²⁵⁹ محمد ابن عزوز حكيم، ن.م. ص. 145. وأخبار عن حصار سبتة، ضمن:

ILHM. 2^e série, Fra., t. IV, p 540-2.

أبو القاسم الزياني، البستان الظريف... م.س.ذ. ص. 177؛ محمد القادري، نشر الثاني... م.س.ذ. ج. 1، ص. 458.

²⁶⁰ رسالة من عبد الله بن عائشة إلى الوزير Ponchartrain مؤرخة بـ 6 ربيع الثاني 1121هـ:

Archives des Affaires étrangères, Paris B¹ 828, correspondance consulaire, Maroc, 1706-1709 t. 4, p 413.

انظر أيضا رسالة المولى إسماعيل إلى جيمس الثاني، أوردها محمد بن تاويت، « من زوايا التاريخ المغربي »، مجلة تطوان، ع. 7، 1962، ص. 140. ثم راجع:

ILHM. 2^e série, Fra., t. VI, p. 353.

²⁶¹ Archives de la Bibliothèque nationale, Le journal de Saint-Olon. F. F^o 408.

إغراءها بأهمية ذلك في ضمان هيمنتها على المضيق، خاصة بعد أن احتلت جبل طارق. أما في العقد الأخير من حكمه فقد أبدت بعض الدول الأوروبية نيتها لدعم إسبانيا في حربها ضدًا على المغرب²⁶²، لكن حصار سبتة ارتبط أيضًا بمستوى علاقات السلطان مع إسبانيا، فلما تم احتجاز سفينة إبراهيم ميموران من قبل أهل كَاليسيا، طلب منهم المولى إسماعيل إرجاعها، وأورد ذلك في معرض خطابه لهولندا حين ذكر ما يلي: «وقلنا لهم هذا الذمي ميمران الذي أخذتم سفينته لا تجهلون حالته ولا خدمته وأرى هذه الثمانية آلاف ريال (قيمة السفينة) يسهل عليكم ردها وتلافيتكم أمرها، ليلا تكون سببا لحصار سبتة والنزول عليها، وإن كان جهادها واجبا، وكان مرادنا فيها وولھتنا معها ونيتنا مصروفة إليها، وكنا نرجوا له وقت فقد يجعل الله لكل شيء سبب، لكن كان أخرنا عن معاجلتها قدوم خديمنا الكاتب السيد حم بن عبد الوهاب الوزير...»²⁶³، في إشارة إلى حسن معاملة الإسبان له.

أما حصار مليلية فقد شهد ذروته خلال سنتي 1678 و1679م، ونجح المغاربة في استرجاع عدة أبراج مجاورة للمدينة، ولم يسجل أول ظهور لفرق من جيش العبيد بهذه الجبهة إلا سنة 1694م، وهو ما تزامن مع بداية المرحلة الثانية من تشديد الخناق على سبتة²⁶⁴.

ويستخلص مما سبق، أن المولى إسماعيل استفاد بشكل كبير من الظرفية الدولية لممارسة نشاط جهادي مكثف، تحت وصايته المباشرة، لم يقتصر فقط على الثغور، وإنما شمل المجال البحري، حيث استمرت سلا، كما كان الحال منذ عهد أحمد المنصور، في لعب دور مركزي في انطلاق سفن المجاهدين، خاصة بعد تحرير المعمورة. وطمح السلطان من وراء ذلك إلى سد حاجياته من التجهيزات البحرية والأسلحة، من خلال السماح للهولنديين تحديدا باقتناء غنائم المجاهدين من الموانئ المغربية، التي كانوا يستخدمونها في تأمين سلامة سفنهم القادمة من الهند والعالم الجديد²⁶⁵. فلقد خاطبهم قائلا: «وقلنا أتم تنفعونا بمهادتنا

²⁶² «فلقد عرفتم أننا محاصرون لسبتة ومضيقون عليها أشد المضيق... فإذا لم تنفعونا في هذه المهادنة بخلاء سبتة في هذا الوقت، ففي أي وقت تنفعنا المهادنة معكم... إن لم تساعدونا». رسالة من المولى إسماعيل إلى البرلمان الإنجليزي: Philippe de Cossé Brissac, *S.I.H.M.*, 2^e série, Fra., t. VI, 1960, pp. 351-4 et t. VII, pp. 69, 84, note 8.

²⁶³ رسالة من المولى إسماعيل إلى هولندا بتاريخ 26 صفر 1111هـ، مصدر سابق، سلسلة الأقاليم المتحدة رقم، 1.01.08، رقم الوثيقة 12594.36. وأخرى من أحد خدامه إلى هولندا، بدون تاريخ، السلسلة نفسها، رقم الوثيقة 12594.9.

²⁶⁴ حسن الفكيكي، المقاومة المغربية للوجود الإسباني بملييلية (1697-1859)، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، 1997، ص ص. 207-226. ولزريد من التفاصيل حول العمليات الجهادية ضدًا على المدينة انظر: تقييد حول حصار المولى إسماعيل لحصن مليلية، ضمن مجموع تقايد تاريخية، خ. ح. رقم 12352.

²⁶⁵ H. de Castries, *S.I.H.M.* 1^e série, Pays Bas, t. I, Paris, Ernest Leroux, 1906, pp. VIII-IX-XII.

إياكم في البحر الذي هو أكثر تحرككم وأكثر سفركم، ونحن ننتفع بما يتحصل لنا ويزداد في مخازننا المحفوظة بالله من العدة الجيدة والبارود المالح الجيد»²⁶⁶. لكن أكانت الإرادة السلطانية وضرورات السياسة الداخلية وحدهما وراء الاهتمام بنشاط الجهاد البحري؟ أم أن المغرب أقحم فيه نتيجة لما فرضه عليه موقعه الجغرافي، وما ارتبط به من تطورات شهدتها البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي؟

من المؤكد أن الاعتبار الدينية كانت حاضرة في التصور الجهادي للمولى إسماعيل، الذي ثمن قيمة المكاسب السياسية، التي سيجنيها من وراء القيام بذلك الواجب الشرعي أمام أرباب الروايا والعلماء، الذين لم يتوان معظمهم في التعبير عن ارتياحه، والتحريض على مواصلة عمليات التحرير. وهكذا نظمت القصائد من قبل فقهاء بارزين كعبد السلام جسوس وعبد الواحد البوعناني، تهنئ بفتح العرائش وتدعو إلى الاستمرار في تخليص البلاد من سطوة الأعداء²⁶⁷. وهو ما كان يزيد من تدعيم سلطة السلطان وإضعاف معارضيته، خاصة بعد أن تزايدت أعداد الأسرى المتدفقين على مدينة مكناس، الذين تم توظيفهم في أورشه. ولا يخفى ما أفرزه ذلك التوظيف، من مشاهد دالة على تفوق الإستراتيجية المخزنية، في إعلاء ملة الإسلام، وإذلال العدو الكافر، إذ لم يشكل هؤلاء الأسرى فقط مصدر ثروة مالية ناتجة عن افتدائهم، وإنما أيضا رمزا لعظمة السلطان²⁶⁸.

ولم تنحصر أهداف المولى إسماعيل في احتواء القوى الدينية، التي كان يشارك بعضها في العمليات الجهادية، بحيث كان على علم مثلا بتمويل شيخ الزاوية الوزانية للمقاتلين بالألبسة والأحذية، وبحضوره الشخصي في المواقع الخلفية²⁶⁹، وإنما رامت ضرب القاعدة الاقتصادية للنخب التجارية بالمدن الجهادية الرئيسة، من خلال حرمانها من أنشطة ظلت إلى عهد قريب أهم مصادر ثرائها²⁷⁰. فتعيينه لابنه زيدان خليفة له على سلا، وتكليفه لقواد الشمال

وصادق المولى إسماعيل على معاهدة الأمان بين السفن المغربية والهولندية بتاريخ رمضان 1095هـ، م.س.ذ.، سلسلة الأقاليم المتحدة، رقم، 1.01.08، رقم الوثيقة 12594.36.

²⁶⁶ رسالة من المولى إسماعيل إلى هولندا بتاريخ 20 شعبان عام 1098هـ، الأرشيف الوطني الهولندي، لاهاي، سلسلة الأقاليم المتحدة، رقم 1.01.08، رقم الوثيقة 12594.27.

²⁶⁷ محمد الإفرائي، نزهة الحادي...، م.س.ذ.، ص. 307؛ محمد الضعيف، ن.م، ص. 71-72.

²⁶⁸ جون بريثويت، تاريخ الثورات...، م.س.ذ.، ص. 295.

²⁶⁹ حمدون الطاهري الجوطي، ن.م، ص. 106، 118.

²⁷⁰ M. Morsy, « Mulay Isma'il ou l'instauration ... », *op. cit.*, p. 147.

بالمراقبة الشديدة لمدينة تطوان، وضغطه المتواصل على أعيان فاس، يدل على عزمه الجلي على احتكار الموارد المالية المرتبطة بالحركة الجهادية، لاستخدامها في تقوية الهياكل المخزنية، ويؤكد التذمر الذي ساد في صفوف هذه النخب التي لم تر في استحواذ السلطان على تلك الحركة إلا مسا صريحاً بمصالحها. وهو ما يفسر لنا على ما يبدو، الخلاف المستمر مع سكان فاس حول تجنيد فرقة الرماة لحصار سبتة، والرسائل الموجهة إلى حاكم سلا لحماية حقوق التجار الأجانب، والبت في نزاعاتهم مع التجار المغاربة، وفي التجاوزات التي يتعرضون لها،²⁷¹.

واتسمت مدة حكم المولى إسماعيل، فضلا عن الاعتبارات السابقة الذكر، بتأجج القرصنة إلى الحد الذي أصبحت فيه غير خاضعة لجنسية أو دين، فكان على المغرب بحكم موقعه الجغرافي أن ينخرط في هذا النشاط، ويساند طرفاً على حساب الآخر تبعاً لمصالحه، ولما أملت عليه المتغيرات التي مست العلاقات السياسية والعسكرية بين الدول المعنية. وفي هذا السياق، ورد الحديث عن الضغوط العثمانية ودورها في حث المولى إسماعيل على تحرير الثغور، مقابل وعود بمساعدات عسكرية، وبوصاية على باشوية الجزائر²⁷²، إسوة بعرض مشابه قدم لأحمد المنصور، كما أوضحنا. وهو ما يعني أن السلطان ضغط على الإنجليز لإخلاء طنجة إرضاء للباب العالي، إذ بعث الخليفة العثماني أحمد خان الثالث رسالة للمولى إسماعيل، يعتذر فيها عن هجومات أهل الجزائر على المغرب، ول يؤكد له على ضرورة المضي قدماً في الجهاد ضدّاً على مسيحيي الثغور، ويحيي سياسته في هذا الباب²⁷³.

كما أن المشاكل التي اعترضت العلاقات الفرنسية المغربية حول موضوع الأسرى، وإصرار السلطان على مواجهة المجاهدين الجزائريين الذين كانوا يريكون حساباته السياسية، من خلال ممارستهم لأنشطتهم بالشواطئ المغربية، كلها تؤكد طبيعة التعارض الذي كانت تعيشه القوى الأوروبية المتنافسة، سياسياً واقتصادياً وعسكرياً في حوض البحر الأبيض المتوسط،

²⁷¹ رسالة من المولى إسماعيل إلى حاكم سلا القائد امبارك بتاريخ 12-01-1709:

Ph. de Cossé Brissac, *S.I.H.M.* 2^e série, Fra., t. VI, 1960, pp. 404-5.

²⁷² «إني أرضى بهذنة أو صلح على أرض الإسلام... وأنت مقيم فيها بالقوة؟ والترك لايد وأن يشعوا بي ويعيوا علي ذلك»، رسالة من المولى إسماعيل إلى شارل الثاني. حولها وحول الضغوط العثمانية، راجع: محمد المنصور، «الضغوط العثمانية وأثرها على تحرير الثغور المحتلة من خلال حالة طنجة»، مجلة دار النياحة، ع. 5، 1985، ص ص. 31-29.

²⁷³ «وأنت أعزك الله إذا كان النصارى قريبا منك لا تغفل عنهم ولا عن جهادهم، ولا تنم أبدا عن قتالهم... والأمر بجهاد الكفر أمر واجب» انظر نص الرسالة: محمد الإفرائي، روضة التعريف...، م.س.ذ.، ص ص. 138-139.

ومدى انعكاساته على دول الضفة الجنوبية، حيث تم توظيف الرياس الجزائريين من قبل تلك القوى لضرب بعضها البعض²⁷⁴.

ولم ينجح المولى إسماعيل من هذه الحسابات، بدليل أنه لم يستطع التوفيق أحيانا بين ما كانت تطالبه به بعض الدول الأوروبية، من عدم السماح للمجاهدين الجزائريين ببيع غنائمهم بالموانئ المغربية، وبين حاجته الماسة إلى تلك الغنائم، وهو ما جعل موقفه يتذبذب بين التهديد بمنعهم تارة، وبين التغاضي عنهم تارة أخرى، بل إن مراهنته على الحفاظ على علاقات ودية مع بعض الدول الأوروبية، واستمرار مجاهديه في ملاحقة سفنهم، يفسر فشله في التوصل إلى اتفاقيات معها²⁷⁵.

وجملة القول إن ممارسة أحمد المنصور والمولى إسماعيل لنشاط الجهاد، على اختلاف وتيرته بينهما، ارتبط في مده وجزره بقوة شخصيتهما، وتمدى ملاءمة الظرفية الدولية لترجمة طموحاتهما على أرض الواقع، إرضاء لانتظارات القوى الدينية المؤثرة، ومراعاة لما تقتضيه مستلزمات السياسة. ومن هنا وجب التمييز بين الكيفية التي وظف بها المخزن مفهوم الجهاد باعتباره خطاباً في بعده الحماسي، وبين الأسلوب الذي استخدمه لاستثمار الحملات الداعية إليه، والمكاسب المحققة من ورائه، في تحقيق أغراضه النفعية المرتبطة بتقوية أسسه العسكرية، وتحديثها لضمان استمراره.

وهكذا ففي الوقت الذي رفع فيه السلطانان شعار الجهاد لتبني الآلة العسكرية المحترفة، تباينت سياسة كل منهما في الالتزام به؛ فمحاصرة الوضع الدولي للسلطان السعدي أرغمه على توجيه أنظاره نحو غزو السودان، لضمان الموارد المالية الكفيلة بالاستجابة لحاجياته. واستغل السلطان العلوي التغيرات التي لحقت بذلك الوضع للمراهنة على الجهاد، في الحصول على مصادر تمويلية، تعزز من قدرات حكمه، وتمكنه من كسر شوكة التيارات المعارضة، بما فيها الزوايا التي كانت تعد أكبر منافس له في هذا المجال. فحاول بذلك أن

²⁷⁴ M. Belhamissi, *Histoire de la marine Algérienne 1516-1830*, Alger, Entreprise Nationale du Livre, 2^e éd., 1986, p. 151.

²⁷⁵ كانت بعض السفن تتمتع بظواهر سلطانية تؤمنها من المجاهدين، لكن أحيانا لا يلتزم هؤلاء بها، وهو ما كان يؤثر على العلاقات مع الدول الأوروبية، كما حدث خلال أسر مجاهدي سلا لسفن إنجليزية، راجع: ت. ج. روجرز، *تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900*، ترجمة وتعليق يوانان ليب رزق، الدار البيضاء، دار الثقافة، الطبعة الأولى، 1981، ص. 118. انظر أيضا:

I.H.M. 2^e série, Fra., t. III, pp. 289-90.

لا يسقط خلفاؤه في ما أسفرت عنه تجربة سلفه أحمد المنصور، إذ تخلى عن كل توافق معها قد يقوي عضدها، ويشعرها بأهميتها في قيادة قافلة الجهاد التي فوض أمر تسييرها لأطر مخزنية من أسرة الحماميين، بل حرص على تأطير كل الحملات التي استهدفت الثغور بفرق من جيشه المحترف، لاستيعاب حماسها الشعبي، ولإضفاء طابع رسمي عليها يرمز إلى حضوره²⁷⁶.

والخلاصة أن الديني ألقى بثقله على حركة المخزن وموقفه من فئات العلماء والزوايا والأشراف، فشكل بذلك حجر الزاوية في ممارساته السياسية التي رزحت تحت وطأة رغبته الجامحة في ضمان استتباع تلك الفئات لخدمة أهدافه، إلا أن الأخيرة رفضت في مجملها الانصياع، وتحصنت بالشرع دفاعا عن مواقعها، والتزما باقتناعاتها وتماشيا مع طبيعة تكوين أفرادها، ولم تتعاون بالشكل المنتظر إلا لماما، شعورا منها بتمتعها بالهبة الدينية نفسها. وحاول المخزن من جانبه، تغليب وجهة نظره، والتخفيف من عبء ذلك الثقل، بهدف تمكين هياكله، وتحديث أجهزته، وبناء قاعدة سياسية تضمن استمرارية سلطته، التي استمدت من التكامل بينها وبين المؤسسات الدينية. فبماذا تميزت البنيات السياسية للمؤسسة المخزنية على عهد السلطانين؟

²⁷⁶ شارك في حصار مليلية مجموعة من المجاهدين من أسرة الشاوي والقيطوني وغيرهم، تحت رئاسة القائد محمد ابن مسعود الذي أهدها السلطان فرسا يدعى الجاردي، وهذه الهدية لا تخلو من رمزية تحيل إلى الحضور السلطاني. عن هذا الحدث يمكن الرجوع إلى التقييد الخاص بحصار مليلية، مجموع تقايد تاريخية، خ. ح. رقم 12352. وأيضا حسن هكيكي، ن.م، ص. 215. وكدليل على حجم التأطير العسكري القوي لحملة المجاهدين ما ذكرته مصادر أجنبية من أن عدد جيوش المجاهدين خلال حصار سبتة سنة 1697م بلغ 15 ألفا، من بينهم تسعة آلاف من العبيد، راجع: S.I.H.M. 2° série, Fra., t. IV, p. 540.

وأشار محمد القادري إلى أنه في سنة 1095هـ خرج الشرفاء والفقهاء والمرابطون للجهاد مع مولاي زيدان بطنجة، وراجع: نشر المظاني، ... م.س.ذ.، ج. 2، ص. 324.

الفصل الثاني

المشروعية السياسية

تعرف المشروعية بكونها الصيرورة التي تجعل من الحكم القهري أمرا مقبولا إن لم نقل مرغوبا فيه، بل تحوله إلى ضرورة اجتماعية وحتى إلى سلوك خيرا. وهذه القاعدة ليست مطلقة، إذ تباينت حسب المجتمعات، وتبعاً لدور الدين في تحديد الهوية السياسية للسلطة. ففي فرنسا مثلاً، التي تبنت منذ مقتل ملكها هنري الثالث سنة 1589م نظرية الحق الإلهي، التي تقوم على اعتبار الملوك صورة حية لله، لم يحل النظام المحدد للوارثة دون إفراغ الملكية من محتواها أحياناً، كما حدث بعد وفاة هنري الرابع ووجود وريث قاصر، حيث انتشرت التمردات وأعمال السلب والنهب وقطع الطرق، وما وقع بعد ثورة 1688م بإنجلترا وفرار جاك الثاني، إذ تم البحث عن شخصيات تمثل العمق التاريخي المقدس، فوقع الاختيار على الملكة آن Anne التي أعادت إلى الأذهان حكم الملك الإنجليزي شارل الأول في أبعاده السماوية والروحية². وإذا كانت هذه الأحداث قد عرفت لها سلطة شرعية، مرتبطة بمبدأ بالتعاقب المنتظم للأسرة الحاكمة، فإن عددها وطبيعتها يؤكدان أن الأمر يتعلق بحالات ظرفية وليست بنيوية.

ففي علاقة مع إشكالية الاستمرارية، جرى نقاش حاد حول الماهية السياسية للدولة في العالم الإسلامي. فباستثناء الإمبراطورية العثمانية إلى حد ما³، شكل الانتقال السياسي من سلطان لآخر، ومن سلالة حاكمة لأخرى، أبرز عقبة اعترضت بناء قواعد مضبوطة للصيغ التي يتم بموجبها التعاقب على السلطة، وهو ما أضفى على الدولة مفهوماً شخصياً ومرتبطاً بالأسرة الحاكمة⁴، ويمدّ قدرة أفرادها على فرض أنفسهم وفقاً لمنطق الغلبة وحسن التدبير،

¹ J. Lagroye, *La légitimité*, in Madeleine Grawitz et Jean Leca (dir.), *Traité de science politique*, t. I : *La science politique, science sociale, l'ordre politique*, Paris, PUF, 1985, p. 402.

² R. Mousnier, *Monarchies et royautes...*, op. cit., pp. 96-8.

³ بالرغم من استمرار الحكم في سلالة أسرة واحدة، فإن الدولة العثمانية تخبط بدورها في مشكل انتقال السلطة، وحاولت حله مثلاً اعتماداً على قانوني الدفن والقفص القاضيين بقتل وبسجن الطامحين إلى العرش. لمزيد من التفاصيل، راجع: عبد الرحيم بنحادة، *العثمانيون...*، م.س.ذ.، ص. 88 وما تلاها.

⁴ P. J. Vatikiotis, *L'islam et l'Etat*, trad. de l'anglais par O. Guitard, Paris, Gallimard, *Le Débat*, 1992, p. 62.

وجعل اكتساب المشروعية وليد هذا المنطق بالدرجة الأولى، بمعنى أن الحاكم ظل « هو الشخص الذي تتحقق به وحوله وحدة الدولة، عندما تستطيع سلطته أن تدافع عن شرعيتها إلى أبعد الحدود، كما أنه هو نفسه يصبح مجلبة الفرقة والاختلاف، عندما تفقد سلطته كل إمكانية في الدفاع عن تلك الشرعية »⁵. ومن هذا المنطلق، بقيت الشرعية في مدها وجزرها حبيسة القدرة على ممارسة القوة وتبني الغزو، مستفيدة من إجماع العلماء على أن الإمام الجائر خير من الفتنة والفوضى، اللهم إلا إذا انتهك الشرع فلا بديل عن عزله. لكن واقع الحال، أثبت أن ذلك الإجماع لا يكون في أغلب الحالات كاملا وتاما، بقدر ما يكرس قدرة الحاكم على فرض سلطته، وانتزاع الاعتراف بها إن اقتضى الحال ذلك. وهو ما فتح الباب أمام كل الورثة الشرعيين من أجل الإدلاء بدلوهم، والبحث عن قدم لهم في معركة الخلافة بعد وفاة السلطان.

وأسفر نظام الغلبة الذي كفل للسلطين شرعية اعتلاء العرش، عن صعوبة التأسيس لبنيات سياسية متينة وقادرة على وضع حد لوضعيات التقطع التي كانت تعترى أسلوب تعاقب السلطة، إذ ظهر كل سلطان بمظهر المنقذ من الفتنة، وكأنه يبعث من جديد ليعيد الأمور إلى نصابها، ويتأهب باستمرار للتصدي إلى أي طامح قد ينازعه في حكمه.

لكن أيعزى غياب قاعدة سياسية صلبة في هذا المجال إلى فشل المحاولات الرامية إلى التقريب بين نظام الخلافة باعتباره نظرية وممارسة على أرض الواقع؟ أم أن الكتابات السياسية النظرية التي تناولت الموضوع، هي التي أسهمت في إحداث شرخ من خلال إيلائها العناية لتبرير الوضع السياسي القائم الذي عاصره أصحابها، بدل تحديد آليات محددة لقانون الوراثة بالخصوص؟⁶ أم أن الأمر ارتبط أساسا بعجز الحكام على قلة محاولاتهم، عن تقنين تلك الآليات ضمانا لتفادي فتن كانوا يتنبأون بوقوعها. بمجرد وفاتهم؟ وفي ضوء ذلك إلى أي حد ألقت مشكلة المشروعية بعبئها على عهدي حكم السلطانين أحمد المنصور والمولى إسماعيل؟ تجمع المرجعيات الفقهية على أن وجوب نصب الإمام هو فرض كفاية على الناس، واشترط أهل السنة في ذلك أحد عشر شرطا: الإسلام، والذكورة، والحرية، والبلوغ، والعقل، والعدل، والعلم، وحسن التدبير، والشجاعة، والخلو من علة ما، والقرشية. وتنعقد الإمامة

⁵ سعيد بنسعيد، الفقه والسياسة، بيروت، دار الحداثة، الطبعة الأولى، 1982، ص. 101.

⁶ كان موقف الماوردي من ولاية العهد غامضا، إذ جعلها في ثلاثة أشخاص، واكتفى باستعراض مواقف الفقهاء راجع: سعيد بنسعيد، ن.م، ص. 101-103؛ أكن الياسيني، الإسلام والدولة، ص. 21-22.

بواسطة أمرين، أولهما بإجماع أهل الحل والعقد، وثانيهما بالعهد، أي؛ أن يعين الخليفة ولي عهده في حياته ويحصل له على الإجماع. ويعتبر تغيير عقد البيعة في كلتا الحالتين، حقا للمسلمين الذين عليهم الطاعة والدعاء بالتوفيق له، ومساندته على إقرار الحق، ورفع راية الجهاد. وفي المقابل، على الإمام أن يقوم بالعدل، ويمهد الأقطار، ويحمي بيضة الإسلام⁷.

إذن فهناك حقوق وواجبات لكل طرف تحددها الصيغة النظرية المدونة في عقد البيعة، الذي يخول المشروعية للسلطان الجديد المطالب باستكمال ترتيبات اعتلاء العرش، من خلال نيل دعم الجهات والأقاليم. وإذا كان اختيار السلطان لم يرتبط دوما باستيفاء الشروط المنصوص عليها سابقا، بقدر ما تحكمت فيه مؤهلاته الشخصية، ومدى نجاعته في استقطاب أهم العناصر المؤثرة في البلاط، أو احتواء المؤسسة العسكرية لتوظيفها في فرض نفسه على أهل الحل والعقد⁸، فإن غياب قاعدة محددة وواضحة لكيفية تولي الحكم، وتعدد الأمراء الناجم عن تعدد الزوجات، وتباين كفاءاتهم وطموحاتهم ومكانتهم، واعتياد السلاطين على تكليفهم بتسيير الولايات، قد زاد من تعقيد مشكل المشروعية.

أول محاولة لتقنين ولاية العهد

تولى أحمد المنصور السلطة استنادا إلى رغبة أخيه عبد الملك في انتقالها إليه، وكان عليه أن يواجه عشية معركة وادي المخازن، مناوئة بعض ضباط الجند، الذين نادوا بأحقية إسماعيل بن المعتصم، ومطالبة آخرين بتولية داوود بن عبد المومن⁹، وأن يحتاط من الترك المستعدين لدعمهما، ومن الإسبان المحتفظين بالأميرين الناصر بن الغالب والشيخ بن محمد المتوكل.

وبادر السلطان السعدي، تحت وطأة هذه الضغوط المسلطة عليه، إلى قطع الطريق على هؤلاء الطامحين، من خلال إقدامه على ترشيح ابنه محمد الشيخ المامون وليا للعهد، علما بأن القاعدة التي سنّها محمد القائم بأمر الله نصت على أحقية الأمير الأكبر سنا في الأسرة

⁷ مجهول، الرسالة الوجيزية إلى الحضرة العزيزية ... م.س.ذ.، ص. 28 وما تلاها.

⁸ لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة:

A. Laroui, *Les origines...*, op. cit., pp. 71-80.

⁹ أحمد الناصري، ن.م، ج. 5، ص. 66؛ عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان، هوداس، 1981، ص. 208. المجهول السعدي، تاريخ الدولة السعدية ... م.س.ذ.، ص. 102؛ خورخي دي هينز، وصف الممالك المغربية ... م.س.ذ.، ص. 190.

السعدية¹⁰. وعلى الرغم من إصرار الفشتالي على الربط بين مرض أحمد المنصور وبين حدث الترشيح، الذي تم حسب رأيه باقتراح من العلماء وبإلحاح منهم، وليس بإيعاز من السلطان الذي لم يقبل إلا بعد تردد، وعيا منه بحجم النازلة وما تستوجبه من استخارة الله، حتى إن العلماء لم يجروا على طرح الموضوع، بل انتدبوا رفيق والده مومن بن غازي العمري ليفاتحه فيه¹¹، فإن هذه الخطوة تثير مسألتين:

أولاهما أن موقف العلماء هو الذي يوحى بترددهم في اتخاذ قرار حاسم، يدركون جليا انعكاساته المحتملة على الإخلال بما سطره القائم بأمر الله، وما يواكب ذلك من إثارة الفتنة بالبلاد من منطلق قيام المطالبين بالعرش على السلطان، وهو ما حدث مع داوود بن عبد المومن.

وثانيتهما أن أحمد المنصور عرف كيف يستثمر العلة التي أصابته، والضغط الخارجية التي تعرض لها حكمه، في انتزاع موافقة من العلماء على تعيين ولي عهده، اقتناعا منه بأن تفويت هذا السياق قد يجعل الأمر مستعصيا عليه، إذا ما حاول انتظار فرصة أخرى من شأنها تقوية المتربصين بعرشه. وهو سلوك يجد تبريره في إقدام السلطان مباشرة عقب مبايعته بفاس على اصطحاب داوود بن عبد المومن معه إلى مراكش، بعد أن عقد له على مكناس، وترك من ينوب عنه، « حذرا مما تفرس فيه من الشواهد، وتوسم في أمره من المخايل... وأخفى عنه وجه الثقة موريا بأنه يحتاجه للنيابة عنه في قواد العساكر إلى السوس »¹². لكنه وضعه تحت مراقبته إيمانا منه بأنه أكبر أمير سعدي سنا بعده، كما يرتبط بالصدقة مع القائد أبي الفضل الغري الأندلسي الذي تعرض للنكبة، وبالنسب من أمه بوالي الجزائر حسن باشا. ولعل هذا النسب هو الذي يفسر عدم إقدام أحمد المنصور على التخلص منه أو سجنه، إذ فضل إثارة حفيظته من خلال حسم مشكل ولاية العهد، حتى يضمن توحيد الجبهة الداخلية ضداً عليه، ويظهره بمظهر الثائر على الشرعية، ويجنب البلاد تدخلا تركيا مكلفا.

¹⁰ عين القائم بأمر الله ابنه الأكبر أحمد الأعرج وليا للعهد ومحمد الشيخ خليفة له، لكن أحمد حاول تعيين ابنه زيدان وليا للعهد، فاندلعت حرب بين الأخوين انتهت بمقتل الأعرج، وتسمية عبد الله الغالب بن محمد الشيخ وليا للعهد الذي أقضى أخاه عبد الملك المعتصم، وعين محمد المتوكل خلفا له. أحمد الناصري، ن.م، ج. 5، ص. 71.

¹¹ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 54-55.

¹² عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 56.

وسارت الأمور على النحو الذي رسمه أحمد المنصور، إذ بمجرد المصادقة الأولى للعلماء على تعيين محمد الشيخ المامون وليا للعهد، أعلن داوود بن عبد المومن ثورته ضداً على عمه، ففر من مراكش إلى السوس، واعتصم بجبل هوزالة وهرغة، قبل أن يتجه صوب الصحراء الشرقية بهدف الاتصال بالترك، الذين عبروا له في رسالة بعث بها رمضان باشا عن دعمهم له. لكن انتهى المطاف به لدى عرب المعقل الذين قتلوه، وحظيت حركته التمردية بدعم واسع من قبائل سوس، ممن أسماهم الفشتالي بالخوارج والأوباش حديثي العهد بالطاعة، الذين تعرضوا لانتقام الجيش جزاء لهم على موقفهم¹³.

وما يستشف من ثورة داوود بن عبد المومن، أن هذا الأمير الذي لم يفر على شاكلة الناصر والشيخ بن المتوكل، بقي يمثل عبئاً سياسياً جاثماً على صدر عمه الذي عرف كيف يتخلص منه بواسطة اتخاذ مجموعة من الإجراءات التي أرغمتها على التمرد عليه، إذ مباشرة بعد زيارته الأولى لفاس خلف ابنه محمداً الشيخ المامون بها وهو مازال طفلاً صغيراً، وهو إجراء حاول من خلاله أحمد المنصور بالتأكيد، جس نبض ابن أخيه وكشف نواياه، لأنه جرت العادة أن يرمز المنصب إلى ولاية العهد. وبما أنه أثر انتظار ما ستؤول إليه الأحداث، عاد ليستفزه عبر استغلال مناسبة مرضه لإعلان ابنه رسمياً في ذلك المنصب، وهي المبادرة التي نجحت في إشعال فتيل التمرد.

ومما يؤكد هذا الطرح، قيام السلطان بعد نجاحه في إزاحة داوود، بإعادة مبايعة ولي عهده مصافحة بدعوى تأكد الناس من أهليته وأحقية¹⁴. غير أن هذه البيعة الثانية التي انعقدت بعد مدة وجيزة من التمرد، لا يمكن فهمها بمعزل عن رغبته في كسب الإجماع حول شرعية ولاية ابنه، والتنصيب على ضرورة ضبط نواميسها والمصادقة عليها حتى تطمئن النفوس، ويتم تجنب تكرار تمردات مماثلة تعود على البلاد بالفتن، فتمكن بذلك من الحفاظ على مشروعية سلطته، وضمان استمراريتها، دون إثارة زوابع من شأنها خلخلة حكمه الذي مازال في بداياته¹⁵.

¹³ ن.م، ص. 57-59.

¹⁴ ن.م، ص. 59.

¹⁵ أكيد أن الطريقة التي انتهى بها تمرد داوود بن عبد المومن، تؤكد مهارة أحمد المنصور الذي نجح في استبعاد تدخل تركي محتمل، من خلال عدم إقدامه على اغتيال ابن أخيه، وهو ما جعل مراد الثالث يبعث له رسالتين تعبران عن نيته في تبديد الشكوك، حول تورط واليه على الجزائر في دعم الناصر، فطلب منه في الأول إرسال من يحمل له إحدى بناته التي زوجها إياه، واقتراح عليه في الثانية تحالفاً عسكرياً ضداً على الإسبان، راجع:

وإذا كان أحمد المنصور قد تمكن حسب رواية الفشتالي من تخطي تمرد داوود بن عبد المؤمن بدون كبير عناء، فإن أخطر محك هدد مشروعية حكمه تجسد في ثورة ابن أخ آخر له هو الناصر بن الغالب بالله. فما هي الملابسات التي أحاطت بها وجعلته يتخوف منها غاية التخوف، على الرغم من اندلاعها خلال مرحلة شهد فيها حكمه أوج عظمته، وما هي التقاطعات التي جمعتها بثورة أحمد بن محرز؟

التصدي لأبناء الإخوة

ثورة الناصر

كان الناصر في حياة أبيه واليا على تادلة، وحينما تولى أخوه المتوكل السلطة، حاول الفرار عبر طنجة وفشل في ذلك، لينتهي به المطاف في السجن. ولم يطلق سراحه إلا بعد عودة عبد الملك وأحمد، لكنه فر عشية معركة وادي المخازن إلى أصيلا، وبعد الهزيمة اشترط المنصور على البرتغاليين ترحيله إلى بلادهم، فعبر البحر إلى لشبونة¹⁶. وهي رواية لا تتماشى مع ما أورده الإسباني دون خايم أولفير أسين Don Jaime Oliver Asin عن استعداد السلطان لمهاجمة مزكان، وعن تشدده في قضية افتداء الأسرى البرتغاليين بدعوى مطالبته بتسليم الأميرين مولاي الشيخ والناصر، بل أرسل مبعوثا إلى أصيلا لتحقيق ذلك، ونسب إليه تكليفه برتغاليا باغتيال الناصر مقابل مبلغ من المال، لكن وصوله تزامن مع نقل الأمير إلى لشبونة¹⁷.

ويبدو من خلال هاتين الروايتين، أن الطرح الثاني هو الأقرب إلى الواقع، نظرا لأن أحمد الذي كان يدرك خطورة فرار أمير من هذا الحجم، لن يلزم البرتغاليين بتخليصه منه بقدر ما سيسعى جاهدا إلى وضع اليد عليه، بدل جعله تحت إمرة أعداء لن يتوانوا في استخدامه ورقة ضغط للحصول على تنازلات. غير أن موقع الفشتالي كحافظ لأسرار مخدمه أوجب عليه من جهة، إظهاره في موقف قوة يمارس الكرم السياسي تجاه الخصوم، وأرغمه من جهة أخرى على التفاوضي عن فشله في القبض على الناصر¹⁸.

D. Cabanelas, « Proyecto de alianza... », *op. cit.*, pp. 66-72.

¹⁶ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص ص. 169-170.

¹⁷ محمد العربي الخطابي، « أمير سعدي في خدمة البلاط الإسباني », *مجلة المناهل*، ع. 14، 1979، ص. 54.

¹⁸ Ricard, *Le Maroc à la fin du XVI^e siècle...*, *op. cit.*, p. 195.

¹⁸ حرص الكتاب الذين اشتغلوا بصناعة التاريخ على تفهم قرارات السلاطين، وإن أدى بهم ذلك أحيانا إلى تحريف

مهما حدث من أمر، فلم يحض إلا وقت يسير على وصول الأميرين السعديين إلى لشبونة، حتى ضم فيليب الثاني البرتغال إلى إمبراطوريته، وتوجت إقامتهما هناك باتصالاتهما المتكررة بالملك الإسباني من أجل معرفة طبيعة وضعيتهما بصفتهم لاجئين، والكشف عن نواياه تجاههما، لكن انشغالات الملك بترتيبات إلحاق البرتغال، جعلته يماطل في اتخاذ قرار معين بشأنهما¹⁹. واستمر الوضع كذلك إلى غاية سنة 1589م، حين أقدم فيليب الثاني على نقلهما إلى الأندلس والفصل بين إقامتيهما²⁰، لكن الناصر واصل مراسلاته التي طالب فيها الإسراع بتقديم المساعدة إليه، من أجل امتلاك عرش المغرب²¹، والتمس في أولاها السماح له بالعودة، وألح على ذلك بدعوى أنه ورفاقه يشعرون بضيق نتيجة بعدهم عن أهلهم وذوهم، وبفعل الظروف المعيشية الصعبة الناتجة عن هزلة المنحة المقدمة لهم. كما عبر عن استعداده لخدمة صاحب الجلالة مقبلاً رجليه الملكيتين، بل إن دوق دي مدينا سيدونيا تودد إلى الملك لكي يبعث الأمير إلى جبل طارق أو إلى مالقة²². لكن فيليب الثاني استمر في سياسة التسويف في انتظار حصوله على رد بخصوص المقترحات التي قدمها لأحمد المنصور، والقاضية بحسن استقبال الناصر، وتسهيل ظروف إقامته، بل وتوفير كل شروط الرفاهية والراحة له، وتقديم ضمانات بعدم المساس به مادام أنه استجار بالملك الإسباني.

وقابل السلطان السعدي هذه المقترحات بتماطل كبير، دفع فيليب الثاني إلى التفكير في إرسال مبعوث رفقة أحد خدام مولاي الناصر، على عجل إلى مراكش، يحمل رسالة يطمئنه

بعض الحقائق التاريخية، ومؤلف مناهل الصفا لا يخلو من أمثلة في هذا الصدد.

¹⁹ رسالة من فيليب II إلى كونت Portalegre بتاريخ 11-3-1583: *Archivo General de Simancas*, S.E, leg 163.

²⁰ رسالة من فيليب الثاني إلى دوق دي مدينا سيدونيا بتاريخ 21-3-1589: *Ibid*, Legajo 166. وعن إقامة الناصر بالبرتغال، راجع مقالة شانثال دو لافيرون التي اعتمدت على أرشيف سيمانكاس: Ch. de la Veronne, « Séjour en Andalousie des deux princes saadiens après la bataille d'el-Qcar El Kebir (1589-1595) », in *R.O.M.M*, n° 7, 1970, p. 188.

²¹ بلغ عدد الرسائل التي بعث بها الناصر إلى فيليب الثاني إحدى عشرة رسالة، عشر منها موقعة بتوقيع عربي وواحدة موقعة من قبل قائده يوسف بن إبراهيم، ثمانية من هذه الرسائل توجد ب: Legajo 174، وثلاثة ب: Leg 170 انظر أيضاً:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 130.

²² رسالة الناصر إلى الملك الإسباني من Utrera بتاريخ 27-10-1593:

A. G. S. E. Legajo, 170.

رسالة من دوق مدينا سيدونيا إلى كاتب الملك Martin de Idiaquez بتاريخ 15-04-1595 من سان لوكار: Leg. 174.

فيها، ويحذره من مغبة مواصلة ربح الوقت²³. بيد أن أحمد المنصور فضل أن يبعث رسوله إلى الإسبان الذين فسروا المبادرة بكونها محاولة لإطالة أمد الحسم في الموضوع، وهو ما استوجب إرسال مبعوث سري للبت في القضية، وبعيته خطاب ابنه السلطان إلى ما يجب القيام به. وبالفعل أبلغه بالتسار بولو بالترتيبات الواجب اتخاذها إلى غاية إتمام عملية عبور الناصر²⁴، وبعث له تحذيرا نقله الذمي روتي Ruti²⁵، الذي أخبر المنصور بقرب توصله برسالة من فيليب الثاني تتعلق بظروف وصول ابن أخيه. بل أشار بالتسار في رسالة إلى دوق دي مدينا سيدونيا، بأنه طلب من الملك إخباره بتوقيت ذلك الوصول حتى يذهب لاستقباله²⁶.

وهكذا فبالرغم من أن فيليب الثاني سمح للناصر بمغادرة مدينة أوتريرا Utrera في نهاية سنة 1593م، فإنه رفض رفضا قاطعا أن يقدم له أي دعم مالي أو عسكري، بل حرص كل الحرص على إقناع السلطان السعدي بضرورة ضمان سلامته، ومنحه الفرصة للعبور عبر المكان الأكثر استقرارا، والذي يخلو من أي تهديد للطرفين. لأن على الناصر أن يدرك قبل خروجه ما على عمه أن يقوم به تجاهه، وعلى أحمد المنصور أن يرسل مبعوثا لمعرفة رده ويلتزم بما اتفق عليه²⁷.

وينم تباطؤ فيليب الثاني عن رغبة أكيدة في عدم إثارة غضب السلطان السعدي، الذي ظل شديد الحذر في مفاوضاته، إلى الدرجة التي اكتفى فيها بتلقي المقترحات دون تحديد موقف واضح منها. كما يكشف هذا التباطؤ عن تخوف الإسبان من أن يفضي الضغط عليه، إلى احتمال تدهور الأوضاع الأمنية بالمغرب، وفسح المجال لأعدائهم من الأتراك

²³ نسخة مما كتبه بالتسار بولو من مراكش بتاريخ 2-3-1594، وحول مفاوضات فيليب الثاني مع أحمد المنصور لحل مشكلة لجوء الناصر: *Ibid*, Leg. 174.

رسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى الملك من سان لوكار بتاريخ 25-01-1594: *Ibid*, Leg. 174.

رسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى بالتسار بولو بتاريخ 20-04-1595: Leg. 174.

²⁴ رسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى الملك من سان لوكار بتاريخ 29-04-1595.

ورسالة أخرى مماثلة بتاريخ 30-03-1594: *Ibid*, Leg. 174.

²⁵ نسخة رسالة بالتسار بولو إلى دوق دي مدينا سيدونيا من مراكش بتاريخ 04-06-1594: *Ibid*, Leg. 174.

²⁶ نسخة رسالة بالتسار بولو إلى دوق دي مدينا سيدونيا من مراكش بتاريخ 04-06-1594: *Ibid*, Leg. 174.

²⁷ ن.م.

ورسالة أخرى من دوق دي مدينا سيدونيا إلى فيليب II بتاريخ 30-11-1593: Leg. 170.
انظر موافقة فيليب الثاني على سفر الناصر إلى المغرب ضمن رسالة من الناصر إلى الملك الإسباني موقعة بالعربية بدون تاريخ: Leg. 174. ثم رسالة القائد يوسف بن إبراهيم إلى كاتب الملك، يطالبه فيها بتفعيل الحماس الذي أبداه دوق دي مدينا سيدونيا بخصوص عبور الناصر: Leg. 174.

والإنجليز أو الفرنسيين، للتدخل في شؤونه مستغلين ثورة الناصر. وهو الأمر الذي جعل دوق دي مدينا سيدونيا يلح على وجوب الحكمة والتعقل، من خلال إطلاع أحمد المنصور على تفاصيل التدابير المتخذة بخصوص عبور الناصر، وعبر تكثيف الاتصالات بين العم وابن أخيه للحصول على توافق معين، واعتبر أن أي تصرف آخر سيكون غير مناسب²⁸. بل أكد في رسائل أخرى أن أحمد المنصور أرضى فيليب الثاني غير ما مرة، فقد سلمه جثة دون سباستيان Don Sébastien، ورفض تقديم الدعم لأنطونيو، ولهذا لا يجب إثارة غضبه من خلال مساندة الأمير، بأي شكل من الأشكال التي يمكن أن تربكه، وأنه لا بد من معرفة الجديدي في رد أحمد المنصور قبل الإقدام على الترخيص للناصر بالسفر، ونفى للملك أية محاولة قام بها بلتسار بولو لمساعدة الثائر²⁹. لكن أكان فيليب الثاني يريد فعلا عدم التدخل في ثورة الناصر؟ أم أنه كان يسعى فقط إلى إبعاد أية شبهة علنية تثبت تورطه في دعم مكشوف لها؟ أم أن فشل مساوماته لأحمد المنصور هو الذي دفعه إلى الترخيص للناصر بالعبور؟

لم يتردد دوق دي مدينا سيدونيا، - وهو يخبر فيليب الثاني بأنه أبلغ السلطان السعودي، بما عليه من واجبات تجاه جلالته، وتجاه تسهيل مهمة عبور مولاي الناصر - في بحث سبل تقليص نفقات العبور وجعلها أقل كلفة، فراسل حاكم مالقة دون فرانسيسكو بيرديكو Don Francisco Verdugo لإعداد الترتيبات المزمع القيام بها لذلك، ونصح بلتسار بولو بعدم منح الرسالة حول موضوع العبور إلى أحمد المنصور، حتى يتسنى للناصر جمع الأعوان والمؤيدين. ثم عاد ليوجه له التعليمات بمنح رسالة الملك إلى أحمد المنصور، دون أن يحدد له مكان نزول الناصر إلى حين إتمام العبور في ظروف حسنة³⁰. بل سبق له قبل حوالي سنة أن طرح خيارات الأماكن التي يحتمل أن يصل إليها الثائر ومرافقوه، إذ اقترح وهران وملييلة وسبتة وطنجة، واشترط لبلوغ ذلك ضرورة توفير سفن سريعة وسهلة التجديف³¹.

²⁸ رسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى فيليب الثاني بتاريخ 25-01-1594: Leg. 174. وملخص لرسالتين أرسلهما بالتسار بولو من مراكش بتاريخ 27-08 و 23-09-1594 إلى دوق دي مدينا سيدونيا: Leg. 174.

²⁹ نسخة من رسالة دوق دي مدينا سيدونيا إلى بالتسار بولو بتاريخ 20-04-1595: Leg. 174. وأخرى منه إلى فيليب الثاني بتاريخ 19-01-1595: Leg. 174.

³⁰ رسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى فيليب II بتاريخ 29-4-1595 من سان لو كار: Leg. 174. رسالة أخرى مماثلة بتاريخ 19-01-1595. ونسخة رسالة منه إلى بالتسار بولو بتاريخ 20-04-1595: Leg. 174.

³¹ رسالة منه أيضا من سان لو كار بتاريخ 30-12-1594: Leg. 174. وراجع أيضا: A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp.126-8, 140.

وما يثير الانتباه، أنه في الوقت الذي كانت تجري فيه هذه المفاوضات، لم يذخر الإسبان جهداً منذ 1593م، في تكثيف عمليات تموين مليلية بالأسلحة والذخائر والمواد الغذائية، يطلب من حاكم المدينة ومن ضباط الجيش فيها، ومن نظرائهم في مالقة³²، وهي المعبر الذي سينطلق منه الناصر. مما يرجح علاقة ذلك التموين بتحصين الثغر خوفاً من احتمال تعرضه لردود أفعال معينة من الجيش السعدي. كما أن التحركات العسكرية داخل الموانئ المغربية كانت مراقبة بشدة، فقد أكد بالتسار بولو خبر وصول ألفي جندي إلى سلا والقصر وتطوان، على متن سفن السلطان. والظاهر أن هذا الوصول لم يرتبط فقط بالاستعدادات الجارية لممارسة نشاط الجهاد البحري بجزر الكناري³³، بقدر ما كانت له علاقة بالتداعيات التي قد تؤول إليها عملية عبور الناصر. وخضعت في الوقت نفسه السفن القادمة من تركيا لمتابعة دقيقة من قبل الجواسيس الإسبان، الذين كانوا لا يرون فيها إلا ثكنات متحركة محملة بالجيش³⁴. وبالرغم من الطابع المبالغ فيه لهذه الرؤية، فإنها تترجم حذر فيليب الثاني، من أي تأثير محتمل لعبور الناصر على سياسة التوازن، التي تعود أحمد المنصور نهجها تجاهه من جهة، وتجاه العثمانيين من جهة أخرى.

والجلي أن تعامل فيليب الثاني تراوح بين الإصرار على عدم حشر أنفه في دعم الناصر، من خلال مراهنته على انتظار ردود أحمد المنصور على اقتراحاته، وبين التلميح تارة أخرى بأنه أصبح مديناً بالاستجابة لهذا الأمير الذي استجار به، وألح عليه في إعادته إلى المغرب. وهكذا ورد في بعض الرسائل أنه لا يمكن الحصول على تنازلات أخرى من مولاي

³² رسالة من Antonio de Tezeda إلى فيليب الثاني بتاريخ 1593:

Archivo General de Simancas, Espagne
Seccion Guerra Antigua, Legajo 398, F° 18.

رسالة من قائد مليلية وضباطها إلى فيليب II بتاريخ 02-01-1594:

Seccion Guerra Antigua, legajo 398 F° 19.

رسالة من الضباط بمالقة إلى فيليب الثاني بتاريخ 12-01-1594:

Seccion Guerra Antigua, legajo 398 F° 72.

رسالة من الضباط بمالقة إلى فيليب الثاني بتاريخ 10-02-1594:

Seccion Guerra Antigua, legajo 398 F° 240.

³³ رسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى فيليب الثاني بتاريخ 19-01-1595 من سان لوكار: *Leg. 174 Seccion Estado* انظر أيضاً:

H. de Castries, S.I.H.M., 1^e série Ang., t. II, Paris, 1925, p.101, note 1.

³⁴ رسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى فيليب الثاني من سان لوكار بتاريخ 04-05-1994: *Legajo, 174* راجع أيضاً:

S.I.H.M., 1^e série, Ang., t.I, p. 188, et Fra., t. I, p. 103.

الناصر، أو الاحتفاظ به ضدا على إرادته، بل يجب بكل بساطة ترك الحرية له للعبور إلى المكان المناسب، شريطة إخبار السلطان بذلك. لكنه سرعان ما عاد ليؤكد بأن الأمير لن يعرف تفاصيل عن طريقة عبوره، على اعتبار أن ذلك سيتم وفق رغبة السلطان، التي لم يتم احترامها بعد أن أخبر الناصر دوق دي مدينا سيدونيا، بأنه التقى بالقائد الذي عينه فيليب الثاني لمساعدته على الرحيل³⁵، وكاتب الأمير الملك ليشكره على السماح له بالعودة، وطلب منه أن يكون ذلك سريا.

أما دوق دي مدينا سيدونيا، فعين السيد كُري كُوريو دي سلاس Grégorio de Salas سكرتيرا شخصيا للناصر، وعبر لفيليب الثاني عن رغبة سلاس في الاستغناء عن أية مساعدة منه، والإبحار إلى مليلية للتوقف بها لمدة شهرين، حيث الجبال المأهولة بالأمازيغ، واقترح عليه توفير أربع سفن لتحمل الثائر ومرافقيه المائة والعشرين، وأربعة عشر فرسا لينطلقوا من مالقة، باعتبارها المعبر الأقل طولاً وليس عبر قادس أو اشبيلية لكونه طريق التجار. واعتبر أن زعيم زاوية بهذه المنطقة يمكنه استقطاب الكثير من الأتباع، وكاتب بالتسار بولو ليخبره بأن الناصر راسل عمه أحمد المنصور، حتى يراعاه ويقدم له العناية الكافية، وصرح فيليب الثاني لدوق دي مدينا سيدونيا أنه من الضروري الالتزام بالرخصة التي منحت للناصر والسماح له بالعبور، لكن بسرعة وشريطة منعه من التحرك ضداً على عمه أو الكيد له³⁶.

³⁵ رسالة من بالتسار بولو من مراكش بتاريخ 20-07-1595: S. E Leg. 492

ونسخة رسالة مما كتبه بالتسار بولو في 02-03-1595: Leg. 174

ورسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى فيليب الثاني بتاريخ 19-1-1595، مصدر سابق، Leg. 174

ورواية لرسالة منه إلى الملك بتاريخ 04-3-1594، ولرسالتين من بالتسار إلى الملك بتاريخ 20-01-1594: Leg. 174

وأشار شالدانيا إلى أنه بعد هزيمة الأرمادا بعث فيليب الثاني إلى بالتسار بولو، ليخبر أحمد المنصور بأن الناصر يلح على العودة، وأنه لا يستطيع الاحتفاظ به طويلاً، فحاول المنصور إيهام الإسبان بأن زيارة المبعوث الإنجليزي Matias Becudo لا تهدف إلى دعم المطالب بالعرش البرتغالي، وهو ما يعني أنه أدرك منذ فشل حملة Drake على لشبونة، بأن الأمير البرتغالي لم يعد يمثل ورقة ضغط ناجعة على فيليب الثاني، واستمر في الاعتناء به من باب درء أي خطر محتمل للرمي بالناصر، راجع:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 136-40, 158-160, 166 ; H. de Castries, *S.I.H.M.*, 1^e série, Ang., t. I, Paris, 1918, p. 527.

³⁶ رسالة من الناصر إلى فيليب الثاني من Utrera بتاريخ 07-02-1594: Leg. 174

ورسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى الملك بتاريخ 28-08-1595 من سان لوكار: Leg. 174

ونسخة رسالة من فيليب الثاني إلى دوق دي مدينا سيدونيا من مدريد بتاريخ 20-12-1594. ثم نسخة رسالة دوق

دي مدينا سيدونيا إلى بالتسار بولو بتاريخ 20-04-1595: Leg. 174

وهو تذبذب يفسر حجم الضغوط التي مورست على أحمد المنصور، لإقناعه بقبول فكرة العبور، ولتبيد مخاوفه مما قد تسفر عنه من زعزعة للأوضاع، ويثبت أيضا مدى مراعاة الملك الإسباني، على توظيف الأمير ضداً على عمه للحصول على تنازلات من الأخير، لم ترد معلومات عن طبيعتها، باستثناء إشارة واحدة إلى ضرورة إرسال مبعوث في ظروف من السرية والكتمان، بهدف بعث روح جديدة في التجارة الإسبانية بالمغرب، مع مراعاة أن لا يؤثر عبور الناصر على ذلك³⁷. فهل فشل فيليب الثاني في الحصول على امتيازات تجارية، هو الذي دفعه إلى الرمي بالناصر؟

الراسخ أن الصفقات التجارية ألقت بثقلها، إلى جانب قضايا أخرى، على أشواط المفاوضات التي امتدت من 1593م إلى 1595م، خاصة وأن فتح السودان أسال لعاب التجار الإسبان، الذين ما فتئوا يطالبون بالاستفادة من ثروات الذهب والعبيد المتدفقة من كاو وتومبوكتو، والتي نالت حظا كبيرا في حيز المراسلات الرسمية الصادرة من المغرب³⁸، غير أن هذه المراسلات تم الحرص فيها عموما على تفادي الكشف عن المقترحات والردود، التي أبداها كل من أحمد المنصور وفيليب الثاني³⁹.

وإذا كان هذا الحذر، يجد تفسيره في تفشي ظاهرة التجسس على الطرود البريدية لدى كل القوى المتوسطة، فإنه حال دون إمكان تتبع مسار المفاوضات، أو حتى فهم الظروف المحيطة ببعض الأفكار الواردة في ثناياها. وفي هذا الإطار ذكر دوق دي مدينا سيدونيا أنه كتب إلى بالتسار بولو ليسأله إن كان لديه جديد؟ وإن كان سيطلب أموالا من أحمد المنصور؟ ثم ورد الحديث عن المفاوضات لعقد اتفاقية معه، وترويده بالبضائع والأموال

³⁷ نسخة رسالة مما كتبه بالتسار بولو في 2-3-1595، Leg. 174.

³⁸ رسالة من بالتسار بولو من مراكش بتاريخ 04-6-1594: Leg 174.

ورسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى الملك من سان لوكار بتاريخ 04-05-1595: Leg. 174.

³⁹ «إن الملك الشريف قد عرف ما عليه تجاه جنابكم، وما يمكن تقريره وفعله لتسهيل مهمة مولاي الناصر»، رسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى فيليب الثاني بتاريخ 1595: Leg. 174.

اعتاد الإسبان أن يوجهوا مراسلاتهم إلى المغرب ومنه، عبر قادس أو سبتة التي كانت تعتبر الأكثر أمانا، وحرصوا دوما على إرسال عدة نسخ من الرسالة الواحدة مرفوقة بالخواشي عبر مدن مختلفة لضمان وصولها، راجع: نسخة رسالة مما كتبه بالتسار بولو بتاريخ 2-3-1595، Leg. 174.

وأشار شالدانيا إلى أن أحمد المنصور اقترح على فيليب الثاني إنزال الناصر بحجر بادس، حيث يوجد زعيم زاوية مول له من شأنه أن يستضيفه، ويمهد له الطريق بعد عودته، راجع:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 204.

الكافية، لكنها تعثرت⁴⁰. غير أنه لم يتم تحديد دواعي تقديم طلب من هذا القبيل، أو مضمون المفاوضات الجارية بين الطرفين.

والواضح أن فيليب الثاني كان يبحث عن الاستفادة أكثر مما يمكن من ورقة الناصر، غير أن أحمد المنصور، وهو يعي ذلك، لم يتسرع في الالتزام بحل معين، بل ظل يماطل، ليس فقط في اتخاذ موقف صريح من عودة غريمه، ولكن حتى في إيفاد المبعوثين للملك الإسباني، الذي اضطر أمام تملص السلطان السعودي، إلى تعيين بالتسار بولو وسيطاً بينهما في انتظار تسمية سفير جديد له بمراكش⁴¹.

وتمخض عن صعوبة حصول توافق بين الطرفين، وعن الضغوط المتوالية للناصر من أجل السماح له بالرحيل، إقدام الإسبان في غياب أية مظلة رسمية من فيليب الثاني على تجهيز سفينتين محملتين بالقمح والشعير، انطلقتا من مالقة وعلى متنهما الأمير وحاشيته في اتجاه مليلية⁴². ولم يمض إلا أسبوعان على بداية العبور حتى كتب دوق دي مدينا سيدونيا إلى فيليب الثاني رسالة يلتمس منه فيها إبلاغ أحمد المنصور خطياً حفاظاً على العلاقات الودية معه، بأنه لم يقدم دعماً مالياً أو بشرياً لمولاي الناصر⁴³.

والواقع أن مبلغ مائتي دوق الذي تم إنفاقه على الرحلة، يقيم الدليل على غياب هذا الدعم، إلى الحد الذي اعتبره دوق دي مدينا سيدونيا هزيعاً جداً، أو أقل بكثير مما أمر فيليب الثاني حاكمه على مالقة بصرفه لهذا الغرض، لأن عملية من هذا الحجم تتطلب في رأيه مبالغ مالية باهظة⁴⁴. وهو ما يعني أن الملك الإسباني لم يرد التورط مباشرة في عملية الدعم، وخول حرية التصرف في ذلك لكبار موظفيه، أو أنه كان يدرك بأن أهم إنجاز يمكن أن يقدمه للأمير، هو إنزاله بالمغرب على أساس أنه سيلقى بدون أدنى شك مساندة من قبل السكان.

وجرت الأحداث باتجاه أكد التصور الأخير، إذ بمجرد وصول الثائر إلى مليلية، توجه رفقة مائة وعشرين شخصاً، واثنين وسبعين فارساً، إلى منطقة يقطنها الأمازيغ، واستقبل استقبالاً

⁴⁰ رسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى فيليب الثاني من سان لوكار بتاريخ 4-5-1594: Leg. 174

⁴¹ رسالة من أحمد المنصور إلى فيليب الثاني، مراكش بتاريخ 14 صفر عام 1003هـ، أكتوبر 1594: Leg. 174

⁴² نسخة رسالة من Julio Bautista de Miranda إلى دوق مدينا سيدونيا من إشبيلية بتاريخ 14-01-1595
Leg. 174

⁴³ رسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى فيليب الثاني من سان لوكار بتاريخ 24-05-1595: Leg. 174

⁴⁴ رسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى فيليب الثاني من مدينة الزهراء بتاريخ 05-06-1595: Leg. 174

حارا، واستطاع استقطاب حشد هائل منهم ومن العرب⁴⁵، حتى بلغ عدد مقاتليه عشرين ألفا وهو ما زال عمليية. بل إن الجميع كان يكن له احتراما، إلى درجة أن عددا من الأعيان وضعوا جزءا من ممتلكاتهم تحت تصرفه، وقدم له السكان مساعدات كبيرة، وراج أن وجهته ستكون العرائش. لكن الاستعدادات المكثفة لأحمد المنصور وابنه تركزت حول مدينة فاس خشية من دخوله إليها⁴⁶. وقد فسر الفشتالي أسباب اختيار مليية بعدها عن مراكز قوة المخزن، ويحذر الثائر من المباغلة بجيش قوي، وبالأستعداد الدائم وعبر التاريخ لسكان المناطق المجاورة للمدينة لإشعال نار الفتنة، وأخيرا بمراهنة الثائر على الاستنجاد بالأتراك في حالة إذا ما تم إرباك خطته⁴⁷.

والبين أن امتناع فيليب الثاني عن تقديم دعم عسكري للناصر هو الذي دفعه، وباتفاق معه على الأرجح، إلى الانطلاق من منطقة محتملة على اعتبار أنها أكثر أمانا، والطريق منها إلى فاس وعبر المسالك، مما يتيح له الفرصة لتعبئة الأتباع وتنظيم صفوفه، خاصة وأنه كان على اتصال ببعض الزعامات الدينية، أمثال زعيم زاوية دبدو ومرابط يدعى فارس الهنتاتي، وهو ما يوضح دواعي استبعاد مدينة العرائش، أو طنجة، كما كان المقدم أبو الليف يحث الناصر في المراسلات المتبادلة بينهما على الدخول عبرها⁴⁸.

وحرص فيليب الثاني في سياق هذه المستجدات المتسارعة، على مكاتبة السلطان السعدي ليشرح له الظروف التي تم فيها رحيل ابن أخيه إلى مليية⁴⁹، ورد أحمد المنصور قائلا: «... طالعنا ما ذكرتم عن ولد أخينا الخارج عمليية وعن أسباب خروجه، وحتى خديكم بلتزاربول ذكر لنا ما أمرتموه أن يثبه علينا وينهيه إلينا، وإلى هذا فها نحن أجبنه عن ذلك مشافهة

⁴⁵ كتب Antonio de Tezeda من مليية إلى دوق دي مدينا سيدونيا بتاريخ 20-05-1595: «أن مولاي الناصر تقدر معاملة حسنة كما أمر جلالة الملك، وأن إبعاده لم يكن ممكنا لأنه استطاع جذب العديد من العرب والأمازيغ في مكان يدعى Cangazan (! sic)»، مصدر سابق: Leg. 174. أعني ذلك أن فيليب الثاني كان ينوي فقط إبعاده، أم أنه كان على علم بأن الناصر قد هيا الأرضية وهو لاجئ، من خلال ربط صلات ببعض القوى المؤثرة في شمال المغرب؟ أم حفاوة الاستقبال ارتبطت بالتذمر من سياسة المنصور؟

⁴⁶ رواية أحد المغاربة الموجودين بـ Villa de Bezer بتاريخ 28-06-1595: Leg. 174.

⁴⁷ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 171.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 206, 256.

⁴⁹ رسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى فيليب الثاني من مدينة الزهراء بتاريخ 05-06-1595: Leg. 174. ورسالة من بالتسار بولو من مراکش بتاريخ 20-07-1595: S. E. Legajo 492.

وكلمناه بما عندنا مواجهة، ومن عنده إن شاء الله تتلقون ما لدينا وتقفون على ما عندنا»⁵⁰.

وإذا كانت هذه العبارات لا تفصح عما دار بين الرجلين من محادثات، فإنها تؤكد من جهة، أن عملية العبور تم بشأنها تبادل وجهات النظر بينهما، وأن الملك الإسباني تشبث من جهة أخرى، بإقناع أحمد المنصور بعدم وقوفه وراء عملية نزول الأمير، وهو ما تجسد في رسائله التي طالما أوضح فيها غياب أية مساعدة قدمت للناصر من قبل دوق دي مدينا سيدونيا⁵¹. لكن أنتم هذه الإشارة عن كون جوهر المفاوضات دار حول تخلص الإسبان من الأمير اللاجئ، مقابل التزام الحياد وعدم التدخل باعتبار أن الأمر شأن داخلي، وهو ما يفسح المجال للسلطان من أجل التفرغ لمواجهته؟ أم أن خطوة فيليب الثاني تعبر عن رغبته في الضغط على أحمد المنصور، ردة فعل على فشل الطرفين في التوصل إلى اتفاق، وعلى استقبال المنصور للأمير البرتغالي دون أنطونيو؟

مهما يكن من أمر، فالظاهر أن نزول الناصر لم يسفر عن تعكير صفو العلاقات المغربية الإسبانية، بدليل أن المراسلات استمرت على الوتيرة نفسها، مما يوحي بتفهم مواقف بعضهما البعض، وكأن القضية لا تعدو مجرد حدث عادي. غير أن واقع الحال أظهر مدى تخوف أحمد المنصور منها، على الرغم مما أبداه من لباقة دبلوماسية متناهية لغريمه فيليب الثاني، إذ كشف للسفير دا كوستا Da Costa⁵² عن رفضه لمقترحات دون كريستوف، وأمره هو بالتسار بولو بكتابة ذلك فوراً إلى مخدمهم⁵³.

⁵⁰ رسالة من أحمد المنصور إلى فيليب الثاني من مراكش بتاريخ 6 ذي القعدة عام 1003هـ: S. E. Leg. 492.

⁵¹ نسخة من رسالة دييغو مرين إلى دوق دي مدينا سيدونيا من مراكش بتاريخ 28 غشت 1595: S. E. Leg. 174. راجع أيضاً:

S.I.H.M., 1^e série, Fra., t. II, p. 215.

كانت إسبانيا منشغلة خلال صيف 1595م بالإنذارات المتكررة بخصوص احتمال هجوم عثماني بحري على أساطيلها. انظر:

F. Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen....*, op. cit., pp. 501-8.

⁵² كان سفيراً للكاردينال هنري ملك البرتغال، ثم احتفظ به فيليب الثاني ممثلاً له بالمغرب حتى قضى ما يقرب من ثمان سنوات بمراكش، رهينة مقابل المال الذي تم به افتداء 80 نبيلًا، إلى أن توفي بها سنة 1591. وتوجد العديد من المراسلات حوله في الوثائق الإسبانية، خاصة ما يتعلق بتصفية تركته بالمغرب. رسالة من بالتسار بولو إلى المغرب بتاريخ 30-01-1594: Leg. 174. وأخرى بتاريخ 20-01-1594: Leg. 174.

S.I.H.M., 1^e série, Ang., t. II, p. 252, note 1 ; A. de Saldanha, *Chronique....*, op. cit., pp. 124, 128.

⁵³ A. de Saldanha, *Chronique....*, op. cit., p. 160.

وتجسد تخوف السلطان في الإجراءات الوقائية التي اتخذها من خلال إغلاق الموانئ، وتعزيز القدرات العسكرية للقوات المرابطة بالقصبات⁵⁴، وإصدار الأوامر للثقة من قواده، بجمع فرسانهم في أجل لا يتعدى خمسة عشر يوما، واستدعاء كل الفرق التي كانت تحصل الجبايات، إلى درجة أنه حشد ثمانية عشر ألف جندي من العلوج والأندلسيين وشراكة، وعشرين ألف فارس، وكلف ابنه زيدان بنشر قوات بسجلماسة وتادلة⁵⁵. وخرج للاستقرار بمعسكره بتانسيفت، وفوض لابنه محمد الشيخ المامون تهيئ العدة والعدد لملاقاة الثائر، الذي نجح في ظرف وجيز في اكتساح مناطق شاسعة من جبال الريف، ودخل تازة وأصبح يهدد مدينة فاس، فسارع ولي العهد إلى الخروج إليه، وانتهت المواجهة بتراجع الناصر إلى خطوطه الخلفية ببني يزناسن نتيجة إصابته بكسر، فقرر أحمد المنصور التصدي له بنفسه. لكن ولده رفض ذلك وفقا لما أورده الفشتالي، بل رفض حتى الحصول على دعم عسكري منه، في ظل صعوبات تجسدت في خيانة شراكة وانضمامهم إلى صف خصمه، مما اضطره إلى إعادة ترتيب صفوفه، وإلى الزيادة في قيمة العطاءات، وهو ما شجع الناصر على المبادرة بهجوم على فاس انتهى بهزيمته، على الرغم من المساندة التي قدمتها قبائل الخلط، وعرب الغرب، والحياينة وغيرهم⁵⁶. وبذلك نجح ولي العهد في كبح جماح الثائر، بواسطة ثمانية آلاف من الرماة وعدد كبير من الفرسان، دونما حاجة إلى دعم عسكري كبير من أحمد المنصور، الذي بقي بضواحي مراكش يراقب تطورات الأحداث⁵⁷.

وشكل انتهاء ثورة الناصر بشرى لأحمد المنصور، الذي أعلن الأفراح لمدة ثلاثة أيام، وسجد مقبلا الأرض ثلاث مرات بعد وصول رأس المتمرّد، وجلس بفسطاطه يستقبل المهنيين، ووزع الأعطيات بكل سخاء على الجنود، وأرسل وفدا لمشاركة ولي عهده في

⁵⁴ رسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى فيليب الثاني من سان لوكار بتاريخ 2 و9 يوليوز 1595: Leg. 174

⁵⁵ A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 206

⁵⁶ حول تفاصيل المواجهة بين محمد الشيخ المامون والناصر، راجع: عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص 171-178. A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 208-10, 216, 224.

⁵⁷ رسالة من بالتسار بولو إلى فيليب II من مراكش بتاريخ 20-02-1596: *Archivo General de Simancas, Espagne, S. E. Leg. 492* وحسب شهادة Alvaro Figuera فإن الناصر تعرض لخيانة أحد قواده ويدعى سفيان، وأن نجاح محمد الشيخ المامون في القضاء عليه ارتبط بفرق الرماة التي وصلت من مراكش. تصريح قدمه ألفارو فيكيروا، العائد من طنجة، بسان لوكار بتاريخ 17-08-1595: Leg. 174. وفي رسالته إلى العالم البكري، اعتبر أحمد المنصور أنه بقي مطمئنا، وولي عهده هزم الناصر « في خاصة جيوشه وأجناده »، عبد الله كنون، رسائل سعدية...، م.س.ذ.، ص. 57.

الاحتفال بهذا الإنجاز العسكري الهام⁵⁸.

ويعبر هذا الموقف بما لا يدع مجالا للشك، عن هاجس التخوف الذي انتابه لمدة سنة كاملة، وجعله يعيش تحت نير الإشاعات التي كانت تتناقلها الألسن حول تضاعف عدد أتباع ابن أخيه، وانسحاق سكان المناطق الشمالية وراءه، وما واكب ذلك من انعدام الأمن في الطرق، ومن عزوف مجموعة من القبائل عن دفع الضرائب، الشيء الذي كشف عن هشاشة الأوضاع، واضطره إلى بذل كل الجهود لطمأنة النفوس طيلة مدة التمرد، ولإعادة الأمور إلى سابق عهدها بعد انتهائه، حيث أمر ولي عهده بتحصيل الغرامات في منطقة تامسنا، وابنيه زيدان في تادلة، وأبي فارس في سوس⁵⁹. ويدل هذا الإجراء على ما اعترى خزينة المخزن من عجز كبير، لم تتوصل معه بموارد مالية مقابل إنفاقات ضخمة همت بتجيش الجيوش.

واللافت للنظر أن صور ثورة الناصر في الوثائق الإسبانية ظهرت أقل تأثيرا على استقرار حكم أحمد المنصور، الذي بدا واثقا من نفسه وغير متأثر إلى حد كبير بما حدث، وهو ما علق عليه أحد الإسبان الذي كان أسيرا بفاس إبان الثورة بقوله: « لحد الآن لم تظهر أية حركة، وأي تغيير في المغرب ذي بال، وعلى العموم فإن أحمد المنصور جد مطمئن كما يمكن أن يفهم مما حصل »⁶⁰. بالرغم من أنه أشار إلى حدوث اضطرابات بفاس خلفت ألف قتيل خلال ليلة واحدة، في إشارة على ما يبدو، إلى ما أورده الفشتالي حول استغلال أولاد حسين غياب محمد الشيخ المامون لقطع السبل⁶¹. أيعني هذا أن الإسبان كانوا ينتظرون ثورة شاملة تأتي على حكم السلطان السعدي، فجاءت نظرتهم إلى ما حدث أكثر استخفافا؟ أم أنهم كانوا يدركون قدرة أحمد المنصور على الظفر بالناصر في غياب أي دعم عسكري ومالي من قبل فيليب الثاني⁶²؟

⁵⁸ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 175-177.

⁵⁹ أقدم المنصور خلال الهجوم الأول على الناصر، على قراءة رسالة ابنه محمد الشيخ المامون علانية، حتى يطمئن الناس. كما نصح الباشا مصطفى المامون بضرورة إلقاء خطاب في أوساط الناس ليقص من حجم الثورة ويهدئ نفوسهم، راجع:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 210, 236, 240.

⁶⁰ تصريح لإسباني يدعى Julio de Abiles الذي فر من فاس عائدا إلى إسبانيا عبر سبتة: Leg. 174 ورسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى فيليب الثاني بتاريخ 09-07-1595 من سان لوكار: Leg. 174.

⁶¹ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 176.

⁶² يتفق Treillaut في تحديد أسباب فشل ثورة الناصر، مع ما أورده الوثائق الإسبانية، عن غياب دعم فيليب الثاني له، راجع:

طغت صور الاطمئنان نفسها على مراسلات أحمد المنصور لكبار باشاواته بالسودان، إذ سارع إلى زف البشرى لهم لتهدئة خواطرهم، ولنزع الشكوك من صدورهم، فحرص على سرد مراحل النزاع مع ابن أخيه منذ نزوله بثغر مليلية. بل برر لهم دواعي خروجه في محله بتانسييف بالاطلاع فقط على أخبار ولده، ووعدهم بإرسال العساكر والمؤن، وأثنى على موقف سكان فاس وبقائهم على العهد، من خلال عدم اكترائهم بما حدث، مما أفشل محاولات المتمرذ الرامية لاستمالتهم⁶³.

وهي محاولة جلية لتحجيم الثورة، وللتخفيف من وطأتها على الأمن بالبلاد، وللتقليل من انعكاساتها التي خلخلت كيان المخزن، وكشفت عن نقائصه، وذلك من خلال ربطها بحلف الصليب وحزب الشيطان وملة الشرك لتعبئة الجبهة الداخلية، وكأن الأمر يتعلق بواجب جهادي. ولعل في اختيار ولاية السودان وسكان فاس أكثر من دلالة على فزع السلطان، من أن يؤثر تضارب الأخبار عما أحدثته الثورة من زعزعة على الوضع بمنطقة حيوية للحصول على الذهب والعبيد، لم يكن قد استتب بعد أمر غزوها.

والأكيد أن بقاء أحمد المنصور بمحله خارج مراكش على أهبة الاستعداد، يصب في اتجاه مراقبة ما يجري جنوبا وشمالا، حتى لا يستغل المتربصون حدث التمرد لقطع شرايين التجارة الصحراوية، بل إن وعده بمد السودان بالرجال والمؤن، لا يمكن فهمه إلا في سياق رغبته في الاحتفاظ بأجود عناصر جيشه، في انتظار ما ستؤول إليه الأحداث بالشمال. وتندرج مكاتبة سكان فاس في إطار أهمية أعيانها من شرفاء وعلماء في ضمان استمرارية حكمه، وليؤكد لهم أنه مازال يتحكم في المبادرة السياسية، حتى لا يندفعوا بالمكاسب المتسارعة التي يحققها الثائر⁶⁴.

وفي الوقت الذي بدا أحمد المنصور في مراسلاته، وكأنه بمنأى عن التدخل المباشر في ما حدث بفاس، احتفظت المصادر المغربية بما يشير إلى هول الثورة عليه، حين «سمع... بخبر الناصر أحزنه أمره وتخوف منه غاية؛ لأن الناصر اهتز المغرب لقيامه، وتشوفت له العيون لميل

I.H.M., op. cit., p. 215.

⁶³ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 183-186.

⁶⁴ حرص أحمد المنصور على مكاتبة باشاوات السودان وأهل فاس، في الشهر نفسه الذي حقق فيه ابنه النصر الأول على الثائر، وكان لهذه المكاتبات وقع كبير على سكان المناطق المواجهة إليها، إذ وضعت حدا لانتشار الشائعات راجع مثلا، رسالته إلى سكان فاس، التي يدعوهم فيها إلى توحيد الصفوف، وقراءة الرسالة بالمسجد الجامع علاوة عبد الله كنون، ن.م، ص. 204.

القلوب عن المنصور لشدة وطأته واعتسافه للرعية...»⁶⁵. إذن فالاستجابة الواسعة للثورة كامنة في الأسلوب الذي كانت تدار به شؤون البلاد، مما جعل السكان يتطلعون إلى أية فرصة للانفلات من تبعاته، حتى لاحظ شالدانيا بأن المشاركة في الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة القضاء على الناصر تمت على مضض؛ لأن الناس كانوا يطمحون إلى تغيير الأوضاع، وهو طرح يتناقض مع ما أورده الفشتالي، حول تعالي أصوات الدعاء والخشوع بالمساجد حمدا لله على ما آل إليه التمرد، وحول الإلقاء باللائمة على فيليب الثاني، بل والوعيد برفع راية الجهاد لاسترجاع الأندلس⁶⁶.

ثورة أحمد بن محرز

كان على المولى إسماعيل أن يواجه عشية تنصيبه ثورة ابن أخيه أحمد بن محرز، الذي كان نائبا للمولى رشيد على مناطق شاسعة بالسوس والصحراء والشرق، وأحسن السيرة، فالتف حوله أهلها وبايعوه بمراكش، فسارع السلطان بعد أسبوعين من توليه دفة الحكم، إلى تجهيز حركة توجت بدخوله المدينة وفرار الأمير المتمرّد، وبالصفح عمن ساندته⁶⁷.

وتجد تلك السرعة تبريرها في الأهمية الإستراتيجية لتلك المناطق المستمدة من غناها ومن قربها للترك، ومن كونها امتدادا للأسرة العلوية، ومن اشتداد شوكة أحمد بن محرز وتقوي نفوذه بها، حيث أضحى يتحكم في مجال واسع يمتد من جنوب نهر أم الربيع إلى الصحراء التي قرر المولى إسماعيل قتال أهلها. لكن بلوغ خبر اغتيال سكان فاس لقائدهم زيدان بن عبيد المالكي، دفعه إلى تأجيل حملته، والقفل راجعا لمحاربة أهل فاس الذين اتصلوا بأحمد بن محرز وناصروه، وقد نزل بدبدو واتفقوا معه على لقاء وفد منهم بتازة، التي عرج عليها السلطان وحاصرها، ففر ابن أخيه نحو صحراء درعة، ليدخل مراكش ويحصل على بيعة أهلها للمرة الثانية. ثم عاد المولى إسماعيل فهزمه بمعركة أبي عقبة عند وادي العبيد،

⁶⁵ محمد الإفرائي، نزهة المخادي...، م.س.ذ.، ص. 101. «أجاب أهل الغرب ثورة الناصر لمحبتهم في والده، وخاف منه مولاي أحمد خوفا عظيما...»، المجهول السعدي، ن.م، ص. 103.

⁶⁶ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 178-179، 187.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 234.

حول استئصال السكان لحكم المنصور انظر: رسالة من بالتسار بولو من مراكش بتاريخ 20-07-1595:

S.E. Leg. 492.

⁶⁷ عبد الكريم الريفي، ن.م، ص. 160؛ محمد القادري، نشر المثاني... ج. 2، ص. 201؛ أحمد بن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 38-45.

وتحصن الثائر بمراكش قبل أن يفر منها ويحتمي بتارودانت، ويسيطر على عدد من أقاليمها إلى الساقية الحمراء، ليوافقه عمه في مجابهات عسكرية دامية ثبت أن لصاحب الجزائر يدا فيها، انتهت بتوقيع الصلح بين الطرفين على أساس رجوع المتمردين عن غيه. غير أنه ما لبث تلقى دعماً عسكرياً من المولى الحزان عامل سجلماسة، فأصبح السلطان يواجه أخاه وابن أخيه، وعاد من جديد إلى تارودانت، ونجح في التضييق على المتحصنين بها، وفي نيل طاعة أهل سوس، فغادرها أحمد بن محرز خفية ليقتل على يد جماعة من زيرارة، اعتقاداً منهم بأنه قائد من قواده⁶⁸.

وهكذا أخذ تمرد أحمد بن محرز حيزاً كبيراً من جهود المولى إسماعيل، الذي اضطر وهو في المراحل الأولى لتهدئة البلاد، إلى التوفيق بينه وبين التمردات المندلعة في مناطق أخرى. ولعل هذا ما يفسر لنا طول أمد حركته التي استفادت بالأساس، من كثرة الأتباع بقاعدته الخلفية بسوس وبمراكش، ومن استياء بعض الجهات من سياسة السلطان، ومن عزم الثائر وإصراره على استثمار ظروف تولية السلطان الجديد، ومن انشغالات الأخير المتعددة لإرساء دعائم حكمه في التحرك بسرعة من الشمال إلى الجنوب. وأدى هذا المخاض إلى إرهاق الطرفين، وجعل من الصعب حسم الصراع لفائدة أحدهما، إلى درجة أن أحمد بن محرز، « تمكن في الملك أنى تمكين، وقدمت عليه الوفود في الساعة والحين »⁶⁹. كما استطاع أن يوظف بمنطقة نفوذه تجربته الإدارية وهيمته على شرايين التجارة الصحراوية، في إثارة صعوبات حقيقية للمولى إسماعيل، الذي أرغم على ملاحظته أينما حل وارتحل، إدراكاً منه لخطورة ثورته التي ارتكزت على مقومات مماثلة لتلك التي أوصلته إلى السلطة، والمستوحاة من النسب الشريف، ومن ركوب سلم المغامرة وحسن التدبير. فهل من مقارنة بين هذه الثورة وبين ثورة الناصر بن الغالب؟

آية مقارنة بين الثورتين

ما تكشف عنه تلك المقارنة، هو أن الثورتين معاً قادهما ابن أخ كل سلطان منهما، مما يحيلنا، كما سنرى لاحقاً، إلى الثقل الذي كان يجثم به مشكل أحقية كل أمير في المطالبة

⁶⁸ عبد الكريم الريفي، ن.م، ص ص. 162، 167، 170؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 6، ص ص. 38-45، 71، 76، 166، 171-197، 199.

⁶⁹ عبد الكريم الريفي، ن.م، ص. 160.

بالعرش، كلما لمس في نفسه القدرة على دخول رهان التسابق حوله، نظرا لغياب قانون مضبوط لانتقال الحكم، ولشعور كل أمير بالحيث وهو يرى حكم البلاد يتداول مثلاً، في حالتي الناصر وأحمد بن محرز بين أعمامهم، اللذين لم يترددا في تهية السبيل لانتقال الأمر من بعدهما إلى أحد أبنائهما، وهو ما يؤكد النية في إقصاء فرع داخل الأسرة الحاكمة لترسيخ فرع آخر، ولهذا نفهم لماذا ثار أيضاً داود بن عبد المومن على السلطان السعدي، ومولاي العربي على السلطان العلوي وكلاهما إبن أخويهما.

وعلى الرغم من أن ثورة الناصر دامت سنة واحدة، وثورة أحمد بن محرز حوالي أربع عشرة سنة، فإن وقعهما على أحمد المنصور والمولى إسماعيل كان كبيراً، إلى الحد الذي تحول فيه هاجسهما إلى كابوس لازم مخيلتي السلطانين، واحتل مكانه في أحلامهما التي تحولت إلى بشرى، أراحت الغم الذي ألقى بثقله على صدريهما⁷⁰.

انطلق الناصر من الشمال مدفوعاً بشكل أو بآخر من قبل قوة خارجية متربصة بالمغرب، وأعلن ثورته في مرحلة كان فيها أحمد المنصور قد نجح إلى حد بعيد في إرساء دعائم حكمه. بينما اتخذ تمرد أحمد بن محرز من البيت العلوي منطلقاً له، ومن الجنوب والشرق مجالا لتحركاته، ومن الدعم التركي حافظاً له، وتزامن مع بيعه المولى إسماعيل الذي كان لا يزال يبحث عن استكمال الإجماع حولها، ويعمل على ترتيب جبهته الداخلية، الأمر الذي يفسر لنا نجاح السلطان السعدي في قطع دابر ابن أخيه ميدانياً، وفشل خلفه في ذلك بدليل تباين الروايات حول طريقة وفاة أحمد بن محرز⁷¹.

لقد لقيت الثورتان استجابة كبيرة من قبل السكان، إذ استطاع الناصر أن يجمع حوله وفي ظرف زمني وجيز، عدداً هائلاً من الأتباع، وتمكن أحمد بن محرز من كسب ولاء مناطق شاسعة مر منها خلال جولاته العسكرية، بل تمكن من نزع بيعة أهل فاس عن عمه لمدة فاقت السنة.

وبما أن هذا الإقبال على ثورة الناصر، يفسر حسب الإخباريين بالسياسة التعسفية لأحمد المنصور، التي جعلت الناس يترقبون الفرصة المواتية للخلاص منها، فإن الانخراط الواسع

⁷⁰ حول علاقة الرؤى بالثورتين، يمكن الرجوع إلى الفصل الأول من هذه الدراسة.

⁷¹ تأرجحت الروايات بين تورط الروسي في اغتياله غدراً من قبل أولاد جرار، وبين الخطأ في تحديد هويته، راجع: عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م.س.ذ.، ص ص. 152-153.

في تمرد أحمد بن محرز، يجد تبريراته بالأساس في معضلة المشروع، التي كانت تستغل في جميع الحالات، بما فيها حالة الناصر، كمطية من قبل الفئات التي فقدت امتيازاتها في ظل النظام الجديد، أو تلك التي تطلعت من خلاله إلى الحصول على مكاسب تعذر تحقيقها في عهد الحكم السابق. وعبرت عن هذا التضارب في المصالح أحداث الحيانة المسجلة إبان هاتين الثورتين، فقد تخلت فرق شراكة عن محمد الشيخ المامون، وانضمت إلى صف غريمه في أخرج اللحظات، وكشف المولى إسماعيل إرادة عمر البطوئي، وأنصاره من أهل الريف في خيائته والانضمام إلى معسكر خصمه فأمر بقتلهم جميعاً⁷².

وخلفت الثورتان خسائر بشرية فادحة، فمعركة الركن تركت ثلاثة آلاف قتيل من شراكة فقط، ومعركة تاكات أسفرت عن خمسة آلاف قتيل في صفوف الناصر، وألقي قتيل في صفوف جيش محمد الشيخ المامون. وأفضت مواجهة واحدة بين المولى إسماعيل وأحمد بن محرز، إلى قتل عدد كبير من الفريقين؛ «فمن محلة السلطان سبع عشرة مائة ممن حمل على النعش، دون من حمل في حصير أو غيره من أهل البادية... ثم وقع قتال أكثر من المرة الأولى... حتى جرح السلطان، وجرح مولاي أحمد، وعظم الأمر وكل الفريقان»⁷³.

ولم تقف الخسائر عند حدود المعارك بين الطرفين، بل امتدت لتشمل ردود أفعال السلطانين تجاه القبائل التي قدمت الدعم لخصميهما، إذ أوقع أحمد المنصور بعرب الغرب وبزوايا وسكان الريف، جزاء لهم على وقوفهم إلى جانب الناصر، وعملصهم من الضرائب طيلة ثلاث أو أربع سنوات. كما انتقم المولى إسماعيل من الشياظمة ومن أهل أنكاد، واستباح مراكش حين دخلها للمرة الثانية⁷⁴. والمثير للانتباه أن كلا الثائرين، على الرغم من اختلاف نقط انطلاقهما، قصدا زواوية دبذو وأهل الشرق والريف حيث حصلا على كل أشكال المساندة⁷⁵.

⁷² عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 175؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 75؛ عبد الكريم الريفي، زهر الأكم...، م.س.ذ.، ص. 162.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 212, 216.

⁷³ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 170. وراجع:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 220 ; S. I. H. M. 1^{re} série, Fra., t. II, p. 224.

⁷⁴ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 191. ثم مجموع مخطوط، خ. ع. رقم 2286 ك، ص. 152؛ عبد الكريم الريفي، ن.م، ص. 156، 162. ثم ملخص رسالة من ديبكو مرين من مراكش مؤرخة بسنة 1597: 179 S. E. Leg.

⁷⁵ لقبهم عبد العزيز الفشتالي « بالعرب الأجلاف... المسخطين الدول في الحديث والقديم، بالسعي في الفساد والخفوف إلى القيام مع أول ناعق ينطق بالفتنة من الثوار... » مناهل الصفا...، م.س.ذ.، ص. 171. وحول دعم زواوية

ومن هذا المنطلق، أُلقت هاتان الثورتان بظلالهما على علاقات المخزن بالمجتمع، في سياق تباین مواقف القبائل والمدن من زعمائهما، فأحدثتا شروخا في جسر الثقة بين السكان، وولدت أحقادا في أوساط المتضررين منهم، وشعورا باليأس في صفوف الطامحين إلى التغيير. فبعد موت أحمد بن محرز بايع أهل تارودانت المولى الحران، الذي اعتصم وراء أسوار المدينة، إلى أن عفا عنه أخوه المولى إسماعيل، بل سبق لهذا الأمير أن تحالف مع أخويه مولاي هاشم، ومولاي أحمد، ومع ثلاثة من أولاد عمهم ضدًا على السلطان بدعم من قبائل آيت عطا⁷⁶.

وهي تمردات تترجم حجم المعارضة القوية التي واجهت المولى إسماعيل مقارنة بسلفه، والتي يمكن فهمها في إطار سعيه الحثيث لاحتكار موارد المناطق ذات الأهمية الاقتصادية الحيوية، وما تلاها من مواقف الفئات المستفيدة من أنشطتها، خاصة أن الفترة شهدت تراجعاً في تجارة القوافل، وصراعاً تركيا مغربياً مريراً حول طرقها، يجد تبريره في وقوف حكام ولاية الجزائر وراء جل الثورات التي اندلعت في وجه المولى إسماعيل، وبالنحوص تلك التي قادها أحمد بن محرز. في حين أسفرت عملية فتح السودان خلال عهد أحمد المنصور، عن تدفق شحنات هامة من الذهب خففت من ضغط المخزن على الممرات الجنوبية الشرقية.

وتأكد طغيان هاجس المشروعية على المخزن المغربي في اشتعال التمردات من قبل أقرب المقربين، إذ لم يتردد حتى أبناء السلاطين في الخروج عن الطاعة، وهكذا ثار محمد الشيخ المامون ضدًا على أبيه أحمد المنصور، وأعلن محمد العالم عصيانه للمولى إسماعيل. فما هي الظروف التي أحاطت بالحدثين؟

في مواجهة الأبناء

تمرد محمد الشيخ المامون

يعتبر محمد الشيخ المامون أبرز أبناء أحمد المنصور، الذي أنجبه من جارية سوداء تدعى الخيزران أو لالة جوهر، وأخذ له ولاية العهد على ثلاث مراحل، الأولى خلال مرضه بعد

دبدو للثائرين، راجع: عبد الرحمن ابن زيدان، *المنزع اللطيف*...، م.س.ذ.، ص. 147.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 206.

⁷⁶ عبد الكريم الريفي، ن.م، ص. 171؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 122؛ محمد القادري، نشر المطاني...، م.س.ذ.، ج. 2، ص. 252.

سنة من توليته، والثانية مصافحة ببسيط تانسيفت بحضور المامون، والأخيرة ببسيط تامسنا بحضور إخوته. وتركه وهو مازال حدثا تحت وصاية القائد إبراهيم السفياي بفاس، لتدريبه على شؤون الحكم، إلى أن اشتد عوده فأمر القائد بمرافقته إلى مراكش. وأبانت هذه التدابير منذ البداية، عن عزم السلطان الأكيد على تهيئة ابنه لخلافته، إذ لم يذخر وسعا في تفويضه حرية تسيير منطقة نفوذه، ولم يغادر فاس إلا بعد أن ساعده على الاستئناس بأعباء السلطة وقتواتها، فكان يجلسه إلى جانبه في كل المناسبات، وينيبه عنه للبت في المظالم، والنظر في قضايا الناس، ويشاوره في عدة أمور⁷⁷.

لكن محمدا الشيخ المامون لم يكن في مستوى تطلعات أبيه، إذ أجمعت المصادر، باستثناء مناهل الصفا، على سوء أخلاقه وسلوكاته المنحرفة من قبيل الفسق والغدر وسفك الدماء، والإدمان على الخمر والحشيش والولع بالصبيان، وإهمال أمور الدين، وأكل أموال الناس⁷⁸. وأسفرت سياسته الضريبية المجحفة، التي تحولت حسب شالدانيا، إلى عمليات نهب وسلب، عن تعاظم شكاوى سكان فاس الذين اضطروا أمام إغلاق باب الإنصاف في وجوههم، إلى الإكثار من الكتابات لأحمد المنصور طلبا في رفع التجاوزات التي كانت تطولهم، والذي وعدهم في رسائله الجوابية بزيارة قرية لهم حالما تسمح الظروف بذلك. بل بلغ الأمر بالسكان إلى ترصد بعض مبعوثي المخزن بمقرات إقامتهم بجامع القرويين، لتقديم احتجاجاتهم لهم⁷⁹.

⁷⁷ عبد العزيز الفتتالي، ن.م، ص. 55، 59، 66، 81، راجع أيضا:

S.I.H.M., 1^{re} série, Ang., t. II, p. 266.

« كان للمنصور اعتناء تام بولي عهده، واهتمام عام بشأنه، حتى قيل إن المنصور لا يختم على ربيعة من المال، إلا قال جعل الله فتحها على يد الشيخ، رجاء أن يقوم بالأمر بعده ويسوس الرعية مثله ». محمد الإفرائي، نزهة الحادي... م.س.ذ.، ص. 173، 181. وأشار ديكو مرين Diégo Marin في إحدى رسائله، إلى أن أحمد للمنصور أرسله إلى محمد الشيخ المامون، للتفاوض معه في عدة قضايا تتعلق بالعلاقات المغربية الإسبانية. رسالة من ديكو مرين إلى دوق دي مدينا سيدونيا بتاريخ 28-8-1595: Leg. 174.

أشار أحمد المنصور في رسالته إلى إليزابيث، أنه سيجيبها بالرد بعدما يستشير ابنه محمد الشيخ المامون، بخصوص موضوع دون انطونيو، راجع: محمد بن تاويت، « وثائق سعودية لم تنشر »، مجلة تطوان، العددان 3 و4، 1958-1959، ص. 55-56.

⁷⁸ المجهول السعدي، ن.م، ص. 69؛ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 179، راجع أيضا:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 144 ; *S.I.H.M.*, 1^{re} série, Ang., t. II, p. 330.

⁷⁹ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 179. رسالة أحمد المنصور إلى سكان فاس، عبد الله كنون، ن.م، ص. 202-205. A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 284, 288, 296.

وحاول أحمد المنصور بشتى الوسائل إعادة ابنه إلى جادة الصواب، فكتبه عدة مرات، لكن خطابه لم تجد أذانا صاغية لديه، إذ استمر في انحرافه، حتى إنه دس السم للقائد إبراهيم السفياي الذي كان ينصحه. فأعد السلطان العدة للزحف على فاس، ثم تراجع بعد أن بلغه عزم المتمرد التوجه إلى أتراك تلمسان. كما ولاه سجلماسة ودرعة لكنه رفض الالتحاق بهما، وتوسطت له أمه لدى السلطان ليعفو عنه، فأبدى موافقته على الرحيل، وراسل أباه بذلك، لكنه سرعان ما قفل عائدا إلى فاس⁸⁰.

واحتد الخلاف بين الطرفين، حين طلب السلطان من ابنه إرسال الباشا مصطفى إلى مراکش فامتنع، ثم بعث له أمه لالة جوهر وأم أبي فارس رفقة وفد ضم القائد عزوز وفقهين، لنصحه بضرورة الانصياع لأوامر أبيه، حتى يبدد الاتهامات الرائجة عن عصيانه، ويؤكد طاعته لوالده. ونتيجة لاستمراره في غييه، أصدر السلطان أوامره لقائد القصر الكبير بتعزيز المراقبة على مدينة العرائش، وخرج بمحلتة خارج مراکش. وبعد أن وصلت أنباء عن اغتيال الباشا مصطفى، كلف القائد مومن بوكرزية بالذهاب إلى فاس لتعويضه. لكن تدابير لم تلق ترحيبا في أوساط جيش محمد الشيخ المامون، الذي أمر بوكرزية بالعودة من حيث أتى، وهو ما خلف استياء كبيرا لديه ولدى أحمد المنصور، الذي بادر من جديد إلى إيفاد عاملين آخرين، لاستفسار ابنه حول حقيقة ما دار بينه وبين القائد بوكرزية، ولإصلاح ذات البين بينه وبين أخيه زيدان.

وآلت زيارتهما إلى الباب المسدود، غير أنها مكنتهما من نقل صور التجاوزات التي عايناها بفاس، ومدى إصرار ولي العهد على التمادي في سياسته. فقرر السلطان عقد مجلس شورى مع كبار ثقائه للنظر في المعضلة، تم الاتفاق فيه على إرسال القائد عزوز للتوسط في الموضوع بمعية عدد من الفرسان ومجموعة من الهدايا الثمينة. فعبّر بمجرد لقائه لمحمد الشيخ المامون عن الانزعاج الكبير لوالده من تصرفاته، وعن دور تردد المبعوثين إليه في تعقيد المشكل، واقترح عليه حل الخلاف بينه وبين زيدان، وعقد لقاء مع إخوته الآخرين لتأكيد الاعتراف به وريثا للعرش، ولقاء أبيه في أي مكان يراه مناسبا. وتم الاتفاق على تنقل الابن لمراكش في ظرف ستة أشهر مقابل بقاء عزوز وأبنائه رهائن، غير أن الشيخ سرعان ما عبر عن حيطته، خاصة حينما اشترط عليه أحمد المنصور عدم القدوم رفقة عدد كبير من الجنود، وأشارت

⁸⁰ رسالتان من محمد الشيخ المامون إلى أحمد المنصور، مجموع مخطوط، خ. ح، 12598، ص. 73؛ محمد الإفرائي، ن. م، ص. 180؛ المجهول السعدي، ن. م، ص. 72.

عليه بطانته بأن مبادرة عزوز، لا تعدو أن تكون خدعة ومكيدة أريد بها تسليمه إلى أبيه دونما حاجة إلى مواجهة عسكرية، وهو ما يمنح الفرصة لزيدان ليصبح حاكماً لفاس، فاعتري التخوف والشك صدر الأمير فكتب أباه بأن مغادرته للمدينة رهينة بمرافقة كل قواته⁸¹.

وأمام هذا التعت، قرر أحمد المنصور التوجه إلى مدينة فاس في جيش قوي، اضطر محمد الشيخ المامون بعد بلوغه نبأ وجوده على مشارف مكناس، إلى اللجوء إلى زاوية أبي الشتاء. فبعث السلطان فرقة عسكرية للبحث عنه، وللتأكد من عدم فراره خارج البلاد، قادها زيدان والباشا جودر الذي نجح في إلقاء القبض عليه ليسجن في مكناس. وضغطت أمه الخيزران على أحمد المنصور للعفو عنه، فبعث له وفداً من الأعيان لجلس نبضه، فعاد خائباً من استفحال تمسكه بانحرافه، فقرر السلطان استخلاف زيدان على فاس⁸².

وفي ضوء ما أورده شالدانبا عن عصيان محمد الشيخ المامون لأبيه، وعن تفاصيل الوساطات المتعددة التي أوفدت إليه، وما جاءت به المصادر المغربية من شح في المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع، يبقى السؤال المطروح يدور حول الملابسات الحقيقية التي أفضت إلى خروج ولي العهد عن الطاعة.

إن ما يلفت الانتباه، ونحن نقارن بين ما أورده الأسير البرتغالي وبين ما قدمته المصادر المحلية، هو أن السبب في نشوب الخلاف يعزى في المقام الأول من منظور شالدانبا، إلى تخوف السلطان من تعاظم القوة العسكرية لابنه، ومن استفحال الخلاف بينه وبين أخيه زيدان، فضلاً عن ممارساته السلوكية وتعسفاته. في حين أن الإخباريين ركزوا بالأساس على السبب الأخير، واعتبروا أن تكاثر الشكاوى به وتدمير السكان من تجاوزاته، هو الذي حدا بوالده إلى الدخول في مواجهة معه.

غير أنه إذا كان الشق الأخلاقي قد ألقى بثقله باعتباره عاملاً محدداً لنشوب الخلاف، فلماذا انتظر أحمد المنصور أكثر من عقدين من الزمن، قبل أن يقدم على خطوته التقيومية؟ ولماذا كان يصبر على إعلان ابنه للطاعة، مقابل احتفاظه بمنصب ولاية العهد بالرغم من سوء أخلاقه؟

⁸¹ لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 260-262, 272-274, 284-288, 296, 322-324, 326-328, 332-344.

⁸² المجهول السعدي، ن.م، ص. 73؛ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 180-183.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 352-4.

ورسالة من دوق دي مدينا سيدونيا من سان لوكار بتاريخ 10-02-1603: S.E. Leg. 194

أكان يخاف من وقوع فتنة؟ أم أنه تورط في تعيينه ولم يستطع التراجع، ففضل التخلص منه بتلك الطريقة؟

الراجح أن إقدام أحمد المنصور على إسناد صلاحيات واسعة لابنه في سن مبكرة وبعيدا عنه، أسهم بشكل أو بآخر في انغماسه في سلوكات مشينة كان المنصور على علم بها، لكنه تغاضى عن شد الحبل معه لمدة طويلة، تجدد تفسيرها في تخوفه خلال السنوات الأولى لحكمه من استثمار القوى الخارجية المعادية لأي نزاع داخلي لتهديد عرشه، وتفهم في المرحلة اللاحقة، في سياق رغبته الملحة في عدم التشويش على مشروع غزو السودان، وما تطلبه من مجهودات عسكرية لضمان تدفق الذهب والعبيد. ثم جاءت ثورة الناصر لتجعل من محمد الشيخ المامون، بغض النظر عن عيوبه، حاجزا لا يحيد عنه للتصدي لها. كما أن الترك لم يتوقفوا عن مساومته بخصوص الأمير إسماعيل اللاجئ لديهم، إذ كلفوا سنان باشا بالتفاوض حول وضعه مع أحمد المنصور، الذي سبق له أن أرسل أحد مرابطي درعة إليهم لمناقشة المسألة، بل إن السفير التركي طالب السلطان بمنح مداخيل مملكة فاس أو مكناس لفائدة الأمير⁸³.

ومما يركي هذه الطروحات، أن وتيرة النزاع بين الأب وابنه لم تشتد حدتها إلا بعد القضاء على ثورة الناصر، وهو ما يعني أن السلطان شعر بانزياح أكبر تهديد حقيقي استحوذ عليه منذ توليته، وحال بينه وبين الدخول في مواجهة مع محمد الشيخ المامون، كان من الوارد استغلالها من قبل الثائر⁸⁴. كما أسفرت هذه الثورة عن عدة مخلفات، أبرزها تعزيز القدرات العسكرية لولي العهد الذي أصبح يجيش الجيوش ويقدم العطاءات بكل سخاء، الشيء الذي جعله يؤول إصرار أبيه على استقدامه إلى مراکش بكونه من نتائج ثورة الناصر، على حد تعبير شالدانيا⁸⁵. فهل كان أحمد المنصور يخشى فعلا من تقوي جيش ابنه؟

الظاهر أن هذه الرواية تجد سندها في ما أورده الإفرائي، عن رد فعل محمد الشيخ المامون تجاه الأخبار التي راجت عن خروج أبيه من مراکش، والمتمثل في إعداد جيشه الذي بلغ اثنين

⁸³ رسالتان من بالتسار بولو إلى فيليب II بتاريخ 13-04-1595 و 06-05-1595: *Archivo General de Simancas, S.E, Leg. 492, et Leg. 174.*

ورسالة أخرى من دوق دي مدينا سيدونيا إلى الملك الإسباني بتاريخ 21-07-1594: Leg. 174

⁸⁴ تشير الوثائق الإسبانية إلى أن الصراع اندلع بين أحمد المنصور وابنه سنة 1597، وهو ما يرجع علاقة الموضوع بنهاية ثورة الناصر. راجع: نسخة رسالة من Inigo de Miligüey من فاس بتاريخ 14-01-1597: Leg. 179

⁸⁵ A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 338.

وعشرين ألفا، يرتدون ألبسة حريرية، ويقفون في أحسن تنظيم، وفي ما عبر عنه السلطان في رسالته إلى أبي فارس عن لجوء ولي العهد إلى الزاوية صحبة رفقاء السوء من ضباط جيشه، ثم أخيرا ما أقدم عليه من تغييرات في صفوف المؤسسة العسكرية بعد إسناد أمور فاس إلى زيدان، وما وجهه من عتاب شديد من جهة لابنه على استخدام أولاد طلحة وأولاد حسين، ومن جهة أخرى للبasha مصطفى بسبب تجنيد الرماة من عرب الخلط⁸⁶.

إنها مؤشرات تدل في مجملها، على الدور المحوري الذي لعبه الخلاف حول بنية جيش فاس وطريقة تسييره، في تشنج العلاقات بين الابن وأبيه الذي كان يدرك مدى تعارض التدابير المتخذة مع تصوراته، ويخشى انعكاساتها على أمن البلاد، خاصة بعد أن تأكد من أن الجند يزرح تحت رحمة العلوج، الذين لا يترددون في تقديم العطايا السخية لكل من أراد الدخول في خدمتهم بغض النظر عن انتماءاته القبلية، وبعد أن رفض محمد الشيخ المامون السماح للبasha مصطفى بزيارة أحمد المنصور في مراكش⁸⁷.

أما عن الدور المحتمل لزيدان في الصراع بين السلطان وولي عهده، فلم نتحدث المصادر المغربية عن حيثياته، في حين خصص له شالدا نيا حيزا هاما أبرز فيه طبيعة الدسائس التي كان يكيد بها لأخيه، وهو يلمس تزايد قوته العسكرية⁸⁸.

وإجمالا فإن أهم ما يستشف من عصيان محمد الشيخ المامون، هو أن سياسته اتخذت أبعادا تجاوزت الحدود المرسومة من قبل السلطان، وأضحت تمثل تهديدا مباشرا لقاعدة التوازن بين حاكم وولي عهده، ونسفا صريحا للمبادرة الهادفة إلى ترسيخ تقاليد الانتقال السلطة. وهو ما يفسر لنا تدمير أحمد المنصور، بعد المحاولات المتعددة التي بذلها لإنقاذ ما

⁸⁶ محمد الإفرائي، نزهة الحادي...، م.س.ذ..، ص. 177-183.

⁸⁷ A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 362-4.

رجل أحمد المنصور « ستمائة رجل من المتفرقة »، الذين كانوا من أصحاب ابنه إلى مراكش لكي يرسلهم إلى كاتر. راجع: المجهول السعدي، ن.م، ص. 74.

⁸⁸ رسالة أحمد المنصور إلى محمد الشيخ المامون مؤرخة بنهاية 1602، ينصحه فيها بالتخلي عن عرب الخلط: « توك عليك أن تنقصهم من الخدمة، ولا تسمع لمصطفى ولا لغيره »، انظر: محمد الإفرائي، ن.م، ص. 177. وعن الثقة التي كان يضعها محمد الشيخ المامون في البasha مصطفى وباقي كبار العلوج، راجع:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 144, 242-244.

كما تشير المصادر الإنجليزية إلى أن أحمد المنصور هو الذي أمر بقتل البasha مصطفى انظر: I.H.M., 1^{re} série, Ang., t. II. p. 330.

⁸⁸ حول الدور المحتمل لزيدان راجع:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 260

يمكن إنقاذه، والخيارات المتأنية التي تبناها لاستبعاد مواجهة مع ابن طالما تمنى أن يجد فيه جسرا لامتداد سلطته، ولاستكمال مشروعه التحديثي.

واصطدم المولى إسماعيل من جانبه بعدة تمرّدات من أبنائه، تباينت في وتيرتها وحجم انتشارها، كان أبرزها ذاك الذي قاده ابنه محمد العالم. فكيف تم ذلك؟

تمرّد محمد العالم

حظي المولى محمد الذي أنجبه السلطان من إحدى العلجات، باهتمام كبير من لدنه، ارتبط بإقباله على العلم واعتنائه بأهله، إذ لازم مجالس محمد السنائي والدائي وأحمد الولاوي وغيرهما، حتى أضحي من أبرز تلامذتهم المتمرسين في العلوم الدينية، وخوله ذلك لقب العالم، وعزز مكانته لدى المولى إسماعيل، الذي كان يستشيريه في أموره، ويأخذ برأيه، ويضرب به المثل في الصدق ورجاحة العقل، وكلفه بالنيابة عنه على فاس وعلى تافيلالت ثم درعة ومراكش، حيث حمدت سيرته واستحسن الناس سياسته، قبل أن يوليه على تارودانت التي أعلن منها ثورته⁹⁹. فما هي الأسباب الكامنة وراء ذلك التغير المفاجئ في سلوك الأمير؟ ركز أحمد بن الحاج في حديثه عن عصيان محمد العالم، على دور بعض الوزراء والكتاب من حاشية البلاط في إفساد علاقته بأبيه، نظرا لحرصه على كشف ما خفي من سلوكياتهم، وإصراره على إظهار الحق، فخططوا للتخلص منه عبر اقتراح توليته على درعة، باستثناء الوزير أحمد اليعمدي الذي كان يعزه كثيرا، ويعمل على إبعاد كل التهم التي يلصقها به الوشاة، وهو الأمر الذي اعترف به الأمير في إحدى رسائله إليه «... فلا أنسى لك يوم الفقهاء تنوهمك بقدرنا، وإعظامك لأمرنا، ومن قبل كنا بحقك جاهلين، وعن قدره ذاهلين، والآن تبين الحق، وحصص الصدق... فما قام أحد منهم مقامك... ولا دافع دفاعك، ولا نازع نزاعك...»⁹⁹

وأثارت شعبيته في مراكش ثائرة حساده الذين أوقعوا بينه وبين أبيه، فعزله وأعفاه من أية مهمة لمدة معينة، حتى تأكد من صفاء سريرته، ومن بطلان ادعاءات خصومه، ففوض

⁹⁹ أحمد بن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. ص. 22-23، 28-30، 36-37؛ محمد القادري، نشر الثاني، ... م.س.ذ.، ج. 2، ص. 296؛ عبد الله التسافتي، رحلة الوافد...، م.س.ذ.، ص. 222.

⁹⁹ رسالة من محمد العالم إلى الوزير اليعمدي بتاريخ 25 شعبان 1105هـ، أوردها، أحمد بن الحاج، الدر المنتخب...، م.س.ذ.، ج. 7، ص. 30 وما تلاها.

له حكم منطقة سوس، وأرسل معه ثلاثة آلاف فارس. لكن سرعان ما بدا له أن يتمرد على والده، الذي كان منشغلا بحربه في الشرق، واستشار في ذلك محمد المسناوي الدلائي الذي أبدى معارضته للأمر⁹¹.

وبذلك ربط ابن الحاج تأزم العلاقة بين الابن وأبيه، بما نسجته الحاشية من مؤامرات، أفسدت الود بينهما، وحولت الأمير النموذجي الهادئ الطبع، والمعروف بحسن التدبير، فجأة إلى ثائر، يرفع عصا التمرد حين استخلفه والده على تارودانت. لكنه لم يفصح عن الدواعي الكامنة وراء هذا التحول الطارئ في موقفه. بمجرد ما أصبح حاكما لسوس، مع العلم أنه كان على وعي تام بكيد الكائدين، وتقبل غير ما مرة عمليات نقله من ولاية لأخرى. وهو الأمر الذي فسره محمد القادري، بإنكار ما أقدم عليه السلطان من تمليك للعبيد، « والتصرف في بناتهم بغير وجه شرعي حقيقي »⁹² ودعمته الروايات المتواترة عن الدعم الواسع الذي لقيته حركته من بعض العلماء المعارضين لاستعباد الأحرار، والذين رافقه بعضهم إلى تارودانت قبل إعلانه للتمرد. ولعل في تزامن خروج الأمير على أبيه خلال السنة التي أعقبت اشتداد الخلاف بين السلطان وبين علماء فاس، ما يشير إلى تركية هذا الطرح⁹³. وبالمقابل، ركزت الكتابات الأجنبية على دور زوجة السلطان لالة عيشة مباركة المعروفة بيزيدانة، في تدبير الدسائس لإقصاء محمد العالم، إذ نجحت في إبعاده من مكناس، وأوحى له بأن المولى إسماعيل عازم على عزله من ولاية سوس، بمجرد عودته من حروبه مع أتراف الجزائر. وسعت من وراء ذلك إلى تهيب الأرضية لابنها المولى أحمد الذهبي، الذي لم ينتج في تبوأ مكانة متميزة لدى زوجها، تعادل تلك التي حظي بها محمد العالم، الأمر الذي جعل الأخير يحصر أسباب تمرده، في التهديدات التي تلقاها من الزوجة وابنها⁹⁴.

⁹¹ أحمد بن الحاج، ن.م، ص ص. 29-30، 36-38.

⁹² محمد القادري، ن.م، ج. 3، ص. 172. لما كان محمد العالم واليا على سوس، أشار في رسالته إلى المولى إسماعيل مؤرخة بـ 23 محرم 1108هـ، بأنه سيعث لأخيه المأمون الحراطين الذين جمعهم بمنطقة نفوذ بدرة، وهو ما يعبر أن الخلاف ربما اندلع بسبب أوامر السلطان بتمليك الأحرار؛ مجموع مخطوط، خ.ح، 12598، ص ص. 168-169.

⁹³ محمد القادري، ن.م، ج. 3، ص ص. 116-117.

⁹⁴ يمكن الرجوع مثلا إلى:

de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 19.

Busnot, *Histoire du règne...*, op. cit., pp. 64-5, 80-2.

وإذا كانت هذه العوامل قد تداخلت ربما مجتمعة في اندلاع الثورة، فالظاهر أنها لا تقدم جوابا شافيا لفهم الدواعي الحقيقية الكامنة وراءها، نظرا للسكوت المطبق الذي تعامل به الإخباريون مع الموضوع، باستثناء إشارة القادري التي تضع اليد على أحد مكامن الخلاف، التي يبدو أنها خلفت وقعا في نفسية الابن، على اعتبار تكوينه الفقهي، ومدى إدراكه للحدود المسموح بها شرعا. لكن هل كان هذا السبب كافيا للتمرد؟

ثار محمد العالم على أبيه سنة 1700م بتارودانت، فتمت مبايعته، وانساق وراءه حشد هائل من الأتباع، وتلقى المراسلات الداعمة لحركته من عمال والده على الأقاليم، ماعدا عبد الله الروسي الذي نهاه عن فعله، وشرع في نهب القوافل التجارية العائدة من السوس⁹⁵. ولما علم المولى إسماعيل بذلك، أرسل له رسائل النصح والموعظة، دعاه فيها إلى التراجع عما صدر منه، لكنه كان يقدم على حرقها وقتل حاملها⁹⁶. ثم قفل راجعا إلى مكناس حيث اجتمع بأهل الرأي، فأشاروا عليه بتوجيه وفد من الأشراف والعلماء وغيرهما، استقبله محمد العالم خير استقبال، لكنه رفض مقترحاته القاضية بالقدوم إلى العاصمة، بدعوى خوفه الكبير من أبيه الذي لم يستطع هضم ما جرى. وقرر إيفاد ابنه مولاي الشريف ليتعهد له بالأمان، فأجابه قائلا: « فات التدارك والإبان، ولم تبق إلا القطيعة والهجران، وإن الشفقة لا يمكن أن تكون من السلطان بعدما حدث ما حدث »⁹⁷، بل رفض له السماح بالخروج من تارودانت.

وبعد استنفاد كل سبل الوساطة، بعث السلطان بجيش قاده ابنه المولى الحفيد، هزمه محمد العالم الذي استولى على درعة وطرد منها أخاه عبد المالك، ودخل إلى مدينة مراكش، وهو ما أثار سخط أبيه، ففقد العزم على مواجهته بنفسه. غير أن مجلس الشورى ارتأى انتداب زيدان على رأس جيش مكون من أجود العناصر، نجح عقب معارك ضارية في إخماد التمرد والقبض على زعيمه، الذي اقتيد إلى ضواحي مكناس ليتم قطع يده ورجله من خلاف⁹⁸. وخلفت الجولات القتالية بين الأخوين موت عدد كبير من الناس، بلغ سبعة آلاف في عملية

⁹⁵ محمد القادري، ن.م، ج. 4، ص. 239. وحول نهب القوافل راجع:

S.I.H.M, 2^e série, Fra., t. VI, p. 688.

⁹⁶ أورد عبد الله التسافتي رسالتين تبودلتا بين المولى إسماعيل وابنه، الذي كان يحرق خطابات والده وسط سوق تارودانت، راجع: رحلة الوافد...، م.س.ذ.، ص. 222-223.

⁹⁷ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. 38 وما تلاها.

⁹⁸ ن.م، ص. 40-46؛ أبو القاسم الزباني، البستان الطريف...، م.س.ذ.، ص. 182-183؛ عبد الكريم الريفي، ن.م، ص. 176 وما تلاها.

إخراج الثائر من مراکش لوحدها، فضلا عما أمر السلطان بقتله من أنصار ابنه، بعد إلقاء القبض عليه⁹⁹.

وما يتضح من ثورة محمد العالم، أن وقعها على المولى إسماعيل كان كبيرا، إذ « ضاقت الأرض عليه... وصعبت الأمور... ولم يستلذ بنوم ولا شراب ولا طعام »¹⁰⁰، حتى علم بإخمادها فحمد الله شاكرا. فإلى أي حد في هذا السياق، يمكن مقاربتها مع ثورة محمد الشيخ المامون؟

مقارنة بين التمردين

اتخذت الثورتان معا صورا مفاجئة بالنسبة للسلطانيْن؛ إذ لم يستسغ أحمد المنصور أن يقوم عليه ولد رشح له لولاية العهد، وأولى له عناية خاصة لترك له الأمر من بعده. ولم يصدق المولى إسماعيل أن أعلم أبنائه وأكثرهم تكوينا ورصانة، وقدرة على فهم عدم شرعية الخروج عن البيعة هو من تزعم التمرد. واللافت للنظر أن اندلاع التمردين تم بعد أكثر من عقدين من وصول السلطان السعدي إلى الحكم، وثلاثين سنة من اعتلاء السلطان العلوي لعرش البلاد، وهو ما يدفع إلى التساؤل عن مدى ارتباط الأمر برغبة في التخلص من أب طال حكمه، أم بتدخله المستمر في شؤون ابنه؛ فأحمد المنصور كان يراقب محمدا الشيخ المامون في كل تحركاته، وحين ولاه على سجالماسة حدد له عدد الخدام الذين سيرافقونه، وعين المولى إسماعيل محمد العالم عدة مرات وعزله بالرغم من حسن تدبيره¹⁰¹.

ولعل سلوكات من هذا القبيل كانت تشعر الأمراء بنوع من الوصاية الزائدة، التي تنم عن عدم الثقة فيهم، وعن الحذر الشديد من تقوي نفوذهم، وتجعلهم لا يترددون في محاولة تخطي طرق الاستبداد التي تعترض طموحاتهم، وهو ما يفسر لنا المساندة الواسعة المقدمة من قبل السكان، الذين يجدون أيضا في التمرد خلاصا من الضغوط الممارسة عليهم¹⁰².

⁹⁹ عبد الله التسافتي، ن.م، ص ص. 224-225؛ عبد الكريم الريفي، ن.م، ص. 194.

¹⁰⁰ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. 44.

¹⁰¹ رسالة من محمد الشيخ المامون إلى أحمد المنصور، مجموع مخطوط، خ.ح، 12598، ص. 73. بعد تولية محمد العالم على فاس قام المولى إسماعيل بعزله، وأرسله لسكنى سجالماسة، وتركه بدون ولاية لمدة، ثم عينه فيما بعد. عمراكش وعزله مرة ثانية، وبقي ينتظر إلى أن سماه على تارودانت، راجع: أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 7، ص. 36، وج. 408-409.

¹⁰² كان محمد العالم بوادي سوس « يحب العلماء في أول دولته، واتباع طريق الحق وإظهاره، وإخماد الباطل وسيله

ولإخماد الثورتين، راهن السلطانان على أبنائهما لقيادة الجيوش، إذ وظف زيدان في ردع محمد الشيخ المامون، وتكفل المولى الحفيد ومن بعده زيدان بمواجهة محمد العالم. واستعمل المولى إسماعيل عبد المالك وأبا القاسم في ردع أبي النصر، قبل أن يلتجئ إلى أولاد دليم¹⁰³، الأمر الذي كان يثير الأحقاد والضغائن بين الإخوة، ليس فقط المعنيين بالصراع، بل حتى الآخرين الذي يضطرون لدعم طرف على حساب الآخر.

ومن الفروق الواضحة بين محمد الشيخ المامون ومحمد العالم، أن الأول الذي عرف بانحراف سلوكاته وتجاوزاته الأخلاقية وتبعسفاته، لم يستطع كسب الإجماع من حوله خلال تمردده على أبيه، في حين أن الثاني الذي اشتهر بعلمه وتقواه وبرجاجة رأيه، تمكن من كسب عطف السكان الذين بايعوه والتفوا حوله بمنطقة سوس ومراكش، التي عبرت منذ البداية عن معارضتها لحكم المولى إسماعيل، وهو ما يعلل طول فترة التمرد مقارنة بسلفه محمد الشيخ المامون.

وإجمالاً يمكن القول إن الثورتين، على اختلاف الظروف التي أفرزتهما، وتباين النتائج التي ترتبت عنهما، مثلتا تعبيراً صريحاً عن الثقل الذي ظل يلقي به مشكل المشروعية على العلاقة بين السلاطين وأبنائهم من جهة، وعلى الاستمرارية السياسية للجهاز المخزني من جهة أخرى، كما سنبين ذلك لاحقاً في الفصل الأخير حين محاولتنا رصد مكان الهشاشة داخل المؤسسة المخزنية.

وكان نصيب المولى إسماعيل من هذه التمردات أكبر من سلفه أحمد المنصور، إذ أشارت الكتابات الأجنبية إلى تمرد زيدان وامتناعه عن القدوم إلى العاصمة بطلب من أبيه، ورفضه توفير عدد الرجال الذي حدده له للإسهام في حصار سبتة، إذ أرسل له بدلاً من ذلك كميات من الذهب والفضة. كما ثار عليه أيضاً ولده أبو النصر فبايعه سكان سوس، بعد أن عُين مكان زيدان، ولم يحسم أمره إلا أولاد دليم الذين فتكوا به. كما رفض المولى عبد المالك، الذي تولى من بعد أبي النصر، دفع المستحقات الضريبية المعتادة لأبيه الذي استدعاه مراراً لزيارته. بمكناس، لكنه خاف على نفسه، واكتفى بالتعبير عن طاعته له¹⁰⁴. ولما عزم مولاي

ومن أجل ذلك نقضوا بيعة تولية أمير الغرب مع عدة من فقهاء مراكش «راجع: عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 222.

¹⁰³ رسالة من مولاي أبي القاسم إلى مولاي أبي النصر، مجموع مخطوط خ. ح. 12598، ص. 176.

¹⁰⁴ جون بريثويت، تاريخ الثورات...، م.س.ذ.، ص. 60؛ محمد القادري، نشر المثاني...، م.س.ذ.، ج. 3، ص. 159. انظر أيضاً:

الحفيد على الثورة عليه بفاس، أرسل له من تكفل باغتياله¹⁰⁵. فهل يجد هذا الوضع تبريره في تعدد أبناء المولى إسماعيل، وفي حركيته وحرصه الشديدين أكثر من أحمد المنصور على الاستبداد بشؤون ولاياتهم؟

والخلاصة أن فصول الأحداث السابقة وحركيتها تظهر قرائن دامغة على أن مشكل المشروعية، وقبل أن يطرح بحدّة بعد وفاة السلطانين، ظلت بوادره كامنة في صلب الدعائم المؤسسة لقوة حكميهما كما سنقف على الأمر في حينه، وأن محاولاتهما الرامية إلى إيجاد حلول له اصطدمت في مدها وجزرها، وفي مظاهرها تحفظها وجرأتها، بما في ذلك خطوة أحمد المنصور، بجيوب مقاومة شرسة مستمدة من ثوابت الثقافة السياسية السائدة في أوساط المجتمع وأذهان نخبه، والتي طالت بدورها المجال الاقتصادي. فما السمة التي طبعت اقتصاد المخزن، وميزت بنياته؟

Busnot, *Histoire du règne...*, op. cit., p. 115.

¹⁰⁵ أبو القاسم الزياني، البستان الطريف...، م.س.ذ.، ص. 184؛ أحمد ابن الحاج، الدر المنتخب...، م.س.ذ.، ج. 7، ص. 314-316؛ وأحمد الناصري، الاستقصا...، م.س.ذ.، ج. 7، ص. 96.

الفصل الثالث

التدبير الاقتصادي والدبلوماسي

المخزن والاقتصاد

مثل التحكم في النسيج الاقتصادي أبرز خيار راهن عليه الحكم لتدعيم أسسه، وضمان استمراريته، التي ارتبطت في شكلها ومضمونها بمدى قدرته على احتواء القطاعات الحيوية، وخاصة التجارة، باعتبارها « مصدرا للحصول على الإمكانيات المالية التي تعد عصب الحرب »¹ على حد قول كولبير Colbert. لذا ارتبط إشعاع الكيان السياسي وامتداده في المجال ارتباطا عضويا بقدرة مؤسسته العسكرية على مراقبة التجارة، وما دار في فلكها من أنشطة فلاحية وصناعية.

غير أن هذه المراقبة تباينت بتباين بنيات الدول الأوروبية خلال العصر الحديث، وبطبيعة العلاقات التي جمعتها بالشرائح الاجتماعية التي امتلكت سلطة القرار الاقتصادي. فالدولة الإسبانية من حكم فيليب الثالث (1598-1621م) وإلى غاية حكم شارل الثاني (1665-1700م)، ضعف اقتصادها بفعل طردها لما بين أربعمئة وخمسمئة ألف موريسكي، شكلوا عصب الصناعة والفلاحة، وبسبب حرب الثلاثين سنة. ولم تكن الدولة في الأقاليم المتحدة الهولندية، إلا أداة للبورجوازية التجارية الكبرى، التي رحبت باليهود المطرودين من شبه جزيرة إيبريا، واستغلت ضعف التجار الإيبيريين لاكتساح المستعمرات الإسبانية والبرتغالية بالهند، بواسطة أسطول بحري ضخم. وعلى الرغم من أن الإنتاج الهولندي بقي قائما على الفلاحة، والصيد البحري، وصناعة مواد التصدير، فإن هذه القطاعات ظلت تحت وصاية التجارة وفي خدمتها².

ووجد في إنجلترا نوع من التوازن بين السلطة السياسية المثلثة في الملك والدولة، وبين السلطة الاقتصادية المجسدة في التجار، فقد حافظ كل طرف على أهدافه ودينامكيته الخاصة. بينما حاولت البورجوازية في فرنسا إثارة الدولة لكي تهتم بالخارج، على اعتبار

¹ H. Le Febvre, *De l'Etat...*, op. cit., p. 29.

² E. Preclin et V-L. Tapie, *le XVII^e siècle, monarchies Centralisées...*, op. cit., pp. 3-4, 48-49, 52.

أنه الأداة الوحيدة للتوغل، خاصة بعد عجزها عن الصمود أمام القوى البحرية المنافسة³. أما الملك البرتغالي، فكان تاجرا يحتكر التجارة الخارجية من خلال الرخص التي يخولها للتجار البرتغاليين أو الأجانب، الذين يعملون وكلاء له بمدينة أنفيرس Anvers أو غيرها، ويعيش رعاياه بالأساس من الأرض، التي كان يعتبر من بين أكبر ملاكيها، لكن السياسة الاقتصادية للدولة عانت من تناقضات جوهرية، أهمها تلك التي وجدت بين نزعتها الرأسمالية، وبين كون الفوائد المالية اتجهت إلى الأرض، وإلى استهلاك الكماليات بدل إعادة استثمارها⁴.

وهكذا اختلفت مظاهر التدخل في الحياة الاقتصادية بأوروبا، منذ أواخر القرن السادس عشر وإلى نهاية السابع عشر، وفقا لمدى قدرة الفئة المالكة لوسائل الإنتاج على الانفتاح على العالم الخارجي، من خلال امتلاك قوة بحرية. وهيمنت في هذا السياق دول أوروبا الشمالية الغربية، التي أضحت تمثل نموذجا لنجاعة السياسة المركنتيلية المركزة على مبدأ دادلي نورث Dudley North، ومؤداه أن « قوانين الدولة لا تغني البلاد أبدا، فكلما كان تدخل الحكومة في التجارة أقل، كان ذلك أمرا محبذا »⁵.

أما في الإمبراطورية العثمانية، فقد احتفظ السلطان، والبيروقراطية العسكرية والمدنية، والجهاز الديني، بسلطة مراقبة صارمة، حالت دون ظهور فئات اجتماعية مستقلة ذاتيا يبنين نشاطها على السوق، وظل النظام الاقتصادي يركز على استخلاص الفائض من الإتاوات لإنفاقه في مجالات تبذيرية اتسعت دائرتها تبعا لتزايد متطلبات النخبة الحاكمة⁶.

وفي الوقت الذي تمكنت فيه بعض دول أوروبا الغربية، من تحقيق رخاء اقتصادي مستمر من تراكم تجارها القائمة حسب جون لوك J. Locke، على الاعتناء بالفلاحة، والرفع من ريع الأرض، والانتشار الواسع للعملة والقرض بالفائدة، والتشغيل المكثف للرعايا⁷، لم

³ F. Mauro, « Les Frontières du pouvoir au Portugal », in A. Stegmann (dir.), *Pouvoir et institutions Europe au XVI^e siècle...*, op. cit., p.109.

⁴ F. Mauro, « Les Frontières du pouvoir Portugal... », op. cit., p. 109.

⁵ E. Preclin, *le XVII^e siècle, monarchies Centralisées...*, op. cit., p. 541.

⁶ A. Kazancigil, « Théories de l'Etat ... », op. cit., p. 73.

⁷ كان كل تجار الدولة العثمانية الذين يمارسون أنشطتهم في البلاد المسيحية تحت حماية السلطان. روبر مانترا، *تاريخ الدولة العثمانية...*، م.س.ذ.، ص. 335.

⁸ E. Preclin, *le XVII^e siècle, monarchies Centralisées...*, op. cit., p. 540.

تستطع الأنظمة الإسلامية في الإمبراطورية العثمانية⁸، أو بلاد فارس أو المغرب الانخراط في ديناميكية مماثلة، بالرغم من اختراق شرايين التجارة البعيدة المدى لمجالات واسعة من ترابها، وتوفرها على إمكانات زراعية مهمة، وتموضعها في مواقع جغرافية قريبة من أوروبا.

ومن هذا المنطلق، يبدو أن علاقات المخزن بالاقتصاد أفضت إلى نتائج مغايرة، ظهرت مؤثراتها في عدم استفادة السلاطين من موارده المالية في بناء أسس ثابتة لتدعيم هياكل البلاد بشكل دائم، بل راهنوا على توظيفها بالأساس في تأمين استمرارية سلطتهم. فما هي طبيعة هذه العلاقات التي جمعت المخزن بما هو اقتصادي في عهد أحمد المنصور والمولى إسماعيل؟ إن الحديث عن الاقتصاد خلال المرحلة موضوع الدراسة، يخص في المقام الأول، النشاط التجاري، الذي كان يهيمن على قطاعي الفلاحة والحرف، اللذين وجدا تحت رحمته، وارتبط إشعاعهما بمدى قدرة تياراته على بلوغ الآفاق البعيدة. لذا فلا جدال في التلازم الحاصل بين ذلك النشاط وبين بنية المخزن المغربي، حتى أصبح من الصعب الفصل بينهما، نظرا لارتباط تقوية الهياكل السياسية بدرجة التحكم في شرايينه. ومن هذه الزاوية، مثلت قوافل العبور الصحراوية ثابتا رئيسا في توفير المداخل المالية، وفي الحصول على احتياجات البضائع، وخاصة الأسلحة، من الدول الأوروبية، فحرص المخزن على مراقبة الطرق والأسواق والموانئ، وعلى تحديد أسعار السلع وطبيعتها ووتيرة رواجها لاعتبارات روعي فيها أيضا الجانبان السياسي والأمني.

أهمية التجارة مع أوروبا

لم يذخر السلطانان وسعا في تشجيع النشاط التجاري، وتوفير الظروف الملائمة لنموه وازدهاره؛ إذ أمر أحمد المنصور ببناء مخازن بسوس وآسفي ومراكش لفائدة التجار الأجانب بغرض تأمين بضائعهم، وكلف فرقا من جنده بحراستها⁹. كما اعتبر في رسالة إلى إليزابيث، أن التجار يتمتعون لديه بكثير « من الحظ مما يدل لهم من حقوقهم كل غرض تمنع واستعصا »¹⁰، فتكاثرت أعدادهم وجنسياتهم من فلامانيين، وإيطاليين، وفرنسيين،

⁸ يشير روبر مانتران إلى سماح الدولة العثمانية بتداول القرض بالفائدة، بالرغم من نهي الفقهاء عن ذلك، وهو الأمر الذي شكل استثناء: راجع: تاريخ الدولة العثمانية... م.س.ذ.، ص 318، 332.

⁹ A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 82 ; *S.I.H.M.*, 1^e série, Ang., t. I, p. 490.

¹⁰ رسالة من أحمد المنصور إلى إليزابيث بتاريخ 20 جمادى الأولى عام 988هـ، أوردها محمد بن تاويت، « وثائق سعدية لم تنشر »... م.س.ذ.، ص. 54.

وإسبان، وخاصة الإنجليز الذين نالوا من عنايته منذ توليه الشيء الكثير، حتى إن ما يفوق الأربعين منهم كانوا يستقرون بمراكش سنة 1588م. وأمر خدامه بحمايتهم وعدم التعرض لهم في الموانئ، أو إلحاق الضرر بهم¹¹، ومنذ أن قدم المبعوث كيوم بيرار Guillaume Bérard مطالب لهزري الثالث تهم فتح الموانئ المغربية في وجه سفن رعاياه، وتنشيط المبادلات بين الطرفين، حظي التجار الفرنسيون بعناية السلطان¹²، الذي خصهم ونظرأهم الإنجليز بوضعية متميزة، جعلتهم يحتكرون حركة السفن بسلا وآسفي، لدرجة أنه أصدر فيه أمرا لقائده على القصر والعرائش، يرخص فيه لسفنهم فقط بولوج موانئ المنطقة التي تدخل تحت نفوذه. وأثار هذا الأمر سخط التجار الإسبان، الذين وجدوا أنفسهم في موقف دوني لا يتماشى مع طموحاتهم، على الرغم من العقود التي أبرموها بفاس ومراكش، لذا ألفوا التنبيه في رسائلهم إلى ضرورة إعادة الاعتبار لهم، من خلال مساواتهم بالإنجليز والفرنسيين، بل عبروا عن تخوفهم من أن يتعرضوا للطرد من قبل أحمد المنصور¹³.

وتدل هذه المبالغة في موقف التجار الإسبان، على شعورهم بخيبة الأمل أمام عدم تمكن العلاقات السياسية بين البلدين من توفير الظروف الملائمة لتكثيف أنشطتهم، وذلك نتيجة خضوعها لطابع الحذر الشديد. إذ تشير وثيقة إسبانية هي عبارة عن تعليمات قدمها فيليب الثاني لسفيره بمراكش بيدرو بينيكاس دي كوردوبا Pedro Venegas de Cordoba¹⁴، إلى الخطوط العريضة التي طبعت مسار الروابط بين الجانبين، وألقت بثقلها على الشق الاقتصادي؛ إذ اشترط الملك الإسباني على أحمد المنصور تسليمه ميناء العرائش ومحاربة القرصنة، وعدم السماح بنشر قوات برية وبحرية عثمانية فوق أراضيها، وتخويل السفن الإسبانية، مهما

¹¹ A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 152, 282 ; S.I.H.M., 1^e série, Ang., t. I, pp. 352, 490.

¹² S.I.H.M., 1^e série, Fra., t. II, p. VI.

¹³ ملخص رسالة موجهة من بالتسار بولو ومن ديكو مرين من مراكش بتاريخ 27-6-1597 : S.I.H.M., 1^e série, Fra., t. I, p. 139. *Archivo General de Simancas*, Espagne, S.E, Leg. 179
ورسالة أخرى من Martin de Arriaga إلى فيليب الثاني من مراكش بتاريخ 12-02-1599 :

Ibid, Leg. 184, Folio 36

تشير المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب، إلى أن المنصور سبق أن تدخل لفائدة تجار إسبان أسرت سفينتهم سنة 1586م قبالة تارودانت، راجع: عثمان المنصوري، التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر: مساهمة في تاريخ المغرب الاقتصادي، الرباط، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، 2001، ص. 233. وهو ما يدل على أن موقف المنصور من التجار الإسبان لم يتغير إلا بعد اندلاع ثورة الناصر، وما أكبها من تزايد الضغوط عليه.

¹⁴ عن شخصيته راجع:

D. Cabanelas, « Pedro Venegas de Cordoba, embajador de Felipe II en Marruecos », in M.E.A.H., 22, Granada, 1973, pp. 129-141.

كانت طبيعتها، حق ولوج مصبات الأنهار بالمغرب، ومتابعة مراكب المجاهدين دون تدخل جيش أو رعايا السلطان. وبالمقابل يتم تأمين سلامة أتباع السلطان من القرصنة، وإرسال قوات لحمايته في حالة تعرضه لهجوم أسطول أجنبي تركي أو مسيحي، أو حتى لانتفاضة من رعاياه، وتم منح حرية التنقل وعقد الصفقات للمغاربة في أي ميناء إسباني، على أساس أن يؤدوا المستحقات الاعتيادية¹⁵.

والواضح أن شروطا من هذا القبيل وموقف الرفض، أو على الأقل الماطلة الذي اتخذه أحمد المنصور منها منذ توليته يفسر لنا من جهة، المكانة التي احتلها الإسبان في قائمة التجار المتعاملين مع المغرب، ويبرر من جهة ثانية، حجم الامتناع الذي ما فتئوا يظهرونه وهم يلمسون تغلغل الإنجليز، ومن بعدهم الفرنسيين في شرايين التجارة، ليس بالموانئ فقط، ولكن حتى بمناطق داخلية كمناطق سوس. وحملوا المسؤولية في ذلك لحاشية أحمد المنصور وعلى رأسها الذمي روتي، ولم يتقاعس دوق دي مدينا سيدونيا في هذا السياق، عن الإسهام في اختفاء السفن الفرنسية عن الساحل المغربي لمدة معينة¹⁶. غير أن ضعف الحضور الإسباني، لا يمكن فهمه أيضا بمعزل عن بروز التفوق البحري الإنجليزي والفرنسي، وعن بداية تقلص نفوذ شبه جزيرة إيبيريا باعتبارها قوة ملاحية عالمية.

ويجد هذا الوضع تبريره، في صور التتبع الدقيق التي حملتها الوثائق الإسبانية، عن حركة ما كان يطلق عليه السفن المعادية التي يملكها الإنجليز والفرنسيون، وفي طبيعة المشاكل التي اعترضت بعض كبار التجار الإسبان، من أمثال مارتان دي أرييكا Martin de Arriaga الذي اتخذ أحمد المنصور في حقه قرارا بالطرد¹⁷. والظاهر أن العداء الإسباني الإنجليزي ألقى بظلاله على موقف السلطان السعدي، الذي أقحم فيه، وأجبر لاعتبارات متعددة على اللعب على تناقضاته، عبر الظهور بمظهر التوازن، مع الحرص على ترجيح كفة الإنجليز على

¹⁵ تعليمات فيليب II لفائدة سفيره Pedro Venegas de Cordoba كتبها Gabriel de Cayas من طليطلة بتاريخ 1579-06-08.

Ibid, leg. 184, Folio 49.

يفصل خورخي دي هنين مداخيل العشور والرسوم الجمركية المترتبة على السلع الأجنبية حسب النوع، ويجمع مجموعها سنويا في 1.077.550 دوق، راجع: وصف الممالك المغربية... م.س.ذ.، ص ص. 177-179.

¹⁶ رسالة من بالتسار بولو إلى فيليب الثاني من مراكش بتاريخ 13-04-1595. وأخرى بتاريخ 20-01-1594. وثالثة من Arriaga إلى فيليب II: 174. *Ibid*, leg.

¹⁷ رسالة من بالتسار بولو إلى فيليب الثاني من مراكش بتاريخ 13-04-1595: 174. *Ibid*, leg.

ورسالة من دوق دي مدينا سيدونيا إلى الملك الإسباني من سان لوكار بتاريخ 24-03-1600: 493. *Ibid*, leg.

حساب الإسبان، وتشجيع أعدائهم بالأقاليم المتحدة على ولوج المراسي المغربية¹⁸.

وحرص المولى إسماعيل من جانبه، في سبيل ضمان موارد مالية قارة، على تقديم الامتيازات لصالح التجار الأجانب. وهكذا خول لجون بيريلي J. Périllie رخصة القيام بدور القنصل الممثل للفرنسيين. بمختلف المراسي، ومنحه حرية البيع والشراء، دون أن يخضع لأي نوع من الضغوط من قبل خدام المخزن. وهي الضمانات التي عمت سائر التجار النافذين، وأقر بها الفرنسيون والهولنديون في رسالتهم إلى السلطان، معتبرين أن قائد قسبة سلا سعد الله بولعوان، لا يتوانى في تسهيل مهامهم، وتوفير كل الوسائل لحمايتهم¹⁹.

ونصت معاهدة الصلح والتجارة التي تم التوصل إليها مع الأقاليم المتحدة الهولندية، على حرية دخول مراكبهم للموانئ والإقامة بها، أو الارتحال عنها رفقة أموالهم وأمتعتهم دون تعرضهم لأذى، وعلى تأمين سفنهم من ضربات المجاهدين، وحمايتها خلال لجوئها الاضطرابي إلى الشواطئ المغربية نتيجة لأي ضرر لحق بها، أو بسبب اقتيادها كغنيمة لبيع محتوياتها²⁰.

وعلى الرغم من تدمير السلطان من توالي الصلات بين التجار الإنجليز والحركات التمردية ضدًا عليه بالجنوب، ورفضه التصديق على مشروع الاتفاق الذي توجت به سفارة محمد بن حدو العطار²¹، فإن حضور هؤلاء ظل وازنا بالمراسي والمدن. وازدادت أهميته خاصة بعد الاستحواذ على جبل طارق، ثم جزيرة مينورقة سنة 1713م، بدليل ارتفاع وتيرة السفارات التي وجهها المولى إسماعيل إلى الملك الإنجليزي²²، وسعى من خلالها للاستفادة من تغير

¹⁸ ذكر السفير الهولندي في خطاب أمام المولى زيدان أن الحرب تؤدي إلى « استنزاف الأموال الإسبانية. وبالرغم من أن إسبانيا تحصل سنويا على أموال كثيرة من الهند، فإن هذه الأموال لا تبقى أبدا بحوزتها، لأن إسبانيا عبارة عن غدير يتوصل بكميات كبيرة من الأمطار في وقت قصير، لكن هذا الغدير سرعان ما يمرر تلك المياه إلى السواقي التي تتشعب عنه بينما يبقى هو جافا ودون مياه، كما كان الأمر قبل سقوط الأمطار » خورخي دي هنين، ن.م، ص.ص. 191-192. راجع أيضا:

S.I.H.M., 1^{re} série, Pays Bas, t. I, p. 24.

¹⁹ *S.I.H.M.*, 2^e série, Fra., t. II, pp. 420-1, et t. III, pp. 184-5.

²⁰ معاهدة صلح وتجارة بين المغرب والأقاليم الهولندية بتاريخ 13 ذي الحجة 1093هـ محمد الإفري، روضة التعريف... (ملحق)، م.س.ذ، ص.ص. 91-96.

²¹ *S.I.H.M.*, 2^e série, Fra., t. II, p. 489.

²² منذ احتلال الإنجليز لجبل طارق، بعث المولى إسماعيل بأربع سفارات إلى إنجلترا، قادها على التوالي أحمد بن قادرباش سنة 1706م، وابن تورة دي زاري سنة 1710م، وعبد القادر بريس سنة 1723م، ومحمد أبغلي سنة 1725م.

ميزان القوى بالبوغاز، في الحصول على دعم لمشاريعه الجهادية. وهو التغير الذي كرس تراجع الوجود التجاري الإسباني بالمغرب، المتأثر بشكل جلي بإستراتيجية تحرير الثغور وما تلاها من فشل حصار سبتة، وانعكاساته على موقف السلطان المعارض لأية مبادرة تسير في اتجاه توسع نفوذ التجار الإسبان، الذين عانوا كثيرا نتيجة دخول بلدهم في حرب الوراثة، بعد وفاة الملك كارلوس الثاني، وما أعقبها من ضعف دب في مؤسساته، بفعل المشاكل المتراكمة في المستعمرات بالعالم الجديد.

وما يظهر من خلال مقارنة الدول المتعامل معها إبان عهد السلطانين، أنه في الوقت الذي راهن فيه أحمد المنصور بصفة لافتة على الإنجليز، الذين مكنوه من الحصول على معظم احتياجاته، التي استعصى عليه توفيرها في ظل الصراع الدائر بين الإمبراطوريات التقليدية في حوض البحر الأبيض المتوسط، اعتمد المولى إسماعيل بالتوالي على الفرنسيين والهولنديين والإنجليز، مستفيدا من تأجج حركة القرصنة التي أضحت متداخلة مع النشاط التجاري، ومستغلا تناقضات الدول الأوروبية المرتبطة بتباين مواقفها من طبيعة الحلول الكفيلة بوضع حد لهذه الحركة، وما أفرزته من قضايا معقدة تمثلت في معضلاتي الأسرى والغنائم. إذ بالرغم من إجماع الدول الأوروبية القوية على ضرورة محاربة القرصنة، فإن تجارها كانوا يجدون في أسلابها خير وسيلة للاغتناء، فيقتنون البضائع التي لا تلقى رواجا بالموانئ المغربية لكونها محرمة، أو لا تدخل في العادات الاستهلاكية للسكان، ويقومون بإعادة بيعها بأثمان باهظة في الأسواق الأوروبية، ويحصلون على عمولات مقابل افتداء الأسرى.

ومن هذه الزاوية، أسهم هؤلاء التجار في استمرارية هذا النشاط ضدا على رغبة حكامهم، وأحيانا بدعم منهم. فلويس الرابع عشر الذي اتخذ قرارا بحماية السفن الفرنسية، وملاحقة مجاهدي سلا، وشن الحرب عليهم، بل ومنع التجارة مع المغرب، ووجه بمعارضة شديدة من قبل التجار المعنيين الذين أعلنوا عدم التزامهم بمقتضياته، نظرا لأهمية أنشطتهم بالموانئ المغربية، ولكون ذلك يفسح المجال أمام احتكار الهولنديين والإنجليز لها. ويدل هذا التعارض على أن التجارة الفرنسية في مراسي سلا وتطوان وآسفي، ظلت تحتل الصدارة على الرغم من فشل الملك الفرنسي والسلطان العلوي في التوصل إلى اتفاق يتوج مفاوضاتهما، ولم تعرف تراجعا واضحا إلا منذ 1715م ارتبط بشكل أو بآخر بالتغلغل الإنجليزي الذي نجح

في احتواء المغرب من خلال إتفاقية 1721م²³.

الحاصل أن التجارة الأوربية بالمغرب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، تأثرت إلى حد كبير بأعمال القرصنة والجهاد البحري، التي وفرت للمولى إسماعيل، مقارنة بسلفه، هامشا حيويا للتمويل وللحصول على المواد والمعدات المحظورة عادة عبر قنوات التجارة المشروعة، وجعلته في الوقت نفسه هدفا لتهديدات بحريات الدول المتضررة، وخاصة فرنسا التي كان ملكها أكثر إلحاحا على حماية أساطيله التجارية، كما حدث سنة 1699م بعد فشل سفارة ابن عائشة²⁴.

وعموما، حافظ المخزن تحت حكم السلطانين على اتصالاته التجارية مع القوى الأوروبية، بما فيها تلك التي كانت تحتل الثغور. وهي الملاحظة التي وقف عندها بكل دقة جون بريثويت حينما اعتبر أن المغاربة بالرغم من أنهم « في حالة حرب مع المسيحيين باستثناء الإنجليز، وحتى حينما كانوا في حرب معنا فإنهم رخصوا لقنصلنا وتجارنا الإقامة في موانئهم بدون مضايقة، كما تاجروا مع أي سفينة قادمة إلى موانئهم في أي مواد كانوا في حاجة إليها، ومع أي أمة مهما كانت، إضافة إلى السماح إلى تجارهم وقناصلهم بالحياة بين ظهرانيهم في كل آمان »²⁵. وهو ما يعني أن المخزن كان يعي كل الوعي أهمية هذه الاتصالات في استمراره، بغض النظر عن المواقف السياسية التي تحكمها، والمتمثلة أساسا في رغبة الدول الأوروبية في تقنين الأنشطة التجارية عبر تسمية القناصل، والتوصل إلى معاهدات من شأنها تأمين شرايينها البعيدة المدى، في اتجاه الشرق الأقصى والعالم الجديد.

ويكشف هذا الوعي عن كون المغرب بحكم موقعه الجغرافي، أقدم منذ القرن السادس عشر في التيارات التجارية العالمية، على الرغم من ضعف بنياته، وعدم استعدادة لمسايرة المستجدات الملاحية، أو على الأقل الانفتاح عليها، لذلك تمادى في الاعتماد على موارد تجارة القوافل الصحراوية التي لم تعد قادرة على الاستجابة لحاجيات سلطة تتوخى تحديث

²³ Archives de la Bibliothèque nationale de France, Nouvelles Acquisitions, F° 282. Voir aussi : S.L.H.M, 2^e série Fra., t. III, pp. 179-181 ; J. L. Miège, « Les relations maritimes entre Marseille et le Maroc (1682-1683) » in *Revue Maroc-Europe*, n° 2 1992, pp. 31-2.

²⁴ Archives de la Bibliothèque nationale de France, La Gazette de France du 08-4-1699, pp. 418-9.

²⁵ جون بريثويت، تاريخ الفرات...، م.س.ذ..، ص. 295.

هياكلها، وتسعى للمركزة القوية. وأمام هذا القصور كان على السلطانين البحث عن مصادر إضافية لتغطية نفقاتهما المتزايدة. فما هي طبيعة تلك المصادر؟

المصادر التمويلية

مثلت مبادرة أحمد المنصور لتطوير زراعة قصب السكر وصناعته أهم المشاريع التي وجب تناولها من هذا المنظور، إذ استهدف السلطان من ورائها حسب الفشتالي، وضع قطيعة مع أساليب الاستغلال التقليدية السائدة منذ عهد والده، وتوسيع دائرة الاختراع والابتكار بواسطة إدخال أحدث التقنيات المعمول بها في أرجاء المعمور، مستفيدا من جودة تربة بلاد سوس، ومن ملائمة مناخها في توفير موارد مالية تعفيه من اللجوء إلى الجباية، وما تستوجبه من إمكانات لتجنيد الجيوش.

وتم اختيار مجالي حاحة وشيشاوة في هذا الإطار، لإقامة معاصر بلغ عددها عند وفاته ثمان عشرة، وتجهيزها بمخازن الحبوب، وبرك المياه، والأخشاب، ومساكن العمال، ولغراسة كميات كافية من القصب قادرة على الاستجابة للمنشآت الجديدة، خصصت لها أراض زراعية مسقية شاسعة صودرت من سكان المناطق المجاورة. مما أثار تمردا ببلاد حاحة، تطلب تبعا للإشارة الفشتالي تدخل المخزن لردعهم²⁶. بل الأكثر من ذلك، أسفر إقدام السلطان على كرائها إلى متعهدين ذميين، عن تخصيص مساحات إضافية من الأراضي لضمان تنفيذ بنود العقود الموقعة، وهو ما حرم ملاكيها من زراعاتهم المعيشية، ودفعهم إلى مهاجمة إحدى المعاصر سنة 1583م وتخريبها بقيادة زعيم زوايتين بجبال الأطلس، مما أفضى إلى تدخل عسكري لإخماد التمرد²⁷. كما عانى التجار الإنجليز الذين كانوا يسدّدون مسبقا طلبيات السكر، من تلاعبات المكرّرين اليهود الذين لم يكونوا يلتزمون لا بمواعيد التسليم ولا بجودة المنتوج المتفق عليهما، الشيء الذي دفعهم إلى تحمل مسؤولية تسيير بعض المعاصر²⁸.

²⁶ حول تفاصيل المعاصر السكرية، راجع: عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 209-210؛ مجهول برتغالي، وصف المغرب...، م.س.ذ.، ص. 55.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 84.

« إن السواقي التي تنفرع عنه (نهر سوس)، تقوم بسقي سهول واسعة يزرع فيها قصب السكر من النوع الجيد وهو يوجد في هذه المنطقة بكميات كبيرة جدا » خورخي دي هنين، وصف الممالك المغربية...، م.س.ذ.، ص. 27.

²⁷ A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 78.

²⁸ رسالة من أحمد المنصور إلى إليزابيث بتاريخ 18-06-1579:

S.I.H.M., 1^{re} série, Ang., t. I, p. 352.

غير أن هذه المشاكل التي كانت عابرة، وفقا لما توصل إليه بول بيرثي Paul Berthier اعتمادا على عدة مؤشرات، دلت على أن التنظيم الزراعي، وتشغيل المصانع، استفادا من ظروف الاستقرار²⁹، التي لم تكن أحمد المنصور عن عزمه على توظيف الإنتاج السكري في مبادلاته مع إيطاليا وفرنسا، وخاصة إنجلترا للحصول على الواردات في ظروف جيدة، حتى أضحي السكر يتبوأ المرتبة الأولى في قائمة الصادرات، ويدر على الخزينة مداخيل مالية هامة³⁰. وهو ما يترجم نية السلطان في تسخير هذا القطاع الحيوي، لتغطية حاجياته من الأسلحة ومستلزمات بناء السفن، ولتحقيق نوع من التكافؤ في بنية الصادرات التي تشكلت في معظمها من المواد الأولية.

وانهار صرح الصناعة السكرية بمجرد وفاة أحمد المنصور، لأسباب متعددة، تداخل فيها الطبيعي والتقني والاقتصادي والاجتماعي والسياسي. وكانت بدون شك وراء عزوف المولى إسماعيل عن إحيائها، بالنظر إلى تغير الوضع الدولي وما واكبه من منافسة منتج العالم الجديد، واكتفائه بإعادة توظيف العبيد السود، الذين يفترض أنهم استغلوا بشكل من أشكال السخرة، في المشروع العسكري لسلفه، إلى الحد الذي اعتبرت فيه فرضية ثانية أن من بين أهداف حملة أحمد المنصور على السودان، جلب اليد العاملة السوداء لتفادي إكراه سكان الجبال على العمل في المزارع³¹.

ومهما يكن من أمر هذه الفرضيات، فالأكيد أن السلطان العلوي أدرك غياب الجدوى الاقتصادية للاستمرار في مشروع عديم المردودية، وأن نظيره السعودي خاض مغامرة غزو

²⁹ Paul Berthier, Les anciennes sucreries du Maroc et leurs réseaux hydrauliques, Rabat, centre national de recherche scientifique, 1966, t. I, p. 285.

³⁰ J. Caillé, « Le commerce anglais avec le Maroc pendant la seconde moitié du XVI siècle », *Revue Africaine*, t. 384-385, 1940, pp. 202, 205-6, 283. Voir également, Paul Berthier, « Les plantations de canne à sucre et les fabriques de sucre dans l'ancien Maroc », in *Hespéris*, vol. 7, 1966, p. 37.

³¹ قدرت المداخيل السنوية لمصانع تكرير السكر، خلال عهد أحمد المنصور، حسب خورخي دي هنين بأحد عشر مليون أوقية. وصف الممالك المغربية... م.س.د.، ص. 29.

³² Berthier, *Les anciennes sucreries...*, t. I, pp. 272-285 ; J. Berque, « Antiquités Seksawa », in *Hespéris*, t. XL, 1953, p. 407.

ورد الحديث في رسائل السلطان زيدان السعودي لهولندا، عن صادرات السكر من المغرب، إذ ذكر إرسال كميات تراوحت ما بين عشرين ومئتي صندوق. فهل يعني ذلك أن بعض المعاصر بقي إنتاجها مستمرا بعد وفاة المنصور؟ أن الأمر يتعلق بكميات معزولة تدخل ضمن ما كانت تحمله غنائم المجاهدين؟ رسالتان من المولى زيدان إلى هولندا الأرشيف الوطني الهولندي لاهاي، سلسلة الأقاليم المتحدة رقم 1.01.08، رقم الوثيقة 9-12594. والسلسلة نفسها رقم 1.01.04، الوثيقتان رقم 6891 و6892.

السودان من زاوية إستراتيجية تجاوزت إلى حد بعيد النظرة الضيقة للأمور، ومثلت الخطوة الثانية في سياسة البحث عن بدائل للجباية الثقيلة. فإلى أي حد نجح في مسعاه؟

تضاربت الآراء حول الأسباب التي دفعت أحمد المنصور إلى غزو السودان، فالبعض ربطه بتراجع عائدات السكر منذ 1590م، بفعل منافسة جزر الكرايب والبرازيل، حيث يتم استغلال العبيد في إنتاج سكر ذي جودة عالية، وبتكلفة أقل³². وفسره البعض الآخر بردة فعل على محاولات التسرب العثمانية إلى توات ما بين 1579 و1589م، لما أرسل الأتراك سفارة بقيادة ابن باي طرابلس، على رأس وفد من العلماء للاتصال بنظرائهم في توات، وأسفر تدخلهم ببورنو عن حدوث صراعات حول السلطة³³. في حين رأى فيه جاك بيرك مزاحمة حقيقية للمشاريع الأوروبية بشقيها المركنتيلي والزراعي في غرب إفريقيا³⁴.

وتتفق هذه التصورات بالرغم من اختلاف رواياتها، على غلبة الهاجس الاقتصادي والمالي على أهداف الحملة، والتمثل في السيطرة على « معادن الذهب الذي به قوام العالم، وأس الملك، وبناء المجد، وبالتفاوت فيه تفاوت أقدار قوة وسلطانا وجنودا وأوطانا... فمن ملكها ملك الأرض، وجمع الطول والعرض »³⁵، إذن فكاتب السلطان كشف عن قيمة المعدن النفيس، في تعزيز الهياكل السياسية والعسكرية والاقتصادية لولي نعمته الذي برر مع ذلك مشروعه لأعيان فاس، برغبته في جمع كلمة الإسلام استعدادا لرفع راية الجهاد ضدًا على العدو الكافر.

وعمد السلطان لبلوغ هدفه إلى نهج أسلوب متدرج، انطلق من المطالبة بملاحة تغازي، ثم

³² J.- B. Weiner, « El Mansour et L'or de Tombouctou », in *Les Africains*, Paris, Jeune Afrique, t. II, 1977, p. 239.

³³ M. Abitbol, *Tombouctou et les Arma. De la conquête marocaine du Soudan nigérien en 1591 à l'hégémonie de l'Empire Peulh du Macina en 1833*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1979, pp. 48-9.

³⁴ *op. cit.*, p. 407. J. Berque, « Antiquités Seksawa ».

³⁵ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 117.

وحصر المجهول الإسباني أهداف الحملة في الحصول على الذهب، راجع:

H. de Castries, « La conquête du Soudan par El-Mansour (1591) », in *Hespéris*, t. III, 1923, pp. 455, 482.

ثم رسالة من أحمد المنصور إلى أعيان فاس بتاريخ 1591-06-02:

H. de Castries, « La conquête... », *op. cit.*, p. 482.

وأشار ميكيفالي في كتابه Tite-Live إلى « أن الجنود الأشداء وليس الذهب هم عصب الحرب، فالذهب لا يمكن من الحصول على جيش قوي، لكن هذا الأخير يمكن من الحصول على الذهب »:

H. Lefebvre, *De l'Etat...*, *op. cit.*, p. 29.

تدشين الحملة على أدرار، قبل أن يقوم بغزو كاو وتومبوكتو. والظاهر أن هذا التدرج ارتبط بمخاطر الطريق وما استوجبه من تهبيء محكم، وبقطة متناهية، ويمدى ملائمة الظرفية الدولية لخوض مغامرة من هذا الحجم، إذ وجب انتظار تخفيف الضغط الإسباني على المغرب بعد هزيمة الأرمادا، وانشغال العثمانيين بحروبهم في آسيا الصغرى وشرق أوروبا، وتعبير إنجلترا الصريح عن دعمها المطلق للمخزن، مما ينم عن وجود مخطط تم إعداده سلفا وبدقة عالية. لكن كيف كانت حصيلة الحملة بالنسبة للمخزن؟

تبينت الرؤى حول تقويم نتائج غزو السودان، فقد خلص المجهول السعدي إلى أن أحمد المنصور اغتنى من الحملة، عبر حصوله على مبالغ هامة من المال، وكميات ضخمة من التمر والعاج ومئات من العبيد والجواري. وسار عبد الرحمن السعدي ومعظم المصادر الإسبانية والإنجليزية في الاتجاه نفسه، إذ اعتبروا أن المكاسب كانت كبيرة إلى درجة أن بالتسار بولو أشار في إحدى رسائله، إلى وصول قافلة ضمت ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف من العبيد ذكورا وإناثا إلى مراكش محملين بالذهب، أعقبها أخرى أورد فيها اثنين وثلاثين شحنة من الذهب، وعدد لا يستهان به من العبيد من بينهم ثلاثة أبناء لأخت مالك كاو Gao. كما حدد الإنجليزي مادوك Madoc عائدات سنة واحدة من إتاوة السودان في ستين قنطارا من الذهب، إلى الحد الذي أصبح فيه السلطان أغنى عاهل في العالم³⁶.

في حين تحفظ شالديانيا على مسألة تضخيم حجم المكاسب، على اعتبار أن القائد جوذو حين دخل إلى كاو وجد الفارين قد حملوا معهم معظم الكميات من الذهب، الذي شهد استخراجها تراجعا كبيرا جراء هروب اليد العاملة. وهو التصور الذي تبناه المجهول الإسباني، لما اعتبر أن تكلفة الحملة فاقت بكثير المنجزات المحققة من ورائها؛ نظرا لأنها من جهة تطلبت أكثر من ثلاثة وعشرين ألفا من خيرة الرجال، مات عدد كبير منهم بفعل الحروب وصعوبة المناخ، واحتاجت من جهة أخرى، إلى توفير مستمر للمؤن والأسلحة والذخائر.

³⁶ حول نتائج الحملة راجع: المجهول السعدي، تاريخ الدولة السعدية...، م.س.ذ.، ص. 68؛ عبد الرحمان السعدي تاريخ السودان...، م.س.ذ.، ص. 305. ورسالة من بالتسار بولو إلى فيليب الثاني من مراكش بتاريخ 26-3-1594 وأخرى بتاريخ 04-06-1594.

IE, Leg. 174. Archivo General de Simancas,

ورواية لإحدى رسائل دوق دي مدينا سيدونيا إلى فيليب II بتاريخ 04-05-1594:

Archivo General de Simancas, S.E, Leg. 174

وما كتب به Martin de Arriaga إلى الملك الإسباني 12-02-1599: Ibid, leg. 184, F° 36

بخصوص المصادر الإنجليزية انظر:

I.H.M., 1e série, Ang., t. II, pp. 83, 86.

والأجور اللازمة للحاميات³⁷.

والبين أن الحملة بالرغم من ضخامة الإمكانيات المجنّدة لها، وعدم تمكنها من بلوغ منابع الذهب، خلفت وقعا إيجابيا إلى حد ما على خزينة أحمد المنصور، وإن لم تسفر عن إغنائه. فقد أسهمت في تعزيز قيمة العملات، وتنشيط الحركة التجارية، وفي تمكين المخزن من اقتناء متطلباته بشروط أفضل لجذب المتعاملين بناء على قاعدة مالية أكثر صلابة، ومن تأمين الضخ المستمر لكميات الذهب اعتمادا على حزام القصبات التي أسست على طول الطريق الصحراوي.

وإذا كان من الثابت أن المولى إسماعيل لم يدخل في مغامرة عسكرية بالسودان، فإنه نظم حملات متقطعة وخاطفة للحفاظ على المكاسب التي حققها سلفه، ولاستعادة تحكمه في الطرق التجارية من خلال إقامة حاميات عسكرية على طول ممراتها، وتعيين حكام بها تابعين له إداريا. إذ انتزع اعتراف قبائل الترازرة والبراكنة بسلطته، وقاد حملة وصلت إلى منطقة شنقيط ما بين 1678 و1679م، وأرسل فرقة عسكرية إلى تاودني، بمجرد قضائه على ثورة غريمه أحمد بن محرز. كما تلقى بيعة جيش تومبوكتو، وأجاب عنها برسالة شكر إلى سكانها، يهنئهم فيها على العودة إلى الوحدة الإسلامية عبر الخطبة باسمه خلال الجمعة، وبدا من رسائل السلطان لأهل السودان، أنه لم تكن له رغبة في غزو المنطقة، باعتبارها إقليما مغربا ارتبط تاريخيا بنفوذ المخزن. وسجلت سنة 1697م اضطرابات بالسودان أدت إلى انقطاع علاقاته بالمولى إسماعيل إلى غاية 1709م، إذ تجددت بحفاوة الاستقبال الذي خصص لمبعوثه، من قبل الباشا أحمد بن عبد الرحمن بن علي الدرعي³⁸. وكان هدف السلطان من ضمان تبعية تلك المناطق تحصيل الإتاوات، وجمع الذهب والعيبد. واعتاد القائد علال

³⁷ A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 168, 174-6 ; D. Jacques Meunié, *Le Maroc Saharien...* op. cit., pp. 585-6 ;

وحول المجهول الإسباني راجع:

H. de Castries, « La conquête... », op. cit., p. 457.

« كلف القيام بغزو مملكة غاوا أمولا طائلة للدولة »، خورخي دي هينين، ن.م، ص. 32. كما أشار عبد العزيز الفشتالي إلى أن السلطان غير، بعد ثلاث سنوات من الغزو، فرق الجيش لإراحتها من طول الغياب والحروب، وهو ما يؤكد ثقل الإنفاق الذي تطلبته الحملة، انظر: مناهل الصفا...، م.س.ذ.، ص. 164، راجع أيضا: مبارك آيت عدي، حملة المنصور...، م.س.ذ.

³⁸ M. Abitbol, *Tombouctou...*, op. cit., pp. 108-10 ; M. Morsy, *La relation de Thomas Pellow ...*, op. cit., p. 162, note 416.

Benaviga (كذا!) على القيام كل ثلاث أو أربع سنوات بحملات لهذا الغرض³⁹، كانت لها علاقات على ما يبدو، بتزويد الجيش المحترف بالإمكانات البشرية والمادية.

وقد أكد السلطان نفوذه على بلاد السودان وما والاها في رسالة إلى ابنه المامون، حين ذكره بأن أخاه الشريف كان يتلقى هدايا من سكانها على شكل تبر وعبيد، وألح عليه كي يسيط سيطرته المباشرة على ملاحه تغازي، ويكاتب العرب القاطنين بها، ويراسل حكام السودان ويراقب تحركاتهم، لكون ذلك المجال كثير الخيرات والمنافع⁴⁰، وهي تعليمات لا تخلو من دلالات على وعي المولى إسماعيل بأهمية الجنوب في تدعيم أجهزته المخزنية. ومن خلال المقارنة بين السياسة الصحراوية للسلطانين، تستوقفنا ملاحظتان:

أولاهما أنه في الوقت الذي ركز فيه أحمد المنصور على محور درعة تغازي تومبكتو، أولى المولى إسماعيل اهتمامه بالطريق الأطلسي الممتد من سوس إلى شنقيط. ويجد هذا التباين تفسيره من جهة، في ارتكاز كليهما على منشأ أسرته باعتبارها قاعدة خلفية آمنة، ومن جهة أخرى في طبيعة روابط التحالف التي جمعت السلطان العلوي بقبائل أولاد دليم والأوداية والمغافرة، نتيجة للنسب أو المصالح المشتركة⁴¹، وفي الانعكاسات التي خلفها تحول الطرق التجارية في اتجاه الشرق. وهو مؤشر من بين مؤشرات أخرى يمكن اعتماده في تبرير المواجهات العسكرية المتعددة مع أتراك الجزائر.

ثاني ملاحظة تتجسد في كون السلطان السعدي استفاد من عائدات السودان أكثر من خلفه؛ نظرا لأنه هيمن عليه عسكريا في مرحلة كانت فيها موارد الذهب مازالت منتعشة. في حين اكتفى نظيره العلوي بتأكيد تبعية جزئه الغربي له، إبان مرحلة شهدت تراجعاً ملحوظاً في إنتاج المعدن النفيس، واكمه استقرار عدة مؤسسات أوروبية بالساحل الإفريقي، أهمها شركة الهند الفرنسية التي تأسست سنة 1696م ونشطت بالسينغال⁴². فضلا عن ذلك، حالت التمردات المتعددة التي شهدتها جنوب البلاد، دون تحقيق الاستفادة المرجوة، كانت أبرزها ثورة أحمد بن محرز الطويلة الأمد، وثورة محمد العالم، اللتان أسفرتا معا عن انتشار

³⁹ Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail ...*, op. cit., pp. 63-4.

⁴⁰ « وامتدت الطاعة والحمد لله لنا في بلاد القبلة، وما والاها من بلاد الأكوار والسودان »، المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون... م.س.ذ.، ص ص. 12-14، 37.

⁴¹ M. Abitbol, *Tombouctou...*, op. cit., p. 185.

⁴² M. Morsy, *La relation de Thomas ...*, op. cit., p. 163, note 420.

انعدام الأمن بالمسالك المؤدية من السودان وإليه، بل إن المتمردين لم يتأخروا للحظة في نهب القوافل.

واكتسى الجنوب إجمالا، أهمية محورية في سياسة المخزن على عهد السلطانين، تمثلت في العناية الخاصة التي أوليت له من قبلهما، على مستوى التسيير أو المراقبة، نظرا لغناه وأهميته الإستراتيجية والاقتصادية في تدعيم الخزينة المركزية، ولدلالاته السياسية باعتباره الظهر الواقى لمهد أسلافهما. وهو ما يترجم غلبة البعد القاري على تصوراتهما، بالرغم من انفتاح المغرب على واجهتين بحريتين، وعلى حضارات ملاحية. فالمولى إسماعيل خاطب ولده المامون بخصوص الجنوب قائلا: « وتلك البلاد... خصها الله سبحانه بمسائل ومصالح زائدة لا توجد إلا بها، وقد كانت في القديم لهذه الأقطار المغربية دار إمارتها، ومركز رايته... »⁴³. ووصف أحمد المنصور بلاد توات وتيكورارين بأنها من « أجل ممالكنا التي لها عندنا الخطر والبال، ونوجه إليها بوجه الإيثار والاهتبال، ونحامي حماها من طوارق البغي والفساد »⁴⁴. مما يعني أن الجنوب شكل امتدادا طبيعيا للسلطة المخزنية، ووسيلة أساسية من وسائل استمراريتها، كرسه ضمه لشرايين التجارة، واحتضانه لقاعدة بشرية وفرت على الدوام أعدادا هامة من الأطر، وجسدته عمليات إسناد إدارة ولاياته إلى الأكفاء من أبناء السلطانين، اللذين تعاملوا بحساسية كبيرة مع أي حركة تمردية بها، وحرصا على تتبع مجريات أمورها بكل دقة، وهو ما تعبر عنه بشكل لافت رسائل المولى إسماعيل إلى ولده المامون، التي أوضح من خلالها أهمية تافيلالت باعتبارها بوابة للتجارة مع السودان⁴⁵. الشيء الذي يثبت الدور التاريخي الذي لعبه الجنوب في تدعيم الهياكل المالية والعسكرية للمخزن، عبر توفير بضائع ذات قيمة تجارية عالية.

ولم تقتصر هيمنة السلطانين على ملاحات الجنوب الصحراوي، بل امتدت لتشمل كل المناجم ذات الأهمية الاقتصادية، وهكذا عمل أحمد المنصور على استغلال ملح البارود والنحاس اللذين كان يتم تصديرهما إلى إنجلترا مقابل الحصول على العدة، باستثناء كميات

⁴³ المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون...، م.س.د.، ص.ص. 50-51.

⁴⁴ رسالة من أحمد المنصور إلى أهل توات وتيكورارين، عبد الله كَنُون، وسائل سعيدة...، م.س.د.، ص. 170.

⁴⁵ « إن بلاد تافيلالت كثيرة الخيرات، فهي محط رجال الرفاق من جميع الآفاق، ولابد لجميع تجار السودان وغيرهم من البلدان منها... فولائتها وحدها يجعل منها الرجل الحازم الجيش والعيش، لا سيما إذا كان صاحبها يتصرف في توات وتيكورارين وفي درعة »، المولى إسماعيل، ن.م، ص. 35.

قليلة من المعدن الأخير، استخدمت في صناعة بعض الأسلحة الخفيفة، وقطع غيار المدفعية، ولوازم الصناعة السكرية من خزانات وقالب. وركز المولى إسماعيل بدوره على الاستحواذ على مناجم الحديد الذي كان يسمح بتصديره لتوفير الذخائر. وكانت الرغبة في السيطرة على مناجم الفضة والرصاص، من بين الأسباب الرئيسة لإصداره الأوامر بمهاجمة زاوية تسافت. وبذلك سعى المخزن إلى تملك كل الموارد الحيوية التي من شأنها أن تعود عليه بالنفع العميم، وتخول له تعاملات تجارية في ظروف أكثر تكافؤاً. ففي الوقت الذي بقيت فيه بنية الصادرات والواردات شبه قارة من حيث نوعية المواد، اختلفت أهمية الأخيرة من مرحلة حكم سلطان إلى آخر. فالسكر وملح البارود والتمور، بضائع احتلت المراتب الأولى في الصادرات السعدية، وغطت الشموع والأصواف والجلود على مثيلاتها في عهد المولى إسماعيل⁴⁶. وأفضت السياسة الاقتصادية للسلطانين، والقائمة على الاحتكار والاستغلال الجيد لتهافت التجار الأجانب على اقتناء المنتجات المغربية، إلى انتشار رخاء تجسد في انخفاض أسعار مختلف المواد حسب شهادة الإخباريين المحليين والأجانب على السواء⁴⁷.

وإذا كان من المؤكد أن هذه الشهادات تعكس رخاء نسبياً، اتسم بتذبذبه وبارتباطه العضوي بقوة شخصيتي السلطانين، وصرامة سياساتهما، فإن العلاقات التي جمعت المخزن بالنخب التجارية كان لها ثقل امتدت تبعاته لتطول باقي القطاعات الإنتاجية. فما هي طبيعة تلك العلاقات على عهد السلطانين؟ وإلى أي حد استفاد المولى إسماعيل من تجربة سلفه في هذا السياق؟

المخزن والنخب التجارية

تمسك المخزن بمبدأ التحكم في الهياكل الاقتصادية، من خلال مراقبته الشديدة للنخب

⁴⁶ عبد العزيز الفتاحي، ... م.س.ذ.، ص ص. 210-211.

⁴⁷ A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 82, 86, 142.

قدم بالتسار بولو وصفا لتجارة السكر والعبيد في الموانئ المغربية وخاصة آسفي، انظر: ملخص رسالتين من بالتسار بولو من مراكش بتاريخ 2 و14 يونيو 1597:

Archivo General Simancas. S.E. Leg. 179 ; J. Caillé, *Le commerce anglais avec...*, op. cit., pp. 200-

216 وحول رغبة المولى إسماعيل في السيطرة على منجم الفضة، راجع: عبد الله التسافتي، ن.م.، ص ص. 56-58؛ جرمس مويط، رحلة الأسير... م.س.ذ.، ص. 144.

⁴⁷ جون وندوس، رحلة... م.س.ذ.، ص. 60؛ أبو القاسم الزباني، البستان الطريف... م.س.ذ.، ص. 185. A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 72, 130, 346.

التجارية الحضرية، واحتكاره للأنشطة الإنتاجية الحيوية، التي وضعها تحت وصاية ما عرف بتجار السلطان المشككين من الأجانب واليهود، الذين قاموا بدور صلة الوصل بينه وبين العالم الخارجي. وتندرج تلك الوصاية في سياق سعيه إلى تأمين عائدات مالية قارة، والتحقق من طبيعة الصادرات والواردات، وسد حاجياته من كل المستلزمات التي تسير في اتجاه تقوية هيكله، وتعزيز قدراته.

وفي ضوء الثقة التي حولها مخزن الأشراف لهذه الفئة، أثرت عدة تساؤلات بالتحديد حول دواعي اختيارها بدلا من المراهنة على عناصر من النخبة المحلية. فأحمد المنصور كان يستخدم في الغالب أوروبيين أو يهودا لإدارة تعاملاته التجارية الخارجية، وللإشراف على تسير القطاعات الحيوية، فقد منح رخصا باسمه لعدد من التجار أمثال خوان دي مارتشينا Juan de Marchena، وفرانسيسكو دوراتي Francisco Durate، وألفارو لوبيز Alvaro Lopez، الذين كانوا يملكون سفنا تعمل لحسابه الخاص. وجعل مزارع السكر ومعاصره تحت وصاية مجموعة من المتعهدين اليهود، كإبراهيم برطال وداوود بن إبراهيم، ونظرائهم الإنجليز وأبرزهم تومسون ويكمان Wakeman Thomson، والفرنسيين أمثال أوستاش تريفاش Eustache Trevache وسان مندريري Saint Mandrier. كما اعتمد على خدمات شيخخي اليهود التاجرين جودا ليفي وإبراهيم بن واعيش. وفوض المولى إسماعيل بدوره رخصا لعدة تجار كالنصراني دياك الذي كان يزوده بحاجياته من التحف والمواد الرفيعة من أوروبا، واليهودي جوزيف ميموران، ثم ابنه إبراهيم الذي أمده بالمال لمحاربة خصومه⁴⁸، فعينه شيخا على بني جلدته، وكلفه بعدة مهام تجارية ومالية. وأشرف في عهده كل من حايم ويوسف طوليدانو على العلاقات التجارية مع هولندا، وتكفل العطار ومحمد بن علي أبغلي بالصلات مع إنجلترا، واختص التاجر اليهودي مايسيس بارسيلاي Maysses Barciley في الروابط مع جنوة. فضلا عن آخرين أمثال روبين بنكيكي وأبراهام كوهين وغيرهم⁴⁹. ويمكن

⁴⁸ H. de Castries, *S.I.H.M.*, 1^{re} série, Ang., t. I, Paris, 1918, pp. 92, 192, 234, 239, 436, 553. H. de Castries, *S.I.H.M.*, 1^{re} série, Ang., t. II, Paris, 1925, pp. 99, 101, 165, 186, 236.
H. de Castries, *S.I.H.M.*, 1^{re} série, Ang., t. III, Paris, 1936, p. 599.

كان المولى إسماعيل يطلق على إبراهيم طوليدانو لقب « ذمينا والوكيل على قضاء حوائج دنيانا »، رسالة منه إلى هولندا بتاريخ ذي القعدة الحرام عام 1101هـ، الأرشيف الوطني الهولندي، لاهاي، سلسلة الأقاليم المتحدة رقم 1.01.08، رقم الوثيقة 30-12594... ولمزيد من التفاصيل حول أعداد التجار الأوروبيين العاملين بالمغرب السعدي، راجع: عثمان المنصوري، التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر، الرباط، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، 2001، ص ص. 460-479.

⁴⁹ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 210.

اختزال سياسة السلطانين في هذا الباب في ما عبر عنه زيدان السعدي بالقول: « كل من جاءنا من جميع الأجناس، وأصناف الأمم، نستخدموه ولا مدخل لنا في قبائلهم »⁵⁰. فلماذا تم الاعتماد على أهل الذمة؟ أيرتبط ذلك بإمكاناتهم المالية، وخبرتهم التجارية، بصفاتهم وسطاء مقبولين بين التجار الأوربيين والتجار المسلمين؟ أم أن وضعيتهم القانونية جعلتهم دائما في حالة تبعية؟ أم عبر ذلك عن رغبة المخزن في إقصاء أي دور فاعل للنخبة التجارية المحلية؟

أهل الذمة

اعتاد اليهود تاريخيا مزاولة أعمال الصيرفة والتجارة، وما ارتبط بها من حرف، واستفادوا من وضعهم بصفتهم فئة مصنفة خارج تراتبية المجتمعات التي كانوا يحيون فيها لتنمية ثرواتهم. إذ استغلوا بأوروبا مثلا، تقاليد النبالة السائدة، التي كانت تعتبر ممارسة الحرف خروجاً عن المألوف، وعن قواعد الشرف، في الهيمنة المطلقة على وظائف حيوية، شملت أحيانا مهام مالية وطبية وإدارية ببلاطات الأمراء، خولتهم مكانة متميزة، أهلتهم للاندماج في الانطلاقة الاقتصادية للعصر الحديث⁵¹.

والثابت أنهم احتكروا أنشطة مماثلة بالمغرب، أسفرت عن ثرائهم حتى أضحت صورتهم في المجتمع ملازمة للنعمة، « إذ لا يزالون غالبا الحاضرة، ومحل الخصب والرفاهية »⁵²، وساعدتهم على ذلك الحماية التي وفرها لهم السلاطين، فضلا عن غلبة روح التسامح بشكل عام على مواقف السكان منهم. مما أسهم في تكاثرهم خاصة بعد طرد الموريسكيين

SIHM., 1^{re} série, Ang., t. I, pp. 431- 436, et t. I, p. 99. et 2^e série, Fra., t. III, p. 352

ظهير إسماعيلي لفائدة التاجر دياك بتاريخ 16 رمضان 1089هـ، مديرية الوثائق الملكية؛ جون وندوس، ن.م، ص ص. 83-82.

P. Berthier, « Les plantations ... », *op. cit.*, p. 37 ; Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, *op. cit.*, p. 68.

M. Zaki, « Le Maroc et Gênes : quelques aspects des relations entre 1700 et 1800 », in *Revue Maroc-Europe*, n° 2, 1992, p. 92.

⁵⁰ رسالة من زيدان إلى هولندا بتاريخ 24 شوال 1015هـ، نفس السلسلة، رقم 1.01.08، الوثيقة 9-12594.

⁵¹ J. Marie Domenache, *Approches...*, *op. cit.*, p. 18. Voir également : N. Elías, *La société de cour...*, *op. cit.*

⁵² الحسن اليوسي، المحاضرات...، م.س.ذ.، ص. 91.

M. S. Serfaty, *Les courtisanes juifs des sultans marocains, hommes politiques et hauts dignitaires, III^e-XVIII^e siècles*, Saint-Denis, Bouchène, 1999.

من شبه جزيرة إيبيريا، واستقرار أعداد هامة منهم في أبرز المدن المغربية. فريثويت أشار إلى أن تطوان لوحدها، كانت تحتضن حوالي خمسة آلاف يهودي يستحوذون على التجارة، ويقومون بدور الوساطة بين المغاربة والمسيحيين. كما وجد بسلا في نهاية القرن السابع عشر وفق مصدر فرنسي، ما بين أربعمئة وخمسمئة فرد منهم.

وتدل هذه الأرقام على توفر الشروط الملائمة لاستقرارهم، إذ على الرغم مما أوردته المصادر الأجنبية عن معاناتهم من النقل الضريبي، ومن الابتزازات التي مارسها المخزن عليهم من حين لآخر، عبر مطالبتهم بإسهامات نقدية وعينية كلما دعت الضرورة لذلك⁵³، فإنهم تمسكوا بمواقعهم، وهو ما يعني أنهم كانوا يستثمرون بشكل جيد تفوقهم المادي لجني أرباح طائلة، لم يكن للإكراهات التي فرضها بعض السلاطين تأثير كبير عليها، خصوصا وأنهم عرفوا بلجوتهم لأساليب الاحتيال والخداع في مجالي القرض والصيرفة، وبمحabbاتهم الأطر المخزنية بواسطة الهدايا لكي تتغاضى عن تجاوزاتهم⁵⁴.

كما دفعت المراقبة الصارمة التي كان يفرضها السلطان على المدن، عددا مهما منهم إلى الاستقرار في المناطق الجبلية والناحية، ومراكمة ثروات طائلة. وإذا كان المخزن قد لجأ في حالات معينة إلى مصادرة ممتلكات بعض كبار التجار اليهود، فإنه فعل الشيء نفسه مع نظرائهم المسلمين. وهو وضع مماثل عانى منه بعض البنكيين ورجال الأعمال اليهود، الذين اغتنوا عبر توفير حاجات الحكومة الفرنسية، وبواسطة الاستفادة من الظروف المحلية لبعض المناطق، لكنهم سرعان ما فقدوا ثروتهم في نهاية حكم لويس الرابع عشر، شأنهم في ذلك شأن رجال المال والبنكيين المسيحيين. وكان الأخير يتعامل تعاملًا خاصا واستثنائيا مع يهود Metz، نظرا لأهميتهم في تجميع جيشه بالخيول والمواد الغذائية. وهي المكانة نفسها التي حظيت بها ثلة من اليهود، الذين كانوا يملكون أحمد المنصور والمولى إسماعيل من الحصول على التجهيزات العسكرية ومستلزمات السفن من أسلحة وذخائر ووسائل التجديف وغيرها⁵⁵. غير أن يهود الألزاس Alsace مثلا كان عليهم أن يؤدوا عدة ضرائب

⁵³ جون بريثويت، ن.م، ص. 99.

S. I.H.M., 2^e série, Fra., t. V, p. 526. Ch-de La Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 69.

⁵⁴ جرمان مويط، ن.م، ص. 146؛ جون بريثويت، ن.م، ص. 99، 305.

⁵⁵ G. Roos, *Relations entre le gouvernement royal et les juifs du nord-est de la France au XVII^e siècle*, Thèse de Doctorat en Histoire, dactilographiée, t. 1, Paris IV, Sorbonne, p. 399.

وعن دور اليهود في تزويد المخزن بالأسلحة راجع:

لتأمين رخصة الإقامة، ولم يسمح لهم إلا بممارسة تجارة المواد الغذائية والمواشي والاقتراض، ويعود تحديد أنشطتهم إلى الحقد الذي كان يكنه لهم السكان المسيحيون⁵⁶.

والظاهر من خلال هذه المقاربة، أن اليهود تمتعوا بوضعية اجتماعية أفضل بكثير، من تلك التي عاشها إخوانهم في الدين بشمال فرنسا، الشيء الذي يؤكد حرص المخزن على حماية كبارهم، من أجل استثمار العلاقات المتعددة التي كانت لهم مع نظرائهم الأوروبيين لتنمية تجارتهم، ولتمكينه من ضمان احتياجاته من المواد المحظورة بواسطة التهريب. وهو النشاط الذي وجد فيه اليهود من جانبهم، وسيلة ناجعة لنيل حظوة السلطانين اللذين كانا يمتنعانهم بكل أنواع الامتيازات، إضافة إلى الأرباح التي كان يوفرها لهم نشاط يستغلون فيه رغبتهما الجارحة في التزود بالمعدات الحربية لتقوية جيوشهما.

والواقع أن التهريب لم يكن حكرًا عليهم، بل شجع المخزن كل تاجر أبدى استعداداه لخوض غماره، إذ منح أحمد المنصور مجموعة من الامتيازات لفائدة عدد من المهرين الإنجليز. ونصت معاهدة الصلح والتجارة بين المولى إسماعيل وهولندا في أحد بنودها، على إعفاء السلع المهربة من العشور. لكن اليهود حافظوا في ظل هذه الصفقات على وظيفتهم بصفقتهم وسطاء لتسهيل مهمة الاتصال بالسلطان⁵⁷. إذ ليس من الصدفة أن يكون معظم هؤلاء من أصول إيبيرية من فئة المارانيس Marranes، الذين هاجروا إلى المغرب في نهاية القرن السادس عشر، وكانوا يتقنون اللغتين الإسبانية والبرتغالية، وهو ما مكنهم من التعامل بسهولة مع التجار الأوروبيين. وفي هذا الصدد، حرص السلطانان على تكليف اليهود المنحدرين من الأندلس بقضاء أغراضهم الخاصة في الخارج، فاستخدم أحمد المنصور الذمي روتي في عدة مهمات خاصة بإسبانيا. وكاتب المولى إسماعيل الملك فيليب الخامس يطلب منه حسن معاملة مبعوثه سيمون طوليدانو واليهود الستة المرافقين له، الذين وجههم جميعا

SIH.M., 1^{re} série, Ang., t. I, p. 418, et 2^e série, Fra., t. III, p. 352.

⁵⁶ G. Roos, *Relations entre le gouvernement royal et les juifs...*, op. cit., pp. 400-1.

⁵⁷ معاهدة صلح وتجارة بين المغرب وهولندا: محمد الإفرائي، روضة التعريف... (ملحق)، م.س.ذ.، ص. 92. كان السلطانان يتعاملان مع أي تاجر يجدان فيه مصلحة لخدمة أغراضهما، وتدلل على ذلك مثلاً شكاوى التجار الإنجليز من سياسة أحمد المنصور، التي كانت تفضي إلى إفلاس العديد منهم، لذا سعوا إلى تقنين التجارة مع المغرب، لكنهم اقتنعوا بصعوبة ذلك، بالنظر إلى أنه لا يمكن حسب رأيهم، تعيين وكيل ببلد يمكن لأي تاجر أن يتصل فيه بالسلطة راجع:

SIH.M., 1^{re} série, Ang., t. I, pp. 418, 455, 462-4.

لمنطقة كاليبسيا Galicia لقضاء سخرة شخصية له⁵⁸.

والواضح أن عدد اليهود الذين دخلوا في خدمة السلطان العلوي كان كبيرا مقارنة بسلفه، وهو أمر يجد تفسيره في كون عمليات طردهم من شبه جزيرة إيبيريا، لم تتسع دائرتها إلا في العقدين الأولين من القرن السابع عشر، فقد استغلوا فترة الفوضى التي أعقبت وفاة أحمد المنصور، وما واكبها من ازدهار نشاط الجهاد البحري للتدفق على الموانئ المغربية⁵⁹. وما يؤكد هذا الطرح، إقدام المولى إسماعيل على إخراجهم من وسط مدينتي مكناس وسلا، لينني لهم ملاحات خارجهما، حتى لا يختلطوا بالمسلمين⁶⁰. مما يدل على أنهم أضحوا يمثلون شريحة اجتماعية وازنة، لعب بعض أفرادها دورا حيويا في توفير سند مالي للمخزن. إذ خاطب المولى إسماعيل هولندا بخصوص حايم طوليدانو قائلا: «أو ما علمتم أن ذلك الذمي (إبراهيم ميموران)... فابن عمه (حايم طوليدانو) هنا جميع وظائف دارنا العلية بالله كلها عليه، مما يرجع إلى الأمور التي تأتياها في كل يوم مثل الإبزار والزعفران والشمع والبخور والطيب وغير ذلك، مما هو ملتزم له وقط ما حسب ماله مالا أماننا بكل عنده ما يحسبه لحالنا... والحمد لله على الملة السمحاء والمحجة البيضاء»⁶¹.

لكن هذا السند المالي قابلته بالتأكيد الاستفادة التي جناها هؤلاء من تعاملاتهم التجارية، والتي أفضت أحيانا إلى إغاضة المولى إسماعيل الذي كتب للهولنديين يقول: «فاعلموا أنا لا

⁵⁸ رسالة من بالتسار بولو إلى فيليب الثاني من مراكش بتاريخ 20-01-1594. وأخرى بتاريخ 30-01-1594: *Archivo General de Simancas, S.E., Legajo 174*.

ورسالة من المولى إسماعيل إلى ملك إسبانيا فيليب الخامس بتاريخ 20 محرم 1129هـ، ضمن محمد الإفرائي، روضة التعريف... (ملحق)، م.س.ذ.، ص. 133.. وينفرد الأرشيف الهولندي بعدة رسائل عن دور اليهود، وخاصة من أسرتي طوليدانو وميموران في العلاقات المغربية الهولندية. فإبراهيم مشنان طوليدانو مثلا هو الذي كان يستقبل القنصل الهولندي خلال قدومه إلى مكناس، راجع: رسائل المولى إسماعيل إلى هولندا، مصدر سابق، سلسلة الأقاليم المتحدة، رقم 1.01.08 رقم الوثيقتين 12594.30، 12594.30، وسلسلة رقم 1.01.04، رقم الوثيقتين 12594.26، 6916.

⁵⁹ شهدت مرحلة ما بعد أحمد المنصور حضورا مكثفا لأهل الذمة، فابنه زيدان اعتمد على عدد كبير منهم، أمثال إسرائيل بن كلوكة وموشي الليوني ويامين بن رثوخ وغيرهم. رسائل من زيدان إلى هولندا... م.س.ذ.، سلسلة رقم 1.01.04، رقم الوثائق: 6891، 6898، 6899.

⁶⁰ محمد القادري، نشر المثاني...، م.س.ذ.، ج. 2، ص. 305.

S.I.H.M., 2^e série, Fra., t. V, pp. 89, 267.

⁶¹ رسالة من المولى إسماعيل إلى هولندا بتاريخ 1 جمادى الثانية 1110هـ، مصدر سابق، سلسلة الأقاليم المتحدة، رقم 1.01.08، رقم الوثيقة 36-12594. ورسالة ماثلة بتاريخ 10 صفر 1097هـ، السلسلة نفسها، رقم 26-12596. اعتبر G. Deverdun أن ثقة الدول الإسلامية باليهود كانت كبيرة مقارنة بالمسيحيين الذين يمكنهم أن يخدموا أوروبا بالدرجة الأولى، راجع:

Marrakech des origines à 1912, Rabat, Ed. techniques nord africaines, 1959, p. 453.

نقبل أن يكون اليهود أهل الذمة واسطة بيننا وبينكم، ولا نثق نحن باليهود في شيء، سيما فيما يرجع إلى آلة الحرب والعدة التي هي الأكيدة والعمدة»⁶². وجاء هذا الموقف نتيجة لإقدام طوليدانو على الاهتمام بأغراضه الخاصة، وإهمال صفقة الأسلحة التي بعثه السلطان من أجلها.

والجلي أن الاعتبار المالي كانت حاضرة في اختيارات السلطانين اللذين وجدا في كبار أغنياء اليهود مصدرا ماليا، للحصول على موارد تمويلية ولضمان تعاملتهما الخارجية، خصوصا أن خبرتهم التجارية العالية، واعتمادهم على النظام الربوي، وانتشار وكلائهم ببلدان مختلفة، مكن من بلوغ الأهداف المرسومة بكل عناية. كما أن خضوعهم لقانون أهل الذمة، جعل المخزن لا يخشى من جانبهم أي تهديد، بل استطاع أن يفرض شروطه عليهم مقابل الحماية التي منحهم إياها. مما أضمر نيته في قطع الطريق أمام ظهور فئة من الوسطاء المحليين تكتسي وضعية متفوقة، أو شعوره بافتقارها إلى المؤهلات الكفيلة بالاستجابة لحاجياته. إذ إن عدم التنقل المستمر لعناصرها إلى أوروبا لمعرفة طبيعة الأسواق، وفهم آلياتها، حرّمها من اكتساب التجارب اللازمة لدخول رهان صعب ينبني على تعدد العلاقات وتنوعها. فالمولي إسماعيل وبخ ولده المامون على سوء معاملته لليهود الذين تكاثرت شكاويهم منه معتبرا أنهم «تحت الذمة يعطون الجزية وهم صاغرون... لا يحل قتلهم، ولا نهب مالهم... ولا يقتل منهم إلا من قتله الشرع، ولا توكل أموالهم إلا بواجبها، فأنت الذي تراحم اليهود، ولا تحسن تدبير المملكة، ولا ضبطها...»⁶³.

والملاحظ أن موجات اليهود التي نزحت من إيبريا في اتجاه مناطق مختلفة، لم تفلح عناصرها في تكوين طبقة تجارية بالمغرب، على الرغم من مراهنة المخزن على خدماتها، وسماحه لها بممارسة حرية الدين والتنقل، إذ بقيت أنشطتهم ذات طابع فردي مرتبط أساسا بشخص السلطان. بينما نجح نظراؤهم في هولندا مثلا، في تكوين بورجوازية قوية استفادت من حفاوة الاستقبال، ومن حرية إقامة المعابد⁶⁴، وهو ما ينم عن تباين في الوسط الاقتصادي

⁶² رسالة المولى إسماعيل إلى هولندا... م.س.ذ.

⁶³ المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون... م.س.ذ.، ص. 43-44. ولاحظ بريثويت أن «التجار معظمهم من اليهود، والمغاربة لا يعرفون إلا القليل من السلع الأجنبية، وليست لهم سفن ولا مراكب تجارية خاصة...»، تاريخ الثورات... م.س.ذ.، ص. 285.

⁶⁴ E. Preclin, *Le XVII^e siècle...*, op. cit., p. 52.

لم ينجح اليهود بإيطاليا مثلا في فرض أنفسهم أمام التجار والبنكيين المسيحيين. راجع:

والسياسي الذي عملوا فيه.

من هذا المنطلق، يبدو التساؤل عن سمات ذلك الوسط أمرا ضروريا. فما هي طبيعة العلاقات التي جمعت المخزن بالنخبة التجارية الحضرية على عهد السلطانين؟ وما هي نوعية العراقيل التي أعاقَتْ انخراطها في مسلسل التحديث على شاكلة ما حدث في الضفة المقابلة من البحر الأبيض المتوسط؟

النخبة التجارية المحلية

إن أي فهم لطبيعة العلاقات بين المخزن والنخب التجارية الحضرية، ولظاهرة عدم اكتساب الأخيرة صفة طبقة بأبعادها القانونية والاقتصادية، يستدعي معرفة تفاصيل عن مكوناتها وعن أشكال التنظيم المحلي لعناصرها، وعن نوعية الصلات التي كانت تربطها بأطر السلطة المشرفة على تسيير المدن. غير أن المصادر لا تقدم إجابات شافية لذلك، بقدر ما تقف فقط عند إشارات مرتبطة بردود أفعال الحكم المركزي تجاه التجار في حالات معينة تعتبر في الغالب استثنائية. أما عدا ذلك، فلا يتم الحديث عن ممارساتهم الاعتيادية، وأساليب عملهم، وموقفهم من السياسة المخزنية. مما يجعل من الصعوبة بمكان الخروج بفكرة جلية عن أصولهم الجغرافية، وتصوراتهم للمبادرة الاقتصادية، وماهية المعايير المتحكمة في تصنيفهم.

إذا كان من المؤكد أنه لم تكن هناك فئة متجانسة من التجار، تمثل نخبة واحدة، وإنما كانت عدة فئات لكل منها قاعدتها المادية، وأنشطتها المحددة، ومصالحها الخاصة، فإنها لم تتمتع جميعها باستقلالها الاقتصادي. بل ظلت تحت وصاية المخزن الذي تحكم في المدينة، باعتبارها مجالا تدور فيه أبرز معاملاتها، ومركزا للثروة المادية، وراقب بشدة وتيرة اغتناء التجار بها حتى لا تحيد عن الحدود المرسومة، أو تتجاوز ما سطرته لها السلطة السلطانية. وهي المهمة التي تكفلت بها الآلة العسكرية المحترفة، من خلال حزام القصباء الممتد على طول المسالك والممرات المؤدية من المدن الرئيسة وإليها، الذي وإن وفر الظروف الآمنة لنشاط المبادلات الداخلية، فإنه ضيق الخناق على الفئة التجارية التي أصبحت ترى فيه

Giacomo Todeschini, « Familles Juives et chrétiennes en Italie à la fin du Moyen Âge, deux modèles de développement économique », in *Annales ESC*, n° 4, 1990, p. 803.

وخاطب المولى إسماعيل الملك الإسباني فيليب الخامس، حول تسهيل مهمة اليهودي طوليدانو قائلا: « أو ما علمت أن في إيالتنا المباركة عندنا من النصارى الفرائية الكنائس والأماكين، الذين يكفرون فيهم على عاداتهم بأصنامهم وصلبانهم، وجميع ما يحتاجونه في كنائسهم، وذلك كله مكروه عندنا في ديننا، وأجزنا لهم ذلك ». وهو ما يؤكد تسامح المخزن مع أهل الذمة، أنظر الرسالة محمد الإفرائي، روضة التعريف... (ملحق)، م.س.ذ.، ص. 134.

سياجا أمام حرية تعاملاتها، وتتبع صارما لطبيعة صفقاتها وحجمها. مما حرّمها من هامش المناورة، ليس فقط بالمناطق الداخلية للبلاد، ولكن حتى في الموانئ التي خضعت بدورها لرقابة مخزنية دقيقة.

ونج عن مراقبة المخزن للشرّيين التجارية، والأسواق، والأثمان، وحركة البضائع، وقوع التجار، مهما كانت ثرواتهم وقوتهم الاقتصادية، تحت ضغط وسائله المختلفة التي تضعفهم وترغمهم على الخضوع إلى مساوماته. وإلا فإنه لا يتردد في نهب ممتلكات بعضهم كلما استشعر خطورة تضخمها؛ فقد أشار جون وندوس أكثر من مرة في رحلته، إلى أن الاغتناء عن طريق التجارة، كان يعرض صاحبه إلى مصادرة ثرواته من قبل السلطان أو باشاواته وقواده، حتى إن عددا من كبار التجار أفلسوا، أو لجأوا إلى إخفاء ثرواتهم صونا من أيادي السلطة التي قد تطولها في أية لحظة. غير أن الثقل الضريبي أدى إلى تبديدها⁶⁵.

لكن هناك فئة من التجار استثنيت من هذه القاعدة، واستطاعت الاحتفاظ بممتلكاتها، نتيجة لنجاح المخزن في احتواء بعض عناصرها، من خلال توظيفه في أجهزته، كما هو حال الحاج لوقاش الذي اشتغل أمينا بجمارك تطوان، أو من خلال استغلال شريحة من الأطر المخزنية لنفوذها من أجل تكديس الأموال، وممارسة نشاط تجاري، كما هو الشأن مثلا بالنسبة للقائد أحمد بن كوكسو، الذي كان يحكم منطقة القصر الكبير، أو أحمد بن علي الحمامي الريفي⁶⁶، وقرّبه علي بن عبد الله. وقد راسل الأخير الهولنديين يطلب منهم إرسال سفنهم للموانئ المغربية، ويحث تجارهم على الاستقرار بها، ويؤكد على ضمان الأمن لها، على غرار ما يتم التعامل به مع الإنجليز: «ونريدكم أيضا أن لا تألوا جهدا في تعيين بعض من تجاركم... ليستقروا عندنا بمحروسة طنجة أمنها الله، ليكونوا الواسطة بيننا وبينكم، فيما لا

⁶⁵ جون وندوس، رحلة إلى مكناس... م.س.ذ.، ص 42، 127. ولاحظ Mendoça أن أحمد المنصور كان يصادر ممتلكات الأغنياء، راجع:

R. Ricard, *Le Maroc à la fin du XVI^e siècle...*, op. cit., p. 202.

وانظر قصة أحد التجار الذي جرده المولى إسماعيل من ممتلكاته: J.H.M...série, Fra., t. II, pp. 164-5 et 2^e série t. V, p. 90.

وعن مصادرة ثروات أعيان سلا راجع: عبد الرحمن ابن زيدان، النزع اللطيف... م.س.ذ.، ص. 261.

⁶⁶ جون بريثويت، ن.م، ص. 100. انظر أيضا: de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 252.

وأورد المجهول البرتغالي أن «سكان فاس من بينهم تجار أثرياء، وعدد كبير من الصناع في جميع الحرف»، وص. المغرب... م.س.ذ.، ص. 65.

بد من عروضه لكم عندنا ولنا عندكم من المسائل والأغراض»⁶⁷.

وتدل هذه الأمثلة على التلازم الذي كان موجودا في أحيان كثيرة، بين ممارسة السلطة وبين تحصين الثروة، التي توفر أبهة ما هي إلا انعكاس لأبهة السلطان، كما لو أن هؤلاء التجار يتصرفون في ماله، ويتمتع هو بصلاحيات نزعها منهم متى شاء، مما يفسر لنا عدم نجاة العديد من خدامه الذين كانوا تجاراً أثرياء أو تحولوا إلى ذلك، من مساطر المصادرة. إذن فالأمر يتعلق بنظرة المؤسسة السلطانية إلى المال باعتباره مالها، وإلى الرعية باعتبارها رعيتهما تتصرف فيها كما تريد. مما يحيلنا إلى الاستنتاج بأن الثروة ظل ينظر إليها دائما من المنظور السلطاني، على أساس أنها وسيلة لضمان مكانة متميزة في التراتبية الاجتماعية، وأن تضخمها يجب أن يتم بإرادة السلطان، وشريطة أن لا يفضي إلى تخطي علوه وتفرد⁶⁸. ويمكن في هذا السياق، فهم طبيعة الارتباط العضوي بين ضعف السلطة المخزنية، وبين نمو الفئة التجارية، والعكس صحيح. فمرحلة حكم أحمد المنصور أعقبتها فوضى ساعدت على بروز نخبة تجارية ببعض المدن الجهادية، سرعان ما تمت محاصرتها بعد وصول المولى إسماعيل إلى الحكم، لتعود إلى الظهور من جديد، وإن بحدّة أقل خلال أزمة الثلاثين سنة.

والمثير للانتباه، أن المدينة التي حرص السلطانان دوما على تنصيب نفسيهما للدفاع عنها، تحت ذريعة أنها مهددة باستمرار من قبل القبائل المحيطة بها، شهدت انتعاشا ملحوظا بعد ضعف سلطتيهما. فتشجج العلاقات بين المولى إسماعيل وسكان فاس، لا يمكن تبريره بمعزل عن إصراره على احتواء الفئة التجارية، وحرمانها من المكاسب التي حققتها خلال النصف الأول من القرن السابع عشر جراء تراجع الحكم المركزي، ونشاط حركة الجهاد البحري. عينيائي سلا وتطوان. لذلك لم يتوان في مطالبتها بتقديم دعم مالي له مقابل حمايتها من هوامشها، إذ خاطب محمد بن عبد القادر الفاسي قائلا: « بقيت تلك المدينة للأندلسي

⁶⁷ رسالتان من علي بن عبد الله الحمامي إلى هولندا، الأولى بتاريخ 6 ذي الحجة عام 1106هـ... م.س.ذ.، سلسلة الأقاليم المتحدة، رقم 1.01.08. رقم الوثيقة 12594.34. والثانية بتاريخ رمضان 1110هـ، السلسلة نفسها رقم 12594.36. وثالثة منه أيضا بسلسلة رقم 1.01.04، رقم الوثيقة 6920؛ ورد فيها « والله إلا سفن الأنجليز كل ساعة تجتاز بنا وتتكلم معنا، ونجد فيهم الكلام وليس لنا معهم مهادنة، وأنتم تأتي سفنكم وتحبس على مراسينا، ولا نعرفنا بأحوالكم ولا يدور بيننا كلام ولا مراسلة ولا غير ذلك، وبالجملة فهذه الغفلة الكثيرة والمقاطعة ربما لا تليق ».

⁶⁸ راجع موقف المولى إسماعيل من كاتبه الخياط بن منصور، بعد أن تفاحشت ثروته وأصبح يتشبه بالسلطان فأمر بقتله. محمد القادري، نشر الماثني... م.س.ذ.، ج. 4، ص. 233. بالمقابل سمح أحمد المنصور لمحمد بن عمر الشاوي بالتجارة « حتى صار بذلك في عداد الأغنياء وأهل الثروة والرفاهية »، انظر: عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا... م.س.ذ.، ص. 229.

واللمطي الذين يزعمون أنهم عمارتها، فوالله ما كانوا يقدرّون أن يدافعوا عنها حتى أولاد جامع ولا الحياينة، الذين كانوا يقتلونهم بأطراف المدينة، ويسلبونهم من وراء السور... فإذا لم تكن لهم الخلافة التي يستظلون بظلها، فما هم إلا سلب لكل وارد...»⁶⁹.

إنها سياسة جعلت النخبة التجارية التي سعت إلى التحرر من ثقل السلطة السلطانية، مجبرة على الخضوع لإملاءاتها على مضض، في انتظار الفرصة المواتية لاستعادة مواقعها، وهو ما يبرر إقدام سكان فاس وتطوان على قتل قائديهما مباشرة بعد وفاة المولى إسماعيل⁷⁰. إذن فالتهديد الدائم من لدن القبائل بنهب ساكنة المدن جعل الأخيرة في موقف دفاعي حتم عليها البحث عن الحماية. ولعل موقف المخزن من الثروة جسده قوله المولى عبد الله بن إسماعيل لقائده محمد الزموري حين وجهه لتأديب أهل فاس، واعتبر أن طغيانهم ناتج عن امتلاكهم للمال الذي يفضي إلى الاستخفاف بالمملكة، وأن الحل يكمن في تجريدهم منه⁷¹.

والظاهر أن الضغوط على الفئة التجارية استفحلت في عهد السلطان العلوي، وتدل عليها كثرة الاحتجاجات والتمردات التي واجهها من قبل أعيان فاس، والدعم الذي قدمه أهل مراكش وتارودانت لخصومه. في حين لم تنطرق الإسطوغرافية لأحداث مشابهة في عهد سلفه أحمد المنصور، الذي يبدو أن مشاريعه المرتبطة بصناعة السكر وغزو السودان، أعفته نسبيا من اللجوء إلى تضيق الطوق على النخبة التجارية الحضرية، التي كانت راضية بدون شك، على الاستفادة ولو الجزئية التي وفرتها تلك المشاريع. فضلا عن ذلك، فإن قاعدتها الاقتصادية لم تكن متينة على شاكلة نظيرتها التي عاصرت حكم المولى إسماعيل، بالنظر إلى تباين الظروف المساهمة في تكوينها؛ فالأولى عانت لعقود من الزمن من عواقب الاحتلال الأيبيري للثغور، والثانية استثمرت انفتاح الموانئ المغربية على نشاط الجهاد البحري المتأجج بحوض البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، في تحقيق تراكم مادي.

⁶⁹ رسالة من المولى إسماعيل إلى محمد بن عبد القادر القاسي، خ. ح، المحفوظة رقم 1 من 737هـ إلى عهد المولى إسماعيل.

⁷⁰ M. Morsy, « Comment décrire l'histoire du Maroc », in *Recherches récentes sur le Maroc moderne : actes [du séminaire] tenu du 13 au 15 juillet 1977 à Durham, Rabat, B.E.S.M, n° 138-139, 1979, p. 128.*

كانت المدن في عهد أحمد المنصور تحت وصايته المباشرة، راجع المجهول البرتغالي، وصف المغرب...، م. س. ذ.، ص. 75-71.

⁷⁰ اعتبر A. Cour أن ثورة المدن ارتبطت بالحناق الذي مارسه السلطان عليها، راجع: *l'établissement..., op. cit., p. 214.*

⁷¹ أبو القاسم الزياني، البستان الطريف...، م. س. ذ.، ص. 248.

ومما يركي هذا الطرح، تعدد أنواع المصادرات التي تعرض لها جملة من التجار، وإقدام المولى إسماعيل أحيانا على إرغام البعض الآخر على الخضوع لضغوطاته، ولما فرضته عليه الظرفية السياسية. وفي هذا الإطار دفعته احتياجاته المالية سنة 1680م إلى إلزام التجار باقتناء كميات من الفضة وسبكها، حصل عليها فدية مقابل الإفراج عن الأسرى⁷². وهي ممارسة تعبر عن تصور السلطان لما يفترض أن تكون عليه العلاقة بينه وبينهم، أي أن على هؤلاء تكريس ثرواتهم لخدمته، والعمل وفقا لمشيئته؛ «لأن الناس إما جندي أو خدام»⁷³ على حد تعبيره في رسالته إلى أهل فاس، حين طلبوا منه تخفيف الأعباء الجبائية عليهم.

ولم تنحصر التدابير الاحتكارية للسلطانين على المجالات السابقة الذكر، بل همت الجانب النقدي إذ عمدا إلى مراقبة العملة وصيانتها من مختلف أوجه التزوير، والتحكم في أسعار صرفها، والتشديد على الترتيبات التي تحول دون خروجها من البلاد. ومن هذه الزاوية، قام أحمد المنصور سنة 1586م بالزيادة في صرف المثلقال، وحدد تبادل الذهب بالفضة من واحد إلى إثني عشر، ثم عاد ليخفضه قليلا سنة 1598م، وأبقى المولى إسماعيل «السكة على ما هي عليه من التصفية وزاد في العدة، فصارت تضرب من ستة عشر أوقية»⁷⁴. واستهدفا من وراء الرفع من قيمتها أداء نفقاتهما بكل سهولة، ومن التخفيض إدخال أكبر كمية من المعدن النفيس إلى خزائنها. ففي الحالة الأولى كانا يتسببان في ارتفاع الأسعار، وتدمير الدائنين، وفي الحالة الثانية يثيران غضب المقرضين.

ومن خلال المقارنة بين الإجراءات النقدية التي اتخذت في عهديهما، يستشف أن السيولة النقدية إبان حكم أحمد المنصور كانت كبيرة، بفعل استفادته من تداخل عدة عوامل، أبرزها

⁷² محمد القادري، نشر المظاني...، م.س.ذ..، ج. 2، ص. 293. انظر أيضا: نورمان سيكار، «البنى المجتمعية...»، م.س.ذ..، ص. 166.

⁷³ Normand Cigar, «Une lettre inédite de Mûlay Ismail aux gens de Fès», in *Hespéris*, numéro spécial, 1962, pp. 114-5.

انظر أيضا، أبو القاسم الزباني، الترجمان المغرب...، م.س.ذ..، ص. 27.

⁷⁴ رفع أحمد المنصور العملة للتمكن «بواسطة أقل قدر ممكن من الأموال تسديد أجور الجنود» خورخي دي هين، ن.م، ص. 175. ثم محمد القادري، نشر المظاني...، م.س.ذ..، ج. 1، ص. 367 وج. 4، ص. 105، راجع أيضا: عثمان المنصوري، ن.م، ص. 95-96.

A.-G.-P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine ...*, op. cit., p. 65.

اضطرت الدولة العثمانية أمام تنامي الصعوبات الاقتصادية الناجمة عن المجهود الحربي إلى إجراء تخفيضات متتالية للعملة، راجع: روبر مانتران، تاريخ الدولة العثمانية...، م.س.ذ..، 1993، ص. 338؛ مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000، ص. 19، 23-27.

أموال افتداء أسرى معركة وادي المخازن، ونتائج فتح السودان، وتنشيط الصادرات بالاعتماد على السكر، وتحويله الضرائب من عينية إلى نقدية⁷⁵. أما في عهد المولى إسماعيل، فقد نتج عن سياسة الاذخار التي سلكها قلة السيولة النقدية بالمغرب⁷⁶، التي تفاحشت بعد أن أصدر قراره بوقف التعامل بعملة النصارى. وأنشأ لهذا الغرض دورا للسكة لاستبدالها وزنا بوزن بالعملة المحلية، مع تنفيذ أشد العقوبات بالمخالفين، وأفضت تلك الخطوة حسب رواية ابن الحاج، إلى « إخفاء الناس الأغنياء لأموالهم فقل البيع والشراء وارتفعت الأسعار، وحط ثمن الرباع والأرض والأجنة والديار »⁷⁷. وهو إجراء ارتبط على ما يبدو بتكاثر عمليات افتداء الأسرى، وما نتج عنه من انتشار واسع لعملة الدول التي ينتمي إليها المفتدون، وعبر عن عزم السلطان على توحيد المعاملات النقدية للحد من ظاهرة تهريب العملة من البلاد، خصوصا وأن تدفق الذهب تراجع بشكل ملحوظ عما كان عليه الأمر في عهد سلفه.

ولا يخفى ما لهذه التدخلات من آثار سلبية على أنشطة النخبة التجارية، التي اقتصر دورها على تحمل تبعات القرارات السلطانية المفضية أحيانا إلى نتائج مخربة، فقد أفلس على إثرها حتى التجار الأجانب وأهل الذمة، الذين كانوا يشتكون من ارتفاع أسعار العملات المغربية، وما واكبه من خسائر تكبدوها خلال إقدامهم على بيع المهرب منها ببلدانهم الأصلية. غير أن الانعكاسات على هؤلاء ظلت أخف وطأة، بالنظر إلى الأرباح الطائلة التي كانوا يجنونها من رخص الاحتكار المخولة لهم من قبل المخزن⁷⁸، في حين لم تجد النخبة التجارية المحلية بدائل كثيرة تعوضها عن الأضرار التي كانت تلحق بها، بل بقيت تمارس أنشطتها تحت رحمة التذبذبات التي شهدتها العملة، مما أعاق تقوية دعائم هياكلها.

⁷⁵ إبراهيم الحساني، ديوان قبائل سوس...، م.س.ذ.، ص. 19 وما تلاها.

⁷⁶ لاحظ جون وندوس أن المولى إسماعيل لم يكن يستخدم السيولة النقدية، حتى في مجال الحرب أو البناء. انظر: رحلة...، م.س.ذ.، ص. 82.

⁷⁷ أحمد ابن الحاج، الدر المنتخب...، م.س.ذ.، ج. 7، ص. 379-380؛ محمد القادري، نشر الثاني...، م.س.ذ.، ج. 4، ص. 105.

⁷⁸ حسب خورخي دي هنين لم يؤد الرفع من قيمة العملة إلى « إعاقة التجار المسيحيين عن نقل الذهب نحو بلادهم كما كانوا يدعون، لأن هؤلاء التجار لم يتضرروا من ارتفاع أسعار الذهب، لأنهم كانوا يرفعون من أثمان سلعهم بقدر ارتفاع ثمن الذهب الذي استمروا في إخراجهم من الملكية بنفس الوتيرة، وكان ثمنه الأصلي لم يقع عليه أي تغيير راجع: وصف الممالك المغربية...، م.س.ذ.، ص. 175. ثم انظر:

Caillé, « Le commerce anglais... », *op. cit.*, p. 213.

وقصارى القول إن المؤسسة المخزنية اتخذت من احتكار مكونات الأنشطة الاقتصادية حجر الزاوية في سياساتها، بذلت كل ما في وسعها لجعل عائداتها وعائدات الفئات المشرفة عليها في خدمة أهدافها. ولم يقتصر هذا الوضع على المجال الاقتصادي، بل شمل مجال الدبلوماسية التي ظلت بدورها حكرا على اختيارات السلطانين. فما هي أهم المظاهر الدالة على ذلك؟

الأسلوب الدبلوماسي

مهما تباينت التقاليد والأساليب التي درجت عليها الدول في ربط الاتصالات مع بعضها البعض، ومهما اختلفت صفات ورتب الأشخاص الذين أنيطت بهم تلك المهمة، فإن كل ذلك صب في نشاط حمل اسم الدبلوماسية، توسعت دائرة نفوذه تبعا للقوة الاقتصادية للبلد، ولمدى قدرة مؤسساته على اختراق الآفاق البعيدة للظفر بمنافعها، وللاستئثار بقصب السبق في التعامل معها، وإن ظل مفهومه يثير جدلا بين المختصين. فحسب القاموس الإنجليزي لأكسفورد: «الدبلوماسية هي قيادة العلاقات الدولية عن طريق المفاوضات، وهي طريقة تسوية تلك العلاقات بواسطة السفراء والمبعوثين، وهي النشاط أو الفن الذي يمارسه الدبلوماسي»⁷⁹. أما بحسب معجم العلوم الاجتماعية فلها «معان مختلفة، وهي تشير بوجه عام إلى تبادل الممثلين بين الدول عن طريق البعثات الدبلوماسية المؤقتة، أو الدائمة... بغية الوصول إلى تسوية لمشكل ما... (أو) إلى إقامة العلاقات السياسية التبادلية بينهما على وجه مرض»⁸⁰.

وإذا كانت الدول الأوروبية قد راهنت منذ عصر النهضة على توظيف الأداة الدبلوماسية ضمن مشروعها التحديثي، فإن سياسة العالم الإسلامي في هذا الإطار، وإلى غاية اصطدامه بالحمولات الاستعمارية، بقيت موضع تساؤل عن ماهيتها، وعن طبيعة المنطلقات التي تحكممت في توجيهها. إذ على الرغم من حرص الخلفاء والملوك والسلاطين على انتقاء مبعوثيهم من أهل الشريعة والقلم والسيف؛ أي من الشخصيات التي توفرت فيها من

⁷⁹ H. Nicolson, *Diplomatie*, trad. de l'anglais par P. Armstrong, (Histoire et société d'aujourd'hui), Newchatel, La baconnière, & Paris, La colonne Vendôme, Lausanne, les presses des imprimeries réunies, 1948, p. 14.

⁸⁰ إبراهيم مذكور، معجم العلوم الاجتماعية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص. 260.

منظورهم المؤهلات الشخصية والمعرفية لقيادة المفاوضات، أو للبت في نازلة من نوازله⁸¹، نجد أن الآليات التي ارتكزت عليها تصوراتهم للممارسة الدبلوماسية، اختلفت عن مثيلاتها في أوروبا، واكتنفها نوع من الغموض الذي استعصى معه تشخيص كنهها.

وفي هذا السياق، ربطت المخزن المغربي بالدول الأجنبية عدة روابط، جعلته يقدم على إيفاد مبعوثين لتمثيله، وللتعبير عن مواقفه. ترى أمثل هذا الإجراء عملا دبلوماسيا؟ ومن ثم أدلت مكونات البعثات وطرق انتقائها، وأساليب تواصلها، عن تجذر فكر دبلوماسي مخزني له ضوابطه ومقوماته، التي تعكس استمراريته في عهد أحمد المنصور والمولى إسماعيل؟ أم أن الفعل الدبلوماسي اتخذ طابعا ظرفيا، ومستمدا من خصوصية هذا السلطان أو ذاك⁸²؟

إن أول ما يكشف عنه تمحيص الخطابات المخزنية المرسلة إلى الدول الأجنبية، أن ثمة تركيزا في طياتها على تداول ألقاب تجد مرجعياتها في الثقافة الإسلامية، من قبيل الرسول والخادم والسفير، ثم مصطلح الإنشادور الذي تسرب من اللغة الإسبانية⁸³، وكلها تسميات شخصت مفهوم المبعوث الذي كان يكلفه السلطان بمهمة ما.

أما على مستوى اختيار هؤلاء المبعوثين، فيلاحظ الحضور المستمر للكتاب والقواد والرياس والتجار ضمن الوفود الرسمية بصفتهم أعضاء، أو على رأسها. والظاهر أن المراهنة على خدماتهم ارتبطت بدرجة الثقة التي وضعها السلطان فيهم، وبحجم الخبرات والتجارب المكتسبة لديهم في القضايا السياسية، وفي شؤون البحر والتجارة⁸⁴. ويمكن من هذه الزاوية، تعليل هيمنة الرياس والتجار، وتحديد أهل الذمة، على أسلاك البعثات، وإن تباينت تشكيلاتها حسب أهداف السفارة، إذ غالبا ما قادها القواد والكتاب في الحالات التي كانت تتناول فيها مواضيع ذات أبعاد سياسية أو عسكرية. ونتج عن هذا الوضع الاعتماد

⁸¹ محمد التابعي، السفارات في الإسلام، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1988، ص ص. 84-86.

⁸² لمزيد من التفاصيل حول دبلوماسية السلطانين، يمكن الرجوع إلى: محمد جادور، «الدبلوماسية السعيدية» الدبلوماسية العلوية...»، م.س.ذ.، ص ص. 223-253.

⁸³ محمد بن تاويت، «من زوايا التاريخ المغربي»، مجلة تطوان، ع. 8، 1963، ص ص. 78-81، وع. 7، 1962، ص ص. 132، 135-137، 141، 144. وورد في رسالة من المولى إسماعيل إلى هولندا ما يلي: «إن ذلك الذمي (إبراهيم ميموران) الذي أتاكم منا، سفيرنا إليكم»، الأرشيف الوطني الهولندي لاهاي، سلسلة الأقاليم المتحدة رقم L01.08، الوثيقة رقم 36-12594.

⁸⁴ محمد الإفرائي، نزهة الحادي...، م.س.ذ.، ص. 178؛ عبد الرحمن ابن زيدان، العز والصولة...، م.س.ذ.، ج. 1، ص. 284.

على ثلة من المبعوثين لمرات متعددة أحيانا، كما هو الشأن مثلا بالنسبة لأسرة الغساني التي تكفل منها أبو القاسم بافتكاك الأسرى في عهد أحمد المنصور، ومحمد بن عبد الوهاب في عهد المولى إسماعيل⁸⁵.

كما اختلفت أعداد حاشية البعثات، فتراوحت بين أربعة وحوالي عشرين شخصا⁸⁶، وفقا لطبيعة المهام التي أسندت لها، وتبعا لقيمة النفقات المخصصة لتمويلها، وإن كانت المعلومات المتوفرة لا توضح برصد المخزن في هذا الصدد لأية ميزانية. وهكذا قضى عبد الواحد عنون سفير أحمد المنصور، مدة ستة أشهر في ضيافة الملكة إليزابيث، التي هيأت له ومرافقيه كل مستلزمات التموين الضرورية، والسلوك نفسه مارسه الملكة آن تجاه أحمد بن قارديناش⁸⁷.

غير أن بعض المبعوثين واجهوا صعوبات مالية جمة، نتيجة لارتفاع تكاليف المصاريف الخاصة بهم وبأفراد حاشيتهم، إذ اضطر «ابن تورا دي زاري» رسول المولى إسماعيل، إلى توجيه طلب للحصول على الدعم من ملكة إنجلترا، بل لجأ عبد القادر بيريس قبل أن يغادر مدينة تطوان، إلى الاقتراض حتى يتمكن من تمويل سفارته⁸⁸. ومما يدل على تدمير الدول المستقبلية لمبعوثي المخزن من الإنفاق عليهم، أن أحد الموظفين الإنجليز عبر في إحدى رسائله عن عدم استعداداه توفير الغذاء لبعثة علي بن عبد الله⁸⁹.

وتؤكد هذه القرائن وغيرها، إما هزالة المبالغ المالية التي كان المخزن يخصصها لبعثاته، أو انعدامها، وتركيزه بالمقابل على وجود التجار في الغالب ضمن الوفود السفارية⁹⁰، وما واكب ذلك من تقديمهم لدعم مالي يستردونه من خلال استفادتهم من الصفقات التي كانوا يعقدونها.

ولم تتوقف العراقيل التي اعترضت البعثات عند هذا الحد، بل امتدت لتهم وسائل سفرهم، فغياب السفن المعدة لنقلهم جعل مواعيد الرحلات تحت رحمة الأساطيل الأجنبية المتجهة

⁸⁵ محمد القادري، نشر الثاني... م.س.ذ.، ج. 3، ص. 173.

⁸⁶ محمد بن تاويت، ن.م، ع. 8، 1963، ص. 53، راجع أيضا: روجرز، تاريخ العلاقات... م.س.ذ.، ص. 93.

⁸⁷ محمد بن تاويت، ن.م، ص. 53؛ روجرز، ن.م، ص. 114.

⁸⁸ روجرز، ن.م، ص. 117-118؛ جون بريثويت، ن.م، ص. 86.

⁸⁹ S.I.H.M., 2^e série, Fra., t. II, p. 489.

⁹⁰ محمد بن تاويت، ن.م، ع. 8، ص. 51.

إلى الشواطئ المغربية؛ فقد أجبر التمكروتي على انتظار العمارة العثمانية مدة ثلاثة أشهر ليمتطيها في اتجاه القسطنطينية. وكاتب المولى إسماعيل لويس الرابع عشر ليبعث له مركبا يحمل سفيره إليه⁹¹، شأنه في ذلك شأن حاكمه على الشمال علي بن عبد الله الحماصي، الذي ألح على الهولنديين بأن يسمحوا لسفنهم بالتردد على الموانئ المغربية لنقل المبعوثين والرسائل⁹². وعبر زيدان السعدي عن هذه الوضعية بكل جلاء حين خاطب الأقاليم المتحدة بالقول: «والذي نؤكد عليكم... أن تدبروا لنا في سفينة تكون حصينة وثيقة توجهون بها إلى ساحلنا بآسفي، ليركب فيها خدامنا وأرسالنا الذين عناهم للقدوم والوصول إلى بلادكم وإلى غيرها، والمراد منكم أن تبادروا لنا بها غاية المبادرة، لأننا ما ننتظر في تجهيزهم إلا وصول هذه السفينة التي توقف سفرهم عليها، فاعزموا بها علينا كل العزم كما هو المعتاد منكم...»⁹³.

ولا يخفى ما لهذا الافتقار في وسائل النقل البحري، من انعكاسات على تحكم المخزن في المبادرة الدبلوماسية التي ظلت بيد الدول الأجنبية، توظيفها بما يتماشى مع مصالحها، وتفرض توقيت مغادرة البعثات وعودتها. بل وتسهم أحيانا في تأجيلها، كما حدث لأحمد المنصور الذي ألغى سفارة إلى الملك الفرنسي، بعد أن رفض قائدا سفينتين الانتظار لمدة أطول إلى غاية انتهاء الوفد المخزني من تهيئ مستلزمات الرحلة⁹⁴.

وفي وجه آخر لتلك العراقيل، أهمل المخزن مسألة إفاد مترجمين من ذوي الكفاءة والثقة الشيء الذي أعاق عمل البعثات وعطل أهدافها، وإلا كيف نفسر إقدام عبد الواحد عنون سفير أحمد المنصور على دس السم لأحد مترجميه الذي تورط في تسريب المعلومات لفائدة الإسبان. كما اصطدم محمد بن حدو العطار بصعوبات جمة خلال بحثه عن مترجم ليرافقه إلى إنجلترا⁹⁵. والمثير للانتباه، أنه بالرغم من توفر أحمد المنصور على عدد من المترجمين

⁹¹ عبد القادر زمامة، «مع أبي الحسن التمكروتي في رحلته إلى القسطنطينية»، مجلة المناهل، ع. 25، 1982، ص. 227. راجع أيضا: محمد بن تاويت، ن.م، ع. 7، ص. 134-135.

⁹² رسالة من علي بن عبد الله الحماصي إلى هولندا بتاريخ أواسط رمضان عام 1110هـ، الأرشيف الوطني الهولندي لاهاي، سلسلة الأقاليم المتحدة رقم 1.01.08، رقم الوثيقة 12594.36.

⁹³ رسالة من زيدان إلى هولندا بتاريخ 18 صفر 1015هـ، سلسلة الأقاليم المتحدة 1.01.04، رقم الوثيقة 6890.

⁹⁴ J. Caillé, «Ambassades et missions marocaines en France», in *Hespéris*, n° 5, 1960, p. 24.

⁹⁵ روجرز، ن.م، ص. 92. وحول عبد الواحد عنون، راجع: محمد حجي، الحركة الفكرية...، م.س.ذ.، ج. 2، ص. 388، هامش 37.

أمثال: عبد المالك العليج، وعبد الرحمان كطنهو Catanho وأبي القاسم الحجري، ويعقوب روتي Ruti، والأندلسي عبد الله دودار، فإنه لم يعمل على إرسالهم ضمن البعثات⁹⁶.

ومما يركي هذا التصور، تشدد مواقف قلة من المبعوثين المغاربة الذين كانوا يتقنون بعض اللغات الأجنبية، تجاه كل المحاولات الرامية لتمرير مشاريع المعاهدات، أو لتأويل بنودها التي كان يتم اقتراحها دوماً من قبل الدول الأوروبية. ويمكن الاستشهاد في هذا السياق بعبد الله بن عائشة، الذي رفض الانصياع لإملاءات المفاوضين الفرنسيين⁹⁷، ثم الحاج محمد تميم والحاج معينو اللذين وقعا بالأحرف الأولى على مشروع اتفاقية سان جرمان أون لي-Saint-Germain-en-laye سنة 1682م، دون الانتباه إلى مضامين بعض البنود بعد ترجمتها، فلجأ إلى إخفائها عن ولي نعمتهما⁹⁸.

وعلى الرغم من معاناة معظم الوفود الدبلوماسية المخزنية من معضلة الترجمة، فقد أظهرت ثلة من المبعوثين كفاية عالية في إنجاز مهماتها، كما هو الشأن بالنسبة للرايس مرزوق، وللقائد إبراهيم السفيني رسولي أحمد المنصور، ولمحمد بن حدو العطار سفير المولى إسماعيل، ثم إبراهيم ميموران Maimoran الذي كان يرسل الهولنديين بلغتهم⁹⁹. حتى إن بعض المبعوثين أضحوا مختصين في العلاقات مع دول معينة، كالذمي روتي على سبيل المثال في ما يتعلق بروابط السلطان السعدي مع إسبانيا، وطوليدانو Toledano في ما يخص صلات السلطان العلوي بهولندا¹⁰⁰.

⁹⁶ أحمد ابن القاضي، *المنقى المقصور...*، م.س.ذ.، ج. 2، ص. 602.
S.I.H.M, 2^e série, Fra., t. II, p.173 ; A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., p. 42.

⁹⁷ إبراهيم حركات، « ابن عائشة أمير البحر في عهد المولى إسماعيل », مجلة دعوة الحق، ع. 4، 1969، ص ص. 128-126.

⁹⁸ Malika Abouelwafaa, *La course salétine et ses conséquences sur les relations franco-marocaines*, Thèse de 3^e cycle en histoire, dactylographiée, Lyon III, 1999-2000, pp. 223, 227-30.

⁹⁹ Roland Lebel, « Le Maroc dans les relations des voyageurs anglais au XVI, XVII, XVIII siècles », in *Hespéris*, t. IX, 1999, p. 273.

انظر أيضاً: روجرز، ن.م، ص. 93-95. وحول إبراهيم ميموران، راجع: رسالة المولى إسماعيل إلى هولندا بتاريخ 26 صفر 1111هـ، مصدر سابق، سلسلة الأقاليم المتحدة رقم 1.01.08، الوثيقة رقم 12594.36.

¹⁰⁰ رسالة من المولى إسماعيل إلى هولندا مؤرخة برابع صفر 1099هـ، مصدر سابق، سلسلة الأقاليم المتحدة، رقم 1.01.04، الوثيقة رقم 6916، ثم رقم 6922. ثم رسالة من Martin de Arriaga إلى الملك الإسباني من مراكش بتاريخ: 1599-2-12.

Archivo General de Simancas, Espagne, S.E., Legajo 184. 36

وانطلاقاً مما سبق، يمكن التساؤل عن الثوابت والمتغيرات التي تحكمتم في الممارسة الدبلوماسية على عهد السلطانين، وعن طبيعة الضوابط التي ارتكزت عليها، والآليات التي دأبت على توظيفها في التواصل مع الدول الأجنبية.

إن أي فهم للتوجهات الدبلوماسية للسلطانين، لا يمكن أن يتم إلا من خلال وضعها في سياق الظرفية الدولية التي أفرزتها؛ فحقبة حكم أحمد المنصور تميزت بالصراع الإسباني العثماني في حوض البحر الأبيض المتوسط، وبغزم الإنجليز على التحالف مع المغرب لضرب مصالح الملك فيليب الثاني. غير أن السنوات الخمس الأخيرة من عهد السلطان السعدي، شهدت تراجعاً للتهديدات الإسبانية ولنظيرتها العثمانية، بفعل تعدد جبهات الحروب التي كانت تخوضها هاتان الإمبراطوريتان¹⁰¹.

وأحسن أحمد المنصور، في هذا السياق، استثمار التطاحن الإنجليزي الإسباني لخدمة مصالحه المتمثلة أساساً في ضمان تدفق الأسلحة ومعدات بناء السفن، وحاول قدر الإمكان تفادي الدخول في تحالف مكشوف، من شأنه إغاشة القوى المتربصة بالمغرب، وهو ما أخضع تحركاته الدبلوماسية لهاجسي التردد والحذر، ودفع الإنجليز إلى اتهامه بعدم الالتزام¹⁰²، أمام مراهنته المتكررة على الماطلة والتسويق، إذ استخدم كل أساليب المراوغة حتى لا يقدم الدعم للأمير البرتغالي وحملة دريك¹⁰³ Drake. ومن هذا المنطلق أظهر مهارة عالية في سياسته الخارجية التي نجحت في امتصاص الخطرين الإسباني والعثماني، وفي إرباك حسابات الإسكوريال والباب العالي، ويجد ذلك تبريره في ما راكمه هذا السلطان من تجارب بمنفاه.

بينما اتسم المحيط الدولي في عهد المولى إسماعيل بتراجع نفوذ الإمبراطوريات التقليدية، وبدخول لويس الرابع عشر في حروبه الأوربية، وما واكبهما من خضوع التفوق الاقتصادي، ومن ثم الدبلوماسية، لهيمنة دول أوروبا الشمالية الغربية، التي طمحت إلى اختراق الآفاق البحرية عبر تحرير ولوج الموانئ والقضاء على القرصنة، الأمر الذي كثف من المحاولات الرامية إلى توسيع دائرة الاتصالات مع المغرب، وجعل السلطان يبدو في ممارساته الدبلوماسية

¹⁰¹ J. B Weiner, *Al-Mansour et l'or de Tombouctou*, in *Les Africains*, Paris, Jeune Afrique, t. II, 1977, p. 242. Voir Aussi : J. Brignon et autres, *Histoire du Maroc*, Paris, Hatier, 1990, p. 212.

¹⁰² حمد بن تاويت، ن.م، ع. 8، 1963، ص. 47، راجع أيضاً:
D. Cabanelas, *Proyecto de alianza...*, op. cit., pp. 66-72.

¹⁰³ روجزر، ن.م، ص. 50.

أكثر إصرارا من سلفه، على تحصين البلاد من كل المخططات التي سعت إلى إرغامها على الانفتاح. وهو ما دلت عليه الصعوبات التي واجهته في التوصل إلى توافق حول جملة من مشاريع المعاهدات مع الدول الأوروبية، وأكدته توظيفه المستمر للمرجعية الدينية في خطابه الدبلوماسية التي استهدفت إظهار عظمة الإسلام وتفوقه على ملة التثليث من جهة، وإبراز أهمية عودة الخلافة إلى أسرته الشريفة بدلا عن العثمانيين، من جهة أخرى¹⁰⁴.

ومما يظهر حضور البعد الديني في تصورات، أنه حين فوض لعلي بن عبد الله الحمامي التفاوض مع الهولنديين حول شروط المهادنة وافتداء الأسرى، أمره بصياغة العقد على أساس « الشروط المتعارفة الجائزة في ذلك بين العوائد البحرية والشريعة الإسلامية »¹⁰⁵، بل إنه رفض رفضا قاطعا أن يفتدي الأسرى الهولنديين بالمال، معللا ذلك باليمين الذي صدر منه في الموضوع¹⁰⁶.

ويعد طغيان الحماس الديني على اللغة الدبلوماسية للمولى إسماعيل، من الفروق الواضحة التي ميزته من نظيره السعدي، وجعلته أكثر اندفاعا في سياسته الخارجية. غير أنه استغل الأخيرة وعلى شاكلة سلفه في تأمين العدة، إذ صرح للهولنديين أنه يبحث عنها من بلادهم ومن بلاد غيرهم، ويكثر البحث والاعتناء بها¹⁰⁷، وطلب الحصول على المجاذيف « والقُلُوع والأحبال والسواري والكور والبارود والعدة وغير ذلك من آلات السفين »¹⁰⁸. وثار

¹⁰⁴ رسالة من المولى إسماعيل إلى جيمس الثاني ملك إنجلترا مؤرخة بشعبان عام 1109هـ، محمد الإفرائي، روضة التعريف... (ملحق)، م.س.ذ.، ص ص. 117-123.

¹⁰⁵ رسالة من المولى إسماعيل إلى هولندا بتاريخ 5 رجب 1108هـ، مصدر سابق، سلسلة الأقاليم المتحدة 1.01.08، رقم الوثيقة 12594.35. للوقوف على حضور البعدين التاريخي والديني في دبلوماسية المولى إسماعيل، انظر: M. Jadour, « Les usages du temps historique dans la diplomatie : le cas de Mûlay Ismaïl » in *Revue Basamat (nouvelle série)*, n° 3, Casablanca, Faculté des lettres et des sciences humaines Ben M'sik, 2008, pp. 33-43.

¹⁰⁶ رسالة من المولى إسماعيل إلى هولندا بتاريخ 8 صفر 1097 موافق 02-09-1686، المصدر نفسه، سلسلة الأقاليم المتحدة 1.01.04، رقم الوثيقة 6916. وحول حضور البعد الديني في دبلوماسية المولى إسماعيل، راجع: H. De Castries, *Moulay Ismaïl et Jacques II, une apologie de l'islam*, Paris, Ernest Leroux, 1903, pp. 59, 62.

¹⁰⁷ رسالة من المولى إسماعيل إلى هولندا، بتاريخ 20 شعبان 1098هـ...، م.س.ذ.، سلسلة الأقاليم المتحدة رقم 1.01.08، رقم الوثيقة 12594.27.

¹⁰⁸ رسالة من المولى إسماعيل إلى قنصل هولندا، وإلى الذمي حاييم طوليدانو بتاريخ 24 جمادى الأولى 1096هـ، سلسلة الأقاليم المتحدة رقم 1.01.08، الوثيقة رقم 12594.25. وأخرى منه إلى هولندا بتاريخ 10 رمضان 1095هـ، نفس المصدر والسلسلة، رقم الوثيقة 12594.24.

ثأثرته كلما تعمد الهولنديون تزويده بأسلحة فاسدة، أو لا تتماشى مع رغباته، كما هو شأن « العدة المكسورة والبارود الحائل »، أو المكاحل القصيرة التي لا يستخدمها المغاربة، والتي توصل بها بعد عودة مبعوثه حاييم طوليدانو¹⁰⁹، فرد في إحدى رسائله بالقول: « لم نر في مخالطتكم ربحا ولا نفعاً، إذ كل ما جاءنا من عندكم من العدة الأولى ولا الثانية، مع خدمنا المعلم بن ديبة التطاوني، ومع خدمنا حسن اشكيرد لا خير فيها ولا في صنعها، ففي أيام قلائل تكسرت منها مكاحل كثيرة... »¹¹⁰.

والملاحظ أن السلطان العلوي كان حذرا أيضا في تعامله مع الدول الأوروبية، فقد زواج بين الأسلوب التفاوضي، وبين رفع راية الجهاد لاقتحام الثغور المحتلة، مما أوقع مبعوثيه أحيانا في أوضاع لا يحسدون عليها. فسرعان ما تعرض « ابن تورا دي زاري » للاعتقال من قبل الإنجليز، بعد أن أسرت سفنهم من قبل مجاهدي سلا¹¹¹، لأنهم وجدوا في ذلك تناقضا صارخا مع المهمة السفارية التي قدم المبعوث من أجلها.

فكيف كانت نظرة المخزن للدبلوماسية؟ أولاها السلطانان العناية اللازمة لضمان حضورهما الفاعل في الساحة الدولية؟ أم أن الأخيرة هي التي أدخلتهما في منظومتها، وكرست لذيها وعيا بأهمية المكاسب التي يمكن تحقيقها لخدمة سياستيهما الداخليتين؟

إذا كان من المسلم به أن حققتي حكم السلطانين تزامنت مع بدايات نضج القوة الاقتصادية للدول الأوروبية، التي أضحت تدرك تمام الإدراك البعد الإستراتيجي لسلح الدبلوماسية في جني أرباح طائلة، وفي مد النفوذ إلى المناطق الحيوية في العالم، فإن مؤسسة المخزن اضطرت من جانبها إلى الانخراط ولو جزئيا، في تحمل تبعات ذلك المد الذي أصبح جارفا، فحاولت الاستفادة منه قدر الإمكان، في توفير حاجياتها، التي تخدم بالدرجة الأولى آليات تمتين هياكلها على الصعيد الداخلي؛ بمعنى أن الدبلوماسية ظلت تعكس، من منظور السلطانين، أداة من الأدوات لإظهار تعاليها أمام أتباعها وخصومها على السواء، ولإثبات قدرتهما على الاستمرار في تسيير شؤون البلاد، الذي يستمد بدوره من إبراز معالم التفوق على القوى الخارجية. وفي هذا الصدد شكلت الهدايا التي اعتاد المبعوثون حملها خلال عودتهم

¹⁰⁹ رسالة من المولى إسماعيل إلى هولندا بتاريخ صفر الخير 1097هـ، ... م.س.ذ.

¹¹⁰ رسالة من المولى إسماعيل إلى هولندا، بتاريخ منتصف ذي القعدة الحرام عام 1101هـ، سلسلة الأقاليم المتحدة رقم 1.01.08، رقم الوثيقة 12594.30.

¹¹¹ روجرز، ن.م، ص ص. 115، 118.

من مهماتهم، إحدى الوسائل التي اعتمد عليها المخزن لزعزعة المخيلات، وكأن قيمتها تجسد جزية، وتعبّر عن درجة اعتراف الآخر بقوته.

وكان المولى إسماعيل متشددا بشأن الهدايا، ويلح على أن تتماشى مع مقامه، فمرة استصغر ما أرسله له الهولنديون قائلا: «فما ألقينا فيها تحفة مليحة ولا عدة صحيحة... وإن كان فيها حويجات من التحف فقد أفسدها هوى البحر... وليس فيها ما يهديه الناس لأمثالنا، ولا ما تقصد به الملوك من الأقطار البعيدة»¹¹²، بل إن معاهدة مغربية هولندية تضمنت بندا يربط تنفيذ شروطها، واستكمال مقتضياتها بوصول الهدية¹¹³. وفي الوقت الذي كان فيه المولى إسماعيل يرسل الهدايا إلى الهولنديين¹¹⁴، لم يسجل إصرار من قبل هؤلاء على الربط بينها وبين استمرار علاقاتهم مع المغرب.

ويمكن القول إن الدبلوماسية المخزنية بقيت في مداها وجزرها، مطبوعة بطابع أخلاقي وديني مستوحى من قاعدة الفصل بين دار الإسلام ودار الحرب، وإن ظهر السلطانان معظهر أكثر انفتاحا في تعاملتهما، اتسم بالحركية القائمة على الرغبة في استثمار الظروف لصالحهما، والتكيف مع المستجدات الطارئة، لكن الآليات التي كرسها لهذا الغرض عبرت عن موقف انتظاري انطلق من اعتبار الفعل الدبلوماسي، إما باعتباره رداً على المبادرات المتخذة من قبل الدول الأجنبية، أو قناة من القنوات التي يمكن اللجوء إليها لقضاء حاجة معينة، ولمدة محدودة.

والخلاصة أن الدبلوماسية المخزنية على عهد السلطانين، بالرغم من افتقارها للوسائل التي كان من الممكن أن تساعدها على الإشعاع، فإنها أسهمت في تنشيط الأحداث الدولية، نظرا لقوة شخصيتهما، وللضغوط التي فرضها الموقع الجغرافي للبلاد، إذ تم الحرص على ربط العلاقات مع كل الدول الأوروبية، وعلى تتبع مسار الأحداث السياسية والاقتصادية

¹¹² رسالة من المولى إسماعيل إلى هولندا بتاريخ 26 صفر 1111هـ، الأرشيف الوطني الهولندي لاهاي، سلسلة الأقاليم المتحدة رقم 1.01.08، رقم الوثيقة 12594.36.

¹¹³ المعاهدة المغربية الهولندية بتاريخ 13-12-1682، محمد الإفرائي، روضة التعريف... (ملحق)، م.س.ذ.، ص. 96.

¹¹⁴ أرسل مثلا إلى هولندا ثلاثة أسود، رسالة منه إلى هولندا مؤرخة بسادس شعبان 1094هـ... م.س.ذ.، سلسلة الأقاليم المتحدة رقم 1.01.08، رقم الوثيقة 12594.22. وحول ظاهرة الهدايا راجع:

A. Kaddouri, « Les présents comme institution dans les relations internationales : le cas du Maroc et Pays-Bas au XVI^e-XVII^e siècles », in *Le Maroc et la Hollande : études sur l'histoire, la migration, la langue et la culture : actes du 2^e colloque maroco-néerlandais tenu du 12 au 15 avril 1988 conjointement aux universités de Leiden et Amsterdam*, Rabat, Faculté des lettres, 1990.

بالخارج، وإن كان لغياب البعد الاقتصادي عن ممارساتها أكبر الأثر على حجم المنافع التي من شأنها تحريك عجلة التطور، وتمكين البلاد من تجاوز مظاهر التقطع.

ما يظهر من سياق المقارنة بين آليات الممارسات الدينية والسياسية والاقتصادية والدبلوماسية للسلطانين وأبعادها، أن هناك ثوابت في تجربتيهما ارتبطت بطبيعة أسس النظام المخزني والبنية الاجتماعية التي حكمها، وأن ثمة متغيرات تجسدت في تباين مؤهلاتهما الشخصية، وحجم إرادتهما التحديتين في علاقتهما بالظروف الداخلية والدولية، وإن كان من الواضح أن احتكار تلك الممارسات، وتكييفها مع تصوراتهما، عكسا من منظورهما تحصين السلطة لمواجهة الخصوم، ولقطع الطريق أمام كل قوة تسعى إلى المس بتعاليهما وتفردهما. فما هي مضامين مفهوم مؤسسة المخزن وأبعاده انطلاقا من المقارنة بين تجربتي حكميهما؟ ومن ثم يمكن بناء نسق مفاهيمي حول ماهية هذه المؤسسة، مستمد من أوجه الاستمرارية التي طبعت أسس تصوراتهما السياسيتين؟ وما هي طبيعة المعوقات التي جسدت مكانا من الهشاشة في نظاميهما؟

القسم الثالث

منظومة المخزن: المضامين والمعوقات

الفصل الأول

مفهوم المخزن

المخزن؛ السياق التاريخي للمفهوم

يشير مصطلح المخزن بصفته مفهوماً متداولاً متداول في الخطاب التاريخي بالمغرب، جدلاً نظرياً حول ماهيته وكنهه ووظائفه وطبيعة حضوره. ويعزى هذا الجدل في المقام الأول إلى بدهية مضمونه المعجمي، مقابل تعقد حمولاته ودلالاته وتشابكهما في القاموس السياسي المغربي. وأبرز هذا الوضع تبايناً في الآراء بين الباحثين، إذ تم تناول مضمون المخزن باعتباره معطى بديها علينا التسليم به، أو على أساس أنه بنية سياسية معقدة وصعبة التحديد، تحتاج إلى مزيد من التمهيد للكشف عن مكوناتها، وللوقوف على مراحل تطورها، بينما راهن تيار ثالث على جعله نظاماً سياسياً له خصوصيات مميزة انفرد بها المغرب.

ووظف كل اتجاه من هذه الاتجاهات الثلاثة نقط انطلاق، وأدوات منهجية خاصة به، مما أفضى إلى بروز تصورات مختلفة، لا تساعد على الخروج بمفهوم محدد قادر على وضع آليات مضبوطة لمؤسسة المخزن. ولما كان هذا المفهوم قد ظهر كما أسلفنا، منذ العصر الوسيط. فما هو السياق التاريخي الذي تبلورت فيه هذه المؤسسة بشكل جلي بصفقتها منظومة محددة القواعد؟ وإلى أي حد يمكن، مقاربتها بنظرية الدولة انطلاقاً من ممارساتها على عهد السلطانين؟

ظروف التبلور

وثمة شبه إجماع على أن مؤسسة المخزن أصبحت منذ العصر الحديث تدل على مجموع التنظيمات الإدارية، التي تشكلت تدريجياً بفعل الضرورات الداخلية المتمثلة في الحفاظ على الأمن وتحصيل الضرائب، ثم التزامات السياسة الخارجية وما واکبها من تبادل المبعوثين، وتوقيع الاتفاقيات التجارية، وافتداء الأسرى؛ كل ذلك أضفى على المخزن تدريجياً شكل مؤسسة سياسية حقيقية¹. ترى أرتبط تدعيم هيكل هذه المؤسسة فعلاً بالصعوبات التي واجهتها البلاد داخلياً وخارجياً، من خلال اتساع الامتداد الترابي وما رافقه من امتناع

¹ Encyclopédie de l'islam, t. VI, pp. 131-2.

بعض المناطق عن دفع الضرائب، ثم عبر الحضور المستمر للتهديدات الخارجية، مما نجم عنه بالضرورة تزايد في حجم الأجهزة الإدارية والعسكرية ونوعيتها؟ أم أن صعوبات من هذا القبيل حالت، على العكس من ذلك، دون تعزيزها بفعل عدم تدخل المركز بشكل كبير في الشؤون المحلية²، وهو ما شكل عرقلة في وجه ترسيخ أساليب المركز الإدارية؟

والمؤكد أن السيطرة على طرق التجارة البعيدة المدى، وخاصة تجارة الذهب والعبيد، شكلت وسيلة من وسائل تحصين تلك الأجهزة، فأسهمت في ظهور مجموعة من البنيات المرتبطة بالمخزن، إذ أصبح يجسد سلطة سياسية تشرف على تنظيم النشاط التجاري، الذي نتج عن تحول شرايينه إلى المحيط الأطلسي بفعل وصول العثمانيين إلى الجزائر، إضفاء طابع التنظيم السياسي والإداري إلى حد كبير على مكوناته. بل أفضى الاحتكاك بالأترك إلى اقتباس بعض المظاهر التي أسهمت بصماتها في تحديث هيكله³. وفي الوقت الذي يمكن فيه اختزال ظهور هذه المؤسسة في عوامل لها علاقة بالتجارة، فإنه وجبت الإشارة إلى أن الدولة في أوروبا تطورت واستمرت بفعل توسع الاقتصاد الزراعي، ولم تساهم التجارة في ذلك إلا بشكل ثانوي⁴. وحتى إذا كان المجتمع المغربي قد استفاد من عائدات التجارة البعيدة المدى، فإن هذا النشاط ظل تأثيره محدودا على مستوى البنية الإنتاجية للقبيلة، في الوقت التي استفادت منه المدن بشكل أكبر، ومرد ذلك إلى الاحتكار الذي كان يمارسه السلطان لمختلف أوجه المبادلات⁵.

والظاهر أن التجارة أسهمت بصفة فاعلة في تمويل الخزينة السلطانية، لكن دون أن تتمكن مواردها من إحداث تغيرات جذرية، تتمثل في توفير قاعدة مادية صلبة، يمكن للمخزن المراهنة عليها في تطوير آلياته كما حدث بأوروبا مثلاً، بل ظل دورها ظرفياً. وعموماً، يمكن

² برتران بادي، *الدولتان...*، م.س.ذ.، ص.ص. 123، 137.

³ G. Balandier, *L'anthropologie...*, op. cit., p. 169.

⁴ محمد شقير، *تطور الدولة المغربية...*، م.س.ذ.، ص. 135. انظر أيضاً:

A. Reynier, *L'ancien makhzen...*, op. cit., pp. 5-7.

B. Harakat, « Le makhzen saâdien », in *R.O.M.M.*, n° 15-16, 1973, p. 43.

⁵ برتران بادي، ن.م، ص. 117.

M. Salaheddine, « Etat-makhzen, Coercition et consensus », in *Lamalif*, n° 176, 1986, p. 71.

اعتبار عهد السعديين، وخاصة عهد أحمد المنصور، كما بين ذلك مجموعة من الدارسين، المرحلة التي أصبح فيها جهاز المخزن يحمل دلالة « دولة » أو « سلطة مركزية ». إذن لماذا بالضبط القرن السادس عشر وتحديدًا عهد أحمد المنصور؟

الراجع أن الضغوط الخارجية التي شهدتها المغرب خلال هذه المرحلة ألقت بثقلها على هذا الجهاز؛ فالتهديد العثماني ظل جاثماً بالرغم من الاتفاق على جعل وادي تافنا حداً فاصلاً بين المغرب والجزائر⁶، واستحوذ الإيبيريون على بعض الثغور الساحلية مما أدى إلى ظهور نوع من الوحدة السياسية والإثنية داخل مجال ترابي، أصبح أكثر تمييزاً من منظور السلاطين والنخب الدينية والمتعلمة، بالرغم من ضعف الوعي. مفهوم الحدود خاصة لدى القبائل⁷. كما عرف الربع الأخير من القرن السادس عشر، حكم أحمد المنصور الذي تميز بكفاءته وقوة شخصيته، إذ عمل على إعادة تنظيم المخزن، انطلاقاً من التجربة التي اكتسبها في منفاه لدى الأتراك رفقة أخيه، فهو « بحق الملك الوحيد قبل القرن العشرين، أصالة عن نفسه وكوارث أخيه عبد الملك، الذي خطط لسياسة وطنية عصرية » واتسم ملكه بالعظمة والسؤدد⁸، كما أن المولى إسماعيل بدوره « استطاع أن يحيي بالوسائل المتوافرة لديه، « المغرب التاريخي »⁹. لكن أيقن لنا الحديث انطلاقاً من مرحلتين حكم السلطانين عن المخزن باعتباره دولة¹⁰؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هي مضامينها على اعتبار أنها نموذج للتشكيلات العربية الإسلامية؟

دلالات مفهوم المخزن

لقد مثل كنه المخزن نمطاً سلوكياً ونهجاً اقتدت به الدول المتعاقبة على حكم المغرب،

⁶ A. Laroui, *Les origines...*, op. cit., p. 58.

⁷ عكاشة براحاب، « مفهوم الحدود في الوثائق المغربية منذ احتلال الجزائر إلى سنة 1912 »، ضمن: المجالات الحدودية في تاريخ المغرب، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1999، راجع أيضاً:

Les espaces frontaliers dans l'histoire du Maroc, Casablanca, 1999, p. 43 ;

A. Laroui, *Les origines...*, op. cit., p. 422, note 1.

ويلاحظ استعمال السلاطين في مراسلاتهم الدبلوماسية لكلمة المغرب، انظر على سبيل المثال: رسالة أحمد المنصور إلى إليزابيث الثانية بتاريخ 20 جمادى الأولى عام 988هـ. ورسالة المولى إسماعيل إلى لويس XIV بتاريخ 15 ربيع الثاني 1093هـ؛ أوردهما محمد بن تاويت، « من زوايا التاريخ المغربي »، مجلة تطوان، ع. 7، 1962، ص. 131، وع. 1963، ص. 75.

⁸ عبد الله العروي، مجمل...، م.س.ذ.، ج. 3، ص. 59.

⁹ ن.م.، ص. 87.

¹⁰ A. Laroui, *Les origines...*, op. cit., p. 43.

لتنظيم الجيش، ولتدبير الشأن العام، كما ذكر المولى إسماعيل في إحدى رسائله، التي ميز فيها بين الدولة باعتبارها نظاماً لتعاقب الأسر الحاكمة، وبين المخزن بوصفه طريقة عمل، حينما قال: « وكل دولة جاءت بعد أخرى تجد الجيش قدامها موجودا موفرا، مدربا على سلوك طريقة المخزن ومعرفة قوانينه وطريقته وسيرته... »¹¹.

والثابت، أن سيرة المخزن لم تقتصر على المجال العسكري، بل امتدت لتشمل التقاليد المتعلقة باللباس والأكل، والأثاث، والأخلاق وغيرها. فلممارسة هذه المهام، لابد من التدريب عليها بهدف إتقانها على يد العارفين والعارفات بها، إذ تعلم محمد الشيخ السعدي قواعد الأكل واللباس والتنقل بدار المخزن على يد قاسم الزرهوني والعريفة بنت خجو. « وكانت (بنت أحمد بن صالح الليربي) تدخل إلى دار السلطان مولاي إسماعيل الحسني، وتشير على الجوارى الإماء بسيرة المخزن من الملبس والمفروش والمأكول والأدب وغير ذلك مما كان عليها والدها في سيرته... »¹². لكن الغريب أن مؤرخا رسميا مثل عبد العزيز الفشتالي الذي وصف عهد أحمد المنصور بدقة متناهية، اقتصر في كتابه مناهل الصفا على استخدام مصطلح الدولة، ولم ترد لديه عبارة المخزن إلا في مناسبة واحدة، وهو يصف قصر البديع، وتحديدًا قبة التيجان التي اعتبرها « شعار سقف المخزن »¹³. أتعمد الفشتالي ذلك، مادام أنه ألف الكتاب بأمر من ولي نعمته للتعريف بحكمه لدى المشاركة، فتفادى استعمال عبارة المخزن التي ربما كان يدرك أنها لا تستعمل إلا بالمغرب؟ أم أن موقفه هذا يعبر عن وجود تباين بين المفهومين؟

وبالإجمال تضمن مفهوم المخزن معاني كثيرة يصعب اختزالها في صفة معينة¹⁴، لا تراعي الجوانب الأخرى المشكلة لبنيته؛ لأن أي تحليل أحادي المنظور لن يفضي إلا إلى التعسف عليه، وتشويه مضامينه. وفي هذا السياق، حاولت بعض القراءات أن تنطلق من الحمولة اللغوية لمفهوم المخزن، بهدف الربط بين ماهيته ووظيفته، فاعتبره اتجاه أول أكبر مستودع للحبوب والمواد الغذائية بالمطامير والأهراء، التي تنتشر في كل أنحاء البلاد، وأن قاعدة سلطته

¹¹ رسالة من المولى إسماعيل إلى علماء الأزهر، المصدر نفسه.

¹² المجهول السعدي، ن.م، ص ص. 28-29. محمد القادري، نشر الثاني، ... م.س.ذ.، ج. 4، ص. 239. محمد مقر، اللباس المغربي، ... م.س.ذ.، ص ص. 204-208.

¹³ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 258.

¹⁴ F. Fumey, *Choix de correspondances marocaines...*, op. cit., pp. 141-50. A. Laroui, *Les origines...*, op. cit., p. 121.

تستمد من فكرة التراكم والخزن¹⁵. ومن ثم يمكن الاستنتاج أن مهمة المخزن حصرت في وظيفة من وظائفه ذات أبعاد اقتصادية واجتماعية وعسكرية كما أوضحنا.

وراهن اتجاه آخر على التحليل نفسه لكن بشكل موسع، إذ عرف المخزن باعتباره مؤسسة هدفها الأول تحقيق تراكم للوسائل الأساسية للسلطة¹⁶، من خلال توفير احتياطات دائمة للأموال والأسلحة والأقوات والتموين. يختلف أنواعه، حيث يخزن الكل في أماكن محصنة تخضع لمراقبة عسكرية صارمة. ومن هذا المنظور، يظهر المخزن كمجموعة بشرية هدفها الأساس هو ضمان الحصول على التموين من البوادي، لتحقيق حاجياتها الخاصة، ولاستخدام الفائض كوسيلة اقتصادية وسياسية¹⁷. وبذلك تم النظر إليه كجهاز منفصل عن المجتمع، يسعى في المقام الأول إلى تأمين مصالحه الخاصة.

أما الاتجاه الثالث فرأى في المخزن تنظيما يبدو على شكل خزان للسلطة السياسية والإدارية والعسكرية، أي حكومة سلطانية مهمتها تسيير شؤون البلاد¹⁸، كانت تعبر في الماضي عن الخزينة المالية، ثم انتقلت للدلالة على كل تنظيم إداري يعيش من قريب أو بعيد من هذه الخزينة. وهو تأويل يحيلنا على مفهوم « الباب العالي » الذي كان يدل بدوره على قصر السلطان، ثم أصبح يعبر عن الدولة العثمانية باعتبار أنها تراول نشاطها داخل أسوار القصر¹⁹. والظاهر أن آفة هذه القراءات تكمن في تعاملها مع مضامين المخزن، انطلاقا من الهواجس التي حكمت اهتماماتها النظرية، فاستثمرت بنيته الدلالية الغنية التي توحى بعدة تأويلات،

¹⁵ B. Rosenberger, « Calamités, sécurité, pouvoir : le cas du Maroc XVII^e-XVIII^e », in *Peuples méditerranéens*, n° 27-28, avril-septembre, 1984, p. 262 ; Du même auteur, *Société, pouvoir...*, op. cit., pp. 72-3 ; J. Berque, *Ulémas...*, op. cit., p. 268.

¹⁶ A. Hammoudi, *Sainteté, pouvoir...*, op. cit., p. 615. Voir également, J. Berque, *Ulémas...*, op. cit., pp. 267-8.

¹⁷ N. Michels, *Une économie de subsistance : le Maroc précolonial*, Institut français d'archéologie orientale, 1997, vol 2, p. 539.

¹⁸ R. Cherifi, *Le makhzen politique...*, op. cit., pp. 17-8. Voir aussi : R. Jamous, *Honneur...*, op. cit., pp. 222-41.

¹⁹ عبد الرحيم بنحادة، المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر، زغوان، مؤسسة التميمي، 1998، ص. 229. انظر أيضا:

Encyclopédie de L'islam, t. VI, p. 132.

وعن إطلاق تسمية دار المخزن على قصر السلطان بفاس، راجع: روجي لوطورنو، فاس قبل الحماية، ج. 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، 1986، ص. 148.

لاستنباط تصورات تمس بشكل أو بآخر جانبا من وظائفه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والإدارية، مما أسقطها في معضلة الاختزال التي أفقدت مؤسسة المخزن وحدتها المفاهيمية، التي تتجاوز أبعادها الوظائف السابقة لتمتد إلى ما هو ثقافي وديني، وإلى كل مجال يتداخل فيه حضورها ماديا ورمزيا، فمثلا إذا سلمنا بأن المخزن لم يكن إلا بؤرة للتراكم، إذن لماذا لم يتحول إلى طبقة؟

وينطبق الطرح نفسه على التيارات التي ارتكزت على المغالاة والإفراط في النزعة السوسيولوجية، فتناولت المخزن من زاوية محددة، إما باعتباره يجسد سلطة المدينة مع التركيز على التناقض بين الشرع/العرف، وهذا هو رأي المستشرقين والعلماء أيضا، أو كون المخزن عبارة عن زاوية، وهذا هو تصور الأنثروبولوجيين الذين اعتبروا أن كل زاوية هي مخزن مصغر. أما تيار ثالث فحدد المخزن إما كقبيلة في سدة الحكم، أو كجيش في محاربة العدو، أو كمنظومة فيودالية²⁰. وتتجلى نقطة ضعف هذه التيارات، حسب عبد الله العروي، في انطلاقها من الحاضر أو من سنة 1900م، أي من واقع هش ومتفكك كما رآه الأوروبيون²¹. مما يعني أنها أهملت في تحليلاتها البعد التاريخي لمؤسسة المخزن، التي نمت في رحم مدى زمني طويل أسهم في تشكيل بنياتها وصقلها. وعلى هذا الأساس، لا يمكن مقارنة مفهوم المخزن بواسطة استخدام قاموس المفاهيمي للسوسيولوجيا²²، بل يجب توظيف النصوص التاريخية، وإن كان جلها يعكس رؤية المخزن، لإعادة قراءة أسس السلطة وتفكيك عناصرها²³، باعتبارها ظاهرة مستمرة في الزمن ولا يمكن الاقتصار في دراستها بأي حال من الأحوال، على مرحلة معينة من تاريخها، وهنا تجلت أهمية التاريخ المقارن بين حكم سلطانيين بارزين خلال العصر الحديث في الوقوف على ثوابتها ومتغيراتها.

والمثير للانتباه أن الإسطوغرافية المحلية تخلت عن استعمال مصطلح المخزن في معناه اللغوي الأصلي، وعوضته بعبارة الخزين والخزينة، وهو ما يؤكد وجود نوع من الفصل بين مضمونه اللغوي والسياسي. غير أن السؤال الأساس الذي انطلقنا منه في مدخل هذه الدراسة، وظل يلقي بثقله على المهتمين، في سياق المقاربة بين المؤسسات السياسية الإسلامية

²⁰ A. Laroui, *Les origines...*, op. cit., pp. 121-2.

²¹ *Ibid*, p. 70.

²² إدريس بنعلي، ن.م، ص. 216.

²³ A. Laroui, *Les origines...*, op. cit., pp. 68-70.

وبين مثيلاتها في أوروبا يتعلق بمقاربة المخزن بالدولة.

هل مثل المخزن دولة؟

إذن لماذا هذا السؤال؟ أيعبر عن هموم المؤرخ بقدر ما يعبر عن انشغالات عالم السياسة؟ هل الهدف من هذه المقاربة تشخيص التماثل أم التنقيب عن الخصوصيات؟

لقد أثار هذا الموضوع وما زال نقاشاً طويلاً بين الدارسين الذين حاولوا، حسب مشاربهم وعدتهم المنهجية، إثبات أو نفي صفة الدولة عن المخزن؛ فعلماء السياسة انطلقوا في تحليلاتهم من اعتبار المخزن معطى ثابتاً أفرزته ضرورات جغرافية وأثروبولوجية واقتصادية²⁴، بينما تناول الباحث في حقل التاريخ باعتباره ظاهرة زمنية سعى إلى تتبع مسارها.

وكشفت الدراسات المقارنة أن ظهور الدولة ارتبط بعجز العلاقات الاجتماعية ذات الطبيعة التقليدية، والقائمة على التكافلات والصيغ الفردية، عن حل أزمات المجتمع. غير أن مجتمعات العالم الإسلامي لا تخضع لهذه القاعدة، بفعل غياب العلاقات الإقطاعية على النمط الأوروبي بها، ومتانة صيغ التضامن الجماعي، وهيمنة علاقات التبعية الشخصية، وانعدام الصراع بين الفرد والجماعة، وعدم وجود نموذج ترابي وبيروقراطي يقوم فيه الحكم على الفصل بين السياسي والديني. مما عرقل تدعيم الدولة الذي ارتبط في التاريخ الأوروبي بسعيها الدائم لاحتكار أية وظيفة سياسية توجد خارج سلطتها. ولقد أسهم ذلك في ترايد مواردها، وتقوية بيروقراطيتها، وتوطيد دعائمها على حساب كل أشكال المعارضة التي واجهتها. بينما أسفر تعرض الدولة في العالم الإسلامي لأبسط تحد عن إضعافها²⁵. وفسر ماكس فيبر ذلك بعدم انخراط المجتمعات الإسلامية في التطور الرأسمالي، نظراً لطبيعة بنياتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، المتسمة بغياب الفيودالية، وبغلبة النزعة الباترونيالية Patrimonialisme وما أسماه بالسلطانية Sultanisme القائمة على التحكم المطلق للسلطان في المجتمع²⁶. كما رأى جون فرانسوا بايار J. François Bayart أن الدولة الحديثة هي

²⁴ Ibid, p. 69, note 4.

²⁵ برتران بادى، الدولتان...، م.س.ذ.، ص ص. 121، 126، 137. راجع أيضاً للمؤلف نفسه:

B. Badie, *Culture et politique*, Paris, Economica, 3^e édition, 1993, p. 110.

²⁶ Max Weber, *Economie et société*, t. I, Paris, Plon, 1971, pp. 308-10. Voir également :

A. Kazancigil, « Théories de l'Etat... » *op. cit.*, p. 70.

أوروبية المنشأ تم اقتباس آلياتها بهدف إعادة زرعها في مجتمعات أخرى²⁷. ترى أنتطبق هذه الوصفة العامة للمجتمعات الإسلامية على المغرب الحديث في عهد السلطانين أحمد المنصور والمولى إسماعيل؟ أم أننا فقط أمام قواسم مشتركة تستدعي البحث عن الخصوصيات؟

يبدو أن البنات الخاصة توجد إلى الحد الذي يصعب فيه الحديث عن تماثل شامل، فأبي مظهر من المظاهر السابقة التي تمثل أوجه الشبه، يمكن تقدير دوره حسب طبيعته وحجمه داخل كل مجتمع إسلامي، وهو ما عبر عنه أحد الدارسين بالقول: « من المعروف أن الدولة الأوروبية الحديثة وليدة عملية تاريخية انتهت إلى صيغة الدولة ولم تبدأ بها، وهذه الحقيقة التي يتحاشى الاعتراف بها عدد لا بأس به من جمهوره الفلاسفة السياسيين الأوروبيين المعاصرين... أما في ديار الإسلام، شأنها شأن البلدان الأخرى، فإنها لم تشهد هذه العملية التاريخية التراكمية، تبعاً لذلك فإن تطور مجالها السياسي يختلف عن نظيره الأوروبي »²⁸.

وبالرغم من عدم وجود نظرية للدولة في الفكر الإسلامي القديم، بما فيه فكر ابن خلدون، فإن دولة السلطنة كما يصفها عبد الله العروي، تعني التسلط والقهر والاستئثار بالخيرات من قبل جماعة مستقلة مجسدة في شخص السلطان، الذي يملك الخزينة والبيروقراطية والجيش²⁹، ويسخر الكل لخدمة إدارته بهدف الحفاظ على سلطته ودوام حكمه³⁰. فالاستبداد المطلق، والتتبع الدقيق للذات مارسهما السلطان وأعوانه، أعاقا على مستوى البنات الاقتصادية والاجتماعية تهيب الأرضية الملائمة لنشوء الدولة على النمط الأوروبي الحديث³¹. وأمام هذا التصور أين تتموضع مؤسسة المخزن انطلاقاً من حكمي السلطانين كما وقفنا على بناتها طيلة فصول هذا العمل؟

إن ترجمة مصطلح « المخزن » بمفهوم « الدولة » بالمعنى الحديث أمر في غاية المجازفة؛ نظراً لأنه لا يأخذ بعين الاعتبار الغنى الدلالي لهذا المصطلح من جهة، ولأن المخزن من جهة

²⁷ J. François Bayart, *La greffe de l'état*, Editeur Karthala, Collection Hommes et Sociétés, 1997.

²⁸ فؤاد إبراهيم، *الفقيه والدولة...*، م.س.ذ.، ص. 35.

²⁹ عبد الله العروي، *مفهوم الدولة...*، م.س.ذ.، ص. 89، 108، 115، 125.

³⁰ كمال عبد اللطيف، *في تشريح أصول الاستبداد...*، م.س.ذ.، ص. 189.

³¹ Voir aussi : S. N. Eisenstadt, *Analyse comparée de la formation de l'Etat selon le contexte historique*, in *Revue internationale des sciences sociales*, n° 153, septembre 1997, p. 676-7. A. Kazancigil., *op. cit.*, p 73.

أخرى لم يكن كيانا مجردا، يقوم من خلاله السلطان بدور محدود، وإنما كان جهازا يدل في الوقت نفسه على كل الأشخاص المرتبطين بشخص السلطان، أو بأحد ممثليه، وعلى مجموع الوظائف المخولة لهم، والتي تبني على علاقات التبعية الشخصية³². وهكذا تجسدت السلطة في ثلة من الأفراد إلى درجة يصعب فيها الفصل بين المصالح العامة والمصالح الخاصة، فالكلمة مبدئيا، وكما رأينا، في ملكية السلطان، وينتج عن الخلط بين المصلحتين خضوع الأولى للثانية³³.

وفي هذا الإطار، ميز عبد الله العروبي معنيين من بين المعاني المتعددة لمصطلح المخزن في مغرب القرن التاسع عشر؛ المعنى الضيق يقصد به الجيش والبيروقراطية، وكل من يتقاضى راتبا من بيت مال السلطان، وحدد مهمة هذا الجهاز في الحفاظ على الأمن بالمدن على الخصوص. ويشمل المعنى الواسع المخزن بمفهومه الضيق ثم الخاصة، وقبائل الكيش، والشرفاء والمرابطين المنتشرين بالبوادي، وكل من يحصل على صلات أو ظهائر توقيع واحترام³⁴. وخلص إلى القول إننا أمام بنية خاصة لها نظامها وشكلها وعقلايتها، لكنها متداخلة بشكل غامض في أحشاء المخزن، التي يصعب الفصل فيها بين المقدس والديني والمدني والعسكري³⁵. وهو تقييم ينسحب في رأينا، على المغرب منذ القرن السادس عشر، وتجسده بكل جلاء مرحلتا حكم أحمد المنصور والمولى إسماعيل. وهكذا فتداخل هذه العناصر وتعارضها جعل من العسير تشخيص دولة بمواصفات مثلتها في أوروبا العصر الحديث. فيما أن نمو الدولة بأوروبا ارتبط ارتباطا عضويا بالطبقة الوسطى، وبما أن المخزن لم يكن مؤسسة مفصولة عن المجتمع، أو لم تكن تمثل مصالح طبقة معينة، فمن باب المجازفة مقارنة هذه المؤسسة بالمفهوم الأوروبي للدولة.

لقد أدى تحول الطرق التجارية إلى المحيط الأطلسي، وأفول تجارة القوافل الصحراوية بفعل الاكتشافات إلى خلخلة هياكل المخزن³⁶، الذي اضطر إلى إيجاد آليات جديدة للتكيف

³² عبد الله العروبي، ن.م، ص. 129؛ كمال عبد اللطيف، ن.م، ص. 177.

G. Balandier, *Anthropologie...*, op. cit., p. 169.

³³ G. Gengembre, *La notion d'Etat...*, op. cit., p. 99 ; N. Elias, *La société de cour*, p. XIX.

³⁴ A. Laroui, *Les origines...*, op. cit., pp. 120-1.

³⁵ *Ibid*, p. 124.

³⁶ M. Morsy, « Réflexion sur le système politique... », op. cit., p.120.

مع الضغوط الخارجية التي أصبحت البلاد هدفا لها، وذلك من خلال تعبئة السكان ضداً على العدو الأجنبي. لكن مادام أن تكوين نموذج معين للدولة لا يرتبط فقط بأهداف الحكام ووسائلهم، بقدر ما يستمد أهميته من القوى التي تكون المجتمع³⁷. ومادام أن أي فهم لنشوء الدولة لا يمكن أن يتم بمعزل عن تحليل القاعدة الاجتماعية، التي تعتبر مصدر كل سلطة³⁸، فإن محاولات هيكلية البنيات السياسية لم تكن نتيجة تطور داخلي كما حدث بأوروبا، بل بقيت حبيسة جهاز المخزن الذي وظف في عهد السلطانين أحمد المنصور والمولى إسماعيل، كما أوضحنا من خلال الفصول السابقة، التجارة البعيدة المدى وليس التجار لتعزيز هيكله وتحديثها. واستمر في ممارسة سياسة تقوم على الحفاظ على التوازن الاجتماعي، وعلى تقادي أي خلل من شأنه المساس بأشكال حضوره، وذلك عبر التحكم ولو غير المباشر، في مواطن السلطة على المستوى المحلي وتوظيفها لفائدته، ومن خلال تشديد المراقبة على ما تبقى من موارد تجارة القوافل، وإثقال كاهل السكان بالضرائب لتعزيز وسائله العسكرية والإدارية، وهي المظاهر التي سنفصل فيها حين حديثنا في الفصل الأخير عن مكامن الهشاشة. ومن ثم، توحى وظائف المخزن ووسائله، بوجود نظام له أسسه وقواعده ومنطقه الخاص الذي يعتبر السلطان نقطة رسوه، لكنه لا يعكس محتوى الدولة في القاموس الأوروبي الحديث. فهل يمكننا الحديث عن سلطة مركزية؟

تبدو هذه الاستعارة أكثر ملاءمة لمقاربة مفهوم المخزن في العصر الحديث³⁹، بالرغم من كون مضمونها فضفاضاً، لكنها تعبر أكثر عن طبيعة تداخل الأشكال المادية والرمزية لحكم السلطانين السعدي والعلوي، الذي وإن كان تحت وصاية الشرع، فقد تمتع بصلاحيات واسعة جعلت منه وسيلة أساسية لقيادة المجتمع، فمارس بصفته جهازاً سياسياً سلطة الدولة المركزية، ولم يكن دولة دينية⁴⁰. بمعنى أنه وظف الشريعة لكنه خضع للمنطق السلطاني الذي مارس سياسة خلال عهدي كل من أحمد المنصور والمولى إسماعيل، قامت على تنظيم الجيش وتحديثه، وعلى تكثيف العلاقات التجارية والدبلوماسية مع الخارج⁴¹. ألم تشكل هذه

³⁷ W. P. Blockmans, « Les Institutions représentatives... », *op. cit.*, p. 133.

³⁸ M. Morsy, « Réflexion sur le système politique... », *op. cit.*, p. 118.

³⁹ N. Michels, *Une économie de...*, *op. cit.*, p. 540.

⁴⁰ J. Berque, *Ulémas...*, *op. cit.*, p. 266.

⁴¹ *Ibid*, pp. 13, 21, 38, 242.

المظاهر بعض أسس قيام الدولة الوطنية في أوروبا؟ البين أن ميلاد الأخيرة ارتبط بمظاهر أخرى أكثر أهمية تمثلت في الثورة التقنية والثقافية التي أسهمت في تنشيط الاقتصاد، وفي التخلي عن الشعور بالولاء للأسرة وللجماعة وللتنظيم الديني لفائدة الدولة، في الوقت الذي بقي فيه المغرب الحديث، كما أوضحنا في متون هذه الدراسة، محافظا على الوسائل الإنتاجية التقليدية، ومختزلا لمفهوم « الدولة » في أبعاد شخصية مرتبطة بالأسرة الحاكمة، وظل فيه مفهوما السيادة والشرعية مندمجين ضمن مصطلح « الدولة »، دون أن يتجسدا في مؤسسات تضمن عدم السقوط في إشكالية عدم الاستمرارية⁴². لكن أليست الدولة الوطنية مفهوما غريبا عن الإسلام، وغير منسجم بشكل كبير مع تقاليده التي تركز على مصطلح الأمة ذي المعنى الواسع، الذي لا يقوم على فكرة الوطنية والمجال الترابي⁴³؟

يرتكز هذا المفهوم، على اعتبار الدولة « مجرد وسيلة، أي أنها ليست غاية في حد ذاتها، فهي وسيط ضروري لإعادة بعث الإسلام، أو تأهيل الأفراد للانخراط في المجتمع الإسلامي المنشود، وهذا ما يفسر اعتبار الدولة الإسلامية غاية... هي التمثيل الرسمي لعقيدة الجماعة المؤمنة بتعاليم القرآن والقيم الإسلامية، بمعنى آخر أن الدولة تصبح محايدة بالنظر إلى كونها سلطة، وغائية بالنظر إلى كونها أمة، فالدولة بما هي إطار للسلطة تعد محايدة لكونها تنحصر في تنظيم تداول السلطة، ولكنها غائية بما هي تعبير عن أمة يراد منها الاستخلاف في الأرض، وإقامة الحدود، وتطبيق الشريعة، ونشر الإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »⁴⁴. لقد حاول كل من أحمد المنصور والمولى إسماعيل مراقبة المجال المغربي بشكل مطلق، دون أن يعبرا في تصوراتهما عن كونه مفصولا عن الأمة الإسلامية.

إذن فما هي حدود مقارنة مفهوم المخزن ومشروعيته وإلزاميته بمفهوم الدولة الوطنية الحديثة؟ بديهي والأمر كذلك أن نكتفي بالتأكيد على صفة الخصوصية، ما دامت العوامل المحددة للهوية السياسية، ولمصدر السلطة، متباينة بين المفهومين، وما دام مخزن السلطانين ما هو في المحصلة النهائية لإنتاج لصيرورات محلية. وبما أن الغموض يعتبر خاصية أساسية لأية

⁴² P-J. Vatikiotis, *L'islam et l'Etat...*, op. cit., pp. 61-2.

⁴³ M. Papon, « L'Occident devant l'islam », in *L'islam et l'Etat*, in *Revue Fédération*, n° 134, Mars 1956, p. 115 ; J. Vatikiotis, *L'islam*, p. 63 ; A. Boutaleb, « Le pouvoir, l'autorité et l'Etat dans l'islam », in *Horizons maghrébins*, n° 14-15, 1989, pp. 149-50.

⁴⁴ فؤاد إبراهيم، الفقيه والدولة...، م.س.ذ.، ص ص. 338-339.

سلطة سواء امتثلت للتقليد أم للعقلانية البيروقراطية، فلفهم الإياليات المتحكمة فيها لا يجب الاختصار حسب فريديريك مورو F. Mauro على الحدود الجغرافية، بل يجب الانطلاق من الحدود القانونية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية لتوضيح وتيرة تطورها⁴⁵.

وجملة القول، إذا كانت الدولة تنبثق من المجتمع، وتبرز فيه بشكل واضح حين يغرق في تناقضات داخلية حادة، وتحاول امتصاص الصراعات من خلال الحفاظ عليها في حدود النظام، فهي بذلك سلطة صادرة عن المجتمع، وتسعى لكي تقوده وتتخلص تدريجيا من احتجاجاته⁴⁶. أليست تلك خاصية مؤسسة المخزن في عهد السلطانين أحمد المنصور والمولى إسماعيل، اللذين حاولا إقرار الأمن بشتى الوسائل، وضمان التفوق على المجتمع في أفق تحقيق المركزة؟

مهما يكن من أمر، يمكن القول إن مساءلة المخزن باعتباره مفهوماً بهدف إضفاء صفة معينة عليه ليست بالأمر الهين، نظرا لما يطرحه من صعوبات تدفعنا إلى محاولة قراءة دلالاته، والبحث عن مضامينه في مخيلات الناس وما حملت في طياتها من تصورات عنه. فما هي طبيعة تلك المضامين؟

صور المخزن في التمثيلات الجمعية

يحضر تناول صورة المخزن في مشهد إسطوغرافي اتسم بشح المادة الإخبارية، التي لم تتطرق لنظرة الناس إلى السلطة إلا لماما، واقتصرت على مواقف الأخيرة منهم. وألقى ذلك الشح بثقله على أية محاولة استهدفت الإحاطة بطبيعة الأفكار التي حملها السكان عن مؤسسة الحكم. غير أن هناك إشارات متناثرة يمكن الوقوف عندها لرصد بعض الثوابت المتحكمة في تصوراتهم للمخزن.

المخزن مجسد في شخص السلطان

إن أهم سمة تصادفنا في متون المرحلة، هي أن تمثل المخزن بأبعاده المختلفة، ظل من

⁴⁵ F. Mauro, « Les frontières du pouvoir... », *op. cit.*, p. 107.

⁴⁶ G. Balandier, *L'anthropologie...*, *op. cit.*, pp. 49-184. Voir aussi : P. Clastres, *La société contre l'Etat...*, *op. cit.*, p. 161.

منظور الناس مختزلاً في شخص السلطان، ورهينا بحضوره، ودوام استمراريته. لذا ربطوا تعاملهم مع أجهزته الجهوية والمحلية بوجوده، مما دل بالنسبة إليهم على كمون المؤسسة التي يقودها في صلبه، وتحذرها في ممارساته، باعتباره عصا الرعي التي تدور حولها؛ إذ كان غياب أحمد المنصور والمولى إسماعيل عن أبصار الناس، تحت أية علة من العلل، يفضي إلى الارتباك وتزايد البلبلة في صفوفهم، وتشوفهم إلى تقصي الأخبار عما يجري؛ لأنهم تعودوا على رؤية موكبيهما بصفة شبه دورية من خلال أسفارهما وحرّكاتهما اللتين كانتا تخترقان مجالاتهم. أي أن ظهورهما العلني مثل ثابتا من ثوابت سلطة الإقناع التي تذكر بدوام الحضور المخزني، وتبث الطمأنينة في النفوس. وهو ما تأكد حينما أصيب السلطانان بوعكات صحية أجبرتهما على الاحتجاب عن الرعية، وسارعا بعد شفائهما إلى تفقد أحوالها، والنظر في أمورهما، لتبديد الشكوك التي بدأت تخامر الصدور⁴⁷. وعبر السلطان العلوي في رسالته إلى البرلمان الإنجليزي عن هذا التصور، لما ربط بين حضوره وبين التزام السكان وانضباطهم؛ « وما يعرف نصح العرب وجددهم واجتهادهم واجتماع كلمتهم إلا إذا تحرك ملكهم بنفسه، فإنهم يجتمعون عليه، ويناصحونه حمية وخوفاً ومنافسة، وأما إذا لم يحضر معهم ملكهم، فلا يرضى بعضهم بمتابعة بعض غالباً »⁴⁸.

إذن فالطرفان كانا على وعي بأهمية ذلك الحضور في تحيين العلاقات بينهما. ففي الوقت الذي تمسك فيه السلطان بتسجيل وجوده، حرص السكان من جانبهم على انتظار طلعه، إيماناً منهم بكونها مؤشراً على تحكمه في زمام الأمور، وقدرته على مكافأة الأتباع، وردع الخصوم. والظاهر أن هذا التقليد رسخته أساليب التنقل التي راهن عليها المخزن لانتزاع الاعتراف بسلطته وتجديدها، فخضعت وتيرة ذلك الاعتراف لمدى استعداد السلطان للتواصل مع الرعية التي تتصرف وفقاً لتلك القاعدة. ومن هذا المنطلق، فإن الصور التي

⁴⁷ عبد العزيز الفشتالي، *مناهل الصفا... م. س. ذ. ص. 53*؛ أحمد ابن الحاج، *الدر المنتخب... م. س. ذ. ج. 7*، ص. 341-342. كان مرض السلاطين العثمانيين يحمل دلالات سياسية عميقة، فقد اعتاد الإخباريون تقديم خبر احتضارهم كفاجنة غير متوقعة تنذر بحدوث الأسوأ واندلاع الأزمات بمجرد وفاتهم.

« Le souverain a une valeur universelle : il est un microcosme ; le Bonheur qui l'atteint atteint tout son peuple, le Malheur qui le frappe rejait sur tout son peuple. Dès une époque ancienne (au moins dans les inscriptions), les textes nous montrent clairement que si le qagan meurt, le peuple turc meurt » Citation de Jean-Paul Roux. Voir :

N. Vatin & G. Veinstein, *Le sérail ébranlé...*, op. cit., pp. 30-1.

⁴⁸ رسالة المولى إسماعيل إلى البرلمان الإنجليزي، 22-09-1706م:

S.I.H.M, 2^e série, Fra, t. VI, p. 352.

أوردتها الإسطوغرافية عن نظرة الرعية للمخزن، لا يمكن فصلها عن نظرة الرعية للسلطان، باعتباره مركز إشعاع تدوم السلطة بدوام هيئته، وتقلص بتقلصها، نظرا لكونه القوة الوحيدة التي تتمتع بخصوصياتها، والمستمدة من مؤهلاته المادية والرمزية الضامنة لتفوقه على الجميع.

الخوف وعدم الثقة

إن أبرز مظهر لازم السكان في تعاملهم مع المخزن هو شدة الخوف منه، ومما قد ينتج عن ممارساته تجاههم، إذ لما أقامت محلة أحمد المنصور بإحدى النزالات بمنطقة سوس، فر الناس منها جراء الخوف. بل إن إبراهيم الحساني الذي رحب بها، لم يتردد في إخفاء سيفه ودراهمه. واتخذ سلوك قبائل وادي نفيس تجاه حركة عبد الكريم بن منصور موقفا مماثلا، لما أخفى السكان كل ثرواتهم الثمينة، قبل أن تتمكن فرق عسكرية من العثور على بعضها وهي مخبأة في مطامير⁴⁹.

ويجد هذا التوجس تبريره في طغيان هاجس عدم الثقة، لأن « المخزن لا أمان فيه »⁵⁰ حسب تصور القبائل. فمن عادة أطره بث العداوة والبغضاء بين بطونها، وتوظيف أساليب الغدر والنكاية. وهو ما كان يستوجب الحذر منه، وعدم الركون إلى الوعود التي يقطعها، إذ إن زعيم زاوية تسافت لم يطمئن للصلح الذي أعلنه باشا مراكش، إلا بعد أن توصل برسالة من السلطان حملها مبعوثه الشيخ عبد الكريم الفروكي، خاطبه فيها بقوله: « فثق به وبكل ما يقول لك عنا »⁵¹.

كما أن لجوء المخزن خلال الحركات إلى استعراض قوته العسكرية أمام السكان، زاد من ترسيخ تخوفهم منه، خاصة وأنه كان يقدم على ردم الآبار وقطع الأشجار وحفر الطريق وهدم القناطر. وكلما نزل قائد المحلة بمنطقة معينة، إلا وتم إطلاق العيارات النارية بكثافة تحية له، مما ييث الرعب في النفوس⁵²، ويكرس في الأذهان عظمة المخزن وقدرته على

⁴⁹ إبراهيم الحساني، ديوان قبائل سوس... م.س.ذ.، ص. 123؛ عبد الله التسافتي، رحلة الوافد...، م.س.ذ.، ص. 137، 124.

⁵⁰ عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 150.

⁵¹ ن.م، ص. ص. 84، 136، 154، 211.

⁵² عبد الله التسافتي، ن.م، ص. ص. 74، 79، 115.

بلوغ المقاصد مهما استعصى سبيلها، ويضفي عليه صورة السلطة المتفوقة تقنيا، والمستعدة للتصدي للمتمردين أينما حلوا وارتحلوا. وكان السكان يتخوفون على الخصوص من إجراءات المصادرة التي كان يتخذها السلطان أو ممثلوه في حقهم، فأروا غالبا في عبور الجيش لأراضيهم قوة قادمة لتجريدهم من ممتلكاتهم التي كانوا لا يتأخرون في تهريبها إلى أماكن بعيدة، أو إخفائها إلى غاية مرور الحركة، مما عمق هوة عدم الثقة بين الطرفين.

ولم ترسخ صور الخوف في مخيلات السكان فقط، بل امتدت لتهم حتى مواقف النخبة المخزنية نفسها من السلطان. وفي هذا الصدد، وقف جون بريثويت عند مظاهر الفرع التي كانت تتملك كبار الخدام، وهم ينتظرون في بهو البلاط خروج السلطان؛ « وبدأ كل واحد يجري ليختفي بنفسه... والأمير يبريز جرى لإخفاء نفسه... وقد فروا من السلطان كأنهم يفرون من نمر أو أسد، أو أي نوع من الحيوانات المفترسة التي تكون قد تركت طليقة »⁵³.

وفي السياق نفسه، قدم جون وندوس مشاهد معبرة عن ارتجاف أهل القرب والحظوة من المولى إسماعيل، من قبيل مرافقتهم له وهم يمشون وسط الأوحال، كما هو حال محمد بن حدو العطار الذي عبر مكناس وهو يجري حافي القدمين إلى جانب فرس السلطان، والخدام حميدة الذي كان على الرغم من مكانته، يمارس الأسلوب نفسه حينما يكلف بإبلاغ رسالة ما⁵⁴. وأجبر الخوف القائد عبد الكريم بن تودة على خنق ابنه أمام أحمد المنصور، بعد أن تجرأ على الدخول إلى حرمة⁵⁵. وأورد كابريل فير Gabriel Veyre أن « العمال، حتى أولئك منهم الذين يعملون في بلاط البهو، إذا برز السلطان، يفرون كفرق طيور، ولا يعودون إلى ما كانوا فيه من أعمال، إلا بعد أن يختفي عن الأنظار »، وهو ما يدل على استمرار هذه الممارسة حتى عهد المولى عبد العزيز⁵⁶.

يتضح من المقارنة بين السلطانين، أن المولى إسماعيل ظهر بمظهر الحاكم القوي الأكثر عزمًا من سلفه، على ترويض جهازه المخزني على الانضباط لأوامره بشكل حرفي، تحت طائلة

⁵³ جون بريثويت، ن.م، ص. 232.

⁵⁴ جون وندوس، ن.م، ص. 92.

Ch-De la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 31.

⁵⁵ S.I.H.M, 1^e série, Ang, t. I, p. 249.

⁵⁶ راجع: كابريل فير G. Veyre، في صحبة السلطان، ترجمة عبد الرحيم حزل، الرباط، جذور للنشر، الطبعة الأولى، 2003، ص. 56.

التعرض لعقوبات الجلد والسجن في حالة مخالفتها⁵⁷. وهو ما جعل فرائص كبار مقربيه ترتعد كلما تم استدعاؤهم للمثول بين يديه، حتى ولو تعلق الأمر بالتدابير الاعتيادية. وقيم هذا التخوف الدليل على الدور المحوري الذي حظيت به المؤسسة السلطانية، بصفتها مركزاً حاضناً للنظام المخزني بكل آلياته، يتحكم في نبضها متى شاء وكيفما شاء. لكن المؤكد أن توجس الرعية خيفة من ممثلي السلطة، ما هو إلا انعكاس لما كان يشعر به هؤلاء صوب السلطان، ويعملون على إعادة إنتاجه تجاه من يوجد تحت رحمتهم.

الأمن

على الرغم من إلقاء هاجس الخوف بظلاله الثقيلة على المواقف من المخزن، فإن أهم ما تكشف عنه الإسطوغرافية، هو وجود حاجة ملحة إلى استمراريته تحت حكم السلاطين الأقوياء، باعتبار أن وجودهم يوفر الأمن، ويحقق السكينة. لقد أورد المجهول السعدي أنه بعد موت أحمد المنصور، « أقبل من الشر ما كان مدبراً، وأدبر من الخير ما كان مقبلاً... كثرت الفتنة، واشتعل نارها، وعسر إخمادها... »⁵⁸. وأردف التمارتي « فنزل الأرض بذلك ما نزلها، ونالها من الفساد والفتن ما نالها... ووردت المهالك، وسدت المسالك، وعم الجوع، فيالها من مصيبة ما أعظمها، ولمحاسن الأرض ما أحطمها ».⁵⁹ ولم تقتصر هذه النظرة على الإخباريين، بل طالت أيضاً خاصة الناس وعامتهم. فأحد الصلحاء كان يرى في حركات جيوش المولى إسماعيل ضماناً للعافية، ولأمن الطرق، ولولاها « لأكلت قبائل المغرب بعضهم بعضاً »⁶⁰. واعتبر آخر أن « من أحياء الله وراء السلطان، يشاهد العجائب والغرائب من الفتن، ومنع الطرق، والهرج والقتل... سيأتي زمان من حضره يتمنى أن لو كان مات بدولة مولانا إسماعيل »⁶¹، لأن وجوده حسب الإفرائي « عصمة من طوفان

⁵⁷ جون وندوس، ن.م، ص. 96، راجع أيضاً حالة الباشا عبد الكريم بن منصور، الذي اضطر أمام ضراوة مقاومة قبائل سوس لحركته، إلى توقيع الصلح معهم خوفاً من بلوغ ذلك إلى المولى إسماعيل. عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 138.

⁵⁸ المجهول السعدي، ن.م، ص. 99. وحول المولى إسماعيل، راجع: محمد القادري، نشر المثلثي...، م.س.ذ.، ج 3، ص. 291.

⁵⁹ عبد الرحمان التمارتي، الفوائد الجمعة...، م.س.ذ.، ص. 341-342.

⁶⁰ محمد القادري، ن.م، ج. 4، ص. 221.

⁶¹ محمد مرزاق، الشيخ محمد بن أبي زيان وزاويته بالقنادسة...، م.س.ذ.، ص. 230. ولاحظ بريثويت أن سكان ضواحي المعمورة فروا تاركين مزارعهم، خوفاً من هجوم القبائل الجبلية، وتمنوا بقاء المولى إسماعيل، « إذ أن الحاكم أفضل من الفوضى »، وهو موقف مطابق لمواقف العلماء، راجع: تاريخ الثورات...، م.س.ذ.، ص. 251.

الفتن، وملجأ من ياجوج المحن»⁶².

ويستنتج من هذه الأمثلة، أن التصورات التي احتفظت بها ذواكر الناس عن السلطانين القويين، ظلت مرادفة للسلم والطمأنينة، بغض النظر عن سياسة القهر والغلبة التي راهنا عليها. وكان ينظر إليها بعدم الرضا، مما يدل على شعورهم بحضور جهاز يحذون الخضوع لوصايته، والاستفادة من مظاهر الحماية التي يؤمنها، بدل الرزوح تحت وطأة الفوضى، أي أن هناك وعياً من جانبهم بحجم المنافع التي يجنونها من ظروف الاستقرار، التي لا تستقيم إلا مع الاستبداد، وتعد وظيفة من أبرز الوظائف التي يوليها أي نظام الأولوية في ممارساته.

الهيئة والجاه

من الصور التي تمخضت عن نظرة الناس للمخزن، تلك المتعلقة بما يوفره العمل في دوايب أجهزته من هيئة وجاه، ترقى بأصحابها إلى مراتب عليا في المجتمع، يستفيد منها كل من يمت إليهم بصلة من قريب أو بعيد. وقدم الإخباريون في هذا الإطار عدة حالات تجسد ما تمتع به هؤلاء من نفوذ. فالعالم علي الحريشي تكلف بتنفيذ أحباس كراسي التدريس بفاس دون أن يكون أهلاً لذلك، مستغلاً الواجهة التي حصل عليها ولده نتيجة خدمته كاتباً لدى عبد الله الروسي، وكانت شفاعته خادماً السيدة خنثة بنت بكار، لا ترد إلى درجة أن منزله تحول إلى حرم، يقصده كل من سعى إلى قضاء حاجة، وذكرت الأسيرة الهولندية تيرمتلين أنها لما «اعترضت السلطان في طريقه... أصبحت العامة تهابها بعد هذه الجرأة... ولم تعد محتقرة كما كانت من قبل»⁶³.

والملاحظ أن صور الهيئة التي عمل المخزن على ترسيخها في أوساط الناس، وجدت صداها لديهم، وكرسها ليس فقط النفوذ الذي استأثرت به أطره، وإنما شملت مظهر هؤلاء الخارجي الذي ميزهم من غيرهم، وأضفى عليهم أبهة نادرة مستمدة من طريقة لباسهم التي كانت تتماشى مع مكانتهم، ومع ما أنيط بهم من مهام، وتعد أسلوباً من أساليب تشخيص معالم السلطة، وشاراتها السياسية⁶⁴. وهو ما كان يسفر عن ردود أفعال قوامها الاستغراب والتعجب من زي أهل المخزن، وطريقة عيشهم، ولخصها التساوتي حين استقبال والده

⁶² الإفرائي، نزهة الحادي... م.س.ذ.، ص. 309.

⁶³ ماريا تيرمتلين، الأسيرة الهولندية... م.س.ذ.، ص. 52؛ محمد القادري، ن.م.ج. 3، ص. 363، وج. 4، ص. 235.

⁶⁴ محمد مقر، اللباس المغربي... م.س.ذ.، ص. 199-200.

وفدا عن باشا مراکش بالقول: « وجدنا زيهم كأنهم ملوك على الأسرة من كسوة رفيعة، وفراش جميل، ووجوه حسان... »⁶⁵. مما يعني أن الانتماء إلى المخزن ارتبط في مخيلات الناس باللباس الرفيع المنسوج من الحرير والصوف، والذي يصنف مرتديه في قمة التراتبية الاجتماعية، شأنه في ذلك شأن السكن الذي كان يقطنه خدام السلطان، ويؤثر على العيش الرغد، والنعمة الزائدة، باعتبارها مؤشراً على العظمة والتعالي، وإن كان مآل بعض هؤلاء الموت بعلة خطيرة نتجت في نظر الناس، عن التجاوزات التي ارتكبوها في حقهم، سعياً وراء تكديس ثروات طائلة⁶⁶.

والخلاصة أن الصور التي أوردتها كتابات المرحلة عن المخزن، عبرت عن وجود مؤسسة لها ضوابطها ونواميسها، اتخذت من السلطان مركزاً لها، وتم تمييزها في أذهان الناس باعتبارها سلطة معترف بتفوقها، وقوة جاذبة يفضي الانتماء لأسلاكها إلى امتلاك نفوذ مستتب من الهيبة التي توفرها. غير أن ذلك الانتماء لم يكن مرتبطاً بمعيار المكانة الاجتماعية، بقدر ما روعيت فيه اعتبارات فردية، وأحياناً رمزية، وهو ما جعل من الصعب الحديث عن تجانس داخل الشرائح المكونة للنخبة المخزنية، التي ظلت بعيدة كل البعد عن اكتساب صفة طبقة لها مصالح مشتركة، تحكمها آليات اجتماعية واحدة. وتبقى المقارنة بين أسس الحكم من منظور السلطانيين، ثم تقويم مدى نجاحهما في الاستفادة من التجارب السابقة لتحقيق المركز المنشودة خير سبيل لفهم طبيعة مؤسسة المخزن، والوقوف على أسباب انهيار صرح منجزاتهم بمجرد وفاتهم. فما هي طبيعة تلك الأسس وما هي مكامن الهشاشة الكامنة في صلب هذه المؤسسة كما تبين من دراسة عهديهما؟

⁶⁵ عبد الله التسافتي، ن.م، ص ص. 143، 158. وذكر عبد الرحمن بن زيدان، أن أهل بلاد المشرق كانوا يتعجبون كلهم « من زي مخزن سلاطين المغرب مولانا إسماعيل وولده هذا مولاي عبد الله... »، انظر، إنحاف أعلام الناس... م.س.ذ.، ج. 3، ص. 19.

⁶⁶ راجع حالي القائد عبد الله المهري والكاتب محمد عليلش، عبد الله التسافتي، ن.م، ص ص. 218-219.

الفصل الثاني

المخزن: أسس الحكم ومكامن الهشاشة

إذا كان لتاريخ الأفكار دور كبير في تاريخ المؤسسات، كما بين ذلك المؤرخ فوستيل دو كولانج Fustel de Coulanges،¹ فإن البحث عن مضامين مفهوم المخزن يجب أن ينطلق أيضا من التصورات التي حملها في أذهان السلاطين ومخيلات الخدام الذين يرتبطون بهم، ومما أورده الإخباريون الرسميون، عن طبيعة ممارساته في مختلف المجالات. فالأحداث السياسية والعسكرية التي ركز عليها هؤلاء، وأولوها عناية خاصة مقابل إغفالهم للوقائع الاقتصادية والاجتماعية والإدارية، جعلت من العسير الخروج بصيغ متكاملة قادرة على رصد التغيرات التي طالت المخزن، إن على مستوى المفهوم أو على صعيد البنية، نظرا لأهمية تلك الوقائع في تحقيق تناول شامل وفعلي لمفهوم السلطة، ولتنوع العلاقات التي جمعت بين الحاكمين والمحكومين.

كما أن إخضاع المخزن للمذاهب والنظريات المستوحاة من التراكم السياسي الذي شهدته أوروبا، لا يكفي كما بينا في الفصل السابق، لفهم كنهه، والكشف عن خصوصياته. غير أن ذلك لا يمنع البتة من محاولة المقاربة بينه وبين السلطنة العثمانية، ومسلسل النمو التدريجي للدولة في أحضان الملكيات المطلقة بأوروبا، وما واكبه من إنتاج غني في مجال التشريع المؤسساتي من جهة، ومن ظهور مفهوم جديد للحكم من جهة أخرى.

وفي الوقت الذي كرست فيه الكتابات التقليدية جهودا لتوظيف مادتها الإخبارية في إظهار عظمة السلطان، دون أن تعير اهتماما لسمات المؤسسة التي جسدها، وأشرف على إدارتها، باعتبارها على ما يبدو من الأمور البديهية، التي يتم من خلالها إعادة إنتاج دولة الخلافة، فإن تلك المادة، على ندرتها وتباين المنطقات المتحركة في كتابها، يمكن أن تفيد، إلى جانب الرسائل الصادرة عن السلاطين، في تشخيص ثوابت أسس الحكم التي شكلت حجر الزاوية، في فهم نظرة كل من أحمد المنصور والمولى إسماعيل إلى آليات السلطة وأبعادها، في سياق الروابط التي جمعتهم بالنخب والرعية على السواء. فما هو إذن المضمون الذي حملته مفهوم السلطة في الخطاب المخزني؟ وما هي الأسس التي ارتكز عليها أية صور احتفظت

¹ B. Barret-Kriegel, « L'Etat aux XVII^e-XVIII^e siècles... », *op. cit.*, p. 23.

بها الخاصة والعامة عن المخزن؟

ضوابط ممارسة السلطة

إن القراءة المتأنية لرسائل النصيح التي دأب السلطانان على توجيهها لأبنائهما، تظهر بجلاء نوعية الهواجس الموجهة لممارستيها في تسيير شؤون البلاد، التي تمحورت بالأساس حول الإبقاء على مسافة احترازية في العلاقات مع مختلف الفئات الاجتماعية، بهدف إشعار كل منها بحدود مكائنتها، وترسيخ نظام يكرس تعاليهما، ويكفل لهما وحده أقصى درجات التميز.

الحذر والسرية

درج السلطانان في تعاملهما مع الرعايا على تقاليد تؤكد غلبة هاجسي السرية والحذر على موافقهما تجاه الأطر المخزنية، وتجاه القبائل والمدن كما أوضحنا. إذ ألح أحمد المنصور على ولي عهده بأن يتخذ كاتبه ممن يتقنون صناعة الإنشاء، ويحافظون على الأسرار، ليعكف على مده بكل التفاصيل عن مجريات الأمور. وشدد المولى إسماعيل في رسالته إلى ولده المامون على وجوب انتقاء كاتب كفاء، وإملاء الخطابات عليه، ومراجعة مضامينها قبل الإقدام على ختمها².

وسارت التعليمات التي تم توجيهها بخصوص التعامل مع القبائل في الاتجاه نفسه، إذ اغتاظ السلطان السعدي كثيرا من قيام محمد الشيخ المامون باستخدام أولاد طلحة، الذين لا هم لهم في رأيه، إلا البحث عن « القوة وعورة المملكة »، لذلك أوصاه بالاحتياط منهم، وبعدم إشراكهم في شؤونه الخاصة بحكم أنهم « برانيين »، لأن أبسط الأمور لا يجب أن « يطلع عليها الأجانب، وإن كانوا أحب من كل حبيب، وأقرب من كل قريب »³. وعاب السلطان العلوي على المامون توظيفه لبعض القبائل العربية نظرا لكونها ليست أهلا للثقة، وأضرارها أكثر من منافعها، إذ خاطبه قائلا: « فاتكل على الله، لا تتكل على العرب، واعمل أصحابك الذين ينفعونك »⁴.

² محمد الإفرائي، نزهة الحادي... م.س.ذ.. ص. 17؛ المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون... م.س.ذ.. ص. 53.

³ محمد الإفرائي، ن.م، ص. ص. 175-177.

⁴ مجموع مخطوط، خ.ح، 12598، ص. 208.

وتترجم هذه النماذج مدى توجس السلطانين وتخوفهما من سقوط خبايا الحكم، التي مثلت مصدر قوتهما وأساس تفوقهما، في أيادي غريبة قد لا تتردد في استثمارها لإضعاف سلطتيهما، اللتين ظلت استمراريتهما رهينة بتبني أسلوب الحذر، وما يضمنه من وقاية تبعد طموحات الأعداء، وتكرس ثقافة التفاني في الخدمة والترقب في صفوف الأتباع. فوصية المولى إسماعيل لابنه بالحذر حتى من كاتب سره، ونصح أحمد المنصور لولي عهده بعدم إماطة اللثام عن أسرارِه أمام بطانته، كلها مواقف تنم عن رغبة ملحّة للتحكم في آلية القرار والانفراد بصياغته، بعيدا عن أية قوة يتحول إشراكها في اتخاذِه إلى مساومة تستحوذ على السير العادي للأمر، وبرر السلطان العلوي عتابه للمامون جراء استخدامه فرقا من العرب، بأنهم « يظلمون كل ساعة يتجملون عليك، ويقولون نحن مخازنية... هاهم كذا هاهم كذا وذلك مما يتعبك »⁵. كما حذر نظيره السعودي ولده محمد الشيخ المامون من توظيف أهل الجبال في كتائب الرماة، على اعتبار أن ذلك سيزيد من قوتهم، ويحفزهم على عدم أداء الضرائب⁶.

نستنتج أن امتلاك السر من قبل الغرباء، يعني التمتع بوسائل قوة موازية للمخزن، تحرمه من تفوقه، وتكشف عن مكان من ضعفه. فالتوصل إلى معلومات عما يدور بالبلاط يزيح النقاب للخصوم عن طبيعة الأسس التي تبني عليها المؤسسة السلطانية، وهو ما يعتبر من جهة مسا بتفردِها، وبخاصية الغموض التي اعتادت المراهنة عليها في علاقاتها بالخاصة والعامة، سعيا إلى تحصين ذاتها من كل ما من شأنه أن يزيل عنها الانطباع الذي اعتادت الرعية حمله عنها، وينم من جهة أخرى عن التلازم الحاصل بين إستراتيجية الحذر، وبين الحفاظ على التعالي الذي ارتبط ارتباطا عضويا بضبط الأسرار باعتبارها ورقة لا محيد عنها لإبراك حسابات المتربصين، وللتصدي لأي طارئ.

وبالرغم من إصرارهما على استبعاد الغرباء عن الخوض في شؤونهما الخاصة، حرص السلطانان كل الحرص على عدم إظهار ذلك، أو حتى إشعار المعنيين بحذرهما منهم؛ « ولكن الجفاء مع هذا كله لا تظهره لهم، بل تحسن اللقاء بهم، وتوااليهم بإظهار البشر والقبول، وباب الطمع تسده دونهم »⁷. تلك كانت توجيهات أحمد المنصور حول

⁵ ن.م.

⁶ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 178-179.

⁷ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 175.

الأسلوب الواجب سلوكه تجاه أولاد مطاع، وهي نفسها التي عبر عنها نظيره العلوي في إشارة إلى عرب الجنوب؛ « فإذا وصلتك أولئك العرب... فتلقهم وافرح بهم، وأبسط لهم لسانك، وقابلهم بالبشرى والترحيب، وأظهر لهم البشاشة، وأعقد لكبرائهم مجلسا كبيرا... ولا تظهر لكل أحد أنك مقصر على أولاد دليم، ولا قاصدا لذاو بلال⁸ ». ولإقناع القبائل المستهدفة بقراراتهما، عمد السلطانان دوما إلى بعث رسائلهما لتقرأ علانية أمام الأعيان، حتى يتحققوا من صحتها، ويتأكدوا من كونها صادرة عنهما.

وتقيم هذه المواقف الدليل على مدى تمسك المخزن بتفادي كل الأساليب المؤدية إلى نفور القبائل من ممارساته، لأنه كان على وعي تام بما يمثل ذلك من تهديد لقاعدة التوازن التي سعى دوما للحفاظ عليها. فآثر استعمال السياسة والدهاء وملازمة السرية والتكتم، واحتاط أن لا يصدر منه صك أمان كتابي أو شفوي يجعله مدينا لخصومه، حتى يظفر بهم، ويجردهم من وسائل قوتهم. فقد ندم أحمد المنصور، حين كان ينوب عن أخيه بفاس، على الوعد الذي قدمه لأولاد طلحة، والقاضي باستخدامهم، إذ اضطر لذلك نتيجة لأنه كان في بلادهم، ووفى بوعده بعد تولي الحكم، لكن شريطة استقرارهم بمراكش، واعتبر أن ابنه محمد الشيخ المامون لا يلزمه أي وعد تجاههم. ويبدو أن المولى إسماعيل سار على نهج سلفه، لما شدد في كتابه إلى ولده المامون على عدم الإفصاح عن نواياه الحقيقية تجاه إذاو بلال: « فلا » تنفرهم منك، ولا أن يفهموا من مكاتبتك حرفا واحدا من العيب... ومن غير أن تعطيهم أمانا ولا تكتب لهم به، فلا تكلمهم، ولا تكتب لهم إلا بالكلام الذي يسكنهم ولا ينفرهم... وهذه إحدى وسائل السر، وإحدى المسائل التي يستعمل الناس فيها ضروبا من السياسة والدهاء⁹.

ومن هذه الزاوية، شكل التحايل والحذر الكبيران من القبائل، خير وسيلة من منظور السلطانين لالتقاء شرورها المحتملة. لذلك كان يتم نقلها من مواطنها الأصلية، أو كسر شوكتها المادية عبر مصادرة قطعان المواشي والخيول، بقاء الأسلحة النارية بيد الخلط وأولاد حسين في عهد أحمد المنصور، وإذاو بلال في عهد المولى إسماعيل، مثل خطرا عليهم باعتبارها بطونا قبلية لا تصلح حسب رأيهما للخدمة المخزنية.

⁸ المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون... م.س.ذ.، ص.ص. 55، 61.

⁹ رسالة من المولى إسماعيل إلى المامون بتاريخ 5 ربيع الثاني عام 1109هـ، محمد الإفرائي، روضة التعريف... (ملحق م.س.ذ.، ص. 115. وحول أحمد المنصور، راجع: محمد الإفرائي، نزهة الحادي... م.س.ذ.، ص. 175.

بالمقابل وجب كشف أسرار الآخرين من خلال تتبع تحركاتهم وبث العيون والآذان لجمع الأخبار عنهم، لأن في معرفتها « جلب المصالح ودرء المفاسد، والاستعدادات للأمر قبل هجومها »¹⁰. وهو ما اعتبره الفشتالي مظهرا من مظاهر الحزم واليقظة وال ضبط التي تعد شروطا لاستتباب الأمن، ولحماية الحكم السلطاني من خطط المفسدين والمتمردين، وتعكس قدرة المخزن على تتبع كل صغيرة وكبيرة، وعلى زرع الرعب في نفوس المتربصين في الداخل والخارج، لأن « من الواجب على الرئيس... أن يكون على غاية من العزم، وعلى حالة كبيرة من الحزم، متيقظا لما يجب التيقظ له، متفطنا لجميع ما يكون من حقه، لا تصحبه غفلة في شيء من الأشياء، ولا تراخ في شيء من شغله في حالتي سره وجهره »¹¹.

وبذلك مثل التحكم في مصادر الخبر إحدى الأولويات، التي تم الاعتماد عليها لترسيخ قيم التعالي، وإقناع المتشككين بمواطن القوة التي تمكن من معاناة أحوال الرعية في السر والعلانية. ولم تذخر الكتابات الرسمية وسعا في الترويج لهذا الخطاب الذي بدا فيه السلطانان في منزلة جعلتهما على علم بكل ما يجري في البلاد، إذ تتطير الأخبار إليهما قبل أن يتردد ذكرها في أوساط الناس¹². الشيء الذي جعل الأطر المخزنية بدورها تعيش على الدوام تحت المراقبة الشديدة، وتتخوف من ردود أفعال السلطانين اللذين كانا على علم بمعظم التجاوزات التي تمارس من قبل بعضها في حق السكان؛ فأحمد المنصور كان على إطلاع بعمليات السلب والنهب، التي كان يقوم بها قواد ولده محمد الشيخ المامون بفاس، وأمره باستبعادهم. والمولى إسماعيل صنف عددا من الرجال المحيطين بولده المامون في خانة أهل الفساد الذين لا هم لهم إلا ابتزاز المال¹³. وفي هذا الإطار يمكن فهم الدعوات المتكررة من قبلهما، إلى عدم التساهل مع كل الخدام، الذين تثير سياساتهم التعسفية احتجاجات الرعية، وتسيء إلى سمعة المخزن، إذ لا مكانة للتراخي في الضرب على أيدي من تخطى الحدود المرسومة.

¹⁰ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 207. وعن المولى إسماعيل، انظر: مجموع مخطوط، خ.ح، 12598، ص. 211.

¹¹ المولى إسماعيل، ن.م، ص. 17.

¹² عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 207؛ أحمد ابن الحاج، الدر المنتخب...، م.س.ذ.، ج. 7، ص. 252 وما تلاها. وما يدل على تتبع السلطانين لأدق التفاصيل، هو طبيعة القضايا الجزئية التي تم التطرق إليها في رسائلهما إلى أبنائهما، من قبيل توجيهات أحمد المنصور لابنه أبي فارس والمولى إسماعيل لولده المامون، راجع: محمد الإفرائي، ن.م، ص. 178؛ المولى إسماعيل، ن.م.

¹³ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 177؛ المولى إسماعيل، ن.م، ص. 39.

الهيئة والتفرد

وفي الوجه الآخر لسياسة الخزم، شدد السلطانان على التحلي بالصرامة لما توفره للحاكم من توقير وسط الناس، « لأن الشراسة في الوالي هيبة له، يخافه بسببها القريب والبعيد، وينصف الناس من الحقوق بعضهم من بعض اتقاء لها، فهي محمودة، وإن لم تكن في الرجل طبعاً فينبغي له أن يتطبع بها، ويستعملها ليها به الناس ويعملوا بحسابه... فإذا كان الناس لا يهابونك ولا يتقونك فكيف ينصف بعضهم بعضاً، وكيف تجري عليهم الأحكام، وكيف يتساوون عندك في الحق »¹⁴.

يبين هذا التصور بما لا يدع سبيلاً للشك، أن لا سلطة بدون الغلبة والقهر اللذين يخولان التفرد، ويضفيان صبغة المصادقية على سلوكات الحاكم، كما هي مترسخة في أذهان الخاصة والعامة، وكما تفرضها ضرورات الحفاظ على التراتبية، التي تضمن التميز، وتجسد خصوصية السلطة السلطانية الملزمة بالحفاظ على تعاليها، وعدم النزول من برجها، لما في ذلك من فقدان للهيئة التي تبث الخوف في الصدور، « واليوم حيث صرت بمنزلة واحد منهم فأني فائدة فيك، وأي مزية لك، وأي شيء يتقيد الناس لأجله، وعلى ماذا يوثرك الناس على غيرك »¹⁵. فالمامون وهو يمارس سياسة الملاينة، ويتقرب من الرعية تخلياً من وجهة نظر المولى إسماعيل، عن أهم سمة يحترم الوالي من أجلها، ويحافظ بواسطتها على سلطته، وهي التميز من الآخرين، لأنه هو الكفيل بتأمين طاعتهم له.

ولم تخرج نصائح أحمد المنصور لولي عهده عن هذا السياق، حين طلب منه أن يوصد أبواب بلاطه في وجه الغرباء، ويتقي قائداً للمحلة، وأصحاب مشورة، وصاحب المظالم، أي يتخذ تدابير تتماشى مع مرتبته وبصفته ولياً للعهد وخليفة على فاس، حتى يماثل صورة أبيه؛ لأن صرامة الطبع تضي على الحاكم الاحترام والاعتبار والهيئة، وهي عناصر ضرورية حسب شالدانيا، لممارسة السلطة في بلاد المغرب¹⁶.

¹⁴ المولى إسماعيل، ن.م، ص. 3.

¹⁵ المولى إسماعيل، ن.م، ص. 3-4.

¹⁶ الإفرائي، ن.م، ص. 178.

ولم يقتصر إظهار الهيبة فقط أمام من صنف في خانة الغرباء، وإنما امتد ليشمل حتى أولئك الذين يشتركون مع السلطان في النسب. إذ حذر المولى إسماعيل ولده المامون من إجارة الشرفاء، أو الاستماع إليهم ومخالطتهم، وأمره بالإبقاء على هيئته وزيه تجاههم¹⁷؛ لأن في ذلك تمييزاً له منهم حتى يعاملوه بما يستوجب من وقار، ولا يستخفوا بمكانته، وهو ما يعني أن بناء الهيبة لا تراعى فيه صفة القرابة أو النسب، بقدر ما يركز على مبدأ التفرد لتدريب الجميع، بمن فيهم ذوي القربى، على سلوك التبعية والخضوع، وذلك بهدف إقناعهم ومن خلالهم كل من يتمتع بهيبة دينية مستمدة من التحكم في مفاتيح الشريعة أو من الصلاح، بضرورة الانصياع، لأن امتلاك الهمة العالية هو وحده الكفيل بجعل الناس يخافون من الحاكم، ويحسبون له ألف حساب، على حد تعبير السلطان العلوي¹⁸.

إذن فلا مجال للتراخي في الممارسة السياسية، بل يجب التحلي بالنجدة وسرعة البديهة التي تمكن من توفير « الجيش والعيش و... بيت المال وكسب أحرار الخيل و... الذخائر النفيسة و... الخواص المثمينة »¹⁹. وكلها تدابير تضافي على الوالي التقدير في أوساط الناس، وتحيطه بأبهة لا تستقيم سلطته بدونها، وبعظمة يهابه على إثرها الجميع. فالاستئثار بالآليات الاقتصادية والعسكرية خير سبيل لتأمين تعالي المؤسسة السلطانية على محيطها، وماعدا ذلك هو خروج عن المألوف، وتهديد مباشر لأبرز دعائمها. لذا حرصت دوماً على الظهور بمظهر التعالي لضرب مخيلات المتشككين في خصوصياتها، وهو ما تجسد في مختلف المناسبات الرسمية. ويمكن أن نستحضر على سبيل المثال بعض الممارسات البروتوكولية التي كان المخزن يتعمد خلالها إطالة أمد انتظار المبعوثين الأجانب قبل استقبالهم، فقد بقي الإنجليزي كارديناس Cardenas مدة شهر بمدينة مراكش، قبل أن تتاح له فرصة تسليم رسالته لأحمد المنصور، الذي ترك كذلك بالتسار بولو ينتظر أمام الفسقاط السلطاني تحت أشعة الشمس الحارقة منذ الصباح الباكر، ولم يستقبله إلا في الساعة الرابعة زوالاً. والأسلوب نفسه مارسه المولى إسماعيل خلال استقباله للبعثة البرتغالية، وباشا تطوان إبان ورود السفارة الإنجليزية²⁰.

¹⁷ رسالة من المولى إسماعيل إلى المامون، مجموع مخطوط، خ. ح، 12598، ص. 200.

¹⁸ المولى إسماعيل، ن. م، ص. 40، 64، راجع أيضاً: مجموع مخطوط، ن. م، ص. 206.

¹⁹ المولى إسماعيل، ن. م، ص. 41.

²⁰ عن المنصور، راجع:

إن للهية وزنا كبيرا بصفته قيمة مادية ورمزية لا بديل عنها للمخزن في تسيير شؤون البلاد، فهي التي تمكن من إقناع الأتباع بسموه، ومن إكراه الخصوم على الاعتراف بقوته، ومن استقطاب المترددين لطرق أبوابه والتهيو لخدمته، طلبا للاستفادة من الامتيازات. مما يؤكد وعي المخزن بأن استمراريته رهينة بإعادة إنتاج سلوكات مماثلة لركائز تأسيسه من جهة، ولممارساته وطقوسه كما هي معاشة وحاضرة في الذاكرة الجمعية، وواقع الرعية من جهة أخرى، لذلك كرس كل الإمكانيات المتاحة للاستبداد بالسلطة وتجديد آلياتها، وفقا للوثيرة المعهودة التي يظهر فيها السلطان. عظمهر الراعي للمجتمع، يكافئ كل من أبدى الطاعة، ويعاقب كل من حاول تخطي ما وضع له من حدود.

المصاهرة

حرص السلطانان في هذا السياق، وكما جرت العادة لدى أسلافهم المتعاقبين على حكم المغرب، على الحفاظ على روابط القرابة مع بعض القبائل بواسطة مؤسسة الزواج التي شكلت على ما يبدو، دعامة أساسية لخلق تحالفات مع مجموعات بشرية، لها من الخصائص ما يمكنها من تشكيل قاعدة خلفية مأمونة الجوانب. وهكذا تزوج أحمد المنصور من قبيلة الشبانات، ثم من أسرة بوكريزة الذائعة الصيت في المنطقة الممتدة بين تافيلالت وكورارة²¹. وكان المولى إسماعيل حاضرا في تشكيلات قبلية مختلفة، من خلال ارتباطاته بنساء منها، إذ تزوج من المغفرة، والرحامنة، وبني مالك، وبني سفيان، والشاوية، ودكالة، والحياينة، وزعير، وأولاد دليم، وأولاد حمامة²².

وإذا كان من الصعب معرفة العدد الحقيقي لنساء بلاطي السلطانين، نتيجة لطابع السرية الذي اكتنف الحياة داخلهما، ونظرا لخضوع مؤسسة الحريم إلى التجديد المستمر، فإن الكتابات،

S.I.H. M, 1^{re} série, Ang, t. I, p. 530.

وجون كولفن، « بعثة برتغالية... »، م.س.ذ.، ص.ص. 128-131؛ جون بريثويت، تاريخ الثورات...، م.س.ذ.، ص. 90.

²¹ مجهول برتغالي، وصف المغرب...، م.س.ذ.، ص. 86؛ المجهول السعدي، تاريخ الدولة السعدية...، م.س.ذ.، ص. 83. راجع أيضا:

J. Berque, Al-Youssi..., op. cit., p. 73.

²² راجع جداول تتضمن انتماءات زوجات المولى إسماعيل في مقدمة كتاب زهر الأكم، لعبد الكريم الريفي...، م.س.ذ.، ص.ص. 32-40؛ محمد الضعيف، تاريخ...، م.س.ذ.، ص.ص. 100-102.

سواء المحلية أو الأجنبية، احتفظت بأسماء بعض الزوجات اللاتي استطعن فرض أنفسهن، من خلال المكانة التي كن يتبوأنها لدى السلطان، والتي ازدادت في حالات إنجابهن لأبناء ذكور، جعلوا منهن فاعلات أساسيات في تهيين الأمير القادر على الظفر بمنصب الخلافة.

وركزت كتابات المرحلة من هذا المنطلق، على الأمهات اللاتي تمتع أبناؤهن الأمراء بحظوة القيام بمهام حيوية، من قبيل تسيير الجهات والأقاليم وقيادة الجيوش، أي الذين شاركوا في صنع الأحداث إلى جانب السلطانين، أو على الأقل التأثير في مجرياتها، فاختلفت صور الزوجات باختلاف حجم المنجزات التي حققها الأبناء في واقع البلاد. غير أن الإخباريين أوردوا تلك الصور بشكل عابر، وفي إطار تناولهم للوقائع التي اعتادوا على تدوينها، ولم يعمدوا إلى الاهتمام بها من زاوية منفصلة، على اعتبار أنها ظلت تصنف في خانة المسكوت عنه، وفي جعبة الأمور السلطانية الخاصة التي يحظر الخوض في تفاصيلها. ففي ما يتعلق بأحمد المنصور، هيمنت ثلاثة أسماء من زوجاته، لالة عائشة ولالة جوهر أو الخيزران ثم لالة مريم، واعتبرت الثانية أقواهن وأكثرهن حضوراً في التدخل في بعض القضايا الجوهرية، إذ كانت لها سلطة كبيرة على أبرز القواد العلوج، وهو ما دل على إسهامها في اتخاذ قرارات حاسمة همت تسيير شؤون البلاد، وتأكد مع استدعائها لأعيان فاس ونظرائهم من مراكز المرافقين لزوجها، بغية التوسط لديه من أجل العفو على ابنها محمد الشيخ المأمون بعد تمرده²³.

أما في عهد المولى إسماعيل فتبوت الصدارة على التوالي، خناتة بنت بكار وعائشة مباركة المعروفة بزيدانة، والسيدة أم العز، ثم لالة حليلة. فخناتة « كان لها كلام ورأي وتدبير... ومشاورة في بعض أمور الرعية... وكانت له (السلطان) وزيرة صدق، وبطانة خير، تأمره بالخير وتحرضه عليه، وتتوسط في حوائج الناس... وكانت في ذلك ركناً من الأركان... »²⁴. فقد تكفلت على سبيل المثال بالنيابة عن زوجها خلال فترة مرضه، وجمعت الحجاب، وأصدرت لهم تعليماتها ليدبروا أمور البلاد، كما كان يرغب السلطان في ذلك، حتى شفي وبادر إلى إدارة البلاد بنفسه²⁵. ونالت عائشة مباركة الإكرام والاحترام من لدن المولى إسماعيل، بفعل رجاحة عقلها، وحسن تدبيرها، فلم يتردد في استشارتها والأخذ برأيها،

²³ المجهول السعدي، تاريخ الدولة السعدية... م.س.ذ.. ص. 74؛ عبد الرحيم شكري، العلوج... م.س.ذ.. ص. 94، 108 من الملف.

²⁴ عبد الرحمن بن زيدان، إتحاف أعلام الناس... م.س.ذ.. ج. 3، ص. 16-17.

²⁵ أحمد ابن الحاج، الدر المنتخب... م.س.ذ.. ج. 7، ص. 362.

لأن « الأمر الذي تريده هي يريده... والذي لم ترده لم يرده هو لشدة محبته بها وغبطته... ومن أراد أن يقضي حاجته عند مولانا إسماعيل عزما، فليهاذها قبل أن يلتقي به »²⁶. وهو ما تشهد عليه مشاركتها في إدارة البلاد، إذ لما ثار محمد العالم بالسوس، وقرر السلطان مواجهته بتسعة ألف رجل تحت قيادة ابنه زيدان، طلب الأخير من قائد قواده إبراهيم بوعبدلي التوسط لدى المولى إسماعيل ليرفع له من حصّة المجندين، فاتصل بأمه عائشة الرحمانية التي ساعدتهما، من خلال إقناع زوجها، بالزيادة في عدد الجيش حتى أضاف لهما ستة آلاف²⁷. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل أثبتت الوثائق الإسبانية وجود مراسلات بينها وبين الملكة الإسبانية ماريا لويسا كابريل دي سابويا María Luisa Gabriela de Saboya زوجة الملك فيليب الخامس سنة 1703م، مما يدعم ما أورده مصادر أجنبية أخرى، عن كونها المرأة الأكثر تأثيرا في سياسة المولى إسماعيل²⁸.

وقامت لالة أم العز بأدوار مماثلة جسدت مكانتها ووزنها داخل البلاط، إذ توسّطت للسفير الإنجليزي شارل ستوارت، لما تعثرت مفاوضاته حول افتداء الأسرى سنة 1721م، وراسلها فعبرت له في جوابها عن استعدادها لتلبية طلباته، عبر تليين موقف زوجها من مسألة الفدية وطريقة أدائها²⁹. كما كان الرهبان الفرنسيون المكلفون بتحرير الأسرى، يقصدون نساء المولى إسماعيل، لتمهيد الطريق أمامهم، وإزاحة كل العقبات التي تحول دون بلوغهم لأهدافهم³⁰. وهمت الوساطة حتى العلاقات بين المولى إسماعيل والأطر المخزنية، إذ كانت زوجاته تتوصلن بهدايا مختلفة من حكام المناطق الذين يرغبون في الحفاظ على علاقات جيدة مع السلطان، بل إن أي شخص كان يرغب في الحصول على عمل، أو على عفو، كان عليه أن يطرق بابهن³¹.

²⁶ محمد الضعيف، ن.م، ص. 89؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، ص. 359.

²⁷ عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 224.

²⁸ D. Maxange, *Le Grand Ismail...*, op. cit., p. 208 ; D. Busnot, *Histoire du règne...*, op. cit., p. 52 ; Ch-De la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 5.

وعن المراسلات مع ملكة إسبانيا راجع: محمد ابن عزوز حكيم، « سيرة المولى إسماعيل من خلال الوثائق الإسبانية »، ضمن مصادر تاريخ الدولة العلوية الشريفة، المؤسسون الأولون للدولة العلوية الشريفة، آثار وتراث منطقة تافيلالت: أعمال الدورة الأولى المنعقدة بالريصاني (1989)، الرباط، وزارة الثقافة، 1990، ص. 143.

²⁹ جون وندوس، رحلة... م.س.ذ.، ص. 107.

³⁰ D. Maxange, *Le Grand Ismail...*, op. cit., p. 211.

³¹ جون بريثويت، تاريخ الفترات... م.س.ذ.، ص. 120، 140، 161.

وأُسفرت الوضعية المتميزة لبعض نساء البلاط عن تنامي ثرواتهم، التي كانت تديرها شخصيات من الثقة أو اليهود، فظهرت زوجات كممولات للأنشطة التجارية حسب شهادة التاجر الفرنسي بيي Pillet. ودلت على ذلك وضعيتهن المالية بعد وفاة السلطانين؛ فقد أشرفت لالة جوهر بشكل مباشر على تدبير شؤون ابنها محمد الشيخ المامون بعد وفاة أحمد المنصور، ورافقته خلال عبوره لإسبانيا، وحاولت إصلاح ذات البين بينه وبين أخيه أبي فارس. «وكانت أم المولى زيدان تمتلك كمية كبيرة من المجوهرات والنقود»³²، ووضعت لالة خناتة كل إمكاناتها المادية رهن إشارة ابنها المولى عبد الله، لدعم طموحاته في الصراع الدائر بين إخوته حول خلافة السلطان³³.

هكذا انفردت أبرز زوجات السلطانين بنفوذ سياسي ومادي، مستوحى من قدرتهن على نيل عطفهما ورضاهما، وعلى الانفراد بحق اقتسام بعض الأدوار معهما، وامتد ذلك النفوذ ليغطي كل من مت إليهن بصلة من قريب أو من بعيد. فالفائد عبد الواسع الفروكي والشيخ وكريم تمتعا بسلطة كبيرة في منطقة وادي نفيس، ولم تكن أحكام باشا مراکش تجري على قبائلهما، باعتبارهما أصهار المولى إسماعيل من جارية تدعى زبيدة. وكان الشيخ سيدي أحمد صهر السلطان نفسه يحكم عدة دواوير في منطقة بني عروس. وتمتعت بالامتياز نفسه مثلا أسرة بوكريزية في عهد أحمد المنصور³⁴. ترى أشكلت المصاهرة إستراتيجية تم التخطيط لها من قبل السلطانين بهدف ضمان التوازن مع أهم التشكيلات الاجتماعية؟ أم أن الأخيرة هي التي كانت تحرص على ضمان القرب منهما من خلال تهافتها على نسج روابط زيجية معهما؟

اعتاد السلطان إبان التنقلات التي كان يقوم بها، سواء لتأديب القبائل أو لزيارتها، أن يتلقى جريا على عوائد أسلافه، الهدايا من شيوخ العرب والأمازيغ ومن بينها عذارى، يجدون في

Ch-De la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p 25.

³² خورخي دي هنين، ن.م، ص. 157.

³³ M. Morsy, « Lalla Khenata reine du Maroc », in *Les Africains*, Paris, Jeune Afrique, t. I, 1977, p. 177.

عبد الرحيم شكري، ن.م، ص. 94، 108؛ خورخي دي هنين، ن.م، ص. 157.
Ch-De la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, p. 27-29 ; S.I.H.M, 1^{re} série, Pays Bas, t. I, p. 105.

³⁴ عن مرحلة المولى إسماعيل راجع: التساقي، ن.م، ص. 145، 209-210. انظر أيضا: جون وندوس، ن.م، ص. 62. وبخصوص مرحلة أحمد المنصور انظر: مجهول برتغالي، وصف المغرب...، م.س.ذ، ص. 86.

تقديمهن شرفا كبيرا³⁵، وتعبيرا عن ولائهم له. وهو ما ينم عن درجة وعيهم بالمكاسب التي سيتم جنيها، شأنهم في ذلك شأن السلطان، أي أن الطرفين كانا يدركان الأبعاد الحقيقية لارتباط من هذا النوع. إذ لم يتمكن أحمد بن محرز مثلا من الحصول على ممرات أطلسية بسوس، إلا بعد أن تزوج بنت أحد الأشياخ البارزين بالمنطقة، الذين كانوا يرفضون السماح له بعبور المجالات التي تدخل تحت دائرة نفوذهم³⁶. وكانت زوجات المولى إسماعيل في الغالب من بنات القواد والأعيان والشرفاء، من بينهم أخت لباشا تطوان بحرمه، وأخرى بحرم أحد أبنائه، وهو موقف مماثل للذي كان يحيا فيه أحمد المنصور مع ابنه مولاي أبي الحسن، حين تزوجا أختين من أسرة بوكريزية³⁷. بل أورد جوزيف دوليون Joseph de Léon أن المولى إسماعيل كان يلجأ إلى تزويج باشاواته ببعض إماءه اللاتي لا ينجبن، حتى يستطيع مراقبة حكمهم بشكل جيد³⁸.

وتؤكد هذه النماذج مدى أهمية مؤسسة الزواج في تمكين السلطان من اختراق المجموعات السكانية المستهدفة، وربط مصالحها بمصالحه، حتى أضحت المصاهرة وسيلة لجذب الأتباع، وتخويلهم فرص الترقى في السلم الاجتماعي. وشكلت من منظور كبار الأطر المخزنية عربونا على الوفاء، وتوثيقا لأواصر القرابة التي يزيد امتدادها من توسيع هامش الامتيازات المنعم بها عليهم. إذ ليس من باب المصادفة أن يقدم المولى إسماعيل على تزويج إحدى بناته من زعيم يتحكم في طرق أدرار³⁹، لأنه كان على وعي تام بأهمية ذلك في تأمين وصول الذهب والعبيد. ويمكن في السياق نفسه، فهم طبيعة التحالفات التي ربطته بقبيلة الأوداية التي تنحدر منها أمه وزوجته خناتة، فرأى فيها دعما من كافة عرب المعقل، وهو توجه مماثل لذلك الذي تعامل به سلفه أحمد المنصور، مع أسرة بوكريزية وقبيلة الشبانات، في إطار التنا-

SIHM, 2^e série, Fra, t. II, p. 161.

Id., pp. 111-2.

³⁷ مجهول برتغالي، ن.م، ص. 86.

Morsy, La relation de Thomas Pellow..., op. cit., p. 92, note 108 ; D. Maxange, Le Grand..., op. cit., p. 211.

De la Veronne, Vie de Moulay Ismail..., op. cit., p. 28.

كان العمل جاريا بهذه العوائد لدى العثمانيين: انظر: روبر مانتران، تاريخ الدولة العثمانية...، م.س.ذ.، ص 266-268.

Abitbol, Tombouctou..., op. cit., p. 186.

التي وضعها في أهل سوس ودرعة ومراكش، لما نصح ولده محمد الشيخ المامون بالاعتماد عليهم.

إذن مثل الزواج السلطاني في تاريخ البلاد وسيلة من وسائل الحكم التي تمت المراهنة عليها لتجديد الصلات، وتقويتها مع القبائل الخليفة، أو لخلق قاعدة بشرية موالية في مناطق حيوية، لها من النفوذ ما يؤهل أعيانها للظفر بحظوة القرب من الدار العالية بالله.

والمثير للانتباه أن المولى إسماعيل، ظهر في الأسطوغرافية بمظهر السلطان الذي نجح في نسج شبكة واسعة من علاقات المصاهرة مع قبائل معظمها تقريبا عربية، مما يوحى إما بسكوت من جانب المصادر، أو بعدم نجاحه في استقطاب القبائل الأمازيغية إلى صفه - بالرغم من تحالفه مع بعضها - بالنظر إلى الصراعات المتعددة التي خاضها بهدف إخضاعها. في حين بدا توظيف أحمد المنصور لآلية الزواج في النسق السياسي أخف حدة من خلفه، ويعود ذلك إلى تباين إستراتيجية الرجلين. إذ في الوقت الذي اضطر فيه السلطان العلوي إلى المزاوجة بين أسلوب القصبات وبين أساليب أخرى من بينها المصاهرة لامتصاص حجم الاعتراضات التي واجهها حكمه، أو على الأقل التقليل من حدتها، ربما لم يكن نظيره السعدي مجبرا أمام ظروف الإجماع التي تولى في ظلها، إلى سلوك سياسة مماثلة.

وعلى الرغم من الغموض الذي اكتنف ما كان يجري بالحرم، فالظاهر أن أدواره السياسية بقيت في مدها وجزرها حبيسة الاختيارات السلطانية، في علاقتها بالقدرات الشخصية لثلة من الزوجات، اللاتي نجحن في إثبات ذواتهن بصفتهن شريكات انفرادي بثقل حضورهن، إما من خلال رجاحة مواقفهن، أو عبر إظهار نجاحتهن في إعداد الخلف⁴⁰.

ولم تقتصر تلك الأدوار عليهن، بل همت أقرب المقربات إلى السلطانين؛ فوالدة أحمد المنصور لالة عودة سجلت وجودها عبر بناء القناطر والمساجد، وتمويل مختلف مشاريع الإصلاح والترميم التي صنفها الإخباريون في خانة أعمال البر والإحسان⁴¹. وكانت لالة صوفيا أخت محمد الشيخ المامون على إمام بفحوى المفاوضات التي كان يجريها المبعوثون

⁴⁰ لم تكن كل الزوجات قادرات على فرض أنبائهن، أمراء مؤهلين لخوض معركة الخلافة بعد وفاة السلطان، ويمكن الاستشهاد في هذا السياق بأم العز، التي كان لها حضور سياسي وازن إلى جانب المولى إسماعيل، لكن دور ابنها المولى عبد الله ظل باهتا.

⁴¹ أحمد المقرئ، روضة الآس...، م.س.ذ.، ص. 67. عن الدور المماثل لأمهات وأخوات السلاطين بالإمبراطورية العثمانية، راجع:

N. Vatin et G. Veinstein, *Le sérail ébranlé...*, op. cit., p. 13.

الأجانب بالمغرب، حيث قدمت معلومات للفرنسي أرنو دو ليسل Arnault de Lisle حول مضمون زيارة السفير الإسباني، الذي بحث سبل التحالف ضدًا على الأتراك⁴²، وهو ما ينم عن مشاركتها بشكل مباشر أو غير مباشر في القضايا السياسية.

وبذلك اخترن الحرم السلطاني في طياته كل مفاتيح السر التي حرص المخزن على تحصينها لتأكيد تفرده، ولضمان تفوقه باعتباره سلطة تحكيمية لا بديل عنها لاستمرارية التوازن الذي تفرضه طبيعة البنية الاجتماعية، لذا مثل ركيزة من ركائز أسس الحكم، وتجسيدا لثقافة الحذر التي لا دوام للحكم السلطاني بدونها.

والخلاصة أن أسس الحكم المخزني عكست إصرار السلطانين على الإقناع المادي والرمزي، لمختلف شرائح المجتمع بخصوصيتيهما المستمدتين من أصليهما الشريفيين، وما يفرضانه من وجوب التعالي، والمستوحاتين من قدراتهما التنظيميتين، وما واكبهما من عزم على إظهار هيبتهما وقوتيهما لقهر الخصوم، ولترسيخ ولاء الأتباع. وتساءل انطلاقا مما سبق، عن نوعية المقاربة التي يمكن بناؤها بين أسس الحكم المخزني، وبين المسار الذي اتخذه مثيلاه في الإمبراطورية العثمانية وفي أنظمة الملكية المطلقة بأوروبا الغربية خلال العصر الحديث⁴³.

في الضفة الأخرى

إذا كان المولى إسماعيل قد كشف في رسائله إلى سلاطين أوروبا وملوكها عن تصوره للحكم، معتبرا أن الملك لا يطلق عليه هذا الاسم، «إلا إذا كان له التصرف المطلق من غير حجر عليه... لأن عقول الملوك أي (كذا) كانوا تفضل عقول من عداها من الخاصة والعامة»، وأن الحاكم المثالي هو الذي ينفرد بسلطة القرار، دون استشارة أهل ديوانه أو الأخذ برأيهم: «فلا نرضى نحن إلا أن نتكلم إلا معك، لأنك قابض على أمرك وكلام طاعتك مقصور على رأسك، وأما الأجناس الأخرى فكلامهم عند أهل ديوانهم، ولا يبلغون منزلتك عندنا أبدا، لما نعلمه من علو همتك عليهم...»⁴⁴، وإذا كانت ممارساته السياسية على شاكلة سلفه أحمد

⁴² G. Jaqueton, « Documents marocains », in *Revue Africaine*, 1894, pp. 36-7, d'après Collection de documentos para la historia de España, t. 36.

⁴³ عبد الله العروي، مجمل... م.س.ذ.، ج. 3، ص. 103.

⁴⁴ رسائل من المولى إسماعيل إلى لويس XIV بتاريخ 12 جمادى الأولى 1111هـ/5-11-1699:

S.I.H.M., 2^e série, Fra, t. II, pp. 434-7 et t. V, p. 459.

راجع أيضا: محمد داود، تاريخ تطوان... م.س.ذ.، ج. 1، ص. 267.

المنصور، قد صبت في اتجاه الاستئثار بمختلف الوسائل المتاحة لممارسة السلطة، فإن الطابع الذي اتخذته الأنظمة السياسية في السلطنة العثمانية والملكيات المطلقة في أوروبا، يوحى بمساءلة ثوابتها بهدف محاولة مقابلتها مع التصورات السلطانية.

السلطنة العثمانية

كان السلطان العثماني سليمان يستهل مراسلاته الرسمية بما يلي: «أنا السلطان وباد شاه البحر المتوسط والبحر الأسود وروميليا والأناضول وبلاد الروم وكرمان وبلاد ذو القادر وديار بكر وكرديستان وأذربيجان وفارس ودمشق وحلب ومصر والقدس الشريف ومكة المكرمة والمدينة المنورة وجميع بلاد العرب واليمن وجدة وأرض التتر، إلى جانب العديد من البلدان الأخرى التي غلبها جيروت سيوف أسلافي الأجماد، وأجدادي الأكرمين، ناهيك عن عدد هائل من الأمصار التي فتحتها بحسامي الوضاء...»⁴⁵. وبلغت عظمة الإنجازات التي حققها السلطان العثماني على عهد محمد الثاني الملقب بالفاتح، درجة جعلت من جهة، المؤرخين البيزنطيين ينعته بـ «القيصر»، ورسخت من جهة أخرى في ذهنه منظومة «دولة واحدة، وحاكم واحد للعالم» «يجمع قي شخصه بين صفة «الجهاد والخانية»، وهو ما كان يعطي السيطرة على الشرق الإسلامي والغرب المسيحي»⁴⁶.

ويدل لقب «باد شاه»، على السلطان أو الملك أو الحاكم ويتركب من باد وهي تخت أو عرش، وشاه تعني سيد أو صاحب. وقد استعمل أيضا في المراسلات الرسمية خلال القرن السابع عشر للدلالة على ملوك أوروبا⁴⁷. كما حمل العاهل العثماني عدة ألقاب من بينها لقب الخاقان المعظم الذي كان يطلق على سليمان القانوني، ولقب الخليفة بعد تنازل المتوكل آخر ملوك بني العباس عنه لفائدتهم⁴⁸. ونعت بالغازي والمجاهد في إعلاء كلمة الله، ومالك

⁴⁵ روبر مانتران، تاريخ الدولة العثمانية... م.س.ذ.، ص. 242.

⁴⁶ عبد الرحيم بنحادة، العثمانيون... م.س.ذ.، ص. 32.

⁴⁷ باد شاه والنسبة منه باد شاهي تعني الملك أو السلطة. وحول شهنشاه والخابان، راجع في هذا الصدد: مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2000، ص. 17.

عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 86.

⁴⁸ مصطفى بركات، ن.م، ص. 19، 23-27. لمزيد من التفاصيل حول ظروف استعمال لقب الخليفة من قبل العثمانيين ودلالاته، راجع: عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 81 وما تلاها.

رقاب الأمم⁴⁹، حتى إن السلطان سليم أصبح يحمل لقب « خادم الحرمين الشريفين » بعد هزمه للسلطين المماليك، ومن ثم تحكمه في الإشراف على تنظيم شعيرة الحج، وحماية الحجاز وفلسطين من الخطر البرتغالي، قبل أن يضيف سليمان العراق⁵⁰. وهكذا أصبح الحاكم العثماني يسمي نفسه « سلطان سلاطين الشرق والغرب، قيل الأقيال موزع التيجان على ملوك المعمورة، ظل الله على الأرض... »⁵¹ غير أن العثمانيين بالرغم من اعتبار أنفسهم أقوى سلاطين الإسلام «منة من الله»، فإنهم جمعوا في واقع الأمر بين البعدين الإلهي والديني للسلطنة، وتجسد ذلك في الفرمان الذي يرافق حفل تنصيب كل سلطان، ويضم عبارة « إن من لطف الله أن تيسر لهم أمر السلطنة »، أي أنهم ملكوا الخلافة بمفهومها العسكري وليس السلالي⁵².

ونقل السلاطين العثمانيون العديد من مخلفات النبي صلى الله عليه وسلم من القاهرة إلى إسطنبول⁵³، وهو ما أعفاهم نسبيا في مرحلة أولى على الأقل من إثارة مشكلة عدم انتمائهم لآل البيت، قبل أن يتخذوا -حسب بعض الروايات- من تنازل الخليفة العباسي عن الخلافة ذريعة أحقية حكمهم وشرعيته⁵⁴، وخاصة خلال القرن الثامن عشر أمام المد الوهابي والخطر المسيحي. واعتز السلطان سليمان أيما اعتزاز بالعبارات التي خاطبه بها شريف مكة في إحدى رسائله إليه: « إنكم أسمى منا ومن جميع سلاطين الإسلام؛ لأنكم فتحتم بلادا تخص الأوروبيين وأمثالهم »⁵⁵. بل لما أخبر الصدر الأعظم ولي نعمته بأن الإمكانات المالية لخزينة الدولة لا تسمح بالدخول في حرب ضداً على العصبة المقدسة، والتي توجت بصلح كارلوفيتز سنة 1699، أجابه السلطان مصطفى معترضا بالقول: « لست في حاجة لأمتعة أو لمبالغ مالية كبيرة، سوف أكل الخبز اليابس حين تدعو الضرورة لذلك، سأضحى بذاتي من أجل الدين، سوف أتحمل كل أشكال العذاب بصبر، ولن أتخلى عن القيام بواجبي في خدمة

⁴⁹ مصطفى بركات، ن.م.، ص.ص. 45-55.

⁵⁰ روبير ماتران، ن.م.، ص. 244.

⁵¹ روبير ماتران، ن.م.، ص. 243؛ عبد الرحيم بنحادة، ن.م.، ص.ص. 38، 97.

⁵² عبد الرحيم بنحادة، ن.م.، ص.ص. 80، 84.

⁵³ روبير ماتران، ن.م.، ص. 244.

⁵⁴ حول بداية استعمال السلاطين العثمانيين للقب الخلافة، راجع: عبد الرحيم بنحادة، ن.م.، ص. 80 وما تلاها.

⁵⁵ روبير ماتران، ن.م.، ص. 244.

الله وكتابه وقيادة حملتي العسكرية»⁵⁶.

وكان السلطان العثماني يكتسب الشرعية بعد مبايعته أو «تسميته خليفة» على حد تعبير الكاتب العثماني حسن بايزيد عقب تعليقه على بيعة محمد الثالث سنة 1595. ولم تعمل البيعة لدى العثمانيين إلا على إقرار الوضع القائم، والمصادقة عليه في نهاية المطاف، بغض النظر عن الظروف التي أفرزته. واهتمت الآداب التاريخية العثمانية بحفل التنصيب، إذ خصصت له عدة صفحات ميزت فيها بوضوح بين من يتم جلوسهم وبين من يتم إجلاسهم على العرش من قبل عناصر من خارج السلالة الحاكمة، حتى أضحي النظام السياسي العثماني يركز على مبدأ قوامه أن كل من نجح من الطامحين في الحكم في فرض نفسه على الآخرين فإن الله هو الذي اختاره لذلك، ومن ثم يصبح حكمه شرعياً⁵⁷. وكانت جماعات ظاهرة أو متخفية من نخب البلاط، أو من الانكشارية، أو من العلماء، أو من نساء القصر تضغط بشتى الوسائل لدعم المرشح الذي يمثل مصالحها، ويعبر عن طموحاتها، وهو ما كان ينتهي أحيانا بأحداث دامية⁵⁸. إلا أن حفلات التنصيب لم تخل تارة من مفاجآت دالة على فرض الأمر الواقع، فلما تم الإعلان مثلاً عن حفل جلوس أحمد الأول سنة 1603 أثار انتباه كبار المدعوين أن العرش تم وضعه في باب السعادة، بدلاً من المكان المخصص له عادة، حيث لم يجلس عليه السلطان محمد الثالث الذي كانوا ينتظرونه، وإنما جلس ابنه المراهق. وتكرر السيناريو نفسه عقوداً بعد ذلك وبالضبط سنة 1648 حين أقدمت والددة السلطان، في إطار سعيها لإبعاد ابنها إبراهيم، على فرض حفيدها البالغ سبع سنوات، والذي حمل لقب محمد الرابع⁵⁹.

وكان الجلوس على العرش تتجاذبه في بدايات الدولة مدينتا بورصة وأدرنة، فمحمد الأول تم تنصيبه في أدرنة في حين عين ابنه مراد الثاني في بورصة. بينما تم جلوس محمد الثاني بأدرنة. وفيما بعد أصبحت إسطنبول هي دار السلطنة ودار الخلافة⁶⁰. وبالرغم من ذلك فإن ثلاث تنصيبات تمت بأدرنة خلال نهاية القرن السابع عشر: أحمد الثاني (1691) ومصطفى الثاني

⁵⁶ N. Vatin et G. Veinstein, *Le sérail ébranlé...*, op. cit., p. 350.

⁵⁷ Ibid, pp. 266, 304.

⁵⁸ روبر مانتران، ن.م، ص.ص. 248، 267، راجع أيضاً: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، بيروت، دار النفائس، الطبعة الأولى، 1981، ص. 246.

⁵⁹ N. Vatin et G. Veinstein, *Le sérail ébranlé...*, op. cit., pp. 260-261.

⁶⁰ Ibid, pp. 262-263.

روبير مانتران، ن.م، ص. 261؛ عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 95.

(1695) وأحمد الثالث (1703)⁶¹. وكانت البيعة تتم أحيانا بطريقة مباشرة وعلنية، كما أورد نشري بخصوص محمد الأول إبان الحرب الأهلية، وبعد هزيمة أنقرة، حين اقترب من بورصة التي تخلى عنها أخوه عيسى، « توجه العلماء وكبار العيان (كذا) وعامة الناس ببورصة لملاقاته والتعبير عن احترامه وتعظيمه واتخذوه سلطانا لهم »، وهو في واقع الأمر نوع من « البيعة الجماعية التي كان يجذبها العاهل الجديد باعتبارها خير وسيلة لإثبات شرعيته »⁶².

وعموما اتخذت البيعة لدى العثمانيين طابع احتفال رسمي يوم الجمعة، يحتضنه قصر السلطان الذي يتخذ شكل مدينة محصنة وسط إسطنبول⁶³. وتخضع المراسيم لتقنين نخبوي، وتنظيم مضبوط من الناحية البروتوكولية، ويحضرها عدد محدود من المشاركين⁶⁴، من أركان الدولة، وأعيان السلطنة، وكل خدام الباب العالي مدنيين وعسكريين والمتمتعين بالهبة، إذ لا تتم البيعة إلا بموافقة كل هذه الأطراف التي انضمت إليها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر عناصر جديدة من أهل القلم ورؤساء الكتاب وزعماء المكاتب ونقيب الأشراف⁶⁵.

وابتداء من نهاية القرن السادس عشر لم تعد البيعة سلطانية، وإنما أصبحت بيعة خلافة، وكان يرمز إلى ذلك بلباس عمامة يوسف عليه السلام، وفي حالات استثنائية عمامة عمر بن الخطاب كما تم خلال جلوس مصطفى الأول على التخت. ثم سيظهر رمز آخر ابتداء من نهاية القرن السابع عشر وهو الخرقة المنسوبة للرسول صلى الله عليه وسلم، ثم سيفه الذي أصبح تقليدا أساسيا في البيعات اللاحقة⁶⁶.

وتعد صلاة الجمعة في مسجد أيا صوفيا، وزيارة قبر الصحابي أيوب الأنصاري من أهم طقوس جلوس السلطان على العرش، وهي مناسبة لظهوره الأول والعلني أمام الناس، ولف

⁶¹ N. Vatin et G. Veinstein, *Le sérail ébranlé*, p. 266.

⁶² عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 90.
⁶³ *Ibid*, p. 269.

⁶⁴ روبر مانتران ن.م، ص. 262؛ عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص ص. 90-91.

⁶⁵ N. Vatin et G. Veinstein, *Le sérail ébranlé...*, op. cit., p. 270.

⁶⁶ *Ibid*, pp. 277, 281.

⁶⁷ يعتبر عبد الرحيم بنحادة أن « البيعة الخليفية » لا يمكن الحديث عنها إلا خلال القرن السابع عشر. عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 92.

⁶⁸ N. Vatin et G. Veinstein, *Le sérail ébranlé...*, op. cit., pp. 290-296.

سيف عثمان حول خصره تعبيراً عن قيادته للجيش⁶⁷. وفي الأسبوع الموالي لجلوسه، شارك محمود الأول في صلاة الجمعة بالمسجد الذي بنته جدته. ولربط الماضي بالحاضر توقف عند عودته من زيارة قبر أيوب أمام قبور أسلافه وخصوصاً بالمسجد الموجود بقصر محمد الثاني، لإلقاء نظرة على قبر جده الأكبر السلطان محمد خان غازي، والصلاة عليه⁶⁸.

ومن طقوس تربع السلطان على عرشه، إلقاء خطب الجمعة، وضرب السكة باسمه، وإحصاء الوضعية القانونية للأراضي، وإفراغ حرم السلطان المنتهية ولايته من قاطنيه، والالتحاق بالسرايا القديمة، وفسح المجال أمام أم السلطان الجديد وزوجاته وإمائه وأبنائه وخدامه للحلول مكانهم. وكان أول شيء يقوم به السلطان المنصب هو الدخول إلى الحرم وملاقة أمه التي تُستقبل في السرايا باحتفالية كبيرة. وعموماً أصبح حفل انتقال أم السلطان الجديد إلى القصر طقساً ملازماً لكل تنصيب، ويجري بين حدث الجلوس وزيارة قبر أيوب⁶⁹.

وعموماً يرافق كل حفل تنصيب هدايا وتعيينات وترقيات جديدة، ويتم تجديد وثائق التعيين والامتيازات والإعفاءات والضمانات وحتى المعاهدات الدولية. وشكل ذلك مناسبة لتغذية مداخيل الخزينة، على اعتبار أن كل تجديد يستوجب دفع رسوم الجلوس، كما كان يتيح الفرصة لحركة واسعة من الارتشاء وشراء المناصب. ويوزع السلطان ألبسة وأسلحة للزينة على كبار الخدام، وعلى علماء القصر، ويقدم الهبات والزيادات في الأجور للإنكشارية. يختلف فرقها، وللمكلفين بالخزينة المالية، بل إن أعطياته تطول فقراء مكة والمدينة والقدس وينبع⁷⁰. ويقدم الصدر الأعظم بدوره على الشيء نفسه، بمقر الديوان حيث يفرق ألبسة الشرف على أركان الدولة. وصنف الكرم السلطاني تجاه الخدام والمقرين والرعايا وحتى مع المبعوثين الأجانب من أولويات السلطان التي تضمن له شعبية كبيرة، وأجر عظيم عند الله⁷¹.

⁶⁷ Ibid, pp. 304-308.

عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 93. روبر مانتران، ن.م، ص. 249.

⁶⁸ روبر مانتران، ن.م، ص. 249. اعتاد بعض السلاطين زيارة قبر الصحابي أيوب سنوياً، راجع: عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 94.

N. Vatin et G. Veinstein, *Le sérail ébranlé...*, op. cit., pp. 316-7.

⁶⁹ N. Vatin et G. Veinstein, *Le sérail ébranlé*, pp. 322-328.

عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 95.

⁷⁰ Ibid, pp. 328, 341.

روبير مانتران، ن.م، ص. 249-250، 254. محمد فريد بك المحامي، ن.م، ص. 198.

⁷¹ روبر مانتران، ن.م، ص. 253-254.

وبما أن كل أمير كان يؤمن مبدئياً بالحق في المطالبة بالعرش كلما سمحت بذلك الظروف، فإن السلاطين أقدموا بعد تنصيبهم على القصاص من جميع إخوتهم عن طريق خنقهم. وأوردت المصادر أن السلطان سليمان مثلاً أصدر أوامره بقتل أولاد أكبر أعمامه المدعو جيم وأحفاده، وهكذا قتل ولديه مصطفى وبايزيد وذريتهما لإبعادهم من حلبة السباق نحو الوراثة.⁷²

وبالمقابل كان السلطان يوزع الأقاليم أو المقاطعات (سناجق) على أبنائه (الشاه زادات) وأحفاده ليتدربوا فيها على قواعد ممارسة شؤون الحكم تحت إشراف شخص يعرف باسم اللالا، وهو ما مكّنهم من اكتساب سلطة جهوية هامة على شاكلة السلطة المركزية⁷³، الأمر الذي ظل يمثل تهديدا دائما للسلطان الحاكم، خاصة إذا ما نجحوا في استقطاب الأنصار ضمن صفوف الجيش الانكشاري، كما آل إليه حكم بايزيد الثاني، وكما كشفت عنه مؤامرات ولدي السلطان سليمان، الشيء الذي دفع في مرحلة أولى خلفاءه إلى حصر التوزيع في الأبناء الأكبر سناً، قبل أن يتم إيداع كل الشاه زادات في القفص تحت مراقبة شديدة قد تنتهي بالإعدام، وهو الأمر الذي أقدم عليه محمد الثالث في حق إخوته التسعة عشر⁷⁴.

ومن القضايا المثيرة التي تميز بها التاريخ العثماني، ظهور التأثير السياسي للنساء داخل البلاط، والذي بدأ بشكل غير مهيكّل مع خورم (روكسلان) زوج سليمان القانوني⁷⁵ ونوربانو عقيلة السلطان سليم الثاني، واتخذ شكلاً شبه مؤسّساتي فيما بعد وخاصة حين أصبح يجلس على العرش ملوك قاصرون كأحمد الأول الذي اعتلاه سنة 1603 في سن الثالثة عشرة. وبمجرد استقرار الأم، تقوم بإرسال هديتين فاخرتين الأولى، عبارة عن خنجر مرصع بالجواهر، ومعطف من الفرو للصدر الأعظم، ثم معطف مماثل لشيخ الإسلام، وهما أيضاً يردان على ذلك بهدايا مماثلة⁷⁶.

⁷² ن.م، ص. 246.

⁷³ روبر مانتران، ن.م، ص ص. 247-248، 265؛ ورد في قانون الدفن لمحمد الفاتح: «يسر الله السلطنة لكل واحد من أولادي، ولأجل تأمين استمرارية نظام العالم، فإن قتل الإخوة مناسب حتى إن أكثر العلماء أجازوه، فليعمل به» وأعقب ذلك إصدار قانون القفص. عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص ص. 88-89.

⁷⁴ عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص ص. 87-89؛ روبر مانتران ن.م، ص ص. 247-248، 265.

⁷⁵ عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص ص. 304-305.

⁷⁶ N. Vatin et G. Veinstein, *Le sérail ébranlé...*, op. cit., pp. 322-328.

ولعبت أمهات السلاطين في القرن السابع عشر أدواراً هامة جداً، واشتهرت في هذا الصدد السلطنة قوسيم (الجدة السلطنة) والسلطنة طورخان⁷⁷، إذ أصبحن يتدخلن في تسيير الشأن العام، وفي اتخاذ القرارات الحاسمة التي تهم البلاد، وخاصة خلال القرن الثامن العاشر لما أضحت السلاطين بمثابة دمي في أيديهن⁷⁸. ومارست بعضهن مهام سياسية بارزة ولو في الظل، كما فعلت أم السلطان مصطفى الثاني الذي قدمت له يد العون في الأزمة التي ألمت به. وفي السياق نفسه ساعدت مهرماه أخاها سليم الثاني مادياً على اعتلاء سدة الحكم. وكرست خديجة طورخان جهودها لإبعاد المنافسين داخل القصر عن طريق ابنها محمد الرابع⁷⁹. كما اعتادت زوجات السلاطين وأمتهاتهم القيام بالأعمال الخيرية من بناء للمستشفيات والجوامع والمدارس والمكتبات كما هو حال بزم عالم والددة السلطان، ومثيلتها برتونيال⁸⁰.

ونظراً للضغوط الكامنة التي شكلها الطامحون إلى العرش على النظام القائم، فقد تحولت جملة من الطقوس، مع مرور الوقت، إلى قواعد سياسية ملازمة لكل جلوس على العرش، الذي كان صاحبه لا يميل أبداً إلى ابتداء طقوس جديدة، بقدر ما يعمل قدر الإمكان على إعادة الأمور إلى سابق عهدها، وتقويم ما اعوج منها، كما هو الأمر بالنسبة لبازيد الثاني مثلاً الذي ألغى كل الإجراءات العقارية والمالية والمقتضيات المتعلقة بالهيمنة على الأوقاف المتخذة من قبل سلفه محمد الثاني، والتي أثارت احتجاجات واسعة⁸¹، وجسد بسلوكه هذا العمق الديني للمؤسسة السلطانية الذي سعى من خلاله إلى إقرار الشريعة الإسلامية، حتى أطلق عليه العلماء والنخبة المثقفة لقب ولي من أولياء الله⁸².

وفي ما يخص مؤسسات الدولة، تضاربت آراء الدارسين حول الجهة التي تحتكر القرار السياسي الفعلي هل السلطان أم الصدر الأعظم. لقد كان السلطان مبدئياً هو القائد الأعلى للجيش، والمشرّف على العلاقات مع الدول الأجنبية، وهو المشرع للقوانين الوضعية التي لا

⁷⁷ عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 54-55.

⁷⁸ N. Vatin et G. Veinstein, *Le sérail ébranlé...*, op. cit., p. 13.

⁷⁹ Ibid, p. 337.

⁸⁰ عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 303.

⁸¹ N. Vatin et G. Veinstein, *Le sérail ébranlé...*, op. cit., p. 346.

⁸² عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 34.

يبت فيها الشرع⁸³، إذ كان الديوان من أهم مؤسسات الدولة العثمانية، وهو عبارة عن مجلس يتشكل من كبار رجال الدولة من وزراء ومكلفين بالشؤون المالية وضباط الجيش والكتاب الخاصين، ترأسه السلطان في البداية قبل أن يعهد بذلك إلى الصدر الأعظم. ويعقد اجتماعاته أربعة أيام في الأسبوع للتداول في الشكاوى وفي القضايا الأساسية (أمور-إى مهمه) وحتى في المسائل المحلية وأحيانا الشخصية⁸⁴. ومع مرور الزمن أصبحت للصدر العظام، الذين كان جلهم من فئات الديوشمه أي العبيد المنحدرين من أصول مسيحية، صلاحيات واسعة تجسدت في تعيين كبار المسؤولين في الإدارة والجيش والبت في الشؤون القضائية الكبرى، بالرغم من أنه لم يكن لهم دخل في الشؤون المرتبطة بالبلاط، أو الانكشارية، أو بما يبت فيه العلماء⁸⁵. ويخضع كل خدام القصر وموظفيه لسلطة «أغا الباب» كبير الخصىان البيض، الذي يستفيد من قربيه من السلطان للتحكم في تعيينهم وترقيتهم⁸⁶. وكان في خدمة بلاط السلطان العثماني عدد من اليهود أمثال جوزيف هامون وابنه موسى والمنجمين والعلماء والكتاب وأهل الموسيقى والخط والرسم والمعمار⁸⁷.

وتمثل دور أهل الفتوى في إيجاد الصيغ الكفيلة بتكييف القضايا القانونية مع الشرع، وهو ما مكّنهم من اكتساب مكانة متميزة مستفيدين من استقلاليتهم عن أجهزة الدولة شأنهم في ذلك شأن شيخ الإسلام الذي كانت تمر القرارات السياسية ومساطر تسمية القضاة والمدرسين من رفوف مكتبته⁸⁸. وتحكم السلطان في تنصيب أعضاء الجهاز المكلف بالفتوى في قضايا الشريعة وإقالتهم، وتمتع بحق سن التشريعات المتعلقة بالقانون والإدارة والمالية...⁸⁹

⁸³ ن.م، ص. ص. 79، 97، 155.

⁸⁴ روبر مانتران، ن.م، ص. 276؛ إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، الطبعة الثانية، 1998، ص. ص. 80، 81. وحول الديوان واختصاصاته، انظر: عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 111 وما تلاها.

⁸⁵ روبر مانتران، ن.م، ص. 278. بموازاة مع ضعف هبة السلاطين ازداد نفوذ الصدر العظام، وعن صلاحياتهم من أمثال محمد باشا كوبرولى وجندرلى باشا وإبراهيم باشا وصوقللى باشا... راجع: عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. ص. 55، 56، 104 وما تلاها.

⁸⁶ روبر مانتران، ن.م، ص. 264.

⁸⁷ ن.م، ص. ص. 269-275.

⁸⁸ ن.م، ص. ص. 278-282.

⁸⁹ ن.م، ص. ص. 254-255.

أي جملة من القوانين العرفية المستمدة من الشريعة الإسلامية، والهادفة بالأساس إلى مركزه السلطة⁹⁰.

واعتاد العاهل العثماني أن يستقبل الناس للاستماع إلى شكاوى التظلمات التي تطولهم من حكام المقاطعات، أو أن ينصت إليهم مباشرة وهو في موكبه إلى مسجد آيا صوفيا⁹¹، كما دأب على التنقل لممارسة الصيد والقتل برفقة كبار رجال دولته، وتسيير شؤون البلاد من داخل إقامته المتنقلة، بل واستقبال المبعوثين الأجانب. وهو ما كان يمكنه من إبراز عظمتة أمام الرعية⁹².

وانفرد حكم السلاطين العثمانيين بمزية الدقة والتنظيم⁹³، فقد اعتمدت الإمبراطورية على جهاز بيروقراطي لم يصل أعلى مستويات الامتداد والتنظيم المتشابك، بالرغم من التزايد الهائل في أعداد الموظفين، وتوسيع دائرة تقسيم الاختصاصات. كما أن كتاب البلاط لم ينجحوا في تكوين طبقة مغلقة ومتجانسة بالمعنى الحقيقي. ومثل الانتقال بيسر من المناصب العسكرية والمدنية وإليها حاجزا في وجه أي شكل من أشكال الانفصال الواضح بين شرائح الموظفين⁹⁴. وانتشرت إدارة مماثلة للمركز داخل قصور الولاة بالمقاطعات⁹⁵.

والملاحظ أن السلاطين العثمانيين استخدموا بدورهم المصاهرة وسيلة لتمتين سلطتهم بمختلف أطراف الإمبراطورية، إذ اتخذوا من أميرات مسيحيات من بيزنطة وصربيا، أو من بنات الأسر المسلمة الحاكمة زوجات لهم حتى نهاية القرن الخامس عشر، ثم ما لبثوا، بعد توطيد سلطتهم، أن اعتمدوا أساسا على معاشرة الإماء اللواتي يقدمن لهن سبايا الحرب أو هدايا، باستثناء زواج السلطان سليمان من الجارية روكسلان. وعمد السلاطين العثمانيون إلى تزويج إمائهم إما إلى كبار عبيدهم (قولات)، أو إلى خدامهم السابقين وذلك

⁹⁰ عبد الرحيم بنحادة، العثمانيون... م.س.ذ.، ص. 40.

⁹¹ روبير ماتران، م.، ص. 252.

⁹² م.، ص. 261-262.

N. Vatin et G. Veinstein, *Le sérail ébranlé...*, op. cit., p. 8.

⁹³ Ibid.

⁹⁴ روبير ماتران، م.، ص. 284-286.

⁹⁵ م.، ص. 279.

لضمان ولائهم⁹⁶.

وخضع الاقتصاد العثماني لهيمنة الدولة التي شجعت أنشطته من خلال السماح بتداول القروض بالفائدة في مختلف أطراف الإمبراطورية بالرغم من نهى المذهب الحنفي عنها، بل وعبر محاولة السيطرة على ممتلكات الأوقاف الشيء الذي أثار بعض مظاهر الاحتجاج. كما عملت على توجيهه بأساليب متعددة همت الضرائب المستحدثة، وأنماط الإنتاج، والأسعار، والأيدي العاملة، والرساميل المستثمرة، ومنافذ التصدير، وذلك سعيا لحماية الرعايا من مختلف مظاهر الاحتكار، والتلاعب بدم المستهلكين. ومثل القطاع الفلاحي قطاعا حيويا بالرغم من وجود مؤسسات صناعية (كارخانة) تنتج مواد مختلفة، وتشغل عددا كبيرا من العمال، وخاصة في مجالات الأسلحة والبارود وبناء السفن⁹⁷.

يتبين من خلال هذا الجرد الموجز للسلمات التي ميزت السلطة العثمانية، أن هناك تقاطعات عديدة مع المخزن المغربي تستمد أصولها من المرجعية الدينية الإسلامية بالأساس، ويتعلق أساسا بالمقارنة مع إمبراطورية مترامية الأطراف، ومتنوعة الأعراق والثقافات. غير أن هذا التقارب لا يعفينا من القول بأن قاعدة الثقافة كانت حاضرة وبقوة في صياغة مختلف التنظيمات العثمانية، التي وإن حافظت في جوهرها على ما كان سائدا بالعوالم الإسلامية الأخرى، فإن التراكمات السابقة ظلت بصماتها بادية في طرق تدبير أجهزتها وأساليه:

– يدل القاموس الاصطلاحي المعبر عن ألقاب الحاكم العثماني، على أن النظام السياسي هو حصيلة لتصورات متشابكة موروثه، يترجمها الجمع دفعة واحدة بين لقب « الخان » التركي المغولي، ولقب « الشاه » الفارسي، وتسمية « السلطان » العربية⁹⁸.

– امتدت هذه البصمات لتشمل مجالات التشريعات، كتلك المتعلقة بالجوانب العقارية والجبائية التي استحدثتها كل من محمد الثاني وسليمان القانوني والمستوحاة من الإرث التركي المغولي، الشيء الذي أفضى إلى إطلاق نعت « دولة الازدواج القانوني » على الإمبراطورية، أي التي تجمع بين الشرع والعرف والقوانين الصادرة عن الدولة⁹⁹، بمعنى آخر بين مؤسسات

⁹⁶ ن.م، ص.ص. 266-268. وهي الممارسة نفسها التي كان يقوم بها المولى إسماعيل، راجع:

Ch-De la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., p. 28.

⁹⁷ روبر مانتيران، ن.م، ص.ص. 318، 332. عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 169 وما تلاها.

⁹⁸ روبر مانتيران، ن.م، ص. 250؛ عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 87.

⁹⁹ روبر مانتيران، ن.م، ص. 251؛ عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص.ص. 97، 155.

السلطان، وشيخ الإسلام، والصدر الأعظم، بينما لم يشهد الجهاز المخزني بالمغرب الحديث هياكل واختصاصات مماثلة.

— ومن الزاوية نفسها، تجلّى التأثير بالهياكل الدينية البيزنطية في إقدام السلطان سليمان، بمعية شيخ الإسلام أبو السعود أفندي، على تمتيع مفتي العاصمة بموقع في أعلى تراتبية العلماء يعادل المكانة التي كان يحتلها الصدر الأعظم، وهو ما مثل خروجاً عن القاعدة التي كان معمولاً بها في المغرب بل وفي مجموع الدول الإسلامية، بغض النظر عن الأهداف السياسية لهذه البدعة، والمتمثلة في مواجهة الصفويين بإيران، والكيزلباش بالأناضول¹⁰⁰.

— بالرغم من استمرار الحكم في سلالة آل عثمان، فقد عانت « الدولة العلية » بدورها، وعلى شاكلة المخزن المغربي، من مشكل المشروعية السياسية¹⁰¹، حيث غالباً ما كان الانتقال لا يتم بسلاسة من حكم سلطان إلى آخر، بل تواقبه الصراعات العسكرية والمؤامرات والدسائس تارة أخرى، وهو ما كان له تأثير بالتأكيد على السياسات العامة للإمبراطورية على المدين المتوسط والبعيد.

— تبقى القواعد الأساسية للسلطة تقوم على المرجعيات المخزنية نفسها المستمدة من الهوية والتفرد والحيطه والحذر حتى من أقرب المقربين، ومن ممارسة سياسة السخاء لكسب الأتباع، ولترسيخ ثقافة الولاء¹⁰².

— لم تكن سلطات الخاقان العثماني، وعلى غرار نظيره المغربي، مطلقة، بقدر ما كانت مقيدة بأحكام الشريعة، ومطوقة بمقتضياتها التي تنص على إقرار العدل وضمان الأمن والطمأنينة للسكان من خلال إصدار مراسيم من قبيل (عداله نامه)، ونشر مراقبين سرين، والتجول متنكراً في الأقاليم. كما كان للحاشية تأثير كبير عليه¹⁰³. ولم يتخذ الحكم طابعاً استبدادياً على النمط الشرقي، أو تسلطياً مطلقاً كما تذهب إلى ذلك العديد من الكتابات

¹⁰⁰ روبر مانتران ن.م، ص. 282.

¹⁰¹ عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 87 وما تلاها.

¹⁰² ورد في قوانين محمد الفاتح: « وليس من قوانيني أن يجلس مع جنابي الشريف أحد لتناول الطعام، إلا إذا كان من الأهل والعيال، وقيل أن أجدادي كانوا يأكلون الطعام مع وزرائهم، وقد أبطلت أنا ذلك ». عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 98.

¹⁰³ روبر مانتران، ن.م، ص ص. 253-254.

الغربية، وإنما مثل نظاما اجتماعيا وسياسيا خاصا يخضع فيه موظفو السلطة لشدة هيمنته¹⁰⁴، وتعتبر فيه الدولة نظريا ملكا خاصا للسلطان وذويه، يذلون كل جهد للإنفراد به، والتمتع بامتيازاته، لكن عملا بفتوى شيخ الإسلام أبو السعود أفندي « لا يصح الأمر السلطاني في ما يقره الشرع »¹⁰⁵.

وإذا كانت هذه المقاربة المختصرة للمخزن مع العثمانيين تحتاج إلى دراسة متأنية، فإنها بالرغم من ذلك، توحى بأن هناك عدة قواسم مشتركة مستوحاة من الأسس الثقافية والتاريخية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية للنظامين، وتؤكد بما لا يدع للشك سبيلا وجود مظاهر اقتبسها أحمد المنصور، وسار على نهجها المولى إسماعيل¹⁰⁶، فماذا بالنسبة للملكيات المطلقة؟

الملكيات المطلقة بأوروبا الغربية

صنف لويس الرابع عشر في نصائحه إلى ابنه، الحكم فوق كل القوى الإنسانية، على اعتبار أن استكمال مقوماته رهين بالمباركة السماوية، وأن « مشاريعه العادلة والشرعية تحتاج في تنفيذها إلى نجدة السماء، التي تفتح آلاف السبل وتكشف عن آلاف التسهيلات المنتظرة... »، لأن « الجيش والنصائح، وكل الصنائع الإنسانية ما هي إلا وسائل ضعيفة للحفاظ على العرش... »¹⁰⁷، والإيمان بالله لا يعتبر مسألة عقدية شخصية فحسب، ولكنه نظام اجتماعي وسياسي يسهل إخضاع الشعوب. إذن فالله هو مصدر السلطة السياسية، ويجب تثمين هذا المصدر من وجهة نظر سياسية وليس لاهوتية¹⁰⁸.

¹⁰⁴ ن.م، ص ص. 251، 260.

¹⁰⁵ عبد الرحيم بنحادة، ن.م، ص. 99.

N. Vatin et G. Veinstein, *Le sérail ébranlé...*, op. cit., p. 333.

مصطفى بركات، ن.م، ص. 36؛ إسماعيل أحمد ياغي، ن.م، ص ص. 78، 79.

¹⁰⁶ من بينها مؤسسة الديوان أو مجلس الملأ « التي يجلس فيها للجمهور والوفود وأحكام الجند ومناولة أمور المملكة بالنقض والإبرام... فيؤذن للناس في الدخول على طبقاتهم... » عبد العزيز الفشتالي، *مناهل الصفا...*، م.س.ذ، ص ص. 205-206.

¹⁰⁷ M. Miaille, « Dieu et le pouvoir dans les mémoires de Louis XIV », in *Tout pouvoir vient de Dieu*, Actes du VII^e colloque Jean Boisset, Université de Montpellier III, Sauramps, 1993, pp. 290-1.

¹⁰⁸ M. Miaille, « Dieu et le pouvoir... », op. cit., pp. 290-1. « Rien de plus faux que tout soit égal devant le roi [...] car les rois sont les images de Dieu sur la terre, ils sont chargés de l'imiter autant qu'il est donné à la créature de le pouvoir. » Emmanuel Le Roy Ladurie, *Saint-Simon ou le système*

وأضاف لويس الرابع عشر قائلا: « إن العاهل ينتمي إلى درجة أعلى من بقية الناس، ويرى الأمور الماثلة أمامه بطريقة أفضل منهم... وهناك بعض الوظائف التي يحل فيها محل الله... فنحن نتخذ القرارات الأكثر نجاحا برضانا، وليس برضا مستشارينا، فيما أننا متموضعون في طبقة عليا، فإننا لا نخوض على شاكلتهم في المصالح الصغرى، التي يمكن أن تؤدي بنا إلى الجور »¹⁰⁹.

وتمتع الملك من هذه الزاوية، بوضعية متميزة، مستمدة من التراتبية التي خلقها الله في الكون، ومنحته سلطة لفرض إرادته على المجتمع وتنظيمه. فكبرياء لويس الرابع عشر أقنعه بتفوقه على رعاياه، وعلى الملوك الآخرين، فهو لم ير في وزرائه الثلاثة إلا أتباعا. وعلى الرغم من بساطة ثقافته، حكم كرجل محب للعمل، ومعجب بمنطق الدولة، يسعى في مرضاة الله¹¹⁰، ويلج على ضرورة احترامه وطاعته؛ لأنه وحده له التصرف المطلق في تسيير شؤون البلاد، وتحصينها من أي تدخل للجمهور. إذ لا يوجد شؤم في رأيه، أكبر من استشارة الملك لجمعية تمثل رعاياه، أو من إفشاء أسراره أمام الرعا¹¹¹، فالتكتم إجراء ضروري للإبقاء على المكانة المتميزة للحاكم.

وأقر لويس الرابع عشر في نصيحة أخرى بالنظرة التنظيمية للحكم، في علاقته بالمرجعية السماوية، معتبرا أن الله خلق الكون وفتح المجال للإنسان تحت وصايته، ليتحرك فيه ويعمل على تنظيمه. « فالعالم لا يحكم نفسه بنفسه بواسطة الثورات الفجائية والطبيعية، التي يستحيل تجنبها، أو التنبؤ بها »¹¹². بل إن الإنسان يشارك في صياغة الأحداث، والله « حينما يريد أن يجعل ملكا سعيدا وقويا ومهابا ومحترما، فالطريقة المعتادة لبلوغ ذلك تتجسد في تمتيعه بالحكمة، وبعد النظر، والعدل، واليقظة والمجد »¹¹³. ومن هذا المنظور، اعتبر لويس

de la cour, p. 102.

¹⁰⁹ Miaille, « Dieu et le pouvoir... », *op. cit.*, p. 292.

¹¹⁰ E. Preclin et V-L. Tapie, *le XVII^e siècle, monarchies centralisées...*, *op. cit.*, pp. 221-2 ; M. Miaille, « Dieu et le pouvoir... », *op. cit.*, p.535.

¹¹¹ *Ibid.*

¹¹² *Ibid.*, pp. 292-3.

¹¹³ *Ibid.*

الرابع عشر أن السياسة تجربة إبداعية، و« فن توظيف الظروف »¹¹⁴، يتمحور حول التعامل مع كل وضعية وفق إرادة ومخطط، يتم من خلالها تركيب عناصرها وتوجيهها لتتحول من حركة إلى منظومة إستراتيجية. وهو ما يعني أن المصير والقدر لهما مكانتهما في التاريخ، وأن الملك كإله يضفي معنى على زمن، وعلى عالم في حركة¹¹⁵.

ولكي تكون ملكيته مطلقة وليست طاغية، عليه حسب جون بودان Jean Bodin احترام القوانين السماوية، وقانون الطبيعة، ومراعاة حرية وممتلكات الرعايا، وتوفير الأمن مقابل خضوعهم وطااعتهم¹¹⁶. لكن لويس الرابع عشر اعتبر أن المصلحة العليا للدولة تقتضي إسباغ الشرعية على الممارسات الأكثر تعسفا، فكتب في مذكراته أن « الملوك هم أسياد مطلقون، ولهم طبيعيا الحق الكلي والشامل لوضع ممتلكات الرعايا وحياتهم رهن إشارتهم »، و« خلال التمردات يصبح القمع مشروعاً ومؤثراً خيراً، لأنه لا شيء أخطر من الفوضى، والتضحية بعدد قليل من المتمردين، ما هو إلا إنقاذ لعدد لا محدود من الأبرياء »¹¹⁷.

لذا لم يتردد الملك الفرنسي في حث ولده على اليقظة والحذر، « ... يجب أن تراقب بدقة كل ما يجري في الأرض، تأتيك في كل ساعة مستجدات جميع الأقاليم، وسر كل البلاطات، ومزاج ونقط ضعف جميع الأمراء والوزراء الأجانب. عليك الاطلاع على أكبر عدد من الأشياء التي نعتقد أننا نجهلها، والتسلل بين رعايانا لمعرفة أهم ما يخفونه عنا والكشف عن النظرات البعيدة جدا لأفراد حاشيتنا، وعن مصالحهم المضرة التي تتعارض مع مصالحنا »¹¹⁸. بل « يجب أن تقسم ثقتك مع عدة أشخاص، فغيرة الواحد تصلح دائما لوضع حد لطموحات الآخرين »¹¹⁹. إذن فلا بد من اقتحام كل الأسرار، وتجنييد العيون والآذان في كل مكان.

¹¹⁴ « La politique est une expérience créatrice un art, l'art d'utiliser les conjonctures... », Voir : M. Miaille, « Dieu et le pouvoir... », *op. cit.*, pp. 292-3.

¹¹⁵ *Ibid.*

¹¹⁶ P. Manent, « Les Théoriciens de la monarchie, Bodin et Montesquieu », in E. Le Roy Ladurie (dir.), *Les monarchies*, Séminaire de l'Ecole pratique des hautes études, Paris, PUF, 1977, pp. 95-6.

¹¹⁷ E. Lavissee, *Histoire de France*, t. VII, 1^{re} partie, (1643-1685) Hachette et Cie, 1911, p. 157 ; *Le XVII^e siècle...*, *op. cit.*, p. 536.

¹¹⁸ M. Miaille, « Dieu et le pouvoir... », *op. cit.*, p. 239.

¹¹⁹ E. Lavissee, *Histoire de France...*, *op. cit.*, p. 158.

واتسمت الملكية في إنجلترا بطابعها الألوهي، فاليزابيث الأولى كانت ترفض تدخل البرلمان بغرفتيه في شؤونها، باعتبارها شخصية مقدسة لها الحق في مزاولة عدة صلاحيات، دون مستشارين ولا برلمان، كما هو الشأن بالنسبة لحالات إعلان الحرب والسلام وسك العملة، وتسمية المجلس الخاص، وإدارة الأحكام العرفية، وتعيين كل الضباط السامين في البلاد، وإدارة العدل، وتحصيل الحقوق الفئدالية التابعة لها. ودخلت في هذا السياق، في مواجهات مع البرلمان حين طالبت بالأموال لتنفيذ سياستها الفرنسية والاسكتلندية، وألحت على الموافقة على زواجها لتخلف وريثا للعرش، فذكرت أعضاء.مجمعيتها الإلهية وبتعاليتها: « أنا ملككم الكاهنة المسيحية، لا أريد أبدا أن أكون مكرهة على فعل أي شيء »¹²⁰.

وسار الملك الإنجليزي شارل الأول في الاتجاه نفسه، إذ كان هو الحاكم الروحي للبلاد، يقود الرعايا وفقا للإرادة السماوية، وهو القاضي الوحيد والمشرع، يحكم القضاة باسمه، ويفرض القوانين بالسيف لضمان الأمن والعدل، ويتموضع فوق البشر، ويتسم بالأخلاق والفضيلة¹²¹.

كما كان جاك الأول الإنجليزي جالسا فوق عرش الله يضع القوانين ويؤولها، ويغيرها دونما حاجة للرجوع إلى أي مجلس، فالله هو الذي منحه مهمة التنفيذ، وجعله سيدا للمملكة، له الحق في تحصيل الضرائب والحصول على الدعم المالي من رعاياه، حتى في غياب موافقة البرلمانات أو السلطات المحلية¹²².

وهكذا اتخذ الملوك وإلى غاية اندلاع الثورة الفرنسية، صورة إلهية انفردوا فيها بطابعهم الأبوي تجاه الرعية، التي عليها الاعتراف بحكمهم ومن خلاله بحكم الله، مما يعكس بوضوح أن الحكم السياسي كان ذا طبيعة دينية¹²³، ويجسد النظرية المطلقة التي دعمت مفهوم الحق

¹²⁰ R. Mousnier, *Monarchies et royautés...*, op. cit., pp. 96-7, note 1.

¹²¹ R. Mousnier, *Monarchies et royautés...*, op. cit., p. 97.

¹²² E. Preclin, *le XVII^e siècle...*, op. cit., p. 534.

¹²³ M. Miaille, « Dieu et le pouvoir... », ..., op. cit., p. 295.

« Le roi est l'image de Dieu, pâlie, affadie. Il est comme un dieu. Il n'est certes pas Dieu, ni encore moins « un » dieu quoi qu'on ait voulu faire dire en ce sens à Bossuet. A la tête de sa cohorte aristocratique et hiérarchique, il fonctionne plutôt comme une manière de saint, ce que ne contredit pas sa qualité d'oïnt du seigneur, même minorée depuis les derniers Valois et les premiers Bourbons... Le roi source de reliques, est également producteur de sacré, en un sens plus institutionnel... » Emmanuel Le Roy Ladurie, *Saint-Simon...*, op. cit., p. 110.

الإلهي للملوك، لما اعتبرت أن الإمبراطورية والبابوية معا، مصدرهما مباشرة من الله. غير أن السلطة الزمنية ظلت مستقلة عن السلطة الروحية¹²⁴، ودل ذلك الاستقلال بوضوح على أن الملكية المطلقة تتناقض مع التيقراطية؛ لأن جميع المؤسسات، بما فيها الكنيسة، توجد تحت تصرف الملك. لقد كان لويس الرابع عشر يتدخل بصفته ضامناً للسلم الاجتماعي، في وجه كل من حاول المساس بالمذهب الكاثوليكي الرسمي للدولة، كما حدث مع التيار الأخلاقي المسيحي Jansénisme¹²⁵ ومع الحركة البروتستانتية، أي أنه اعتاد توظيف الدين باعتباره وسيلة من الوسائل الاجتماعية الأخرى، لتقوية حكمه، ولترسيخ سلطته¹²⁶.

وبذلك أظهرت الفلسفة السياسية للملكيات المطلقة، مدى تجذر المقدس والديني في ثناياها؛ لأنها شيدت أسسها عبر «خلق الحدث، وإفراز الوضعيات، والتحكم في الزمن والمجال، أي أن كل خصائص الألوهية وجدت في وظيفة الحكم... فلا يمكن لأي عائق أن يعترض السياسة الملكية... فالعالم ليس له معنى مسبق إلا ذاك الذي يمنحه إياه العاهل»¹²⁷.

وإذا كان من المستبعد الحديث عن تطابق سمات الملكية المطلقة مع المخزن السلطاني في مغرب العصر الحديث، نظرا لتباين المنطلقات، واختلاف الظروف التي أفرزت كلا منهما، فالظاهر، وبغض النظر عن مشروعية المقارنة أو عدمها، أن هناك تقاطعات ربطت بينهما، تجسد أولها في غلبة نمط الاستبداد على مفهوم السلطة، الذي ظل يزرع تحت هاجس التدبير المطلق للحاكم، حتى أضحي هناك خلط بين شخصه وبين الدولة، وإن بدا السلطان أكثر تقيدا بحدود الشريعة، وبما تقتضيه مواقف القوى الدينية، على عكس الملك الأوروبي الذي لم يكن يعبأ بالحدة نفسها بقرارات الكنيسة، ونجح في خلق توازن أكبر بين حكمه وبين السلطات التابعة له تراتبيا¹²⁸، وحاول جهد المستطاع تجريد البرلمان أيضا من اختصاصاته الحيوية.

¹²⁴ E. Preclin, *le XVII^e siècle...*, op. cit., p. 535.

¹²⁵ Jansénisme revêt une forme doctrinale, celle de Jansénius, et une forme appliquée, celle de Port-Royal, et en cela il fait partie de la Réforme catholique française. C'est une réaction à la vision optimiste de l'homme et de ses capacités.

¹²⁶ M. Miaille, « Dieu et le pouvoir... », ..., op. cit., pp. 296-8, 301.

¹²⁷ Ibid, p. 302.

¹²⁸ حول علاقات ملوك أوروبا بالكنيسة، انظر:

W. Blockmans, *Histoire du pouvoir...*, op. cit., pp. 248-249.

وعن سلطات الملك الأوروبي، انظر:

وتمثل ثانيها في توظيف المرجعية الدينية في المجال السياسي لإبراز التفوق والتعالي على المجتمع. ففي الوقت الذي راهن المخزن السلطاني على قاعدة النسب الشريف لتزكية مشروعيته، وضمان استمراريتها، اتخذت الملكية من نظرية الحق الإلهي سنداً روحياً لإسباغ ممارساتها بالمصداقية.

أما التقاطع الثالث، فعبرت عنه الأدوار التحكيمية التي قام بها السلطان لتأمين التوازن داخل المجتمع القبلي، وزاولها الملك الأوروبي لحل الخلافات بين المجموعات الفيودالية¹²⁹، وكرست في الحالتين طغيان الصبغة الأبوية.

في حين تجسد التقاطع الرابع في المضمون الذي حملته السلطة في ذهن كل منهما، والذي انطلق من الخيطة والحذر والسرية والكتمان، والاحتراس حتى من أفراد الحاشية وأقرب المقربين. وهو ما أبانت عنه نصائح السلطانيين لأبنائهما، وتوجيهات لويس الرابع عشر لولده.

غير أن هذه التقاطعات لا تعني في شيء أن أحمد المنصور حكم على شاكلة إليزابيث الأولى، وأن سياسة المولى إسماعيل كانت مماثلة لنظيره الفرنسي، بقدر ما تترجم وجود قواسم مشتركة على مستوى الممارسة السياسية بشكل عام، بغض النظر عن طبيعة الفوارق التاريخية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي أسهمت في بلورة كل نظام على حدة.

وفي ضوء تلك الصور والأسس السياسية التي انبنت عليها، والممارسات التي تجلت من خلالها في عهد السلطانيين، يمكن القول إن مضامين مفهوم المخزن تجدد مرجعياتها في الثقافة السلطانية بأبعادها المادية والرمزية، على مستوى البنية أو على صعيد الوظائف. فالمؤسسة المخزنية نمت وترعرعت في أحضانها، ومارست مهامها وأدوارها تحت وصايتها، وسجلت حضورها انطلاقاً من الثوابت التي حددتها، ونسجت الروابط مع القوى الاجتماعية في إطار الخطوط التي رسمتها. ومثلت من هذا المنظور جهازاً سياسياً مركزياً راقب محيطه مراقبة شديدة، وعمل على تنظيمه ومأسسته وفقاً لما ضمن استمراريته، وفي حدود وسائل وإمكانات الإخضاع التي أتيح له التحكم فيها، وصبت في مدها وجزرها في اتجاه خدمة

M. Reulos, « Le Tyran tient-il son pouvoir de Dieu », in *Tout pouvoir vient de Dieu*, p. 197.

¹²⁹ منذ القرن الخامس عشر، والفلاحون الإسبان يلجأون إلى تحكيم الملك، لحل مشاكلهم مع الأسياد الإقطاعيين، راجع:

W. Blockmans, *Histoire du pouvoir...*, op. cit., p. 207.

الذات السلطانية، وكل من يتصل بها من قريب أو بعيد برابطة من الروابط. وهو ما جعل دوام ذلك الجهاز، وآليات التوازن التي يقوم عليها، ويسهم في تأمينها، رهينا بقوة شخصية الحاكم، وعمدى قدرته على توسيع قاعدة الأتباع، والتصدي لطموحات الخصوم، حتى إن المضامين السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية للمخزن أضحت مرادفة للسلطان، ومتجذرة في ثناياه، وأصبح غيابه يمثل مجلبة للفتنة التي لا يستقيم أمر القضاء عليها، إلا مع حكم فردي يستطيع احتواء مظاهرها وبلوغ التفاف ولو مؤقت حول مسبباتها، كما تجسد ذلك بعد وفاة أحمد المنصور والمولى إسماعيل. فكيف يمكن تعليل ذلك؟ وما هي مواطن الهشاشة التي اعترت المؤسسة المخزنية، وجعلت مظاهر التقطع تعصف بمنجزاتها إلى الحد الذي بدت فيه للبعض وكأنها تعيش في وضعية ثبات إن لم نقل جمود؟

الفصل الثالث

مكامن الهشاشة

لقد انهارت الصروح التي حاول السلطانان تشييدها إبان حقبتى حكميهما الطويلتين، بمجرد وفاتهما، وهو ما يفرض علينا التساؤل في هذا السياق عن الأسباب الكامنة وراء غياب استفادة الخلف من تجربة السلف. بصيغة أخرى: ما العوامل التي أعاقَت تحقيق تراكمات على المستويات السياسية والاقتصادية والإدارية والعسكرية، الكفيلة بإتاحة استثمار نقط القوة أو على الأقل الحفاظ عليها، وبذمكامن الضعف عوض إعادة ترسيخها؟ أيرتبط الأمر بعوامل ظرفية أم بنيوية؟ وما مدى مسؤولية السياسة المخزنية في إرساء دعائمها؟ بمعنى ألم تكن رغبة السلطانين في تقوية سلطتيهما محسوبة بحسابات تراعي طبيعة البنية الاجتماعية، فتعارضت أهداف مبادرتيهما حتما مع ما كانت تطمح إليه، حتى أضحي البحث عن الاستقرار والمركزة السياسية يفضي بالضرورة إلى انتشار نقيضهما، إلى درجة أن أيادي التخريب اتجهت مباشرة بعد وفاتهما إلى الرموز الدالة على ذلك النظام؟ أم أن الأخير كان يفرض بوسائل قوامها الاضطهاد والاستبداد التي تتجاوز الإمكانيات المادية والإنتاجية للسكان؟

أثر الكوارث الطبيعية

تندرج الكوارث الطبيعية في إطار الثوابت التي لازمت المغرب عبر تاريخه، وألقت بظلالها الثقيلة على صيرورة الأحداث بمجاله؛ فالأوبئة والمجاعات اعتادت أن تجتاح البلاد بصفة شبه دورية، وتخلف انعكاسات سلبية على الإنسان والطبيعة، إذ دشّن أحمد المنصور حكمه بانتشار جفاف ووباء 1579-1580م واكبتهما آفة السعال، تلاهما وباء 1597-1598م الذي أفضى عددا كبيرا من الناس، والطاعون الذي انتشر منذ 1601م وعصف بعد عامين من ذلك بالسلطان ليستمّر بعد وفاته. ولم تمض إلا بضعة سنوات على تولي المولى إسماعيل حتى ظهر طاعون 1678م، الذي انطلق من تطوان ودام ثلاث سنوات أعقبه قحط شديد، ثم عاد الطاعون للظهور بعد ست سنوات بحدّة أقل، ليتوج حكمه بالمجاعة العظيمة التي بدأ

اندلاعها سنة 1721م ومات بسببها خلق كثير¹.

وعلى الرغم من كون مرحلتي حكم السلطانين، لم تشهد عموماً أوبئة متوالية، ومجاعات كثيرة، وأن السلطان العلوي كان أكثر حظاً من نظيره السعدي، على اعتبار أن طول مدة حكمه تخللتها كوارث أقل، فإن وقع جميعها كان وازناً. ففضلاً عن النزيف الديمغرافي الذي أحدثته والمتمثل في وفاة الآلاف من الضحايا²، الذين كانوا يشكلون قوة منتجة ومستهلكة، وفرار الناجين إلى الأماكن الآمنة، أصبحت السهول فارغة، وتوقف الإنتاج الزراعي، وتباطأت وتيرة المبادلات، وارتفعت أسعار المواد الغذائية. وزاد من تأزم الوضع لجوء المخزن إلى منع التنقل خوفاً من انتشار العدوى، مما أضر بالتجار والمسافرين، وحال دون حركية البضائع. فقد أمر المولى إسماعيل جيش العبيد بمنع الناس، حين اندلع وباء 1678م، من عبور نهر سبو في اتجاه مكناس، وبقتل كل من خالف ذلك، ولم تقتصر آثار الوباء على حركة التنقل الداخلية، بل همت المبادلات مع الخارج إذ انقطعت السفن عن ولوج المراسي المغربية³.

ولا يخفى ما لهذه المظاهر من انعكاسات على مختلف بنيات المخزن، الذي تراجع مداخيله الجمركية والضريبية نتيجة لفراغ الموانئ من جهة، ولعدم قدرة الجباة المؤطرين بفرق الجيش على القيام بجولاتهم الاعتيادية، وبفعل ارتفاع عدد الوفيات الذي يعني حرمان الخزينة من مبالغ هامة خاصة في المدن، على اعتبار أن البوادي كانت تؤدي بطريقة جماعية.

وتنسحب الملاحظة نفسها على الجانب الأمني، من خلال عودة عمليات النهب وقطع السبل، التي تستفيد من فترات الفراغ السلطوي الناجمة عن الوباء، فيتهدد شبح التخريب

¹ حول الأوبئة والمجاعات على عهد السلطانين، يمكن الرجوع إلى: محمد القادري، نشر الثاني...، م.س.ذ.، ج. 2، ص. 232، 250، 267، 292، 295، 333، وج. 3، ص. 253؛ عبد الكريم الريفي، زهر الأكم...، م.س.ذ.، ص. 165؛ أبو القاسم الزباني، البستان الظريف...، م.س.ذ.، ص. 163؛ عبد الله التسافتي، ن.م.، ص. 227؛ جرمان مويص، ن.م.، ص. 39؛ أحمد الناصري، الاستقصا...، م.س.ذ.، ج. 5، ص. 191، وج. 7، ص. 61، 97.

² خلف على سبيل المثال وباء 1597م ألف ميت في اليوم بفاس، وألفين بمراكش، حسب المجهول السعدي، وهو الأرقام نفسها التي أوردها القادري بخصوص طاعون 1678م، راجع: تاريخ الدولة السعدية، ص. 99؛ محمد القادري، نشر الثاني...، م.س.ذ.، ج. 2، ص. 251. انظر أيضاً:

³ H.M., 1^{re} série, Ang., t. II, p. 12.

وذكر G. Wilkins أن طاعون 1603م خلف عدداً هائلاً من الموتى، وأن الناجين كانوا يلتجئون جماعة إلى الجبل ولا تجدد المحاصيل من يقوم بجمعها:

H.M., 1^{re} série, Ang., t. II, p. 249.

³ أبو القاسم الزباني، ن.م.، ص. 163؛ محمد القادري، ن.م.، ج. 2، ص. 250؛ مارياتيرملن، الأسيرة الهولندية...، م.س.ذ.، ص. 76.

H.M., 1^{re} série, Ang., t. II, pp. 126, 139.

كل مؤسسة رسمية ترمز إلى قوة المخزن، وتم تحملها على مضض من قبل السكان⁴. وأسهم في استفحال الوضع إقدام السلطانين، كلما حل الوباء، على تحصين نفسيهما منه؛ فلما أحس أحمد المنصور باشتداد طاعون 1597م خرج في محلته بضواحي مراكش، وبقي هنالك وسط حاشيته إلى أن خفت حدته. وغادر المولى إسماعيل مكناس حينما بلغه خبر وباء 1678م ليعسكر بالجلال المجاورة لنهر ملوية هروبا من العدوى⁵. ولعل إجراءات من هذا القبيل كانت تصل أصداؤها إلى السكان، وتسفر دون شك عن شعورهم بتحرر ولو مؤقت من شبح الحركات، أو على الأقل تأجيلها إلى حين، فيستغلون مدة الوباء للتخلص من الأعباء المفروضة عليهم. كما أفضى الطاعون إلى هلاك عدد كبير من أعيان المدن، الذين شكل بعضهم أعمدة لأجهزة المخزن. فالقادي أشار إلى أن طاعون 1597م حصده من « الشرفاء والفقهاء وأعيان فاس ما ينيف على الستة آلاف »⁶، وأورد الضعيف أسماء مجموعة من العلماء الذين اختطفهم وباء 1678م⁷.

وتمخض عن التقلبات المناخية وعدم انتظام التساقطات، انتشار القحوط بين الفينة والأخرى مخلقة مجاعات قاتلة وغلاء شديدا. ففي سنة 1722م « وقع الجوع بالناس... وغلا الزرع والفاكهة والدواب، ومات الناس بالجوع والمرض »⁸، وخلال عام 1579م حدث « غلاء عظيم بالمغرب حتى عرف ذلك العام بعام البقول... »⁹.

وبالرغم من توفر القبائل على مخازن احتياطية¹⁰، فإن إمكاناتها لم تكن تكفي على ما يبدو، لسد حاجيات المعوزين، إما لطول فترات الجفاف، أو لتعرضها للمصادرة خلال حركات

⁴ R. Rosenberger & H. Triki, « Famines et épidémies au Maroc au XVI^e et XVII^e siècles », vol. XIV, in *Héspéris* fascicule unique, 1973, pp. 161-3 & vol. XV fascicule, unique, 1974, pp. 76-91. وحول تهديد المعاصر العسكرية بالتهريب، انظر:

S.I.H.M., 1^{re} série, Ang., t. II, pp. 126, 155.

⁵ جرمان مويط، رحلة... م.س.ذ.، ص. 42.

S.I.H.M., 1^{re} série, Fra., t. II, p. 131.

ورسالة من Aires de Saldanha إلى دوق دي مدينا سيدونيا بتاريخ 29-4-1597:

Archivo General de Simancas. S.E, leg. 179.

⁶ محمد القادي، ن.م، ج. 1، ص. 69.

⁷ محمد الضعيف، ن.م، ص. 62.

⁸ عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 227.

⁹ أحمد الناصري، ن.م، ج. 5، ص. 191؛ محمد القادي، ن.م، ج. 3، ص. 253.

¹⁰ من أهم أشكال التخزين: المظمورة، المرس، القصر، تغرمت، أكادير، راجع:

استخلاص الضرائب، أو لنهب جزء منها من قبل الجائعين. وهو ما يفسر وجود أعداد منها تحت وصاية الزوايا، باعتبارها مناطق حرم. غير أن بعض الاحتياطات استغلت بطرق محكمة من قبل مجموعة من المضاربين، الذين لم يترددوا في الاغتناء على حساب ضوابط الناس، وتحينوا أوقات المسغبة لتحقيق أرباح طائلة¹¹.

وللحفاظ على التوازن، ولتقليص الآثار السيئة للمجاعات والتخفيف من حدتها، لجأ المخزن الذي كان يتوفر على مذكرات كبيرة من الحبوب، إلى الضرب على أيدي المحتكرين، إما من خلال مصادرة ممتلكاتهم، أو توزيع كميات محدودة من أهرائه وإخراجها إلى الأسواق حتى تراجع الأسعار. فلما دخل أحمد المنصور إلى فاس للقضاء على تمرد ولده محمد الشيخ المامون، ووجدها « خرابا خالية الأهرية من الزرع فأول شيء فعله أمر بالصدقات... وصار يسدد أحوال الرعية، ويذخر الزرع في الأهرية »¹². وكان المولى إسماعيل كلما حلت مجاعة عظيمة، يوزع بمكناس الأقوات على المحتاجين، فمثلا خلال مجاعة 1721م فرق القمح على كبار الناس وصغارهم¹³.

وإذا كانت هذه التدابير قد اقتصرت على بعض المدن الكبرى، التي حرص فيها المخزن على إظهار قدرته أمام أعيانها، في التصدي إلى المستجندات الطارئة وحماية السكان، فإن البوادي اعتمدت على إمكاناتها الذاتية، ووسائلها الخاصة لمواجهة أزماتها، التي كانت تستفحل كلما طال أمد القحط، كما هو الحال بالنسبة لمنطقة وادي نفيس التي اشتد بها « الهرج بالناس والموت من كثرة المجاعة والمسغبة وغلاء الزرع... »¹⁴.

ولم يتسبب الجفاف في موت الناس ودمار الفلاحة فحسب، بل أثر بشكل كبير على المداخيل الجبائية للمخزن، التي تشكلت في معظمها من منتوجات زراعية وحيوانية، وعلى علاقاته مع السكان أيضا، التي كانت تتأزم حين يقدم المخزن، على مطالبهم بأداء

R. Rosenberger, *Société...*, op. cit., pp. 55-6.

¹¹ يقدم محمد القادري أمثلة كثيرة عن اغتناء بعض الأشخاص في أوقات المسغبة، راجع: ن.م، ج. 4، ص. 231، 252.

¹² المجهول السعدي، ن.م، ص. 74.

¹³ عبد الرحمن ابن زيدان، *المنزع اللطيف...*، م.س.ذ.، ص. 87. انظر أيضا؛

Ch. de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail...*, op. cit., pp. 48-9.

¹⁴ عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 239، 242.

المستحقات الضريبية المتأخرة، بما فيها ضرائب سنوات القحط. وهو ما يدفعهم إلى زراعة مساحات صغيرة من الأراضي حتى لا يدفعوا ضرائب ثقيلة¹⁵. بل يجدون في هذه الممارسات إجحافاً وعدم مراعاة من جانبه لمخلفات الكارثة عليهم، ويتحينون الفرص للتخلص من هذه الأعباء، ولا يرون في مبادرات المخزن إلا مظاهر الابتزاز، مما يؤكد كما أوضحنا، فشل المخزن في وضع نظام جبائي يتكيف مع المستجدات ضماناً للأمن والاستقرار.

ولم تنج أنشطة زراعة قصب السكر بدورها من انعكاسات مشكل قلة المياه، التي كانت تؤدي إلى تذبذب الإنتاج، وعجز مكثري المعاصر عن سداد واجبات الكراء¹⁶. كما أن ظاهرة الغلاء لم ترتبط بالعوامل السابقة الذكر فقط، بل دليل أن البلاد شهدتها أحيانا خلال الأعوام ذات المحصول الجيد، ونتجت عن اجتياح موجات الجراد التي كانت تمر حسب رواية مصدر إنجليزي كل سبع سنوات¹⁷.

ويستنبط مما سبق، أن الكوارث الطبيعية مثلت عائقاً بنوياً حال دون تحقيق فائض يسهم في تنمية اقتصاد البلاد، عبر تطوير المردودية الفلاحية، وتنشيط المبادلات التجارية. لكن الغريب أن إدراك المغاربة لخطورتها - خاصة المجاعات والقحوط - واستعدادهم لمواجهتها لم يتجاوز، إن على مستوى السكان أو المخزن، إقامة مذكرات غذائية، ولم يتم التفكير البتة في آليات بديلة للتخفيف من وطأتها، من قبيل تطوير الزراعات المسقية المعتمدة على الموارد المائية الجبلية وعلى حفر الآبار، أو المراهنة على استغلال خيرات البحر. والأكثر من ذلك أن الصور نفسها التي حملتها الأسطوغرافية عن تعامل أحمد المنصور معها تكررت على عهد خلفه، وكأن الأمر يتعلق بقدر إلهي محتوم وجب انتظاره والتسليم بعواقبه، دونما حاجة إلى الاستفادة من تجارب الآخرين، واستخلاص العبر. والمؤكد أن للأمر علاقة بهيمنة التصورات الفقهية، وغلبة آراء المروجين لها. وإلا كيف نفسر كون التمارتي لما تطرق لطاعون 1597م، اعتبر بأن من صبر من أهل فاس وتلقى « الأمر بالتسليم فارتفع عنهم من

¹⁵ لما زار أحمد المنصور فاس، « أذن للقبائل عند وجود الصيف أن يدفعوا الأعشار كلها... ». المجهول السعدي، ن.م، ص. 74؛ جون وندوس، ن.م، ص. 124. أما المولى إسماعيل فخاطب ولده المامون حول تحصيل الضرائب وإرسال الوصفان إلى القبائل: « يخيمون عليهم حتى يؤدوا حق بيت المال الذي عليهم هذه السنون... فإنها جاءت بالزرع هذه السنة وصاياتها بالسنين، فلانجد أحسن من هذه السنة »، مجموع مخطوط، خ. ح، 12598، ص. 198.

¹⁶ P. Berthier, *Les anciennes sucreries...*, op. cit., t. I, p. 276.

¹⁷ محمد القادري، ن.م، ج. 2، ص. 232، راجع أيضاً:

S.I.H.M, 1^{re} série, Ang., t. II, p. 405.

سنته ولم يعد إليهم، وأما أهل مراکش وتارودانت فتفرقوا له في البادية والجبال، فكان أكثر وقوعه بهم وانقرض جل أعيانهم حتى استولى الخراب على الحاضرتين، ثم لم يزل يعود إليهم سنة بعد سنة وهم يفرون منه مدة من اثني عشر عاما¹⁸. كما أن سياسة المخزن القاضية بمنع تصدير الأقوات إلى الكفار، كان لها نصيب من المسؤولية باعتبارها سلاحا ذا حدين، إذ في الوقت الذي تمكن فيه من التخزين تهيؤا للسنوات العجاف، فإنها كانت تسد الآفاق أمام الفلاحين الذين لا يرون حاجة خلال المواسم العادية إلى زراعة مساحات شاسعة، كان بالإمكان لو تم السماح بتصدير محاصيلها أن تعود بالنفع العميم عليهم وتسهم في تحسين مداخيلهم، ووسائلهم الإنتاجية. يضاف إلى ذلك أن غلبة البنية الجماعية للأراضي حالت بالتأكيد دون ترسيخ مفهوم الإنتاج المكثف، وجعلت منطق الكفاف هو السائد.

إن ظاهرة الكوارث الطبيعية لم تكن محصورة على المغرب، وإنما عانت منها مناطق مختلفة من أرجاء المعمور. فالأقاليم الأوروبية المرتكزة أساسا على النشاط الزراعي تخبطت لمدد في مشاكل الجوع، بفعل تعاقب فترات رطبة، وأخرى جافة خاصة بالبلدان المتوسطية¹⁹. وهكذا شهدت منطقة بروطاني شمال غرب فرنسا ما بين 1670م و1720م أزمات كبرى أفرزتها المجاعات الناجمة عن عوامل مناخية، وعن معضلة التموين التي استفحلت بفعل المضاربات. كما توقف تصدير الحبوب بجنوب غرب فرنسا إبان مواسم القحط²⁰. ولم تؤثر هذه الأحداث الطارئة، بالحدة نفسها على سلطة لويس الرابع عشر، ولم تولد انعدام الأمن، علما بأن جزءا مهما من الحقبة الثانية من حكمه اتسم بقسوة الظروف المناخية²¹.

وإذا كان من البديهي صعوبة المقاربة بين المغرب وفرنسا، إن على صعيد المناخ أو الإمكانيات الاقتصادية، فالظاهر أن اعتماد فرنسا على قطاعي الصناعة والتجارة، وتمكين الفلاحين من

¹⁸ عبد الرحمان التمنارتي، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، تحقيق اليزيد الراضي، الدار البيضاء، منشورات مطبوعات الستيسي، الطبعة الأولى، 1999، ص ص. 110-111.

¹⁹ E. Le Roy La Durie, « Histoire et Climat », in *Le territoire de l'Historien*, Paris, Gallimard, 1973, p. 424, 439.

²⁰ J. Meyer, « L'agriculture Bretonne au XVIII^e siècle », in Cullen et F. Furet L. M. (dir), *Irlande et France XVII^e-XX^e siècles – pour une histoire rurale comparée : actes du premier colloque franco-irlandais d'histoire économique et sociale*, Dublin [1977], Paris, Ed. de l'Ecole des hautes études sociales, 1980, p. 23-24 ; J. Pierre Pousson, « Agriculture et commerce au 18^e siècle, exemple du sud-Ouest de la France », in *Irlande et France XVII^e-XX^e siècles....*, p.105.

²¹ E. Le Roy La Durie, *Le territoire de l'histoire...*, op. cit., p. 448.

تصدير إنتاجهم، وتحسين مداخيلهم، هو الذي أفضى إلى تخفيف وطأة الأزمات عليها، في حين ظلت حدتها بالمغرب تلقي بظلالها القائمة على الحياة الفلاحية والتجارية، التي كان عليها الانتظار طويلا لاستعادة وتيرتها ببطء.

وهكذا شكل تردد صور الكوارث الطبيعية في الكتابات الإخبارية مشهدا مألوفاً لدى المخزن والرعية على السواء، يتوجسون من حدة عواقبه، ويتحملون تبعاته، ويتعايشون مع مخلفاته. فكلما حل الطاعون تحصنوا بالجبال، وعسكر السلطان في محلته، وكلما ضرب الجفاف قصدوا المساجد طلباً في الاستسقاء، وهو الأمر الذي حول تلك الصور في أذهانهم من طابعها الظرفي إلى ثابت بنيوي لم يقتصر على الطبيعة، بل طال حتى نظام تعاقب الحكم.

معضلة انتقال السلطة

شكل تعدد الأمراء خطراً دائماً على مؤسسة المخزن، كما بينا في حديثنا عن قضية المشروعات السياسية، إذ في الوقت الذي كان فيه السلاطين يراهنون عليهم باعتبارهم ركائز لدعم سلطتهم وتقويتها في الأقاليم، أدى ذلك إلى إشعار هؤلاء بقوتهم، وإلى تزايد نفوذهم. فليبرسي « بهم قواعد ملكه ويشد بهم أزر الإسلام وعضد الملة »²²، أقدم أحمد المنصور على تقسيم الولايات على أبنائه²³، فمنح سوس لأبي فارس، وتادلة للمولى أبي الحسن، ومكناس لزيدان. وبعدما استخلف المولى إسماعيل بعض أولاده على عدة أقاليم، ونقل أغلبهم رفقة أمهاتهم إلى تافيلالت، ومنحهم النخيل والأراضي الزراعية، قام سنة 1700م بتوزيع ممالكه على من بقي منهم، وأنانب آخرين حسب الحاجة²⁴.

وإذا كان الهدف من هذه السياسة حسب رواية الفشتالي، هو خلق « سوق المنافسة في المعالي، والاستباق إلى إحراز الخصل في اقتناء المكارم، والتبريز في ميدان النجدة وثقافة النظر وحسن الضبط »²⁵، وتبعاً لما أورده ابن الحاج وهو رغبة السلطان المولى إسماعيل في

²² عبد العزيز الفشتالي، *مناهل الصفا*، ... م.س.ذ.، ص. 38.

²³ ن.م، ص. 92-93.

S.I.H.M., 1^{re} série, Ang., t. II, p. 249.

²⁴ أبو القاسم الزياني، *الستان الظريف*، ... م.س.ذ.، ص. 180؛ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 406-411؛ أحمد الناصري، ن.م، ج. 7، ص. 78، 89-90.

²⁵ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 93.

معرفة من يحسن السيرة منهم ويكون أهلا لخلافته²⁶، فإن ذلك قد أفضى إلى نتائج عكسية تمثلت بالأساس في سعي كل أمير، وإن لم يعلن عن طموحاته، إلى استغلال الإمكانيات المادية والعسكرية المتاحة لإثبات ذاته، والاستعداد إلى ما ستؤول إليه الأمور فيما بعد، حتى في حالة تسمية ولي للعهد، كما كان الوضع خلال عهد أحمد المنصور. وارتبطت ضخامة تلك الإمكانيات بمدى قوة شخصية الأمير، وبدرجة غنى الولاية التي كلف بحكمها، وهو ما كان يعكس وجود نوع من التراتبية في عمليات التعيين، التي تزيد من حدة المنافسة بين الأبناء، وتشعرهم بدرجة مكانتهم لدى السلطان، بل وتخلق إحساسا بالإحباط في نفوس المتضررين منهم.

لقد اشتهر المولى أبو الحسن بسداد رأيه وبكفاءته وهيبته المنقطعة النظير في حكم تادلة، وبيقظته في ضمان أمن الطرق، وكان يتوفر على جيش مدرب من العلوج، ويعيش في أبهة كبيرة جسدها الثروات الطائلة التي خلفها بعد وفاته، حتى إن شالدايا نسب إلى أحمد المنصور محاولة إرساله لحكم السودان، وهو أمر فهمه الأمير على أنه رغبة في التخلص منه، وقابله بتحفظ كبير حين زار أباه بمراكش²⁷.

وعرف زيدان بتكوينه العلمي والفقهني، وبطبعه الطموح، وشجاعته القتالية، ومؤهلاته الكبيرة للحكم، إذ سار على نهج أخيه المولى أبي الحسن في توفير الأمن بتادلة، وحظي بثقة كبيرة من لدن أحمد المنصور الذي كان يستشيريه عند الحاجة، ويثني على إخلاصه ومحبته²⁸. وهي الوضعية نفسها التي تمتع بها أبو فارس الذي عرف أيضا بحسن أخلاقه،

²⁶ أحمد ابن الحاج، ن.م، ج. 6، ص. 406.

²⁷ رسالة من بالتسار بولو إلى فيليب الثاني من مراكش بتاريخ 26-3-1594:

A.G.Simancas : Leg. 174

ثم راجع:

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 146-148, 192-194.

وأورد عبد الله كَنُون ظهيرا يعين بمقتضاه أحمد المنصور ولده المولى أبي الحسن على ولاية سوس، والأكيد أنه صدر قبل تعيينه بتادلة التي اغتيل بها، راجع: رسائل سعدية، ص. 218.

²⁸ المجهول السعدي، ن.م، ص. 83؛ الإفرائي، نزهة الحادي... م.س.ذ.، ص. 242؛ أحمد الناصري، ن.م، ج. 6، ص. 71.

S. I. H. M. 1^{re} série, Ang., t. II, p. 30.

يشير خورخي دي هنين إلى أن المولى زيدان كان « مدمنًا على تناول الأفيون الذي كان يؤثر عليه بشكل كبير، حيث يجعله في حالة هيجان تام، لدرجة أن أحدا لا يجروا التحدث إليه حين يكون تحت تأثير المخدر »، وهي الرواية التي لا نجد لها صدى في المصادر المغربية. أنظر: وصف الممالك المغربية، ص. 62-63.

رسالة أحمد المنصور إلى زيدان، م.ر.س. خ. ع. ك. 278، ص. 70-71.

A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp. 242-4.

وولعه بالأدب. ولم يتردد والده في إطلاعه على أسرار دوايب المخزن بالنظر إلى وجوده بجانبه في مراكش، وكان يلجأ إليه في الشدائد، ويعتمد عليه خلال النكبات من قبيل ثورة محمد الشيخ المامون، واجتياح الوباء لمراكش، ولهذا خاطبه قائلاً: «أنت الركن الذي إليه في الملهمات ألتجئ، والعماد الذي به أمل الخير من دهري وأرتجي»²⁹.

وتمتع بعض أبناء المولى إسماعيل بحظوة كبيرة، خولتهم بالرغم من تباين مؤهلاتهم، احتلال مكانة مرموقة في المؤسسة المخزنية. فانفرد زيدان بفروسيته ومهارته القتالية، واستفاد من المهمات العسكرية التي كلفه بها أبوه بالشرق وبتارودانت في بناء قوة عسكرية. كما فوضه مراسلة الدول الأجنبية، إذ كتب رسالة إلى دوق جنوة المقيم بالمغرب لبيعها إلى رؤسائه³⁰، ووصفته الكتابات الأوروبية بإدمانه على الخمر وبقسوته الزائدة. وعرف المولى الشريف بتضلعه في الفقه والعلم، وبعده في ولايته. وتميز المامون بتراخيه، وبضعف تدبيره، فطالما عاتبه ووبخه السلطان متهما إياه بالتقصير في تسيير شؤون تافيلالت، وبعدم القدرة على تحمل المسؤولية، ووصف المولى أحمد الذهبي بقوة شخصيته وبمعاقرته للنبيذ³¹.

ونستنتج من الأمثلة السابقة، أن حظوظ الأمراء للمشاركة في إدارة البلاد لم تكن متساوية، بقدر ما تباينت حسب مرتبة الأمير ومؤهلاته، ومدى حظوة أمه لدى السلطان. فالنساء اللاتي استطعن فرض أنفسهن داخل البلاط -بغض النظر عن كونهن إماء أو حرات- حظي أبنائهن بنصيبهم في التسيير، كالخيزران أم مولاي محمد الشيخ المامون، وعائشة الشبانية والدة مولاي زيدان، ولالة مريم أم أبي فارس، وعائشة مباركة أم المولى زيدان العلوي والمولى أحمد، والمولى الحفيظ، ومعزوزة أم عبد الملك³².

²⁹ رسالة من أحمد المنصور إلى أبي فارس، عبد الله كنون، ن.م، ص. 243؛ محمد الإفرائي، ن.م، ص. 182-184؛ أحمد المقرئ، روضة الآس...، م.س.ذ.، ص. 59.

³⁰ M. Zaki, « Le Maroc et Gènes..., op. cit., pp. 87, 90.

³¹ جون وندوس، رحلة...، م.س.ذ.، ص. 86، 117-118؛ عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس...، م.س.ذ.، ج. 3، ص. 77؛ محمد أكنسوس، الجيش العرمرم...، م.س.ذ.، ص. 157.

D. Busnot, *Histoire du règne...*, op. cit., pp. 106, 114.

وحول المولى الشريف، راجع: عبد الله التسافتي، ن.م، ص. 89-90. وعن المولى المامون انظر: المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون...، م.س.ذ.

³² حول زوجات المولى إسماعيل، راجع: عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م.س.ذ.، ص. 392-393؛ محمد الضعيف، ن.م، ص. 100-102. وعن زوجات أحمد المنصور، انظر:

S.I.H.M., 1^e série, Ang., t. II, p. 266.

وأُسفر هذا التباين عن إقصاء فئة من الأمراء، وتقوي أخرى على حسابها، وعن نشوب صراعات حادة داخل المتقوية منهما من أجل الظفر بعطف السلطان. فزيدان السعدي لم يكن ينظر بعين الرضا لتزايد قوة أخيه محمد الشيخ المامون، المقتقد في نظره لمؤهلات التسيير، والخاضع لوصاية الباشا مصطفى، الذي لا هم له إلا تدعيم القدرات العسكرية لمخدومه. ولهذا لم يتأخر حسب رواية شالدايا، في استغلال حادث التمرد لتحذير مبعوثي أبيه من خطورة تعاضم نفوذه، ولم يتردد في الاستجابة لطلب أحمد المنصور بإلقاء القبض عليه وهو لاجئ بزواوية أبي الشتاء. بل حين تم اقتياده إلى السجن، بمكناس، رفض التحدث إليه، أو حتى رؤيته. والظاهر أن جذور الصراع تعود إلى مرحلة ترشيح محمد الشيخ المامون لولاية العهد، فقد أشار زيدان إلى أن عدم تأديته للقسم إسوة بباقي إخوته، نظرا لثقة أبيه فيه، أثار حقدهم « وظهرت في وجوههم لأجله الكراهية »³³. وكما أوضحنا سابقا، أسفر نجاح ولي العهد في إخماد ثورة الناصر، بالتأكيد عن تعزيز إمكاناته العسكرية وزاد من حظوته لدى السلطان، وجعل زيدان يتحمل على مضض هذه الإنجازات، خاصة وأنه ظل مقتنعا بأنه الأولى باعتباره سليل امرأة حرة وعملا بمبدأ « أن أولاد الإماء لا يتقدمون في الأمر على أولاد الحرائر »³⁴.

وإذا كان المولى إسماعيل قد حاول الاستفادة على ما يبدو، من تجربة سلفه أحمد المنصور، وتفادي ما وقع من فتنة بين خلفائه، فأرسل كل من بلغ من أبنائه إلى تافيلالت حماية لهم من نط العيش الحضري، ووقاية لهم من اكتساب « عزة الجاه، ونخوة الملك »³⁵، ومنح لكل واحد منهم امتيازات تبعا لمرتبه، ولمنزلة أمه لديه³⁶، فإن العلاقات بين من تمت توليته منهم لم تخل من مشاحنات، ارتبطت في مدها وجزرها بتفاوت حجوم الامتيازات المخولة لهم، أو بالتمردات التي قادها بعضهم، وما واكبها من تكليف السلطان لإخوتهم الآخرين بردها.

أورد المولى محمد العالم في رسالة إلى أبيه، أن الله قد أصلح ما بينه وبين أخيه المولى المامون الذي يكبره سنا، واتفقا معا على التعاون في ما بينهما، ونبذ أسباب الخلاف لما فيه مصلحة للبلاد، وإرضاء لوالدهم، الذي لم يخف فرحته العارمة بذلك الصلح، فكتب خطابا إلى

³³ رسالة زيدان إلى الحاحي، أحمد الناصري، ن.م، ج. 6، ص. 48.

³⁴ أحمد الناصري، ن.م، ج. 6، ص. 6.

³⁵ أبو القاسم الزياتي، البستان الطريف... م.س.ذ.، ص. 187.

³⁶ أحمد ابن الحجاج، ن.م، ج. 6، ص. 404-406. رسالة من المولى إسماعيل إلى المامون ينصحه فيها بالاعتدال بإخوته وبأرضهم وبنخيلهم، بتاريخ 2 رجب 1102هـ: مجموع مخطوط خ. ح. رقم 12598، ص. 184.

المأمون على ظهر رسالة أخيه، ليؤكد له ذلك ويدعوه إلى التآلف والمودة وإلى رعاية بعضهما البعض³⁷.

وينم إقدام السلطان على تذييل خطاب محمد العالم إليه وإرساله إلى المأمون، عن حدة الخلاف بينهما، وعن رغبته في البرهنة على صفاء الخواطر، وعلى ضرورة تجاوز ما حدث، وعن إدراكه العميق لانعكاسات الصراع بينهما على تسيير شؤون البلاد. ولهذا لم يتوان في التعبير عن سروره بذلك، ولم يتقاعس عن إعلان تخوفه مما حدث من مجادلة ونزاع بين أبي النصر وأخيه مولاي المهدي من جهة، والمولى المأمون من جهة أخرى. كما بلغ البغض والحسد بين محمد العالم وأحمد الذهبي مبلغا كبيرا³⁸.

ولا يعني هذا في شيء، غلبة منطق الصراع على الروابط التي جمعت كل أبناء السلطانين، بل سادت بين بعضهما علاقات طيبة قوامها المودة والتآخي، كما هو الحال بالنسبة لأبي فارس السعدي الذي احتفظ بصلات حسنة مع أخويه، وللمولى محمد الذي أثنى على تعاهد المولى زيدان بالكتابة والرأفة إليه، وهو ما لم يشاهده في إخوته الآخرين³⁹. فهل كانت سياسات السلطانين هي المسؤولة عن تشنج العلاقات بين الإخوة، وانقلابها من الود إلى العداوة، بدليل أن نهاية محمد العالم كانت على يد أخيه الذي يكن له كل تقدير، وأن المولى محمد الشيخ المأمون حارب أخاه أبا فارس الذي أخرجه من السجن بعد وفاة أبيهما؟

الظاهر أن لجوء السلطانين إلى تكليف بعض أبنائهما بمحاربة البعض الآخر خلال التمردات، أسهم بنصيب وافر، كما بينا سلفا، في تكريس الأحقاد بينهم. فإقدام أبي فارس على الاستنجاد بأخيه محمد الشيخ المأمون لمحاربة زيدان، لا يمكن فهمه بمعزل عما قام به الأخير خلال تمرد شقيقه ولي العهد. ولا يمكن تناول العداوة التي استشرت بين مولاي عبد المالك والمولى الشريف، الأخ الشقيق لمحمد العالم، إلا في سياق مخلفات ثورة الأخير⁴⁰.

³⁷ رسالة من المولى محمد إلى المولى إسماعيل بتاريخ 23 محرم 1108هـ، ثم ما كتب به المولى إسماعيل على ظهر براءة مولاي محمد، إلى ولده المأمون بتاريخ 10 صفر 1008هـ: مجموع مخطوط، ن.م، ص. 169، 171.

³⁸ رسالة من المولى إسماعيل إلى ولده المأمون بتاريخ 1 ذي الحجة 1104هـ، ن.م، ص. 178.

ورسالة من المولى إسماعيل إلى ولده المأمون بتاريخ 4 صفر 1101هـ، ن.م، ص. 199. انظر أيضا:

Ch. de la Veronne, *Chronique...*, op. cit., p. 19.

³⁹ رسالة من المولى محمد إلى والده المولى إسماعيل بتاريخ 23 نحر 1108هـ، ن.م، ص. 169؛

أحمد الناصري، ن.م، ج. 6، ص. 5.

⁴⁰ عبد الكريم الريفي، زهر الأكم... م.س.ذ.، ص. 180؛ أحمد الناصري، الاستقصا... م.س.ذ.، ج. 6، ص. 5.

فضلا عن أن إقدام السلطانين، إما على إسناد ولايات لفترة طويلة لأبنائهما، كما هو الشأن بالنسبة لأحمد المنصور، أو على الإكثار من التعيين والعزل كما كان الأمر بالنسبة للمولى إسماعيل، أفضى في الحالة الأولى إلى استئناس السكان بهم وتعودهم على ممارساتهم⁴¹، مما جعل من الصعب تخليهم عن السلطة، وأدى إلى اندلاع الحروب بين إخوة يطمح كل منهم لتوحيد البلاد تحت حكمه، وأسفر في الحالة الثانية عن تسرب الشكوك إلى نفوس الأمراء المعنيين، وترقبهم الدائم لمن سيظفر بعناية السلطان ويؤول لخلافته، وهو ما حدا ببعضهم إلى محاولة إقصاء البعض الآخر.

وتجد قلة الصراعات بين الأمراء في حياة أحمد المنصور، تبريرها في ما قام به هذا السلطان من محاولة لإقرار قانون ولاية العهد بناء على معيار البكورية، ووفقا لطقوس أراد التأسيس لها تركز على قسم الأمراء في حياته، ومحضر كبار الأعيان. وهذا الالتزام قطع الطريق بالتأكيد على أية مبادرة تسير في اتجاه معاكس لما أجمع عليه أهل الحل والعقد، وضيق هامش المناورة حتى على السلطان، الذي وجد نفسه في وضعية حرجة أمام ابن رشحه لخلافته، وسرعان ما أبانت ممارساته عن عدم أهليته لهذا المنصب، فاضطر إلى ملابته ومسايسته بهدف تقويمه، وأملا في أن لا يفسد مشروعه لوضع قانون ثابت لتعاقب السلطة. لكن الأحداث جرت بما أفشل أول خطوة اتخذت في هذا الباب في تاريخ المغرب، وهو ما يعلل لنا خيبة الأمل الكبيرة التي عبر عنها السلطان في رسالته إلى ابنه أبي فارس⁴².

وإذا كان الإخباريون قد حملوا المسؤولية لمحمد الشيخ المامون في إقبار مبادرة والده حول ولاية العهد، فالظاهر أنهم تغافلوا عن تحديد دور السياسة السلطانية في ذلك. فالسلطات الواسعة التي منحها لابنه شكلت سلاحا ذا حدين؛ ففي الوقت الذي ساعدته على اكتساب

وما تلاها.

⁴¹ يقول الناصري في حديثه عن الصراع حول الحكم الذي دار بين أبناء المنصور « ولأن جل الخاصة من حاشية أبيه كان يميل إلى أبي فارس، لأن زيدان كان منتبذا عنهم بتادلا سائر أيام أبيه، فلم يكن لهم به كثير إمام، ولا مزيد استئناس، مع أنه كان جديرا بالأمر لعلمه وأدبه وكمال مروءته رحمه الله ». الاستقصا... م.س.ذ.، ج. 6، ص. 5

⁴² « فكانت مشيئة الله في ذلك من إحدى العجائب والعرى وعرفناكم... لتشعروا صنع الله في هذه الداهية التي فجأت بها الأيام ودهمت، والمفاجأة التي اعتكرت وأدهمت »، محمد الإفرائي، نزهة الحادي... م.س.ذ.، ص. 183. وورد في وثيقة إسبانية غير مؤرخة أن أحمد المنصور قبل وفاته أوصى بالحكم لابنه أبي فارس، والرواية نفسها ردها شالدينا، وهذا يتناقض مع المصادر المغربية التي أجمعت على غير ذلك؛ وثيقة إسبانية عبارة عن تقرير:

▲ G.Simancas, Leg.174.

▲ de Saldanha, Chronique..., op. cit., p. 366. Voir également :

الخبرة والتدرب على شؤون الحكم، أشعرتة بقوة نافذة تجاه كل من يقف أمامه، مستمدة من إمكاناته الميدانية، ومما يوفره له عقد بيعته ولياً للعهد من مرجعية⁴³، وهو ما أفضى بالضرورة إلى اصطدامه مع أبيه الذي أحس ببدء انفلات الأمور من يده. كما أن إقدام المنصور على توزيع البلاد على شكل إقطاعات بين بقية أبنائه⁴⁴، مثل إجراء مناقضا لرغبته في حل معضلة ولاية العهد، نظرا لكونه منح الفرصة لهؤلاء لترسيخ قاعدة سياسية موالية لهم، وللظهور بمظهر المنافسين لأخيهم المعين للخلافة، ولمحاولة إبراز، أو على الأقل، التذكير بأحقيتهم وبأهليتهم، ويقدرتهم على ركوب تيار المطالبة بالعرش بعد وفاة السلطان.

وعلى الرغم من تضارب الآراء حول موقف المولى إسماعيل ممن سيخلفه، فليس ثمة ما يؤكد تعيينه لأحد أبنائه وليا للعهد. إذ بعدما وزع الأقاليم عليهم عاد ليعزلهم عنها، ولم يحتفظ إلا بأحمد الذهبي على تاذلة، وعبد المالك على مراکش⁴⁵. ولا ندري السبب في ذلك، فباستثناء الزياني الذي أقر بولاية العهد للذهبي، وابن الحاج الذي أورد أن السلطان حين شفي من علته، جمع أولاده من حوله وقدم لهم نصائح، دعاهم فيها إلى تفادي التنازع والخلاف، واتباع سبل العدل، وأخبرهم بأنه جعل الأمر من بعده لأخيهم أحمد الذهبي، وهو ما أكدته الكتاب الأجانب⁴⁶، فإن أكنسوس نفى ذلك، معتبرا أن السلطان لما اشتد عليه المرض، استشار وزيره اليحمدي فصارحه بأن لا أحد ممن بقي من أولاده يصلح لخلافته، وترك الأمر كذلك. وأشار ابن زيدان إلى وجود عقد موالة أقامه السلطان قبل سنتين من وفاته، بين المولى زيدان والمولى أحمد الذهبي بحضور الأعيان⁴⁷، مما يترجم اقتناع المولى

⁴³ ورد في ظهير أحمد المنصور لتولية ولي عهده على فاس: «فوض له في حضرة فاس... وأعمالها في جميع الأمور... النظر المطلق... وصرف إلى قبلته أوجه الأموال... فله هنالك الحل والعقد، والقبول والرد والخفض والرفض والإعطاء والمنع»، راجع: م. ر. س. خ. ع. ك. 278، ص 75-76. ويمكن مقارنته مع ظهير تعيين المولى إسماعيل للمولى عبد الله على سجلماسة، عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م. س. ذ.، ص. 337.

⁴⁴ H. de Castries, *S.I.H.M.*, 1^e série, Pays Bas, t. I, Paris, Ernest Leroux, 1906, p. 82.

⁴⁵ أحمد ابن الحاج، ن. م. ج. 6، ص. 412. بخصوص الصراعات بين الأمراء حول السلطة في الدولة العثمانية، انظر: عبد الرحيم بنحادة، العثمانيون...، م. س. ذ.، ص. 88 وما تلاها.

⁴⁶ أحمد ابن الحاج، ن. م. ج. 6، ص 363-365؛ أبو القاسم الزياني، البستان الطريف...، م. س. ذ.، ص. 185. وأكد توماس بيللو وجون بريثويت، والملح جون وندوس إلى تعيين أحمد الذهبي. راجع: جون بريثويت، ن. م. ص. 38؛ جون وندوس، ن. م. ص. 107.

⁴⁷ محمد أكنسوس، ن. م. ص. 157. وعن عقد الموالة راجع: عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف...، م. س. ذ.، ص 229-231.

إسماعيل بحتمية اندلاع الصراع بين أبنائه. لكن لماذا لم يقتد بنهج أحمد المنصور في ولاية العهد؟

الواقع أن هاجس الخلافة راود السلطان العلوي الذي كان يراقب من كثب سلوكات الأمراء، ويتتبع مجرى ممارساتهم، لكن طبيعة التدابير التي اتخذها في هذا الصدد لم تكن واضحة المعالم، إذ استبعد منذ البداية فكرة تعيين ولي للعهد، وهو ما يؤكد تخليه عن خطة سلفه وما أعقبها من فتن، ومراهنته على الإمساك بمبادرة تعيين أبنائه على الولايات وعزلهم، بدل الالتزام بتوزيع قار ودائم. لكن لماذا انتظر مرور أكثر من ربع قرن ليقوم بذلك التوزيع، ثم ما فتئ أن تراجع عنه بعد حوالي سبعة عشر عاما؟ أيتعلق الأمر بانشغالات السلطان طيلة العقد الأولين من حكمه بتمهيد البلاد؟ أم أنه كان يريد التثبت من مؤهلاتهم قبل أن يقسم عليهم الأقاليم، ولما أقدم على ذلك لم يقتنع بما كان ينتظره منهم فأعاد الأمور إلى ما كانت عليه؟

الواضح أن موقف المولى إسماعيل من معضلة ولاية العهد مقارنة بأحمد المنصور، ظل متذبذبا ومرتبطا على ما يبدو، بتعدد زوجاته وأبنائه، وما أفرزه من تنافس بين الأمراء المفضلين من أجل الظفر بحظوة الخلافة، وبتتابع المستجدات التي أجبرته على إعادة النظر في تصورات. فظهر أمام توالي التمردات من بعضهم. عظمهر المتردد الذي لم يجد ضالته في أي أمير قادر من منظوره، على حمل المشعل من بعده. وربما لم يرد تكرار تجربة سلفه، وهذا ما يفسر لنا طغيان منطق العتاب، بل والتوبيخ على جل مراسلاته لأبنائه، الذين اتهمهم على الدوام بضعف هيبته، وبعدم قدرتهم على تحمل أعباء الحكم⁴⁸، إذ خاطب ولده المامون قائلا: « وكنا نظن في جانبك من النجدة والفائدة والنتيجة والضبط... والتحافظ على ما نوصي عليه ما ليس في إخوانك، ومن أجل ذلك كبرناك على من كبرناك عليه منهم، واخترناك للولاية دونهم »⁴⁹.

يتضح مما سبق أن معضلة انتقال السلطة شكلت انكسارا ثابتا أصاب بنيتها، وأعاق تحقيق تراكم سياسي من شأنه التأسيس لقواعد ثابتة لولاية العهد، إذ ظلت أبواب العرش مفتوحة أمام كل ذي حق يرى في نفسه القدرة على الصراع من أجله، وبقيت الاستمرارية السياسية

⁴⁸ راجع رسائل المولى إسماعيل إلى أحد أبنائه ضمن المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون...، م.س.ذ. ومجموع مخطوطات ح، 12598، ص 68-211.

⁴⁹ ن.م، ص. 34.

رهينة بقوة شخصية الحاكم، وتمدّد نجاحه في فرض إرادته على الآخرين. وهو ما أضفى على أشكال المشروعات السائدة طابعا هشاً وعابرا، وجعل الخطابات المتحركة في إفرازها تقضي على الدوام إلى ميلاد خطاب احتجاجي لا مشروع يهددها، ويطربص بها، الأمر الذي حول التعاقب على الحكم من سلطان لآخر، إلى عودة إلى البداية⁵⁰. وربط ولاء السكان بشخص الحاكم، بدل مؤسسات سياسية قارة، وذلك ما جسده نصوص البيعة والكتابات الإخبارية، التي رأت في المتولي الجديد أصلا ومؤسسا حقيقيا، وتعاملت مع خلفائه بالمنطق نفسه.

واعتبر الفشتالي ذلك من باب البديهيّات، « إذ لا خفاء بما يعتري الدول عند موت الخلفاء والملوك، وعلى مهاد الاطمئنان وسرير العافية، من اضطراب حبلها، وتزلزل قواعدها، ويخامر الفحول من ولادة العهد عند تحويل الدعوة إليهم من الحيرة والجزع »⁵¹. مما يعني أن وارث العرش عليه أن ينطلق من الصفر، ويعمل على إعادة بناء ملكه، وهو ما قام به ولي نعمته، بعد أن « كاد سلك الدولة يتنسر، وذيلها يتقلص، ثم جبر الله الصّدع بأمر المؤمنين أيده الله، فشمر لابتداء الأمر من أوله، وتشيد الملك من أساسه، وافتتاح المغرب فتحا ثانيا من أصله »⁵²، وإن كان الفشتالي يهدف إلى إقصاء ما أنجز سابقا، وإظهار مخدومه بمظهر الباني الجديد، فإن تصوره يسري على المخزن منذ عهد الأدارسة، ويثبت ما قال المولى إسماعيل في رسالته لعلماء الأزهر، « فصرنا نحن حيث أقامنا الله ونصبنا... نبتدئ السيرة والطريقة من أولها، ونعقدّها من أصلها، فقاسينا في ذلك وكابدنا فيه من العمل »⁵³. ولخص أفوقاي ذلك وهو يجب قاضي روان Rouen في إحدى مساجلاته الدينية بالقول: « كل من هو ابن سلطان يحب مملكة أبيه، فإذا أصاب... والمملكة عظيمة ومنيعة، فيقوم معه كثير وتكون بسبب ذلك تفريق الكلمة، وتكون الفتنة »⁵⁴.

ولعل وعي السلاطين بلازمة العودة إلى البداية، جعلهم يعيشون باستمرار تحت هاجس

⁵⁰ عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا... م.س.ذ.، ص. 249. وأيضا: B. Badie, « *Etat* et *Légitimité*... », *op. cit.*, p. 21, 26.

⁵¹ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 37.

⁵² ن.م،... م.س.ذ.، ص. 39.

⁵³ مجموع مخطوط، خ. ح، رقم 12598، ص. ص. 60-63.

⁵⁴ أحمد الحجري، ناصر الدين... م.س.ذ.، ص. 47.

الخوف من التمردات التي قد تعصف بحكمهم في أية لحظة، ويعمدون إلى تدعيم أسسه من خلال المغالاة في القهر والاستبداد، وهو ما يخل بقاعدة التوازن التي تقوم على مبدأ العدل، ويدفع الرعية إلى تقرب كل فرصة تسمح بالتغيير.

وأسهل أهل الحل والعقد من جانبهم، في دوام تلك اللازمة، عبر اعترافهم بالأمير الذي فرض نفسه، أو بواسطة الدعوة إلى طاعة الحاكم المستبد لما في ذلك من درء للفتن عن البلاد، فكان لهم كنخب ثقل في مسلسل مشروعية النظام المخزني واستقراره. إذ بالرغم من محاولات وضع ضوابط متفق عليها بين المؤسسة المخزنية والقوى الدينية، ظلت الروابط بين الطرفين تتجاذبها مجموعة من الخلافات المعقدة لتدبير شؤون البلاد. وهو ما يتضح إجمالاً من سياق المقارنة بين سياسات السلطانين في هذا الصدد. فالشخصيتين القويتين لكل من أحمد المنصور والمولى إسماعيل، قد ألقتا بثقلهما على تلك الروابط، فالأول وظفها في الحفاظ على الإجماع الذي أحاط بتوليته، والثاني كرس كل الوسائل المتاحة لبلوغ ذلك الإجماع. غير أن كلا التجربتين تسمحان لنا بالوقوف على مشكل العلاقات الحقيقية بين الديني - الأخلاقي وبين السياسي⁵⁵. فإذا كان الطرفان على علم بحدود سلطة بعضهما البعض على المستوى النظري، فإن واقع الممارسة يكشف عن حجم الصعوبات التي اعترضت المخزن، الذي كان يسعى إلى تدجين العلماء، إلى أبعد حد ممكن، لكن دون أن يتخطى الخطوط المسموح بها شرعاً، ويتغيا ربط دوام مكانتهم بدوام سلطته التي جعلتها ممكنة.

وبالمقابل رأى العلماء في هذه السياسة مسا صريحاً باستقلاليتهم، ومحاولة جادة لتميع الأدوار التي أناطها الشرع بهم، ولإحداث شرخ بينهم وبين قاعدتهم الاجتماعية التي دأبت على الاحتماء بهم لصد كل أنواع التعسفات، وهو ما حدا بجلهم إلى رفض محاولات المخزن استخدامهم وفقاً لمقاسات سياساته من خلال الضغط عليهم لاستصدار الفتاوى التي تتماشى مع مشاريعه، عملاً بمقولة زيدان: « السلطنة لها أسرار لا بد منها، وسياسة ينكر ظاهرها »⁵⁶، فعاش معظمهم تحت وطأة الالتزام بمسؤولياتهم الأخلاقية، وعبروا بذلك عن طبيعة التعارض الذي ميز العلاقات بين الخطاب الشرعي المثالي من جهة، والخطاب السياسي

⁵⁵ M. Weber, *Le savant et le politique ...*, op. cit., p. 168.

⁵⁶ رسالة السلطان السعدي زيدان إلى يحيى الحاحي، الإفرائي، نزهة الحادي... م.س.د.، ص. 221. ومن بين الأساليب التي اعتاد السلطانان الضغط بواسطتها على العلماء المعارضين، هو استدعائهم مثلاً للسير في المواعيد الرسمية، والحضور كل المناسبات، وهو ما كانوا ينظرون إليه بعدم الرضا، راجع: عبد الرحمان الفاسي، ن.م. ج. 1، ص. 327.

الواقعي من جهة أخرى، أي عن صعوبة التوفيق بين النظرية والتطبيق. ذلك أن الخطابين وإن تعايشا جنباً إلى جنب نظراً لاقتناعهما بأن وجود أحدهما رهين بالآخر، وإن لم تنقطع الصلات بينهما جراء حالات التشنج التي اعترت أحياناً علاقتهما، فإن حالات المد والجزر التي اعترتهما أسهمت في إضفاء طابع الهشاشة على أسس استمرارية التراكم. ومن المنظور نفسه، شكلت مؤسسات الزوايا، وفئات الأشراف سواء المنتسبة للمخزن أو الواقعة خارجه، قوى وازنة أسهمت بنصيبها في هشاشة المؤسسات.

وهكذا جعلت معضلة المشروعية جهود السلاطين تستنفذ في محاولات فرض الأمن والاستقرار، وهو ما يؤدي إلى ميلاد ظروف خصبة تستثمر من قبل الطامحين إلى الحكم في خلق الفوضى وعدم الاستقرار. فأصبحت استمرارية السلطة السياسية للمخزن رهينة بمدى حرصه على تحصين ذاته، دون المساس بقاعدة التوازن الاجتماعي. وذلك ما يبرر فشل مبادرات الحكام الأقوياء الهادفة إلى توسيع نفوذهم على حساب تلك القاعدة، إذ ينقلب الأمن المفروض إلى فوضى عارمة، لأن ممارساتهم للاحتكار السياسي تفسر من منظور الرغبة في مصادرة صلاحيات القوى الاجتماعية المؤثرة، وهو ما عبر عنه المرغيتي بقوله: «العدل يزين السلطان في علوه، وينصره على عدوه، والعدل أنصر من الرجال... وأما سلطان الجور والسياسة فإنه محتاج إلى فنون من التدبير يستعطف بها القلوب... ويجب أن تكون سياسته على قوانين مألوفة ولا يكثر من تغييرها، فإن الظلم المألوف تصبر عليه النفوس أكثر من صبرها على الظلم المتغير، ومع ذلك فلا يسلم من حقد... إذا عمل بالحزم»⁵⁷. وهو ما يجعلنا نستشف أن بوادر الأزمة المؤدية إلى اشتعال فتيل المشروعية، والعودة باستمرار إلى لازمة البداية مع كل حكم جديد، كانت أيضاً كامنة في صلب سياسات السلطانين، وليس فقط في قدرة أبنائهما على مواصلة الطريق؛ لأن استبدادهما لم يوفر الظروف الملائمة للاستمرار في نهج قائم على الضغوط، التي أخلت بالتوازن الاجتماعي السائد، وإن قلصت من الاحتجاجات، فهي لم تعمل إلا على تأخيرها إلى حين.

ومما يدعم هذا الطرح أن معضلة المشروعية طرحت بحدة بعد وفاة أقوى السلاطين، الذين نجحوا في فرض استقرار نسبي لمدة طويلة، كما هو حال أحمد المنصور والمولى إسماعيل. بمعنى أن محاولتهما لفرض إرادتهما تم قبولها على مضض من قبل القوى المحلية والسكان.

⁵⁷ محمد بن سعيد المرغيتي، الإشارة الناصحة...، م.س.ذ.، ورقة 71-72.

كما أن مبادرة السلطان السعدي لإقرار تحديث سياسي متعلق بولاية العهد، لم تلق تفهما حتى من أبنائه. وهو ما يؤكد أن مصدر الخلل يكمن في عجز المخزن المركزي عن صياغة آليات قارة كفيلة بتكريس ثقافة الولاء لمؤسساته، وباحتواء مشكل التنافس حول السلطة الذي يخوض غماره عدة طامحين إلى العرش، وبوضع حد لظاهرة التقطع السياسي التي حرمت السلاطين من استكمال تجارب أسلافهم، ومن وضع خبراتهم في الحكم رهن إشارة خلفائهم لإتمامها. وبذلك ظلت هبة المخزن ذات طابع شخصي، وليس مؤسساتياً، الشيء الذي أوحى للإخباريين تعليل الفتن التي أعقبت وفاة السلطانين بضعف إرادة أبنائهما وهيئتهما، بدل غياب وعاء قانوني محدد يضمن في حد ذاته تلك الهبة، دونما حاجة الحاكم الجديد إلى إعادة فرضها انطلاقاً من مؤهلاته الشخصية، ومن قدراته على فرض سياسة عسكرية وإدارية صارمة لا تسعى ضمن أولوياتها إلى إحداث التغييرات المنتظرة من تدابيرها، بقدر ما تسفر في الغالب عن نتائج عكسية.

وقع التدبير العسكري

لقد شكل الجيش الدائم في العصور الحديثة، سببا من الأسباب الأساسية لتأسيس الضريبة الدائمة بصفقتها مورداً لتقوية المركزية الإدارية، ومراقبة الأفراد والممتلكات، وترسيخ التقاليد والمناهج المتعلقة بتنظيم الإدارات والتراتيبات داخل مختلف المصالح العمومية. كما قدم النموذج لتنظيم المصالح الاجتماعية كالتعليم والصحة، وتوفير الأطر الإدارية المدنية التي أسهمت بشكل فاعل في نمو المدن، وفي بروز بورجوازية حضرية تخلت عن الأنشطة العسكرية لتتجهم بالأنشطة الاقتصادية والإدارية⁵⁸. بينما ظل تأثير فرق الجيش المحترف للسلطانين محدودا، سواء في ما يتعلق بإغناء التجربة الإدارية، أو بالتأثير على الأنشطة الاقتصادية، نظراً لأن حزام القصبات تركز بالأساس حول المحاور الطرقية وبقي معزولاً عن محيطه الاجتماعي، مما حال دون حدوث الاندماج المفترض بين الحاميات والسكان.

وبينما كان الجنود والضباط بأوروبا يقيمون في مساكن وسط المدن والقرى، مخصصة لإيواء العسكريين يؤدي ثمن كرائها من رسوم تفرض على السكان، إلى جانب ضريبة

⁵⁸ A. Corvisier, « Armées... », in *Histoire comparée de l'administration...*, op. cit., pp. 557-61, 565, 567, 569.

الماعون⁵⁹، فإن هذا الأمر ساعد على استئناس السكان بالإدارة العسكرية، التي لم تعد تمثل بالنسبة إليهم جهازا مفروضا لمراقبتهم، كما كان الحال بالمغرب، بل مؤسسة لحمايتهم خلال الحالات الاستثنائية كالفتن والكوارث الطبيعية، وعاملا منشطا لنمو البنيات التحتية للتجمعات السكانية، من خلال قيامها بالأدوار الاجتماعية التي كانت تتكفل بها الكنيسة. أما في المغرب، فقد استمر معظم تلك الأدوار خاصة في البوادي، تحت وصاية المؤسسات الدينية من علماء وزاويا، التي شكلت ملجأ للناس، وفضاء لتأطيرهم، فحالت بذلك دون فسح المجال أمام الإدارة المحلية، للتغلغل في ثنايا البنية الاجتماعية للمناطق التي تدخل في دائرة نفوذها، أو أمام تراجع الفكر الجماعي، من خلال التمييز بين المدنيين والعسكريين. إذ على العكس من ذلك، ازداد ارتباط الشخص، نتيجة لتبني جيوش محترفة دخيلة، وخاصة في عهد المولى إسماعيل، بانتماءاته القبلية أو الحضرية، بدل أن يتقرب إلى عناصر الجيش المكلف بمراقبته. فحتى على المستوى الاجتماعي، عاشت الحاميات، كما أسلفنا، في ظل نظام مغلق انعزل فيه الجنود رفقة أسرهم داخل القلاع، وتم تغيير قوادهم بصفة دورية، وهو ما جعل هذه القصابات هدفا للتخريب مباشرة بعد ضعف السلطة المركزية، كما حدث إبان الفتن التي أعقبت وفاة السلطانين، عوض أن تمثل نواة لمدن ناشئة تحت وصاية الجيش، وبمساعدة من السكان.

وتشهد على هذا الوضع تقارير الرحالة الأجانب الذين زاروا المغرب ولا حظوا خراب المدن، الذي لا يعود إلى الحروب الأهلية فقط، ولكن لعدم الاستقرار المتواصل للسلطات المحلية، إما بسبب سقوط القائد في نكبة، أو بفعل تغييره⁶⁰. الشيء الذي حال دون إحداث تراكم إداري في تسيير القصابات من شأنه توفير الأمن، وتسهيل المبادلات التجارية للحصول على موارد تمويلية قادرة على إيجاد إدارة قارة، وإنشاء شبكة من الطرق تستقطب سكان البوادي.

ويجد هذا الوضع تعليله في الهيمنة المباشرة، التي فرضها المخزن المركزي والجهوي على الموارد المحلية للبوادي والمدن من جهة، وفي الصورة التي حملتها القصابات والمدن في أذهان الناس بصفقتها مراكز لا يتزاهم ولضبط تحركاتهم من جهة أخرى. فكانوا يتجنبون الفرصة

⁵⁹ شملت ضريبة الماعون Ustensile تزويد الجيش المرباط بالفراش، وإناء وقصعة وكانون وشمعدان، انظر: A. Corvisier, « Armées... », *op. cit.*, p. 557.

⁶⁰ S.I.H.M., 1^e série, Fra., t. II, p. 238, note 7.

المواتية لممارسة لازمة التخريب، التي لم تسلم منها حتى العاصمة مراكش لما فقدت جراء التريف جمالياتها، وتحولت أبرز منشآتها سنة 1604م إلى خراب، شأنها في ذلك شأن عدد من المدن الأخرى⁶¹. وهو ما تؤكده هذه الشهادة: « لما رأى مولاي زيدان أن المدينة أصبحت شبه فارغة، أرسل في طلب عرب الشبانات يدعوهم إلى المجيء للإقامة بمراكش، وقد نزل هؤلاء بأحسن المنازل، وبما أنهم غير متعودين على السكن في المنازل فقد حولوها إلى خراب في أيام قليلة؛ ذلك لأنهم كانوا يدخلون الخيول إلى الغرف والتي رصفت أرضيتها بدقة بالغة حيث كلفت الكثير، كما أنهم كانوا يخلعون خشب سقف المنازل لبيعه أو لاستعماله مكان الحطب في إيقاد النار، وبهذه الطريقة خرب عرب الشبانات ما يزيد عن عشرين ألف منزل، وإذا أضفنا إلى ذلك المنازل التي أصابها الخراب من تلقاء نفسها بعد أن غادرها أصحابها، تبين لنا كيف أن مراكش التي كان بها حوالي مائة ألف منزل أصبحت عبارة عن أطلال »⁶². كما « امتدت أيدي النهب للقلع (محلة مشرع الرمل) التي تركوها خاوية، فأخذوا أبوابها وخشبها، ولم يبق بها إلا الجدران »⁶³.

وزاد من استفحال الوضع التهام الحروب لعدد كبير من الأطر الإدارية المخزنية، التي كان من الممكن أن تشكل جسرا لتحقيق التراكم. فخلال الفتن التي أعقبت وفاة أحمد المنصور، قتل المولى عبد الله بن محمد الشيخ المامون أحد عشر قائدا من القواد المتمرسين في الشؤون المخزنية كالباشا جوذر وغيره⁶⁴. كما « أمر مولاي عبد الله بإلقاء القبض عليهم (القواد)، وبعد مرور ثلاثة أيام على ذلك أمر بقتلهم، وكانوا كلهم من النبلاء الذين يمتلكون ثروات كبيرة، كما كانوا من أهم مؤطري الجيش، وقد عاصروا مولاي أحمد المنصور الذي كان يعتمد عليهم كثيرا »⁶⁵. ومات جراء الحروب التي خاضها المولى إسماعيل ضدًا على المتمردين عليه، حشد هائل من القواد والرؤساء والأعيان الذين كانوا يمثلون ركائز في النسيج الإداري، وهو ما عبر عنه ابن زيدان بقوله: « مات السلطان مولانا إسماعيل رحمه الله، وجاءت دول أولاده من بعده، وتبدل أهل المناصب الذين كانوا في دولته وجلس

⁶¹ S.I.H.M., 1^e série, Fra., t. II, p. 266.

⁶² خورخي دي هنين، وصف الممالك المغربية... م.س.ذ.. ص. 106.

⁶³ أبو القاسم الزباني، البستان الطريف... م.س.ذ.. ص. 349.

⁶⁴ خورخي دي هنين، ن.م، ص. 181.

⁶⁵ ن.م، ص. 47.

غيرهم ممن لا خبرة له...»⁶⁶. ومن ثم، فإن «... هذه الممالك... تعيش في انقسام وخراب، فملوكها في حالة من الخصائص المادي الناتج عن الحروب الكثيرة التي قتل فيها كل القواد والجنود الذي شكلوا في الماضي دعامة الجيش»⁶⁷. فالجهود التي بذلها السلطان السعدي في المجالات الإدارية والعسكرية والسياسية أنهارت بانتهاء حكمه، ولم يكتب لخلفه العلوي أن يستثمرها بالشكل المطلوب، لأن أيادي التخريب امتصت حيزا كبيرا منها، والمآل نفسه آلت إليه محاولة الأخير.

وفي الوقت الذي تبدو فيه شروط المقارنة بين الإرث الإداري بأوروبا الغربية، وبين التجربة الإدارية بالمغرب غير متكافئة، فإنها لا تخلو من فائدة، على اعتبار أن ذلك الإرث أسهم ضمن عناصر أخرى، في تدعيم الأسس الاقتصادية التي أفرزت الدولة الحديثة⁶⁸. كما أن من شأنه أن يساعد على تشخيص مكامن الخلل التي اعترت السياسة المخزنية، المتجسدة في عدم إفرازها لمؤسسات منفصلة نسبيا عن السيطرة المباشرة للسلطان وحاشيته، بل بقي الكل يخضع لأوامره ونواهي، التي تخترق المدن دون أن تترك لها فرصة تعبئة مواردها، وتقوية أسسها حتى تصبح صلة الوصل بين البوادي والحكم المركزي. بل إن الجيش المحترف حاصر الممرات المؤدية إلى المدن، فأصبح يتحكم في الحياة الاقتصادية، ويمارس الضغط على أنشطتها، مما أفقد النخب التجارية مكانتها لفائدة الفئات الدينية والعسكرية، لكن دون أن يسفر ذلك عن ظهور بيروقراطية عسكرية، أو إدارية، ولو قريية من تلك الأقل تنظيما وامتدادا التي سادت بالإمبراطورية العثمانية خلال الحقبة نفسها⁶⁹، نظرا لغياب الأرضية الملائمة لتحقيق التراكم، ولعجز المخزن عن التحكم في عدد هام من الخدمات الإدارية، التي

⁶⁶ عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف... م.س.ذ.، ص. 244، ص. 244، 254-255، 260، 279، راجع أيضا: محمد القادري، نشر الثاني... م.س.ذ.، ج. 2، ص. 252، 268، 334؛ أحمد الناصري، الاستقصا... م.س.ذ.، ج. 7، ص. 91. في إشارة إلى سلوكات أحمد الذهبي، ذكر أبو القاسم الزباني ما يلي: «فانحل نظام الدولة بقتله لرجالها الذين كانوا قائمين بأمر الرعايا»، البستان الطريف... م.س.ذ.، ص. 215، راجع أيضا: S.I.H.M., 1^{re} série, Ang., t. II, p. 363.

وحول قتل المولى زيدان لعدد كبير من القواد، انظر:

S.I.H.M., 1^{re} série, Pays Bas, t. I, p. 105.

⁶⁷ خورخي دي هنين، ن.م، ص 181.

⁶⁸ ليس هدفنا من الاستحضار المتكرر لنماذج من التجارب التاريخية لأوروبا، إسقاط مفاهيمها على المخزن، بقدر ما توخينا محاولة المقاربة. مجالات نبحث في ترسيخ القيم المؤسساتية داخل مجتمعاتها، لعلها تفيدنا في فهم خصوصيات السلطة السلطانية.

⁶⁹ روبر مانتان، تاريخ الدولة العثمانية... م.س.ذ.، ص. 284-286.

بقيت مشتتة بيد أعيان القبائل⁷⁰. فحرم من احتوائها بفعل اكتفائه بإعلان تبعيتها له، وأيضاً بسبب ضعف الإمكانيات التقنية لضمان تغلغل نظامه الإداري في أوساط بنية اجتماعية احتفظت بالمبادرة في يدها، وعمدت في أغلب الحالات إلى تزكية أحد عناصرها للإشراف على تسيير شؤونها⁷¹.

وهكذا عمق الجيش المحترف المعزول عن المجتمع، شرخ عدم الثقة بين المخزن والقبائل، وجعل الأخيرة تحين الفرصة للتخلص من ضغوطه، ومن التغيرات التي ألحقها بالسير العادي لتحركاتها. وحتى المدن التي اضطرت إلى تحمل الضغط المالي على نخبها كان رد فعلها عنيفاً بعد وفاتها، ضدّاً على المحاولات التي استهدفت تجريدتها من قوتها المالية، وإقصائها من الإسهام في صنع القرار الاقتصادي، لفائدة مجموعة من الوسطاء الأجانب واليهود. بصيغة أخرى كانت هيمنة المخزن الاقتصادية والسياسية على المدينة تسيير في اتجاه مناقض لطموحات الفئة التجارية، بل توخت إقصاءها من خلال وضعها تحت الوصاية المباشرة للسلطان وأجهزته، باعتبارها مصدراً تمويلياً يمكن الرجوع إليه عند الاقتضاء، وعبر احتكار الثروات التجارية الحيوية، والتصرف المطلق فيها، على اعتبار أنها تدخل في صلاحياته، وتعتبر مصدراً لهيئته العسكرية، وضماناً لاستمرارية حكمه. أما تركها بيد نخبة معينة فيسفر عن تدعيم موقعها بصفتها سلطة مادية موازية خارجة عن دائرة نفوذه. كما لم يستطع السكان من جانبهم، تحمل أعباء سياسة ضريبية مكلفة، هاجسها الأساس تأمين موارد مالية قارة، لا تراعي بالضرورة إمكانياتهم الإنتاجية، ولا تنفق في ما يستجيب لانتظاراتهم. وبذلك لم تستطع الآلة العسكرية المحترفة تهيم الظروف الملائمة، لتنظيم إدارة مخزنية قادرة على القيام بمهام تسهم بشكل مباشر أو غير مباشر في نمو المجال الاقتصادي، وفي ضمان ديمومة المركزة بمختلف تجلياتها. وهو ما أدى إلى استمرار الخلط في سياسة المخزن بين المصلحة العامة والمصالح الخاصة. وفشل المخزن في لعب دور المنظم نتيجة لوجود كل الثروات المادية والبشرية للبلاد تحت رحمة السلطان، الذي تمتع بحق منحها أو نزعها ممن شاء من رعاياه، الذين أصبحوا لا يرون في ذلك إلا ممارسة لرهان الأخذ دون العطاء، حتى « إن

⁷⁰ برتران بادى، السلطة...، م.س.ذ.، ص. 159.

⁷¹ لاحظ Berque بأن غلبة الطابع الجماعي والتقليدي على المعاملات، أسهم في عرقلة نشاط السيولة النقدية، وفي عدم ترسيخ قيم المبادلات، راجع:

J. Berque, *Ulémas...*, op. cit., p. 211.

فقر السكان وقسوة السلطة جعلت كل واحد لا يبالي بالمصالح العمومية، إذ أن المرء باستثناء المساجد لا يصادف أي منشآت عمومية في هذه البلاد»⁷².

ومهما انطوت عليه هذه الملاحظة من مبالغة محكومة بخلفيات كاتبها، فهي لا تخلو من دلالة أكيدة على أن المشاريع التحديثية، التي أقدم عليها السلطانان في المجالين العسكري والاقتصادي، لم تستطع التسرب إلى ثنايا المجتمع لإحداث التغيرات المرتقبة، بقدر ما ظل تأثيرها جزئيا ومرتبطة بقوة شخصيتهما، وعمدى استعدادهما لتأمين استمرارية تلك المشاريع، التي كان الهدف الرئيس منها تقوية هيكلهما المركزي لردع أية قوة محتملة، وليس تنمية المجالات الحضرية والقروية على الخصوص لتوظيفها في خدمة تلك الهياكل. وأسهم في تعقد الوضع كون الموارد التي استخدمت في التمويل (السكر، مداخل الجهاد...)، لم تساعد على تحقيق تراكم مادي طويل المدى، بالنظر إلى طبيعتها الظرفية⁷³، وخضوعها لتأثيرات المتغيرات الخارجية، بدل ارتكازها على تحقيق الفائض من مصدر داخلي، يستمد من القطاع الفلاحي، ويسفر عن توسع النشاط التجاري.

وبالرغم من سعي المخزن الحثيث إلى الهيمنة على كل الخيرات، والاستئثار بمنافعها لما فيه دعم استمراريته وتجسيد عظمته، لم ينجح في استثمار قاعدته المادية لتوفير الشروط الكفيلة بتمتين أسس سلطته بشكل فاعل. بل غلب عليه منطق تكديس الثروة المرتبط بذات السلطان ومقريه، وتبذيرها لخدمة أغراضهم. ويمكن الاستشهاد في هذا السياق بما أنفقه

⁷² جون بريثويت، تاريخ الثورات...، م.س.ذ.، ص. 141، راجع أيضا:

G. Balandier, *L'anthropologie...*, op. cit., p. 177.

لم تظهر بوادر الحديث عن الفصل بين المصلحة الخاصة والمصالح العامة، إلا بعد اصطدام المغرب بالاستعمار الفرنسي، إذ عبر المولى عبد الحفيظ عن ذلك وهو يصف السياسة الضريبية للمولى إسماعيل وموقف اليوسي منها بالقول: «فالواجب على المعارض أن يعلم أن المغارم على قسمين، قسم يقوم به واجب الديانات وهو الزكاة والأعشار وغيرهما، وقسم تقوم به المصالح العمومية كجلب الآلات المدفعية والمراكب البحرية وإصلاح البلاد...»، مخطوط داء العطب قديم، ص. 58.

« Dans ces Etats nationaux, les organes de contrôle publics, sous la forme des assemblées parlementaires, de la presse, des organes de justice ou des partis politiques concurrents aux yeux de l'opinion public imposent une séparation entre les affaires personnelles et officielles, même en ce qui concerne les hommes et les femmes les plus puissants de l'appareil étatique. Dans les sociétés des Etats dynastiques, avec les élites de la cour, on considère encore comme allant de soi dans la vie sociale que les domaines privés et officiels ou professionnels se confondent dans une très large mesure » N. Elias, *La société de cour...*, op. cit., p. XXIX.

⁷³ عبد الله العروي، مجمل...، م.س.ذ.، ج. 3، ص. 101.

أحمد المنصور على قصر البديع، وعلى اقتناء مختلف أصناف المجوهرات النادرة⁷⁴، وبما التهمته أوراش البناء التي شيدها المولى إسماعيل بعاصمته مكناس من أموال. وهو هدر للثروات، فضلا عن الاستياء الذي خلفه لدى بعض شرائح المجتمع، شكل كابحا من كوابح تنشيط الدورة المالية في رأي جاك بيرك⁷⁵، وحاصر توسع النشاط التجاري المرتبط بالسلع الاستهلاكية الأساسية على حساب البضائع الكمالية أو الأسلحة، وحال دون تكوين فئة تجارية وبيروقراطية قوية تدور في فلك المخزن، وتتشابك مصالحها مع مصالحه لتتحول إلى درع واق لسياساته. بمعنى أن معضلة الفتن التي أعقبت وفاة السلطانين كانت كامنة في صلب نظاميهما. وفي ارتباط مع كل ذلك، زادت هشاشة البنيات التحتية، والتقنيات الإنتاجية التي كانت تشكو منها البلاد في تعقد الوضع.

العوز التقني

لما كان نمو الدولة الحديثة، قد ارتبط في مده وجزره بالدور الحاسم الذي لعبته التقنيات الفلاحية والصناعية والمواصلاتية، فإن المغرب ظل يشكو من نقص فظيع في هذا المجال، إذ لم يول المخزن عناية للنفقات المتعلقة بأشغال الطرق والقناطر والموانئ وشبكة الري. وهي الملاحظة التي سجلها كل الرحالة الأجانب الذين زاروا البلاد. إذ استغرب جون بريثويت من كون عبور نهر سبو دام حوالي ثلاث ساعات على الرغم من عدم اتساعه وضعف سرعة مياهه، مع أنه كان بالإمكان حسب رأيه، إقامة قنطرة على ضفتيه وعلى ضفاف أنهار أخرى. وأشار كل من المجهول البرتغالي والأسيرة الهولندية إلى وعورة المسالك وضيقها وعدم ملائمتها لمرور العربات⁷⁶. بل إن محمدا الشيخ المامون أكد في رسائله إلى الإسبان،

⁷⁴ فحسب شهادة خورخي دي هنين فإن « بناء القصر الملكي (البديع) بمراكش تطلب مصاريف كثيرة جدا؛ ذلك لأن المرمر الموجود بهذا القصر تم جلبه من إيطاليا... بجانب هذا كانت لمولاي أحمد مصاريف أخرى مرتفعة تهتم الحريم اللائي يعشن في قصره... كانت المفضلات منهن يرتدين الملابس الفاخرة، ويتزين بالمجوهرات النفيسة »، التي كانت تمتص لوحدها 30000 دوقة سنويا. وحول اقتناء المجوهرات والتيجان انظر: خورخي دي هنين، ن.م، ص ص. 32-178. انظر: رسالتي مجلس الدولة الإسباني بتاريخ 18 دجنبر 1601 و18 أبريل 1602،
أرشيف سيمانكس S.E, Leg. 2636، أورده الحسين بوزينب، « الأسلوب الدبلوماسي بين البلاط السعودي وبلاط إسبانيا »، ضمن التاريخ والدبلوماسية... م.س.ذ.، ص ص. 204، 209-210. ثم راجع:
S.I.H.M., 1^e série, Fra, t. II, p. 51. A. de Saldanha, *Chronique...*, op. cit., pp.118-120,132.

⁷⁵ J. Berque, *Ulémas...*, op. cit., p. 268.

⁷⁶ جون بريثويت، تاريخ الثورات... م.س.ذ.، ص. 251؛ المجهول البرتغالي، وصف المغرب... م.س.ذ.، ص ص. 38، 105؛ ماريا تيرمتلن، الأسيرة الهولندية... م.س.ذ.، ص ص. 74-76.
S.I.H.M., 2^e série, Fra., t. II, p. 144, note 1.

حول ترتيبات تسليم العرائش وإرسال أولاده وأولاد قواده كرهائن، أن الطرق غير صالحة للاستعمال خلال الفصل المطير نتيجة للأحوال وارتفاع صبيب الأنهار⁷⁷. ولاحظ ابن الحاج، وهو يقارن بين المغرب وبلاد الترك، توفر هؤلاء على طرق مجهزة بمحطات للاستراحة بين مرحلة وأخرى، لا تخضع لحراسة الجيش، الأمر الذي ينعدم ببلاده التي يتم سلوك مفاوزها تحت هاجس الخوف⁷⁸. كما اعتبر عدد المدن قليلا بالمغرب، والموانئ غير صالحة لرسو السفن، إما لهشاشة تجهيزاتها، أو لكون منسوب مياهها واطنا بفعل ترسب الرمال⁷⁹.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها أحمد المنصور لتطوير أوراش بناء السفن من خلال الاعتماد على إنجلترا، ثم هولندا لتأمين الأخشاب واللوازم الملاحية، فإنه لم يتمكن من بلوغ هدفه. والمصير نفسه آلت إليه محاولة خلفه المولى إسماعيل، الذي لم تساعده تجارة التهريب الهولندية وغنائم الجهاد، على الاستجابة لاحتياجاته من السفن. لذا فإن عمليات النقل البحري كانت تتم كلها بمراكب أجنبية، نظرا لأن السفن التي كان يتوفر عليها المخزن شرعية قليلة، ولعجز أحواض سلا والمعمورة عن بنائها بفعل الافتقار إلى المستلزمات الضرورية لذلك، وهو ما أضعف الاقتصاد المخزني، على اعتبار أن «إهمال الأمور البحرية... سبب لكل بلية»⁸⁰، وفقا لعبارة السلطان المولى عبد الحفيظ.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل إن العجلة التي كانت موجودة بالمغرب على الأقل منذ العهد الروماني⁸¹، واستخدمت في المعاصر العسكرية لأحمد المنصور، سرعان ما أثار غيابها انتباه جون وندوس، والضابط كيرك Kirke الذي كان في حاجة لمائة عربة لنقل الهدايا التي حملها للمولى إسماعيل، لكن أمله خاب أمام انعدامها، فتم اللجوء إلى الدواب. وحتى

⁷⁷ «الفصل الذي طلبنا فيه خروجنا في طنجة فات... من أجل الشتاء والودان والغيس»، رسالة من محمد الشيخ المامون إلى الماركيز دي سان جرمان بتاريخ 24 رمضان عام 1018هـ. وأخرى منه إلى الملك الإسباني بتاريخ 27 رمضان 1018هـ:

Archivo General de Simancas (Espagne) S. E. Legajo 494.

⁷⁸ أحمد ابن الحاج، الدر المنتخب... م.س.ذ.، ج. 6، ص. 252.

⁷⁹ جون بريثويت، ن.م، ص. 282، 285. انظر أيضا:

A. de Saldanha, 2. Chronique..., op. cit., p. 18.

ثم جون وندوس، ن.م، ص. 129.

⁸⁰ المولى عبد الحفيظ، داء العطب قديم، ص. 57؛ جون وندوس، ن.م، جون بريثويت، ن.م، ص. 285. S.I.H.M., 1^e série, Ang., t. I, pp. 390-1 note 1, et pp. 436, 520.

⁸¹ A. Laroui, Les origines sociales et culturelles..., op. cit., pp. 41-2.

السلطانان كانا يتوفران على عربتين نادرا ما عمدا إلى امتطائهما⁸². فالمولى إسماعيل بعث إلى هولندا للحصول على عربة: «وبادروا لنا بقروصة جيدة أحبينها لأنفسنا تكون عندنا بدارنا العلية بالله تصلنا»⁸³. لكن يبدو أنه لم يستعملها إلا نادرا في تنقلاته.

والأكثر من ذلك أن العاهلين اضطرا باستمرار، إلى طلب التزود بالتقنيين والحرفيين المتخصصين في صناعات مختلفة بما فيها النجارة والبناء؛ وهكذا التمس أحمد المنصور من عدد من الدول الأوروبية، وخاصة إنجلترا وإسبانيا، تزويده بالعمال المؤهلين الأكثر خبرة. وكتب المولى إسماعيل لويس الرابع عشر ليرسل له مجموعة من المهندسين لبناء قنطرة، في «مكان مستوعر مرتفع ومنخفض يحتاج إلى هندسة ونظر كبير»⁸⁴.

ولاحظ خورخي دي هنين في سياق وقوفه على مسألة هشاشة التقنيات، تميز الأراضي «بخصوبة كبيرة... هذا في وقت لا يحسن فيه أولئك البربر حرث الأرض، ذلك أنهم لا يقومون إلا بتمرير المحراث على السطح، مما يحول دون وصول الحبوب إلى العمق؛ ولو تم حرث تلك الأراضي بالطريقة نفسها المستعملة هنا، لكان المحصول أكبر بكثير»⁸⁵. كما تعجب وندوس بدوره من عدم استغلال السكان للسهول الشاسعة والشديدة الخصوبة بوسائل أخرى أكثر فاعلية، وتفضيلهم لحياة التنقل على الاستقرار، إلى درجة أن قطعان الحيوانات المفترسة، كانت تتجول في العديد من أطرافها حسب شهادة ميندوسا Mendoça. وهو وضع تم إرجاعه إلى اضطهاد السلطة المخزنية واستبدادها، وإلى رغبة السكان في الاستجابة لحاجياتهم المعيشية فقط⁸⁶. كما استرعى اهتمام الأجانب جهل المغاربة بطرق تصفية المعادن لاستغلالها في الصناعة، بالرغم من توفر عدة مناجم⁸⁷؛ «بالنسبة للسلاسل

⁸² جون وندوس، ن.م، ص. 43.

J. Caillé, « Ambassades... », *op. cit.*, p. 191 ; *S.I.H.M.*, 2^e série, Fra., t. II, p. 144.

⁸³ رسالة من المولى إسماعيل إلى هولندا بتاريخ 10 ربيع الأول عام 1093هـ، مصدر سابق، سلسلة الأقاليم المتحدة، رقم 1.01.08، رقم الوثيقة 12594.21.

⁸⁴ رسالة من المولى إسماعيل إلى لويس XIV بتاريخ 1111هـ، أوردها محمد بن تاويت، «من زوايا التاريخ المغربي» مجلة تطوان، ع. 7، 1962، ص. 146. ورسالة أخرى منه إلى دوق جنوة بتاريخ شتنبر 1704، أوردها:

M'Barek Zaki, « Le Maroc et Gènes... », *op. cit.*, p. 90 ; A. de Saldanha, *Chronique...*, *op. cit.*, p. 84. Consulter également : *S.I.H.M.*, 1^e série, Ang., t. I, p. 520.

⁸⁵ خورخي دي هنين، ن.م، ص. 174.

⁸⁶ جون وندوس، ن.م، ص. 70، 124؛ جون بريثويت، ن.م، ص. 284.

R. Ricard, « Le Maroc à la fin du XVI^e siècle », *op. cit.*, p. 188 ; *S.I.H.M.*, 2^e série, Fra., t. II, p. 178.

⁸⁷ *S.I.H.M.*, 2^e série, Fra., t. II, p. 179.

الجبليّة الأطلسية فإن ما يميزها هو وجود كميات ضخمة من المعادن، خصوصا النحاس والذهب... لكن بسبب كسل سكان هذه البلاد وخمولهم، فإنهم لا يستفيدون من هذه المعادن؛ ذلك أنه لو كانت لهم رغبة بالعمل، لاستخرجوا كميات كبيرة يمكن تصديرها إلى البلدان الأخرى»⁸⁸. فما هي الأسباب الكامنة وراء هذا الضعف التقني؟ ولماذا لم يستفد المغرب من القرب الجغرافي من أوروبا الغربية، التي شهدت خلال العصر الحديث الانطلاقة الحقيقية للثورة الصناعية؟ أم أن البنيات التقنية لمجتمع ما، لا يمكن مقارنتها مباشرة مع مثيلاتها في مجتمع مغاير حسب رأي بيير كلاستر⁸⁹ Pierre Clastres؟ أم أن التحديث اصطدم بمشكل الهوية في كل المجتمعات الإسلامية، التي لم تتمكن من الوعي بشروطه التاريخية؟⁹⁰

إن ما يثير الاستغراب، ليس عدم مسايرة المغرب للتطور التقني الحاصل لدى جيرانه الأوروبيين، وإنما هو معضلة تناسي التقنيات التي كان معمولاً بها في مجالي المواصلات ووسائل النقل. إذ كيف يعقل أن كل معصرة للسكر، من بين المعاصر الثمانية عشر خلال عهد أحمد المنصور مثلا، كانت تستخدم أكثر من مائتي عربة لنقل خشب الوقود، وأن المدافع كانت تنقل بواسطة العجلات: «وأعمل في نقلها العجل وءالة الهندام لثقل أوقارها»⁹¹، ومنذ وفاة هذا السلطان وتخريب تلك المنشآت، لم يرد ذكر لاستعمال تلك الوسائل إبان حكم المولى إسماعيل حتى في صفوف جيشه الجرار؟

الأكيد أن اختفاء التقنيات كان له أبرز الأثر في تراجع الحياة الاقتصادية، بل وفي جمودها، فالمجاعات كان بالإمكان التغلب على مخلفاتها من خلال زراعة مساحات شاسعة من الأراضي، اعتمادا على أدوات أكثر تطورا، ووسائل ري واسعة، أو على الأقل توظيف العربات أو الأنهار الصالحة للملاحة في نقل المذخرات الغذائية إلى المناطق الأكثر تضررا، وكانت المبادلات التجارية الداخلية ستستفيد بدورها من الانتشار الواسع لتلك التقنيات. فمن المسؤول عن تناسيها؟

⁸⁸ خورخي دي هينين، ن.م، ص ص. 28-29.

⁸⁹ P. Clastres, *La société contre l'Etat...*, op. cit., p. 164.

⁹⁰ J. Le Goff, *Histoire et mémoire...*, op. cit., pp. 85, 99.

⁹¹ عبد العزيز الفشتالي، ن.م، ص. 129. عبد الله العروي، مجمل... م.س.ذ.، ص. 62.
A. de Saldanha, *Chronique d'Al-Mansour...*, op. cit., p. 84.

الظاهر أن قوة شخصيتي السلطانين، وإصرارهما على تحديث الهياكل العسكرية والاقتصادية للمخزن، دفعهما إلى اقتناء كل الإمكانيات التقنية المتاحة في تصوريهما لتحقيق ذلك. وحاولا بالإصرار نفسه، أن يجعلا منها مظهرا من مظاهر تفردهما وتميزهما عن الرعية، فحالا بذلك دون تعميمها وانتشارها في أوساط المدن والبوادي، باعتبارها عنصرا من عناصر التفوق التي تمثل القدرة على قهر الأعداء، وملاحقة الخصوم أينما حلوا وارتحلوا. وهو الموقف الذي عبر عنه المولى إسماعيل وجسد البعد التقني، حين لام ولده المولى المامون على التسرع في غزو أولاد دليم، إذ قال له: «...المخزن كما قال الناس يقبض الغزال بالكريطة»، كما أكد في إحدى رسائله إلى هولندا إقامة وحدة لصناعة السلاح ارتكزت تقنيا على «إنشاء بريمتين في بر الإسلام واحدة منها تخدم بالماء والأخرى تخدم بالريح»⁹². وبمعني هذا أن كل الوسائل التي يمكن أن تشكل مصدر قوة، يجب الاستئثار بها، والحذر من سقوطها في أيدي كل من لا يتردد في تحقيق التوازن تجاه مؤسسة المخزن، التي لا تطمئن على استمراريتها إلا عبر تجريد الآخرين من ركائز قوتهم، ومن ثم كانت ترى في تشييد البنيات التحتية وخاصة القناطر والطرق، تهديدا لإمساكها بزمام الأمور، نظرا لما توفره من تسهيلات لتنقل المتمردين والمطلوبين للعدالة.

غير أنه إذا كان من الثابت، أن للمخزن اليد الطولى في ظاهرة التراجع التي همت الصناعات والتقنيات، فإن الوسط الثقافي الذي عاش في ظله المجتمع أثر لا محالة في ذلك. ذلك أن ترسخ الفكر الغيبي، وارتقاء الناس في أحضان أضرحة الأولياء، وتعبئتهم من قبل الزوايا، وإيمانهم بأن الصعوبات المادية التي تعترض سبيلهم، ما هي إلا عقاب من الله⁹³. كلها عوامل أسهمت في العزوف عن مواجهة التحديات، ليس بإحياء ما تم تناسيه فقط، ولكن أيضا من خلال اقتباس المستجدات التقنية من الشعوب الأخرى. وفي هذا الإطار، يبدو أنه لو خولت للتجار المغاربة حرية التنقل والإقامة بالدول الأوروبية، وتخلص المجتمع من الرقابة التي كان يفرضها العلماء على التعامل مع دار الكفر، لأمكننا الاستفادة من خبرات الآخرين، غير أن غلبة ذهنية العادة على الناس فوتت فرصة من هذا القبيل.

⁹² رسالة منه إلى هولندا بتاريخ 20 شعبان 1098هـ، سلسلة الأقاليم المتحدة، رقم 1.01.08، الوثيقة رقم 12594.27.

⁹³ عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا...، م.س.ذ.، ص. 381.

فلما عاد عبد الملك المعتصم من منفاه، وهو عاقد العزم على إدخال المستجدات التي عاينها، ووجهه، حسب رواية الفشتالي، بنفور السكان الذين رأوا فيها تغييرا لعاداتهم، وخروجاً بهم عن المألوف. وهو الموقف الذي اتخذته الفقهاء، لما اقترح عليهم أحمد المنصور غزو السودان، إذ أجابوه أن « المتأخر لا يكون أعقل من الأول ». كما أثنى القادري على المولى عبد الله بن إسماعيل، الذي « أجرى الناس على ما هم عليه في المنازل... ولم يخرق على أحد عادة في ذلك أصلاً »⁹⁴.

وتدل هذه النماذج وغيرها على مدى تمسك السكان والنخب الدينية الممثلة لهم، بثقافة العادة التي حالت دون الانفتاح على التحولات الطارئة لدى الآخرين، خوفاً من كل ما من شأنه أن يمس بالهوية الإسلامية والخصوصية الثقافية. وكرست مؤسسة المخزن من جانبها تلك الثقافة، لأنها وجدت فيها خير وسيلة للحفاظ على التوازن الذي يضمن استمراريتها، ويحول دون الإخلال بالثوابت التي تقوم عليها علاقاتها. بمختلف شرائح المجتمع؛ إذ ذكر المرغيتي أن سياسة السلطان « يجب أن تكون... على قوانين مألوفة ولا يكثر من تغييرها »، متفقاً بذلك مع أحد كتاب الصدر الأعظم، الذي اعتبر أن من بين أبرز العراقيل المثبطة لسبيل الإصلاحات التي أراد الاستعمار الفرنسي تطبيقها لاستغلال خيرات البلاد، هو أن « كل شخص كان يرغب في العيش دون تغيير، وبنفس الطريقة التي حيا بها أبوه وجدته »⁹⁵.

ويستخلص مما سبق، أن هدف المخزن كان هو توطيد أركانه عبر إطلاق يد أجهزته في كل المجالات التي بدا له إمكان استثمارها في تمتين نفوذه، بغض النظر عن مدى توفيرها للأرضية الملائمة لتحديث البنيات الاقتصادية والاجتماعية للسكان، وعن درجة ملاءمتها لطموحاتهم وتصوراتهم، إذ ظلت سياساته تحت رحمة احتياجاته الخاصة التي لا تنفصل عن تدعيم أسسه، للتصدي لأية قوى محتملة لا تنظر بعين الرضا لممارساته.

وإجمالاً إذا كان كل نظام سياسي، حسب ريمون فورث Raymond Firth، يحتضن في الوقت نفسه الصراع والتحالف، احترام النظام الموجود والرغبة في تغييره⁹⁶، وكل سلطة،

⁹⁴ حول هذه الأمثلة، راجع: محمد القادري، نشر المثاني...، م.س.ذ.، ج. 3، ص. 335؛ محمد الإفرائي، نزهة الحادي...، م.س.ذ.، ص. 91؛ عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا...، م.س.ذ.، ص. 201.

⁹⁵ Si Omar Khetib, *Le gouvernement chérifien ou makhzen central*, Conférences franco-marocaines, t. II, Paris, 1917, p. 141.

محمد بن سعيد المرغيتي، الإشارة الناصحة...، م.س.ذ.، ورقة 72.

⁹⁶ G. Balandier, *L'anthropologie politique*, p. 49.

في رأي ميشيل فوكو، حيثما وجدت إلا واصطدمت بنقاط مقاومة متعددة⁹⁷، وكل مجتمع يتمظهر فيه حجم معين من العدوانية وفي الوقت نفسه رغبة ضرورية للسلم والاستقرار⁹⁸، فإن المخزن على عهد السلطانين سعى بدوره، في سبيل بلوغ أقصى مستويات المركزة، إلى إخضاع كل من يوجد خارج دائرة نفوذه. ومن هذه الزاوية، تتجاوز الحد الأدنى للتوافق الذي كانت ترضى به مختلف الفئات السكانية، أي أن البنية الاجتماعية، بمن فيها أهل الحل والعقد، كانت تتعايش مع السلطان أكثر مما تستند إلى ركائز ثابتة في تعاملها معه، وأنه هو أيضاً عجز عن إدماج مكوناتها، أو على الأقل رموز نخبها في مشهده السياسي.

وبما أن التحكم في الصراع الداخلي قد مثل دوما وظيفة ذات أولوية في كل مجتمع، فإن تشييد النظام يتم مبدئيا بواسطة أدنى مجهود وأقل تكلفة، ودون أن يكون مفروضا بشكل مطلق، وإنما معترف به. إذ لكي يتمكن الحكم داخل جماعة ما من احتكار السلطة الحقيقية، فمن الضروري أن تحترم بعض القيم والمعايير، وخصوصا من قبل النخبة المسيرة، ومن قبل المجموعات الوازنة والأكثر تأثيرا في أوساط السكان⁹⁹. بيد أن المخزن بسياسته تلك، الساعية إلى فرض الاستقرار، وضمان الأمن والسكينة، لم يعمل إلا على إنتاج الشروط التي أفضت إلى الفوضى والفتنة¹⁰⁰، وهو ما ينم من جهة، عن عدم الانخراط الواسع للنخب بالبوادي والمدن في صياغة فصول المبادرات التحديثية كما أسلفنا، وعن عدم ملائمة هذه المبادرات مع تصورات السكان. ويؤكد من جهة أخرى، أنه لم تتم الاستفادة بالشكل المطلوب من حصيلة التجارب الاقتصادية والسياسية والإدارية والعسكرية في عهد السلطانين. إذ أفضى طغيان ما أسماه ماكس فيبر Max Weber بالانتفاعية Prébendisme المتسمة بالمراقبة الشديدة للمجتمع من قبل السلطان، وبالحضور الوازن للجهاز الديني، إلى هشاشة الاقتصاد النقدي،

⁹⁷ مصطفى الحسناوي، فوكو والسياسة...، م.س.ذ.، ص ص. 93-94.

⁹⁸ W. Blockmans, *Histoire du pouvoir...*, op. cit., p. 203.

⁹⁹ راجع:

W. Blockmans, *Histoire du pouvoir...*, op. cit., p. 203.

كانت بورجوازية المدن بفرنسا القرن السادس عشر مثلا، تتمتع بشخصية قانونية وتمثيلية. انظر:

R. Mousnier, « La participation des gouvernés à l'activité des gouvernants dans la France du XVII^e et des XVIII^e siècles », in *Gouvernés et gouvernants*, 3^e partie, (Bas moyen âge et temps moderne (I)), Bruxelles, 1966, p. 248.

¹⁰⁰ M. Morsy, « Mulay Isma'il ou l'instauration... », op. cit., p. 161.

وعرقلة ظهور التنظيمات الاجتماعية المستقلة ذاتيا، التي من شأنها التمتع بجزء من السيادة، والتخفيف من ثقل الحكم المركزي¹⁰¹.

والنتيجة أن مواطن الخلل تكمن في تعارض تدابير النظام المخزني الهادفة إلى تعزيز بنياته، مع مواقف السكان ومثليهم الطامحة إلى الحصول على امتيازات جديدة على حساب النظام نفسه. فأحمد المنصور والمولى إسماعيل اقتصرا على إدخال تغييرات ظلت هامشية وجزئية، ولم تتسرب إلى عمق النظام الاجتماعي والاقتصادي؛ لأنها كانت مقيدة بحدود شرعية، وبأنماط ثقافية من الصعب تخطيها، ومحكومة بالحفاظ على قاعدة التوازن التي شكلت حجر الزاوية في ضمان استمرارية حكميهما. والمثير أن المولى إسماعيل بدا وكأنه أعاد إنتاج بعض ثوابت تجربة سلفه أحمد المنصور، على الرغم من كونه كان شديد الاطلاع على تفاصيلها¹⁰². ترى أيترجم الأمر رغبته في اقتفاء أثره، غير أن مبادراته اصطدمت بعوائق مشابهة، أم يدل ذلك على محاولته تجاوز ثغرات سياسة السلطان السعدي، لكن واقع الحال جعله لا يعمل إلا على إعادة إنتاجها بصيغ مغايرة؟

¹⁰¹ A. Kazancigil, « Théories de l'Etat... », *op. cit.*, p. 70.

¹⁰² ألف الوزير اليمحمدي كتاب « مدد التأيد » تناول فيه أحداثا تاريخية تعود إلى مرحلة الأمويين والعباسيين ثم السعديين، وقد أورد رسائل أحمد المنصور إلى محمد الشيخ المامون، مما يؤكد اطلاع المولى إسماعيل الواسع على تجربة سلفه، راجع: أحمد اليمحمدي، مدد التأيد في ترتيب المحفوظات والقايد...، م.س.د.

خاتمة

لم نكن نسعى إلى استباق خلاصات هذه الدراسة، حين تساءلنا في مقدمتها عن طبيعة الفائدة المنتظرة منها، بل توخينا من ذلك إثارة الانتباه إلى أهمية استحضار أبعاد السؤال في حد ذاتها، باعتبارها قاعدة لتناول موضوع مستعص استهدف البحث عن مظاهر الاستمرارية والتقطع في بنيات المخزن، من خلال إنجاز قراءة لها على مدى حكم سلطانين تركا بصماتهما في تاريخ المغرب الحديث، وأفرزت سياساتهما في محصلتها النهائية جملة من أوجه شبه، لا تلغي مع ذلك أوجه التباين، التي قد تختفي بدورها، أو يتم التقليل من حدتها تبعاً للسياق الذي وردت فيه.

خلصنا إلى أن المقومات الشخصية للسلطانين على اختلافها، انمحت أمام ممارستيها اللتين عكستا إصراراً أكبر على فرض إرادتيهما، الشيء الذي جعل الكتابات الرسمية تنتج خطاباً تمثلياً يتماشى مع مكانتيهما، ولا ينفصل عن ترسيخ قدسية المؤسسة السلطانية، التي راهنت لتأمين استمراريتهما على حضورين، أحدهما مادي قوامه الاستئثار بالمبادرة العسكرية من خلال تبني جيشين محترفين همهما الأساس تدعيم مركزة السلطة، وركيزته إدارة مخزنية خاضعة في مساطر عملها إلى بعدين يتجاوزهما ما هو ديني أخلاقي وما هو سياسي، تحولت معهما المهمة الإدارية إلى هبة ينعم بها السلطان على من يشاء، ويتحكم في مفاتيح تراتبيتها كما يشاء، واتخذت من الجباية الثقيلة ومن إعادة هيكلة المجال القبلي والحضري أولى أولوياتها الرئيسة.

والآخر حضور رمزي كشف تناول آلياته من جهة، عن مدى قدرة المخزن على استثمار الاحتفالات الرسمية في إبراز تفرد وتعالیه، وفي تكريس وجوده باعتباره مصدراً للعطاء يكافئ الأتباع، ويسعى إلى استقطاب المترددين. ومن جهة أخرى عن مدى تداخل الحمولة العسكرية للمواكب الرسمية مع الرغبة في إظهار الهيبة، التي عبرت عنها أيضاً عظمة المعمار

وشموخه، وما حملة في طياته من دلالة رمزية معبرة عن التفوق، ومجسدة لسلطة التحكم في المجال.

واستنتجنا من خلال الروابط التي جمعت المخزن بالقوى الدينية، أن تمسك جل العلماء بموقفهم الاحترازي من الانخراط في دوائر السلطة، قد حال دون التقريب بين تصوراتهم وبين الواقع الديني، وعبر عن صعوبة التوفيق بين الشريعة والسياسة، على الرغم من حرصهم على ممارسة أدوار الوساطة، والإدلاء بآرائهم في النوازل المعروضة عليهم، وهي آراء طبعت في الغالب الأعم بطابع احتجاجي مس قرارات هادفة إلى تقوية الهياكل السلطانية. وعكست محاولات السلطانين إرغام الزوايا على ولوج الحقل السياسي إما بالمواجهة أو بالتحالف، رغبتهما في مراقبة إشعاعها واحتواء قوتها المادية، واستثمار المكاسب المحققة من وراء أداورها، كما ظلت فئة الأشراف تمثل بالنسبة للمخزن قوة سياسية مكمل لسلطته، لكنها كامن وقابلة للتمظهر، إذا ما تم التغافل عن تحركاتها، أو تجاهل طموحات أقوى عناصرها.

وفي سياق البحث في بنيات المخزن، لاحظنا أن معضلة المشروعية ارتبطت في شكلها ومضمونها بعدم وجود قاعدة مضبوطة لتعاقب الحكم، في ظل تعدد الأمراء، وتباين مؤهلاتهم وطموحاتهم، وهو ما أفضى إلى تجذر مشكل انتقال السلطة في طبيعة سياسات السلطانين، اللذين تبنيا في توجهاتهما الاقتصادية بالمقابل إستراتيجية قائمة على الاحتكار، واستغلال تهافت التجار الأجانب، وسائرة في اتجاه مناقض لنمو فئة تجارية محلية بالمدن، بقيت تن تحت الهيمنة الشديدة للمخزن على أنشطتها، الذي سعى سعيا حثيثا بالدرجة الأولى إلى تقوية بنيانه، وامتلاك كل الوسائل والتقنيات الكفيلة ببلوغ ذلك.

وبعد مناقشة مفهوم المخزن، انتهينا إلى الإقرار بأهمية التروي في إطلاق نعت الدولة عليه، أو استثمار حمولاته الدلالية بشكل ضيق في إسقاط تعريف معين مستمد من وظائفه المتعددة، التي كان يتداخل فيها السياسي بالديني والمادي بالرمزي، وهو ما يفرض التعامل معه بصفته بنية خاصة تنطلق من السلطان وتعود إليه. كما استخلصنا عبر تناول الأسس السياسية للسلطانين، والصور التي ترسخت في أذهان الناس عنهما، مدى ارتكاز تصوراتهما في الحكم على الحفاظ على هيئتهما أمام خدامهما ورعاياهما على السواء. ومن ثم شكلت السرية والحزم والحذر أبرز الآليات التي تمت المراهنة عليها، لضمان الاستمرارية، ولتثبيت صور العظمة التي تثير الخوف في النفوس. وختمنا بالوقوف عند المستويات المختلفة للهشاشة التي مثلت عائقا أمام الاستفادة من حصيلة التراكمات المحققة، من خلال رصد

الكوارث الطبيعية بوصفها عائقاً بنوياً أسهم في تعقد الأوضاع الاقتصادية، والوقوف عند معضلة انتقال السلطة، ودور الآلة العسكرية المحترفة في عدم توفير الأرضية المساعدة لتنظيم إدارة قادرة على الإسهام في نمو المجال الاقتصادي، وتسهيل مهام النخبة التجارية، وعبر تتبع مظاهر فشل المخزن في لعب دور المنظم، وعجزه عن جعل هيئته السياسية بمختلف تجلياتها، تتخذ طابعاً مؤسسياً وليس شخصياً.

وما يظهر من خلال مقارنة مخزن أحمد المنصور السعدي بمخزن المولى إسماعيل العلوي، انطلاقاً من الوثائق والكتابات الإخبارية، أن هناك ثوابت مشتركة تدل على مفهوم الاستمرارية في نظام الحكم بالمغرب، وإن تغيرت الأسر المالكة، وهو ما يعبر عن «وجود سياسة عامة للدولة المغربية، يرسمها ويوضحها الكتاب والوزراء، فسياسة إسماعيل لا تفهم في إطار الدولة العلوية وحدها، ولا بد من النظر إلى ما حاوله المنصور وإن لم يحالفه التوفيق»¹⁰³.

وترجمت التدابير المتخذة من قبل السلطانين، في مجملها، إصرارهما على فرض الأمن والاستقرار، لكن حصيلة سياستهما لم تقض إلا إلى إعادة إنتاج نقيضه¹⁰⁴. الأمر الذي أبان عن عدم استفادة الخلف من تراكم التجارب لدى السلف، وأكد أن السلطان العلوي، وإن حاول في حدود ضيقة تجاوز ثغرات أحمد المنصور، فإنه بقي وفيما في العمق لسياساته؛ نظراً لأنه لم يستطع بدوره تغيير الشروط التي ولدت تلك السياسات، بل اضطر إلى التعايش معها، مهما بدت محاولاته أكثر عزيمة، وأشد جراءة، ومن ثم توجت الحقب التي أعقبت وفاتيهما بفوضى عارمة، اعتبرها محمد المختار السوسي نتيجة مألوفة لكل حكم بني على الاستبداد¹⁰⁵.

لكن ذلك لا يعني أن حصيلتي تجربتي المخزن في عهد السلطانين متشابهتين في كل حيثياتهما، إلى الحد الذي أضحي فيه التاريخ وكأنه يعيد نفسه، بقدر ما أن نمطية الخطاب الإسطوغرافي هي التي يمكن أن توحى بتصور ينم عن التطابق، مع أن الثوابت وإن دلت على الاستمرارية في الممارسة، فقد أثارت الانتباه إلى محدودية توظيف أحداث الماضي للعبرة،

¹⁰³ عبد الله العروي، مجمل...، م.س.ذ.، ج. 3، ص. 83.

¹⁰⁴ M. Morsy, « Réflexion sur le système politique marocain », *op. cit.*, p. 119.

¹⁰⁵ محمد المختار السوسي، إيليج قديماً وحديثاً...، م.س.ذ.، ص. 32.

كما كان الحال عليه بأوروبا، لما نصح مثلاً الوزير بيرتان Bertin ملكه لويس الرابع عشر بالقول: « يجب أن أشرح لجلالتكم... أن التاريخ من بين العلوم التي رأى فيها ملوكنا من فرانسوا الأول أنها جد مهمة لفائدة حكمهم... إن هذا العلم يرتبط بنظيره المتعلق بالتشريع، لأنه يقدم للمشروع الأحداث التي يمكن أن تعلمه، والأدوات التي يمكن أن تساعد »¹⁰⁶.

من هذه الزاوية نتساءل، هل عاشت وقائع الماضي في ذاكر السلطانين ومؤسسة المخزن، وما هي درجات وعيها بها؟ سؤال مهم وصعب في آن واحد، يتوقف التفكير في أبعاده على ضرورة مقارنة حقيبتيهما بحقب لاحقة تقاطعت واختلفت بشكل أو بآخر، عن المسار الذي سارت فيه تجربتهما. فلا أحد يجادل في حجم الإغناء الذي ستسهم به، في النقاشات الدائرة إلى وقتنا الراهن حول الموضوع، دراسات مماثلة لمخزن سيدي محمد ابن عبد الله والحسن الأول من جهة، والمخزن العزيزي والحفيظي من جهة ثانية، في أفق مقارنتها بما كان سائدا لدى الصفويين والعثمانيين والملوك المطلقة بأوروبا.

¹⁰⁶ Mémoire de Bertin à Louis XVI sur les dépôts et collection des chartes et les travaux qui en dépendent, Collection, Moreau, n° 309, Folio 102, cité par, Blandine Barret-Kriegel, « L'Etat aux XVII^e-XVIII^e siècles... », *op. cit.*, p. 33.

1. المصادر والمراجع العربية

المصادر المخطوطة

- ابن الحاج (أحمد بن حمدون)
الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن، مخطوط، خ. ح، رقم 12184، ثمانية أجزاء.
- ابن عبد السلام (العربي)
الدرة المكنونة الغالية في وصف أهل الدولة العلوية العالية، مجموع مخطوط، خ. ح، رقم 12018.
- ابن العياشي (محمد المكناسي)
زهر البستان في نسب أحوال سيدنا المولى زيدان، مخطوط، خ. ع، رقم 2152 د.
- الجنابي (مصطفى)
البحر الزخار والعيلم التيار، مخطوط، خ. ح، رقم 1507.
- الزباني (أبو القاسم)
تحفة النبهاء في التفريق بين الفقهاء والسفهاء، مخطوط، خ. ع، رقم ك 241.
- حوالات تارودانت، خ. ع، رقم 145.
- السوسي (محمد المختار)
مترعات الكؤوس في آثار طائفة من أدباء سوس، مخطوط، خ. ح، رقم 12647.
- ظهائر إسماعيلية، خ. ح، المحفوظة رقم 1، من 737 هـ إلى عهد المولى إسماعيل.
- ظهائر منصورية وإسماعيلية، مديرية الوثائق الملكية.
- كتاب أحمد المنصور لأهل فاس يخبرهم بفتح بلاد السودان، خ. ح، رقم 1622.

- مجهول،
- تاريخ مراكش وملوكها، مخطوط، خ.ع، الرباط، رقم 970.
- مجموع مخطوط، خ.ع، رقم 2286 ك.
- مجموع تقايد تاريخية، خ.ح، رقم 12352.
- مجموع مخطوط، خ.ح، رقم 12584.
- مجموعة رسائل سعدية، خ.ع، 278 ك.
- محفظة أحمد المنصور 1578-1603م، خ.ح.
- مخطوط في الأنساب خ.ح، رقم 12596.
- المرابي (أحمد)
- تحفة الإخوان ومواهب الامتتان في مناقب سيدي رضوان، مخطوط، خ.ع، رقم 154 ك.
- المقصد السامي في التعريف بالشيخ أبي عباس أحمد بن الحسن الحمومي وشيخه مولاي التهامي، ضمن؛ مجموع مخطوط، خ.ع، رقم 2309 ك.
- المرغيتي (محمد بن سعيد)
- الإشارة في تدبير الإمارة، مخطوط، خ.ح، رقم 5708.
- المولى عبد الحفيظ
- داء العطب قديم، مخطوط، خ.ح، رقم 12160.
- ميكروفيلم، خ.ع، رقم 23.
- اليعمدي (أحمد)
- مدد التأيد في ترتيب المحفوظات والتقايد، مخطوط، خ.ع، رقم 11535.
- اليصلوتي (أبو الحسن العثماني)
- سنا المهدي إلى مفاخر أبي العباس اليعمدي، مخطوط خ.ح، رقم 521.
- وثائق الأرشيف العام لسيমানكاس

Archivo General de Simancas, (Valladolid), Espagne :

Seccion Estado : Legajos : 163, 166, 170, 174, 179, 184, 194, 200, 492,

493.

Seccion Guerra antigua : Legajo 398.

وثائق الأرشيف الوطني الهولندي لاهاي:

• **Archives des Etats généraux, Lahaye, Staten Generaal, 1550-1796.**

سلسلة الأقاليم المتحدة رقم: 1.01.08-1.01.04

وثائق الأرشيف الفرنسي:

• **Archives de la Bibliothèque Nationale de France :**

- La Gazette de France.
- Nouvelles Acquisitions.
- Le journal de saint-Olon.

• **Archives des affaires étrangères, Paris B¹ 828, correspondances consulaires, Maroc, 1706-1709, tome IV.**

المصادر والمراجع العربية المطبوعة

الكتب

• إبراهيم (فؤاد)

الفقيه والدولة، تطور الفقه السياسي الشيعي، بحث فقهي تاريخي، بيروت، دار الكنوز الأدبية، الطبعة الأولى، 1998.

• ابن خلدون (عبد الرحمن)

المقدمة، تحقيق أحمد طاهر، القاهرة، دار الفجر للتراث، الطبعة الأولى، 2004.

• ابن زيدان (عبد الرحمن)

إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، خمسة أجزاء، الدار البيضاء، مطابع إديال، الطبعة الثانية، 1990.

المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف، تحقيق عبد الهادي التازي، الدار البيضاء، مطابع إديال، الطبعة الأولى، 1993.

العز والصولة في معالم نظم الدولة، جزآن، الرباط، المطبعة الملكية، 1962.

• ابن عزوز (محمد حكيم)

مساهمة رباط تازروت في معركة وادي المخازن، الرباط، مطبعة الساحل، 1989.

- ابن عسكر (محمد الحسني الشفشاوني)
دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976.
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين)
لسان العرب، بيروت، دار لسان العرب، 1970.
- أكنسوس (أبو عبد الله محمد بن أحمد)
الجيش العرمم الخماسي في دولة مولانا علي السجلماسي. جزآن، تحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، بدون تاريخ.
- إلياد (مرسيا)
مظاهر الأسطورة، ترجمة نهاد خياطة، دمشق، دار كنعان، الطبعة الأولى، 1991.
- ابن أبي زرع (علي الفاسي)
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مراجعة عبد الوهاب بنمنصور، الرباط، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، 1999.
- ابن القاضي (أحمد بن محمد المكناسي)
المنتقى المقصور على مآثر الخليفة أبي العباس المنصور، تحقيق محمد رزوق، الرباط، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، 1986.
- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط، دار المنصور، 1973.
- أفا (عمر)
النقود المغربية في القرن الثامن عشر، الرباط، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، 1993.
- الإفراي (محمد الصغير)
روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، الرباط، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، 1995.
- نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، صحح عباراته التاريخية هوداس، (الرباط، مكتبة الطالب، الطبعة الثانية، د.ت.).
- صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر، تحقيق عبد المجيد خيالي، الدار البيضاء، مركز التراث الثقافي المغربي، الطبعة الأولى، 2004.

• بادى (برتران)

الدولتان، السلطة والمجتمع في الغرب وفي بلاد الإسلام، ترجمة لطيف فرج، القاهرة، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1992.

• بروفنسال (ليفي)

مؤرخو الشرفاء، ترجمة عبد القادر الخلاصي، الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977.

• البزاز (محمد الأمين)

تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1992.

• بنحادة (عبد الرحيم)

المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر، زغوان، مؤسسة التميمي، 1998.

العثمانيون، المؤسسات والاقتصاد والثقافة، الدار البيضاء، اتصالات سبو، الطبعة الأولى، 2008.

• بنسعيد (سعيد)

الفقه والسياسة، بيروت، دار الحداثة، الطبعة الأولى، 1982.

• بنعدادة (أسية)

الفكر الإصلاحى في عهد الحماية (محمد بن الحسن الحجوي نموذجاً)، الدار البيضاء، المركز الثقافى العربى، الطبعة الأولى، 2003.

• بورديو (بيير)

الرمز والسلطة، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، الدار البيضاء، دار توبقال، سلسلة المعرفة الاجتماعية، الطبعة الثانية، 1990.

• بورقية (رحمة)

الدولة والمجتمع، دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب، بيروت، دار الطليعة، 1991.

- بوكاري (أحمد)
الزاوية الشرقاوية، زاوية أبي الجعد دورها الاجتماعي والسياسي، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1989.
- الإحياء والتجديد الصوفي في المغرب (1790-1912)، 3 أجزاء، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، 2006.
- البيدق (أبو بكر الصنهاجي)
أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط، دار المنصور، 1971.
- التابعي (محمد)
السفارات في الإسلام، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1988.
- التسافتي (عبد الله بن إبراهيم)
رحلة الوافد، تحقيق علي صدقي ءازايكو، بالقنيطرة، منشورات كلية الآداب، 1992.
- التمنارتي (عبد الرحمن بن محمد السوسي)
الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، تحقيق اليزيد الراضي، الدار البيضاء، منشورات مطبوعات السننيسي، الطبعة الأولى، 1999.
- التوفيق (أحمد)
المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، ايتولتان 1850-1912، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، أطروحات ورسائل، (الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية)، الطبعة الثانية، 1983.
- تيرمتلن (ماريا)
من تاريخ المغرب وحاضرتة الإسماعيلية: قصة الهولندية ماريا تيرمتلن **Maria Ter Meetelen** الأسيرة التي عاشت بمكناس العاصمة في النصف الأول من القرن 18، ترجمة ودراسة وتحقيق إدريس أبو إدريس، المحمدية، مطبعة فضالة، 1996.
- الحجري (أحمد بن القاسم)
ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق محمد رزوق، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1987.

- حجي (محمد)
الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، جزآن، المحمدية، مطبعة فضالة، 1977.
- حركات (إبراهيم)
التيارات السياسية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية، الدار البيضاء، مطبعة الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1985.
- الحساني (إبراهيم بن علي)
ديوان قبائل سوس في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي، تحقيق عمر آفا، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1989.
- الحسناوي (مصطفى)
فوكو والسياسة، منشورات مجلة اختلاف، الصخيرات، الطبعة الأولى، 2003.
- حمودي (عبد الله)
الشيخ والمريد، ترجمة عبد الحميد جحفة، الدار البيضاء، دار توبقال، الطبعة الأولى، 2000.
- خليل (فاطمة القبلي)
رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي: جمع وتحقيق ودراسة، جزآن، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1981.
- داود (محمد)
تاريخ تطوان، أربعة أجزاء، تطوان، مكتبة الناصر، 1959.
- دونديو دو فابر (جاك)
الدولة، ترجمة سموحي فوق العادة، بيروت، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، 1970.
- دي هنين (خورخي)
وصف الممالك المغربية، 1603-1613: مذكرات خورخي دي هنين، الرباط، معهد الدراسات الإفريقية، الطبعة الأولى، 1997.
- دي طوريس (ديككو)
تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الدار البيضاء، شركة النشر والتوزيع المدارس، 1988.

- الذهبي (نفيضة)
الزاوية الفاسية، التطور والأدوار حتى نهاية العهد العلوي الأول، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2001.
- روجرز (ت. ج)
تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900، ترجمة وتعليق يونان لبيب رزق، الدار البيضاء، دار الثقافة، الطبعة الأولى، 1981.
- الريفى (عبد الكريم بن موسى)
زهر الأكم، مساهمة في تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى عهد المولى عبد الله بن إسماعيل، دراسة وتحقيق، آسية بنعدادة، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، 1992.
- زيادة (خالد)
تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا، بيروت، رياض الرايس للكتب والنشر، الطبعة الأولى، 1983.
كاتب السلطان حرفة الفقهاء والمثقفين، بيروت، رياض الرايس للكتب والنشر، الطبعة الأولى، 1991.
- الزباني (أبو القاسم)
البستان الطريف في دولة مولاي علي الشريف، القسم الأول، تحقيق رشيد الزاوية، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، 1992.
الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب، باريس، هوداس، 1886.
تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب، تحقيق رشيد الزاوية، الرباط، وزارة الأوقاف، الطبعة الأولى، 2008.
- السعدي (عبد الرحمان)
تاريخ السودان، باريس، هوداس، 1981.
- السوسي (محمد المختار)
إيليغ قديما وحديثا، الرباط، المطبعة الملكية، 1966.
المعسول، عشرون جزءا، الدار البيضاء، مطبعة النجاح، 1962.
سوس العالة، المحمدية، مطبعة فضالة، 1960.

• الشابي (مصطفى)

النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، الرباط، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، 1995.

• شتراوس (كلود ليثي)

الأسطورة والمعنى، تعريب شاكر عبد الحميد، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، سلسلة المائة كتاب، الطبعة الأولى، 1986.

• الشاذلي (عبد اللطيف)

الحركة العياشية، حلقة من تاريخ المغرب في القرن السابع عشر، الرباط، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، 1982.

• الشراط (محمد ابن عيشون)

الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، دراسة وتحقيق زهراء النظام، الرباط، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، 1997.

• شقير (محمد)

تطور الدولة في المغرب، إشكالية التكوين والتمركز والهيمنة من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن 20، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، 2002.

• الضعيف (محمد)

تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق أحمد العماري، الرباط، دار المآثورات، الطبعة الأولى، 1986.

• الطاهري الجوطي (حمدون)

تحفة الإخوان ببعض مناقب شرفاء وزان، فاس، طبعة حجرية، 1906.

• عبد اللطيف (كمال)

في تشريح أصول الاستبداد: قراءة في الآداب السلطانية، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الأولى، 1999.

• العروي (عبد الله)

مفهوم التاريخ، ج. 2، المفاهيم والأصول، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1992.

مجلد تاريخ المغرب، ج. 3، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1999.
مفهوم الدولة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الخامسة، 1993.

• العلام (عز الدين)

الآداب السلطانية، دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي، سلسلة عالم المعرفة، عدد 324، فبراير 2006.

• عمالك (أحمد بن محمد)

جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية، من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي (1642-1907)، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، 2006.

• العمرى (محمد)

الإفراني وقضايا الثقافة والأدب في مغرب القرنين 17 و18، الدار البيضاء، الدار العالمية للكتاب، الطبعة الثانية، 1992.

• الغساني (محمد بن عبد الوهاب)

رحلة الوزير في افتكالك الأسير، تحقيق الفريد البستاني، العرائش، مؤسسة الجنرال فرانكو، 1940.

• الفاسي الفهري (محمد البشير)

قبيلة بني زروال: مظاهر حياتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، الرباط، مطبوعات المركز الجامعي للبحث العلمي، كلية الآداب، بيانات ومستندات، الجزء الثاني والعشرون، 1962.

• الفشتالي (عبد العزيز)

مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1972.

• الفكيكي (حسن)

المقاومة المغربية للوجود الإسباني بمليلية (1697-1859)، الرباط، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، 1997.

• فير Veyre (كابريل)

في صحبة السلطان، ترجمة عبد الرحيم حزل، الرباط، جذور للنشر، الطبعة الأولى، 2003.

- القادري (محمد بن الطيب)
نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، أربعة أجزاء، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط، مكتبة الطالب، 1977-1986.
- التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، الرباط، دراسة وتحقيق هاشم العلوي القاسمي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1983.
- القبلي (محمد)
مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، الدار البيضاء، دار توبقال، 1987.
- القدوري (عبد المجيد)
ابن أبي محلي ورحلته من خلال الإصليت الحفريت، الرباط، منشورات عكاظ، 1991.
- المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر: مسألة التجاوز، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2000.
- كنون (عبد الله)
رسائل سعدية، تطوان، معهد مولاي الحسن، 1954.
- محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني
سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني ومحمد حمزة بن علي الكتاني، الدار البيضاء، دار الثقافة، 2004.
- لوطورنو (روجي)
فاس قبل الحماية، جزآن، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986.
- مانتران (روبير)
تاريخ الدولة العثمانية، تعريب بشير السباعي، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1993.
- المجهول السعدي
تاريخ الدولة السعودية التكمدارتية، تحقيق عبد الرحيم بنحادة، مراكش، عيون المقالات، دار تينمل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1994.

- مجهول برتغالي
وصف المغرب أيام أحمد المنصور، تعريب محمد مزين وعبد الرحيم بنحاد، مراكش، دار تينمل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1995.
- مجهول
الرسالة الوجيزية إلى الحضرة العزيزية في علوم الخلافة، إعداد وتقديم أحمد الدغرني، الدار البيضاء، مطبعة المعارف، الطبعة الأولى، 1987.
- المحمدي (علي)
السلطة والمجتمع في المغرب، نموذج آيت باعمران، الدار البيضاء، دار توبقال، الطبعة الأولى، 1989.
- مذكور (إبراهيم)
معجم العلوم الاجتماعية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975.
- مزين (محمد)
فاس وباديتها: مساهمة في تاريخ المغرب السعدي، 1549-1637، جزآن، الرباط، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، 1986.
- مقر (محمد)
اللباس المغربي من بداية المرينيين إلى عهد الدولة السعدية، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، 2006.
- المقرري (أحمد بن محمد التلمساني)
روضة الأسر العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، الرباط، المطبعة الملكية، 1964.
- المكناسي (محمد بن حمزة)
الكوكب الأسعد في مناقب الشيخ سيدي علي بن أحمد، (مطبوع على طرة كتاب تحفة الإخوان للجوطي)، فاس، طبعة حجرية، 1906.
- المنصور محمد
المغرب قبل الاستعمار: المجتمع والدولة والدين، 1792-1822، تعريب محمد حبيدة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2006.

- المنصوري عثمان
التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر: مساهمة في تاريخ المغرب الاقتصادي، الرباط، منشورات
كلية الآداب، الطبعة الأولى، 2001.
- المنوني (محمد)
تاريخ الوراقة المغربية: صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة، الرباط،
منشورات كلية الآداب، 1991.
- المودن (عبد الرحمن)
البوادي المغربية قبل الاستعمار، إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، الرباط،
منشورات كلية الآداب، 1995.
- المولى إسماعيل
إلى ولدي المامون، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، الرباط، المطبعة الملكية، 1967.
- مويط Mouette (جرمان)
رحلة الأسير مويط، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الريصاني، مركز الدراسات والبحوث
العلوية، 1990.
- الناصري (أحمد بن خالد)
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تسعة أجزاء، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد
الناصر، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1954-1956.
- نجمي (عبد الله)
التصوف والبدعة بالمغرب: طائفة العكاكزة، ق. 16-17م، الرباط، منشورات كلية الآداب،
الطبعة الأولى، 2000.
- هامون (فيليب)
سميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بنكراد، الرباط، دار الكلام، 1990.
- هوركهايمر (ماكس)
بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية، ترجمة محمد علي اليوسفي، بيروت، دار التنوير، الطبعة
الأولى، 1981.

- الوزان (الحسن)
وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1983.
- الولاى (أحمد)
مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار، تحقيق عبد العزيز بوعصاب، الرباط، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، 1999.
- وندوس Windus (جون)
رحلة إلى مكناس، ترجمة زهراء إخوان، مكناس، منشورات جامعة المولى إسماعيل، 1993.
- الونشريسي (أبو العباس أحمد)
المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1981.
- الياسيني (أيمن)
الإسلام والدولة: حالة المملكة العربية السعودية، الدار البيضاء، دار الملتقى، الطبعة الثانية، 1999.
- (ياغي) إسماعيل أحمد
الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، الرياض، مكتبة العبيكان، الطبعة الثانية، 1998.
- يفوت (سالم)
حفريات الإستشراق، في نقد العقل الإستشراقي، بيروت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1989.
- اليوسي (الحسن بن مسعود)
القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم، تحقيق حميد حماني، الرباط، مطبعة شالة، الطبعة الأولى، 1998.
- المحاضرات، أعدها للطبع محمد حجي، الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976.

الأطروحات الجامعية

- آيت عدي (مبارك)
حملة أحمد المنصور الذهبي إلى بلاد السودان، مساهمة في إعادة الدراسة، أطروحة دكتوراه في التاريخ، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 2003.
- بريثويت Braithwaite (جون)
تاريخ الثورات في إمبراطورية المغرب بعد وفاة السلطان الراحل مولاي إسماعيل، ترجمة مينة مادي، رسالة د.د.ع. في التاريخ، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 2000.
- بكاج (رشيد)
القبيلة، الزاوية، المخزن، رسالة، د.د.ع. في السوسولوجيا، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 1994-1995.
- بنكرعي (حليمة)
مداخيل بيت مال المغرب في عهد السعديين، د.د.ع، مرقونة، كلية الآداب، الرباط، 1985.
- الإدريسي (الفقيه)
الحباية في عهد الدولة السعدية، رسالة، د.د.ع، مرقونة، فاس، كلية الآداب، 1995.
- الحيمر (محمد)
الجيش الدخيل في الدول الإسلامية، جيش العبيد والإنكشارية العثمانية، محاولة في المقارنة، أطروحة دكتوراه في التاريخ، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 1999-2000.
- جيش العبيد والدولة المغربية منذ التأسيس إلى سنة 1757، رسالة د.د.ع. في التاريخ، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 1997.
- شكري (عبد الرحيم)
العلوج بالمغرب خلال العهد السعدي، أطروحة دكتوراه في التاريخ، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 2000.
- عمراني (محمد)
الشرف والمجتمع والسلطة السياسية الشمال الغربي المغربي نموذجا، من القرن 16 إلى القرن 19م، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 2001.

- الفاسي (عبد الرحمان)
ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب، دراسة وتحقيق حفيظة الداوي، د.د.ع. في التاريخ، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 1992.
- مرزاق (محمد)
الشيخ محمد ابن أبي زيان وزاويته بالقنادسة، الدور الديني والثقافي والسياسي، رسالة د.د.ع. في التاريخ، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 1987-1988.
- المهناوي (محمد)
التنظيم العسكري وعلاقته بالسلطة والمجتمع في العهد العلوي الأول، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ، مرقونة، الجديدة، كلية الآداب، 1996.
- الهلالي (محمد ياسر)
مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين XIV-XV مساهمة في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي، أطروحة دكتوراه في التاريخ، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 2000.
- الناصري (محمد المكي)
الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة، تحقيق محمد الحبيب نوح، رسالة د.د.ع. في التاريخ، مرقونة، الرباط، كلية الآداب، 1988.

المقالات

- ابن عزوز (محمد حكيم)
« سبتة والمولى إسماعيل من خلال الوثائق الإسبانية »، ضمن مصادر تاريخ الدولة العلوية الشريفة، المؤسسون الأولون للدولة العلوية الشريفة، آثار وتراث منطقة تافيلالت: أعمال الدورة الأولى المنعقدة بالريصاني (1989)، الرباط، وزارة الثقافة، 1990، ص ص. 141-147.
- أركون (محمد)
« تحولات المقدس »، ترجمة كامل يوسف، مجلة نزوى، ع. 36، أكتوبر 2003، ص ص. 37-43.
- ابن تاويت (محمد)
« من زوايا التاريخ المغربي »، مجلة تطوان، ع. 7، 1962، ص ص. 87-147.

- « من زوايا التاريخ المغربي »، مجلة تطوان، ع. 8، 1963، ص ص. 23-95.
- « وثائق سعدية لم تنشر »، مجلة تطوان، ع. 3 و 4، 1958-1959، ص ص. 49-58.
- الإدريسي (الفقيه)
- « الحركة على عهد أحمد المنصور الذهبي: ملاحظات أولية »، مجلة أبحاث، ع. 33، 1994، ص ص. 58-75.
- برحاب (عكاشة)
- « مفهوم الحدود في الوثائق المغربية منذ احتلال الجزائر إلى 1912 »، ضمن المجالات الحدودية في تاريخ المغرب، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1999، ص ص. 89-99.
- بنعلي (إدريس)
- « الدولة وعملية إعادة الإنتاج الاجتماعي بالمغرب »، ضمن جدلية الدولة والمجتمع بالمغرب، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، الطبعة الثانية، 1994، ص ص. 213-231.
- بوطالب (إبراهيم)
- « البحث الكولونيالي حول المجتمع المغربي في الفترة الاستعمارية: حصيلة وتقييم »، ضمن البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقييم، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1989، ص ص. 107-143.
- التريكي (فتحي)
- « مفهوم الدولة في الحقل الفلسفي المعاصر »، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع. 24، 1983، ص ص. 45-54.
- جادور (محمد)
- « الديبلوماسية السعدية، الديبلوماسية العلوية، استمرارية أم قطيعة: أحمد المنصور والمولى إسماعيل نموذجا »، ضمن ندوة التاريخ والدبلوماسية، قضايا المصطلح والمنهج، تنسيق عبد المجيد القدوري، منشورات كلية الآداب بالرباط، 2003، ص ص. 223-253.
- معلمة المغرب، المجلد 21، سلا، مطابع سلا، 2005، ص ص. 7055-7056.
- جلاب (حسن)
- « ظواهر سعدية في توقير واحترام شيوخ الزاوية البوعمرية. عمراش »، مجلة دار النيابة، ع. 21، ص ص. 13-54.

« مخطوط درر الحجال »، مجلة المناهل، ع. 36، 1987، ص ص. 13-22.

• حجي (محمد)

« المؤسسات الدينية بالمغرب في القرنين 16 و 17 م »، مجلة المناهل، ع. 18، 1980، ص ص. 112-128.

• حر كات (إبراهيم)

« ابن عائشة أمير البحر في عهد المولى إسماعيل »، مجلة دعوة الحق، ع. 4، 1969، ص ص. 126-129.

« أحمد المنصور الذهبي كرجل دولة »، مجلة دعوة الحق، ع. 8، 1978، ص ص. 57-80.
« الأجهزة السياسية المركزية لدى المخزن السعدي »، مجلة كلية الآداب، الرباط، ع. 11، 1985، ص ص. 7-46.

• حمودي (عبد الله)

« الانقسامية، التراتب الاجتماعي، السلطة السياسية والولاية: تأملات حول مقولات كلنر »، ترجمة محمد البزاز والتمسماني خلوق، مجلة دار النيابة، ع. 5، 1985، ص ص. 38-55.

• حميش (بنسالم)

« في سيميائية الاستبداد أو ابن خلدون أمام الدولة المغاربية »، ضمن جدلية الدولة والمجتمع بالمغرب، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، الطبعة الثانية، 1994، ص ص. 167-189.

• الخطابي (محمد العربي)

« أمير سعدي في خدمة البلاط الإسباني »، مجلة المناهل، (الجزء الأول) ع. 13، 1978، ص ص. 68-96، (الجزء الثاني) ع. 14، 1979، ص ص. 53-70.

• الخميلشي (عبد العزيز)

« زاوية تمجروت والمخزن (1642-1914) »، ضمن ندوة الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، تنسيق نفيسة الذهبي، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1997، ص ص. 121-173.

• الذهبي (نفيسة)

« المجتمع الفاسي خلال العهد السعدي: التراتبية والصراع »، مجلة أمل، ع. 18، أكتوبر 1995، ص ص. 60-73.

• الراهب خوان بوتيسستا

«مولاي عبد الملك، تعريب آمنة اللوه»، مجلة البحث العلمي، ع. 34، 1984، ص ص. 113-129.

• رزوق (محمد)

«العلاقات المغربية الإسبانية خلال القرن 16م: العهد السعودي الأول نموذجاً»، ضمن دراسات في تاريخ المغرب، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، 1991، ص ص. 5-16.

«الجهاد البحري في عهد المولى إسماعيل: منطقة مصب أبي رقراق نموذجاً»، ضمن مصادر تاريخ الدولة العلوية الشريفة، المؤسسون الأولون للدولة العلوية الشريفة، آثار وتراث منطقة تافيلالت: أعمال الدورة الأولى المنعقدة بالريصاني (1989)، الرباط، وزارة الثقافة، 1990، ص ص. 148-152.

«مسألة الأندلس في عملية فتح السودان خلال عصر أحمد المنصور السعودي»، ضمن المغرب وإفريقيا في بدايات العصر الحديث، الدار البيضاء، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، سلسلة ندوات ومناظرات، 1995، ص ص. 21-32.

• زمامة (عبد القادر)

«مع أبي الحسن التمكروتي في رحلته إلى القسطنطينية»، مجلة المناهل، ع. 25، 1982، ص ص. 221-236.

• زيادة (خالد)

«العلماء وتجربة التنظيمات في القرن 19»، مجلة الاجتهاد، ع. 5، 1989، ص ص. 27-57.

• سيكار Cigar (نورمان)

«البنية المجتمعية الاقتصادية ونشوء بورجوازية حضرية في المغرب قبل الاستعمار»، ترجمة محمد نجمي الروداني، مراجعة محمد معتصم، الرباط، مجلة كلية الآداب، ع. 20، 1995، ص ص. 151-203.

• شقور (عبد السلام)

«الشرفاء العلميون في ظل السلطان المولى إسماعيل»، ضمن مصادر تاريخ الدولة العلوية الشريفة، المؤسسون الأولون للدولة العلوية الشريفة، آثار وتراث منطقة تافيلالت: أعمال

الدورة الأولى المنعقدة بالريصاني (1989)، الرباط، وزارة الثقافة، 1990، ص ص. 235-249.

• شقير (محمد)

« إيوايات الشرعنة السياسية: النظام السياسي المغربي كنموذج »، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، ع. 4، خريف 1987، ص ص. 52-96.

• غولد شليغر (ألن)

« نحو سيمياء الخطاب السلطوي »، تعريب مصطفى كمال، مجلة بيت الحكمة، ع. 5، 1987، ص ص. 135-147.

• القدوري (عبد المجيد)

« الوثائق المغربية، الوثائق الأجنبية: تكامل واختلاف »، ضمن ندوة المغرب وهولندا، الرباط، منشورات كلية الآداب، سلسلة ندوات مناظرات رقم 8، 1988، ص ص. 31-41.

• القدوري (عبد المجيد) والمجاهد (الحسين)

« صورة السودان في الخطاب التاريخي المغربي خلال القرن XVI: نموذج مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا »، ضمن التاريخ واللسانيات: النص ومستويات التأويل، تنسيق عبد الأحد السبتي، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1992، ص ص. 27-35.

• كليمان (كاترين ب)

« الخيالي، الرمزي، الواقعي »، مجلة بيت الحكمة، ع. 8، نونبر 1988، ص ص. 22-34.

• كولفن (ج) (J. Goulven)

« بعثة برتغالية إلى بلاط مراكش خلال القرن السابع عشر »، تعريب جواد المهدي، مجلة البحث العلمي، ع. 33، 1982، ص ص. 127-139.

• المنصور (محمد)

« الضغوط العثمانية وأثرها على تحرير الثغور المغربية المحتلة من خلال حالة طنجة »، مجلة دار النيابة، ع. 5، 1985، ص ص. 27-32.

« تصوف الشرفاء: الممارسة الدينية والاجتماعية والسياسية للزاوية الوزانية من خلال مناقبها »، الرباط، ندوة التاريخ وأدب المناقب، 1988، ص ص. 15-27.

معلمة المغرب، المجلد 10، سلا، مطابع سلا، 1998، ص ص. 3386-3387.

• المنوني (محمد)

« حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثار », مجلة دعوة الحق، ع. 2 و 3، 1973، ص 130-153.

• المودن (عبد الرحمن)

« التوترو والانفراج في علاقات البادية والمدينة في مغرب ما قبل الاستعمار: فاس وتازة وأريافهما بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر », ضمن ندوة تطور العلاقات بين البوادي والمدن في المغرب العربي، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1988، ص ص. 37-48.

• عمراني (محمد)

معلمة المغرب، المجلد 10، سلا، مطابع سلا، 1998، ص ص. 3388.

• هوكس (ترنس)

« مدخل إلى السيمياء », تعريب مصطفى كمال، مجلة بيت الحكمة، ع. 5، أبريل 1987، ص 107-134.

المصادر والمراجع الأعجمية

Les ouvrages

• Abitbol Michel,

Tombouctou et les Arma. De la conquête marocaine du Soudan nigérien en 1591 à l'hégémonie de l'Empire Peulh du Macina en 1833, Paris, Maisonneuve et Larose, 1979.

• Agnouché Abdellatif,

Histoire politique du Maroc : pouvoir, légitimités et institutions, Casablanca, Afrique Orient, 1987.

• Ayache Germain,

Etudes d'histoire marocaine, Rabat, Soc. Marocaine des éditeurs réunis, 1979.

• Badie Bertrand,

Culture et politique, Paris, Economica, 3^e édition, 1993.

• Balandier George,

Anthropologie politique, Paris, P.U.F, 1967.

Le détour : Pouvoir et modernité, Paris, Fayard, 1985.

• **Barrucand Marianne,**

L'architecture de la qasba de Moulay Ismail à Meknès, Rabat, Ministère d'Etat chargé des affaires culturelles, (Etudes et travaux d'archéologie marocaine, vol. 6), 1976

• **Belhamissi Moulay,**

Histoire de la marine algérienne (1516-1830), Alger, Entreprise Nationale du Livre 2^e édition, 1986.

• **Benkheira Mohamed Hocine,**

Islam et interdits alimentaires : juguler l'animalité, Paris, PUF, 2000

• **Bennassar Bartolomé et Lucile,**

Les chrétiens d'Allah : l'histoire extraordinaire des renégats, XVI^e-XVII^e siècles, Paris, Perrin, 1989.

• **Berque Jacques,**

Al-Youssi : problèmes de la culture marocaine au XVII^e siècle, Paris/Lahaye, Mouton, 1958.

Ulémas fondateurs insurgés du Maghreb, XVII^e siècle, Paris, Sindibad, 1982.

• **Berthier Paul,**

Les anciennes sucreries du Maroc et leurs réseaux hydrauliques, 2 tomes Rabat, Centre national de recherche scientifique, 1966.

• **Bloch Marc,**

Les rois thaumaturges : étude sur le caractère surnaturel attribué à la puissance royale particulièrement en France et en Angleterre, Paris, Gallimard, 1983.

• **Blockmans Wim,**

Histoire du pouvoir en Europe : peuples, marchés, états, Anvers, Fonds Mercator, 1997.

• **Bourdé Guy et Martin Hervé,**

Les Ecoles Historiques, Paris, Seuil, 1983.

• **Braudel Fernand,**

La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, 2 tomes, Paris, Armand Colin, 1966.

• **Brignon Jean et autres,**

Histoire du Maroc, Paris, Hatier, 1990.

• **Busnot Dominique,**

Histoire du règne de Moulay Ismael, Roy du Maroc, Fez, Tafilelt, Souz : de la révolte et fin tragique de plusieurs de ses enfants & de ses femmes, Rouen, G.

Behourt, 1714.

• **Castries H-de,**

Moulay Ismail et Jacques II, une apologie de l'islam par un sultan du Maroc, Paris, Ernest Leroux, 1903.

• **Chauvel Germain,**

Les notions d'Etat et de nationalité au Maroc, Casablanca, Librairie Farairre, 1937.

• **Chelhod Joseph,**

Les structures du sacré chez les Arabes, Paris, Maisonneuve et Larose, 1964.

• **Cherifi Rachida,**

Le makhzen politique au Maroc hier et aujourd'hui, Casablanca, Afrique-Orient, 1988.

• **Clastres Pierre,**

La Société contre l'Etat, recherche d'anthropologie politique, Paris, Minuit, 1974.

• **Cotteret Jean-Marie,**

Gouvernants et gouvernés, Paris, PUF, 1973.

• **Cour Auguste,**

L'établissement des dynasties des chérifs au Maroc et leurs rivalité avec les Turcs de la Régence d'Alger (1509-1830) Paris, Ernest Leroux, 1904

• **Dakhliia Jocelyne,**

Le divan des rois, le politique et le religieux dans l'islam, Paris, Aubier, 1998.

• **Detienne Marcel,**

Comparer l'incomparable, Paris, Seuil, 2009.

• **Deverdun Gaston,**

Marrakech des origines à 1912, 2 vol., Rabat, Editions techniques nord-africaines, 1959.

• **Domenach Jean- Marie,**

Approches de la modernité, Palaiseau et Paris, Ecole polytechnique, 1986.

• **Doutté Edmond,**

Le Sultanat marocain, Paris, A. Davy, 1909.

• **Dragues George,**

Esquisse d'Histoire religieuse du Maroc : confréries et zaouïas, Paris, Peyronnet et Cie Paris, 1951.

- *Enciclopedia de Historia de España*, dirigida por Miguel Artola, Madrid, Alianza Editorial, 1988-1995.
- *Encyclopédie de l'islam*, nouvelle édition, tome 1, Paris, Maisonneuve et Larose, 1975, 1978.
- **Elias Norbert**,
La société de cour, Paris, Flammarion, 1985.
- **Lefebvre Henri**,
De l'Etat. Tome 2, De Hegel à Mao par Staline : la théorie marxiste de l'Etat, Paris, Union générale d'éditions, 1976.
- **Fumey Eugène**,
Choix de correspondances marocaines pour servir à l'étude du style épistolaire administratif employé au Maroc : 50 lettres officielles de la cour chérifienne, Paris, Maisonneuve, 1903.
- **Genet J. P.**,
La genèse de l'Etat moderne, culture et société politique en Angleterre, Paris, PUF, 2003.
- **Godelier Maurice**,
L'énigme du don, Paris, Fayard, 1996.
- **Halbwachs Maurice**,
La mémoire collective, édition critique établie par Gérard Namer, Paris, Albin Michel, 1997.
- **Jamous Raymond**,
Honneur et baraka : les structures sociales traditionnelles dans le Rif, Paris, La Maison des sciences de l'homme, 1981.
- **Geertz Clifford**,
Savoir local Savoir global, les lieux du Savoir, trad. D. Paulme, Paris, P.U.F, 1986.
- **La Veronne Chantal de**,
Vie de Moulay Ismail, roi de Fès et de Maroc d'après Joseph de Léon, 1708-1728, Paris, Librairie orientale Paul Geuthner, 1974.
- **Lagroye J.**,
La légitimité, in Madeleine Grawitz et Jean Leca (dir.), *Traitement politique, t. I, La science politique, science sociale, l'ordre politique*, Paris, PUF, 1985.

• **Lahbabi Mohamed,**

Le gouvernement marocain à l'aube du XX^e siècle, 2^e édition, Casablanca, Editions maghrébines, 1975.

• **Laroui Abdellah,**

Histoire du Maghreb : un essai de synthèse, Paris, F. Maspero, 1970.

Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912), Casablanca, Centre culturel arabe, 1993.

• **Lavisse Ernest,**

Histoire de France, tome 7, 1^e partie, (1643-1685), Paris, Hachette et Cie, 1911.

• **Le Goff Jacques,**

Histoire et mémoire, Paris, Gallimard, 1988.

• **Le Roy Ladurie Emmanuel,** avec la collaboration de J. F. Fitou,

Saint Simon ou le système de la cour, Paris, Fayard, 1997.

Le territoire de l'Historien, Paris, Gallimard, 1973.

• **Lewis Bernard,**

Le langage politique de l'islam, traduit par Odette Guitard, Paris, Gallimard, 1988.

• **Martin A.-G.-P.,**

Quatre siècles d'histoire marocaine : au Sahara de 1504-1902, au Maroc de 1894 à 1912, Paris, Félix Alcan, 1923.

• **Marrou Henri- Irénée,**

De la connaissance historique, Paris, Seuil, 1954.

• **Maxange Defontin,**

Le Grand Ismaïl, empereur du Maroc, imprimerie du palais, Paris, Marpon, 1929.

• **Meunié D. Jacques,**

Le Maroc saharien des origines au XVI^e siècle, Paris, Librairie Klincksieck, 1982.

• **Michels Nicolas,**

Une économie de subsistance : le Maroc précolonial, 2 vol., Le Caire, Institut français d'archéologie orientale, 1997.

• **Montagne Robert,**

Les Berbères et le makhzen dans le sud du Maroc : essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires, groupe chleuh, Paris, F. Alcan, 1930.

• **Morsy Magali,**

La relation de Thomas Pellow : une lecture du Maroc au XVIII^e siècle, Paris, Éd. Recherche sur les civilisations, 1983.

• **Mousnier Roland,**

Monarchies et royautés de la préhistoire à nos jours, Paris, Perrin, 1989.

• **Nekrouf Younés,**

Une amitié orageuse : Moulay Ismail et Louis XIV, Paris, Albin Michel, 1987.

• **Nicolson Sir Harold,**

Diplomatie, traduit de l'anglais par Petronella Armstrong, (Histoire et société d'aujourd'hui), Newchatel, La Baconnière, & Paris, La Colonne Vendôme, Lausanne, les presses des imprimeries réunies, 1948.

• **Pascon Paul,**

Le Haouz de Marrakech, 2 vol., Rabat, Éditions marocaines et internationales, 1977.

• **Penz Charles,**

Les rois de France et le Maroc, 2^e série : de Marie de Médicis à Louis XIV, Casablanca, A. Moynier, 1947.

• **Preclin Edmon & Tapié Victor- L.,**

Le XVII^e siècle, monarchies centralisées (1610-1715), 2^e édition, Paris, P.U.F, 1949.

• **Pritchard E.E.Evans,**

Les anthropologues face à l'histoire et à la religion, traduit de l'anglais par Anne et Claude Rivière, Paris, PUF, 1974.

• **Propp Vladimir,**

Morphologie du conte, traduction française, Paris, Seuil, 1970.

• **Reynier, Antoine**

L'ancien maghzen, 1550-1912 : conférence donnée par M. le contrôleur civil Reynier [pour] la Direction générale des affaires indigènes, Rabat, Publications de la Résidence générale de France au Maroc, 1930.

• **Ricard Robert,**

Etudes hispano-africaines, Tetuan, Instituto Général Franco, imprimerie du Majzen, 1956.

• **Rosenberger Bernard,**

Société, pouvoir et alimentation : nourriture et précarité au Maroc précolonial, Rabat, Alizés, 2001.

• **Sagnac Philippe, et Léger A.de Saint,**

Louis XIV (1661-1715), Paris, PUF, 1949.

• **Saldanha Antonio de,**

Chronique d'Al-Mansour sultan du Maroc (1578-1603), Dias Farinha (Ed. scientifique) ; Léon Bourdon (trad.), Lisboa, Instituto de investigação científica tropical, 1997.

• **Senellart Michel,**

Les arts de gouverner : du regimen médiéval au concept de gouvernement, Paris, Seuil, 1995.

• **Serfaty Nicole S.,**

Les courtisans juifs des sultans marocains : hommes politiques et hauts dignitaires, XIII^e-XVIII^e siècles, Saint-Denis, Editions Bouchène, 1999.

• **Sources Inédite de l'histoire du Maroc**, première série, Dynastie Saâdienne, deuxième série, Dynastie Filaliène.

Castries, Henry de (Comte), *S.I.H.M*, 1^e série, dynastie saâdienne (1530-1660), Archives et bibliothèques de France. (Paris, 1905-1911, 3 vols.) Tome I, Paris, Ernest Leroux, 1905. Tome II, Paris, 1909. Tome III, Paris, 1911.

Castries, Henry De (Comte), Cénival P. De et Cossé Brissac P. De. *S.I.H.M*, 2^e série, dynastie alaouite. Archives et bibliothèques de France. (Paris, 1922-1953, 5 vols.) Tome II, Paris, 1924. Tome III, Paris, 1927. Tome V, Paris, 1953.

Castries, Henry de (Comte), Cénival P. De et Cossé Brissac P. De.

1^e série, dynastie saâdienne. Archives et bibliothèques d'Angleterre. (Paris & Londres, 1918-1935, 3 vols.) Tome I, Paris, 1918. Tome II, Paris, 1925. Tome III, Paris, Geuthner, 1936.

Castries, Henry de (Comte), *S.I.H.M*, 1^e série, dynastie saâdienne (1530-1660) Archives et bibliothèques des Pays-Bas, (Paris, 1906-1923, 6 vols.) Tome I, Paris, 1906.

Castries, Henry de (Comte), Ricard et La Véronne C. De. 1^e série, dynastie saâdienne. Archives et bibliothèques d'Espagne, (Paris, 1921-1956, 2 vols.)

• **Tilly Charles,**

Les révolutions européennes : (1492-1992), trad. de l'anglais par Paul Chemla, Paris, Seuil, 1993.

• **Valensi Lucette,**

- *Fables de la mémoire : la glorieuse bataille des trois rois*, Paris, Seuil, 1992.

• **Vatikiotis P-J.,**

L'islam et l'Etat, trad. de l'anglais par Odette Guitard, Paris, Gallimard, Le Débat, 1992.

• **Veyne Paul**

Comment on écrit l'histoire, Paris, Seuil, 1971.

• **Weber Max,**

Le savant et le politique, Paris, Plon, 1959.

Les thèses universitaires

• **Abouelwafaa Malika,**

La course salétine et ses conséquences sur les relations franco-marocaines, thèse de 3^e cycle en histoire, inédite, Lyon III, 1999-2000.

• **Lesne Marcel,**

Histoire d'un groupement berbère : les Zemmour, thèse dactylographiée, Paris, Faculté des lettres et sciences humaines, 1959.

• **Roos Gilbert,**

Relations entre le gouvernement royal et les juifs du nord-est de la France au XVII^e siècle, thèse de doctorat en histoire, inédite, Paris IV, Sorbonne.

• **Samuel Nicole,**

La méthode comparative dans l'histoire des sciences sociales, thèse de 3^e cycle, inédite, Paris IV, Sorbonne, 1985.

Les colloques

• **Aymard Maurice et Romani Marzio A. (dir.),**

La cour comme institution économique, XII^e congrès international d'histoire économique, Séville-Madrid, 24-28 août, 1998, Paris, La Maison des sciences de l'homme, 1998.

• **Balard Michel et Ducellier Alain (dir.),**

Coloniser au Moyen Âge, Paris, Armand Colin, 1995.

• **Cullen et F.Furet L. M. (dir.)**

Irlande et France XVII^e-XX^e siècles - pour une histoire rurale comparée : actes du premier colloque franco-irlandais d'histoire économique et sociale, Dublin [1977], Paris, Ed. de l'Ecole des hautes études en sciences sociales, 1980.

• **El Moudden, Abderrahman (coord.)**

Le Maghreb à l'époque ottomane, Rabat, Faculté des lettres, 1995

• **Fragonard Marie- Madeleine et Peronnet Michel (dir.)**

Tout pouvoir vient de Dieu (St Paul. Rom. XIII 2), actes du VII^e colloque Jean Boisset, Montpellier, Sauramps, 1993.

• **Kaddouri, Abdelmajid (coord.)**

Mahdisme, crise et changements dans l'histoire du Maroc : actes de la table

ronde organisée à Marrakech du 11 au 14 février 1993, Rabat, Faculté des lettres, 1994.

• **Le Roy Ladurie, Emanuel (dir.),**

Les Monarchies, séminaire de l'Ecole pratique des hautes études, Paris, PUF, 1977.

• **Morel H. (dir.)**

Réflexions idéologiques sur l'Etat, aspects de la pensée politique méditerranéenne : actes du colloque d'Aix-en-Provence 25-26-27 septembre 1986, Collection d'histoire des idées politiques, Aix-en-Provence, Presses universitaires d'Aix-en-Provence, 1987.

• **Stegmann André (dir.),**

Pouvoirs et institutions en Europe au XVI^e siècle, actes du vingt-septième colloque international d'études humanistes tenu à Tours, Paris, J. Vrin, 1987.

• **Werner Paravicini et Karl Ferdinand Werner (dir.),**

Histoire comparée de l'administration (IV^e-XVIII^e siècles) : XIV^e colloque historique franco-allemand [27 mars-1er avril 1977], organisé en collaboration avec le centre d'études supérieures de la renaissance par l'institut historique allemand de Paris, München, Artemis Verlag, 1980.

• *Genèse de l'Etat moderne en Méditerranée : approches historique et anthropologique des pratiques et des représentations : actes des tables rondes internationales tenues à Paris les 24, 25 et 26 septembre 1987 et les 18 et 19 mars 1988, (Collection de l'Ecole française de Rome ; 168), Rome : Ecole française de Rome, 1993.*

• *Gouvernés et gouvernants, 1^e partie (Civlisations archaïques, islamiques et orientales) et 3^e partie (Bas moyen âge et temps moderne, I), Bruxelles, Editions Librairie encyclopédique, 1966-1969.*

• **Ch. Lauvergnat-Gagnière et B. Yon (dir.)**

Le juste et l'injuste à l'âge classique : actes du colloque international tenu à Saint-Etienne du 21 au 23 avril 1983, Saint-Etienne, Publications de l'Université de Saint-Etienne, 1986.

Les articles

• **Aafif Mohamed**

« Les Harkas hassaniennes d'après l'œuvre d'Ibn Zidane », in *Hespéris Tamuda*, vol. XIX, fascicule unique, 1980-1981, pp. 153-168.

• **Ayache Germain,**

« La fonction d'arbitrage du makhzen », in *Recherches récentes sur le Maroc moderne : actes [du séminaire] tenu du 13 au 15 juillet 1977 à Durham, Rabat, B.E.S.M.*, 1979, pp. 5-21.

• **Arenal Mercedes Garcia,**

« Mahdisme et dynastie Saâdienne », in A. Kaddouri, *Mahdisme crise et changements dans l'Histoire du Maroc*, Rabat, Faculté des lettres, 1994, pp. 95-117.

« Pouvoir sacré et mahdisme : Ahmad Al-Mansour Al-Dhahabi », in *Al-Qantara : revista de estudios arabes*, vol. 17, fasc. 2, 1996, pp. 453-471.

• **Badie Bertrand,**

« «Etat» et «légitimité» en monde musulman : crise de l'universalité et crise des concepts », in *Annuaire de l'Afrique du nord*, tome 26, 1987, pp. 19-30.

• **Balancy Elisabeth,**

« L'honneur militaire en Espagne et en France aux XVI^e et XVII^e siècles, une mutation idéologique », in *Annales du midi*, tome 113, n° 233, janvier-mars 2001, pp. 27-37.

• **Barret-Kriegel B.,**

« L'Etat aux XVII^e et XVIII^e siècles : l'impossible réformation des codes » in *Réflexions idéologiques sur l'Etat, aspects de la pensée politique méditerranéenne*, pp. 23-38.

• **Bennassar B.,**

« Les hommes du roi en Espagne », in A. Stegmann (dir.), *Pouvoir et institutions en Europe au XVI^e siècle*, pp. 90-95

• **Beck Herman. L.,**

« Plier ou être écrasé : les relations entre Moulay Ismail sultan du Maroc, et Moulay al-Tihami sharif de Wazzan », in *Studia Islamica*, tome 70, 1989, pp. 149-161

• **Bensaid Driss,**

« Les oulémas marocains et la grande guerre (1914-1918) », in *Marocains et Allemands, la perception de l'autre : actes du 3^e colloque maroco-allemand tenu à Rabat entre les 10 et 12 novembre 1993*, Rabat, Faculté des lettres, 1995, pp. 37-57.

• **Berque Jacques,**

« Antiquités Seksawa », in *Hespéris*, tome XL, 1953, pp. 359-417.

• **Berthier Paul,**

« Les plantations de canne à sucre et les fabriques de sucre dans l'ancien Maroc », in *Hespéris*, vol. VII, 1966, pp. 33-40.

• **Bloch Marc,**

« Pour une histoire comparée des sociétés européennes », in *Revue de synthèse*, tome 46, décembre, 1928, pp. 15-50.

• **Blockmans Wim,**

« Les institutions représentatives de 1566 à 1609 », in *Pouvoir et institutions en Europe au XVI^e siècle*, 27^e colloque internationale d'études humanistes (Tours), Paris, J. Vrin, 1987, pp. 131-139.

• **Bourkia Rahma,**

« Don et théâtralité, réflexion sur le rituel du don (Hadiya) offert au sultan au 19^e siècle », in *Hespéris*, vol. XXXI, fascicule unique, 1993, pp. 61-76.

• **Boutaleb Abdelhadi,**

« Le pouvoir, l'autorité et l'Etat dans L'islam », in *Horizons maghrébins*, n° 14-15, 1989, pp. 139-151.

• **Bubner Rudiger,**

« Norme et histoire in vingt ans de pensée allemande », in *Revue Critique*, n° 413, octobre 1981, pp. 929-949.

• **Cabanelas Dario,**

« Proyecto de alianza entre los sultanes de Marruecos y Turquía contra Felipe II », in *Miscelanea de Estudios-Arabes y Hebraicos*, vol. 6, Granada, 1957, pp. 57-76.

« Otras cartas del sultán de Marruecos Ahmad al-Mansur a Felipe II », *Miscelánea de estudios árabes y hebraicos*, vol. VII, fasc. I, Granada, 1958, pp. 7-17.

« El problema de Larache en tiempos de Felipe II », *Miscelanea de Estudios-Arabes y Hebraicos*, vol. 9, Granada, 1960, pp. 19-53.

« Pedro Venegas de Cordoba, embajador de Felipe II en Marruecos », in *Miscelanea de Estudios-Arabes y Hebraicos*, n° 22, Granada, 1973, pp. 129-144.

• **Caillé Jacques,**

« Ambassades et missions marocaines en France », in *Hespéris*, n° 5 1960, pp. 39-83.

« Le commerce anglais avec le Maroc pendant la seconde moitié du XVI^e siècle », in *Revue Africaine*, tome 384-385, 1940, pp.186-219.

• **Castries H-de,**

« Les Signes de validation des chérifs saâdiens », in *Hespéris*, tome I, 1921,

pp. 231-252.

« La conquête du Soudan par El-Mansour (1591) », in *Héspéris*, tome III, 1923, pp. 433-489.

• **Cheddadi Abdessalam,**

« Le système du pouvoir en islam d'après Ibn Khaldoun », in *Annales E.S.C.*, mai-août, 1980, pp. 534-550.

• **Cigar Normand,**

« Une lettre inédite de Mûlay Ismail aux gens de Fès », in *Héspéris*, vol. 15, 1974, pp. 105-118.

• **Claisse Alain,**

« l'Etat et son double », in *L'espace et l'Etat*, ouvrage collectif, (éd.), Rabat, Edino, 1985, pp. 71-87.

• **Colin G. S.,**

« Note sur le système cryptographique du sultan Ahmed Al-Mansour », in *Héspéris*, tome VII, 1927, pp. 221-228.

• **Demaizière C.,**

« Puissance/pouvoir : synonymie apparente ou hasardeuse », in M. Madeleine Fragonard & M. Peronnet (dir.), *Tout pouvoir vient de Dieu*, pp. 80-94.

• **Dziubinski A.,**

« L'armée et la flotte de guerre marocaine à l'époque des sultans de la dynastie saâdienne », in *Héspéris Tamuda*, vol. XIII, 1972, pp. 61-94.

• **Eisenstadt S. N.,**

« Analyse comparée de la formation de l'Etat selon le contexte historique », in *Revue internationale des sciences sociales*, n° 153, septembre, 1997, pp. 672-703.

• **El Boudrari Hassan,**

« Quand les saints font les villes : lecture anthropologique de la pratique sociale d'un saint marocain du XVII^e siècle », in *Annales E.S.C.*, mai-juin, 1985, pp. 489-508.

« Transmission du charisme et institutionnalisation : le cas de la zaouia d'Ouezzane, Maroc, XVII^e XIX^e siècles », in *Al Q-antara*, vol. XII, fasc. 2, Madrid, 1991, pp. 523-536.

• **El Fasi Mohammed,**

« Biographie de Moulay Ismail » in *Héspéris Tamuda*, 1962, numéro spécial publié à l'occasion du troisième centenaire de l'accession au trône de Moulay Ismail, 92 p.

- **Gaillard H.,**
« Le makhzen, étendue et limites de son pouvoir », in *Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du nord*, 1909, pp. 438-470.
- **Gengembre G.,**
« La notion d'Etat chez Bonald », in *Réflexions idéologiques sur l'Etat, aspects de la pensée politique méditerranéenne*, pp. 93-102.
- **Geertz C.,**
« Centres, rois et charisme : réflexions sur les symboliques du pouvoir », in *Savoir local, savoir global : les lieux du savoir*, trad. D. Paulme, P.U.F., 1986, pp. 153-182.
- **Godelier Maurice,**
« L'Etat, les processus de sa formation, la diversité de ses formes et de ses bases », in *Revue internationale des sciences sociales*, n° 153, septembre, 1997, pp. 657-671.
- **Hammoudi Abdellah,**
« Sainteté, pouvoir et société : Tamgrout aux XVII^e et XVIII^e siècles », in *Annales ESC*, n° 314, 1980, pp. 733-734.
- **Handelman Don,**
« Rituels et spectacles », in *Revue internationale des sciences sociales*, n° 153, septembre 1997, pp. 423-436.
- **Harakat Brahim,**
« Le makhzen saâdien », in *R.O.M.M.*, n° 15-16, 1973, pp. 391-401.
- **Hartmann Petter Claus,**
« L'administration financière en Europe au XVIII^e siècle », Werner Paravicini et Karl Ferdinand Werner (dir.), in *Histoire comparée de l'administration (IV^e–XVIII^e siècles) : XIV^e colloque historique franco-allemand [27 mars-1er avril 1977]*, München, Artemis Verlag, 1980, pp. 534-538.
- **Jaqueton G.,**
« Documents marocains », in *Revue Africaine*, 1894, d'après la Collection de documentos para l'istoria de España, tome 36, pp. 5-64
- **Jadour Mohamed,**
« L'apport des renégats au makhzen saâdien », in *Migration et transferts culturels au Maroc et dans les mondes occidentaux*, Abdelmajid Kaddouri & Khalil Saadani (coord.), Casablanca, F.L.S.H. Ben M'sik, 2010, pp.47-59.
« Le don du makhzen : acte de générosité ou aspect de subordination », in K. Saadani, *Le don au Maghreb et dans les mondes occidentaux*, Mohammedia,

Publications de l'Université Hassan II, 2008, pp. 63-68.

« *Les usages du temps historique dans la diplomatie : le cas de Mûlay Ismaïl* » in *Revue Basamat* (nouvelle série), n° 3, Casablanca, Faculté des lettres et des sciences humaines Ben M'sik, 2008, pp. 33-43.

• **Jouanna Arlette,**

« L'institution divine des magistrats inférieurs selon Théodore Bèze », in Marie-Madeleine Fragouard et Michel Peronnet (dir.), *Tout pouvoir vient de Dieu (St Paul. Rom. XIII 2)*, actes du VII^e colloque Jean Boisset, Université de Montpellier III, Sauramps, 1993, pp. 202-217.

• **Kaddouri Abdelmajid,**

« Les présents comme institution dans les relations internationales : le cas du Maroc et des Pays-Bas au XVI^e-XVII^e siècles », in *Le Maroc et la Hollande*, Rabat, Faculté des lettres, 1990, pp. 35-40.

• **Kazancigil Ali,**

« Théories de l'Etat et analyse de l'Etat moderne turc », in *Peuples méditerranéens*, n° 27-28, avril-septembre, 1984, pp. 63-81.

• **Khetib Si Omar,**

« Le gouvernement chérifien ou Makhzen central », in *Conférences franco-marocaines*, tome 2, Paris, 1917, pp. 137-173.

• **Koehler Henry,**

« La kasba saâdienne de Marrakech d'après un plan manuscrit de 1585 », in *Héspéris*, tome 27, 1940, pp. 1-19.

• **La Chapelle Frédéric de (Lieutenant),**

« Le sultan moulay Ismaïl et les Berbères Sanhaja du Maroc central », in *Archives marocaines*, vol. 28, 1931, pp. 7-65

• **La Veronne Chantal de,**

« Séjour en Andalousie des deux princes saâdiens après la bataille d'el-Qcar El Kebir (1589-1595) », in *R.O.M.M*, n° 7, 1970, pp. 187-197.

• **Le Coz Jean,**

« Les tribus Guichs au Maroc », in *R.G.M*, n° 7, 1965, pp. 1-52.

• **Lebel Roland,**

« Le Maroc dans les relations des voyageurs anglais au XVI^e, XVII^e, XVIII^e siècles », in *Héspéris*, tome IX, 1929, pp. 269-294.

• **Lesne Marcel,**

« Les Zemmour : essai d'histoire tribale (suite et fin) », in *Revue de l'Occident*

musulman et de la Méditerranée, vol. 4, 1967, pp. 31-80.

• **Marty Paul,**

« Les Zaouïas marocaines et le makhzen », in *Revue des études islamiques*, n° 3, 1929, pp. 575-600.

• **Mauro, F.,**

« Les Frontières du pouvoir au Portugal », in A. Stegmann (dir.), *Pouvoir et institutions en Europe au XVI^e siècle*, pp. 107-115.

• **Meyers Allan R.,**

« Note sur les Qaid-Ras-Hu », in *Héspéris Tamuda*, vol. XVII, 1976, pp. 85-96.

• **Miaille M.,**

« Dieu et le pouvoir dans les mémoires de Louis XIV », in *Tout pouvoir vient de Dieu...*, pp. 286-305.

• **Michaux-Bellaire Edouard,**

« L'organisme marocain », in *Revue du monde musulman*, n° 9, 1909, pp. 1-43.

« L'administration au Maroc », in *Bulletin de la Société de géographie d'Alger et de l'Afrique du nord*, 1909, pp. 401-437.

• **Miège Jean- Louis,**

« Les relations maritimes entre Marseille et le Maroc (1682-1683) », in *Revue Maroc-Europe*, n° 2, 1992, pp. 25-69.

• **Morsy Magali,**

« A propos de l'histoire de la longue captivité et des aventures de Thomas Pellow », in *Héspéris Tamuda*, vol. IV, 1963, pp. 289-311.

« Comment décrire l'histoire du Maroc », in *Recherches récentes sur le Maroc moderne : actes [du séminaire] tenu du 13 au 15 juillet 1977 à Durham, Rabat, B.E.S.M.*, n° 138-139, 1979, pp. 121-143.

« Lalla Khenata, reine du Maroc », in *Les Africains*, tome I, Paris, Jeune Afrique, 1977, pp. 169-198.

« Mulay Isma'il ou l'instauration de l'Etat `alawite », in *Les Africains*, tome IV, Paris, Jeune Afrique, 1977, pp. 129-164.

« Mûlây Isma'il et l'armée de métier », in *R.H.M.C.*, tome XIV, 1967, pp. 97-122.

« Réflexion sur le système politique marocain dans la longue durée », in *L'espace et l'Etat*, Ouvrage collectif, Edino, Rabat, 1985, pp. 91-140.

• **Nordman Daniel,**

« Les expéditions de Moulay Hassan », in *Héspéris Tamuda*, vol. XIX, fascicule unique, 1980-1981, pp. 123-152.

• **Ricard Robert,**

« Le Maroc à la fin du XVI^e siècle, d'après le Jornada de Africa de Jerónimo Mendoza », in *Héspéris*, n° 44, 1957, pp. 179-204.

• **Reinhard, W.,**

« Croissance de la puissance de l'Etat : un modèle théorique », in A. Stegmann, (éd.), *Pouvoir et institutions en Europe au XVI^e siècle*, 27^e colloque international d'études humanistes (Tours), Paris, J. Vrin, 1987, pp. 173-186.

• **Rosenberger Bernard et Hamid Triki,**

« Famines et épidémies au Maroc au XVI^e et XVII^e siècles », in *Héspéris*, vol. XIV, fascicule unique, 1973, pp. 109-175, et vol. XV, fascicule unique, 1974, pp. 5-103.

• **Rosenberger Bernard,**

« Calamités, sécurité, pouvoir : le cas du Maroc XVII^e-XVIII^e », in *Peuples méditerranéens*, n° 27-28, avril-septembre, 1984, pp. 247-271.

« Cultures complémentaires et nourriture de substitution au Maroc XV^e-XVIII^e siècles », *Annales ESC*, 1980, pp. 477-503.

• **Reyniers le Lieutenant,**

« Un document sur la politique de Moulay Ismâ'il dans l'Atlas », *Archives marocaines*, tome XXVIII, 1931, pp. 1-5.

• **Papon Maurice,**

« L'Occident devant l'islam », in *L'islam et l'Etat*, n° 134, mars 1956, pp. 115-124.

• **Poussou Jean Pierre,**

« Agriculture et commerce au 18^e siècle, l'exemple du sud-Ouest de la France », in Cullen et F.Furet L. M. (dir.) *Irlande et France XVII^e-XX^e siècles - pour une histoire rurale comparée : actes du premier colloque franco-irlandais d'histoire économique et sociale*, Dublin [1977], Paris, Ed. de l'Ecole des hautes études en sciences sociales, 1980, pp. 99-115.

• **Salaheddine M.,**

« Etat-makhzen, coercition et consensus », in *Lamalif*, n° 176, 1986, pp. 70-71.

• **Sebti Abdelahad,**

« Présence des crises dans la chronique dynastique marocaine entre la narration et les signes », in *Cahiers d'études africaines*, n° 19, 1990, pp. 237-250.

• **Sourdel D.,**

« Questions de cérémonial abbaside », in *Revue des études islamiques*, tome XXVIII, 1960, pp. 121-48.

• **Thaminy M.,**

« Pour une réévaluation de la notion du makhzen », in *Revue marocaine de droit comparé*, n° 2, 1983, pp. 23-27.

• **Todeschini Giacomo,**

« Familles juives et chrétiennes en Italie à la fin du Moyen Âge : deux modèles de développement économique », in *Annales E S C*, n° 4, 1990, pp. 787-817.

• **Weiner Jérôme- B.,**

« Al-Mansur, un sultan du Maroc et l'or de Tombouctou », in *Les Africains*, tome II, Paris Jeune Afrique, 1977, pp. 221-248.

• **M'barek Zaki**

« Le Maroc et Gênes entre 1700 et 1800 : quelques aspects des relations entre 1700 et 1800 », in *Revue Maroc-Europe*, n° 2, 1992, pp. 81-110.

فهرس الأعلام

| | | |
|--------------------------------|---------------------------|----------------------------|
| إنكلز Engels | أحمد الجرندي | 1 |
| 37 | 222 | Anne آن |
| ابن أبي زرع | أحمد بن الحاج | 307 |
| 43 | -122-65-60-59-58-57-56-55 | أبغلي محمد بن علي |
| ابن أبي زيان | -173-162-161-148-135-134 | 359-348 |
| 267-261-255 | -194-193-186-183-177-174 | أبو القاسم |
| ابن الأشقر | -210-204-201-200-197-195 | -127-125-106-105-95-94 |
| 105 | -234-226-224-223-220-218 | -159-158-155-154-152-146 |
| ابن الخطاب | -325-286-282-269-266-263 | -286-203-202-200-199-161 |
| 59 | -337-336-335-329-328-326 | -369-368-358-340-337-298 |
| ابن العياشي محمد | -414-413-409-397-340-338 | 459-458-451-448-445-440 |
| -186-183-160-105-80-59 | 463-451-448-446-445 | أبو الليف |
| 291-289-272-234-209 | أحمد خان الثالث | 320 |
| ابن القاضي أحمد | 301 | أبو النصر |
| -126-122-119-111-90-59 | أحمد صغير | 449-339-286-281-274-262-93 |
| -185-171-169-161-159-128 | 153 | أبو درقة |
| 375-234-233 | أحمد كبير | 282-271 |
| ابن تومرت | 153 | أبو عمران الفقيه |
| 202-43 | أحنصال يوسف بن سعيد | 230 |
| ابن شرحبيل أو الحسين الشرحبيلي | 262 | أبو عنان محمد |
| 274 | أسين دون خاييم أولفير | 281-113 |
| ابن عيسى | 312 | أبو عنان محمد الطالب |
| 123-115 | أعراس يحيى | 223 |
| ابن قرقوش | 107 | أبو فارس |
| 281-253-142 | أكتسوس محمد | -242-211-193-140-114-92 |
| ابن محرز | 451-447-203-127-97-65-55 | -445-415-409-334-331-323 |
| 289-260-142-59-57 | أكنوش عبد اللطيف | 450-449-447-446 |
| اشكريد حسن | 29 | أبو محمد صالح |
| 378 | أوبركة علي | 271 |
| الأزموري أبو شعيب | 100 | أبو يعزى |
| 272 | إسماعيل بن المعتصم | 272 |
| الإدريسي الطيب الشريف | 309 | أحمد الأول |
| 112 | إسماعيل بن عبد الملك | 424-421 |
| الإفراني محمد | 284-79 | أحمد الثالث |
| -62-60-59-58-54-53-45-22 | إليزابيث الأولى | 422 |
| -105-93-79-69-68-67-66-65 | 435-433 | |
| -115-114-113-112-108-107 | | |

مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب

| | | |
|----------------------------------|--------------------------------|-------------------------|
| الخطيب عبد المالك | التمنارقي محمد | 118-126-127-128-129-135 |
| 107 | 222-119 | 139-140-142-154-156-159 |
| الخليفة أحمد | التبكي أحمد بابا | 172-175-178-186-191-193 |
| 275 | 185-183 | 199-201-203-204-221-223 |
| الخيزران أو لالة جوهر | التوفيق أحمد | 227-234-235-238-240-241 |
| 447-413-332-329 | 45-28 | 243-263-264-267-275-280 |
| الدرعي أحمد بن عبد الرحمن بن علي | الجرندي أحمد | 291-300-301-325-330-331 |
| 355 | 222 | 332-334-362-363-365-372 |
| الدرعي أحمد بن ناصر | الجرني محمد | 377-379-406-407-408-409 |
| 257 | 228 | 447-450-467 |
| الدرعي محمد بن ناصر | الجزولي الشيخ | الباشا مصطفى |
| 287 | 272 | 106-323-331-334-448 |
| الدقون محمد | الجنوي رضوان | البرتغالي رضوان العليج |
| 228 | -64-113-138-227-228-242 | 284 |
| الدكنتي علي | 291-276-258-257 | البرتغالي عمار |
| 148 | الجيلاني عبد القادر | 106 |
| الدلائي محمد بن عبد الرحمان | 286-230 | البطوطي عمر |
| 248 | الحاجب عزوز | 328 |
| الذهبي أحمد | 149 | البكري الحسن |
| 459-451-449-447-336-161 | الحجاج | 65 |
| الرايس شعبان | 59 | البوعناني عبد الواحد |
| 292 | الحجري أحمد بن القاسم | 230-300 |
| الرايس مرزوق | 291 | التاودي محمد بن علي |
| 375 | الحجوي محمد بن الحسن | 283 |
| الرايس موراطو Murato | 43 | التجموعتي عبد الملك |
| 295-292 | الحريشي علي | 229 |
| الرحمانية سحابة | 401 | الترغي محمد |
| 67 | الحساني إبراهيم | 228 |
| الروسي حمدون | -145-146-148-193-196-370 | التسافتي عبد الله |
| 113 | 398 | 44-96-107-112-120-126 |
| الروسي دحمان | الحسن الأول | 129-135-143-144-145-146 |
| 113 | 474 | 147-148-149-154-155-160 |
| الروسي عبد الخالق | الحضري محمد | 177-193-194-196-198-225 |
| 113 | 228 | 254-255-259-265-266-267 |
| الروسي عبد الله | الحمامي الريفي أحمد بن علي بن | 271-272-274-276-277-335 |
| -260-237-154-126-113-108 | عبد الله | 337-338-339-358-398-400 |
| 401-337-285-266 | 366 | 402-414-440-441-442-447 |
| الروسي علي | الحمامي الريفي علي بن عبد الله | التستواقي أحمد |
| 223-119 | 377-374-367-149-130-127-25 | 224 |
| الريفي عبد الكريم بن موسى | الحميدي عبد الواحد | التطاوي بن دبة |
| 106-23 | -64-107-115-158-223-228 | 378 |
| الزراري سعيد | 243-239-234-231-229 | التمنارقي عبد الرحمان |
| 263 | الحميدي عبد الوهاب | 444-400 |
| الزرهوني إبراهيم | 228 | |
| 254 | الخطيب عبد الكريم | |
| | 270 | |

فهرس الأعلام

| | | |
|------------------------------------|--|----------------------------------|
| الزهروني سليمان | الشرقي محمد | العياشي محمد بن أبي بكر |
| 255-105 | 272 | 258 |
| الزهروني قاسم | الشريف أبو عنان | الغري الأندلسي أبو الفضل |
| 388 | 228 | 310 |
| الزمراني سالم | الشريف الحسني عبد الله ابن علي بن طاهر | الغنجاي محمود |
| 228 | 230 | 148-141 |
| الزمواري الفاسي علي | الصادق أبو بكر | الفاسي أبو المحاسن |
| 228 | 289 | 273-269-267-262-261-260 |
| الزمواري محمد | الصنهاجي أبو بكر المكنى بالبيدق | الفاسي عبد الرحمان بن عبد القادر |
| 368 | 43 | 287-234 |
| السجلماسي الحسني عبد الواحد الشريف | الصومعي أحمد | الفاسي عبد القادر |
| 284 | 260-228 | 280-262-260-259-257-242 |
| السراج يحيى | الصومعي محمد | الفاسي محمد بن عبد القادر |
| 239-231-64 | 261 | 280-262-260-259-257-242 |
| السلاني علي | العالم البكري | الفاسي محمد بن عبد القادر |
| 228 | 322-246 | 193-172-119-98-79-78-44 |
| السلاني ابن عاشر | العالم محمد | 240-239-237-234-232-224 |
| 272 | -263-260-224-142-129-113 | 368-367-286-275-262-247 |
| السلطان الوليد | -337-336-335-329-274-268 | الفروي عبد الكريم |
| 85 | 449-448-414-356-339-338 | 398 |
| السلمي أحمد بن العربي بن الحاج | العناني علي | الفشتالي العربي بن أحمد |
| 275 | 106 | 227-226-222 |
| السوسي أبو مدين | العراقي إدريس | الفشتالي عبد العزيز |
| 228 | 115 | -65-59-58-56-55-54-53-22 |
| السوسي سيدي عياد بن عبد الله | العربي أبو بكر | -96-95-94-84-81-80-79-69 |
| 267 | 272 | -112-111-108-106-104-98 |
| السوسي محمد المختار | العروي عبد الله | -133-129-128-127-118-113 |
| 271-253-222-119-106-105 | -42-39-37-36-30-27-26-18 | -146-143-142-140-139-137 |
| 473-282 | -102-98-86-83-80-79-77 | -153-152-151-150-148-147 |
| السوسي محمد بن مومن | -152-135-129-121-119-115 | -170-169-168-161-156-154 |
| 112 | -242-233-225-217-203-157 | -176-175-174-173-172-171 |
| الشابي مصطفى | -285-276-273-251-249-248 | -185-184-180-179-178-177 |
| 154-124-116-111-109-107-28 | -418-393-392-390-387-296 | -194-193-191-190-189-188 |
| الشاطبي أبو القاسم | 473-465-461 | -201-200-199-198-197-195 |
| 115 | العريفة بنت خجو | -234-233-208-206-204-202 |
| الشاطبي علي | 388 | -289-281-272-242-236-235 |
| 242-235-154 | القطار محمد بن حدو | -312-310-295-294-293-292 |
| الشواي أحمد بن محمد | 399-375-374-348 | -328-325-324-323-322-320 |
| 270-269-266-175 | العلاج عبد المالك | -359-358-355-353-351-330 |
| الشواي محمد بن عمر | 375 | -445-430-409-397-388-367 |
| 367-118-113 | العمري عبد المالك | 467-465-453 |
| الشرقاوي محمد الصالح | 105 | الفيلالي عبد الرحمان |
| 275 | العمري سعيد | 105 |
| الشرقاوي محمد المعطي | 228 | القائد الميرا |
| 255 | | 87 |

مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب

| | | |
|---|--|---|
| القائد بوعبدلي 155-149 | البرني أحمد بن صالح 388 | المكي محمد بن أبي الفضل 289 |
| القائد حمريّة 253-252 | المالكي زيدان بن عبيد 325 | المنجور أحمد 235-64 |
| القائد عبد الصادق 118-117-113 | المامون محمد الشيخ -117-114-106-101-96-84 | المهري عبد المالك 149 |
| القائم بأمر الله محمد 310-309 | -179-173-162-135-128-123 | المودن عبد الرحمن 207-196-175-155-145-29 |
| القادري محمد -113-109-108-107-79-45-23 | -330-329-328-323-322-311 | المولى إدريس -273-272-263-251-248-210 |
| -126-123-119-118-116-115 | -417-415-409-408-407-406 | 283 |
| -151-148-142-139-133-127 | -462-450-449-448-447-442 | المولى الحران 329-326 |
| -178-177-176-175-173-161 | 469-463 | المولى الحفيد 339-337 |
| -222-220-211-210-206-205 | المتوكل محمد 310-115 | المولى الشريف 449-447-274-198-129-66-53 |
| -229-228-227-226-224-223 | المجاصي عبد الله 232 | المولى رشيد -107-70-69-67-66-60-54 |
| -235-234-233-232-231-230 | المجاصي محمد بن الحسن 112 | -273-257-253-210-125-112 |
| -248-246-245-244-242-237 | المجذوب عبد الرحمان 257-256-242 | 285 |
| -264-261-259-257-256-254 | المجلدي أحمد 115 | المولى زيدان -449-447-446-415-352-348 |
| -276-273-270-269-268-266 | المجهول البرتغالي 462-368-366-161-160-96 | 459-451 |
| -287-286-285-284-283-281 | المراي أحمد 257-245-243-232-227-80 | المولى عبد الحفيظ 463-461-248-246-78 |
| -325-303-298-290-289-288 | المراسي محمد العربي 228 | المولى عبد العزيز 399 |
| -363-339-337-336-335-329 | المرغيتي محمد بن سعيد 467-455-120-101 | المولى عبد الله -415-368-203-154-106-44 |
| -400-388-373-370-369-367 | المسنائوي الدلافي محمد 336-335-248-224 | 467-417 |
| -459-443-442-441-440-401 | المشتراي سعيد 266 | المولى عبد المالك 339-263 |
| 467 | المعتمد عبد الملك 467-310-112 | الناصرى أحمد -90-89-84-82-68-67-54-53 |
| القبلي علي بن يثي 113-100 | المعداني الحسن بن رجال 228 | -126-125-113-99-98-97-95 |
| القدوري عبد المجيد -223-135-69-68-54-28-26 | المغافرية الأودبية مباركة 65 | -188-173-159-153-152-142 |
| 466-453-249-242-236 | المفضل أحمد 85 | -309-292-256-202-201-193 |
| القرافي بدر الدين 246-65 | المكتاسي البصري 242 | -446-445-441-440-340-310 |
| القصار الشيخ 285-231-230-226-224 | | 459-449-448 |
| القصار محمد بن قاسم 234 | | النقيس أحمد بن عيسى 292 |
| الكاتب محمد 119 | | الهزميري أبو عبد الله 272 |
| الگدموي بن شتي 148 | | الهناتاي فارس 320 |
| الگلادي عبد الصادق 113-106 | | |
| الكوش عبد الله 253 | | |
| اللمانو 232 | | |

فهرس الأعلام

| | | |
|---------------------------|---------------------------|--|
| بن المامون مولاي مبارك | بختيار العليج | الهوزالي محمد بن علي |
| 281 | 106 | 121-110 |
| بن المتوكل الشيخ | برتونيال | الوجاري أحمد |
| 311 | 425 | 226 |
| بنت بكار خنائة | بردلة العربي | الوزاني التهامي بن محمد |
| 413-401-113 | 108 | 290 |
| بن حدو عمر | بردلة محمد العربي | الوزاني محمد بن التهامي |
| 106 | 246-237 | 269 |
| بن حرزهم سيدي علي | بركة علي | الوزاني مولاي التهامي |
| 266-257 | 232 | 280-274-266 |
| بن رضوان محمد | بريثوث جون J. Braithwaite | الوزاني مولاي التهامي بن محمد |
| 273 | -181-156-149-120-65-44 | 283 |
| بن ريسون | -373-366-361-350-339-300 | الوزكيتية الورزاتية مسعودة (لالة عودة) |
| 261-252-113 | -462-461-451-414-412-399 | 417-276-272-211-66 |
| بن زيدان عبد الرحمن | 464-463 | الوزكيتي عزوز |
| -99-91-90-78-65-43-23-22 | بريس عبد القادر | 126-115-105 |
| -112-111-110-107-106-105 | 120 | الولالي أحمد |
| -172-152-134-126-122-117 | بزم عالم | 335-273-256-228 |
| -181-177-176-175-174-173 | 425 | اليحمدي أحمد |
| -201-200-191-189-188-185 | بلانديي جورج G. Balandier | -335-128-127-78-65-60-55 |
| -208-206-205-204-203-202 | 167 | 469 |
| -270-247-235-223-210-209 | بلوك مارك Marc Bloch | اليحمدي الغماري أحمد |
| -286-285-282-280-274-272 | 19 | 105 |
| -329-327-297-290-289-288 | بن أبي النعيم أبو القاسم | اليوسي الحسن |
| -447-442-413-402-372-366 | 118-110 | -218-158-138-137-52-29 |
| 459-451 | بن أبي بكر أبو عثمان سعيد | -228-226-224-223-222-221 |
| بن زيدان عبد الملك | 256 | -245-244-233-232-231-229 |
| 86 | بن أبي نهي حسن | 360-291-276-252-248 |
| بن سعيد سيدي أحمد | 246 | |
| 229 | بن أحمد سيدي علي | |
| بن سودة أبو القاسم | 274 | |
| 118 | بن إبراهيم سليمان | |
| بن علي (شقارة؟) Xacara | 64 | باريتو لويس Luis Barreto |
| 112 | بن إبراهيم يوسف | 84 |
| بن عائشة عبد الله | 314-313 | باسكون بول P. Pascon |
| 375-298-297-111 | بن إسماعيل دراس | 28 |
| بن عباد محمد | 272 | باشا علي |
| 222 | بن الحاج محمد | 292 |
| بن عبد الملك عبد المومن | 237 | باعلال |
| 111 | بن الحسن سعيد | 106 |
| بن عبد المومن داوود | 148 | بايار جون فرانسوا J. François Bayart |
| 327-312-311-310-309-96-79 | بن الحسن سيدي محمد | 391 |
| بن علي داوود | 229 | بايزيد الثاني |
| 154-149 | بن الغالب بالله الناصر | 424 |
| بن علي مولاي محمد | 312 | بجة حمو |
| 281 | | 261 |

حمودي عبد الله
-227-196-195-194-37-31
271-265-262

خ

خان غازي محمد
423
خورم (روكسلان)
424

د

دا كوستا Da Costa
321
دا كوستا فرانثيسكو
Francisco da costa
85
داود محمد
418-155-130-120-108
دوتي إدمون E. Doulté
26
دودار عبد الله
375
دوراتي فرانثيسكو Francisco Durate
359
دوركاييم Durkheim
19
دوق دي مدينا سيدونيا
El duque de Médina Sidonia
241-202-106-85-82-68-24
-315-314-313-294-292-242-
-321-320-319-318-317-316
-347-333-332-330-323-322
441-354
دو ليسل أرنو Arnault de Lisle
418
دوليون جوزيف Joseph de Léon
416-168-87
دون أنطونيو
321
دونجو فيليب Philippe d'Anjou
297
دون كريستوف
321

بيرتان Bertin
474

بيرتيي بول Paul Berthier
352

بيرديغو دون فرانثيسكو
Don Francisco Verdugo
315

بيرك جاك J. Berque
462-353-245-226-172
بيريليي جون J. Périllie
348

بيلاو توماس Thomas Pellow
451-92-82

بيي Pillet
415

ت

تريفاش أوستاش Eustache Trevache
359
تيم محمد
375-107

تيرمتل ماريا Maria Ter Meetelen
462-440-401-186-168

ج

جاك الثاني
307
جسوس عبد السلام
300-243-237-231-177
جوذر باشا
458-154-129-106
جوسلين داخليا J. Dakhli
168-155

ح

حركات إبراهيم
375-108-67-66-43-29
حسن باشا
310

بن غازي العمري مومن
310

بن فارس حم
129

بن قارديناش أحمد
373

بن كوكسو أحمد
366-156-154-149-141-109

بنكيكي روبين
359

بن مشيش مولاي عبد السلام
288-251

بن منصور الخياط
367-126-123

بن منصور عبد الكريم
-177-155-149-135-120-107

بنمنصور عبد الوهاب
400-398-271-198

بن موسى علي
70-53-43-23

بن مومن عبد الكريم
253

بن ناصر محمد الكبير
112

بن ودة علي
275

بودان جون Jean Bodin
261

بوسيني Bossuet
432

بوعبدلي إبراهيم
51

بوكرزية مومن
414

بولعوان سعد الله
331-284

بولو بالتسار
348

-315-314-294-105-85-82

-321-320-319-318-317-316

-354-347-346-333-325-322

446-411-363-358

بونالد Bonald
36

بيرار جيوم Guillaume Bérard
346

فهرس الأعلام

- Benaviga علال 355
 355
 عمران علي بن 286-285-230
 عنبر 106
 عنون عبد الواحد 374-373
- غ**
 غارسيا أرينال مرسدس Garcia-Arenal Mercedes 28
 غيلان 59
- ف**
 فاندرو ليو M. Vander Leeuw 166
 فريدريك مورو F. Mauro 396
 فورث ريمون Raymond Firth 467
 فوستيل دو كولانج Fustel de Coulanges 405-165
 فيبر ماكس Max Weber 468-391-250-225-57-37
 فير غابرييل Gabriel Veyre 399
 فيليب الثاني 313-296-295-294-292-85
 319-318-317-316-315-314
 346-325-323-322-321-320
 446-376-363-354-347
 فين بول P. Veyne 20
- ق**
 قوسيم (الجددة السلطانية) 425
- سليماني القانوني 428-424-419
 سميث ريتشارد Richard L. Smith 28
 سنان باشا 333
 سورديل Sourdel 183
 سيدي الصغير 222
 سيدي محمد بن عبد الله 203-102-28
 سيسيل روبير Robert Cecil 293
- ش**
 شارل الأول 433-307
 شارل الثاني 343-301
 شالديا أنطونيو A. De Saldanha 22
 شريف مكة 420
 شريفي رشيدة 29
- ط**
 طورخان خديجة (السلطنة) 425
 طوليدانو حاييم 378-377-363
 طوليدانو يوسف 359
- ع**
 عبد العزيز الفشتالي 310-182
 عبد الله بن محمد الشيخ المامون 458
- Martin de Arriaga دي أرييكا مارتان 347
 دياك 360-359
 دي زاري ابن تورا 378-373-348
 دي سلاس غري غوريو Grégorio de Salas 317
 دي كوردوبا بيدرو بينيغاس Pedro Venegas de Cordoba 346
 دي مارتشينا خوان Juan de Marchena 359
 دي هين خورخي J. De Henin 146-141-140-105-88-87-82
 351-348-347-309-159-154
 446-415-370-369-355-352
 465-464-462-459-458
- د**
 ذي سابويا ماريا لويسا كابريال María Luisa Gabriela de Saboya 414
- ر**
 روتي يعقوب Ruti 375
- س**
 سانت أمان Saint Amant 181
 سان مندريري Saint Mandrier 359
 ساوسون كي Guy Sawson 19
 سياستيان 315-67
 ستوارت شارل 414

| | | | |
|----------------------------------|----------------------------------|---------|------------------------------|
| معن أحمد بن عبد الله | J. Locke | لوك جون | ك |
| 280-255 | 344 | | كارديناس Cardenas |
| معينو محمد | لويس الرابع عشر | | 411 |
| 154-117-111-91 | -349-298-297-200-63-51 | | كارلوس الثاني |
| Gutierrez منصور غوتيريس أو كيتيس | -432-431-430-376-374-361 | | 349-297 |
| 106 | 474-464-444-435-434 | | كافالان فليبي Cavalin Felipe |
| منصوريكو | ليفي جودا | | 84 |
| 284 | 359 | | كطنهو عبد الرحمان Catanho |
| مورسي ماكالي Magali Morsy | ليوناردو خوان Leonardo Juan | | 375 |
| 98-87-86 | 87 | | كلاستر بيرير Pierre Clastres |
| موسى بن محمد | | | 465 |
| 274 | | | كنون عبد الله |
| مولاي أبو الحسن | | | -148-138-137-94-80-78-23 |
| 81 | | | -324-322-294-246-196-152 |
| مولاي أبو النصر | مادوك Madoc | | 447-446-357-330 |
| 339-262-93 | 354 | | كوريتو أحمد بن منصور |
| مولاي أحمد | مايسيس بارسيلاي Maysses Barciley | | 154 |
| -328-325-289-281-159-54 | 359 | | كولبير Colbert |
| 462-329 | محمد الأول | | 343 |
| مولاي الحران | 422-421 | | كوهين أبراهام |
| 289 | محمد الثالث | | 359 |
| مولاي الطيب | 424-421-294 | | كيرك Kirke |
| 274 | محمد الثاني | | 463 |
| مولاي المهدي | 428-425-423-421-419 | | غابار H. Gaillard |
| 449 | محمد الرابع | | 26 |
| مولاي بوعزة | 425-421 | | غلنر Gellner |
| 273 | محمود الأول | | 31 |
| مولاي هاشم | 423-162 | | |
| 329-289 | مراد الثالث | | |
| مونطاني روبر R. Montagne | 311-296-295 | | |
| 27 | مرجان الصغير | | |
| مونو كابرييل Gabriel Monod | 106 | | |
| 19 | مرجان الكبير | | |
| مويط جرمان G. Mouette | 106-99 | | |
| -154-114-70-68-66-63-23 | مارين Marin | | |
| 441-440-361-358 | 241 | | |
| ميارة الأصغر | مارين دييغو Diégo Marin | | |
| 231 | 346-330-328-321-106-68 | | |
| ميارة الأكبر | مزين محمد | | |
| 231 | 208-84-29 | | |
| ميشو بيلير Michaux-Bellaire | مساهل الباشا | | |
| 27 | 155 | | |
| ميموران إبراهيم | مصطفى الأول | | |
| 375-372-363-299 | 422 | | |
| ميموران جوزيف | مصطفى الثاني | | |
| 359 | 425-421 | | |

ميندس سيمون Simon Mendes

62

ميندوسا Mendoça

464

ن

نورث دادلي Dudley North

344

هـ

هنري الثالث

346-307-294

هويث Whet

241

و

واكريم يحيى

255

وندوس جون J. Windus

-123-113-107-87-66-63-23

-182-181-168-156-148-141

-194-193-192-190-189-188

-400-399-370-366-360-358

-463-451-447-443-415-414

464

ويكمان تومسون Wakeman Thomson

359

فهرس الأماكن

| | | |
|---------------------------|--------------------------|---------------------|
| 386-356-336-329-326-311 | إنجلترا | أزمور |
| 387 | -343-307-298-295-202-83 | 206 |
| الحياينة | -373-359-357-354-352-348 | أسفي |
| 412-368-322 | 464-463-433-377-374 | 374-358 |
| الخلط | إميتانوت | أبو الجعد |
| -322-152-151-143-96-95-79 | 91 | 265-255-254-252 |
| 408-334 | اشبيلية | أبو عقبة |
| الداء | 317 | 325 |
| 91 | اشقير | أحنصال |
| الرحامنة | 282 | 275-271-265-261 |
| 412 | الألزاس Alsace | أدخسان |
| الريف | 361 | 91 |
| 328-252-106 | الأناضول | أدرار |
| السودان | 429-419 | 416-354 |
| -86-85-83-82-80-59-54-33 | الأندلس | أدرنة |
| -152-140-129-106-95-90 | -226-199-188-94-85-78-43 | 421 |
| -206-202-198-184-173-160 | -291-269-248-246-242-236 | أزربيجان |
| -239-238-237-236-234-208 | 362-325-313-295-293-292 | 419 |
| -292-291-286-248-241-240 | الإسكوريال | أصيلا |
| -333-329-324-318-302-295 | 376-199 | 312-243-206-89-67 |
| -357-356-355-354-353-352 | البحر الأبيض المتوسط | أغمات |
| 467-446-370-368 | -292-249-185-125-80-77 | 197-195 |
| الشام | -301-300-297-296-295-293 | أم الربيع |
| 290-247 | 376-368-365-349 | 325-228-208 |
| الشاوية | البحر الأسود | أمريكا |
| 412-196 | 419 | 297 |
| الشاظمة | البرازيل | أنفيس Anvers |
| 328-271 | 353 | 344 |
| الصوابين | البندقية | أوتريرا Utrera |
| 196 | 199 | 314 |
| العرائش | البوغاز | أوروبا الشمالية |
| -252-246-241-209-206-89 | 349-298 | 297 |
| -300-298-297-296-295-292 | الجديدة (مزكان) | إسطنبول |
| 463-346-331-320 | 312 | 422-421-420-182-171 |
| العراق | الجزائر | |
| 290-247 | -118-113-81-79-69-68-66 | |
| | -310-301-298-295-294-208 | |

مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب

| | | |
|----------------------------|---------------------------|---------------------------|
| تامسنا | بنو سفيان | الغرب |
| -252-196-179-150-146-82 | 412 | 38-159-196-244-254-292- |
| 330-323 | بنو عروس | 322-328-339-420 |
| تانسيفت | 415-251 | الفص |
| 330-324-322-291-212-208 | بنو عياش | 106-114-142 |
| تستاوت | 66 | القدس الشريف |
| 254 | بنو مالك | 419 |
| تغازي | 412 | القرويين |
| 356-353-236-145-140-137-91 | بورصة | 108-109-113-209-222-223- |
| تلكرت | 422-421 | 227-229-230-330 |
| 270 | بورنو | القسطنطينية |
| تلمسان | 353-180 | 68-79-209-374 |
| 331-67-66 | بوطوبة | الكاعة |
| تسمان | 208 | 66 |
| 107 | بيزنطة | الكرايب |
| تمصلوحت | 427 | 353 |
| 270 | | الكعبة المنورة |
| تمغروت | | 296 |
| 265 | | المدرسة الشراطية |
| توات | | 226 |
| -151-150-137-98-59-54-53 | تادلة | المدرسة العتانية |
| 357-353-281 | -158-153-129-113-106-95 | 228 |
| تودغة | -265-262-261-252-228-160 | المدينة المنورة |
| 100 | -445-323-322-312-284-273 | 419 |
| تومبوكتو | 451-446 | المشرق |
| 355-354-318-101-82 | تارقاله | -43-65-188-232-246-247- |
| تونس | 91 | 289-290-402 |
| 294-209-81 | تارودانت | المعمورة |
| تيكورارين | -209-160-122-118-90-64 | 295-296-297-298-299-400- |
| -148-137-129-98-95-79-59 | -336-335-329-326-253-225 | 420-463 |
| 357-151-150 | 447-444-368-346-338-337 | المغافرة |
| | تازة | 95-113-356-412 |
| | -207-206-142-115-114-89 | الهبط |
| | 325-322-275-274-209 | 69-95-107-108-142-253-254 |
| ج | تازروت | الهند |
| جامع الأنوار | 263-261-251-67-45 | 299-343-348-356 |
| 209 | تاسافت | اليمن |
| جامع الرخام | 276-259-255-254 | 419 |
| 209 | تافراوت | |
| جامع الزيتونة | 160 | |
| 209 | تافيلالت | |
| جبالة | -141-117-112-100-90-68-65 | ب |
| 264-106 | -288-286-284-282-260-210 | بادس |
| جبل العلم | -414-412-357-335-296-289 | 84-297-318 |
| 285-263-107 | 448-447-445 | بروطاني |
| | | 444 |

فهرس الأماكن

سجلماصة
-331-326-322-289-282-229
451-338
سفیان
153-109-107
سكساوة
148
سلا
-211-122-117-107-95-67
-316-302-301-300-299-294
463-378-367-366-349-348
سوس
-105-95-94-90-67-65-64-59
-142-131-128-113-107-106
-153-152-151-150-149-146
160
سيدي رحال
195

ش

شنقيط
356-355
شيشاوة
351

ص

صربيا
427
صنهاجة
99-69

ط

طرابلس
353
طنجة
-301-297-296-243-241-209
463-366-322-320-315-312

ر

رأس الماء
193-189-180
رباط الفتح
211
رجراجة
275
روان Rouen
453
روميلىا
419
رياض الزيتون
209

ز

زاوية أبي الشتاء
448-332
زاوية القلقليين
268-237-210
زرهون
210-208-105
زعر
412
زمور
282-153-107-105-100-95
زيان
282-273

س

سان جرمان أون لي
Saint-Germain-en-laye
375
سايس
100
سبته
-293-287-243-232-98-95-25
-301-299-298-297-296-294
349-339-323-318-315-303
سيو
462-440-269-229-208
سجتنانة
121-110

جبل طارق

348-313-299
جدة
419
جزر الكناري
316-295-294-292
جزولة
271
جنوة
464-447-359

ح

حاحة
351-271-156-149-95
حارة ياسر
209
حلب
419
حلق الوادي
67
حمامة
412-107
حواته
195

د

دبدو
329-328-325-320-89
درعة
-139-137-117-114-90-87
-333-331-325-274-262-141
417-356-337-336-335
درن
144-112
دكالة
412-156-149-95
دمشق
419
ديار بكر
419

-155-149-143-142-124-115

-193-181-176-160-159-158

-225-223-221-209-202-198

-252-243-230-229-228-227

-276-275-271-267-259-254

-310-294-292-285-284-277

-318-317-315-314-313-311

-325-324-322-321-320-319

-334-333-331-330-328-326

-346-345-339-338-337-335

-375-368-363-358-354-347

-415-413-411-408-402-398

-447-446-444-441-440-417

462-458-451

مسجد أيا صوفيا

422-209

مسجد الحوت

223

مسجد الشرفاء

210

مسجد باب دكالة

211

مسفوية

118-113

مشرع الرمل

458

مصر

419-290-247-53

مكة المكرمة

419

مكناس

-107-95-90-69-68-67-23

-181-176-161-125-115-111

-202-201-199-195-193-182

-211-210-209-208-205-203

-257-254-237-231-228-223

-285-283-275-274-265-258

-336-333-332-310-300-287

-441-440-399-363-339-337

462-448-445-442

ملوية

441

مليبية

-315-303-299-295-252-98

324-320-319-317-316

ق

قادس

318-317

قصبة العلوج

91

غ

غريس

100

غمارة

253-224-142-95-69

ك

كاليسيا Galicia

363-299

كاو Gao

354-318-101-82

كردستان

419

كرمان

419

كروان

153

كلاوة

106

كورارة

412

ف

فارس

419-345

فاس

-69-68-67-66-64-60-59-28

-107-100-98-95-90-89-81

-142-125-119-116-115-108

-179-173-160-156-155-151

-207-206-195-193-186-180

-223-222-221-210-209-208

-232-230-229-228-227-226

-243-242-237-236-235-234

-265-259-254-252-248-244

-279-276-273-272-269-266

-310-301-294-285-284-281

-325-324-323-322-320-311

-334-333-332-331-330-327

-353-346-340-338-336-335

-401-389-369-368-367-366

-441-440-413-410-409-408

451-443-442

فركلة

100

فرنسا

-293-209-202-199-182-63

-362-352-350-343-307-294

468-444

فشتالة

107

فكيك

285-282

Fuerteventura فويرتينتورا

292

ل

لانساروتي Lanzarote

292

لشبيونة

317-313-312

لكتاوة

91

م

مالقة

319-317-316-315-313-24

متز Metz

361

محاميد الغزلان

90

مراكش

-84-82-81-67-64-59-43-28

-107-98-96-95-90-88-85

فهرس الأماكن

مولاي إدريس زرهون

231-197

مولاي علي الشريف

210

مينورقة

348

ن

نفيس

442-415-398-255-107-96

هـ

هرغة

311

هوزالة

311

هولندا

-127-111-88-87-83-45-25

-352-300-299-202-149-129

-367-364-363-362-360-359

379-378-377-375-374-372

و

وادي المخازن

-81-79-70-69-61-59-24-16

-190-182-152-112-97-83

-252-251-248-245-243-221

370-312-309-292-291

وادي نفيس

442-415-398-255-107-96

وزان

287-281-265-258

وهران

315-81

يقدم هذا الكتاب دراسة تاريخية مقارنة لمؤسسة المخزن في عهدي أحمد المنصور السعدي (نهاية القرن 16م - بداية القرن 17م) والمولى إسماعيل العلوي (نهاية القرن 17م - العقد الثالث من القرن 18م). ومن ثم ينظر في تطور هذه المؤسسة، وعلاقاتها بالسكان، ويبحث في مظاهر الاستمرارية والقطيعة التي ميزت ركائزها وممارساتها، كما يستجلي الثوابت والتحولت في بنياتها. وذلك بالرجوع إلى دراسة القاعدة المادية للسلطة المخزنية في عهد السلطانين، مثل الآلة العسكرية وتدبير الشؤون الدينية والسياسية والاقتصادية والدبلوماسية، على خلفية سياق تاريخي اتسم بتسارع وتيرة النهضة الأوروبية والمد العثماني.